الدكتور حسن محمد باجودة

الوحدة الموضوعية في سورة يوسف عليه السلام

الطبعة الثانية
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م
جدة - المملكة العربية السعودية

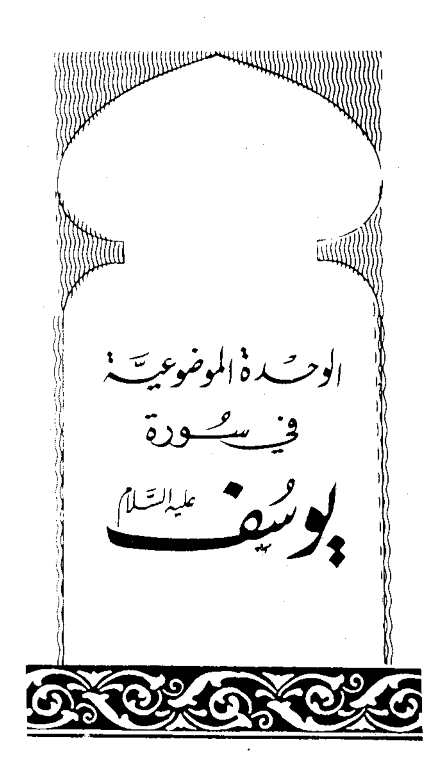


بسم الله الرحمن الرحيم

الناشر

تهامة

جدة - المملكة العربية السعودية
ص.ب ٥٤٥٥ - هاتف ٦٤٤٤٤٤٤


الوحدة الموضوعية
في سورة
يوسف عليه السلام

الإهداء ..

إلى زوجتي ...





مقدمة الطبعة الثانية

أحمد الله تعالى حمداً كثيراً وأصلّي وأسلّم على خاتم أنبيائه وبعد :
فهذه هي الطّبعة الثّانية من هذه الدّراسة المتأملّة لسورة يوسف عليه السّلام ، وعنوانها : « الوحدة الموضوعيّة في سورة يوسف عليه السّلام » . أقدّمها لكلّ متدبّرٍ لكتاب الله تعالى بعد نفاد الطّبعة الأولى من عدّة سنوات ، وحيلولة المشاغل دون العمل من أجل إعادة طبعه ، فقد أعان الله تعالى وفي زهاء ألفي صفحة على إتمام دراسة عشر سورٍ دراسةً متأمّلة في سلسلة هذه الدّراسات وحدها وهي على النّحو التّالي: مريم . يس . الإسراء . الفرقان . العاديات . النّازعات . الحاقة . الرّعد . محمد عليه السّلام . الفاتحة . وإنْ شاء الله تعالى سترى دراسة سورة الأحزاب النورَ في وقتٍ ليس بالبعيد .

وأودّ في هذه المقدّمة أن أسجّل بعض فضل الله تعالى عليّ من جهة هذه الدّراسات . فهذه الدّراسة مثلاً أثارت الكثير من النّقاش والحوار مع فريقٍ من العلماء في العديد من التخصصات ، لأنّ شخصيّات قصّة السّورة الكريمة أوجدت المجالات المتعدّدة للمناقشة والحوار من قبل فريقٍ من المتخصّصين بما في ذلك المهندس والطبيب وعالم النّفس . فهذا مهندس يجد في تفوّق يوسف عليه السّلام ، بإلهامٍ من الله تعالى ، في مجال الزّراعة ، وخاصّةً فيما يُسمّى بالرّيّ والصَّرْف مجالاً كي يبيّن الطّريقة للرّيّ الّتي وفّق الله تعالى يوسف عليه السّلام لاكتشافها والّتي تنسب إليه . وهذه الطّريقة تتعلّق بريّ الأراضي المرتفعة عن مستوى ماء النّيل .
وقد ألهم الله تعالى يوسف عليه السّلام بأن يكتشف نظام النّواعير .

إذ تظلّ الواحدة تلو الأخرى ترفع الماء إلى أعلى ، حتى إذا وصل الماء إلى المنطقة العليا أمكن توجيهه لريّ كلّ الأراضي المنخفضة عن تلك المنطقة العليا . وهذا طبيب يجد في شخصيّة العزيز على جهة الخصوص مجالاً لعقد مقارنةٍ بين العزيز الذي كان له موقفٌ سلبيّ تجاه ثبوت تهمة زوجه في مراودتها ليوسف عليه السّلام، الطّاهر الذّيل العفيف، وبين العديد من الحالات المشابهة التي مرّت به كطبيب ، لشخصيّات كانت تصرفاتها لعجزها الجنسيّ من جنس سكوت العزيز عن المنكر مقابل سكوت الزّوجة عن العجز الجنسيّ . وهذا عالمٌ من علماء النفس يجد في الدراسة مجالاً لعقد ندوةٍ عنها ، وقد كان ذلك من قبل رئيس قسم الدّراسات الدّوليّة والحضاريّة بكليّة جلبرن بأستراليا للدّراسات العليا التربوية ، ولم يقدَّر لي أن أشهد النّدوة ولم أسمع بعد ما دار فيها حيث إني لم أحصل بعد على شريط تسجيلها ، ولكنّي أعلم أنّ رئيس القسم هذا قرّر ترجمة الكتاب إلى الانجليزيّة ، وحسب علمي وصلت التّرجمة إلى ما يزيد على ثلث الكتاب .

وإذا نحن تجاوزنا الحديث عن جائزة البحث العلميّ التي منحتها جامعة الملك عبد العزيز للمؤلّف بتاريخ ١٣٩٤/٤/٨ هـ الموافق ١٩٧٤/٤/٣٠م وتجاوزنا النّقد الصّادق للدّراسة والذي ركّز – إلى جانب الإيجابيّات – على ما في الدّراسة من تكرارٍ غير مخلّ ، حسب تعبير بعض الأساتذة ، إذا نحن تجاوزنا ذلك إلى رسالةٍ واحدة بالذّات تلقّاها المؤلّف عن هـــذا الكتاب من عالمٍ ووزيرٍ للأوقاف بأحد الأقطار الإسلامية ونائبٍ لرئيس الوزراء للشؤون الدّينيّة بها ، أمكن أن يقتطف منها ما يلي : « وسعدت بما فيه من وفرةٍ في الاطّلاع والتنقيب وعمق الفكر . وقد كان تحليلكم لشخصيّة سيّدنا يوسف عليه السّلام ، وهي المحرّكة لكلّ أحداث القصّة ، والمراحل التي مرّ بها خلال حياته المجيدة ، تحليلاً موفّقاً مثاباً عليه إن شاء الله » .

وهذه الدّراسة ، ككلّ دراسة ، بمرور الوقت يتبيّن بشأنها بعض الملاحظات والإضافات . ويمكن لكلّ تلك الملاحظات والإضافات أن تكون هامشيّة . ويصحّ إلحاقها ، وقتاً من الأوقات ، بالدّراسة أو جمعها في مقال . وثمّة نقطةٌ واحدةٌ بعينها هي التي نحتاج إلى تدوينها هنا ، رغم أنّنا بادرنا بتسجيلها في أوّل مناسبة وكان ذلك في تأملاتنا لسورة الحاقّة وأثناء تأمّلنا للآية الكريمة التّاسعة . قال تعالى : « وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة » . وهذه النّقطة هي المتعلّقة باستعمالات القرآن الكريم لجملتي « جاء » و « أتى » ولكل منهما دورُها الفعّال في سورة يوسف . ومع أنّنا سجّلنا هذه النّتيجة في غير ما موضع من دراستنا المتأملة ، فإنّنا نودّ أن نسجّل هنا كذلك هذه النّتيجة لعلاقتها الوثيقة بسورة يوسف عليه السّلام ولقدرتها على إعطاء التصوُّر الدقيق لسير أحداث القصّة . أمّا هذه النّتيجة فتتلخّص في كون جملة « جاء » ومتعلقاتها لا تستعمل في القرآن الكريم إلاّ دليلاً على القُرْب الزّماني ، أو المكاني ، أو النفسيّ . وكون جملة « أتى » ومتعلقاتها لا تستعمل في القرآن الكريم إلاّ دليلاً على البُعْد الزّماني ، أو المكاني ، أو النّفسيّ . ونبادر بذكر مثلٍ واحدٍ نكتفي به ، يتبين منه علاقة جاء بالزّمن القريب وأتى بالزّمن البعيد . جاء في سورة الأعراف(١) على لسان قوم موسى وعلى لسانه عليه السّلام قوله تعالى : « قالوا أُوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا . قال عسى ربُّكم أن يُهلِك عَدُوَّكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون » .

وبما أنّ الطّبعة الأولى ، بسبب أزمة الورق أثناء الطّبع ، قد حذفت المعجم المفهرس لألفاظ السّورة الكريمة ، ونظراً لأهمية هذا المعجم المستقل للسّورة الكريمة ، وأملنا أن يكون نواةً لمعجم مفهرس لكلّ سورةٍ

---

١ ـ الآية ١٢٩ .

من سور القرآن الكريم على حدة ، فقد أعدنا بفضل الله تعالى هذا المعجم في هذه الطّبعة الثّانية إلى موضعه الأصلي . وبالله التوفيق .

نسأل الله تعالى أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم وأن يتقبل منّا صالح أعمالنا إنّه سميع مجيب . وصلّى الله على سيّدنا محمّد النبيّ الأمّيّ وعلى آله وصحبه أجمعين وسلّم تسليماً كثيراً . والحمد لله رب العالمين .

مكّة المكرّمة
يوم الاثنين ١٤٠١/١/١٦ هـ
الموافق ٢٤ نوفمبر ١٩٨٠ م

د. حسن محمّد باجوده
أستاذ الدّراسات القرآنيّة البيانيّة
جامعة أم القرى
بمكّة المكرّمة

مُقَدّمة

هذا العمل « الوحدة الموضوعيّة في سورة يوسف عليه السّلام » يتكون من أربعة فصول :

في الفصل الأوّل حاولنا توضيح وحدة الأحداث الموضوعيّة في سورة يوسف بشقّيها القصصي والتعقيبيّ ، في ضوء فهم الوحدة الموضوعية ، بأن يكون العمل متماسكاً إلى أبعد درجات التماسك بحيث إنّ كلّ جزئية تفضي إلى الّتي تليها ، ولا يمكن حذف جزئيّة واحدة ، لأن العمل يستغنى عنها ، أو إضافة جزئيّة أخرى يفتقر إليها . كما بيّنا حقيقة كون القرآن الكريم جمع أحسن ما يكون الجمع بين النّاحيتين الفنيّة والدينيّة ، وأنّ الناحية الفنيّة وسيلة دائماً للناحية الدينيّة ويستحيل فصل الواحدة عن الأخرى وأن الغرض الذي تهدف إليه السورة بقسميها القصصيّ والتعقيبي ، هو تثبيت فؤاد النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وإن اختلفت طريقة كل من القسمين في الوصول للغرض ، الأوّل وفي بالغرض بطريق غير مباشر إذ التمّ شمل آل يعقوب أخيراً ، والثاني وفي بطريق مباشر يعتبر تطوراً طبيعياً للطريق الأوّل .

وإذا كان القسم الأوّل حقّق غرضه في نغم موسيقيّ قصصيّ مؤثر في الوجدان محرّك للعقل ، فإن الطريق الثاني ، الذي يعتبر تطوُّراً طبيعياً للأول والذي كان نصيب العقل فيه موفوراً ، حقّق غرضه في نغم موسيقي آخر متمشياً مع هذا التطوُّر ، ترتاح له النفس المدركة لضرورة هذا التنويع وقيمته .

وفي الفصل الثاني الخاصّ بالشخصيات درسنا الشخصيّات الّتي لها دور فعال في دفع أحداث القصّة إلى الأمام ، وقد مررنا سريعاً بالشخصيّات

التي لها أدوار خاطفة ، تلا ذلك دراسة شخصيّات الفئة الثانية في القصّة . وقد أمكن دراسة بعض الشخصيّات منفردة ، ولكن بما أنّ هناك مجموعات من الشخصيات تفاعلت بالدرجة الأولى حول قضية معينة ، لذلك درسنا كل مجموعة كتلة واحدة .

تلا ذلك دراسة الشخصيات الرئيسيّة في قصة يوسف عليه السّلام ، التي أشارت إليها الآية التي جاءت على لسان يوسف عليه السلام قاصاً رؤياه على والده نبيّ الله تعالى يعقوب عليه السلام . قال تعالى : « إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين » وقد فسّرَ الأحد عشر كوكباً بأنهم إخوته ، والشمس بأنها والده ، والقمر بأنه والدته .

وبما أن التفاعل خلال القصة كان الغاية في القوّة بين الإخوة من ناحية ، ويعقوب من ناحية أخرى ، والإخوة فيما بين أنفسهم أيضاً ، لذلك جمعنا في دراسة الشخصيات بين يعقوب وإخوة يوسف .

وبما أن يوسف عليه السلام ، منذ أخذ إخوته له معهم كي يرتع ويلعب ، بل منذ فجر القصة ، هو المحرّك الأوّل لما يجري في آل يعقوب ولكل أحداث القصة ، لذلك أفردنا في الفصل الثالث هذه الشخصية المباركة بالدراسة .

وقد بينا كيف تطوّرت شخصيات الإخوة حيث الصّلاح والخير . وكيف نمت بذرة الصلاح التي جاءت الإشارة إليها في قوله تعالى على لسانهم: « اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين » . وحينما رجع الإخوة إلى مصر في الرّحلة الثالثة بنفوس وقلوب غير السابقة . لم يتردّد يوسف عليه السلام ، الذي كان عزيز مصر آنذاك ، في الكشف عن حقيقة نفسه .

كما بينا كيف ضرب يعقوب عليه السلام المثل الأعلى في الإيمان المطلق بالله تعالى ، حيث إن اليأس من روح الله تعالى لم يجد له وقتاً من الأوقات إلى نفسه عليه السلام سبيلا . وكان عليه السلام خير محرّك للأحداث بحسن تلقيه لها لصبره صبراً جميلا واحتسابه . وقد أثابه الله تعالى بلمّ شمل آل يعقوب ، وفيهم يوسف ، ابنه الحبيب .

أما شخصية يوسف عليه السلام فإنها المحركة لكل أحداث القصة في سورة يوسف بلا استثناء ، بطريق مباشر أو غير مباشر ، في حضوره أو غيابه على السواء . وقد بينا المراحل الثلاث التي مرّ بها عليه السلام خلال حياته المجيدة .

الأولى : مرحلة الغلام المحبوب من والده ذي النفس الصافية المشرقة ، وتنتهي بوضع إخوته العشرة لأبيه له في غيابة الجبّ .

الثانية : مرحلة اختبار الله تعالى له بالابتلاء . منذ وضع إخوته له في غيابة الجبّ حتى ثبوت براءته وخروجه من السّجن . وهذه المرحلة تنقسم إلى قسمين :

الأوّل في بيت عزيز مصر ، والثاني في السجن الذي زجّ به فيه جزاء عفّتـــه .

الثالثة : مرحلة اختبار الله تعالى له بالنّعماء ، بتعيين ملك مصر له في منصب عزيز مصر الذي كان آنذاك شاغراً حتى اجتماع شمل آل يعقوب في مصر وتعبير رؤياه .

أمّا الفصل الرابع فذو شقّين : الأول يتحدث عن المجتمعات في سورة يوسف ، المجتمع المكّي ونظائره ، والمجتمع الشامي ، والمجتمع المصري . والثاني يتحدث عن الدروس المستفادة من سورة يوسف عليه السلام .

وقد وضعنا بين يدي البحث سورة يوسف ، لأن دائرة البحث

لا تكاد تتعدّى هذه السورة كما ذيّلنا البحث بمعجم مفهرس لألفاظ هذه السورة ، منقول بكامله من المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، وضع الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي . ولم يُضَفْ إليه سوى هذه المادّة « ذلك » للدور البارز لهذه المادة في سورة يوسف . وقد قمت بشأن المعجم المفهرس لألفاظ سورة يوسف بالتجربة التي قام بها الأستاذ عبد الباقي في كتابه ، كما أشار إلى ذلك في قوله:« ولما كنت أخشى أن تسقط منيّ لفظة في أثناء النسخ ، فقد لجأت إلى طريقة عددتها أنجح الطرق وأضمنها للحصر والإصابة، ذلك أنيّ كنت – بعد تصحيح التجربة الأخيرة – أضع خطاً في مصحف أعددته لذلك على كلّ لفظة ورد ذكرها فيها . حتى إذا انتهى الكتاب ، رجعت إلى المصحف وعرضته لفظة لفظة » .

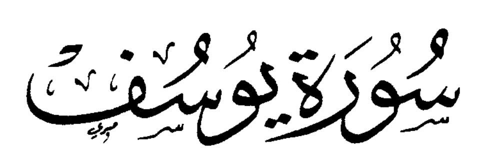
والأمر الذي أشهِدُ الله عليه هو أني لم أشأ لحظة من اللحظات أن أحمّل حرفاً واحداً في كتاب الله تعالى شيئاً فوق ما يحتمل .

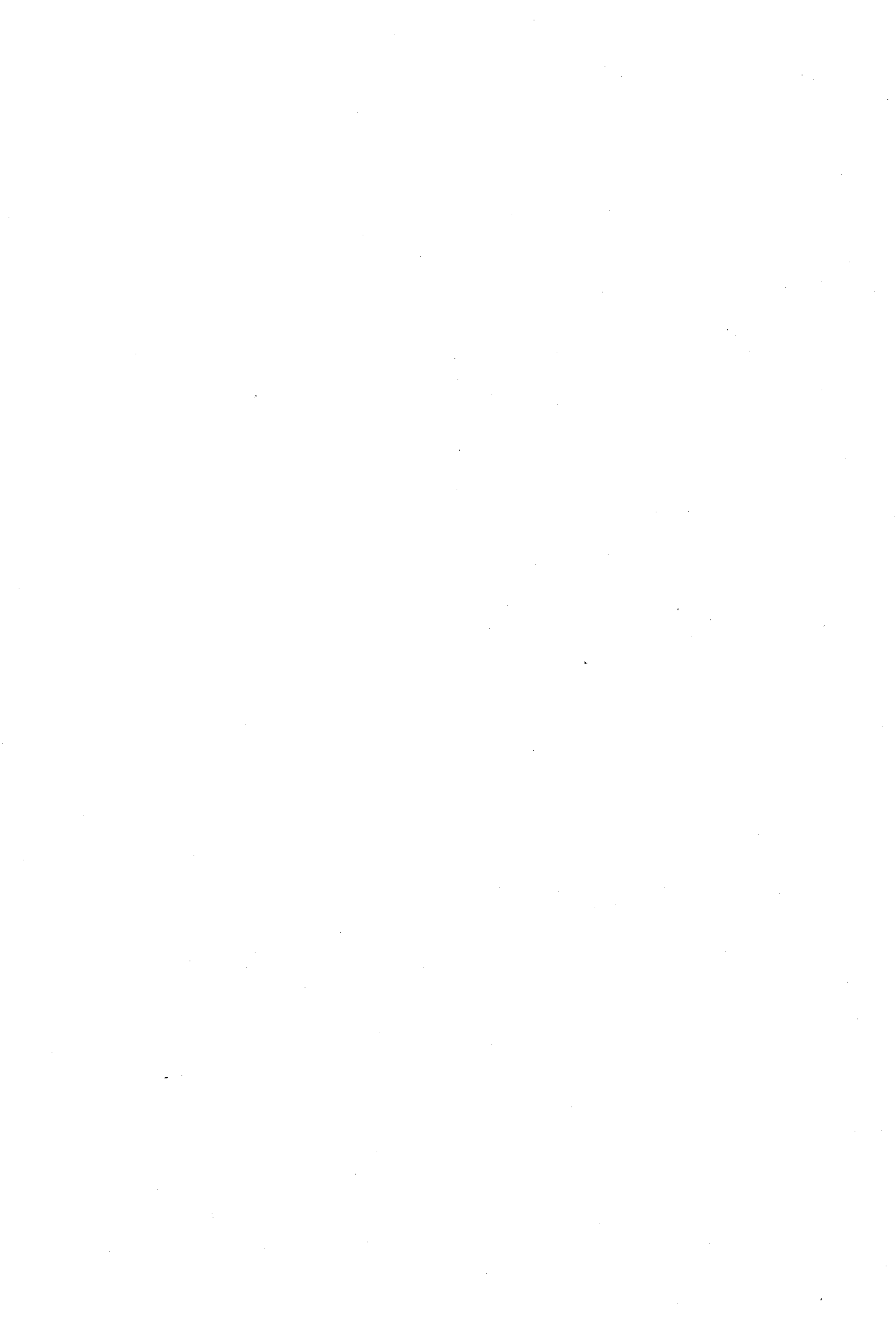
ومن كانت له على هذا العمل أية ملاحظة ، فلا يتردّد في إبدائها ، فالحق أحقّ أن يتّبع .

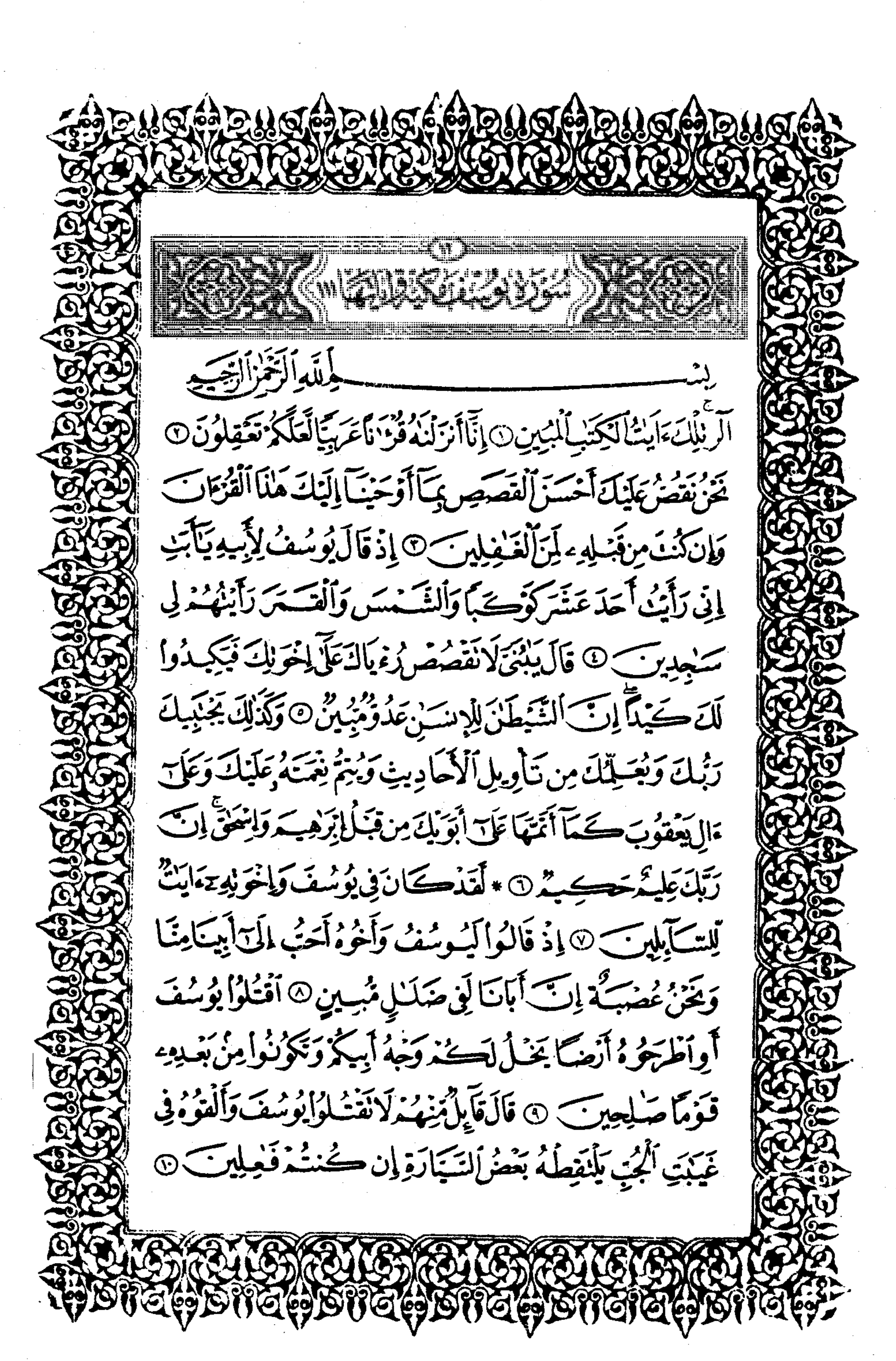
والله أسأل أن ينفع بهذا العمل ويتقبل منا صالح الأعمال ويسدّد خطانا وينير لنا السّبيل ، إنه على كلّ شيء قدير . « سبحان ربك ربّ العزة عما يصفون ، وسلامٌ على المرسلين والحمد لله رب العالمين » . وصلى الله على سيدنا محمد النبيّ الأميّ وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

مكة المكرمة السبت غرة جمادي الأولى سنة ١٣٩٣هـ ٢ يونيو١٩٧٣م

د. حسن محمد باجوده
أستاذ الدراسات القرآنية البيانية
بجامعة الملك عبد العزيز
بمكة المكرمة


سورة يوسف





١٢ سورة يوسف مكية وآياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

الر تلك ءايت الكتب المبين ١ إنا أنزلنه قرءنا عربيا لعلكم تعقلون ٢
نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرءان
وإن كنت من قبله لمن الغفلين ٣ إذ قال يوسف لأبيه يأبت
إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي
سجدين ٤ قال يبني لا تقصص رءياك على إخوتك فيكيدوا
لك كيدا إن الشيطن للإنسن عدو مبين ٥ وكذلك يجتبيك
ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى
ءال يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبرهيم وإسحق إن
ربك عليم حكيم ٦ * لقد كان في يوسف وإخوته ءايت
للسائلين ٧ إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا
ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلل مبين ٨ اقتلوا يوسف
أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده
قوما صلحين ٩ قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في
غيبت الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فعلين ١٠

قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ١١ أَرۡسِلۡهُ
مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ١٢ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن
تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ١٣
قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ١٤
فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ
إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٥ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ
عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ١٦ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا
يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا
صَٰدِقِينَ ١٧ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ
أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨ وَجَآءَتۡ
سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ
وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٩ وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۢ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ
مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ٢٠ وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن
مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ
وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ
وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١ وَلَمَّا
بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٢

وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ
هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ
ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ
لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾
وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا
ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ
قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ
قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن
دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ
هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ * وَقَالَ
نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا
حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ
إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا
وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ
وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾
قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ

فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ
الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا
تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾
فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾
ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ
مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ الْآخَرُ
إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ۖ
إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا
نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ۚ
إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾
وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ
لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى
النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَا صَاحِبَيِ
السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾
مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ
وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ
أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ۖ

وَأَمَّا ٱلْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى
فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ
رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾
وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ
وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى
رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا
نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ
بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا
ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ
سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ
فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ
سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ
يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾
وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ
فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ
عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ

قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ
حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾
ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾
۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ
رَبِّىٓۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ
لِنَفْسِىۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾
قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ
مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ
بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ
ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَآءَ إِخْوَةُ
يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾
وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ أَلَا
تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى
بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ
عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ
فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا

مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ
لَحَٰفِظُونَ ٦٣ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ
أَخِيهِ مِن قَبۡلُ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٦٤
وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا
نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا
وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ٦٥ قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ
مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ
بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٦٦
وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ
وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ
وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٦٧ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ
أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي
نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ
ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦٨ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ
قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٦٩ فَلَمَّا
جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ
مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ٧٠ قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم

مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ
وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ
وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾
قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي
الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا
مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي
دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ
ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ * قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ
فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ
مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا
شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ
مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا
لَّظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ
أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن
قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ
يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ
فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا
كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي

أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ
فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾
وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ
ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ
تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى
وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟
فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا
يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟
عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا
بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ
يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ
إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠
يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ
ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا
وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ
ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا
فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾

وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾

وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾



الفصل الأول

وحدة الأحداث الموضوعية في سورة يوسف



وحدة الأحداث الموضوعية في سورة يوسف

حينما درَس النّقاد المسرحية والقصَّة ، وهما من الفنون الأدبية المستحدثة في اللغة العربية ، تبين لهم أن الوحدة الموضوعية من أهمّ الشُروط التي يجب توافرها في العمل الأدبيّ . ونحن حينما نتكلم عن الوحدة الموضوعية في سورة يوسف ، لا نريد البتّة أن نقارن بين القرآن من جهة والفنون الأدبية من جهة أخرى . إنّما نُريد أن نوضّح تلك الوحدة الموضوعية ، ونبيّنَ التماسك العضويّ ونؤكّد الترابط الفني الدقيق .

فما المراد بالوحدة الموضوعية ؟

المرادُ بالوحدة الموضوعيّة أن يكون العملُ الفنيُّ متماسكاً إلى أبعد درجات التماسك بحيث إنّ كل جزئيّةٍ تفضي إلى التي تليها ، ولا يمكن حذْفُ جزئيةٍ واحدة لأنّ العمل الفنيّ يستغني عنها أو إضافةُ جزئيّة أخرى يفتقر إليها . وينبغي أن نقرّر ابتداءً أنّ القرآن الكريم يجمع أحسن ما يكون الجمع بين الناحيتين: الفنية والدينية ، وأن الناحية الفنية وسيلة دائماً للناحية الدينية ويستحيل فصل الواحدة عن الأخرى .

ومعروف أن سورة يوسف تتكون من قسمين : القسم القصصي والقسم التعقيبي .

وسنتناول القسم القصصي ابتداءً .

" القسم القصصي "

لقد بدأت القصة بالإشارة إلى الرّؤيا التي رآها يوسف عليه السلام . قال تعالى : « إذ قال يوسف لأبيه يا أبت . إنيّ رأيتُ أحد عشر كوكباً والشّمس والقمر رأيتُهم لي ساجدين . قال يا بنيّ لا تقصص رؤياك على

إخوتك فيكيدوا لك كيداً إنَّ الشّيطان للإنسان عدوٌ مبين ، وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتمُّ نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمّها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق ، إنّ ربك عليم حكيم » .

إنَّ للرُّؤيا في هذه السورة دوراً كبيراً في دفع أحداث القصَّة إلى الأمام ، فقد فُسِّر الشّمس والقمر بوالدي يوسف ، والنجوم بإخوته . ويخاطب يعقوبُ ابنه بأنَّ الله عزَّ وجلَّ يصطفيه ويعلمه من تأويل الأحاديث . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رؤيا المؤمن جزءٌ من أربعين ، وفي رواية جزء من ستّةٍ وأربعين جزءاً من النبوّة »(١) وهي أوّل ما بُدِئَ به النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مِثلَ فلق الصُّبح(٢) .

وإن الشخصيات التي تدور حولها القصة قد ذكرَتْ منذ البداية ، وهناك إشارة إلى الصراع المنتظر حينما نصح يعقوب ابنه ألا يقصَّ رؤياه على إخوته . لقد كان جلُّ الإخوة متفقين على حسدهم ليوسف وتخلُّصهم منه . ولكنهم كانوا مختلفين في طريقة التخلُص .

فمنهم من آثر قتله . ومنهم من آثر أن يُطرَحُ أرضاً بعيدةً احتمال نجاته منها قليل . ولكنَّ أخاً منهم رأى إلقاءه في غيابة الجب ، وبذلك تتحقق الرغبة في التخلص منه ، ولكن احتمال نجاته هنا أكثر . وهذا الرأي هو الذي ارتضاه الجميع أخيراً . قال تعالى:« إذ قالوا ليوسف وأخوه أحبُّ إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلالٍ مبين ، اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين ، قال قائلٌ منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجبّ يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين » .

---

١ ـ مؤتمر تفسير سورة يوسف ١/١٩١ .
٢ ـ صحيح البخارى ١/٥

وتبدأ المحاولة من إخوة يوسف لأخذه وإلقائه في غيابة الجب ، ولكن جواب يعقوب كان معمقاً فيهم غريزة الحسد ليوسف ؛ إذ تضمن سبب الحسد وهو حب يعقوب له وخوفه عليه « قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنّا على يوسف وإنا له لناصحون ، أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون ، قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون ، قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذن لخاسرون » وهكذا نجد أن الإشارة إلى الذئب الذي نسب إليه الفتك بيوسف قد جاءت مرتين فعندما يدّعي الإخوة مستقبلاً أن الذئب أكل يوسف ، فلن تكون هذه الدعوى غريبة على أنفسنا ولا مفاجئة لما استقرّ في الأنفس من ملازمة الغدْر بالذئب ، خاصّة مع الضّعاف . إنّ النفس مهيّأة لتلقيّ مثل هذا الاتهام . والشّيء نفسه يقال عن السيارة الذين أخذوا يوسف من الجب وباعوه . فقد مرت لفظة السيّارة والإشارة إلى عملية الالتقاط من قبل « يلتقطهُ بعض السّيارة إن كنتم فاعلين » . وَبيْعُ يوسف أيضاً في ذلك العصر الذي يُتعامل فيه مع المماليك ، ليس مفاجئاً لنا ؛ فإنّ خوفهم أن يُسألوا عن مصدر ذلك الغُلام طبيعيّ ، لهذا آثروا التخلُصَ منه وبَيعَهُ بثمن بخس . « وشَروه بثمنٍ بخسٍ دراهم معدودةٍ وكانوا فيه من الزّاهدين » .

يوسف في بيت العـزيز :

ويصل يوسف إلى مصر ، ويكرمه عزيزها الذي اشتراه من السيارة ، ويوصي زوجه أنْ تكرِمِ الغلامَ وتنزلهُ منها منزلة الولد ، تماماً كما نزله هو . وهذا شيء طبيعيٌّ من زوجين ثريّين ليس لهما ذرّيّة ، صادفا غلاماً وسيماً توسّما فيه خيراً . وبلغ يوسف في ذلك البيت أشُدّه . قال تعالى: « ولمّا بلغ أشدّه آتيناه حُكْماً وعلماً ، وكذلك نجزي المحسنين » .

لقد آتاه الله تعالى حكمةً تُنْقِذُه من الورطة التي سيجد نفسه فيها ، وعِلماً يتيحُ له الوصول إلى أعلى الرّتب . وتتلخص الورطة في مراودة

امرأة العزيز له عن نفسه وإنقاذ الله تعالى له . فلنتأمّل هذه الآيات « وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلّقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي ، إنه لا يُفلحُ الظالمون ، ولقد همّتْ به وهمَّ بها لولا أن رأى بُرهان ربه كذلك لنصرف عنه السُّوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ، واستبقا الباب وقدّت قميصه من دُبر وألفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا إلا أن يُسجنَ أو عذاب أليم ، قال هي راودتني عن نفسي » لننظر إلى ذلك الصّراع النفسي الرَّهيب والموقف المهيب . مراودة وإصرارٌ من جانب ، واستعصام وإصرارٌ عليه من جانب آخر . ولنتمثّل تلك الحركة التي قام بها يوسف الذي يريد الفرار بدينه ، والتي قامت بها امرأة العزيز مستمسكة به حتى قدَّت قميصه من دُبُر . ووجود الزوج على الباب واتّهام الزوجة ليوسف وجوابه الحاسم : « قال هي راودتني عن نفسي » . لو أن في نية يوسف عليه السلام ذرّة من غير حسنِ القصْد ، لما جرؤ على النطق بهذا القول الذي يغيظ الزّوجة التي لو سمعت منه قولاً آخر يُفيد إمكانية طواعيّته لها لسعتْ إلى إنقاذه من تلك الورطة ، وهي ذات المنزلة الكبيرة . إن جواب يوسف جواب من كانت نيته صادقة ونفسه طاهرة نقية .

ويقوم بإرادة الله تعالى العقل النيرُ بدوره خير قيام ، ويُنقذُ الفتى من هذه الورطة لحين ، وذلك حينما تم شهادة شاهد من أهلها ضدَّها . « وشهد شاهدٌ من أهلها إن كان قميصهُ قُدَّ من قُبل فصدقتْ وهو من الكاذبين . وإن كان قميصهُ قدَّ من دُبُر فكذبت وهو من الصادقين . فلما رأى قميصه قُدَّ من دُبُر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم . يوسف أَعْرِض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين » . وتأمّلْ تقديمَ الشاهد من أهلها « إنْ كان قميصهُ قُدَّ من قُبل فصدقت وهو من الكاذبين » فهذا يوافق رغبته ومنيته في ثبوت براءتها . وتأخيره بل واضطراره

لعقد هذه المقابلة المنطقية « وإن كان قميصهُ قُدَّ من دُبُر فكذبتْ وهو من الصادقين » وهذا يخالف هواه .

ومع ذلك فقد أحق الله الحق وأزهق الباطل .

على أن ما دار بين امرأة العزيز ويوسف وتبين حقيقة موقفها لاكته ألسنة النسوة في المدينة . وهذه الغيبة طبيعية من نسوةٍ عشْن في مجتمع لاهٍ عابث ، وخير دليل على فساد ذلك المجتمع هو أن العزيز لا يخطر بباله مجرَّد التفريق في المنزل بين زوجه من ناحية والفتى من ناحية أخرى . وهنا تصمـّم المرأة على توضيح عذرها أمامهن « وقال نسوةٌ في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حُباً إنا لنراها في ضلال مبين . فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهنّ وأعتدتْ لهنّ متكئاً وآتت كلَّ واحدةٍ منهنّ سكيناً وقالت اخرج عليهنّ فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهنّ وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم » .

لقد كسبت امرأة العزيز الجولة ، وانتزعت المبرر لتصرُّفها مع يوسف بهذا الإجماع منهنّ على إكبار جماله . فتعترّف أمامهن بأنها هي التي راودته عن نفسه وأنه تأبّى « قالت فذلكنّ الذي لمتنّني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم » . وفجأةً تتخذ من يوسف موقفاً أكثر صرامةً وإيجابيـّة فبعد أن كانت تراود يوسف في الخفاء وبعد أن اتهمته أمام زوجها « ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا إلا أن يُسجنَ أو عذابٌ أليم » إذا بها تأمره بأن يمتثل لما تريده « ولئن لم يفعل ما آمرهُ ليسْجنَنَّ وليكونَنْ من الصّاغرين » .

وواضحٌ أنها وقد ظهرت براءته من قبل ، أمام الشاهد وزوجها على أقلّ تقدير ، تكتفي الآن بالسّجن وما يرتبط به من صغار ، ولا تشير إلى العذاب الأليم الذي توعدته به وبالسِّجن أمام زوجها لأنـّها وقتها كان عندها اعتقاد باحتمال لصوق التهمة به أما الآن فالتُّهمة لاصقة بها . لذلك

تكتفي بالإشارة إلى سجنه وإلحاق الصّغار به . لأنها بحكم منزلتها وفساد المجتمع قادرة على ذلك .

وهُنا يفرّ الشاب الصالح يوسف إلى ربّه معلناً عجزه وقلة حيلته ، فيستجيب له الذي يجيب المضطرّ إذا دعاه ويكشف السوء . « قال ربِّ السجن أحب إليَّ مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصبُ إليهنّ وأكنْ من الجاهلين ، فاستجاب له ربهُ فصرف عنه كيدهنّ إنّه هو السميع العليم ، ثم بدا لهم من بَعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتّى حين » . وهكذا يكون الانسجام التام في تحقيق الغرضين ، الفني والدّيني معاً ، وهكذا يُزَجُّ بيوسف في السجن ظُلماً . وفكرةُ السجن هذه ليست غريبة علينا . فقد مرَّت الإشارةُ إليها صراحة من قبل أكثر من مرة . وتهيأت النفسُ لتقبلها .

« قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا إلا أن يُسجنَ أو عذابٌ أليم » « ولئن لم يفعلْ ما آمره ليُسجننَّ وليكونن من الصاغرين ، قال ربّ السجن أحبُّ إليَّ مما يدعونني إليه » .

يوسف فى السجن :

وفي السجن يكون دور آخر هامٌ للرُّؤيا ، حينما قصَّ الفتيان رؤياهما على يوسف ، وطلبا منه أن يعبرها لهما . لقد عرفنا ابتداء القصة رؤيا يوسف التي لمّا تعبرْ بعد . والآن تأتي رؤيا أُخرى لها دور كبير جداً في دفع أحداث القصة إلى الأمام فإن يوسف يُنسى في السجن ، ويكاد يبقى فيه إلى أن يُتوفى لولا إرادة الله تعالى ، التي شاءت أن يرى ملكُ مصر رؤيا يعجز الجميعُ عن تعبيرها ، وهنا يتذكّر الفتى الساقي يوسف المعبّر للرؤى الذي سبق أن عبرَ رؤياه ورؤيا صاحبه الفتى الخباز .

فما هي رؤيا الفتيين ؟ قال تعالى : « ودخل معه السجن فتيان ، قال أحدهما إني أراني أعصر خمراً وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي

خُبزاً تأكل الطيرُ منه ، نبئنا بتأويله . إنّا نراك من المحسنين » وماذا كان جواب يوسف ؟ وهل عبّر لهما الرؤيا مباشرة ؟ لنتأملْ هذه الآيات « قال لا يأتيكما طعامٌ ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ، ذلكما ممـا علّمني ربي ، إني تركت ملّة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ، واتبعتُ ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكنّ أكثر الناس لايشكرون يا صاحبي السجن أأربابٌ متفرقون خيرٌ أم الله الواحد القهار ، ما تعبدون من دونه إلا أسماءً سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلسطان ، إن الحكمُ إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلّا إياه ، ذلك الدين القيم ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون ، يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربّه خمراً ، وأما الآخر فيُصلب فتأكل الطير من رأسه ، قُضي الأمر الذي فيه تستفتيان » .

وواضح أنّ الآية الأخيرة فقط تتضمن تعبير الرؤيا ، أما ما سبقها فمقدمة لها .

فكيف نوفّق بين ما سميناه بالوحدة الموضوعية في هذه القصة وبين هذه المقدمة التي وضعها يوسف بين يدي تعبيره للرؤيا ؟ إننا ما دمنا نعرف أنّ الغرض الأهمّ لرُسل الله تبليغ الرسالة وإيصال الأمانة والدّعوة إلى الله الواحد الأحد ، فإنا نستطيع أن نقول بكلّ ثقة واطمئنان إنّ هذه المقدمة بين يدي تعبير يوسف للرؤيا جزء لا يمكن أن يتجزأ بحال من الوحـدة الموضوعية لهذه القصة . فها هو ذا يوسف عليه السلام ، يقوم بهذا الدور في سجنه ، ولولا أنّه ضرب المثلَ الأعلى في حُسن الخُلق لما خصه الفتيان بطلبهما منه أن يعبر رؤياهما . وقد انتفع عليه السلام من هذه الثقة فيه فدعاهما إلى نبذ الأرباب المتفرقين وعبادة الله الواحد القهار . ثم هو قد مهّد لهذه الدعوة نفسها بما يكسب به قلبيهما ويستميلهما إلى دين الله بأنْ أشار إلى العلم اللدني الذي خصه الله به ، من استطاعته أن يعين لهما الطعام

قبل أن يأتيهما . لقد قدّم يوسف كلّ ذلك بين يدي تعبيره ، لأن ذلك هو الوقت المناسب لتقبل الدّعوة ، خاصة من ذلك الذي سيُصلب فتأكل الطير من رأسه . فلو علم بهذه النهاية الأليمة قبل أن يدعوه يوسف عليه السلام إلى دين الله . لما وجدت الدعوة نفساً مستعدة لتلقيها .

وهكذا اتّضح لنا أن ما قدمه يوسف بين يدي تعبيره للرُّؤيا جزءٌ لا يتجزأ بحال من وحدة القصّة الموضوعية .

وبعد أن فسّر الرؤيا يطلب من الذي ظنّ أنه ناج منهما أن يذكره عند سيده الملك ، وهذا شيء طبيعي جداً من شخص يسجنُ في الغُربة ظُلماً « وقال للذي ظنّ أنه ناج منهما اذكرني عند ربك ، فأنساه الشيطان ذكر ربّه فلبث في السجن بضع سنين » .

وهكذا تساوى طلبُ يوسف من الفتى أن يذكره عند سيده وعدم طلبه منه ذلك . وكاد يوسف يبقى في السجن حتى يُتوفّى ولكن رحمة ربّه كانت معه دائماً فشاءت إرادته أن يرى الملك رؤياه ، وهنا يأتي الدّور الثالث للرؤيا الذي يُحرك أحداث القصة ويدفعها قدماً . قال تعالى : « وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يأيها الملأ افتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون ، قالوا أضغاثُ أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » وهكذا يحدث الإجماعُ بجهل تعبير الرؤيا ، وهنا فقط ، وبعد هذه الفترة الطويلة جداً يتذكر الساقي الذي نجا منهما ، يوسف الذي تحقق بكل دقة تعبيره السابق لرؤياه هو وزميله الذي صُلب فأكلت الطير من رأسه . فيَعدُ في ثقة واطمئنان بأنه سيعبر رؤيا الملك .

ويلاحظ أن الساقي تذكر يوسف المعبر للرؤيا وليس صاحبه الذي طلب منه أن يذكره عند سيده الملك « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » . قال تعالى:« وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمّة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون ،

يوسفُ أيُّها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهنّ سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأُخرَ يابسات لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون ، قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلا مما تأكلون ، ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدّمتم لهن إلا قليلاً مما تحصنون ، ثم يأتي من بعد ذلك عامٌ فيه يغاث الناس وفيه يعصرون ، وقال الملك ائتوني به » .

وهكذا وَصلَ تعبيرُ الرُّؤيا المقنع إلى أسماع الملك الذي يأمر بأن يؤتى إليه بيوسف ، ويلاحظ أن يوسف الحريص على نجاح رسالته لم يبخل على القوم الذين ما زالوا يسجنونه ظُلماً بتعبير الرؤيا التي يهمُّهم تعبيرها ، لا بل أنه أخْلصَ النصيحة للقوم ومنحهم ما مَنّ الله تعالى عليه به من علم عن العام الخامس عشر . فما موقف يوسف من طلب الملك ؟

إنه يعرف يقيناً أن بقاءه في السجن في تلك المدة الطويلة قدر من الله عزّ وجلّ فيصبر ويمتثل . وحينما يطلبه الملك لمقابلته لا يفرح لخروجه من السجن ولا تهمه هذه المقابلة وما سيترتب عليها في قليل أو كثير ، إنما الذي يهمه حقاً هو أن يعرف الجميع أنه إنما زُجَّ به في السجن ظُلماً وعُدْواناً .

وهنا يبدو الخلقُ العظيم الذي يتحلى به كلُّ نبي فيمسُّ عليه السلام المسألة مساً رفيقاً فلا يتعرض لامرأة العزيز ، السبب الأول في كلّ ما حلّ به إنما يتعرض لجماعة النسوة اللاتي قطّعن أيديهن « فلما جاءه الرسول قال ارجعْ إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إنّ ربي بكيدهنّ عليم » ولنتأملْ سؤال الملك للنسوة المتضمن ثقته في براءة يوسف .

وتمت البراءة فعلاً على لسان النسوة ، وتوجها اعتراف امرأة العزيز بأنها هي التي راودت يوسف عن نفسه وأنه صادق في كل ما قال : « قال ما خطبكن إذ راودتُن يوسف عن نفسه ، قُلن حاش لله ما علمنا عليه

من سوء ، قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين » .

وهنا يبدو غيضٌ من فيض أدب يوسف عليه السلام وتواضعه الجم « ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين وما أُبرّيء نفسي ، إن النفس لأمارةٌ بالسُّوء إلا ما رحم ربي ، إن ربي غفور رحيم » .

يوسف عزيز مصر :

وبعد أن ثبتت براءة يوسف للملأ ، لا يكتفي الملك باستدعاء يوسف كما فعل من قبل ، بل يتخطى ذلك إلى استخلاصه لنفسه « وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي » وحينما جاء يوسف الذي رفض من قبل المجيء حتّى تثبت براءته ، يقول الملك له كما جاء في الآية « قال إنك اليوم لدينا مكين أمين » وهكذا يتضح أن تحرك أحداث القصّة إلى الأمام مستمر دائماً وأن لطهر يوسف عليه السلام وأمانته دوراً كبيراً في تلاحق المشاهد .

وحينما اتضح ليوسف إيثار الملك له بالمكانة العالية وثبوت أمانته عنده وتبين له حقيقة الشدّة التي ستعم الآفاق ، والمجاعة التي ستعض الناس ، وعرف بإلهام من الله عز وجلّ أنه خير من يحسن القيام على خزائن أرض مصر لذلك لم يتردد عن القول كما جاء في الآية « قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم » فالمصلحة العامة هي التي تدفع يوسف إلى ترشيح نفسه لهذا المنصب الشاغر آنذاك لهذا العمل الجليل الذي يحتاج إلى أمانة وعلم . وتمّ ليوسف ما أراد ، وأصبح عزيز مصر ، ولعل سعادة الملك بتلبية طلب يوسف المكين الأمين عنده لا تقل عن سعادته عليه السلام بتهيؤ فرصة العمل الجاد النافع كي يستفيد من منصبه قوة تعينه على الدعوة لدين الله تعالى الذي ارتضى لعباده . وكان ذلك بعض جزاء الله له على إحسانه ، في الدنيا قبل الآخرة . فالذي ينتظره في الآخرة لا يعلمه إلا الله تعالى .

قال تعالى : « وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث

يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ، ولأجر الآخرة خيرٌ للذين آمنوا وكانوا يتقون » . إن القرآن الكريم الذي يهدف إلى سعادة البشر في الدّارين ليقرر حقيقة أن الآخرة خير من الأولى .

رحلة الاخوة الأولى الى مصر :

ومرت سنو الزرع السبع وأتت سبع الشدة ، كما جاء على لسان يوسف في تعبيره لرؤيا الملك . ولم تكن الشدة قصراً على مكان دون مكان ، ولا المجاعة وقفاً على جماعة دون جماعة ، وكان يوسف في السنين السّبع الأولى كما وصف نفسه « إني حفيظ عليم » .

ونفذ ما نصح به الآخرين « فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون » فكان عنده وقت الشدّة فائض عن حاجته ، ويستطيع إذن أن يساعد المحتاجين وطار ذكرُ يوسف الحسن في كل مكان وشُدّت إليه الرحال ، ومن بين الذين قصدوه للميرة إخوته قال تعالى:« وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون ، ولما جهزهم بجهازهم قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم ، ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين ، فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون ، قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون ، وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون . فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا مُنع منّا الكيلُ فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون . قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ، فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين ، ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا رُدّتْ إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ، ذلك كيلٌ يسير » .

وهكذا جاء إخوة يوسف إليه بعد هذه المدة الطويلة جداً . وكان طبيعياً أن يعرفهم وينكروه ، لأنه لم يكن يخطر ببالهم أصلاً أن يكون عزيز مصر

الذي أمامهم أخاهم يوسف الذي ألقوه في غيابة الجب ، ولعلهم كانوا يعتقدون احتمال هلاكه في صورةٍ من الصُّور الممكنة ، وما أكثرها ! وكان الكريم يوسف سخياً معهم بالذات إلى أبعد درجات السّخاء . ولم يكن شقيق يوسف قد جاء معهم ، لأن يعقوب كان يتعزّى به عنه ، ولكن يوسف كان يريد أن يُبقي شقيقه عنده تمهيداً لطلب أهله كلهم في الوقت المناسب وإبقائهم معه . فما هي الخطوات التي اتخذها يوسف في سبيل جلب شقيقه إليه وإغراء والده بالسماح له بمفارقته ؟

عرَفنا أن يوسف كان كريماً مع إخوته ، فجهزهم بجهازهم ، وكان على علم تام بحاجتهم الشديدة إلى الطعام وأنهم سيُضطرّون إلى العودة إليه ثانية للغرض نفسه . وهنا طلب منهم أن يأتوه بأخيهم من أبيهم ، شقيق يوسف ، ووعدهم بإكرام هذا الأخ إذا ما جاء وإكرامهِم ضِمنا لأنهم أثبتوا بالإتيان بالشقيق أنهم صادقون في كل ما يقولون ، وليس هناك داع لأن يظهر العزيز ارتيابه منهم مرّةً ثانية . وكان يوسف يتوقع الصُّعوبات التي تعترض مجيء شقيقه فشحذ هِمم الإخوة في الطلب بأنْ قَطع عليهم خطَّ العودة دونه ، بل طلب منهم صراحةً ألا يقتربوا منه إذا لم يكن أخوهم من أبيهم معهم « فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون » . وكانوا يتوقعون معارضة أبيهم الذي كان يتعزّى بالشقيق عن يوسف ويعرفون حاجتهم الملحة إلى الطعام ، لذلك تضمن جوابُهم الإشارة إلى المجهود العظيم الذي سيبذلونه مع والدهم في سبيل تحقيق رغبة العزيز « قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون » .

فهل اكتفى يوسف عليه السلام بهذا الوعد منهم ؟ لا لم يكتف ، وإنما وضع المغريات لهم بالعودة إليه ، فطلب من فتيانه أن يضعوا بضاعة (١)

١ ـ جاء فى « ظلال القرآن » ١٢/١٣ عن البضاعة (وقد تكون خليطا من نقد ومن غلات صحراوية من غلات الشجر الصحراوى ، ومن الجلود والشعر وسواها مما كان يستخدم فى التبادل فى الاسواق) .

الإخوة في رحالهم . وحينما يعودون إلى أهلهم يجدون البضاعة التي أصبحت حقاً للعزيز وهم الذين لا يستحلون حراماً فيتعجلون العودة . وفي ذلك حافز بالإضافة إلى الحوافز الأخرى على أن يعودوا إليه بشقيقه .

« وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون » .

ويجملُ بنا أن نتذكر تماماً هذا الصنيع من يوسف ، فهذه هي طريقته مستقبلاً في سبيل إبقاء شقيقه معه بعد أن جاءه . قال تعالى: « فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذّن مؤذّن أيتها العير إنكم لسارقون » .

ورجع الإخوة إلى أبيهم ، وكان أوّل ما تفوهوا به منَع عزيز مصر الكيل لهم مستقبلاً مبينين السّبب في ذلك وهو عدم وجود أخيهم معهم ، وأنه إذا ذهب معهم سينالون هم وإياه ما نالوا من قبل ، ولم ينس الإخوة ما سبق أن فعلوه مع يوسف لذلك استدركوا على أنفسهم بحفظ أخيهم في صيغة التأكيد « لحافظون » وكأنهم ينفون عن أنفسهم التهمة اللاصقة بهم ، من عدم حفظهم ليوسف ، وكأنهم لا يريدون ليعقوب أن يتعرض لما حدث ليوسف فتورطوا فيما حاولوا الفرار منه « قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين » إن يعقوب عليه السلام على يقين من أن الله عز وجلّ خير من يحفظ وأنه أرحم منه بأبنائه .

وكاد الأمر يقف عند هذا الحد ، فلا يريد يعقوب أن ينكأ جراحه القديمة بإطالة الحديث عن يوسف ، ولا يجرؤ الإخوة الذين يلازمهم شبح جريمة إلقاء يوسف في الجب أن يثيروا الحديث في الميرة لأنها مرتبطة بأخيهم من أبيهم الذي يتسلى به يعقوب عن يوسف وهنا يلعب وضع يوسف البضاعة في رحالهم دوره فيخرج الإخوة من صمتهم والأب من تمسكه بشقيق يوسف بنيامين وتأخذ أحداث القصة في التقدم إلى الأمام .

« ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم رُدَّت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردَّتْ إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيلٌ يسير » .

وهكذا كان وجود ثمن البضاعة في رحالهم الذي لم يتوقعوه مطلقاً قادراً على جعل الإخوة يعودون إلى الحديث في الموضوع نفسه ليس في عجالة كما حدث من قبل بل في شيء من الطول . ونلاحظ فوق هذا أن روحهم المعنوية ارتفعت بعد وجودهم ثمن بضاعتهم ، فبعد أن اهتمّوا بمنع الكيل فقدموه في حديثهم من قبل إذا بهم الآن يهتمون بالحديث عن الطعام الذي يمكن جلبه وحفظهم لأخيهم ، وقد افترضوا سماح يعقوب لهم بأخذه معهم وزيادة كيل بعير هو نصيب هذا الأخ . كما اهتموا بالإشارة إلى كرم عزيز مصر بأن كيل البعير هذا هينٌ يسيرٌ عليه .

وقبل أن ننتقل إلى الحديث في موقف يعقوب الذي تغير نودّ أن نقف عند قول الإخوة عن الشقيق:« وإنا له لحافظون » فإنهم صادقون كلَّ الصّدق هنا . ولم يكونوا كذلك حينما قالوا عن يوسف:« وإنا له لحافظون » إذ لم يكونوا يحسدون الشقيق حسدهم ليوسف .

ثمَّ إن حُزن يعقوب على يوسف ، الذي لم يكونوا يتوقعونه بهذا العنف ، كان له أثرٌ فعالٌ في نفوسهم وفي نفس كبيرهم على وجه الخصوص كما سنرى .

ويعقوب عليه السّلام في تقريعه لهم يشير إلى الأمن الذي سبق أن تفوهوا به بصدد يوسف « قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون » . بقوله لهم كما جاء في الآية:« قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل » إن يعقوب كان يشعر بحسد الإخوة الشديد ليوسف ، وحينما طلبوا منه أن يرسله معهم غداً كي يرتع ويلعب لم يكن عنده دليلٌ حِسي يجعله قادراً على رفض طلبهم لذلك اكتفى بالتعبير عن حزنه على

ذهابهم به وخوفه أن يأكله ذئب من الذئاب المنتشرة في تلك الأصقاع ، أما الآن فإن عنده الأسباب التي تدفعه إلى رفض طلبهم بل وتقريعهم .

وكيف غير يعقوب من موقفه وخرج عن صمته ؟ قال تعالى على لسانه : « قال لن أرْسِله معكم حتّى تؤتون موثقاً من الله لتأتنني به إلا أن يحاط بكم ، فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل » . إن يعقوب كان على ثقة تامة من أنّ الله عزّ وجلّ هو الفعال لما يريد ، وإن شاء حفظ وإن شاء لم يحفظ ، لهذا هو يستدرك على قول الإخوة « وإنا له لحافظون » وقوله : « هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل » بالقول:« فالله خيرٌ حافظاً وهو أرحم الراحمين » فلا يكفي مثلاً حفظُ الإخوة إن لم يشأ الله حفظ أخيهم .

ولا تقاسُ مثلاً رحمةُ يعقوب بأبنائه برحمة أرحم الرّاحمين بهم ولكن يعقوب الحزين لفراق يوسف المتعزي بشقيقه عنه ، المكلوم من أبنائه الذين فرطوا في يوسف من قبل ، يطلب من هؤلاء الإخوة أن يعطوه عهد الله وميثاقه الذي يجعله يطمئن إلى أنهم سوف يأتون إليه بشقيق يوسف ولا يكونون سبباً في الحيلولة بينه وبين العودة إلى يعقوب . ولا يتعرّض يعقوب البتّة للقضاء والقدر وما يمكن أن يصيب الإخوة جميعاً مما لا يد لهم فيه ولا طاقة لهم على دفعه . لهذا جاء استثناؤه المباشر « إلا أن يحاط بكم » ولهذا اكتفى يعقوب بعد أخذ الموثق إلى الحديث عن هذا الموثق بأن الله عز وجل على ما نقول وكيل « فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل » .

ولا يقتصر خوف يعقوب الأب على يوسف وشقيقه بل يشمل كلّ أبنائه بطبيعة الحال ؛ لهذا كان يخاف عليهم إذا دخلوا من باب واحد أن تصيبهم العين فنصحهم ألاّ يدخلوا المدينة من بابٍ واحدٍ وأن يدخلوا من أبواب متفرّقة ، ولا ينسى أن يقرر أنّ ما أراده الله عز وجل سيحدث ،

وأنه من المتوكلين على الله ، وأنّ واجب كلّ مؤمنٍ التوكلُ على الله ، وأن التوقي ليس معناه عدم التوكل أو معارضة القضاء والقدر .

قال تعالى : « وقال يا بنيّ لا تدخلوا من بابٍ واحد وادخلوا من أبواب متفرّقة وما أغني عنكم من الله من شيء ، إن الحكمُ إلاّ لله ، عليه توكلت وعليه فليتوكلِ المتوكلون » .

رحلة الاخوة الثانية الى مصر :

وينطلق الإخوة متوجهين إلى مصر ويدخلون المدينة في الصورة التي طلبها منهم والدهم ، وهنا تشير الآية الكريمة إلى أنّ هذا الطلب من يعقوب لأبنائه ألاّ يدخلوا من بابٍ واحدٍ وأن يدخلوا من أبوابٍ متفرّقة خوف العين إنما كان بإيحائه من الله عزّ وجلّ ، وفي ذلك تأكيدٌ لحقيقة وجود الحسد ، وبواجب الإنسان أن يتوقّى ، وبأن التوقّي لا ينافي التوكل . قال تعالى : « ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيءٍ إلاّ حاجة في نفس يعقوب قضاها ، وإنه لذو علم لما علمناه . ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون » .

ودخلوا على يوسف أخيراً ، وقرّب إليه شقيقه بصفةٍ خاصّة ، وعرّفه بنفسه وطيّب خاطره ، وطلب منه ألاّ يستاء في نفسه لمعاملة إخوته السيّئة « ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه ، قال إنيّ أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون » .

والآن نتساءل : كيف احتفظ يوسف بشقيقه ؟

عرفنا أن يوسف وضع من قبل ثمن بضاعة الإخوة في رحالهم بقصد أن يضمن عودتهم إليه ومعهم شقيقه ، والآن هو يقوم بعمل من النّوع نفسه ، ولكن بقصد أن يبقى معه شقيقه . إنّ يوسف يضع من قبل ثمن البضاعة على أمل أن تكون سبباً في عودة الإخوة بالشقيق . والآن هو

يضع صواع الملك ، في رحل شقيقه بعد التفاهم معه بقصْد أن يبقى هذا الشقيق معه ، وعنده أملٌ كبيرٌ بعون الله عزّ وجلّ أن ينجح في هذا الإبقاء .

وهكذا يتضح أنّ وضع يوسف صواع الملك في رحل شقيقه ليس عملا غريباً علينا ولا مفاجئاً لنا فقد سبقه عملٌ من نوعه . وهكذا تسير الأمور كلها سيراً طبيعياً .

قال تعالى : « فلمّا جهّزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثمّ أذّن مؤذّنٌ أيتها العير إنكم لسارقون . قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون ، قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنابه زعيم ، قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين ، قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ، قالوا جزاؤه من وجِدَ في رحله فهو جزاؤه ، كذلك نجزي الظالمين » .

إن إخوة يوسف ، إذا استثنينا معاملتهم ليوسف وشقيقه . كانوا آية في النُّبل وحسْن الخلق ، لهذا كانت هذه العبارة « أيتها العير إنكم لسارقون » مستفزّة لهم كل الاستفزاز ، فجاء على لسانهم بعد أن أقبلوا على الفتيان والمؤذّن « ماذا تفقدون » وكان الجواب معروفاً بطبيعة الحال « نفقد صواع الملك » وهنا يجيء على لسان المؤذّن إغراءٌ من جنس إغراء الإخوة بالذّهاب إلى مصر وإغراء يعقوب بالسماح للإخوة بأخذ الشقيق معهم . ألا وهو إغراء الطعام . إنه لحمْلُ بعير مكافأةً عمن جاء بصواع الملك ويكون وعدٌ أكيدٌ من المؤذن بالوفاء لمن أحضر الصواع « ولمن جاء به حمل بعير وأنابه زعيم » .

إنّ جوّ المجاعة يظلّ يلعب دوره ، وإنّ الحاجة الملحة إلى الطعام تفرض معجماً لغوياً من نوع معين . فهناك كيل البعير الذي توقّع الإخوة أن يعودوا به مع أخيهم زيادة على الكمية التي عادوا بها في المرة الأولى ، وهنا حمل البعير الذي يوعد به من يعثر على الصواع ويعيده ، إن الإغراء

في الموضعين حاصل وبالشيء نفسه أيضاً . فنحن بصدد تدرُّج في الانتقال طبيعيّ . وهناك قبل هذا وذاك أكثر من إشارة إلى عملية الكيل التي مرّت في الآيات السابقة مباشرة . وحينما يأتي الإغراء الثاني « حمل بعير » تكون النفس مهيأة لتلقيه والارتياح إليه . وكيف لا يكون وضع النفس هكذا ونحن بصدد نهر من القول عميق المغزى هامس التدفّق الدّال على غزارة المضمون .

وكان جواب الإخوة بالتالي منطقياً « قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين » لقد عزّ عليهم أن يلصق بهم ما ليس منهم لهذا هم ينفون عن أنفسهم أن يكون القصد من التوجُّه إلى العزيز الإفساد في الأرض . ويستشهدون بماضيهم بصفة عامّة وبرحلتهم السابقة إلى العزيز بخاصّة . « وما كنا سارقين » . فلم يحدث مثلاً في المرّة الأولى شيءٌ كهذا أو قريبٌ منه .

وقبل أن ننتقل إلى الآيات التاليات نودّ الوقوف عند نقطة هامة جداً هيَ حدُّ السّارق في عرف يعقوب وإخوة يوسف من ناحية ، وملك مصر من ناحية أخرى .

لقد « كان حكم السارق في آل يعقوب أن يسترّق سنة »(١) وفي عُرْف الملك « أن يغرّم مثل ما أخذ لا أن يُلزم ويُستعبد »(٢) وهنا تتدخل العناية الإلهيّة لأمر يريده الله عزّ وجلّ ويتم سؤال إخوة يوسف عن الجزاء الذي يستحقه من وجدوه في رحله ، فكان جوابهم بطبيعة الحال موافقاً لرأي يعقوب إذ لم يكن من المعقول أن يترك الإخوةُ حُكم أبيهم ، نبيّ الله يعقوب . ويفروا إلى رأيٍ بشريّ وحكم وضعيّ .

فلنتأمّل قوله تعالى: « قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ؟ قالوا جزاؤه

---

١ ـ الكشاف ٢ ـ ١٤٨ .

٢ ـ الكشاف ٢ ـ ١٤٨ .

من وجد في رحله فهو جزاؤه ، كذلك نجزي الظالمين ، فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه ، كذلك كدنا ليوسف ، ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم » لقد كان طبيعياً أن يبدأ التفتيش بإيحاء من يوسف ، بأوعية الإخوة وكان طبيعياً أن تستخرج السِّقاية من وعاء شقيقه .

ونحن نودُّ تأمّل قوله تعالى:« كذلك كدنا ليوسف » فلو لم تتدخّل العناية الإلهية . ويحدث الإلهام من الله عزّ وجلّ بسؤال الإخوة عن نوع الحكم الذي يرتضونه للسارق ، واختيارهم بأمرٍ من الله تعالى لحكم يعقوب ، لما كان كيد يوسف بوضع السقاية في رحل أخيه وثبوت تُهمة السرقة عليه في الظاهر ، كافياً لإبقاء الشقيق .

كما نودُّ تأمّل قوله تعالى:« ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله » فالعادةُ جرت أن ينفذ كل بلدٍ الحكم الذي يرتضيه . وكان المفروض أن ينفّذ بحق الشقيق حكم الملك . ومع وجود هذا الحكم الصّالح في نظر القوم المرضي عنه في قرارة أنفسهم إلا أن إرادة الله شاءت ليوسف أن يأخذ أخاه فعطّل حكم البشر ونفذ أمر الله وحُكمه .

كما نودُّ تأمّل قوله تعالى:« نرفع درجات من يشاء » إن يوسف عليه السلام صبر واحتسب وعبد الله حق العبادة ، ودعا إلى دينه. فوهب له الله في الدُّنيا سلطةً وعلماً لدنياً ونعماً لا يأتي عليها الحصر ، ورفع من منزلته في الدنيا ومن درجته في الآخرة كما قال تعالى:« ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون » .

ثم تأتي هذه الجزئية « وفوق كل ذي علم عليم » فمهما بلغ المخلوق من العلم ، كائناً من كان ، فإن الله عزّ وجلّ فوق كلّ ذي علم . « وما أُوتيتم من العلم إلا قليلاً »(١) وهذه الجزئية « وفوق كلّ ذي علمٍ

---

١ ـ الإسراء ، ٨٥ .

عليم » . درسٌ لا يغيض ولا ينفد لكل ذي علم . وعلى سبيل المثال هل كان علم يوسف إلاّ إلهاماً من الله عزّ وجلّ ؟

وهكذا يفي السياق بالغرضين الدينيّ والفنيّ معاً .

وصعق الإخوة لهول المفاجأة ، وسُقط في أيديهم وداهمتهم أفكار شتّى . إنهم لم يخطر ببالهم قط أن يكون الصُّواع في رحل أخيهم وقد كان . ثم هم أدركوا خطورة الحكم الذي سبق أن أصدروه في حق السارق وهو الرّق . فما معنى هذا ؟ معناه أن يعودوا إلى أبيهم دون الشقيق . وأين الوعود المعسولة التي قدّموها لأبيهم ؟ كيف سيواجهونه دون أخيهم وقد أعطوه عهد الله وميثاقه ليأتُنه به ؟ حقاً إنّ ما حدث لشقيق يوسف يدخل ضمن قوله تعالى على لسان يعقوب:« إلا أن يحاط بكم » .

ولكنهم يتساءلون في أنفسهم متى يصدّق يعقوب أن ما حدث كان قضاءً وقدراً ، ونحن الذين سبق أن فعلنا بيوسف ما فعلناه ؟ إن تصديقه سيكون بعد فترة ، ولكن بعد أن يكون الحزن قد أوشك أن يفتك به ، كيف يفاجأ يعقوب الآملُ في عودة يوسف يوماً من الأيام فضلاً عن شقيق يوسف ، بجرح من نوع الجرح الأوّل ، وفي المكان نفسه ؟ إنّ معنى هذا أن يتبدد الأمل وتبقى مع الأحزان أحزان وقديماً قيل : ولكنّ نَكْء القرْح بالقرح أوجع » (١) .

وما القرْح هنا ؟ إنه يوسف : وقد حدث من يعقوب نوعٌ من التداوي بشقيقه عنه ، والآن يذهب الدواء أيضاً . إن الإخوة يعرفون يقيناً منزل هذا الأخ عند أبيهم ، ولا يجهلون أنه يتعزّى به عن يوسف ، الذي تخلصوا منه لحسدهم له .

---

١ ـ مجمع الامثال للميدانى ٣٤٢/٢ ، مثل رقم ٤٢٥٨ ، يعنى أن القرح اذا جلب (قشرت جلدته) ثم نكىء كان أشد ايجاعا ، لانه يقرح ثانيا ، كأنه قيل : نكء القرح مع القرح ، أى مع ما بقى منه ، أوجع » الميدانى .

وقد تحول هذا الحسد الآن إلى حقد . ومن هذه النقطة نقطة الحقد انطلقوا وقالوا كما جاء في الآية:« قالوا إن يسرق فقد سرق أخٌ له من قبل » إن يوسف سبب بلائهم بالأمس ، وشقيقه سبب بلائهم اليوم ، لأنه ثبتت للعين سرقته وسيجر عليهم ذلك الكثير من الويلات . وبما أن الشقيق يشارك يوسف في حبّ أبيه له ، سبب حسدهم ليوسف ، والآن قد قام بهذه السرقة ، فهنا تقذف هذه الحادثة إلى أذهانهم بحادث سابق قام به يوسف الغلام الصغير جداً . فقد كان هناك صنم يُعبد من دون الله ، فعمد يوسف إلى سرقته فكسره . ومع أن هناك فرقاً جوهرياً بين ظاهر سرقة شقيق يوسف وسرقة يوسف للصنم ، ولم يكن الإخوة يجهلون الفرق بين العملين ، وبين سن يوسف آنذاك وسنّ الشقيق الآن ، إلا أن الحقد الذي تفجر في أنفس الإخوة لا يمانع أنْ يبهمَ الإخوة في التعبير فيفهم أن السرقتين من نوعٍ واحد . « قالوا إن يسرِقْ فقد سرق أخٌ له من قبل » .

وماذا كان موقف يوسف عليه السلام ؟ لقد أسرَّ في نفسه هذا الاتّهام له . وكان بعون الله عزّ وجلّ ، قادراً على أن يكظم غيظه ، وذلك عين الحلم ، واكتفى بوصفهم على حقيقتهم بناءً على اتّهامهم له ، وفعلهم السابق معه ومع شقيقه . قال تعالى :

« فأسرّها يوسف في نفسه ولم يُبدها لهم ، قال أنتم شرٌّ مكاناً والله أعلم بما تصفون » .

وواضح أن الجزئية الأخيرة « والله أعلم بما تصفون » تتعلق بالاتّهام . إنها تقرّر أن الله عزّ وجلّ وحده هو العالم بحقيقة ما وصفوا به أخاهم يوسف.

وواصل الإخوة الحديث في الموضوع الذي يشغل بالهم . قال تعالى: قالوا يا أيُّها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه ، إنا نراك من المحسنين » . إنهم يطلبون من العزيز الذي أحسن إليهم دائماً أن يُحسِن إليهم إزاء هذه الورطة التي كانوا هم أنفسهم من المساعدين عليها حينما

أعلنوا اختيارهم لحكم يعقوب بحقّ السّارق . فطلبوا من العزيز ، رحمة بأبيهم الشيخ الكبير ، أن يأخذ واحداً منهم مكان شقيق يوسف وأن يُطلق سراح هذا الشقيق . ولكنّ يوسف العادل يجيبهم كما جاء في الآية الكريمة « قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وَجدْنا متاعنا عنده ، إنا إذن لظالمون » . وهل تؤخذُ نفسٌ بوزر أخرى ؟ إن من يفعل ذلك يظلم غيره ونفسه .

وكان الجواب المنطقيّ ليوسف حاملاً لهم على اليأس غير المحدود ، ولكنه يأس غير مريح . فانفردوا واعتزلوا الناس وأخذوا يتناجون فيما بينهم . قال تعالى:« فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً » .

وإذا كنا اعتبرنا إلهام الله تعالى ليوسف بأن يسأل إخوته عن نوع الحكم الذي يرتضون تطبيقه على السّارق ، واحداً من الأدلة القويّة على أن الأمور في نظر الإخوة تسير سيراً طبيعياً ، وأن يوسف محقٌ في عدم الكشف لإخوته عن حقيقة نفسه . فإنّ اتّهام هؤلاء الإخوة ليوسف بالسرقة دليلٌ آخر قويٌّ على أن الإخوة لا يزالون منشقين على أرومة آل يعقوب الطيبة الطاهرة ، وأن نفوسهم لما تصفُ وقلوبَهمْ لما تَطهر وإن من حقّ يوسف عليه السّلام الحريص على عودة الإخوة إلى الأرومة الطيبة كي يلتحموا بها ويذوبوا فيها ، ألا يكشف للإخوة عن حقيقة شخصيته . ولا يمكن أن ننسى بحالٍ العقوبات النفسية والجسديّة الّتي حلت بيوسف منذ وضع الإخوة له في غيابة الجب حتّى خروجه من السجن . أما هو فقد اكتفى بمعاقبتهم نفسياً .

وما دام شعور الإخوة تجاه يوسف ما زال سيئاً فمعنى هذا أنّهم يستحقون كُل عقابٍ نفسيّ يحل بهم ، ومعنى هذا أنه لم يحن الوقت كي يكشف يوسف لإخوته عن حقيقة نفسه .

ولتسرِ الأمورُ في مجراها الطبيعيّ الذي أراده لها أرحم الرّاحمين . وما دمنا بصدد تصرّفات يوسف عليه السلام الرجل الحازم الحصيف

الواعي ، فليس هناك ما يمنعنا من الاستئناس برأي الجاحظ(١) في هذا المجال .

« من لم يعمل بإقامة جزاء السيئة والحسنة ، وقتل في موضع القتل ، وأحيا في موضع الإحياء ، وعفا في موضع العفو ، وعاقب في موضع العقوبة ، ومنع ساعة المنع ، وأعطى ساعة الاعطاء ، خالف الرّب في تدبيره ، وظن أن رحمته فوق رحمة ربه .

وقد قالوا : بعض القتل إحياء للجميع ، وبعض العفو إغراء ، كما أن بعض المنع إعطاء ، ولا خير فيمن كان خيره محضاً ، وشرٌّ منه من كان شرُّه صرفاً . ولكن اخلط الوعد بالوعيد ، والبشر بالعبوس ، والاعطاء بالمنع ، والحلم بالايقاع ، فإن الناس لا يهابون ولا يصلحون إلا على الثواب والعقاب ، والإطماع والاخافة . ومن أخاف ولم يوقِع وعُرف بذلك ، كان كمن أطمع ولم يُنجزْ وعُرف بذلك . ومن عرف بذلك دخل عليه بحسب ما عُرِف منه فخير الخير ما كان ممزجاً ، وشرُّ الشرّ ما كان صِرفاً ، ولو كان الناس يصلحون على الخير وحده لكان الله عزّ وجلّ ، أولى بذلك الحكم ، وفي إطباق جميع الملوك وجميع الأئمة في جميع الأقطار وفي جميع الأعصار على استعمال المكروه والمحبوب دليل على أن الصَّواب فيه دون غيره وإن كان الناس إنما يصلحون(٢) على الشدة واللين ، وعلى العفو والانتقام ، وعلى البذل والمنع ، وعلى الخير والشر ، عاد ذلك الشر وذلك المنع إعطاء ، وذلك المكروه محبوباً ، وإنما الشأن في العواقب ، وفيما يدوم ولا ينقطع وفيما هو أدوم ومن الانقطاع أبعد » .

وإن النبيل يوسف عليه السلام حينما اطمأن إلى عودة الإخوة إلى

---

١ ـ نقلا عن مؤتمر تفسير سورة يوسف ١١٠٥/٢ .
٢ ـ فى الاصل « يصطلحون » .

أرومة آل يعقوب المباركة الطيبة عرفهم بحقيقة نفسه وترفع عن اللوم مجرداً . كما سنرى .

وبينما كان كلٌ واحدٍ من الإخوة متلهفاً لأن يسمع من أخيه رأياً سديداً لمعالجة هذه القضية العويصة التي تستهدف في الحقيقة والدهم يعقوب الشّيخ الفاني ، إذا بعقاب نفسي ، يندفع هذه المرة من بينهم مدوياً كالإعصار في القول الذي جاء على لسان كبيرهم وأعقلهم الذي عصوه من قبل وأصروا على التخلص من يوسف ، فاقترح إنقاذاً منه لحياة يوسف وضعه في غيابة الجب بدلاً من رأيهم بقتله أو طرحه أرضاً مهلكة يرْجُح منها احتمال هلاكه . قال تعالى :

« قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين ، ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين ، واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون » .

ونفذ الإخوة بكل دقة تعاليم أخيهم ونقلوا كلامه إلى يعقوب والدهم . ولا يخفى أن تعبير الإخوة هنا يختلف عن تعبيرهم حينما جاءوا بقميص يوسف وليس هنا محاولة لنفي الكذب عنهم ، وهو ما كان يشغل بالهم في المرة الأولى . ثم إن هنا حصراً لاهتمامهم في أنفسهم وليس تشتيتاً له بين كذب دعاواهم من ناحية ، وموقف أبيهم الذي يتوقعونه مكذباً لهذه الدعاوي من ناحية أخرى . وإن هنا هذا القول الحازم « وإنا لصادقون » وإن هناك « ولو كنا صادقين » وإنا نشتمّ من لو معنى الاحتمال .

وماذا كان موقف يعقوب من هؤلاء الإخوة ؟ قال تعالى:« قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم ، وتولى عنهم وقال يا أسفا على يوسف وابيضت

عيناه من الحزن فهو كظيم ، قالوا تالله تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين ، قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله واعلم من الله ما لا تعلمون ، يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله ، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » .

وهكذا يتضح أن ما فعله يوسف عليه السلام مع إخوته هو العدل عينه وهو الصواب .

وقد يقول قائل : وما ذنب يعقوب عليه السلام يتعذب كل هذا العذاب من أجل خطأ ارتكبه أبناؤه ؟ وهذا سؤال وجيه .

والجواب عليه هو أنه من المعروف أن يوسف عليه السلام ، نبي الله تعالى المصطفى لم يكن يصدر في تصرفاته عن هوى نفسي أو رأى شخصي . إنما كان يتصرف بوحي من خالقه تعالى . أو لم يجيء إزاء كيد يوسف لإخوته بوضع صواع الملك في رحل أخيه قوله تعالى:« كذلك كدنا ليوسف ، ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله ، نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم » ؟ بلى . وهذا معناه أن كل ما ينال يعقوب عليه السلام من آلام فإن ذلك نوع من اصطفاء الله تعالى له بالابتلاء . وقد أثابه الله تعالى عليه في الدنيا قبل الآخرة . وقد قال تعالى:« ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون » .

ولاننسى أن مصاب يعقوب عليه السلام الأكبر كان بسبب غياب ابنه الحبيب يوسف ، ولا يد ليوسف في غيابه عن أبيه . بل إن إخوته أرادوا أن يخلو لهم وجه أبيهم فألقوه في غيابة الجب . ولم يكن ليتم شيء من ذلك لولا أن إرادة الله تعالى شاءت لذلك الأمر أن يتم . فدل ذلك على أن هذا نوع من ابتلاء الله تعالى ليعقوب عليه السلام .

وحينما نتأمل عدم عودة شقيق يوسف والأخ الأكبر إلى يعقوب ، فإن ذلك الابتلاء في حقيقته موقظ لآلام يعقوب على يوسف .

وإن العمى الذي حل بيعقوب كان بسبب بكائه المتواصل على يوسف وليس بسبب عدم عودة الابنين الآخرين اللذين بقيا في مصر بسبب كيد يوسف للإخوة . ومعروف أن يوسف عليه السلام إنما بقي في مصر مع إمكان عودته إلى الشام قبل مجيء إخوته إليه لأنه عليه الصلاة والسلام صاحب رسالة وحامل أمانة . وإن بقاءه في مصر حيث يدعو إلى عبادة الله تعالى ونبذ الأرباب المتفرقين أولى من عودته إلى الشام حيث يعقوب عليه السلام وآله .

ومعنى هذا أن يوسف عليه السلام آثر في سبيل الله تعالى التعب والنصب على الراحة والأهل والخلان . وحينما أذن له تعالى أن يكشف عن حقيقة نفسه لم يكن هناك من شيء يشغل باله كوالده يعقوب عليه السلام . وإن ما قام به عليه السلام آنذاك تجاهه هو البر كل البر . ولا يستغرب الشيء من معدنه بطبيعة الحال .

وإزاء طلب يعقوب من أبنائه أن يذهبوا فيتحسسوا من يوسف وأخيه لا نجد الإخوة ينبسون ببنت شفة فليس هناك أدنى إشارة إلى أكذوبة الفتك بيوسف أو أن يوسف ليس على قيد الحياة كما زعموا من قبل .

وإن وضع الإخوة من الوجهة النفسية لا يسمح لهم أن يرددوا ما قالوه بعد وضع يوسف في غيابة الجب ، فليس عندهم ذرة من أمل أن يصدّق يعقوب زعمهم . إنه لم يصدق ذلك حينما كان حزنه طفلا فكيف يصدقه وقد شب حزنه واستفحل ؟ فليس عنده الاستعداد أصلا لسماع مثل هذا الزعم . ولعل المنفذ الوحيد الذي بقي للإخوة هو ما سبق أن جاء في قول الأخ الأكبر ، صاحب الاقتراح الثالث : « يلتقطه بعض السيارة » في قوله تعالى: « قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين » .

حقاً ، لقد كان كبيرنا أكثر ألمعية منا وفطن لما غاب عنا . ألم يأت

بلفظ الجب معرفاً بأل العهدية ، مشيراً بذلك إلى الجب الذي اعتدنا الذهاب إلى المكان القريب منه بقصد أن نرتع ونلعب ؟ أليس بالقرب من ذلك الجب طريق عامرة بالسيارة الذاهبين والآيبين ؟ أليست الحاجة إلى الماء ملحة دائماً ؟ أفلا تكون سيارة قد جاءت فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه فوجد يوسف وماذا يمكن أن يفعل بيوسف لو وجده ؟ سيعود به إلى السيارة . وما موقف السيارة من هذا الغلام الصغير ؟ أيبقونه معهم وسيكونون عرضة للسؤال من أين جئتم بهذا الغلام ؟ أم يتخلصون منه بطريقة ما ؟ هل يفكرون في قتله أو طرحه أرضاً كما فكرنا ؟ ولماذا كل هذا ؟ لقد كنا نحسده وليسوا كذلك .

إذن يتخلصون منه بالبيع وتقاسم ثمنه ؟ ربما . ولكن من الذي اشتراه وأين كان الشراء والقوافل تتجه عادة كل صوب ؟ وأين توجه به الذي اشتراه ؟ لقد مرت سنون وسنون فهل ما زال يوسف حياً يرزق أم أنه مات ومضى كأمس الدابر ؟ ولو صح أنه قد مات فعلا أليس يعني ذلك ضمناً احتمال موت والدنا يعقوب ؟ هب أن يوسف قد مات وعرفنا سبيله ، فما ذنب والدنا يموت لموته ؟ ولكن والدنا يقول : « وأعلم من الله ما لا تعلمون » .

إذن فاحتمال بقاء يوسف حياً هو الغالب ، بل هو الراجح ، بل هو الوحيد . إن أملنا في الله ببقاء يوسف حياً يجب أن يكون باقياً . ألم يقل والدنا :« ولا تيأسوا من روح الله ، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » ؟ إننا مسلمون لله رب العالمين ، فكيف نيأس من رحمة الله ؟ ولكن ما العمل ؟ كيف نقول : ما العمل ووالدنا نبي الله يعقوب ، يقول لنا صراحة :« يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه » .

والحقيقة أن وضع الإخوة أصبح يشبه وضع المتهم الذي تصرف فيما ليس له حق التصرف فيه . ويجد نفسه أمام القاضي . ويوقن المتهم بعد

طول إنكار بأن عليه أن يحضر ما تصرف فيه دون حق . ويبيح له القاضي ، دون إرغامه على الاعتراف الناطق أن يُفَكّ بكفالة كي يتمكن من إعادة الحق الذي تصرف فيه إلى أصحابه الشرعيين ، مرشداً له الطريق الممكن له أن يجد ضالته فيه ، مزوداً له بالكثير من الأمل والتشجيع ، وإن الكفيل بالنسبة لإخوة يوسف معنوي . هو حرصهم الشديد على إنقاذ حياة والدهم الذي أخذت صحته تتدهور تدهوراً ملحوظاً . وما معنى أن يوافق المتهم مع شيء كبير من الرضا على الضرب في الأرض كي يعيد الحق إلى نصابه ؟ معناه الاعتراف الضمني بأن ما اتهم به له أساس كبير من الصحة .

وما معنى أن يوافق الإخوة على الذهاب بحثاً عن يوسف بالذات وأخيه كذلك ؟ معناه الاعتراف الضمني بأن ما اتهموا به بصدد يوسف على أقل تقدير له أساس كبير من الصحة ، ومعناه أيضاً سحب اعترافاتهم واتهاماتهم السابقة ، التي أدلوا بها أمام يعقوب بعد جعل يوسف في غيابة الجب .

ونحن في حقيقة الأمر لا نملك إلا أن نكبر لهؤلاء الأبناء التسعة موقفهم الإنساني النبيل من والدهم . إن يعقوب عليه السلام حينما يجيء على لسانه بشأن عدم عودة بنيامين قوله تعالى:« بل سولت لكم أنفسكم أمراً » . يسكت هؤلاء الأبناء البررة . وإنهم ليتحملون بسكوتهم فوق ما يطيقون ، ولكنهم يعتقدون في قرارة أنفسهم أنهم لذلك مستحقون . لأن لهم يداً في عدم عودة يوسف . وحينما يطلب إليهم يعقوب أن يتحسسوا الأخبار الطيبة الحسنة عن يوسف وشقيقه فإنهم يسكتون . وإن هذا الموقف الثاني الصامت ، يعتبر من أكثر المواقف للإخوة نبلا ودليلا على شعور الإخوة بتأنيب الضمير . هذا بالإضافة إلى أننا في حقيقة الأمر أمام أول اعتراف علني للإخوة بأن لهم يداً في عدم عودة يوسف إلى أبيه . وهذا الاعتراف أمام من ؟ إنه أمام من يهمه الأمر بالدرجة الأولى ، يعقوب عليه السلام .

وهكذا يتضح لنا أن الإخوة أخذوا في العودة حثيثاً للأرومة الطيبة التي سبق أن انشقوا عليها ، أرومة آل يعقوب ، وإنّ هذه العودة خير مهيء لأنفسنا لتوقع كشف يوسف لإخوته عن حقيقة نفسه .

رحلة الإخوة الثالثة الى مصر :

والآن نتساءل : أين سيتوجه الإخوة ؟ إن والدهم يأمرهم بالذهاب ولكن لا يعين لهم الجهة . هل في إمكانهم أن يذهبوا حيث يوسف تمشياً مع قول يعقوب فتحسسوا من يوسف ؟ لم يكن ذلك ممكناً بطبيعة الحال لأنهم يجهلون كل شيء عنه ولكن جاء في قول يعقوب:« فتحسسوا من يوسف وأخيه » وأين أخوه ؟ إنه في مصر . أو ليس هناك عزيز مصر يكرم وفادتهم دائماً ؟ أو ليس هناك أخوهم الأكبر ؟ أو ليست الحاجة إلى الطعام ما زالت قائمة ؟ إذن فقد تحددت وجهتهم إلى مصر وانطلقوا على بركة الله ، وبعد رحلة طويلة شاقة وصلوا إلى مصر ودخلوا على عزيزها . قال تعالى:« فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ، إن الله يجزي المتصدقين ، قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ؟ قالوا أئنك لأنت يوسف ، قال أنا يوسف وهذا أخي قد منّ الله علينا ، إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ، قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ، قال لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم وهو أرحم الرّاحمين »

وهكذا كشف يوسف عليه الصّلاة والسّلام لإخوته عن حقيقة نفسه وقد فهم من حالهم قبل مقالهم كلَّ شيء . وكان منهم الاعتراف الجماعيُّ بالخطأ في حقه . وهنا يترفع عليه الصّلاة والسّلام عن العتاب مجرّداً فضلاً عن العقاب .

وإن هذه المعاملة منه صلى الله عليه وسلم لإخوته خير دليل على أنّ ما قام به الإخوة تجاهه كان نزوة طارئة بإغراء من الشيطان الرّجيم .

وإن مَعدن هؤلاء الإخوة النقيّ هو الذي جعلهم يعودون إلى الخطّ المستقيم الذي يسير فيه آل يعقوب . وكان العقاب النفسيّ الذي اختاره يوسف لهم وأوقعه عليهم والذي اكتفى به مع إكرامه لهم في كلّ مرّة يأتون إليه خير دليلٍ على أننا إزاء نوعٍ متميزٍ من عباد الله الصالحين الذين استزلهم الشيطان عليه لعنة الله .

انتقال يعقوب وآله من الشام الى مصر :

وإذا كان يوسف عليه السلام الذي أذِن له بالكشف عن حقيقة نفسه باراً بإخوته في هذه الصّورة الجميلة ، فمن باب أولى أن يكون بارّاً بأبيه . لذلك بمجرد أن انتهى من الكلام الضروريُّ مع إخوته التفت إلى أبيه قال تعالى :

« اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً وأتوني بأهلكم أجمعين » .

وهنا نجد أنفسنا أمام نبيين من أنبياء الله تعالى يتفاهمان بلغة خاصة بهما . إنّ يوسف عليه السلام يعلم بوحيٍ من الله تعالى بحقيقة وضع والده . وإن يعقوب عليه السلام من الوقت الذي تحرّكت فيه العير وفيها قميص يوسف يجد ريح ابنه الحبيب . وبمجرّد إلقاء البشيرِ القميص على وجه يعقوب يرتدّ بصيراً .

إننا بصدد معجزات لنبيٍّ الله يعقوب وابنه يوسف . حتّى إذا جاء آل يعقوب خرج يوسف لاستقبال أبويه بصفة خاصة ثم طلب إليهم جميعاً أن يدخلوا المدينة ، ورفع أبويه على العرش ، وخرّوا ليوسف دليل التحية والتعظيم سُجّداً ، تأويلاً لرؤيا يوسف عليه السلام التي صادفناها أول السورة . وفي المشهد الأخير ينفرد يوسف عليه السّلام بالحديث الدّال على خلقه العظيم وشكره للمنعم وتواضعه الجمّ . قال تعالى :

« ولما فصلت العير قال أبوهم إنيّ لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ، قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم ، فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون ، قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنّا خاطئين ، قال سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم ، فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ، ورفع أبويه على العرش وخرّوا له سجّداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربي حقاً وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء ، إنه هو العليم الحكيم ، ربِّ قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض ، أنت وليي في الدنيا والآخرة ، توفني مسلماً وألحقني بالصالحين » .

تعقيب على القصة :

ويأتي تعقيباً على قصة يوسف هذه الآية خطاباً لمحمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم الذي كان لا يزال بمكة ولما يهاجرْ إلى المدينة المنورة بعد « ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون » إنها تشير إلى أنّ كلّ ما تضمنته القصّة ، إنما كان من الأخبار الغيبية ذات القدْر والفائدة . وإنما انتهت إليه صلىّ الله عليه وسلم عن طريق الوحي ، والوحي فقط في أسمى صوره . وإنا لنتساءل . لماذا تضمنت هذه الآية التعقيبية هذه الجزئية ؟ « وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون » التي تشير إلى حدثٍ واحدٍ بعينه بينما في القصّة أحداثٌ وأحداث وأنباءٌ وأنباء ؟ والجواب على هذا أن هذه الجزئية تشير إلى إجماع الإخوة على إلقاء يوسف في غيابة الجبّ . وقد كان يوسف محور القصّة من أوّلها إلى آخرها ، لأنّ إجماع الإخوة على المكر بيوسف إنما كان تنفيذاً للرأي الثالث الذي أدلى به الأخ الأكبر .

وهذا الرّأي يعتبر حجر الزاوية في قصّة يوسف . ولو قتل يوسف أو طرح أرضاً بعيدة مخوفة فمات ، وهذا نتيجة طبيعية لطرحه أرضاً تلك صفتها ، لما كان هناك العبر التي نصّت عليها آية آخر السورة « لقد كان في قصصهم عبرةٌ لأولي الألباب » والتي استفدناها باستمرار من السرد القصصيّ للأحداث . ولا ننسى أنّ الإخوة الذين ألقوا يوسف في غيابة الجب ، كانوا مجمعين على إبقاء هذا الأمر سرّاً . وليس هناك حدث آخر في هذه القصّة بقي سراً حتّى رُفع الستار عنه في الوقت المناسب بالضرورة سوى هذا الحدث .

لقد كان طبيعياً جداً أن تأتي في الآية التعقيبية هذه الجزئية « وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون » التي تدلّ على أنّ النبي صلى الله عليه وسلم إنما عرف كلّ هذه الأمور الغيبية ، وفي مقدّمتها إجماع الإخوة على المكر بيوسف ، الذين لم يكن معهم سوى الله عزّ وجلّ ، عن طريق الوحي . وهذا أدْعى لحمل مشركي مكة بالذات على الإيمان بأنّ الذى يوحي إليه ذلك إنما هو رسول ربّ العالمين .

وإنّ طريقة خطاب النبي صلى الله عليه وسلم « وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون » بقصد حمل الناس على التفكير فالاقتناع فالإيمان بقوله تعالى(١):« وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الرّوح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربيّ مبين » يجعلنا نتذكر الطريقة نفسها في الخطاب للغرض نفسه في مثل قوله تعالى:« وما كنت بجانب الغربيّ إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ، ولكنا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمرُ ، وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين ، وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون »(٢) وقوله:

---

١ ـ الشعراء ، ١٩٢ـ١٩٥ .
٢ ـ القصص ، ٤٤ـ٤٦ .

«وما كنت ترجو أن يُلقى إليك الكتابُ إلا رحمة من ربك ، فلا تكوننّ ظهيراً للكافرين »(١) وقوله:« وكذلك أوحينا إليك رُوحاً من أمرنا ، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا ، وإنّك لتهدي إلى صراطٍ مستقيم »(٢) وقوله:« ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيّهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون »(٣) وقوله:« تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ، إنّ العاقبة للمتقين »(٤) .

وإذا كنا وقفنا عند الآية التعقيبية على قصّة يوسف ، فلا بد من الوقوف عند الآية الموطّئة للقصّة ، للعلاقة الواضحة بين الآيتين . قال تعالى:« نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين » .

إن هذه الآية تدلّ على أنّ ما قصّه الله تعالى من أحسن القصص إنما كان بإيحاء القرآن إليه . ولا ننسى التوافق بين الآيتين في طريقة الخطاب (كنتَ) فقد جاء هنا « وإن كنت من قبله لمن الغافلين » . ثمّ نحن بصدد طريقةٍ قويةٍ في التعبير والدّلالة على أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان قبل الوحي لا يعلم أيّ شيء عن أحسن القصص الذي أشارت إليه الآية . فعندنا إنْ المخففة من الثقيلة الدّالة على التوكيد ، ولامُ التوكيد مِنْ (لمنَ الغافلين) . وما معنى الغافل عن الشيء في اللغة ؟ هو الذي يجهل تماماً أنّ ذلك الشيء يمكن أن يوجد أصلاً ، فلا ينتظر البتة أن يكون عنده ذرّةٌ من علم(٥) .

---

١ ـ القصص ، ٨٦ .
٢ ـ الشورى ، ٥٢ .
٣ ـ آل عمران ، ٤٤ .
٤ ـ هود ، ٤٩ .
٥ ـ استقى هذا المفهوم من استعمال اللفظ فى نصوص مختلفة .

ونضرب مثلا على ذلك بأمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها التي كان هذا وضعها في حادثة الإفك ، وقد أنزل الله تعالى فيما أنزل « إنّ الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذابٌ عظيم »(١) وإنّ المعنى في آية التوطئة ، والله أعلم ، أنت يا محمد تشترك في هذه الحال مع سواك ، قومك بخاصّة ، أنت إنّما علمت ابتداءً بهذا عن طريق الوحي ، وهُمْ إنّما علموا به ابتداءً عن طريقك .

وإنّا في حقيقة الأمر نتبين علاقةً واضحة بين آية التوطئة هذه والآيتين الأوليين من السّورة ، السابقتين مباشرة قال تعالى:« الر ، تلك آيات الكتاب المبين ، إنّا أنزلناه قرآناً عربيّاً لعلكم تعقلون » . إن القرآن الكريم كله نزل بلسان عربي مبين كي يعقله العرب أوّلا ، الذين بُعث فيهم النبيُّ العربي ، محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، ثمّ يقرّبوا فهم معانيه للإنسانية بعد ذلك . وقد كان للقصص في القرآن حظٌّ موفور .

فقصّة يوسف مثلا تشمل أكثر السّورة . ومعروف أن سورة يوسف مكيّة وذهب البعض إلى استثناء الآيات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٧ والقول بأنها مدنية . واستثنى البعض الآيات الثلاث فقط . ولكن الرّاجح أن السّورة مكيّة بتمامها . فقد قال السيوطي مثلا في الإتقان(٢) (أستثني منها ثلاث آيات من أوّلها ، حكاه أبو حيّان ، وهو واهٍ جدّاً لا يلتفت إليه) .

ومعروف أنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم لقي بعد البعثة بمكة عنتاً شديداً في الثلاثة عشر عاماً التي قضاها يدعو أهل مكة إلى دين الله ، وكان الوحي ينزل عليه تباعاً لتثبيت فؤاده صلى الله عليه وسلم ؛ وتقوية عزيمته . والتسرية عنه . وقد كان للقصص القرآني أبلغ الأثر في الترويح عنه صلى الله عليه وسلم . قال تعالى:« وكلاًّ نقصّ عليك من أنباء الرُّسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك في هذه الحقّ وموعظة وذكرى للمؤمنين »(٣) .

---

١ ـ النور ، ٢٣ . ٢ ـ الإتقان ١/١٥ . ٣ ـ هود ، ١٢٠ .

وإنّ أحسن القصص الذي تضمّنتْه سورة يوسف ، له دوره البالغ في تحقيق هذا الغرض بالنسبة له صلى الله عليه وسلم . فنحن بصدد نبيين من أنبياء الله تعالى . يعقوب وابنه يوسف عليهما السّلام . وقد اصطفاهما الله تعالى بابتلائه فصبرا صبراً جميلاً واحتسبا ، فأثابهما الله تعالى في الدّنيا قبل الآخرة .

وإذا كان ما حدث ليعقوب ويوسف عليهما السّلام فيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ، وإشارة صريحة إلى أنّ العاقبة للمتقين ، وفي ذلك تطمين له صلى الله عليه وسلم ، الذي كاد يُهلك نفسه أسفاً على عدم إيمان قومه بالقرآن وبأنه رسول ربّ العالمين فإنّ لتوجيه الحديث إليه ، خاصةً في نهاية السّورة ، الأثر نفسه .

وهكذا يتضح أنّ تثبيت فؤاد النبيّ صلى الله عليه وسلم هو الغرض الذي تهدف إليه سورة يوسف بقسميها ، القصصيّ الذي يعتبر يوسف عليه السّلام محوره والتعقيبي الذي يوجّه فيه الحديثُ في مجموعه إلى محمّد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم . ونستطيع أن نقول : إن طريقة التثبيت في القسم الثاني تعتبر تطوّراً طبيعياً لطريقة الأوّل . فإذا كان الأول يفي بالغرض بطريق غير مباشر ، إذ يلتمّ شملُ آل يعقوب أخيراً ، ويجمع الله تعالى تكرّماً منه وفضلاً ليوسف عليه السّلام بين النبوّة والملْك . هذا بالإضافة إلى الكثير من الإشارات التعقيبية في العديد من المواضع إلى أنّ العاقبة للمتقين ، فإن القسم الثاني يفي بالغرض بطريق مباشر .

وهكذا يتضح لنا التماسك العضْوي بين قسمي السُّورة . وقد سبق أن اتضح ذلك بالنسبة للقسم القصصيّ الذي تمّ فيه أحسنُ ما يكون الجمع بين الناحيتين الفنية والدينية ، وثبت أنّ الناحية الفنية وسيلة دائمة للناحية الدينية وأنّه يستحيل أن تُفصلَ عن الأخرى . والآن حان الانتقال إلى القسم الثاني .

القسم التعقيبي

قال تعالى: « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ، وما تسألهم عليه من أجر ، إن هو إلا ذكرٌ للعالمين ، وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ، وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ، أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم السّاعة بغتة وهم لا يشعرون، قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين ، وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القُرى ، أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم . ولدار الآخرة خيرٌ للذين اتقوا ، أفلا تعقلون . حتّى إذا استيأس الرُّسلُ وظنوا أنّهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنُجّي من نشاء ولا يُردُّ بأسُنا عن القوم المجرمين ، لقد كان في قصصهم عبرةٌ لأولي الألباب ، ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كلّ شيءٍ وهدىً ورحمة لقومٍ يؤمنون » .

إنّ الخطاب في هاتين الآيتين « وما أكثر النّاس ولو حرصت بمؤمنين ، وما تسألهم عليه من أجر ، إن هو إلا ذكر للعالمين » للنبي صلى الله عليه وسلم ، الذي كان حريصاً كلّ الحرْص على إسلام أهل مكة ، وكان يحزن لانصراف أكثرهم عنه حزناً شديداً حتّى خاطبه الحق تعالى بقوله « فلعلك باخعٌ نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً »(١) أي فلعلك قاتل نفسك ومهلكها أسفاً منك على عدم إيمان قومك المكين بالقرآن وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ المراد بالنّاس أهل مكة (٢) .

وواضح أنّ الآية تشير إلى الإيمان لا إلى الإسلام ، ومعروفُ أنّ كلّ مؤمن مسلمٌ وليس كل مسلم مؤمناً، فكأنّه صلى الله عليه وسلم لم يكن

---

١ ـ الكهف ، ٦ .

٢ ـ الكشاف ١٥٦/٢

حريصاً على أن يكون أهل مكة وسواهم مسلمين فقط بل مؤمنين . وكأنّ الآية بالإضافة إلى إشارتها ضمناً إلى تفانيه عليه الصلاة والسلام في سبيل الدّعوة فإنّها تنصّ صراحة على أنّ موقف أكثر النّاس المناهض للدّعوة ما قدره عليهم أحكم الحاكمين ، وقد قال تعالى:« ولو شاء ربّك لجعل النّاس أُمة واحدةً ولا يزالون مختلفين إلاّ من رحم ربّك ، ولذلك خلقهم ، وتمت كلمة ربّك لأملأن جهنم من الجنّة والنّاس أجمعين »(١) .

والآية التالية « وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلاّ ذكر للعالمين » مرتبطة بسابقتها تماماً . فإذا كانت الآية الأولى تنص على انصراف أكثر النّاس عن الإيمان ، فإن الثانية تشير إلى أنّه ليس هناك أيُّ مبرّرٍ لهذا الانصراف منهم وحتّى الأجر الذي ينبغي أن يُدفع لكلّ عامل لقاء تعبه ، ولا يُلام طالبه لأنّه حقّ له ، فإنّك لا تطلب شيئاً منه فضلاً عمّا سواه من جاه وسلطان . وإن كانت الجزئية الأولى من هذه الآية نافية لطلب أي مقابل فإن الجزئية الثانية « إن هو إلا ذكرٌ للعالمين » معمّقة للمعنى السّابق : مثبتة أن هذا القرآن ليس سوى عظة من الله تعالى للعالمين عامة ، وليس هناك طلبٌ لمقابل ، لا من أهل مكة ولا من سواهم .

إنّك يا محمد لتحرص على إيمانهم بالذّكر الذي أوحى إليك . وكثيرٌ هي الآيات التّي يبصرونها في السّماء ، ويمرون عليها في الأرض ، وكلها يشهد بصحة ما تدعوهم إليه ، ومع ذلك فهم لا يتأمّلون ولا يتدبّرون وكأيّن من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » . ولو فُرض أن البعض أقرّ بالله وبأنه خالقه وخالق السماوات والأرض ، فإنّ الكثير من هذا البعض مشرك بعبادة الله تعالى أرباباً متفرّقين « وما يؤمن أكثرهم بالله إلاّ وهم مشركون » . وهنا يأتي الاستفهام الإنكاريّ في قوله تعالى : « أفأمنوا أن تأتيهم غاشيةٌ من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة

---

١ ــ هــود ، ١١٨ ، ١١٩ .

وهم لا يشعرون » كيف أباح هؤلاء لأنفسهم أن يشركوا الأرباب المتفرّقة التي لا تنتصر لأنفسها فضلا عن سواها ، بعبادة الله الواحد القهّار . أفأمِنَ هؤلاء أن تحُلَّ بهم نقمةٌ من الله تغمرهم ؟ أفأمنوا أن تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون ؟ لا يستطيع هؤلاء ولا سواهم أن يأمنوا هذا ولا ذاك .

إذن كيف جرؤُوا على القيام بما هم قائمون به فعلا ؟ وإذا لم يكن المبرّر هذا ولا ذاك فهلاّ فطنوا للعماية التي هم فيها سادرون ؟ « فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور »(١) وهلاّ تبيّنوا السبيل الخاطئة التي يسيرون فيها ؟ وهلاّ تحوّلوا سريعاً إلى السبيل الصحيحة التي يسير فيها محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، والتي يدعو الناس إليها والتي أشار إليها قوله تعالى : « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله ، على بصيرة أنا ومن اتّبعني ، وسبحان الله وما أنا من المشركين » .

« واضحٌ أنّ الخطاب هنا للنبي صلى الله عليه وسلم ، وفيه تبيين لسبيله . عليه الصلاة والسلام ، وقوامها دعوته إلى الله تعالى مع حجّة واضحة .

هو ومن اتبعه وسار على هديه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . ويلاحظ أن حقيقة الاتباع هذه سبق أن أعلنها يوسف عليه السلام في قوله تعالى على لسانه خطاباً للفتيين في السجن:« واتّبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكنّ أكثر الناس لا يشكرون » .

وهذه الجزئية من الآية ، وسبحان الله مرتبطة بالآيتين السابقتين اللتين تتحدّثان عن المشركين ، فهنا تنزيهٌ لله تعالى عن أن يكون له شريك وتتلوها هذه الجزئية « وما أنا من المشركين » التي فيها تصريح بما نفته الجزئية السابقة بطريق غير مباشر .

---

١ ـ الحج : ٤٦ .

وهذه الآية بصفة عامّة تبيّن السبيل الثانية وصفة أتباعها بينما الآيتان السابقتان تبينان السبيل الأولى وصفة أتباعها . إنّ هناك سبيلين مختلفين وصفتين لأتباعهما متباينتين .

والآية التالية تتحدث عن الرُّسل وما صادفه أقوامهم بقسميهم : الكافرين الذين اتّبعوا أهواءهم ، والمتقين الذين حكّموا عقولهم . قال تعالى : « وما أرسلنا من قبلك إلاّ رجالا نوحي إليهم من أهل القْرى ، أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خيرٌ للذين اتقوا ، أفلا تعقلون » ؟ فالآية تشير إلى الرُّسل الكثيرين الذين بعثهم الله تعالى قبل محمد بن عبد الله ، وكانوا كلُّهم رجالا ، لموافقة طبيعة الرّجل لصعاب الأمور ، وقدرته على العمل الدّائب . ثم إن كلّ رسول إنما كان يصطفى من بين قوم على درجةٍ معيّنة من الفهم ضماناً لنجاح الدّعوة . وفيما يتصل بالعرب أثناء البعثة المحمديّة فإنّ بالإمكان تقسيمهم إلى ثلاثة أقسام :

القســم الأول : سكّان القُرى ، كمكة والمدينة والطائف . وقد كان هؤلاء أدنى إلى الحضر وأقرب احتمالا لتقبل الدّعوة وقد نجحت الدعوة أوّل الأمر في مكة نجاحاً مّا . ونجحت نجاحاً تاماً في المدينة المنوّرة .

القســم الثاني : الأعراب المغرقون في البداوة، وهؤلاء أبطأ الناس فهماً وأسرعهم تقلّباً . وقد لقي منهم الإسلامُ في فجره عنتاً شديداً ، وهاجم القرآن الكريم بعضهم .

القســم الثالث : أناسٌ لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . قد أخذوا من الحضارة والبداوة بنصيب وقد كان طبيعياً ، ضماناً لنجاح الدّعوة ، أن يكون الرّسول من بين سكان القرى الذين لهم ذوق حضاري من نوع معين . وهكذا كان محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

وهذه الجملة في الآية « نوحي إليهم » فيها تبيين للوسيلة التي يتمّ بها الاتصال بالرُّسل ، ألا وهي الوحي . وقد سبقت الإشارة إليه في أول السورة

« نحن نقصُّ عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن » .

وهذه الجزئية « أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم » تتعلق بأصحاب الطريق الخاطئة من مشركي أهل مكة . ففيها حث لهم ، وهم التجار الذين يقومون برحلة الشتاء إلى اليمن والصيف إلى الشام ، بأن يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم الذين كذبوا رسلهم وقد قال تعالى مثلاً في الصافات (١):« وإنّكم لتمرّون عليهم مصبحين ، وبالليل ، أفلا تعقلون » .

وهذه الجزئية « ولدار الآخرة خيرٌ للذين اتّقوا » تتعلق بأصحاب السبيل الصحيحة الذين اتّبعوا الرّسول النبيَّ الأميَّ ، محمد بن عبد الله . وهذه الجزئية « أفلا تعقلون » فيها حثٌّ لأصحاب السّبيل الخاطئة على استعمال العقل وطرح الهوى . وقد جاءت في أوّل السُّورة إشارة إلى العقل والحث على استعماله قال تعالى :« إنّا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أنّ بلالاً أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم يؤذن لصلاة الصبح فوجده يبكي فقال يا رسول الله ما يبكيك ؟ قال : وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل عليَّ هذه الليلة « إنّ في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب »(٢) ثم قال : ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر (٣) .

ومن نعم الله علينا نحن المسلمين ، أنّ العقل الصحيح ، مهما كان عميقاً غوره ، فإنّه ينتهي دائماً إلى إيمان عميق ، مساوٍ في عمق الغور لما انتهى إليه الفكر النيّر . وكثيرةٌ هي الآيات التي تدعو للتدبّر واستعمال الفكر وتحكيم العقل بل أن العقل الصحيح كلما سبر عُمقاً بدا له عمقٌ آخر . فيتخذ من

---

١ ـ الآيتان ، ١٣٧ـ١٣٨ .
٢ ـ آل عمران ، ١٩٠ .
٣ ـ الاتقان ١/ ٢١ .

ذلك دليلاً على أنّ وراء كلّ عمق أعماقا ، وينتهي إلى الإيمان المطلق بما سبق أن قدمه له الدين ابتداء . . فهناك توافقٌ تام بين الفكر الصحيح والدين . ويوقن العقل الذي هذه صفته بأنّه أبداً تابعٌ وفيّ للدّين .

وإذا كان من بين ما تعرّضت له هذه الآية اختيار الرّسل والإيحاء إليهم فإنّ في حديث الآية التالية عن الرُّسل تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ووعداً صريحاً منه تعالى بنصره . قال تعالى:« حتّى إذا استيأس الرُّسل وظنوا أنّهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ولا يردّ بأسنا عن القوم المجرمين » .

والمعنى والله أعلم – حتى إذا صار حال الرُّسل إلى يأس ، وظنوا أنّ أنفسهم التي منتهم بالنصر السريع قد كذبتهم لانصراف قومهم عنهم ، وعدم إصغائهم إليهم ، إذا بفرج الله يجيء دون مقدّمات ونصره يحلّ دفعة واحدة . وهنا ينقسم أقوام الرسل فريقين ، تبعاً لموقفهم من الدّعوة . إما بالتصديق ، وتعنيهم هذه الجزئية « فنجى من نشاء » أو التكذيب ، وتخصهم هذه الجزئية « ولا يردّ بأسنا عن القوم المجرمين » . ولا يخفى أنّ الجزئية الخاصة بالمصدقين « فنجى من نشاء » تدلّ على شيءٍ كبير من رحمة المولى بهذه الفئة وتفضله عليهم ، بينما تدلُّ الجزئية الخاصة بالمكذبين على البأس الشديد الذي ليس له حدّ ولا مردّ . وتأمّل لفظة « القوم » التي استخدمت معرفة بحق هؤلاء المكذبين الذي يعرفهم بسيماهم بأسُ الله جيدا . وتأمّل الصفة بـ « المجرمين » التي خلعها الحق تعالى عليهم . إنّهم مجرمون بحق أنفسهم وبحق سواهم أيضاً ، إذ ضللوهم وصرفوهم عن طريق الهدى .

وتأتي في النهاية الآية التي تلقي بضوئها على كلّ ما اشتملت عليه سورة يوسف قال تعالى:« لقد كان في قصصهم عبرةٌ لأولي الألباب ، ما كان حديثاً يُفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كلّ شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » إن الضمير من « قصصهم » يعود على كلّ الذين كانت لهم أدوار في هذه السُّورة ، وبخاصة أنبياء الله ورسله . ففي القصص الحسن الذي

قصه الله تعالى على رسوله عن طريق الوحي في هذه السورة – وفي سواها أيضاً – بلسان عربي مبين ، عظة وعبرةٌ لكل ذي لبّ يتأمّل ويتدبّر وينتفع . وهذه الجزئية « ما كان حديثاً يُفترى » تثبت أن هذا الحديث الموحى به إنما يقص حقائق ثابتة قد حدثت فعلاً . وهذه الجزئيات « ولكن تصديق الذي بين يديه ، وتفصيل كل شيء ، وهدىً ورحمة لقوم يؤمنون » تشير إلى أن ما جاء به القرآن الكريم مصدق لما جاءت به الكتب السماوية السابقة قبل أن تمتد إليها أيدي العابثين ، وتفصيلٌ لكلّ شيء يُحتاج إليه في الدين ، فالقرآن الكريم هو المصدر الأول والقانون الذي تستند إليه السنة والإجماع والقياس « وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » .

إن القرآن الكريم هدى يهتدي به المؤمنون ، ورحمة تحل بهم بسبب العمل بمقتضاه .

ويلاحظ أن لغة « قوم » جاءت منكرة بحق المؤمنين ، بينما جاءت اللفظة معرفة بحق المجرمين . لقد جاءت معرفة في قوله تعالى:« ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين » للدّلالة على قوم معينين رفضوا اتباع هذا النبي أو ذاك فحلت بهم نقمة الكبير المتعال ، بينما جاءت اللفظة نفسها منكرة في قوله تعالى:« وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » للدلالة غلى أن الهدى والرحمة شاملان لكل قوم في كل زمان ومكان ، مؤمنين بالله ربّاً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً .

وهكذا يتضح لنا التماسكُ العضوي بين قسمي السورة والوحـــدة الموضوعية التي تنظمها . وقد تبين لنا ، بالإضافة إلى التماسك العضوي في كل من القسمين: القصصي والتعقيبي ، أن هناك هدفاً رئيسياً سعت هذه السورة المكية إلى تحقيقه ، هذا الهدف هو تسلية النبي صلى الله عليه وسلم الذي لقي آنذاك من المكيين كل عنت واضطهاد . فكان بحاجة إلى تثبيت فؤاده صلى الله عليه وسلم . وقد حقق القسم الأول القصصي من السورة

ذلك بطريق غير مباشر في صورة النهايات السعيدة لحلّ شخصيات القصة ، وفي صورة الإشارات المتعددة إلى أن العاقبة للمتقين ، إمّا على لسان الشخصية كقوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام « إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ، واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون » وإمّا تعقيباً على حوادث معينة ، كقوله تعالى بعد أن مكن ليوسف عليه السلام في أرض مصر وتعيينه في منصب عزيزها « وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ، ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون » . بينما حقق القسم الثاني تسلية النبي صلى الله عليه وسلم بطريق مباشر يعتبر تطوّراً طبيعياً للطريق الأول وضرورياً أيضاً لأن الهدف الأكبر إسعاد البشر في الدارين .

فإذا كان الطريق الأول حقق غرضه في نغم موسيقي قصصيّ مؤثر في الوجدان محرّكٍ للعقل فإن الطريق الثاني الذي يعتبر تطوّراً طبيعياً للأول ، والذي كان نصيب العقل فيه موفوراً حقق غرضه في نغم موسيقي آخر ، متمش مع هذا التطور ، ترتاح له النفس المدركة لضرورة هذا التنويع وقيمته .

وإن أهمّ ما نودّ توكيده هو أن القرآن الكريم جمع أحسن ما يكون الجمع بين الناحيتين:الفنية والدينية ، وأنه يستحيل الفصل بين هاتين الناحيتين .

وإذا كنا فيما مضى تبينا الوحدة الموضوعية في قصة يوسف من زاوية تطوّر الأحداث الطبيعيّ ، وفي السورة ككلّ من زاوية وحدة الهدف . فإنّ لتطوّر الشخصيات الطبيعيّ ، سلباً أو إيجاباً ، وبخاصة في القسم القصصي ، دورَه الأكيد في تحقيق هذه الوحدة الموضوعية . وهذا ما سنعالجه بإذنه تعالى في الصفحات التالية فإلى الفصل الثاني مع الشخصيات وأدوارها في تحقيق الوحدة الموضوعية .



الفصل الثاني

الشخصيات وأدوارها في تحقيق الوحدة الموضوعية

الشخصيات وأدوارها في تحقيق الوحدة الموضوعية

الشخصيات في قصّة يوسف متنوّعة وتختلف مدّة ظهورها حسب الأدوار التي تقوم بها . فهناك الشخصيات التي تستمرّ أدوارها من بداية القصة حتى نهايتها ، كيوسف عليه السّلام ، محور القصة ، ويعقوب عليه السلام والإخوة ، وإن غاب يعقوب والإخوة في كثير من المشاهد .

وهناك بعض الشخصيات ذات الأدوار الفعّالة في القصة ، والتي تلي مباشرة في الأهمية الشخصيات الرئيسية ، وتختلف مدّة ظهور هذه الشخصيات ومرّاته كالوارد والسيّارة ، والعزيز وامرأته ، والشاهد ، ونسوة المدينة ، والفتيين ، والملك .

وهناك بعض الشخصيات التي لها أدوارٌ خاطفة ، أو التي اكتفى بمجرد الإشارة إليها . كالذين بدا لهم إدخال يوسف السّجن حتى تهدأ الأمور . قال تعالى : « ثمّ بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننّه حتّى حين » . وكالملأ في قوله تعالى على لسان الملك:« يا أيها الملأ افتوني في رؤياي إن كنتم للرُّؤيا تعبرون » . والرسول في قوله تعالى:« فلما جاءه الرّسول قال ارجع إلى ربّك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهنّ . إنّ ربي بكيدهن عليم » . والفتيان في قوله تعالى:« وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلّهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون » . والمؤذن في قوله تعالى : « ثم أذّن مؤذن أيتها العيرُ إنكم لسارقون » .

والفتيان أيضاً الذين يعود إليهم ضمير قالوا في قوله تعالى:« قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم » . وأهل القرية والمسافرين في قوله تعالى على لسان كبير الإخوة:« واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنّا لصادقون » . وأهل يعقوب الذين يعود إليهم الضمير من قوله تعالى:« قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم » .

وكيما نتبين أدوار هذه الشخصيات الهامة في دفع أحداث القصة إلى

الأمام ، سنتناولها بإذنه تعالى بالدّراسة . بادئين بشخصيات الفئة الثانية ، بعدها نعود إلى دراسة الشخصيات الرئيسية الّتي سايرت القصة حتّى نهايتها .

أولا : شخصيات الفئة الثانية في قصة يوسف عليه السلام

السـيارة وواردهم :

قال تعالى : « وجاءت سيارةٌ فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يابشرى هذا غلام ، وأسروه بضاعة ، والله عليم بما يعملون ، وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزّاهدين » .

والذي يفهم من قوله تعالى:« وأسرّوه بضاعة » وقوله:« وشروه بثمن بخسٍ دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين » أن السيارة كانوا فئة من التجار ، اتخذت الغلام يوسف بضاعة تتاجر بها ، ولكنها لم تغرم فيه شيئاً ، وخشيت السؤال : من أين لها بهذا الغلام ؟ فهان عليها بيعه بثمن بخس . دراهم وليست دنانير ، قليلة لا كثيرة ، فهي تُعدّ ولو كانت كثيرة لوُزنت بل كانوا حريصين على التخلص منه زهداً فيه .

وقد شاءت إرادة الله أن تكون هذه الفئة من التجّار الحريصين على الكسب ، وليس من سواهم . لذا تمت عملية بيعه بكل هذه البساطة . وكذلك شاءت إرادته تعالى أن يشتّريه عزيز مصر بالذات ، وليس سواه . وقد كان بالإمكان ، لولا إرادة الله ، أن يشتّريه كلٌّ واحد ، وهو الغلام الزهيد الثمن .

ويلاحظ أنّ السيارة أرسلوا وارداً واحداً منهم ليُحضر لهم الماء ويُفهمْ من كون الوارد واحداً أنّ عدد السيارة محدود وأنهم كانوا قليلي العدد . وإلا لاضطرُّوا لإرسال أكثر من وارد لإحضار الماء .

وقد جاء في الآية عن الوارد « فأدلى دلوه قال يا بُشرى هذا غلام » والذي يُفهمُ ، والله أعلم ، أن هذا الوارد حينما أدلى دلوه كانت عينه

معه ، حتى يصطدم الدلو بالماء ، فبهذا جرت العادة ، خاصة إذا كان الوارد يرد بئراً طال عهده بها وانقطاعه عنها . وهنا تقع عيناه على غلام فوق صخرة بجوار الماء وكانت غيابة الجب(١) تستّر ذلك الغلام .

وَهُنا يتفجر لدهشة الفرح قائلا:« يا بشرى هذا غلام » والمعنى ، والله أعلم ما أشد فرحتي ! لقد أتيت للماء وسأعود به وبهذا الغلام الوسيم أيضاً .

وقد وجدته في مكان لا يتوقع وجود مثله فيه . ألست تاجراً كأيّ فرد من رفاقي ؟ ألم نخرج بقصد التجارة ؟ أليس هذا الغلام الذي لا يبدو أنّ هناك سائلا يسأل عنه ، لوجوده في هذا المكان الغريب ، يمكن أن يدُرَّ علينا ربحاً مّا ؟ إنني حينما أخرجه وأعود به إلى رفاقي سيفرحون فرحي .

أليس بيعُ مثل هذا الغلام جائزاً بل شائعاً في عصرنا ؟ إنّا حينما نبيعه فسيكون كلّ ثمنه ربحاً لأنا لم ندفع فيه شيئاً .

وواضح أنّ الآية الكريمة لا تتعرّض لعملية إخراج يوسف من الجبّ ، فهذا شيءٌ مفهوم . لأنّ وصوله لدى السيارة يعني ذلك ضمناً . ويلاحظ أنّ هذا الوارد تبيّنَ منذ أن رأى يوسف للوهلة الأولى أنّه غلام . فهو رجل صحيح البصر ، وكان هناك نورٌ مسعفٌ له على تبيُّن الغلام في غيابة الجب الذي لم يكن بالضرورة عميقاً . ونستطيع أن نستنتج أنّ الوارد ، وهو وحيدٌ آنذاك ، لم يجد شيئاً من مشقة في إخراج يوسف من الجبّ .

وما معنى « أسروه » من قوله تعالى:« وأسروه بضاعة » معناه ، والله أعلم ، أنّ هذه الفئة من التجار اتفقت فيما بينها على إخفاء الغلام حتّى يصلوا إلى السوق التي يبيعونه فيها . وكون يوسف يمكن إخفاؤه بهذه البساطة ، ذلك تأكيد لكونه ما زال صغير السنّ والحجم معاً .

---

١ ـ الغيابة فى الجب ٠ شبه لحف (بالكسر وهو أصل الجبل) أو طاق فى البئر فويق الماء يغيب ما فيه عن العيون ٠ انظر البحر المحيط ٥/٢٩٤ ٠

ولأمر يريده الله تعالى لم يدر بخلد واحد منهم مجرّدُ التفكير في أن هذا الغلام له أهل ، وفي الإمكان إرجاعه إليهم . وقد يفهم من جملة «وأسروه» ما سبق أن ألمحنا إليه من أنّ عدد هؤلاء التجار محدود . فإن عدد الأفراد حينما يكون قليلا ؛ فذلك أدعى عادةً لأن يتّفقوا بالإجماع على أمر مّا .

وقد اتفقت هذه الفئة فيما بينها على إخفاء يوسف خوف السُّؤال . من أين لكم هذا ؟ واعتباره بضاعة تباع في أوّل سوق تصادفهم . وبما أن أول سوق تصادفهم ستكون بالضرورة في مصر ؛ لذلك كان هناك إجماعٌ على بيعه بل على التخلص منه هناك .

عزيز مصر وامرأته ونسوة المدينة :

بسبب تفاعل هذه المجموعة من الشخصيات ، بالدرجة الأولى حول قضية معينة ، جمعنا بينها في الدّراسة . قال تعالى:« وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتّخذه ولداً ، وكذلك مكنّا ليوسف في الأرض ولنعلّمه من تأويل الأحاديث والله غالبٌ على أمره ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون » .

يبدو لنا العزيز من هذه الآية رجلاً نبيلاً ، طيب القلب رحيما ، بعيد النظر ألمعياً . إنه وهو الرجل الثريّ ، ذو الخدم والحشم ، والعبيد والإماء ، يطلب من امرأته ، وليس من أيّ شخص سواها ، أن تكرم مثوى الغلام ، وأن تتعهده بالعناية والرّعاية .

فقد تبين في الغلام يوسف ، بفراسته وألمعيّته ، أنه من معدن متميز لهذا خصه دون سواه ، بهذا الاهتمام الفائق . ولأنه رجلٌ مشغولٌ بمصالح قومه ، منصرف إلى أعماله ، أوصى بالغلام خير من كان يعتقد أنه سيقوم بهذه المهمة وفق رغبته .

وهو رجلٌ متزن مجرّب ، لذا هو يقدم فعل الرّجاء « عسى » بين يدي

قوله:« عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً » إنه يرجو أن يكون واقع هذا الغلام مستقبلاً موافقاً لفراسته فيه .

فإذا تحقق ما ظنّ فيه حصل منه النفع الذي يؤمل من أمثاله . بل ربما نزل في القرب والمحبة منزلة الولد .

وواضح أن العزيز الرّجل المفكّر ، منطقيّ في رجائه . فهو يقدّم النفع بين يدي اتخاذهما يوسف ولداً في قوله:« عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً » الرّجاء الثاني مبنيٌّ على الأوّل . ولا يتحقق الثاني إلا بعد تحقق الأول .

والعزيز أيضاً منطقيٌّ في رجاءيه المعقولين . فكثيرٌ هم الذين كانوا في مثل وضع الغلام يوسف ونزّلوا إحدى هاتين المنزلتين .

ثم إنه إنما قال في خطابه لزوجه:« أو نتخذه ولداً » منطلقاً من حقيقة كون يوسف بعد غلاماً صغيراً ، قد ابتعد ما بينه وبين كونه في المستقبل رجلاً ، وهذه الفترة ، كفيلة في اعتقاد العزيز ، أن تنزّل يوسفَ من زوجه منزلة الولد الفعليّ وأن تنزّل زوجه من يوسف منزلة الأمّ التي افتقد . وكان يعتقد أنهما سينجحان في تحقيق الرّجاءين معاً ، أو أوّلهما على الأقل ، إذا استطاعت زوجُه أن تغمر الغلام بإحسانها ، وتشمله بعطفها ، خاصة وأن يوسف في السّنّ التي يعتبر فيها صفحة بيضاء نقيّة وأداة طيّعة .

وقد يكون الدافع للعزيز على ربط الرجاءين أو أحدهما بيوسف عليه السلام ، أنه والله أعلم ، لم تكن له ذرية ، وأنه كان حريصاً عليها ، ولعله قد يئس من حصوله عليها من صُلبه ، ففكّر في طريقة طبيعية أخرى ، هي طريقة التبنّي . ولعل زوجه كانت تشاركه هذا الرأي ؛ قبل الحصول على الغلام يوسف . وها هو ذا الآن يذكّر زوجه ، وقد حضر الغلام ، بالنفع المأمول ، أو الولد المتوقع ، منبهاً لها إلى الطريق التي ينبغي أن تسلكها بغية الوصول إلى إحدى الغايتين أو إليهما معاً .

هذه الطريقة هي أن تكرم مثواه « وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته

أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً » والمثوى : مكان الثوي والمبيت والإقامة ، والمقصود بإكرام مثواه إكرامه ، ولكنّ التعبير أعمق ، لأنه يجعل الإكرام لا لشخصه فحسب ، ولكن لمكان إقامته ، وهي مبالغة في الإكرام » (١) .

وهل نفذت الزوجة طلب زوجها بإكرام مثوى الغلام ؟

وهل أكرمته للغاية التي أشار إليها العزيز في رجاءيه ؟ قال تعالى: « ولما بلغ أشدّه آتيناه حُكماً وعلماً ، وكذلك نجزي المحسنين ، وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلّقت الأبواب وقالت هيْتَ لك ، قال معاذ الله إنه ربيّ أحسن مثواي ، إنه لا يفلح الظالمون » .

إن الحق جل وعلا قد شهد ليوسف عليه السلام بأنه كان من المحسنين إلى أنفسهم وإلى سواه باجتناب النواهي وفعل الأوامر . وفي أي سنٍّ كانت هذه حال يوسف ؟ في الفترة من السن الدقيقة الحرجة . حينما بلغ مبلغ الرجال ، حينما بلغ أشده . وجزاءً له على إحسانه آتاه الله حكماً وعلماً .

وفي هذه الفترة من السن الدقيقة الحرجة ، وهو غير المتزوّج ، تقف منه امرأة العزيز موقفها المعروف .

والمراودة من رادَ يرود إذا جاء وذهب . والمراد أنها كانت تطلب منه ما تريد بكلّ الوسائل الممكنة .

وتأمل الأدب القرآني في الإشارة إلى امرأة العزيز « وراودته التي هو في بيتها عن نفسه » بل إن لفظة العزيز لا تجيء للمرة الأولى إلا على على لسان نسوة المدينة « وقال نسوةٌ في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه » إنه ليستفاد من هذا الأدب القرآني في الإشارة إلىامرأة العزيز أنها هي المسؤولة عن كل ما حدث ، لأن الفتى في بيتها هي ، ولم يكن له

---

١ ـ في ظلال القرآن ٩٨/١٢ .

بيت أساساً ، ولأنها ذات السلطة في ذلك البيت ، ولأن القضية تتعلق بها بالذات . وحينما يكون الفتى معها في بيتها ، فذلك أدعى لأن تكون مراودتها له مستمرة وملاحقتها دائمة . ولنتصور المشقة التي كان يكابدها يوسف عليه السلام في القبض على دينه . وإنّ المشقة في صون دينه ستكون القمة في الشدة والعنف ، حينما نتمثل المظهر الذي يمكن أن تكون فيه من كان زوجها في مثل منصب عزيز مصر ، خاصة حينما يكون لها هدف مقصود .

وهذه المراودة من امرأة العزيز لم تلق من يوسف عليه السلام إلا فراراً ، ولم يزدها فراره منها إلا عناداً واستكباراً . وبما أنه كان في بيتها لهذا كانت قادرة على القيام بما أشارت إليه الجزئية التالية من القرآن « وغلقت الأبواب وقالت هيت لك » لقد كان في اعتقادها ، أنه يستطيع الفرار منها لأنها لم تكن قد وضعت حواجز تمنعه . والآن مجاراة منها لرغبتها النامية ، تقوم بإغلاق كل الأبواب – التي يمكن أن يفرّ منها الفتى الذي هو في بيتها – إغلاقاً محكماً . وتأمّل صيغة الفعل « غلّق » التي تدل على إحكام تغليق كل الأبواب ، وهو بدوره يدل على التعميم .

وإذا كان الطلب من قبل يتمّ بالإشارة والتلميح ، فإنه الآن ، يتم صراحة وبوضوح . وكلّ الملابسات تقول به وهنا يأتي على لسان يوسف قوله تعالى: « قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي ، إنّه لا يفلحُ الظالمون » .

وتأمّل هذه الجزئية عن امرأة العزيز « ولقد همت به » من قوله تعالى : « ولقد همت به ، وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه ، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ، إنه من عبادنا المخلصين » . فنحن إزاء اللام التي تفيد التوكيد ، وقد التي تفيد التحقيق ، في الدلالة على تصميم هذه المرأة على ما همت به .

ولم يكن ليتخلى أحكم الحاكمين عن عبده المخلص المبتلى يوسف عليه

السلام الذي انطلق في أقصى سرعة له ممكنة حيث الباب ، محاولا الفرار بدينه . قال تعالى:« واستبقا الباب وقدّت قميصه من دُبُر وألفيا سيدها لدى الباب ، قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يُسجن أو عذاب أليم » .

لقد تمت عملية سباق عنيف ، هو يجري فراراً من الفحشاء ، وهي تجري فراراً إليها . إنها تحاول جاهدة مجاراة سرعته ، بل اللحاق به ، بل تخطيه . وقد أمكن لها فقط الإمساك بما وصلت إليه يدها من قميصه . وقد كان إمساكها للقميص ، وجذبها له ، من العنف ، لإرغام الفتى على الوقوف أو الإمساك به نفسه — على أقل تقدير — بالدرجة التي قدّت ذلك القميص من خلفه . وواضح أنها لم تتمكن من تخطيه ، بل إنها لم يكن بإمكانها أن تلحق بقميصه لولا امتداد يدها لقد كانت السرعتان متساويتين .

وقد كسب يوسف عليه السلام بفضل المبادرة للفرار مسافة بسيطة بينهما أمكن للمرأة أن تعوضها بيدها الممتدة . وربما كان للقميص ، الذي نظن أنه لم يكن بالضرورة ملاصقاً لجسم يوسف ، دور مسعف لامرأة العزيز في الإمساك به ، إذ أسعف يدها الممتدة . وما معنى كون سرعة المرأة والفتى متساويتين ؟ معنى ذلك أن الرغبتين في اللحاق و الفرار متساويتان . وما معنى أن يقدّ القميص من دبر ؟ معناه أن يوسف بريء وهي المتهمة . وما معنى أن يكون يوسف عليه السلام مرتدياً قميصه ؟ معناه أنه عليه السلام في كامل ملابسه ، ويأبى الله إلا أن يكون عبده المخلص في الوضع اللائق به . وقد أتى الباب مفرداً في قوله تعالى:« واستبقا الباب » بينما جاء في صيغة الجمع من قبل في قوله:« وغلقت الأبواب » والمراد بالباب في صيغة المفرد الباب الرئيسي الذي يفضي به حيث الآخرون ، بدليل أنهما ألفيا سيدها لدى ذلك الباب .

وإن يوسف عليه السلام الذي يعرف ذلك البيت بدقة ، حينما يقصد

ذلك الباب ، وتلك صفته ، فذلك من الأدلة الكثيرة الشاهدة على رغبته الأكيدة في الفرار بدينه . وإن استعمال ضمير التثنية وليس المفرد في قوله تعالى:« وألفيا سيدها لدى الباب » دليلٌ على تصميم امرأة العزيز على اللحاق بيوسف . ولم يثنها عن عزيمتها اتجاه يوسف صوب الباب ، الذي تعرف أنه يشكل الحدود الفاصلة بين ما هو خاصٌ بها ، وما هو شركة بينها وبين سواها . وبما أن امرأة العزيز قد أحكمت إغلاق كل الأبواب من الدّاخل . فمن غير المعقول أن تترك الباب الهام ، الذي تلك صفته ، دون إحكام إغلاق . وعليه فلا يمكن لأحد في الخارج أن يدخل أو أن يرى ما دام الباب مغلقاً .

وإذن فمتى يُمكن ليوسف عليه السلام والمرأة أن يريا العزيز الذي كان لدى الباب ؟ حينما يكون الباب مفتوحاً . ومن الذي فتح الباب ؟ يوسف عليه السلام وكأنه في الفترة الخاطفة التي أمكن له فيها أن يفتح الباب كانت قد لحقت به وهنا أمكن لهما أن يريا العزيز معاً وقد كان وجود الزوج لدى الباب مفاجئاً للمرأة بالذات . لأنه يظُن أنها لم تكن لتجرؤَ على ما قامت به لو لم تكن مطمئنة إلى أن ذلك الوقت غيرُ وقت عودة العزيز .

وهكذا صرف الله تعالى السُّوء والفحشاء عن يوسف عليه السلام . وقد أصيبت المرأة بخيبة أمل لا حد لها في اعتقادها ، وأدركت أن عزّتها الآثمة قد أهانها فتاها ، وذهبت مخططاتها سُدى . وألفت نفسها فجأة أمام زوجها في وضع لا تُحسد عليه . ولقد كانت رغبتها جامحة ، وقد انكسرت فجأة لهول المفاجأة ، وتولد عنها وعن الشعور بالكبرياء الآثم المجروح ، حقدٌ بعيد المدى ، عبرت عنه في صيغة الاتهام القوي ليوسف عليه السلام ، مصحوباً بنوعين من العقاب . وقبل الوقوف عند الاتهام والعقاب نحن نتساءل : لو لم تكن امرأة العزيز في كامل ملابسها هل تستطيع مجرد الوقوف بحضرة الفتى أمام زوجها فضلا عن توجيه الاتهام إليه واقتراح إنزال أحد

العقابين ؟ بطبيعة الحال هي كانت في كامل ملابسها ، وهذا الذي جعلها تتهم يوسف : وذلك في اعتقادها تبرئة لها خاصة ولأن ملابسها سليمة بعكس قميص يوسف ، الذي يدلُّ على شيء ما ، وقد أرادت أن يكون هذا الشيءُ تهمة تلبسها الفتى ، يستحقّ عليها السّجن أو العذاب الأليم .

وغفلت عن كون القميص إنّما قدّ من دُبر وليس من قُبل . قال تعالى على لسانها مخاطبة زوجها:« ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يُسْجَنَ أو عذاب أليم » .

والذي يلاحظ على كلام الزوجة هنا أنها ركّزت بشدة على العقاب ، وكأنها قد ضمنت لصوق التهمة بالفتى انطلاقاً من غرورها بمركزها الاجتماعي العالي ، ونظرتها المعيّنة للفتى الذي كان غلاماً حينما اشتراه زوجها ، وعدم قدرتها على التصوّر بأنه يمكن أن يوجد فتى هذا وضعه يهين كرامتها ويرفض لها طلباً .

لكل ذلك هي ركزت على العقاب . أما التُّهمة التي مرّت بها عرضاً فقد كانت مطمئنة إلى أنها لا صقة بالفتى .

ولا ننسى أن المرأة كانت واثقة من أنها توجه إليه هذه التهمة كذباً ، ولكنّ التهمة هي الشيء الطبيعي الذي يمكن أن تقوم به ، لما ينبني عليه من تحقيق ما تحرص عليه من أخذ ثأر لكرامتها التي أهدرت ، وعزتها الآثمة التي أُهينت ، إن أصرَّ الفتى على رفضه مستقبلاً . ثم إنّ في توجيه التهمة إلى الفتى صرفاً للتهمة عنها . وهذا ما يحرص عليه من كان نعسان الضمير مثلها .

ويلاحظ أنها لم تذكر اسم يوسف صراحة أو حتى صفته ، فلم تقل مثلا ما جزاء يوسف أو الفتى ، إنما جعلت الكلام عاماً في صورة قاعدة يدخل تحتها كلُّ من كان ذلك تصرُّفه . وكأن التصرف الذي نسبته إليه قد لصق به ، والمسألة فقط ، بحاجة إلى تطبيق قاعدة ثابتة موافقة لفعل .

فليس مهماً كما يبدو من قولها أن يكون الفاعل يوسف أو سواه ، إنما المهمُّ الفعل الثابت الذي يستحق نوعاً من العقاب مساوياً له .

ونحن نحسُّ بأن في حديث المرأة التفصيليّ عن العقاب شيئاً كبيراً من الشعور بالوزن الذاتيّ . ولا نشك أن ليقينها بأن زوجها عزيز مصر ، دوراً في هذا الشعور بالوزن الذاتيّ . إن عزيز مصر ، وتبدو منزلته العالية من الإشارة إليه بمركزه ، يستطيع بعد الملك مباشرة ، أن يصرّف الأمور . ويدخل ضمن اختصاصه سجن من يرتضي سجنه ، وإنزالُ العذاب الأليم بمن يرتضي إنزال ذلك به . إنّ المرأة لا تكتفي بتوجيه الاتّهام فتأخذ القضية مجراها كيْ يدلي فيها برأي . إنما تصدر الحكم الذي تهوي في عبارتها القوية الدلالة . إنها تتخطى كلّ الخطوات التي تتدرج فيها كل قضية تسير سيراً طبيعياً ، فتبدأ بالنهاية ، وكأنها كسبت القضية فعلا . والذي جعلها تعتقد هذا الاعتقاد الفاسد ، وتوجه الاتّهام الكاذب ، وتصدر الحكم الجائر ، الكبر الزائف والغرور الآثم اللذان تمكنا منها والانسياق وراء الهوى الذي لايغني من الحق شيئاً .

والعجيب في الأمر أنّها هي التي سبقت بالكلام والشكوى وليس يوسف الذي رفض التهمة بشدة ، وفي أوجز عبارة وأبلغها « قال هي راودتني عن نفسي » .

وقد أحقّ الله الحقّ وأزهق الباطل على يد الشاهد الذي ثبتت له براءة يوسف وجاء على لسانه قوله تعالى:« إنه من كيدكنّ ، إن كيدكنّ عظيم ، يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين » .

وقد أمكن لهذه القضية أن توقف عند هذا الحدّ لأن امرأة العزيز هي المتهمة وليس لأن يوسف هو البريء .

والحقيقة أن مثل هذا التصرّف قد لا يستغرب حينما نعرف أن المجتمع الذي وجد يوسف نفسه فيه ليس دينياً بالمعنى الصحيح . فليست هناك قواعد

سماوية يمكن أن يلجأ إليها أو يقاس عليها في مثل هذه الحال .

ونحن نتبين أثر ذلك في العزيز ، زوج المرأة ، فلا نجد له أيّ ردّ فعل إيجابيّ . وكأنا به في هذه اللحظة الحرجة ، آثر الاختفاء فالتفكر في هذا الابتلاء الذي حلّ به .

وكأن لبراءة يوسف التي ثبتت ، ومنزلة زوجه العالية في قلبه ، دوراً في هذا الموقف الذي اتخذه . بل إنه اعتقاد منه في عدم إقبال زوجه مستقبلا على عمل قريب من هذا بسبب الفضيحة ولما صحّ له من طهر يوسف الكامل ، لا يخطر بباله ، لأمر يريده الله عز وجلّ ، مجرد الإبعاد بينهما !

ووصل ما قامت به امرأة العزيز إلى علم جماعة من النسوة في المدينة ، وكان لهن رأي واضح باستنكار ما فعلته . قال تعالى : « وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً ، إنا لنراها في ضلال مبين » .

إن هذه الآية تشير إلى فئة معينة من نسوة تلك المدينة ، وليس المراد بطبيعة الحال كل النساء ، فإن لفظ « نسوة » جمع قِلة ، وقد ذهب البعض إلى أنهن خمس « امرأة خبّازه ، وامرأة ساقيه ، وامرأة بوابه ، وامرأة سجانه ، وامرأة صاحب دوابه »(١) ولكنا لا نقول بهذا ، ونعتقد أنهنّ من جنس الطبقة الراقية التي تنتمي إليها امرأة العزيز للأسباب التالية :

(١) لأن النسوة اللاتي أشير إليهنّ لا يجهلن يوسف ، ولا يكون بالتالي خروجه عليهنّ مستقبلا . بأمر امرأة العزيز ، مفاجئاً لهن بالدرجة العالية التي كانت المفاجأة فيها فعلا .

(٢) لأن هذه الطبقة ليست مما تأبه لها امرأة العزيز في قليل أو كثير . إنما تهتم لمن كنّ في مثل طبقتها ، وتعمل لهن خصيصاً تلك الوليمة المعتبرة .

---

١ ـ البحر المحيط ٣٠١/٥ .

(٣) الذين بدا لهم سجن يوسف حتى من بعد ما رأوا الآيات على عفته وطهره ، إنما نفذوا ذلك تحت تأثير نسوتهن ، فليست امرأة العزيز التي نعتقد أنها زينت للعزيز هذه الفكرة ، بدليل القول على لسانها: « ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين » . سوى رمز لجماعة من النسوة في طبقتها كان لهن في رجالهن مثل هذا التأثير .

هذه الفئة المعينة من النسوة تمثل نوعاً منهن يحرصن على تتبع أخبار النسوة بالذات ، أمثالهن . ويجدن لذة في نقل الخبر من جهة إلى جهة حتى تتسع دائرته .

وما الخبر الذي وجدن لذة في ترديده ونقله ؟ خبر امرأة العزيز مع فتاها . وماذا قُلن ؟ .

قد قلن: « امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا ، إنا لنراها في ضلال مبين » .

ويلاحظ أن لفظ العزيز يأتي لأول مرة على الإطلاق هنا . وقد جاء على لسان جماعة النسوة ، بل حرصن عليه ، لأن ذوي الأخطار محطُ الأنظار عادة وداثماً لا تُعدم فئات تجد لذة في تسقُّط أخبارهم ونقلها .

ويفهم من كلام النسوة استفظاعهن للعمل الذي أقدمت عليه من ناحية ، ولأنها راودت فتاها ، مملوك سيدها ، من ناحية أخرى . وإن حديثهن هنا مبنيٌ على براءة يوسف التي استنتجها الشاهد من قميصه : فليس هناك تعرّض البتة ، من النسوة ليوسف .

أما كيف وصلت لهن هذه الأخبار والحكم ببراءة الفتى ، فلعل ذلك إنما تمَّ لأن السيد إنما وُجد لدى الباب الذي يشكل الحدود بين المكان الخاص بالزوجة ، والمكان المشاع .

وهناك تم الاتهام ودفعه ، وانتهت المسألة التي فاحت رائحتها إلى الشاهد الحكيم الذي أبان رأيه . وهذه الجزئية على لسان النسوة « قد شغفها حبا »

تبين علمهن الدقيق بحقيقة موقف المرأة من فتاها . وسبب مراودتها له عن نفسه . وهو أن حبه قد خالط شغاف قلبها وانتهى منها إلى أعمق الأعماق .

ويشتم من قول النسوة الاستنكار لموقفها الغريب في نظرهن ، من هذا الفتى .

وقد عبرن جميعاً عن رأيهن في هذة القضية صراحة بقولهن كما جاء في الآية:« إنا لنراها في ضلال مبين » .

فنحن بصدد إن التي تفيد التوكيد ولام التوكيد الداخلة على الفعل « نرى » ولفظة الضلال البعيدة المغزى والصفة « مبين » الدالة على الضلال الواضح البين .

وإن هذه الجزئية « إنا لنراها في ضلال مبين » تفيد معرفة النسوة يقيناً بأن امرأة العزيز مازالت في ضلالها المبين . فنحن نتبين فرقاً بين هذا التعقيب وتعقيب الشاهد المتزن مخاطباً في كثير من اللطف المرأة كما جاء في قوله تعالى:« إنك كنت من الخاطئين » .

وهل غاب هذا القول عن امرأة العزيز ؟ وماذا كان موقفها ؟ قال تعالى:« فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكئاً وآتت كل واحدة منهن سكيناً وقالت اخرج عليهن ، فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشراً ، إن هذا إلا ملك كريم ، قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ، ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين » .

لقد فسرت امرأة العزيز قول النسوة عنها مكراً بهـا لأنه في الخفاء غيبتها ، ولم يكن بطبيعة الحال في صالحها . وإذا كن قد وصلت إليهن المعلومات الدقيقة عنها ، لسعيهن وراء أمثال هذه المعلومات وحرصهن عليها وترويجهن لها ، فقد كانت امرأة العزيز ، التي لا تجهل دورها الإيجابي في هذه القضية ، أكثر سعياً وراء معرفة رد الفعل عند الأخريات ، إن

صح أن تسربت إليهن عنها أنباء . وقد وصل إلى علمها يقيناً أنهن قد مكرن بها فعلاً .

وتأمل الفعل الذي استخدمته الآية « فلما سمعت » إنّ ما وصل إليها من قولهن عنها ، كان من الموافقة لحقيقة ما تعرف من موقفها ، حتى لكأنها قد سمعت بأذنيها ما قلنه عنها حرفاً حرفاً . وإذا كانت هذه المرأة لم تتورّع عن اتهام الفتى البريء فهل ينتظر منها أن تترفع عن تأويل قول النسوة عنها بأنه مكرٌ بها ؟

إنّهن قد مكرن بي ، فعليّ أن أبادلهن مكراً بمكر . بل أن أثبت لهن أنّ مكرهن لا يقاس شيئاً بمكري . فإذا كان مكرهن قد وقف عند حدّ القول فسيتخطاه مكري إلى الفعل . فماذا عملت ؟ قال تعالى:« فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكئاً وآتت كلّ واحدة منهن سكيناً وقالت اخرج عليهن » .

لقد عرفت هذه المرأة التي نوت المكر كلّ واحدةٍ من اللائي قلن عنها ما قلن . فرسمت خطة دقيقةً لتبرير موقفها من يوسف أمامهن ، وهن اللائي لمنها لوماً عنيفاً لا هوادة فيه . إنّ امرأة العزيز التي شغف فؤادها حبُّ يوسف ، للصّورة التي خلقه الله تعالى فيها ، تعرف ردّ الفعل عند النسوة ، لو خرج عليهن يوسف ، خاصةً إذا كان في زينته .

فقرّرت دعوتهن جميعاً في بيتها ، وانتقت طعاماً معيناً لا يؤكل حتى يُحمل في يد ويحزّ بالسكين ، باليد الأخرى حزاً . وفي اللحظة التي كان فيها وضع النسوة هكذا ، أمرت يوسف بأن يخرج عليهن .

ونستطيع أن نستنتج أنّها تعمدت جعله في كامل زينته . وإنّا لنتساءل : لماذا جاء في الآية الكريمة جملة « أخرج » وليس « أدخُل » مثلا في قوله تعالى:« وقالت أخرج عليهن » ؟

والجواب على ذلك ، والله أعلم ، هو أن امرأة العزيز ما زالت تذكر

تماماً فرار يوسف منها دائماً ، وكان نجاح خطتها متوقفاً على خروج يوسف على النسوة فهو أهمّ ما في الأمر . فما أسهل دعوة النسوة وتلبيتهن للدّعوة! وهنّ اللاتي يعتبرن ذلك شرفاً كبيراً لهنّ ، وتهيئة الطعام والسكاكين . وهنا نعتقد ، والله أعلم ، أنّ امرأة العزيز . كي تضمن تنفيذ يوسف لما تريده منه ، جعلت النسوة في مكان قريب من الباب الخارجي ، وجعلت يوسف في مكان آخر في عمق المنزل ، يُعتبر انتقال يوسف منه إلى مكان النسوة خروجاً وليس دخولاً ولهذا جاء في الآية « وقالت اخرج عليهنّ » والله أعلم .

وخرج يوسف عليه السلام على النسوة تنفيذاً لأمر امرأة العزيز ، « وخروجه يدل على طواعيتها فيما لا يعصي الله فيه »(١) قال تعالى:« فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهنّ وقلن حاش لله ما هذا بشراً ، إن هذا إلاّ ملكٌ كريم » . وكان خروج يوسف على النسوة في اللحظة التي اعتقدت المرأة أنّها مناسبة ، وقد ألفت أيديهن تحريك السكاكين لتقطيع الطعام .

وقد فوجئن بخروجه عليهن وقد قيل : «كان فضل يوسف على الناس في الحسن كفضل القمر ليلة البدر على نجوم السماء ، وفي حديث الإسراء أن الرسول ، صلى الله عليه وسلم لما أخبر بلقيا يوسف قيل يا رسول الله كيف رأيته ؟ قال : كالقمر ليلة البدر »(٢) .

وانشغالاً من النسوة به ، وإكباراً منهن له ، استمرت عملية التقطيع ، وتجاوزت السكاكين الطعام إلى أيدي النسوة ، وعملت عملها في الأيدي . ولنتأمل جملة « قطعن » التي جاء فيها الفعل في صيغة فعّل الدالة على تكثير الفعل . إن السكين حينما تلامس لأول وهلة يد أي إنسان وتسيل الدم ، فإنه يُحس في أعماقه بألم لا يطاق ، وهؤلاء النسوة ، لذهولهن بخروج

---

١ ـ البحر المحيط ٣٠٢/٥ .
٢ ـ البحر المحيط ٣٠٢/٥ .

يوسف المفاجيء عليهن استمرت بانتظام عملية تقطيع أيديهن بالإجماع ، دون أن تشعر واحدة منهن لفرط الدهشة بشيء من ألم . وهنا يقول جماعة النسوة بالإجماع أيضاً . كما جاء في الآية « وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم » ومعنى « حاش لله ما هذا بشراً » تعالى يوسف عن أن يكون بسبب جماله الفائق واحداً من البشر إن العادة لم تجر بأن يكون بين البشر من له جمال وطهر وحُسن أحدوثة كالذي صح ليوسف ، إن هذه الصفات مجتمعة لا تصح لبشر . وهنا جاء على لسانهن جميعاً « إن هذا إلا ملك كريم » لقد جعلنه ملكاً لما استقر في جميع النفوس من كون الملائكة القمة في الجمال والطهر . بل إنهن نعتّن هذا الملك بأنه كريم . وليس وراء هذه الصفة وراء ، في تبيين إكبار النسوة ليوسف الذي وافق مظهره ما صح من مخبره .

وهكذا كسبت امرأة العزيز الجولة ، وأثبتت للنسوة أن مكرها أبلغ من مكرهن ، وحينما استقر في نفسها أن لومهن لها قد ذاب في غمرة إكبارهن ليوسف إذا بها تلتفت إليهن مؤنبة لهن على قولهن عنها من قبل « امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا ، إنّا لنراها في ضلال مبين » وتقول لهن الآن وهن في غمرة الاندهاش ، كما جاء في الآية « قالت فذلكن الذي لمتنني فيه » .

لقد أدرك جماعة النسوة حينما خرج عليهن يوسف عليه السلام الغرض الذي من أجله دعتهن امرأة العزيز ، وهو تبرير موقفها . وعرفن ضمناً أنه بلغها لومهن لها . والآن . وقد كسبت الجولة ، تفاجئهن بالإشارة لأول مرة إلى الفتى الغائب الحاضر ، الذي لمنها فيه من قبل ، والذي كان تلك اللحظة أمامهن . فـَ « ذا » اسم إشارة ، والمراد يوسف الحاضر آنذاك ، واللام للبعد . والمراد الفتى الذي لمنها فيه وها هو ذا واقف أمامهن . ونون التوكيد الثقيلة التي يمكن الاستغناء عنها في « ذلكن » ، لولا حرص المرأة

عليها لشد انتباه النسوة إلى أنها تخصهن بالقول الذي كان مفاجئاً لهن بذاته ، فكيف به وهو في هذه الصورة القوية من التعبير .

وحينما نتبين أن « ذلك » يشار بها إلى المفرد البعيد بُعداً بيناً ، وأن ذلك المفرد هو الفتى في قول النسوة:« امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه » وأن ذلك الفتى هو يوسف الواقف أمامهن آنذاك ، ندرك المغزى البعيد الذي ترمي إليه امرأة العزيز في توجيه الخطاب للنسوة اللاتي لمنها . ونتبين رغبتها الأكيدة في الانتقام ممن لامها محقاً ، ونتمثل نقلتها المفاجئة العنيفة لهن من الحاضر المذهل إلى ماضي قولهن الذي أردْن له أن يكون سراً وأن يبقى كذلك دائماً . وواضح أن اسم الموصول « الذي » من قولها:« فذلكن الذي لمتنني فيه » يعود على يوسف القريب منهن . قد أدخلت نون التوكيد الثقيلة في هذه الجملة « لمتنني فيه » .

لقد كان لوم النسوة للمرأة عنيفاً في نظرها ، ولكنّ ردّها عليهن أكثرُ عنفاً ، إذ جمع بين الفعل والقول .

والعجيب في أمر هذه المرأة أنها استطاعت أن تضبط لسانها ، حتى نجحت خطتها ، التي كانت واثقة من نجاحها الثقة كلها . وحينما واتتها فرصة الكلام كان تأنيبها لاذعاً ، وتبكيتها مرّاً ، يلفهما التلذُّذ بفرحة النصر والتشفي من العواذل .

وبما أن لومهن قد زال ، لأن السبب الموجب له قد زال ، فقد اتضح يوسف عليه السلام لهن على حقيقته ، وتحول عذلهنّ إلى عُذر ، فإنها انتقلت إلى الاعتراف أمامهن صراحة ، وفي صورة قوية جداً من التعبير ، بأنها هي التي راودته عن نفسه وأنّه استعصم ، فقد جاء في الآية على لسانها « ولقد راودته عن نفسه فاستعصم » إن امرأة العزيز التي سبق أن اتّهمت الفتى أمام زوجها بأنه هو الذي أراد بها سوءاً ، تعترف الآن أمام جماعة النسوة ، دون أن يطلب منها ذلك ، بل دون أن يكون منهن الآن ، أدنى

إشارة إلى قصتها مع الفتى ، بل دون أن يكون هناك حديث من قُرب أو بُعد عن ذلك الموضوع أو آخر قريب منه . ولعل بعض النسوة كن قد نسين حقاً لومهن السابق لها . ولكن حبّ امرأة العزيز الدائم للفتى ، جعل قولهن عنها حياً في نفسها ، وتمثلته مكراً منهن بها ، فبادلتهن مكراً بمكر . وحينما اطمأنت إلى زوال سبب لومهن لها اعترفت بكل بساطة بالحقيقة أمامهن . فما معنى هذا ؟ هل معناه أن المرأة في خصوصياتها للمرأة آلف ؟ ربّما .

ولا يخفى أننا بصدد أول اعتراف صريح من امرأة العزيز ببراءة يوسف وطهره .

وإن الضمير في « راودته » يعود إلى يوسف الذي كان آنذاك يسمع ويرى . وهي لم تعترف بمراودتها يوسف عن نفسه فقط ، بل وباعتصامه منها ومبالغته في الاعتصام ، قال الزمخشري(١) وقد وافق قوله ما في نفسي « الاعتصام : بناء مبالغة يدلّ على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد ، كأنه في عصمة وهو يجتهد في الاستزادة منها » .

وهنا تنتقل إلى تهديد الفتى إن أصر على الاستعصام والرفض . قال تعالى على لسانها « ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصّاغرين » .

ونعتقد أن الذي شجع المرأة على تكرار الطلب من يوسف وتهديده بالسجن والصّغار إن لم يغير من موقفه ، إنه رأى بعينيه مدى نجاح مكرها بالنسوة فليس المراد بالمكر النسوة فقط ، بل ويوسف أيضاً . وإن عبارتها لغاية في القوة ، فنحن بصدد لام القسم ، ونونين للتوكيد .

ويلاحظ أنها لا تكتفي بالاعتراف أمامهن بالمراودة من ناحية والاستعصام من ناحية أخرى . بل تجدد طلبها صراحة أمامهن أيضاً ، لا ، إنها تتخطى التلميح والتصريح إلى الأمر الصريح « ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين » وإذا كانت في اتهامها يوسف أمام زوجها قد عينت نوعين

---

١ ـ الكشاف ١٣٥/٢ .

من الجزاء « أن يُسجن أو عذاب أليم » لأن العذاب المترتب على السجن إنما كان من الجائز أن يصح على يوسف ، لأنها كانت آنذاك تعتقد أن التهمة لاصقة بيوسف لا محالة ، فإنها الآن ، وقد ثبتت براءته ، أمام زوجها والشاهد من قبل ، وأمام جماعة النسوة أيضاً . تعين نوعين من العقاب مصدرهما الكبرياء المجروح . والعزة الآثمة . إن الصّغار والذل مترتبان على السجن . وقد كانت هذه المرأة بحكم سيطرتها على العزيز زوجها . قادرة على ذلك .

وكان جواب يوسف الذي يخشى الله تعالى في السّراء والضرّاء منطقياً ، فقد آثر السجن على ما أُمر باقترافه من معصيته ، ويستعين بربّه . معلناً عن عجزه ، بأن يصرف عنه كيدهنّ ، ويستجيب له الذي يجيب المضطرّ إذا دعاه ، فيصرف عنه كيدهنّ ، ويكاد يعيش في أمن وسلام .

ولكنّ المجتمع غير صحيح العقيدة ، يأبى رجاله ، الذين يوجههم في العديد من الأمور نساؤهم ، إلا أن يزجّوا بيوسف في السجن حتّى تهدأ الشائعات عن النّسوة . ومتى كان ذلك ؟ من بعد أن رأوا الآيات الكثيرة على عفاف يوسف وطهره ! قال تعالى:« ثمّ بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننّه حتّى حين » .

ودخل مع يوسف السجن فتيان ، عبر لكلّ منهما رؤياه وطلب من الساقي الذي ظن أنه ناج منهما أن يذكره عند سيّده الملك ، وشاءت إرادة الله تعالى أن يُنسي الشيطان الساقي ذكر يوسف للملك ، فلبث في السجن بضع سنين ، وكاد يبقى فيه إلى أن يتوفى لولا أن رحمة الله تعالى شاءت أن يرى الملك رؤيا يعجز الكلُّ عن تأويلها ، وهنا يتذكر الساقي يوسف ، ليس صاحبه في السجن ، ولكن المعبر للرُّؤى . ولا يبخل يوسف على الساقي بتعبير رؤيا الملك ، وبالنصيحة . ويمنحهم ما علمه الله إياه عن العام الخامس عشر ، ويفرح الملك لتعبير الرُّؤيا المقنع ، ويتعجب من وجود مثل هذا الفتى في السجن ، ويدرك أن في الأمر لُغزاً .

ويطلب يوسف إليه ، ويرفض يوسف الطلب ، ويشترط قبل خروجه سؤال النسوة اللائي قطعن أيديهن . قال تعالى:« وقال الملك ائتوني به ، فلما جاءه الرّسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهنّ ، إن ربي بكيدهن عليم » . ويتصدّى الملك العادل لدراسة القضية بنفسه ويتضح له كلُّ شيء . قال تعالى:« قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ، قلن حاش لله ماعلمنا عليه من سوء ، قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحقّ ، أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين » .

وإنا لنتساءل : لماذا وجه الملك خطابه لكلّ النسوة؟« ما خطبكن إذ راودتنّ يوسف عن نفسه » .

وليس لامرأة العزيز مثلا ؟ .

ولا ننسى أن إشارات يوسف تحوّلت إلى مراودة جمع النسوة أيضاً ، وفيهنّ امرأة العزيز بطبيعة الحال قال تعالى:« قال ربّ السّجن أحبُّ إلي مما يدعونني إليه ، وإلا تصرف عني كيدهنّ أصبُ إليهنّ وأكن من الجاهلين ، فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهنّ ، إنه هو السميع العليم » .

ولا يخفى أنه جاء في الآية الأخيرة « كيدهنّ » .

وجاء على لسان يوسف أيضاً قوله تعالى:« إنّ ربي بكيدهنّ عليم » فلماذا هذا التحوّل إلى ضمير جماعة النسوة ؟

والجواب على ذلك ، والله أعلم ، أن مراودة يوسف عن نفسه كانت وقتاً من الأوقات من امرأة العزيز ، وحينما مكرت بهن ، وقطعن أيديهنّ وقد خرج يوسف عليهنّ ، على الرغم من أن المرأة كسبت الجولة . وانتزعت عذرهن لها ، إلا أنها ، وهذا لم يخطر على بالها مطلقاً ، خسرت مشاركتهن لها في الإعجاب بيوسف ، والافتتان به ، والتصدي له . بل ومراودتهن له عن نفسه أسوة بامرأة العزيز .

ونحن نعتقد والله أعلم ، أن النسوة لم يكتفين بالقول ليوسف أطع مولاتك ، بل لعلهن لم يقلن له ذلك أصلا . ولعل الأقرب أن تكون كل واحدة منهن حريصة على الاستئثار به دون سواها ، ولو كانت امرأة العزيز .

ومما قد يدلُّ كذلك على أن هذا هو الموقف الجماعي للنسوة ، وأن المسألة لم تعد تخصُّ العزيز وامرأته . هذه الآية ، قال تعالى:« ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتّى حين » .

إنها لا تستعمل ضمير المفرد الغائب كي يقال إنه يعود على العزيز ، وإنما تستعمل ضمير جماعة الغائبين ، الذي يعود على جماعة ، ومن بينهم العزيز .

كان ذلك هو رد الفعل عندهم ، تحت تأثير النسوة في رجالهن وغلبتهن عليهم .

فليست امرأة العزيز الّتي قالت عن يوسف:« ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصّاغرين » سوى رمز لجماعة نسوة ، من طراز معين ، وجدن في ذلك المجتمع غير صحيح العقيدة . والرّاجح أن السجن تمّ بأمر العزيز .

وقد يقول قائل : لعلّ الملك من باب الأدب عمّم الاتهام للنسوة فجاء على لسانه « ما خطبكنّ إذ راودتّنّ يوسف عن نفسه » . ونحن نربأ بهذا الملك العادل الذي اتضحت له القضية تمام الوضوح ، ودور كلّ شخصية فيها ، أن يتّهم جماعة النسوة بما جنته امرأة العزيز فقط .

وإنّ أدب هذا الملك العادل وخلقه العظيم يتّضح من تسويته في المراودة امرأة العزيز بالنسوة . والمعروف أنها تخطت المراودة المجرّدة إلى العمل الإيجابيّ فالأمر الصريح والتهديد البيّن .

وإنّ الملك . استفظاعاً منه بفعلهن جميعاً مع يوسف يقول لهنّ : « ما خطبكنّ » والخطْب : الشأن والأمر الذي فيه خطر(١) .

ولا يدفع النسوة التهمة عنهنّ ، ولايتحدثّن عن أنفسهن حديثاً مباشراً ، ولكن ينزهن يوسف عليه السلام عن أيّ سوء ويفهم من هذا التنزيه أنهن أكرهن إكراهاً على أن يكن نزيهات . فلم يكن ذلك بمحض إرادتهنّ . قال تعالى على لسانهنّ: « قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء » . ويقال هنا ما قيل عن حاش لله من قبل على ألسنتهن في قوله تعالى:« وقلن حاش لله ما هذا بشراً » .

وإنّ جماعة النسوة وقد قُدّر لهنّ أن يخرج يوسف أوّل الأمر عليهنّ ، ويعرفن حقيقته حق المعرفة ؛ لينقلن هذه المعرفة في القول الذي جاء على لسانهنّ « ما علمنا عليه من سوء » إنهن لا يقلن مثلا :« ما سمعنا عليه من سوء » فدلّ قولهنّ على علمهنّ اليقينيّ بطهر يوسف عليه السلام . ثم قد كان بإمكانهن أن يقلن:« ما علمنا عليه سوءاً » ولكنهن يحرصن على « مِنْ » التي تفيد التبعيض . فدلّ ذلك على أنهن حريصاتٌ على نفي أي ذرّة سوء عن يوسف عليه السلام .

وهنا تنطق امرأة العزيز بالحقّ . وتتوّج بشهادتّها على نفسها براءة يوسف عليه السلام . قال تعالى:« قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحقّ ، أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين » .

وهذا الذي جاء على لسانها ينقسم إلى ثلاثة أقسام:« الآن حصحص الحقّ » و « أنا راودته عن نفسه » و « إنه لمن الصادقين » . ويعتبر القسمان الأخيران تبييناً للأول . وهي تبدأ حديثها بقولها:« الآن » فكأنها تفصل بهذا الابتداء بين فترتين ، تتميز ثانيتهما بما ليس في الأولى . وهذا الذي تتميز به الثانية هو الحقّ الذي تبين بعد طول خفاء . وما هو الحق ؟ إنه

---

١ ـ البحر المحيط ٣١٣/٥ .

الذي أشار إليه القسمان الأخيران . وأول هذين « أنا راودته عن نفسه » يتعلق بامرأة العزيز نفسها . فنحن بصدد اعتّراف صريح بأنها هي الّتي راودت يوسف عن نفسه .

ونحن بصدد اعتّراف . إذا نُظِر إليه من زاوية اعتُبرَ تطوّراً . وإذا نظر إليه من أخرى اعتبرَ جديداً . إنه يعتبر تطوراً إذا نظرنا إليه من زاوية أن هذه المرأة سبق أن اعترفت بذلك صراحة أمام جماعة النسوة اللآتي مكرن بها . فقد جاء على لسانها في قوله تعالى:« ولقد راودته عن نفسه » .

ووجه التطور فيه أنه هناك في أضيق نطاق ، بينما هو هنا في أوسعه . وإنه يعتبر جديداً ، لأن اعترافها السابق أمام النسوة ، لم يكن القصدُ منه الإحسان إلى يوسف بتبرئة ساحته ، ولكن لغايةٍ في نفسها .

إذن اتخذت الاعتّراف مطيّةً للانتقال من المراودة إلى الأمر الصريح ثمَّ إنّ هذا الاعتّراف لم ينتفع منه يوسف آنذاك شيئاً ، فقد كان في الفتّرة الّتي ما زال يهيمن فيها على امرأة العزيز الباطل . بعكس هذا الاعتّراف الثاني أمام الملك الذي له دورٌ في تبيين الحقّ الذي حلّ محل الباطل .

وثاني القسمين الأخيرين:« وإنه لمن الصادقين » له الدور الباقي في تبيين ذلك الحق . فإذا كان القسم السابق يتعلق فقط بموقف المرأة المتعرضة ليوسف فإنّ هذا القسم الأخير ، يتعلق من ناحية ، بموقف يوسف عليه السلام الذي صرف الله تعالى عنه كيدهن ، ومن ناحية أخرى بصدقه في كل ما قال . وإن القسمين الأخيرين لقويا الدلالة . فقد ابتدأ الأول بالضمير « أنا » وليس وراءه قوة في بلاغة الدلالة . أما القسم الثاني فقد اشتمل على إن الّتي تفيد التوكيد واللام الّتي تفيد التوكيد أيضاً من قولها « لمِنَ الصادقين » .

ونحن نتبين نوعاً من التشابه بين ما جاء على لسانها هنا « وإنه لمن الصادقين » . وما سبق أن جاء على لسان الشاهد قبل أن تثبت له براءة يوسف في قوله تعالى:« وإن كان قميصه قُدَّ من دُبر فكذبت وهو من

الصادقين » وكأن كلام الشاهد الحكيم ما زال يدوي في أذنيها وقد استيقظ ضميرها . وحينما تثبت براءة يوسف ، باعتراف المرأة الصريح ، تثبت ضمناً نزاهة الشاهد الحكيم .

ولا يخفى أن جواب النسوة المنفصل عن جواب امرأة العزيز كان ردّاً على استفهام واحد من جانب الملك في قوله تعالى على لسانه:« قال ما خطبكنّ إذ راودتنّ يوسف عن نفسه » . وإنّ هذا الاستفهام الواحد فهمه جماعة النسوة فهماً معيناً ، وفهمته امرأة العزيز فهماً معيناً . وهما فهمان ، موافقان للموقف الفعليّ لهنّ من يوسف عليه السلام . وقد كانا جوابين موافقين للموقف من يوسف ممّا يجعلنا نقول : إن شخصيات نسوة المدينة تطورت تطوّراً جماعياً ، متجهاً حيث الخيرُ والنهاية السعيدة . وإنّ شخصية امرأة العزيز أيضاً تطورت تطوراً فردياً سريعاً متجهاً حيث الخير والنهاية السعيدة كذلك .

وحينما نتبين أنّ موقف النسوة ، وفيهن امرأة العزيز متطرّف من يوسف عليه السلام ، وأنّ امرأة العزيز أكثر تطرّفاً ، فمعنى ذلك أنّهنّ حينما يعدن إلى جادة الصّواب ويقلن الحق ، فإن وقع ذلك على النفوس حُلو ، ولكنّ وقع قول امرأة العزيز أكثر حلاوةً في النفوس . فإذا كانت براءة يوسف عليه السلام تثبت بشهادة النسوة له ، فإن هذه البراءة تتوّج بشهادة امرأة العزيز على نفسها ، وبشهادتها له . ونستطيع أن نفهم المجهود النفسيّ الذي بذله جماعة النسوة وامرأة العزيز في سبيل العودة إلى الحق ، ونستطيع أن نستنتج أنّ المجهود الذي بذله النسوة كبير ، ولكنّ المجهود الذي بذلته امرأة العزيز أكبر .

وفي ضوء كلّ ذلك نستطيع أن نقول بشأن النسوة ، إن هناك استيقاظ ضمير جماعيّ ، ولكنه بشأن امرأة العزيز أكثر استيقاظاً .

ففي مثل هذا الظرف عودة المجموعة إلى الصّواب أسهل إذ لا يُعدَم

على أقلّ تقدير واحدةٌ تكون تلك رغبتها فتبدي بها ويتبعها الأخريات .
أما امرأة العزيز ، ذاتُ الموقف الأكثر إيجابية من يوسف ، فقد كانت في هذا الظرف وحيدةً ، وفي حاجة لشجاعة أكبر . وعموماً هي في اللحظة الحاسمة لم تفقد هذا ولا ذاك .وقد كان اعتّراف النسوة أمامها ، السابق لاعتّرافها ، بمثابة الشرارة الأولى التي فجّرت الضمير يقظة ، والنفس شجاعة .

وباعتّراف النسوة ، وباعتّراف امرأة العزيز ، انتهت كلُّ أدوار جماعة النسوة وامرأة العزيز في هذه القصّة ، ولا شكّ أنها نهاية طيبة سعيدة لكلّ . إذ يترتب على ذلك راحة ضمير كلّ واحدة مدّة بقائها في الحياة . فإننّا لنرجح أنهنّ جميعاً معذبات الضمير مدة بقاء يوسف في السجن .

والآن نتساءل : وأين عزيز مصر الذي سبق أن اشترى يوسف وطلب من زوجه أن تكرم مثواه عسى أن ينفعهما أو يتخذاه ولداً ؟ أما زال على قيد الحياة أم أنه فارقها ؟ أما زال عزيز مصر أم أنّ منصب عزيز مصر شاغر ؟

للإجابة عن ذلك نودّ أولا أن نتأمل قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام مخاطباً الملك : « قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظٌ عليم » وقد أصبح يوسف عزيز مصر . فكأن يوسف عليه السلام يرشح نفسه لهذا المنصب . وهذا يعني بكلّ تأكيد أنّ العزيز ، زوج المرأة ، لم يكن وقتها عزيز مصر ، فمن غير المعقول أن يرشح نبيُّ الله يوسف نفسه لهذا المنصب لو لم يكن شاغراً . أليس العزيز هو الذي أحسن إلى يوسف الإحسان كله ؟ وقديماً قابله يوسف عليه السلام بالإحسان . ألم يأت على لسان يوسف قوله تعالى : « معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي ، إنه لا يفلح الظالمون » ألم يكن أميناً على عرض العزيز ؟ وكيف يكون منصب عزيز مصر شاغراً ؟ إما أن يكون الرّجل ، وهو المتقدم في السن حقاً ، قد طُلب إليه من قبل أن يتنحى

من هذا المنصب لسواه ، وإما أن يكون هو نفسه قد طلب ذلك من قبل أيضاً ، وقد لُبي طلبه . وإما أن يكون الرجل قد توفي فعلا وغاب من مسرح الحياة أساساً . ومن يدري ؟ ربما كان من الأسباب التّي دعته إلى فكرة تبني الغلام يوسف أول الأمر تقدُّمه في السن ، فكان عنده أملٌ جدُّ ضئيل في الحصول على الذرّية من صلبه ، هذا إن صحَّ أنه لم يكن عقيماً أساساً .

وقد يقول قائل : ولكن زوجه كانت على أقل تقدير ، نصفاً ، فكيف نوفق بين هذه الحقيقة وتقدّمه في السن ؟ والجواب على ذلك أننا لا نعدم في عصر من العصور زوجين هذه حقيقة سنهما . خاصة إذا كان الزوج ثرياً . فإذا أضفنا إلى عمر العزيز المدّة التّي مكثها الغلام يوسف في بيته حتّى صار رجلا ، حتى الفترة التّي بدا لهم فيها من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتّى حين ، والفترة التّي قضاها يوسف في السجن ، انتهينا إلى أنه من الطبيعي جداً ألا يكون العزيز في منصبه .

أما الذي يبين إلى حد كبير هل كان عزيز مصر حياً أو ميتاً ؟ فالصيغة التّي تنطق بها هذه الجملة « ليعلم » من قوله تعالى على لسان يوسف:« ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين » . فإن قرئت في صيغة المبني للمعلوم فمعنى هذا أن العزيز ما زال على قيد الحياة ، ولا يهمنا في قليل أو كثير ، إن كان ما زال يحتفظ بالمرأة زوجاً أو لا ، وإن قرئت في صيغة المبني للمجهول فمن الجائز أن يكون الرّجل على قيد الحياة ، ومن الجائز أن يكون فارقها ، فإنه في هذه الحال ، واحدٌ من الذين يمكن أن يعلموا .

الشـــاهد :

قال تعالى:« وشهد شاهدٌ من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ، وإن كان قميصه قُدَّ من دبر فكذبت وهو من الصادقين ،

فلما رأى قميصه قدّ من دبر قال إنه من كيدكن ، إن كيدكن عظيم ، يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين » .

لقد شاء الله تعالى أن كان الشاهد من أهل امرأة العزيز ، فقد كان بالإمكان ألا يكون منهم . ولم يكن بالإمكان أن يكون من أهل يوسف . وحينما ينتهي الشاهد من أهلها إلى براءة يوسف ، فذلك القمة في الدلالة على نزاهة الحكم .

والحقيقة أن الشاهد بالضرورة ، كان يجب أن يكون من الذين لهم حق دخول بيت العزيز ، لأن هذه القضية من خصوصيات العزيز ، ولا يسمح لأحد في العادة أن يطلع على مثل هذه الخصوصية ، إلا إذا كان شخصاً بمنزلة الحكم من أهل الزوجة .

ونعتقد أن الشاهد حينما تدخل كانت الأزمة في أوجها ، وقبل أن يتسرب أيُّ خبر يوهم بأن له دوراً ما في توجيه الشاهد وجهة معينة ، لهذا كان حكمه فيصلا في القضية . وقد منح الله تعالى هذا الشاهد من أهلها عقلاً راجحاً وفكراً ناضجاً .

ومع ذلك فقد كان هواه مع امرأة العزيز ، وكان يتمنى في أعماقه أن تثبت براءتها ويدان الفتى . أليس هو الذي جاء على لسانه أولا كما في الآية ؟ « إن كان قميصه قُـد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين » لقد فكر الشاهد بأن القميص الذي قُدّ ، لا يمكن إلا أن يُقدّ ، بناءً على ما بلغه من الاستباق حيث الباب والصراع بينهما ، إلاّ من قبل أو دبر . وكان يتمنى لو أنه قُدّ من قُبل ، وفي ذلك دليلٌ على براءة الزوجة ، فإن ذلك يعني أنها قاومت الفتى ودفعته عنها أو أنه أسرع خلفها فتعثر في قدّام القميص فشقه . وحينما يثبت صدق المرأة يثبت كذب الفتى .

ولكنّ الفكر والحقّ شيء والهوى والرّغبة شيء آخر . وكان العدل يقتضي منه أن يعقد المقابلة المنطقية ، فإن كانت براءتها تثبت لو قدّ قميصه

من قبل ، فإن براءته تثبت لو قُدّ قميصه من دبر وقد فرّض العدل وإعطاء الفرصة العادلة للمتحاكمين ، أن يقول الشاهد كما جاء في الآية « وإن كان قميصه قُدّ من دبر فكذبت وهو من الصادقين » ويأبي الله إلا أن يُحقّ الحق ويزهق الباطل ، قال تعالى عن الشاهد:« فلما رأى قميصه قدّ من دبر قال إنّه من كيدكن ، إنّ كيدكن عظيم » .

لقد وضع الشاهد الحكيم قاعدتين تثبت بإحداهما براءة امرأة العزيز . وبثانيتهما براءة الفتى يوسف . وقد أعلنهما أمام الحاضرين . والآن هو يطبق كلا من القاعدتين على واقع القميص ، وتتضح القاعدة الّتي تثبت براءة الفتى ، ولا يتردّد الشاهد العادل في إعلان الحكم على رؤوس الأشهاد « إنه من كيدكن ، إن كيدكن عظيم » .

ويلاحظ أن الشاهد يظلّ لطيفاً في تعبيره ، فلا يتضمن الحكم ضمير المؤنثة المخاطبة . فلم يقل مثلا إنّه كيد منك أو ما شابه ذلك . ولكنه أدب منه يُدخل امرأة العزيز ضمن جماعة النسوة ، ويجعلها واحدة من جنسهن في قوله:« إنّه من كيدكنّ » وقد وصف كيد النسوة عموماً بأنّه عظيم كما جاء في الآية « إنّ كيدكنّ عظيم » وهي شهادةٌ من الحق جلّ وعلا بأنّ هذه هي صفة كيد النسوة ، وهو كيد عظيم في هذه المناسبة ، لأنّا لو افترضنا أن الشاهد في حالة مماثلة لهذه ، لم يكن بهذه الدّرجة من الحكمة ، أو لم تكن عنده الحيثيات الّتي تجعله يُصدر حكماً عادلاً ، أو لو كان الشاهد غير عادل ، أو غير قوي الشخصية ، فما هي النتيجة المرتقبة لاتّهام خطير جائر من امرأة تستمد قدرتها على الظلم من كيدها ومنزلتها المرموقة المستمدة من منزلة زوجها ؟ النتيجة أن البريء يتزيا بغير زيّه وقد تزيّا به المتهم الحقيقي .

وإذا كان يوسف عليه السلام قد زُجَّ به في السجن ظلماً وعدواناً وقد ثبتت براءته التامة ، فكيف يكون موقف القوم منه ؟ لو لم يكن الشاهد بهذه

الحكمة والنزاهة ؟ والحيثيات بهذا الوضوح في الدلالة ؟ وقد شاءت إرادة الله تعالى ، الذي كان دائماً مع عبده المحسن يوسف عليه السلام ، أن يكون الشاهد تلك صفاته ، فاستفاد من كلّ الملابسات التي كانت في صالح يوسف عليه السلام .

وإذا كان الشاهد مؤدباً مع المرأة في تعبيره عن نتيجة الحكم ببراءة يوسف ، حينما قال كما جاء في الآية:« إنّه من كيدكن ، إن كيدكن عظيم » ونظن أن لمكانتها الاجتماعية دوراً في تلطيف الخطاب إليها ، فإن للمكانة نفسها أيضاً دوراً في قوله التالي كما جاء في الآية:« يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك ، إنك كنت من الخاطئين» . فنحن لا نتبين شيئاً من التناسب بين ما هدّد به يوسف من السجن والعذاب الأليم على لسان امرأة العزيز ، وبين ما يطلب منه الآن أن يفعل وقد ثبتت براءته . إنه يطلب منه فقط ، أن يُعرض عن هذا الأمر ، وألا يذكره مرّة ثانية . ويكتفي الشاهد بأن يطلب من امرأة العزيز أن تستغفر لذنبها لأنها كانت من الخاطئين . ويلاحظ أن الشاهد يجعل المرأة الخاطئة من الخاطئين ، وليس من الخاطئات مثلاً ، وكأن منزلتها العالية ما زال لها دورها وأثرها في مخاطبة الشاهد لها . فالمعروف أنّ الخاطئين ، بصيغة جمع المذكر السّالم ، تضمّ في مثل هذه الحال عادة الذّكور والإناث ، وكأن الشاهد ، أدباً منه ، يجعل المرأة واحدة من الخاطئات والخاطئين ، وهم كثير . وفي الحقيقة هي تستحقّ غير ذلك وكأن خُلق يوسف الرّفيع وحُسن أدبه ، أثّرا في الشاهد فكان في كلامه شيء كبير من اللطف والأدب .

ولا ننسى أيضاً أن الشاهد في هذه القضية ، له سلطة أدبيّة وليست رسمية . فلم يكن مثلاً قاضياً أو حاكماً كي ينتظر منه أن يصدر حُكماً في تلك القضية التي أوقفت عند ذلك الحدّ لأن المرأة هي المتهمة ، وليس لأن يوسف هو البريء . والحقيقة أن مثل هذا التصرف قد لا يستغرب في ذلك المجتمع غير صحيح العقيدة .

الفتيان ، صاحبا يوسف في السجن :

قال تعالى:« ودخل معه السجن فتيان ، قال أحدهما إني أراني أعصر خمراً ، وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطّير منه ، نبئنا بتأويله ، إنا نراك من المحسنين » وأوّل ما نودّ الوقوف عنده هو دخول الفتيين السجن فهل كانا يستحقان الدّخول فعلاً أم أنهما ، أو أحدهما ، ناله شيء من الظلم الذي نال يوسف عليه السلام ؟ والحقيقة أنّ البت في مثل هذا الأمر مستحيل ، فمن الجائز أن يكونا مظلومين ، وكان نصيب الذي قتل منهما من الظلم كبيراً ومن الجائز أن يكون كلّ منهما قد نال جزاءه الذي يستحقّ فنجا البريء وصلب المذنب .

وأوّل ما يلاحظ على هذين الفتيين السنّ ، فهما مماثلان للفتّي يوسف ، ألم يجيء على لسان نسوة المدينة « امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه » وهذه المماثلة من رحمة الله تعالى بيوسف . فالمعروف بصفة عامة . أن المرء آلف لمن هو في سنه وأكثر إقبالا عليه .

وإنّ رحمة الله تعالى اقتضت أن يدخل السجن هذان الفتيان بالذات . مع يوسف رجلا برجل . وفي ذلك نوع من التسلية له .

ونستطيع أن نفهم في مثل هذه المواقف ، رغبة الأطراف الطبيعية في كسب حبّ الآخرين ، بالإقبال عليهم والاندماج فيهم وحسن التعامل معهم.

وكان يوسف عليه السلام بطبعه خير من يألف ويؤلف . وقد ضرب المثل الأعلى في السجن ، دماثة خلق ، وحسن معاملة ، ولين جانب ، وقمة طهر .

وتشاء إرادة الله تعالى أن تجعل كلا من الفتيين المشركين يرى رؤيا صادقة ، في وقت واحد ، وتشاء إرادة الله أن تكون هناك علاقة وثيقة بين الرُّؤيا والعمل الأصليّ لكل . فساقي الملك يرى نفسه يعصر عنباً ، وقد سمي بالخمر لما يؤول إليه .

وخبازه يرى نفسه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه . ويطلب كل من الفتيين من يوسف عليه السلام ، المماثل لهما سناً ، أن يؤولهما لهما . وقد نعتاه بالقول:« إنّا نراك من المحسنين » .

وكان يوسف عند حسن ظن الفتيين ، فعبر لكل رؤياه ، قال تعالى: « يا صاحبي السجن أمّا أحدكما فيسقي ربه خمراً ، وأمّا الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه ، قضى الأمر الذي فيه تستفتيان » .

ويتحقق تعبير يوسف لرؤيا كل من الفتيين بحذافيره ، ويغيب من مسرح الحوادث الذي صلب منهما بطبيعة الحال ، وهو الشخصية الوحيدة سيئة الحظّ في قصة يوسف لأن نهايته غير سعيدة .

وفي الوقت نفسه تثبت براءة الساقي ويخرج من السجن بعد أن أوصاه يوسف عليه السلام أن يذكره عند سيّده الملك .

ولا ننسى أن العلاقة بين يوسف الفتى والساقي الفتى علاقة مودّة ، ليس بسبب الموافقة في السن فقط ، بل لأن الساقي اعتبر تعبير يوسف لرؤياه بشارة له .

وقد كان المأمول ألاّ ينسى الساقي يوسف بصفة عامة ، الذي طوّق جيده بهذا التعبير ، فكيف به وقد طلب يوسف منه ذلك ؟ وكيف به وهو ساقي الملك يراه باستمرار .

وتشاء إرادة الله تعالى ألاّ يتذكر الساقي يوسف إلاّ وقد عجز أهل الحلّ والعقد عن تعبير رؤيا الملك ، وهنا فقط ، وبعد بضع سنين ، بسبب هذا العجز المجمع عليه يتذكّر الساقي يوسف ، ليس صاحبه في السجن ، إنّما المعبر للرؤى ! قال تعالى:« وقال الذي نجا منهما وادّكر بعد أُمة أنا أُنبئكم بتأويله فأرسلون ، يوسف أيُّها الصديق أفتنا في سبع بقراتٍ سمانٍ يأكلهنّ سبع عجاف وسبعِ سنبلاتٍ خضرٍ وأُخرَ يابسات لعلّي أرجعُ إلى الناس لعلهم يعلمون » .

ويلاحظ على كلام الساقي تمام الاطمئنان والثقة .

فعلى الرغم من أنه ليس في الواقع هو الذي سيعبر الرُّؤيا ، إلا أنه يبدأ حديثه مستخدماً ضمير المفرد المتكلم . « أنا » وقد أردف ذلك بقوله: « أُنبئكم بتأويله » وكأنه هو الذي يقوم بهذه العملية لولا قوله:« فأرسلون » الذي أشعرنا بأن الذي سيقوم بهذه العملية شخص آخر بعيد عن مكان الملك بعداً مّا .

وحينما يقول الساقي: « أنا أُنبئكم بتأويله » فذلك يذكّرنا بقوله هو ورفيقه في السجن ليوسف « نبّئنا بتأويله » .

وحينما نتبين أنّ خاصة الملك ، وذوي الرأي والمشورة ، أجمعوا على العجز عن تعبير الرُّؤيا . بل واعتبارها أضغاث أحلام . ويأتي في هذه اللحظة الحرجة ساقٍ يعبر في لهجة الواثق عن قدرته على تعبير هذه الرُّؤيا التي عجز عنها الخاصة ، وهو الذي لم يشمله أساساً طلب تعبير الرؤيا . فذلك دليل على ثقته البعيدة في كلّ ما سيقوله يوسف السجين آنذاك .

وهي ثقة مستمدة مما سبق أن أخبره هو وصاحبه . عما سيحدث لكلّ مستقبلاً . وقد تحقق كله بحذافيره .

ونستطيع أن نفهم أنّ الساقي شعر آنذاك بغمرة الفرح تملأ جوانب نفسه . حيث إنّه سيحلُّ ما أشكل على أهل الحل والعقد . وهو رجل ذكيّ فهم أن الرؤيا ليس لها علاقة مباشرة بذات الملك . وليست رؤيا يمكن أن تكون نهايتها غير سعيدة كرؤيا الخباز مثلا .

لهذا كان شعوره بالسعادة كبيراً ، وبالإشفاق ألاّ يجد يوسف في السجن كبيراً أيضاً .

ولا نشك أنه كان يشعر في قرارة نفسه بأنه سيقدّم للملك يداً بيضاء . تؤكد وفاءه السابق الذي خرج بسببه من السجن سابقاً .

لهذا استعمل في تعبيره ما يدل على إحساسه بالقدرة على عمل ما لم يستطع عمله الآخرون .

وقد قيد ذلك على الإطلاق بقوله: « فأرسلون » .

والآية التالية التي تشعرنا بأن الساقي قد ذهب إلى يوسف فعلاً وقابله تبتديء بذكر اسم يوسف صراحة وإن ذكر اسم يوسف صراحة في هذه المناسبة يشعرنا بالمنزلة الرّفيعة التي يتمتع بها يوسف عليه السلام عند الساقي . وهو رمز لسواه . فهذه هي المنزلة التي يتمتع بها في نظر الجميع . وإن ذكر اسمه صراحة في مخاطبة الساقي له يذكرنا بالطريقة نفسها التي خاطب بها الشاهد يوسف عليه السلام . وقد شهد قميصه ببراءته . حيث قال كما جاء في الآية: « يوسف أعرض عن هذا » والملك في مخاطبة النسوة مستقبلاً يصرّح باسم يوسف . إكباراً منه ليوسف الذي لم يكن حاضراً آنذاك .

وفي طريقة مخاطبة الساقي ليوسف شيء كبير من الإكبار والإجلال . أليس هو القائل: « أيُّها الصديق » ؟ ألم يقل الملك الوقور للملأ من قبل: « يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون » ؟ ألم يقل الإخوة فيما بعد كما جاء في الآية: « قالوا يا أيها العزيز إنّ له أباً شيخاً كبيراً » ؟ ألم يأت على لسانهم في الرّحلة الثالثة « يا أيُها العزيز مسنا وأهلنا الضرّ » ؟

ثم إن الساقي ينعت يوسف عليه السلام بالصدّيق . وهو بناء مبالغة(١) ألم يبيّن له صدقُ كل ما أخبر به ؟ لهذا هو لا يقتنع بنعت يوسف بالصادق . ولكن بصيغة المبالغة هذه . وكيف لا يكون وضع الساقي هكذا وقد تحقّق كلُّ ما قاله يوسف له ولرفيقه الخباز ونحن نعتقد أن السّاقي إنما استدل على قدرة يوسف الخارقة على تعبير الرُّؤى مما حدث لزميله بأكثر مما حدث له . وتفسير ذلك هو أنّه ما أسهل فرار المسؤولين في أمثال هذه المناسبات إلى التأويل السعيد ! فإن صحَّ ذلك نالوا خيراً . وإن كان العكس أمنوا من أدنى

---

١ ـ البحر المحيط ٥/٣١٥ .

إساءة تلحقهم .وإن الأمر يختلف بالنسبة للنوع الآخر للرؤى ، من جنس ما رأى الخباز وحينما يتحقق له كل ما قاله يوسف ، فإن ذلك يجعل الساقي يوقن بأن ما قاله يوسف عن علم وليس مجرَّد مصادفة . وإنا لنستطيع أن نفهم أن الساقي كان حريصاً على اختبار قول يوسف لزميله . وتفسير طبيعة هذا الاختبار نستطيع أن نفهمها من قول يوسف عليه السلام:« وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه » إنه عليه السلام لا يكتفي بالإشارة إلى الصَّلب . وهذا أمر جلل في حد ذاته . ولكن بإضافة حقيقة أخرى هي أن الطير ستأكل من رأس الخباز . وكيف يكون ذلك ؟ بعد أن يترك الجسدُ معلقاً لمدّة طويلة . فكأن الساقي كان الرّقيب دائماً ، المقارن بين ما قاله يوسف عليه السّلام وما حدث للخباز بعد ذلك .

وإذا كان الملك من قبل قد طلب الفتيا في رؤياه من الملأ ، حينما قال كما جاء في الآية:« يا أيها الملأ أفتوني في رؤياى » فإن الساقي في خطابه ليوسف يطلب الفتيا أيضاً ، مستعيراً الفعل الذي استعمله الملك ، دليلاً على الاهتمام البالغ . فإن الملك هو الذي سيستفيد في الواقع من إفتاء يوسف ، وليس السّاقي .

وهذا هو الطلب الثاني من السّاقي أن يعبّر الرؤيا ، ولكن طريقة العرْض في المرّتين مختلفة . ففي المرة الأولى قصّ كلّ من الفتيين رؤياه ، ثم طلب التعبير ، وأردفا ذلك بتبيين السّبب الذي من أجله خصا يوسف بالطلب قال تعالى:« قال أحدهما إني أراني أعصر خمراً ، وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه ، نبئنا بتأويله إنّا نراك من المحسنين » . أما في المرة الثانية فقد قدم الذي نجا منهما بين يدي الرؤيا نعت يوسف بأنّه صديق ؛ لصدق كلّ ما قال عن رؤياهما سابقاً ؛ ولأنه واثق أن فُتيا يوسف في رؤيا الملك سيكون لها النصيب نفسه من الصدق .

ثم إن الساقي حينما يصف يوسف بالصديق في خطابه له ، فإن في ذلك تعبيراً عن امتنانه الذي جاء متأخراً ، ليوسف الذي سبق أن بشره بنجاته ،

وإطلاق سراحه ، وعودته إلى عمله السابق . وإشعاراً ليوسف عليه السلام بأن تعبيره للرؤيا قد تحقّق بحذافيره ، له ولرفيقه الخباز أيضاً . ففهم يوسف ضمناً أن الخباز قد صُلب وأكلت الطير من رأسه فعلاً . قال تعالى على لسان الساقي: « يوسف أيُّها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمانٍ يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأُخر يابسات لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون » .

ويلاحظ أن الساقي استعمل ضمير جماعة المتكلمين وليس المفرد في قوله:« أفتنا » على الرغم من أنه كان بمفرده مع يوسف ، لأن الرُّؤيا ليست له . وهذا ما فهمه يوسف عليه السلام . ويلاحظ أيضاً أن الساقي يسرد الرُّؤيا مباشرة دون توطئة صريحة لها بعكس المرة الأولى ، ولكن نعت يوسف بأنه الصديق ، يمكن أن يعتبر إلى حدّ ما توطئة عامة . وإن في ذكر الرُّؤيا إيجازاً بليغاً أحاط به يوسف عليه السلام ، وبنى عليه تعبيره . فليس هناك تحديد للسنبلات اليابسات . وقد فُهم العدد بأنه سبع . لأن عدد السنبلات الخضر هكذا . وليس هناك تحديد لعمل السنبلات اليابسات أيضاً ، وقد فهم عملها من عمل سبع البقرات العجاف بالسمان .

وإذا كنا تبينا ثقة الساقي وقد وصل إلى يوسف من حصوله على صدق التعبير ، فإنا لا نتبين شيئاً من هذه الثقة في عودته إلى الناس سالماً ، الملك والملأ بخاصة ، لهذا تضمن كلامهم ، المتعلق برجوعه المترتب عليه علم الناس . على « لعل » مرتين « لعليّ أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون » . ومعروف أن لعلّ من الحروف المشبّهة بالفعل ، وهي تدل على الطمع والإشفاق(١) إنه يطمع أن يعود معبّراً للرؤيا التي عجز عن تعبيرها خاصة الملك فضلاً عن سواهم . ومع ذلك هو مشفق من اخترام الموت له في الطريق . وهو يبني على هذا الطمع والإشفاق طمعاً وإشفاقاً آخرين « لعلهم يعلمون » وإن

---

١ ــ انظر القاموس مثلا .

ما جاء على لسان الساقي من قوله تعالى:« لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون » ليدلُ على أننا بصدد شخصية متأنية متزنة راجحة التفكير ليست غُفلا من التجارب . إنه يفترض أسوأ الفروض ، فليس المهم أن يعرف هو ، إنما المهم حقاً أن يصل سالماً إلى الناس ، وفي وصوله وصول المعرفة لهم . فإذا عرفنا أن هذه الشخصية المتأنية المتزنة هنا لا تكون هذه صفتها حينما يذيع عجز الجميع الثابت عن تعبير رؤيا الملك ، إذ نراها مندفعة بحماس في هذه القضية التي يعتقد الجميع ، بأن هذه الشخصية لا يمكن أن يكون لها علاقة بها ، فضلا عن أن تستفتى ، فذلك دليل على ثقة الساقي المطلقة في يوسف عليه السلام . وإن إقدامه حينما يجب الإقدام واتزانه حينما يجمل الاتزان ، ليدلان على أننا بصدد شخصية حكيمة ، ما كان من الجائز أن تتورط فيما اتهمت به وأدْخلت بسببه السجن ، ولهذا نجت من الصلب بينما هلكت الأخرى .

ثم إن الساقي المتزن يستعمل لفظة الناس كما جاء في الآية « لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون » ولا يقول مثلا:« لعلي أرجع إلى الملك » لأن المسألة لم تعد خاصة بالملك ، فقد شملت الملأ وسواهم أيضاً ، ألم تصل المسألة إلى الساقي وفي وصولها إليه دليل على وصولها إلى سواه ؟ وكما اهتم لها الملك اهتمّ لها سواه .

ثمّ إنّ السّاقي رجل يعرف حقيقة قدره ، فليس له كلام مباشر مع سيده ، وليس هناك إشارة واحدة إليه بضمير المفرد ، إنما يجيء على لسانه « أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون » وليس أنا أنبئك بتأويله فأرسلني . وإن الشيء نفسه يقال عن إشارة الساقي إلى الناس ، وليس إلى الملأ فضلا عن سيده الملك .

وبوصول تعبير الرُّؤيا إلى الملك ينتهي الدور الذي قام به الساقي ، الفتى الثاني .

الملـــك وملـــؤه :

قال تعالى:« وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات . يا أيُّها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون ، قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » .

وأوّل ما نودّ أن نقف عنده صيغة الفعل المضارع « أرى » التي تحكي الحال والتي سبق أن جاءت نفسها في قصّ الفتيين رؤياهما على يوسف في قوله تعالى:« قال أحدهما إني أراني أعصر خمراً ، وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه » وتعليل مجيء هذه الصيغة هو أن الفتيين مهتمان بتأويل الرُّؤيا ، بحكم تقديرهما الطبيعي للموقف الرّاهن واهتمامهما بمصيرهما ، خاصة وأن كل رؤيا لها علاقة من نوع ما بطبيعة عمل كلّ من الفتيين . وإن القلق النفسي الذي كانا فيه ، جعلهما متمثلين للرّؤيا تمام التمثل ، ساعيين بإلحاح وراء تعبيرها .

وقريب من هذا الشيء يقال عن الملك ، الذي يبدو مهتماً لهذه الرؤيا اهتماماً بعيداً ، خاصة وأنها رؤيا أفزعته وهالته . لقد رأى بقرات سمان خرجن من نهر يابس وسبع بقرات عجاف فابتلعت العجاف السمان . ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبُّها وسبعاً أخر يابسات قد استحصدت وأدركت فالْتوت اليابسات على الخضر حتّى غلبن عليها(١) . وقد كان طبيعيّاً أن يهتمّ لهذه الرؤيا اهتمامه بذاته وبقومه . فكان متمثلا لها مهتمّاً بها أثناء قصه لها على ملئه ، ولهذا والله أعلم ؛ استعمل الفعل المضارع « أرى » استعمال الفتيين له .

ويبدو جلال الملك من طريقة مخاطبة ملئه « يا أيها الملأ » إنها طريقة كلُّها إكبار وإجلال . ثمّ إن في توجيه الخطاب لأشراف دولته وأعيانهم في هذا الأمر دليلاً على ما بعده ؛ إذْ يُفهمُ أنّ الأمر شورى بينهم .

---

١ ـ البحر المحيط ٣١٢/٥ .

فليس سؤال الملك خاصته وقفاً على هذا الأمر ، وهذا تصرف حميد منه .

وحينما نقارن بين طريقة طلب الفتيين من يوسف تعبير الرؤيا في قوله تعالى:« نبئنا بتأويله » وطريقة طلب الملك في قوله تعالى:« أفتوني في رؤياي » نتبين اهتمام الملك الفائق بهذه الرُّؤيا ، إذ يطلب الفتيا ، وهي عادة تستعمل في الأمور ذات الأهمية الكبرى . ثمّ إن العادة قد جرت بأن تُطلب الفتيا عند من هُمْ أهلٌ لها . وليس هناك من هو أولى بعرض هذا الأمر وطلب الفتيا من خاصة الملك . فحينما يقول الملك:« أفتوني» فذلك دليل على المنزلة العالية الّتي يتمتع بها في نفسه خاصته . ونستطيع أن نفهم أن الودّ متبادل . ويحرص الملك على ضمير المتكلم « رؤياي » ويكرّر الرّؤيا مرّةً ثانية « إن كنتم للرّؤيا » . فلم يأت على لسانه مثلاً « أفتوني في الرّؤيا إن كنتم لها » فدل ذلك على أن مجيء ياء المتكلم وتكرار الرّؤيا بلفظها ثانية ، على الاهتمام البالغ بها . وحينما يجيء على لسانه « إن كنتم للرّؤيا تعبرون » فربما كان ذلك دليلاً على رهافة إحساس هذا الملك ، فلعل طلبه من الملأ أن يعبروا رؤياه ، شيء لم تجربه العادة ، وكان على علم تام بذلك . ولكن اهتمامه بها هو الذي دفعه إلى طلب فُتيا الذين يُفتون في معضلات الأمور . ثمّ هو على علم تام بأن طلبه غير العاديّ ، ليس من الضروري أن يتحقق على أيديهم ، فهو لا يريد أن يكلفهم من أمرهم عُسرا ، مع قدرتهم الفائقة على الإفتاء في المعضلات من صميم اختصاصاتهم . ولا يخفى أنّ أصل الكلام « إن كنتم تَعبرون الرّؤيا » وإنّ تقديم الرُّؤيا في قوله:« إن كنتم للرّؤيا تعبرون » دليل على فرط الاهتمام بها .

وقد وجد الملأ الأذكياء في اشتراطه منفذاً ، إذ جاء على لسانهم قوله تعالى:« قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » . وأوّل ما يلاحظ أنّهم عدلوا عن استعمال الرّؤيا بصيغة المفرد إلى الأحلام ، بصيغة الجمع ، جمع حُلْم . وسبق ذلك قولُهمْ:« أضغاث » جمع ضِغث ،

وهو أساساً قبضة حشيش يختلط فيها الرّطب باليابس . فمعنى « أضغاث أحلام : تخاليطها وأباطيلها ، وما يكون منها من حديث نفس أو وسوسة شيطان » (١) وهنا نتساءل : لِمَ فرَّ الملأ من استعمال لفظة الرّؤيا ، الّتي استعملها الملك للدلالة على ما رأى في منامه ممّا اعتقد أنّ له تأويلا ، إلى استعمال الحُلْم بل الأحلام ، في صيغة الجمع ، للدّلالة على أن ما رأى الملك في منامه ليس حديثاً واحداً لنفس ، بل مجموعة من الأحاديث ، لا أساس لها من الصحة ، ولا صلة لها بالواقع ؟ هل تَعمدوا الفرار أم أن هذا واقع ما فهموا وتبين لهم ؟

والمسألة لا تخلو من أحد احتمالين : إما أن يكون الملأ لا يستطيعون أساساً الإفتاء في أمر كهذا . لأنه بعيد كلَّ البعد عن اختصاصاتهم . وإما لأنهم فهموا من هذه الرّؤيا شيئاً ما غير سارّ . وهم إضافة إلى كونهم يجهلون تحديد هذا الشيء ، فإنهم آثروا التهوين من شأن الرّؤيا ، واعتبارها أضغاث أحلام .

والحقيقة أنّ رؤيا الملك ذات طابع مهيب ، ولعلّ هذا هو الذي جعل الملأ يجعلون الرؤيا من باب الأحلام . ثم هُمْ ينفون عن أنفسهم العلم بتأويل هذه الأحلام ، وهذا شيء طبيعيّ . وقد يفهم من قولهم هذا أنهم كانوا يستطيعون تعبير ما رآه الملك في منامه لو لم يكن حُلما . وبما أنه قد ثبت فيما بعد ، أن ما رآه الملك في منامه كان رؤيا وليس أضغاث أحلام ، بدليل أنّ يوسف عليه السلام قد عبّرها فعلا ، لذلك نحن نميل إلى أن الملأ أدركوا بأن هذه الرّؤيا لا توحي بشيء يسرّ . وهم لا يستطيعون أن يعينوا على وجه الدقّة الشيء الذي تدل عليه . ثم هم لا يريدون أن يسوءوا الملك بإبداء انطباعاتهم عن الرّؤيا . لذلك فزعوا بآمالهم إلى تكذيب الرّؤيا والادّعاء بأنها مجموعة أحلام .

---

١ ـ الكشاف ٢/١٤٠ .

والجزئية التي أجدني مدفوعاً للعودة إليها هي التي استعمل فيها الساقي ضمير المفرد المذكر ، أعني قوله تعالى:« أنا أنبئكم بتأويله » إنه لم يقل « بتأويلها »كي يقال إنّ الضمير يعود إلى الرّؤيا أو مجموعة الأحلام . فكيف نوفق بين قوله وقول الملأ . ؟

والجواب على ذلك والله أعلم ، أنّ المسألة لا تخلو من أحد احتمالين :

أولهما : أن الساقي إنما يستعمل الضمير الذي استعمله هو ورفيقه الخباز حينما قصّا على يوسف الرّؤيا وطلبا منه تعبيرها . أعني فيما جاء على لسانهما « نبئنا بتأويله » . ويكون المعنى هنا والله أعلم ، نبئنا بتأويل ما قصصنا عليك من حديث . وبناء على ذلك يكون المعنى في قول الساقي :« أنا أنبئكم بتأويله » أنا أنبئكم بتأويل ما قصصتم وتكلمتم به من حديث .

وثانيهما : أن الساقي الخاصّ بالملك ، كان بطبيعة عمله ، مطلعاً على كلّ ما دار في المجلس ، ومنذ أن قصّ الملك رؤياه ، تذكر يوسف عليه السلام ، وحينما تخلص من الملأ إلى الزّعم بأن ما رآه مجرد أضغاث أحلام ، إذا بالساقي الذي لم يسأل قط ، يدخل في الحديث متحدياً ويقول كما جاء في الآية:« أنا أنبئكم بتأويله » وكأن المعنى ، والله أعلم ، أنا أنبئكم بتأويل ما زعمتم أنه مجرّد حُلم . ويكون الضمير في هذه الحال يعود على الحُلم الذي جمعه أحلام ، باعتبار أن الإفراد هو الأصل ، فنحن بصدد رؤيا واحدة في الحقيقة ، وان الملأ فرّوا ليس من الرؤيا إلى الحُلم بل ومن الإفراد إلى الجمع . وفي كلّ من الاحتمالين يظل الساقي مقتنعاً بأن ما رآه الملك رؤيا وليس حلماً من الأحلام .

ويفتي يوسف عليه السلام في رؤيا الملك . ونستطيع أن نتمثل فرح الساقي بكل ما أخبره ونصحه به يوسف عليه السلام ونستطيع أن نتمثل أيضاً رضى الملك وسعادته وهدوءَ نفسه وارتياح باله . ويجب أن يكون قد سأل عن اسم ذلك الفتى وحاله ، والسّبب الذي دخل من أجله السجن ، ولماذا بقي فيه كلّ تلك المدّة الطويلة ؟

ونستطيع أن نستنتج أن الساقي كان يجيب عن بعض أسئلة الملك وليس عنها كلها ، إذ نعتقد أن يوسف عليه السلام إنما كان يشكو بثّه وحزنه إلى الله تعالى وليس إلى أي مخلوق ، ونعتقد أيضاً أن خلقه الكريم لم يكن يرضى أن يشير ببنت شفة إلى السّبب الحقيقي في دخوله السجن . وقد كان فتياه في رؤيا الملك المقنعة ، ونصيحته الخالصة ، وعلمه الفائق ، مصدر سعادة الملك وإكباره وتعجبه واقتناعه بأن هناك سرًّا في الموضوع ، فصمم على الكشف عن ذلك السرّ ، لأن هناك تناقضاً عجيباً بين شخص بلغ معدنه هذه الدرجة من النقاء من ناحية ووجوده في السجن عدة سنوات من ناحية أخرى .

وهنا يطلب الملك ، ولعله من الملأ . في جلال الحاكم ، أن يأتوه بالفتى يوسف ، فقد أراد أن يتثبت بنفسه في هذه القضية . قال تعالى:« وقال الملك ائتوني به ، فلما جاءه الرّسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ، إن ربي بكيدهن عليم ، قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ، قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء ، قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين » . ويرفض يوسف الخروج من السجن ، ويطلب من الرسول أن يرجع إلى الملك وأن يسأله « ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن » تاركاً للملك مطلق الحرية في دراسة هذه القضية دراسة موضوعية ومن الزّاوية الّتي يريد .

وإن ما جاء على لسان الملك من قوله تعالى:« قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه » ليدل على أن هذا الملك العادل بعد دراسة القضية دراسة مستفيضة ، انتهى إلى معرفة دقائقها الخفية وتبين له أن الفتى مظلوم كلّ الظلم ، بريء كلّ البراءة .

وبعد دعوة النسوة وامرأة العزيز بحضرته يوجه إليهن هذا السؤال المتضمن علمه اليقيني بحقيقة موقفهن من يوسف « ما خطبكن إذ راودتن

يوسف عن نفسه » . إن هذا سؤال من انتهى إلى نتيجة أكيدة صحيحة فجهر بالحقيقة على رؤوس الأشهاد ، ولم يخش في الحقّ لوماً .

ونستطيع أن نفهم أن يوسف عليه السلام عرف بثبوت براءته قبل أن يغادر السجن . ومن يدْري ، ربما كان للساقي دور في زف البُشرى إليه .

ومهما يكن الحال ، فقد طلب الملك أن يؤتى إليه بيوسف عليه السلام ، البريء هذه المرة الذي ثبتت أمانته والذي أسيء إليه والذي أراد الملك أن يكفر عن بعض السوء الذي لحقه من بعض المسؤولين في قُطره . لهذا هو لا يكتفي بالطلب أن يؤتى إليه بيوسف ، كما فعل في المرة الأولى ، بل عين ما يمكن أن نسميه بالكفارة والجزاء معاً . قال تعالى:« وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين ، قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم » . وليس بخافٍ أن الملك يصرح ، ولعله يصرح بذلك للملأ بأنه سيستخلص يوسف عليه السلام لنفسه هو خاصة لا يشاركه فيه سواه . أليس هو الذي نجح فيما أخفق فيه الملأ فضلاً عن سواهم ، وإن الملك حينما يجيء على لسانه في المرة الأولى قوله تعالى:« وقال الملك ائتوني به » ويقف عند ذلك ، إنما بني هذا الطلب على أساس اقتناعه بأن ما قاله يوسف للساقي هو التعبير الصحيح للرؤيا . وحينما يجيء على لسانه في المرة الثانية قوله تعالى:« وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي » إنما بني هذا الاستخلاص والاصطفاء على ما ثبت له من أمانة يوسف عليه السلام . وإن الملك حينما يجيء على لسانه قوله تعالى:« أستخلصه لنفسي » ليذكّرنا بما سبق أن جاء على لسان العزيز مخاطباً زوجه من رجاءين في قوله تعالى:« وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا » .

لقدْ كان العزيز ألمعيّاً وكان خليقاً بيوسف عليه السلام أن يكونَ كما

أمّل فيه العزيز وفوق ما أمل . ولكن الذي حال دون ذلك تصرُّف زوجه . وقد شاءت إرادة الله تعالى أن يكون حظ الملك من أمانة يوسف وحفظه وعلمه موفوراً « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » .

وفي سبيل تعيين المتكلم هل هو الملك أم يوسف في قوله تعالى: « فلما كلمه » علينا أن نقيس الجزئية السابقة المماثلة بهذه الجزئية التي جاء فيها المتكلم . لقد جاء في الأولى قوله تعالى: « وقال الملك ائتوني به ، فلما جاءه الرسول » فاتضح أن الذي جاء هو الرّسول . وجاء في الثانية قوله تعالى: « وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي ، فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين » فدل هذا القياس على أن المتكلم ابتداءً هو الملك وليس يوسف عليه السلام ، وهذا من ناحية دليل على أدب يوسف عليه السلام الذي فطره الله تعالى عليه . فإذا استثنينا التحية الطبيعية التي كان عليه أن يقوم بها ، فإنه وراء ذلك لا يبدأ بالكلام . ومن ناحية أخرى هذا دليل على المنزلة العالية التي احتلها يوسف عليه السلام في قلب الملك الذي يؤانسه بالكلام ابتداءً ولا يحوجه بالانتظار حتى يُضطرَّ لأن يبدأ بالكلام .

ونستطيع أن نتمثل إقبال الملك على يوسف وبشاشته في وجهه . بل إننا نستطيع أن نتمثل تشوّف الملك لرؤية يوسف ، الذي سمع عنه خيراً كثيراً ونستطيع أن نفهم أيضاً أن الملك قد تمثل يوسف في صورة موافقة لما صحَّ من أخباره الحسنة . وحينما رآه رأي العين انتهى إلى أن صورته الحسنة الحقيقية أكثرُ موافقةً لسيرته الحميدة من الصورة الحسنة التي تخيله عليها . وماذا قال الملك في كلامه ليوسف ؟ قال تعالى: « فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين » . إن الملك ليبدأ حديثه الإيجابي مع يوسف باستعمال إن التي تدل على التوكيد ويشتمل كلامه على لفظة « اليوم » الذي وضع نهاية أكيدة للظلم الفادح الذي حل بيوسف عليه السلام . ومتى عرَّف الملك العادلُ حقيقة وضع يوسف ؟ في تلك الأثناء فقط بطبيعة الحال . ومتى

رأى الملك العادل لأول مرة يوسف ؟ في ذلك اليوم فقط بطبيعة الحال . لذلك كان طبيعياً جدا أن يتضمن كلامُ الملك لفظ « اليوم » وكأنه باستعماله لهذا اللفظ ، بل بحرصه عليه ، يعتذر إليه عما حلّ به من ظلم وحاق به من عدوان . وكأن لسان حال الملك يقول : لا يد لي فيما نالك قبلُ من ظلم وعدوان . وابتداءً من هذا اليوم الذي أكلمك الآن فيه ، أنا الكفيل بمكافأتك على أمانتك وإحسانك والتكفير عما اقترفه سواي بحقك ، وإن الملك في قوله « لدينا » ليستعمل ضمير جماعة المتكلمين ، ومن الجائز أنه استعمله تفخيماً على أساس أنه يريد نفسه . وليس هناك ما يمنع أنه يريد نفسه والملأ أيضاً . وعلى هذا تكون نظرة خاصة الملك وأعيان البلاد في الإكبار ليوسف موافقة لنظرة الملك إليه .

وهذا شيء طبيعي جداً . ومن هو الشخص الراجح الفكر الناضج العقل ، الذي يقف على حقيقه موقف يوسف عليه السلام من كل ما مر به ، ولا يكون له عنده مكانة خاصة في قلبه ؟ ولهذا جاء على لسان الملك وصف يوسف بأنه ذو مكانة ومنزلة ، ومؤتمن على كل شيء . فقال تعالى:« فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين » .

والحقيقة أن رأس البلاد أعني الملك ، يبدو لنا رجلاً حازماً حليماً ، حسن التصرف ، جاهراً بالحق ، ألمعيّاً مهيب الجانب ، يبدو حزمه وحِلمه من التصرف بأمره ــ فيما نعتقده ــ مع كلّ من الخباز والساقي . ويبدو حسنُ تصرفه في القول على لسانه:« يا أيُّها الملأ أفتوني في رؤياي » . فإن هذا قول من يأخذ بمبدأ الشورى ويوقر أتباعه ومن يبادله أتباعه المثل . ويبدو جهره بالحق من القول على لسانه خطاباً للنسوة . وقد ثبت له براءة يوسف « ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه » . وتبدو ألمعيته من موافقة حدْسه في يوسف لحقيقة مخبره . ويبدو جانبه المهيب من شخصيته القوية التي يجب أن تكون لرجل تلك أعماله .

ونستطيع أن نستنتج من كل ما سبق استنتاجين :

الأول : إن الملك الذي هذه تصرفاته يجب أن يجري في جسده دم الملوك الذي ورثه من الآباء والأجداد .

الثاني : إن الرجل العظيم الذي تصدر منه كلُّ هذه التصرفات الحسنة لا يمكن إلا أن يقدّر الرسالة العظيمة التي جاء بها يوسف عليه السلام . خاصة وأن ليوسف في قلبه من المنزلة ما لا يخفى . ومن هنا نحن نعتقد مطمئنين ، إلى أن هذا الملك العظيم واحد من الذين وفق الله تعالى يوسف لإخراجهم من ظلمات الشرْك إلى نور الإسلام .

وقد يقول قائل : ولكن ليس هناك إشارة صريحة في هذه السورة إلى هذا الاستنتاج ، ولم يجيء على لسان هذا الملك مثل ما جاء مثلاً على لسان ملكة سبأ « رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » والجواب على ذلك هو أن شخصية ملكة سبأ في سورة النمل شخصية رئيسية ذات أدوار إيجابية .

أما شخصية الملك في سورة يوسف فليست الشخصية الرئيسية الأولية . وهذا واضح وليست محلَّ العبرة بعكس ملكة سبأ ، وخير دليل على ذلك أنه بانتهاء ما جرى على لسان ملكة سبأ ينتهي كلُّ شيء ؛ إذ تحققت الفائدة المرجوة . أما فيما يتصل بسورة يوسف فإن الإشارات التعقيبية أو الآيات التعقيبية وقف على يعقوب ويوسف عليهما السلام .

الشخصيات الرئيسية في قصة يوسف عليه السلام

يعقـوب وآلـه :

الشخصيات الرئيسية في قصة يوسف عليه السلام ، يعقوب وآله الذين لهم في هذه السورة النصيب الأوفى . وهناك بعض الشخصيات التي عرفنا أسماء أصحابها ، كيوسف ويعقوب عليهما السلام ، وقد جاءا في القرآن الكريم ، بينما جاءت أسماء بعض الشخصيات الأخرى في كتب التفسير ، كأسماء إخوة يوسف وأمّه وخالته

وفي سورة يوسف أكثر من إشارة إلى الأدوار الإيجابية الخاطفة ، لبقية آل يعقوب ، الذين لم يحدّدوا على وجه الدّقة . فقد جاءت الإشارة إلى آل يعقوب وإلى الأهل صراحةً أو ضمناً في قوله تعالى على لسان يعقوب: « وكذلك يجتبيك ربُّك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتمّ نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق ، إنّ ربك عليم حكيم » . وقوله تعالى عن إخوة يوسف:« فلما دخلوا عليه قالوا يا أيُّها العزيز مسّنا وأهلنا الضرّ وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ، إنّ الله يجزي المتصدقين » . وقوله تعالى على لسان يوسف: « اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً وأتوني بأهلكم أجمعين » وقوله تعالى عن هؤلاء الأهل:« قالوا تا لله إنّك لفي ضلالك القديم » .

ونعتقد أن لهؤلاء الأهل الذين قد نستطيع أن نعيّن بعضهم فقط ، وليس كلّهم ، دوراً إيجابياً من درجة ما ، في دفع أحداث القصة إلى الأمام . فحينما يجيء على لسان الإخوة قوله تعالى:« مسنا وأهلنا الضرّ » فإنّ ذكر الأهل هنا ، مما يفجر ينبوع الرحمة في قلب يوسف عليه السلام . فنحن

نرجح أنّ والدة يوسف عليه السلام كانت ما زالت حيّة ترزق . وإن مجيء لفظة الأهل على لسان الإخوة ، التي تشمل بالضرورة والدته كما شملت أباه ، دورها الإيجابيّ في نفس يوسف ، المرهف الإحساس لهذا تضمن كلامه لهم لفظة الأهل في قوله تعالى:« وأتوني بأهلكم أجمعين » وهي تشمل من عرفنا منهم ومن لم نعرف بطبيعة الحال . وإنّ ضمير الجماعة مِن « قالوا » في قوله تعالى:« قالوا تا لله إنك لفي ضلالك القديم » يعود بالضرورة على هؤلاء الأهل وفيهم والدة يوسف عليه السلام . ولكنّ يعقوب عليه السلام وأبناءه الاثنى عشر ، هم الشخصيات الرئيسية بالفعل ، في قصة يوسف عليه السلام . ويتقدّم يوسف الجميع في الأهمية يليه والده يعقوب .

توطئـــــة :

كلّ الشخصيات الرئيسية ، ذاتِ الأدوار الإيجابية من آل يعقوب في قصة يوسف قد حدّدتها الآية التي جاءت على لسان يوسف عليه السلام حينما قصّ رؤياه على أبيه . قال تعالى:« إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين » .

فنحن بصدد إشارة صريحة إلى يوسف وأبيه يعقوب عليهما السلام . وقد فُسرَ الأحد عشر كوكباً بأنهم إخوته ، والشمس بأنها والده والقمر بأنه والدته(١) وهذا يعني أنّ ليعقوب عليه السلام اثنى عشر غلاماً ذكراً . وليس هناك أيّة إشارة إلى أن له إلى جانب الذكور إناثاً . وقد ذهب البعض إلى أن له ابنة واحدة (٢) .

وتجمل الإشارة إلى أن إرادة الله تعالى ، الذي لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء قد شاءت ألا ينقصَ في السنوات العديدة التي أتت بين رؤيا يوسف في أوّل السورة ، وتعبيرها في نهاية القصة ، شخصية واحدة من

١ ـ مؤتمر تفسير سورة يوسف ١/٤١ .
٢ ـ مؤتمر تفسير سورة يوسف ١/٧١ .

الشخصيات التي أشارت إليها آية الرُؤيا . على الرغم من المخاطر التي تعرّض لها يوسف والآلام التي انتابت يعقوب .

كما تجمل الإشارة إلى أنّ المفسرين يذهبون إلى أنّ هؤلاء الإخوة الاثنى عشر ليسوا من امرأة واحدة ، وإنما من أربع ، وأنّ ليوسف عليه السلام شقيقاً واحداً اسمه بنيامين ، وأن يوسف وشقيقه على التوالي أصغر هؤلاء الإخوة (١) .

ومنذ أن يقص يوسفُ رؤياه على والده ويجيبه والده ، نتبين أنّ إخوة يوسف لأبيه لا يُضمرون له في أفئدتهم ودّاً . قال تعالى على لسان يعقوب: « قال يا بُنيّ لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً ، إنّ الشيطان للإنسان عدوٌّ مبين » وإنا لنتساءل : حينما يقول يعقوب : لا تقصص رؤياك على إخوتك : هل يدخل في هؤلاء الإخوة شقيق يوسف ؟ والجواب بالنفي. لماذا ؟ لأنه كان صغير السن جداً ، فلم يعرف آنذاك ، كما لم يعرف بعد ذلك من جانبه عدم الود . وبخاصة عدمُ ودّ الإخوة بعضهم لبعض .

ونتبين من جواب يعقوب ليوسف شيئاً كبيراً جداً من الإشفاق عليه من إخوته فهو يخاطب ابنه في صيغة تصغير التمليح « يا بُنيّ » وهذا شيء طبيعيٌّ جداً من يعقوب عليه السلام ، الذي فطر الله تعالى قلبه على الحبّ ، فكيف به وهو يخاطب أحبّ أبنائه إليه ؟ ويعرف أن ما قصه هذا الابن الحبيب ، سيزيد إخوته حسداً إلى حسدهم له ، لهذا هو ينصحه في إشفاق بعدم قصّ تلك الرُّؤيا على إخوته .

ولكن كيف تمت تلك النصيحة ؟

إن يعقوب يقول لابنه الحبيب بملء فيه:« لا تقصص » فهو ينهاه نهياً مباشراً صريحاً لا غموض فيه ولا إبهام بعدم قصّ رؤياه على إخوته . إنه

---

١ ـ انظر هنا مثلا الكشاف ١٢٤/٢ والبحر المحيط ٢٨٢/٥ .

لا يقول مثلا « يا بُنيّ ، أرى ألا تقص رؤياك . . » فيكون ليوسف شيء من إبداء الرأي في هذه المسألة إن كان له رأي .

ونحن نتساءل : لماذا لم يُعط يعقوب ابنه يوسف فرصة المشاركة في هذه المسألة ؟ والجواب على ذلك أن يعقوب قد ثبت له بصفة أكيدة أن الإخوة لا يحبون يوسف ، ولو قصّ عليهم رؤياه لتمادوا في حسدهم ، وربّما تورّطوا مع يوسف فيما لا تُحمد عقباه .

ويعقوب لا يدع لابنه يوسف فرصة سؤاله ، لماذا لا أقصّ رؤياي على إخوتي ؟ فلا يُرسِلُ كلامه دون تعليل . وإنّ تعليله قمّة في وضوح الدلالة وبيان السبب . فقد جاء على لسانه قوله تعالى:« لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين » والمعروف أنّ الفعل يكيد يتعدّى بنفسه ، وقد ضمنه هنا معنى ما يتعدّى باللام . فكأنه قال : فيحتالوا لك بالكيد . والتضمين أبلغ لدلالته على معنى الفعلين(١) وللمبالغة في الدلالة أتى بالمصدر « كيداً»المؤكد للفعل، ولم يفتْ يعقوبَ عليه السلام التنبيهُ إلى أنّ هؤلاء الإخوة بطبعهم ، ليسوا شرّيرين ، ولكنّ الشيطان الرجيم ، الذي يجري من الإنسان مجرَى الدم ، العدوَّ البينَ العداوة للإنسان ، هو الدافع الحقيقي للإنسان على ارتكاب الشرور والآثام وهذا التنبيه دليلٌ على طيب قلب يعقوب وطهر نفسه .

ولا شك أن هذه النصيحة لعبت دورها البعيد المدى في نفس يوسف ، ولا شك أن نفسه البريئة الطيبة الطاهرة ، وقد أوضح له والده ، البارّ بأبنائه جميعاً الدور الذي يمكن أن يلعبه الشيطان ــ عليه لعنة الله ــ في الإفساد بين الإخوة ، كانت تجاه إخوتها هي النفس البريئة الطيبة الطاهرة . فلم يُرد يعقوب عليه السلام سوى الخير لكل أبنائه .

ونعتقد أن هذه هي المرّة الأولى ، وهي المرّة الأخيرة أيضاً ، التي نهى

---

١ ــ البحر المحيط ٥/٢٨٠ .

فيها يعقوبُ يوسف عن إخبار إخوته بشيء يخصّه . ونعتقد أن يعقوب كان يعمل جاهداً على أن يغرس في قلوب الأبناء محبة بعضهم لبعض . وليس شيء يسوء الأب ، وبخاصة إذا كان يعقوب عليه السلام ، كما يسوؤه عدم الوفاق بين أبنائه .

لقد خاف يعقوب على إخوة يوسف لو عرفوا برؤياه ، التي تدلُّ على أنه سيكون ليوسف عليه السلام ، شأن دينيٌّ ودنيويٌّ معاً ، أن يشقوا العُمرَ بأكمله ، بسبب تورطهم بحقه في شيء يسوؤه . وكان خوف يعقوب كبيراً ، أن يكون يوسف ، أحب أبنائه إليه ، غرضاً لهم . وهكذا فمصدر نصيحة يعقوب الحبّ لأبنائه جميعاً . ولا يتعارض ذلك مع حقيقة أن الله تعالى قد وضع في قلبه ، ممّا لا دخل له فيه ، من المحبة ليوسف والشقيق ما ليس للإخوة .

وإذا نظرنا من زاويتنا لهذا الحبّ ليوسف وشقيقه فإنا نجده طبيعياً ، فقد جرت العادة بأن يستأثر صغار الأبناء ، خاصة حينما يكون الأبوان متقدّمين في السنّ ، بأكثر الحبّ ، لأنهم أولى الأبناء بذلك وأكثرهم حاجة . فكيف إذا ثبت بفراستهما أو بفراسة أحدهما ، أنّ هذا الصغير أو ذاك له من المنزلة الدينية والدنيويّة ما ليس لأحد من إخوته ؟ والذي ينتظر من يعقوب الذي أيقن أنّ ابنه الحبيب يوسف ، قد اصطفاه الله بخيري الدنيا والآخرة أن يكون أكثر تعلقاً به .

وإذا كان تعليل يعقوب عليه السلام السابق البليغ الموجز ، متعلقاً بذات أنفس الإخوة ، فإن لهذا التعليل شطراً آخر يميل إلى الطول ، متعلّقاً بذات نفس يوسف .

فقد جاء على لسان يعقوب قوله تعالى :« وكذلك يجتبيك ربُّك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتمّ نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق ، إنّ ربّك عليم حكيم » .

لقد أدرك يعقوب بأن رؤيا يوسف لا يمكن أن تكون أضغاث أحلام ، على الرغم من أن يوسف غلا م صغير السن حقاً ، وأن هذه الرُّؤيا ستعبّر في الحقيقة ، ولكن بعد وقت ما ، وأن ابنه قد اصطفى لأمورٍ عظام : بيّنها يعقوب في القول على لسانه . أي ومثلُ ذلك الاجتباء بالرُّؤيا الطيبة الصادقة ، يجتبيك ربُك ، بما تدل عليه هذه الرؤيا بالمنزلة الدينية العالية ، وليس وراء منزلة النبوة منزلة ، وبشيء من الملك أيضاً .

وبما أن أوّل ما لاح ليعقوب من الدلائل على منزلة يوسف مستقبلا هو الرؤيا الصادقة ، فقد فهم نبيّ الله ، ببصيرته النّيرة وبإيحاء من الله تعالى ، أن ابنه الذي سيصطفيه أحكم الحاكمين بالنبوة ، سيمنّ عليه بالقدرة على تأويل الرؤى ، ولهذا جاء على لسانه « ويعلمك من تأويل الأحاديث » .

وقد كان يوسف عليه السلام أعبر الناس للرؤيا وأصحّهم عبارة(١) .

وبما أن الرؤيا تدل على أن يوسف سيُجمع له خيرا الدنيا والآخرة ، فقد آتاه الله في المستقبل النبوّة وشيئاً من الملك لذلك جاء على لسان يعقوب قوله تعالى:« ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب » وإن ما أنعم الله تعالى به على يوسف إتمام لنعمه التي لا تُحصى ، على يوسف وآل يعقوب عموماً .

أليس يوسف فرداً من آل يعقوب ؟ أليست النعمة التي تحلّ بواحد منهم يشملهم خيرها ويعمهم نفعها ؟ وهل هناك نعمة تضارع نعمة النبوة ؟ فكيف إذا جمع لفرد منهم النبوة مع شيء من المُلك ؟ . وهذه النعم امتداد لنعمه تعالى التي لا تُحصى .

ولهذا جاء على لسان يعقوب « كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق » . وإتمام النعمة على إبراهيم بالخُلّةِ والإنجاء من النار وإهلاك عدوه نمروذ ، وعلى إسحاق بإخراج يعقوب والأسباط من صُلبه . وسَمّى الجدّ وأبا الجدّ أبوين لأنهما في عمود النسب(٢) . وجاءت أخيراً هذه

---

١ ـ البحر المحيط ٢٨١/٥ .

٢ ـ البحر المحيط ٢٨١/٥ .

الجزئية التعقيبية « إن ربك عليمٌ حكيم » والمراد أن الله تعالى عليمٌ بكل شيء ، ومن بين ذلك من يستحق الاجتباء ، وأن كل شيء يجيء على جهة الإحكام والإتقان منه تعالى .

من هذه التوطئة بين يدي دراستنا للشخصيات الرئيسية من آل يعقوب يتضح لنا تفاعل هذه الشخصيات البعيد المدى، بسبب قضايا معينة ، وبما أن التفاعُلَ ، خلال القصة ، غايةٌ في القوة بين الإخوة من ناحية ويعقوب عليه السلام من ناحية أخرى . وبين الإخوة أنفسهم أيضاً . وبما أن يوسف عليه السلام منذ أخذ إخوته له معهم كي يرتع ويلعب كان المحرك لكلّ أحداث القصة ، والمحرك لما يجري في بيت آل يعقوب ، ولكن من بعيد ، لذلك سنجمع في دراسة الشخصيات بين يعقوب وإخوة يوسف من ناحية ، وسنتناول يوسف عليه السلام بالدراسة في فصل مستقل خاص به .

والآن إلى . . .

يعقوب عليه السلام وإخوة يوسف

تآمر اخــوة يوسف لأبيه عليه :

قال تعالى: « لقد كان في يوسف وإخوته آياتٌ للسّائلين ، إذ قالوا ليوسف وأخوه أحبُّ إلى أبينا منا ونحن عصبة ، إن أبانا لفي ضلالٍ مبين ، اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين ، قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجبِّ يلتقطه بعض السيّارة إن كنتم فاعلين » .

إن أولى هذه الآيات الأربع ، تشير إلى العلامات والدّلائل على قدرة الله تعالى وحكمته في كلّ شيءٍ للسائلين عن يوسف وإخوته .

وإن ثاني هذه الآيات تنقل أوّل تعبير صريح مباشرٍ من الإخوة متضمن بعدم رضاهم عن حبّ يعقوب الفائق ليوسف وأخيه .

قال تعالى: « إذ قالوا ليوسفُ وأخوه أحبُّ إلى أبينا منّا ونحن عصبة ، إن أبانا لفي ضلال مبين » .

إن هؤلاء الإخوة ليبدؤون أوّل كلامٍ لهم بلام الابتداء الداخلة على اسم يوسف الصريح ، وفيها تأكيد لمضمون الجملة من قولهم: « ليوسف وأخوه . . » .

والمراد أن كثرة حبه لهما ثابت ولا غبار عليه . والمتأمّل لهذه الآية يتبين أن هذا هو رأي كلّ إخوته لأبيه العشرة ، لا فرق في ذلك بين كثير الحسد له ومتوسطه أو قليله .

ومن أيّ الزّوايا نظر الإخوة إلى هذه المسألة ؟ من زاويتي العدد والنفع وغفلوا عن حقيقتين أخريين هامتين :

أولاهمـــــا :

أن يعقوب عليه السلام لا يد له في كون قلبه أكثر ميلا إلى يوسف وأخيه ، كما أنه لا يد له في كون قلبه أكثر ميلا إلى يوسف من أخيه ، إنه لا دخل له في هذا الحبّ ، تماماً كما لا دخل له في الحزن الذي حلّ به لغياب يوسف عنه أولا ثم شقيقه ثانياً .

وهل كان حزن يعقوب على يوسف إلا موافقاً ومساوياً لحبه له ؟

وهل كان حزنه على الشقيق إلا موافقاً ومساوياً لحبه له ؟ وهل كان في وسع يعقوب الذي ابيضت عيناه من الحُزْن دفعُ ما حل به من حُزن وما انتابه من ألم ؟

لو كان قادراً على الإمساك بزمام حزنه لكان قادراً على الإمساك بزمام حُبه . فدل عجزه هنا على عجزه هناك . وثبت أن الحب والحزن قدرٌ عليه .

والشيء الذي نقوله بكل ثقة واطمئنان : إن نبيّ الله يعقوب ، كان قمة في العدل بين أبنائه في المعاملة . وإنّ عدم رضا الإخوة مقصور على ميل قلب يعقوب الفطري وما استتبع ذلك مما لا قدرة له على دفعه .

وثانيتهمـــــا :

أن يوسف وأخاه على التوالي أصغر أبناء يعقوب الاثنى عشر . وإنه لشيء طبيعيّ أن ينال صغار الأبناء من المحبّة والرّعاية ، لاستحقاقهم لذلك وحاجتهم له أكثر من كبارهم .

لقد كان خليقاً بإخوة يوسف أن ينظروا إلى هذه المسألة من هاتين الزاويتين .

والذي حدث هو أنهم نظروا إلى المسألة نظرةً عقلية صِرْفة . إنهم يجعلون يوسف وأخاه في كفّة ، وهم جميعاً في كفة أخرى .

ومن زاوية هذه النظرة العقلية ، هم يستحقون ما لا يستحقّ يوسف

وأخوه . إن يوسف وأخاه اثنان ، وهم عشرة . والعدل في نظرهم يقضي بألاّ ينال الاثنان ما ينال العشرة ، فكيف إذا كان نصيب الاثنين أكثر من نصيب العشرة ؟ .

وإن نظرتهم العقلية تجعلهم ينكرون هذا الحبّ لهذين الغلامين الصغيرين اللذين لا يجلبان نفعاً ولا يدفعان شراً : بينما هم العشرة ، الذين تُعصبُ بهم الأمور وتُدفع الشدائد ، لا ينالون حظاً مما ينال الاثنان والاثنان فقط .

فلنتأمّل بروية ما يقوله هؤلاء الإخوة . وأول ما يلاحظ أن هؤلاء الإخوة يجيء على لسانهم « وأخوه » من قولهم:« ليوسُفُ وأخوه » . إنهم لا يقولون مثلا:« ليوسف وشقيقه » لأن هذا لا يضيف جديداً إليهم ، لأنهم حينما يذكرون اسم يوسف ، الأخ الحادي عشر ، لم يبق سوى شقيقه بنيامين . كما نود أن نقف عند ضمير المفرد الغائب مِنْ « وأخوه » فقد كان من الجائز ، لو كانت هناك مودّة ، أن يقولوا : و « وأخونا » خاصة وأن ضمير جماعة المتكلمين أتى في هذه الآية أكثر من مرة .

ولكنّ الجوّ مشبّع بغير الودّ ، وقد أتى الإخوة بضمير المفرد الغائب في قولهم:« ليوسف وأخوه » الذي يهدف إلى الغرض الذي إليه يقصدون ، وهو عزل يوسف وأخيه ، وجعلهما كتلة واحدة منفصلة صغيرة كي تبدو من المقابلة كتلتهم الكبيرة .

ثمّ إنّ الإخوة يجيء على لسانهم « أحبّ إلى أبينا منّا » ولا يجيء ، وهو الأوْلى لو أن الجوّ ودّيّ « ليوسف وأخوه أحبُّ إلى أبيهما منا » .

وإن حرص الإخوة على ضمير جماعة المتكلمين ، في قوله تعالى على لسانهم:« أحبُّ إلى أبينا » ليدل على اعتداد هؤلاء الإخوة بأنفسهم وشعورهم بثقل وزنهم .

وإن الانتقال من ضمير المفرد الغائب إلى جماعة المتكلمين في هذه

الآية له دور كبير في شدّ الانتباه إلى حب يعقوب ليوسف وأخيه بالذات ، وإظهار القضية بأنها غير عادلة ، مع أن الحقيقة غير ذلك .

والحسد هو الذي صوّر لهم غير شيء شيئاً وزيّن لهم عقد هذه المقارنات غير صحيحة الأساس .

ولو أنهم كانوا عادلين لقالوا:« أحب إلى أبيهما منا » فيكون ليوسف وأخيه بسبب ضمير التثنية نصيبٌ عادل في كون يعقوب والدهما ، تماماً كما للإخوة نصيب في ذلك من ضمير جماعة المتكلمين في قولهم:« منا » .

إن الحسد ليجعلهم يؤثرن أنفسهم بضميرين لجماعة المتكلمين ، ولا يعطون الصغيرين حقاً .

وإن الشعور بالوزن الذاتي ليبدو القمة في قوله تعالى على لسانهم:« ونحن عصبةٌ » فنحن بصدد ضمير جماعة المتكلمين المنفصل « نحن » ذي الدلالة البعيدة المدى ، ولفظة « عصبة » الثقيلة الوزن ، التي ترجح كفتها بالكفة التي فيها الغلامان الصغيران الضعيفان « يوسف وأخوه » .

وما دامت القاعدة خاطئة فالذي يُبنى عليها خاطيء أيضاً . لهذا جاء بناء على تلك المقارنة غير العادلة هذا التعليق على لسان الإخوة « إن أبانا لفي ضلال مبين » وواضح أننا ما زلنا مع ضمير جماعة المتكلمين ، فليس ليوسف وأخيه ، حتى هذه اللحظة شيء من نصيب . وهم يبدؤون تعليقهم بإنّ التي تفيد التوكيد ، كما دخل على الجار والمجرور لام التوكيد . وهناك لفظة الضلال ، ومعناها ، والله أعلم ، الخاطيء من الرأي و « مبين » صفة للضلال .

والشيء الذي نود توكيد الإشارة إليه هو أن هذه الآية تبين صراحة رأي عشرة من أبناء يعقوب الاثنى عشر . ولم يخرج من هذا الإجماع واحد منهم . وليس الأمر كذلك بالنسبة للآيتين التاليتين . قال تعالى عن هؤلاء الإخوة : « اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخلُ لكم وجه أبيكم

وتكونوا من بعده قوماً صالحين ، قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجبّ يلتقطه بعض السيارة إنْ كنتم فاعلين » .

ويلاحظ أن هؤلاء الإخوة العشرة يطرحون الشقيق جانباً ويخصون يوسف بالذكر ، فلماذا ؟ مع أن الشقيق شريك يوسف في حب يعقوب لهما . ولا يخفى أن يوسف ينفرد بالحب الأكبر ، وكان حسد الإخوة له موافقاً لحب يعقوب له . ولهذا نحوا الشقيق الآن جانباً وركزوا القول في يوسف .

وإن هاتين الآيتين لتصوران لأبناء يعقوب أربعة مواقف :

أولا : موقف العاقل . ويمثله يوسف وشقيقه .

ثانياً : موقف جماعة من الإخوة ، يعتبرون القمة في حسد يوسف وكرهه . ويمثل هذه الجماعة قوله تعالى على لسانهم: « اقتلوا يوسف » . ويلاحظ أنها هي التي ابتدأت بتوجيه الحديث إلى يوسف وتخصيصه به وإغفال شقيقه . وذلك دليل بيّن على مدى الكره له .

ثالثاً : موقف جماعة من الإخوة يتممون التسعة من المجموع ، يعتبرون أقل كرهاً ليوسف بالذات من سابقيهم . ويمثل هذه الجماعة قوله تعالى على لسانهم: « أو اطرحوه أرضاً » والمراد اطرحوه أرضاً بعيدة مهلكة مخوفة .

رابعاً : موقف القائل الأخير ونرجح أنه كبيرهم ، الذي يعتبر أقرب الإخوة مودة ليوسف . قال تعالى عن هذا الأخ: « قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجبّ يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين » . ومعنى هذا أن موقف إخوة يوسف لأبيه منه ليس واحداً ، وأن هذا الخلاف البسيط سيكبر أخيراً حينما ينشقُّ كبير الإخوة على الإخوة ويبقى في مصر حيث عزيز مصر وشقيق يوسف ويعود الإخوة إلى يعقوب دونه .

ويلاحظ أن القائل اعتبر رأيي الجماعتين الأوليين رأياً واحداً ، هو القتل : « لا تقتلوا يوسف » ولهذا مغزاه الذي سنبينه مستقبلا .

اخوة يوسف لأبيه ليسوا شرا محضا :

حينما نتأمّل أولى الآيتين « اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخلُ لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين » فإنه يتضح أن هؤلاء الإخوة التسعة لا يبدون شرًّا محضاً . إنهم وإن كانوا يمثلون الشر في قمته ، إلا أنهم في الوقت نفسه يمثلون الخير في أول بذوره . وما كان ينبغي لواحدٍ من أبناء يعقوب نبيّ الله ، في اللحظة التي لا يكون فيها الشيطان غائباً ، أن يكون شرًّا محضاً . وإليك بيان ذلك :

إن هؤلاء الإخوة المصممين على التخلُّص من يوسف لفرط حسدهم له . في الوقت الذي يفكرون في طريقة التخلص من يوسف ، وقبل التنفيذ ، هم يفكرون في عودتهم مستقبلا ، بعد التخلص من يوسف ، قوماً صالحين . وكيف يتم ذلك ؟ يتم بعد توبة نصوح . ألم يأت على لسانهم قوله تعالى: « وتكونوا من بعده قوماً صالحين » ؟ لا . ليس ذلك فحسب . بل إن هناك سبباً آخر وجيهاً في الدلالة على أن ما اقترحه الإخوة للتخلص من يوسف كان نزوة طائشة طارئة ما لبثت أن خبت سريعاً . وفي سبيل تبيين ذلك لنتأمّل الضمائر التي استعملها الإخوة العشرة في الآية السابقة « إذْ قالوا ليوسف وأخوه أحبُّ إلى أبينا منّا ونحن عُصبة ، إن أبانا لفي ضلال مبين » .

إن ضمائر المتكلمين متصلة ومنفصلة هي التي تسيطر على جو الآية . ويلاحظ أن الإخوة استعملوا ضمائر المتكلمين هنا لأن المسألة لا تعدو التعبير الانفعالي الحانق .

والآن لنتامّل الضمائر التي استعملها في الآية التالية تسعة منهم « اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخلُ لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين » .

ما هذا ؟ إن ضمائر المتكلمين تختفي ، نعم إنها تختفي كي تحلَّ محلها ضمائر المخاطبين . إن الإخوة لا يقولون مثلا : لنقتلْ يوسف أو لنطرحه أرضاً يخلُ لنا وجه أبينا إلى آخر ذلك . فما معنى هذا ؟ وعلام يدل ؟ معنى هذا أن الذين يقترحون القتل يكتفون بمجرّد الاقتراح ، ويريدون من الفئة الأخرى التنفيذ . والذين يقترحون طرحه أرضاً يكتفون أيضاً بمجرَّد الاقتراح ، ويريدون من الفئة الأخرى التنفيذ . هؤلاء يقولون لأولئك ، وأولئك يقولون لهؤلاء: « يخلُ لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين » . هؤلاء يريدون من أولئك أن يتورطوا في قتل يوسف ، ولعلهم رفضوا ذلك فعلاً . على الرّغم من ذكر السّبب الموجب لذلك « يخلُ لكم وجه أبيكم » . والإشارة الصريحة إلى باب التوبة المفتوح دائماً : « وتكونوا من بعده قوماً صالحين » . وأولئك يريدون من هؤلاء أن يتورّطوا في طرح يوسف أرضاً بعيدة مخوفة ، تحقق الغرض نفسه ، وإن اختلفت الوسيلة الأخف وطئاً من الأولى ، ولعلهم رفضوا ذلك أيضاً ، على الرّغم من ذكر السّبب الموجب لذلك ، والإشارة الصريحة إلى باب التوبة المفتوح دائماً تماماً كما فعل السابقون . أما علام يدلُّ ذلك ؟ فعلى أن هؤلاء الإخوة ليسوا شرًّا صرفاً .

وإن من أقوى الأدلة على ذلك ، أن أصحاب الرأي بقتل يوسف وأصحاب الرأي بطرحه أرضاً ، قد تنازلوا عن رأييْهم ، واتفقوا جميعاً وبمنتهى السُّرعة واليسر والبساطة على رأي الأخ القائل الذي أشارت إليه الآية التالية مباشرة: « قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين » . ثم إن هذه الجزئية على لسان القائل: « إن كنتم فاعلين » ينال هؤلاء الإخوةُ منها شيئاً .

وكأن المعنى ، فيما يخصهم : إن كنتم فاعلين شيئاً ما للتخلص من يوسف ، كي يخلو لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين ، فإن هناك

الرّأي الذي ارتأيته عليكم والذي غاب عنكم . ولعل لسان حاله يقول : لو عرَض لكم هذا الرّأي ابتداء فلربما استعضتم به عن الرّأيين القاضيين بقتل يوسف أو طرحه أرضاً . بل إن هذا الأخ لم يكن ليعرض رأيه بهذا الاطمئنان والقوة لو لم يكن عنده شبه اعتقادٍ بقبول هؤلاء الإخوة رأيه .

وما معنى قبول هؤلاء الإخوة رأي أخيهم الأكبر وتنازلهم بكلّ بساطة ويُسرٍ عن الرأيين السابقين ؟ معنى ذلك ما سبق أن أشرنا إليه من أن بذرة الخير ، في هؤلاء الإخوة ، موجودة .

وفي الوقت نفسه ، نحن لا يمكن إلا أن نصف الرأيين الأولين بأنهما شريران . فما معنى أن يطرح جماعة من الإخوة فكرة قتل أخ لهم للنظر والدّرس ؟ وما معنى أن يطرح جماعة من الإخوة آخرون فكرة طرح هذا الأخ أرضاً ، أقلُّ ما تُوصف به أنّها مهلكة ، للنظر والدّرس ؟ معنى ذلك أن هؤلاء وأُولئك ، كان من الجائز ، لو لم يكن هناك الأخ الأكبر الملطف للجو ، أن يتورطوا في هذا أو ذاك ، ثمّ يندموا ولات ساعة مندم .

ونحن نتساءل : هل هناك فرق جوهريٌّ بين الفكرة الأولى القاضية بقتل يوسف والفكرة الثانية القاضية بطرحه أرضاً ؟ حينما نساير المألوف ، فإن الفرق بين الفكرتين يتركز في أن الأولى تُعتبر قتلاً مباشراً ، والثانية تعتبر قتلاً غير مباشرَ .

ولتوضيح ذلك نتساءل : لماذا نكر الإخوة « أرضاً » فيما جاء على لسانهم « أو اطرحوه أرضاً » ؟ إنهم نكروا اللفظ لأن هذه الأرض لما تعيّن بعد . وهُمْ على علم تامّ بأكثر من أرضٍ مهلكة . أليسوا مجموعة من الفتيان يذهبون عادة في كلّ ناحية للاستباق والرّياضة ؟ ومع ذلك فهؤلاء في انتظار الرأي الذي ترجحه أكبر مجموعة منهم في تعيين الأرض التي تلك صفتها .

ولو سايرنا المألوف ، وتصوّرْنا أن هؤلاء الإخوة ، قد طرحوا بالفعل

أخاهم يوسف الأرض التي تلك صفتها . فما النتيجة الطبيعية ؟ النتيجة الطبيعية هي الهلاك . ولعله يتمّ في صورة أبشع من القتل الذي تمثله الفكرة الأولى . خاصة إذا عرفنا أن تلك المنطقة تنتشر فيها الذئاب ، ذاتُ حاسة الشم القوية . فكيف لو صادف واحدٌ منها أو اثنان أو مجموعة ، الغلام يوسف ؟ وكيف به لو صادفه غيْر هذا الحيوان من الأخرى الكاسرة . وكيف به لو كان العطش والجوع ، وأخذ يموت منه جزء بعد جزء موتاً بطيئاً ؟

والآن فلننعم النظر في الآية التي جاءت على لسان الأخ الأكبر ، ولنتأملها من الزّوايا الممكنة . قال تعالى : « قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجبّ يلتقطه بعض السّيارة إن كنتم فاعلين » .

وأول ما نقف عنده قول الأخ:« لا تقتلوا يوسف » إن هذا الأخ الذي وضع الله تعالى في قلبه كمية ضئيلة من الود ليوسف ، ليرفض بشدة الرأيين ، ويعتبرهما قتلاً ، سواء في ذلك قتل يوسف بطريق مباشر أو غير مباشر . ومن ثم هو ينهاهم بقوةٍ ووضوحٍ واستقامة عن التورط في جريمة قتل نفس حرّم الله قتلها إلا بالحق . وما معنى أن يسوي هذا الأخ بين الرأيين ، ويجعل الطرح أرضاً بمنزلة القتل المباشر ؟ مع أنه من المحتمل أن ينجو الغلام يوسف من الأرض المهلكة .

وهذا الاحتمال وإن كان ضئيلا جداً ، إلا أنه يظلّ يزاحم الاحتمال الراجح ، فلا يجعله وحيداً ، ولكن شبه وحيد . ولا يجعله أكيداً ولكن شبه أكيد .

إن معنى تسوية هذا الأخ الرّأي الثاني بالأول ، هو أن نزعة الخير ، الضئيلة الآن عنده تجعله يفترض أسوأ الفروض ، وبالتالي لا يكون في تصوره الاحتمال الضئيل الباهت بنجاة يوسف الصَغير السن حقاً آنذاك إذا ما طرح أرضاً مهلكة .

إن نزعة الخير الضئيلة عنده ، لا تجعل من الممكن في تصوره ، لوطرح يوسف أرضاً . أن ينجو مثلا على أيدي أناس يمرون بطريق المصادفة بتلك الأرض . إن هذا الاحتمال ، البعيد الوقوع جداً وما شابهه . مما هو أقرب إلى الخيال ، لا يخطر البتة ببال هذا الأخ . وإن الذي يخطر بباله فقط ، انطلاقاً من نزعة الخير الضئيلة فيه . هو النتيجة الطبيعية المنطقية ، لطرح غلام صغير أرضاً مهلكة . ومن هنا سوى الرأي الثاني بالأول ، ولأن النتيجة واحدة ، اعتبرهما رأياً واحداً ، ومن هنا رفض هذا الرأي بقوله في وضوح تام:« لا تقتلوا يوسف »

وإن نزعة الخير الضئيلة عنده تجعله يقترح رأياً للتخلص من يوسف ، كلّ ملابساته تشير ، إلى أن الأمور لو سارت كما تصوّرها ، لكانت نجاة يوسف هي الراجحة ، بل هي الوحيدة .

قال تعالى:« قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجبّ يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين » . فما معنى قوله:« وألقوه » ؟ . الحقيقة أنّ الأخ الذي أطلق هذه الجملة ، كان مدفوعاً بحرارة مناقشة إخوته لهذه المسألة . إنّهم يقترحون قتل يوسف أو طرحه أرضاً ، وهو يريد إنقاذ حياة يوسف ، والتخلّص منه ، وإرضاء إخوته المندفعين بحماسٍ متطرف. فلم يشأ أن يستعمل مثلاً جملة « واجعلوه » أو « وَضعُوه » ، فلعل الإخوة الحانقين على يوسف لا يرضيهم تعبير كهذا ، لهذا جارى إخوته في ابتداء عرض اقتراحه فاستعمل تعبيراً حماسيّاً يرضى عنه إخوته المتحمسون ، لأنّه يُظهرُ فجوة الانتقال من رأييهم إلى رأيه ليست كبيرة ، وهذه براعة من هذا الأخ . والذي يدلّ على أنّ هذا هو عين المراد أنّ الآية القرآنية التي تشير إلى عملية التنفيذ تستعمل جملة « أن يجعلوه » في قوله تعالى:« فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجبّ » .

وبعد إرضاء الإخوة المتحمسين باستعمال جملة « وألقوه » تأتي عملية

توضيح الفكرة « وألقوه في غيابة الجبّ » وإنه لا يقول:« وألقوه في الجبّ » وهو البئر التي لما تُطْو بعد ، فيفهم من ذلك أن المراد إغراق يوسف بإلقائه في ماء الجبّ ، ولا فرق بناء على ذلك بين الرأيين الأوّل والثاني وهـــذا الرّأي .

فما المراد بالغيابة ؟ « قال الهرَوي : الغيابة في الجبّ : شبه لحْف(١) أو طاق في البئر فويق الماء ، يغيب ما فيه عن العيون ، وقال الكلبيّ ، الغيابة تكون في قعر الجبّ لأن أسفله واسعٌ ورأسه ضيق فلا يكاد الناظر يرى ما في جوانبه . وقال الزمخشري : غوْره ، وهو ما غاب منه عن عين الناظر وأظلم من أسفله (٢) » والذي نعتقد أنّ غيابة الجب يجب أن يكون من مقوماتها عدم الظهور الكامل لمن يوضع فيها ، كالغلام يوسف مثلا ، وأن يكون من يوضع فيها بمأمن من الغرق ، . وفي الوقت نفسه يستطيع أن يشرب من الماء حينما يحتاج إليه . و بناء على كل ذلك لا نرى مانعاً من قبول تعريف الهرويّ للغيابة من أنها شبه لحف أو طاق في البئر فويق الماء يغيب ما فيه عن العيون .

وفي ضوء المناسبة التي نحن بصددها ، حبذا لو عدّلنا في العبارة قليلا فقلنا:« يكاد يغيب من فيه عن العيون » . ولا نستبعد أن لظلمة الجبّ الطبيعية ، سبباً في عدم وضوح الرُّؤية ، إضافة إلى طبيعة تكوين الغيابة .

وإن كان هناك من شيء ينبغي الإشارة إليه ، فهو أنّ هذا الجب ، يجب أن يكون بمقدور الذي يوضع فيه أن يتنفس بسهولة . وبما أنّ يوسف عليه السلام ، قد وضع في غيابته ، دون أن يتعرّض من هذه الناحية لأي تعب ، فمعنى ذلك أنه يمكن استنتاج أن ذلك الجب كان محدود الغوْر .

وفي ضوء هذه المعلومات عن الغيابة والجب ووصول يوسف في الغيابة

---

١ ــ اللحف : بالكسر : أصل الجبل ·

٢ ــ البحر المحيط ٥/٢٨٤ ·

سالماً ، نستطيع أن نفهم يقيناً أن الأخ القائل « وألقوه » يريد في أعماقه « واجعلوه » .

فإذا تحوّلنا إلى لفظ « الجب » فإن الذي يلفت انتباهنا حقاً هو مجيء هذا اللفظ معرّفاً بأل العهدية . إنه لا يجيء على لسانه مثلا « وألقوه في غيابة جبّ » بصيغة التنكير ، كما نُكرت الأرض في الاقتراح الثاني ، كي يقال إن على الإخوة أن يبحثوا عن جب ما ، لوضع يوسف فيه .

وما معنى المجيء بالجب معرّفاً بأل العهدية ؟ معناه أن الأخ الذي وضع الله تعالى في قلبه الكمية القليلة من الودّ ليوسف ، والذي رفض بعنف الاقتراحين الأوّلين ، لا يقف موقفاً سلبياً ، ولكن يقدم الاقتراح الذي يضمن به التخلص من يوسف دون أن يناله أيُّ سوء .

ومعناه ألقوا يوسف في غيابة ذلك الجب المعهود لنا جميعاً ، والذي اعتدنا الذهاب للمكان القريب منه للاستباق والرياضة .

إذن لا يجهل واحدٌ من الإخوة حقيقة ذلك الجبّ . وما معنى كون الإخوة يرتادون ذلك المكان عادة ؟ معناه أنه ليس مكاناً مهجوراً بل مأنوساً . ولماذا هو مأنوس ؟ لأنّ الجبَّ القريب منه فيه ماء . ويُفهمُ ضمناً من تعريف الجب ، ومعرفة كل الإخوة له ، أن سواهم يعرفه أيضاً ، وأنهم في العلم به ، وبالماء الذي فيه شركاءُ مع سواهم .

وبما أن هؤلاء الإخوة يذهبون إلى المكان القريب من الجبّ ويردون ماءه ، فكذلك يقوم سواهم بالصنيع نفسه . لا ليس ذلك فحسب ، بل إن هناك طريقاً تذرعها القوافل ذهاباً وإياباً وهنا تجيء على لسان الأخ مباشرة هذه الجزئية « يلتقطه بعض السيارة » التي تعتبر تبييناً للجب الذي جاء معرفاً ، وتحديداً للسّبب الذي اختير من أجله ، إن صح أن غاب عن البعض ذلك السبب ، وهو ضمان سلامة يوسف ، والاكتفاء بالتخلص منه . والتخلص منه فقط .

وما معنى أن يكون الجب آهلا بالوارديه ؟ معناه أنه ليس في خطورة الجب المهجور . فإذا كان الجب المهجور مثلا مظنة استيطان بعض الآفات به فإن الجبَّ غير المهجور يقلّ احتمال ذلك به كثيراً .

ونود الآن أن نقف عند لفظة بعض من هذه الجزئية « يلتقطه بعض السيارة » إن هذه اللفظة ذات دلالة بعيدة المدى . فهي من ناحية تدل على أنّ هناك بالقرب من ذلك الجب ، طريقاً تسلكها السيارة تباعاً وباستمرار . ولو فرض أنّ سيارة واحدة لم تحتج الماء ، وهذا أمر نادر الحدوث ، فإن السيارة الّتي تليها ، أو الثالثة ، يجب أن تحتاج الماء ، و بالتالي سوف تلتقط الغلام يوسف ، الذي لن يطول مكثه في الجب في أسوأ الأحوال عن الوقت المحتمل . ومن ناحية ثانية هي تدل على الكمية القليلة من الودّ الّتي وضعها أرحم الراحمين في قلب هذا الأخ لأمر يريده .

وهكذا يتضح أن هذه الجزئية « يلتقطه بعض السيارة » تعتبر تبييناً واضحاً ينطوي على شيء كبير من الرّحمة لعملية جعل يوسف في غيابة الجب . وأن مجيء لفظ الغيابة ، يدلّ على أن المراد وضع يوسف بمنجاة من الغرق في تلك الغيابة ، الّتي يمكن أن يشمّ فيها الهواء ، ويشرب الماء . أما الطعام فلن يكون انتظاره طويلا ، لأن السيارات الّتي ستمرّ ، لن تعدم واحدةٌ منها الحاجة إلى الماء ، وستبعث بواردها ، وسيجد الغلامَ يوسف . وأول ما سيقدّم له الطعام .

ويأتي على لسان هذا الأخ مباشرةً هذه الجزئية « إن كنتم فاعلين » . وأول ما نود الوقوف عنده هو أنّ هذا الأخ لا يقول: « إن كنّا فاعلين » ولكن « إن كنتم فاعلين » . فدلّ ذلك على أنه أخرج نفسه وحيداً ، وأصبح المعنى الذي أراده « إن كنتم أيّها الإخوة تريدون أن يخلو لكم وجه أبيكم ، وإن كنتم مصرّين على فعل شيءٍ ما . للتخلص من يوسف ، فألقوه في غيابة الجبّ يلتقطه بعض السّيارة ، لا أن تقتلوه . وقياساً على ما سبق نقول : إنّ هذا الأخ يقول: « وألقوه » ولا يقول مثلا: « ولنلقه » .

والذي يلوح لنا هو أنّ هذا الأخ مكتفٍ بمشاركته السّلبية ، قانع بحسده السّلبي ليوسف . وقد يقول قائل : وكيف نوفق بين هذه السّلبية ورأيه الإيجابي الذي نفذه الإخوة فعلاً ؟

والجواب على هذا أن هذا الأخ لم يكن له ابتداءً أيُّ رأي ، فوجد نفسه مضطراً لأن يقدّم اقتراحاً ينقذ به حياة يوسف من ناحية ويحقق رغبة إخوته الأكيدة في التخلص من يوسف ، من ناحيةٍ أخرى . ثمّ إن قوله: « إن كنتم فاعلين » ينسحب أيضاً على الرّأي الثالث ، فكأنه والله أعلم يقول لهم : ألقوا يوسف في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة ، إن كنتم مصممين على فعل شيء ما للتخلص من يوسف . وإن لسان حاله يستمرّ قائلا : وإن لم تكونوا مصممين على فعل شيءٍ ما ، فاكتفوا مثلي بحسدي السّلبي له .

وهنا نقطة هامّة جدّاً نحبّ تأكيدها ، هي أنّ الأخ القائل ، يعتْبر حجر الزاوية في قصة يوسف . فبسبب اقتراحه الذي ألهمه الله تعالى إياه ، سارت القصة هذه السيرة التي أرادها الله تعالى لها .

وإنا نستطيع أن نقول : إن هذا الأخ كان في قرارة نفسه قانعاً بحسده السلبي ليوسف ، وكان لا يمانع أن يحسد إخوتُه يوسفَ حسده . ونستطيع أن نفهم من مجموع الومضات النفسية التي ظهرت على طريقته في التعبير . أن هذا الموقف السلبي استمرّ ملازماً له ، حتى نفذ اقتراحه ، أخف الاقتراحات الثلاثة ضرراً وأكثرها احتمالاً للنجدة .

وإن لنا لوقفة عند إجماع الإخوة ، وفيهم القائل ، على جعل يوسف في غيابة الجب ، قال تعالى: « فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب ، وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون » . فكيف نوفق بين هذا الإجماع والقول بأن القائل أقربُ الإخوة مودّة ليوسف ؟ والجواب على ذلك أنّ الآية يجيء فيها قوله تعالى: « أن يجعلوه » وليس « أن يُلقوه » مثلا . فنحن بصدد تحوير لطيف من موقف الإخوة الذين

ارتضوا إلقاء يوسف في غيابة الجب ، ولعلّ لهذا القائل دوراً في هـذا التحوّل .

ولا نستطيع أن نبريء الأخ القائل تماماً من أي مسؤولية . فنحن نتساءل مثلاً ، ألم يكن بإمكانه أن يخبر يعقوب برأيي الإخوة في سبيل التخلّص من يوسف ؟ ولكنا في الوقت نفسه نقول : هبه قد أخبر يعقوب بذلك ، فهل يستطيع يعقوب نفسه أن يمنع هؤلاء الإخوة من قتل يوسف أو طرحه أرضاً لو صمموا على ذلك . وما الذي يضمن أن ينثني الإخوة عن تنفيذ رأييهم لو علم يعقوب . ومن يدري ؟ ربّما صاروا أكثر عناداً واستكباراً . بل ربّما لا يقف الأمر عند يوسف وإنما يتخطاه لسواه ، كالشقيق مثلاً .

ومهما يكن الحال ، فقد كان هذا الأخ راضياً بجسده السلبي ليوسف ، ساكتاً على عزم إخوته تنفيذ اقتراحه هو بإلقاء يوسف في غيابة الجب .

ويمكن القول : إنّ الإخوة بموافقتهم أخيراً على تنفيذ اقتراح الأخ الأكبر قد عادوا مرّة أخرى صفّاً واحداً تقريباً . وإن كان هناك من فرق طفيف فهو أنّ الأخ الأكبر يمثل الرفيق المراقب ، أو المشرف على التنفيذ ، أمّا المنفذون فهم الإخوة التسعة الباقون .

اغراء الاخوة يعقوب بأخذ يوسف تنفيذاً للمؤامرة :

قال تعالى : « قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنّا على يوسف وإنا له لناصحون ، أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون ، قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب و أنتم عنه غافلون ، قالوا لئن أكله الذّئب ونحن عصبة إنّا إذنْ لخاسرون » .

من البديهي أنّ ما جاء على لسان الإخوة في الآيات السابقات كان مُوَزّعاً عليهم ، فليس هناك ما يمنع أن قوله تعالى: « يا أبانا ما لك لا تأمنّا على يوسف وإنا له لناصحون » جاء على لسان بعض الإخوة ، ولعله جاء

على لسان مجموعتين كل مجموعة جاء على لسانها جزئية من الاثنتين . وأن قوله تعالى :« أرسله معنا غداً يرتع و يلعب ، وإنا له لحافظون » يقال عنه ما قيل عن القول السّابق تماما و أنّ قوله تعالى :« لئن أكله الذئب و نحن عصبة إنّا إذن لخاسرون » كان الردّ الطبيعي للكثرة الفائقة منهم على جواب يعقوب لهم ، كما أنه ليس هناك ما يمنع أن يكون الأخ الأكبر مكتفياً بمجرد المراقبة من بعيد ، دون أن يكون له دور في الطلب الذي تقدم به إخوته ليعقوب وردهم عليه ، خاصة إذا عرفنا مستقبلاً أن هذا الكبير يجيء على لسانه ، في تأنيبه لهؤلاء الإخوة ، ضمير جماعة المخاطبين وليس المتكلمين ، أعني في قوله تعالى :« قال كبيرهم ألم تعلموا أنّ أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف » .

وأول ما يلاحظ على هذه الآية التي جاءت على لسان الإخوة « قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون » أنّ كلامهم الاستفهامي هذا يشوبه شيء كبير من التعجب ، فهم يتساءلون لمَ لا يأمنهم يعقوب على يوسف مع أنهم ناصحون له أمناء عليه .

ونستطيع أن نفهم من قولهم :« ما لك لا تأمنا على يوسف » الذي يعتبر أول كلام مباشر مع يعقوب عن يوسف بعد اتفاقهم على الرأي الثالث ، أن هذه هي نظرة يعقوب إليهم بشأن يوسف . وأن هذا الاستفهام التعجّبيّ منهم ليس سوى امتداد طبيعي لموقف يعقوب ، غير المؤتمن دائماً للإخوة على يوسف ، ذلك الموقف الذي كان لا يقع منهم موقع الرضا ، مع يقينهم بأنّ ذلك من حقّ يعقوب ؛ لأنهم خير من يعلم بحقيقة حسدهم وبغضهم ليوسف .

لقد كانوا من قبل ليسوا بحاجة لأن يصرحوا ليعقوب بعدم رضاهم عن نظرته تلك لهم ، فقد كان موقفهم من يوسف ما زال سلبياً ، أما الآن وهم على وشك القيام بعملهم الإيجابي ضدّ الغلام يوسف ، فإنهم يتصنعون

إظهار المودّة لأخيهم أمام و الدهم . ثمّ هم يقومون لأول مرة بمخاطبة والدهم صراحة ، في صيغة الاستفهام التعجبي ، لامسين بمهارة لحقيقة عدم ائتمان والدهم لهم على يوسف وهي الحقيقة التي تعمدها يعقوب ، ولم يجهلها الإخوة ، وأراد يعقوب لها أن تبقى غير مصرح بها . وكأني بيعقوب قد فوجيء بهذه الصراحة ، وبهذه الجرأة غير المتوقعة من الإخوة في إثارة مسألة عدم الائتمان لأول مرة دون سابق استئذان أو تمهيد .

ويلاحظ أن الإخوة لا يقولون:« ما لك لم تأمنا » كي يقال إن عدم الائتمان كان خاصّاً بالماضي . وإنما يقولون:« ما لك لا تأمنا » فدلّ هذا على أنّ عدم الائتمان شامل للماضي والحاضر ، وربما انسحب على المستقبل أيضاً . وهم حينما يتعجبون في هذه الصيغة فكأنهم يقولون : لم يكن هناك داع لعدم ائتمانك لنا في الماضي على يوسف ، ونحن الذين لم نعمل له أدنى سوء ، وها نحن أولاء الآن ، القمةُ في الإخلاص والنُّصح له . فلا داعي مطلقاً ، منذ اللحظة ، وهذا من باب أولى لعدم الائتمان . ولا يخفى أن هذا التعبير بارع منهم ، وقد اتخذوه توطئة لطلبهم الصريح وضماناً لعدم رفض يعقوب الطلب .

وكأني بيعقوب أخذ يتساءل في نفسه عن السرّ الغامض الكامن وراء هذه المودة المفاجئة التي يظهرها الإخوة أمامه في تلك اللحظة . بل كيف يوفق بين علمه القطعي بحسدهم وخوفه من كيدهم المحتمل ليوسف الذي رأى الرُّؤيا ذات الشأن ، وبين طلبهم الصريح أخذ يوسف معهم في اليوم التالي ؟ فقد جاء في الآية على لسانهم « أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون » . فماذا يكون رد يعقوب عليهم ، وموقفه من طلبهم ؟ هل القبول أم الرفض ؟ إنهما أمران أحلاهما مرّ .

لقد لمس الإخوة ببراعة مسألة عدم الائتمان ، وأظهروا أن ذلك لامبرر له وقد اتخذوا من كلّ ذلك توطئة لطلبهم الصريح بأخذ يوسف كي يرتع ويلعب فإنهم له لحافظون .

هل يستطيع يعقوب أن يرفض الطلب ؟ مع علمه بأن ذلك قد يكون له ردٌّ فعل سيء عند الإخوة ، ويكون سبباً في جعل كيدهم المخشي ليوسف حقيقة ؟ ومن يدري ؟ ربما يكون الإخوة قد تبين لهم خطأ نظرتهم السابقة لأخيهم فعدلوا عنها وعادوا إلى جادة الصواب ، خاصةً وأنّ تعبيرهم في النصح ليوسف وحفظهم له قويٌّ الدلالة ؛ فنحن بصدد إنّ التي تفيد التوكيد ، وقد جاءت مرتين ، ولام التوكيد التي جاءت مرتين كذلك ، أعني في قولهم « وإنا له لناصحون » و « وإنا له لحافظون » .

وهل معنى هذا أن يعقوب يستطيع أن يلبي طلبهم ؟ في الوقت الذي يجد نفسه أميل إلى عدم الائتمان ، لأن تحولهم إلى إظهار المودة ليوسف مفاجيء ، فهم لم يظهروا هذه المودة من قبل ، بل إنهم جعلوا ذلك توطئة لطلبهم الصريح بإرسال يوسف معهم في اليوم التالي . فما السبب وراء هذا التحول المفاجيء؟ وهل هناك علاقة بينه وبين طلبهم ذلك ؟ وأخيراً هل هناك سر يكمن وراء كل ذلك ؟ فما هذا السر ؟ أهناك شر أريد به يوسف ؟ وما نوع ذلك الشر ؟ بل ما هو السبب الذي يدفعهم إلى ذلك ؟ لا أتبين شيئاً جديداً قد طرأ ، فلم هذا الموقف الجديد من الإخوة ؟ أيكون يوسف قد قص عليهم رؤياه ؟ فهم يريدون أن يكيدوا له كيدا .

ولكن لم أعهد ابني الحبيب يرفض لي طلباً . لقد نهيته عن أن يقص رؤياه على إخوته ، وقطعاً هو قد فعل ، وامتثل أمري . إذن ليس هناك سبب جديد مثير للحسد ، فلعله بناءً على ذلك قد هدأ وخف ، ولعله مع مرور الأيام يذوب وينمحي . ولكن هل يمكن أن يحدث ذلك ورؤيا ابني الحبيب تدل على أنه سيكون له شأن دينيّ ودنيويٌّ مستقبلاً ؟ بل إنها تشير صراحة إلى أن هؤلاء الإخوة ، (كما تقول الآية) سيسجدون كعادةالعصر ، في الدلالة على التحية والإجلال ليوسف . فمتى يكون ذلك ؟ هل في الوقت القريب أم البعيد ؟ وهل يكون ذلك عن صفاء منهم ليوسف أم عن حسد ؟ أم عن شيء قليل منه .

وكان على نبي الله الصادق القول أن ينقل إلى أبنائه بأمانة ما في قلبه . قال تعالى على لسانه: « قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون » . إن كلام الإخوة ليعقوب ينقسم إلى قسمين : التوطئة ثمّ الطلب الصريح بإرسال يوسف معهم .

وفي جواب يعقوب لا نتبين أي إشارة إلى التوطئة ، أعني ما جاء على لسانهم من قوله تعالى: « قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون » . إن جواب يعقوب خاص بالطلب . فلماذا أهمل توطئة الإخوة ؟ وجعل كلامه لهم خاصًّا بالطلب ؟ والجواب على ذلك أنه إنما أهمل التوطئة التي يمكن أن تنقسم بدورها إلى قسمين: « ما لك لا تأمنا على يوسف » و « وإنا له لناصحون » لأنه فيما يختص بالقسم الأول من التوطئة على علم يقينيّ بأنّ ما صرح به الإخوة من عدم الائتمان حقيقة ، لعلمه اليقيني بحسدهم له . وكان يتمنى في أعماق نفسه لو أن هذا الحسد قد زال كي يأمنهم بقلبه على يوسف ، وإن القسم الثاني من التوطئة «وإناله لناصحون» الذي يعتبر انتقالاً مفاجئاً في إظهار النُّصح ليوسف ، ومرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالقسم الأول من التوطئة ، والذي يتمنى لو أنه حقيقة ، كان يعقوب في قرارة نفسه ليس مطمئناً إليه ، وهو الكلام المعسول منهم . ولهذا هو لم يجب على القسم الأول من التوطئة ، لأنه حقيقة ، وسكوته يدلُّ على ذلك . ولو أجاب يعقوب عليه ، لم يكن ليتكلم بغير الصدق الذي قام به سكوته . ثم هو لم يجب عن القسم الثاني من التوطئة ، لأنه في حيرة بين تصديق ما يقول به قلبه من عدم نصحهم ليوسف وبين ما يقولون به من النُّصح له .

وبما أنه لم يكن عنده هذه المرة ، أيُّ دليل مادي على عدم النصح ، لذلك كان جوابه على طلبهم ليس قبولا واضحاً ولا رفضاً بينا . وإن كان هو ، والحق يقال ، إلى الرّفض أقرب ، قال تعالى عن يعقوب: « قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون » .

إنّ هذه الآية تنقسم إلى قسمين مصدرهما حبُّ يوسف والإشفاق عليه : القسم الأول:متعلق بذات يعقوب عليه السلام « إنيِّ ليحزنني أن تذهبوا به » والقسم الثاني:متعلق بغفلة هؤلاء الإخوة المحتملة وفتك الذئب بالصغير يوسف .

وبتأمُّلنا للقسم الأول من الجواب « إني ليحزنني أن تذهبوا به » فإنا نتبينُ لسان الصدق الذي عُرف به أنبياء الله تعالى . إن يعقوب عليه السلام لا يجهل أن الحب الذي وضعه الله تعالى في قلبه لابنه يوسف سببُ حسد هؤلاء الإخوة له،وفي هذه اللحظة الحرجة ينقل يعقوب ما في قلبه من حب يوسف بأمانة إلى الإخوة . ولماذا هو يحزن لذهابهم بيوسف ؟ لأن يوسف سيفارقه ، وهو لا يطيق له فراقاً . إن يعقوب نبي الله ، المتوكل على الله حق التوكل ، لم يكن ليخطر بباله البتة إلا أن يجعل ما في قلبه على لسانه . فليس هناك لف ولا دوران . وليس هناك إبهام ولا تضليل . ولكن هناك العبارة الواضحة المشرقة القوية الصياغة . فنحن بصدد إنّ التي تفيد التوكيد ، ولام الابتداء التي تفيد التوكيد أيضاً .

ونستطيع أن نفهم من قول الإخوة السابق:« أرسله معنا غداً » ومن عودتهم عشاء بعد إلقاء يوسف في الجبّ ، أنهم أفهموا يعقوب بأن غيابهم عنه لن يطول . ومع ذلك فإنه يقول:إنه ليحزنه مجرد ذهابهم بيوسف وعدم وقوع عينه عليه . ولا يقول مثلا : إنّه ليوحشني أن تذهبوا به ، كما أنه لا يقول : إنّي ليحزنني أن تغيبوا به ، أو أن يطول غيابكم به ، كي يقال ربّما أطاق يعقوب ذهابهم به لفترة بسيطة أو ما شاكل ذلك .

ونستطيع أن نفهم أيضاً أنّ قول يعقوب هذا كان بمثابة الطعنة غير المقصودة الموجهة إلى قلوب الإخوة المصممين على الغدر بيوسف .

وبتأمُّلنا للقسم الثاني من الجواب « وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون » فإنا نتبين أن هذا هو الكلام المنتظر من شفيق بسوء ظن مولع .

إن الإخوة حينما يذهبون فسيكون همهم في نظر يعقوب الطيب القلب أن يستبقوا ويتناضلوا وربما ابتعدوا بأجمعهم عن المكان الذي نزلوا به وذهلوا عن يوسف الصغير السنّ الذي لن يستطيع مشاركتهم فيما هم فاعلون ، ولن يستطيع مجاراتهم لو حاول . ولو فرض أنهم ابتعدوا عنه فلن يستطيع اللحاق بهم أو تتبعهم . وبما أن تلك المنطقة مليئةٌ بالذئاب ، فليس من المستبعد أن يصادف واحد منها يوسف ، الذي لن يستطيع مطلقاً الدّفاع عن نفسه .

وبالتالي فإن النتيجة الحتمية لذلك هي أكل الذئب ليوسف . ووقتها سيكون حزن يعقوب على يوسف دائماً . وتأمل الفعل الذي يجيء على لسان يعقوب من قوله تعالى:« وأخاف أن يأكله الذئب » إن الفعل « يأكل » هنا قمة في التعبير عما في نفس يعقوب عليه السلام ، وأبلغ فعل يحتلُّ هذا المكان لأنه يدل من ناحية على فتك الذئب وشراسته ومن ناحية أخرى على ضعف يوسف وقلة حيلته .

وكأن يوسف ، لو صحت خلوة الذئب به ، أي ذئب ، فسيكون أكلةً شهية له ، لأنّه لن يجد مقاومة مطلقة .

إنّ الفعل « أكل » هنا يدل على الوداعة في قمتها من جانب يوسف والفتك في قمته من جانب الذئب .

ولو أنّ نية الإخوة حسنة . ولم يكونوا مصممين على الغدر بيوسف ، لكان في جواب يعقوب الأقرب إلى الرّفض ، صارف لهم عن طلبهم أخذ يوسف وحافزٌ لهم على العدول عن هذه الفكرة أساساً ، التي لم يرتح لها يعقوب أصلا . وبما أنهم مصممون على أمر مّا ، يتعلق نجاحه على ذهاب يوسف معهم ، لذلك استمروا في الكلام ، مصرّين على الطلب .

وكما أغفل يعقوب في جوابه حديثهم عن ذات أنفسهم ، أعني أنه لم يجبهم على قولهم كما جاء في الآية « ما لك لا تأمنا على يوسف وإنا له

لناصحون » كذلك أغفل الإخوة في كلامهم الأخير حديث يعقوب عن ذات نفسه ، أعني أنهم لم يجيبوه على قوله كما جاء في الآية:« إني ليحزُنني أن تذهبوا به » . إنما أجابوه على قوله الذي جاء بعد ذلك ، وكان كلامهم كما في الآية:« قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذاً لخاسرون » .

ونحن نتساءل : لماذا أغفل الإخوة حديث يعقوب عن ذات نفسه ، وركزوا كلّ جوابهم على الذئب وذات أنفسهم ؟ والجواب على ذلك أنّ الإخوة الذين زين لهم الشيطان سوء أعمالهم كان كلام يعقوب « إنّي ليحزُنني أن تذهبوا به » بالنسبة لهم طعنة بلغت أعمق أعماقهم ، لأن هذا القول يبلور السبب الذي من أجله هم يحسدون يوسف كل ذلك الحسد . ألا وهو حب يعقوب غيرُ المتناهي له .

وهم قد أدركوا تمام الإدراك أن العبارة قد تخونهم لو حاولوا الرد على يعقوب « إنّي ليحزنني أن تذهبوا به » ؛ لأنهم يُبغضون الحديث في هذه المسألة بالذات سبب بلائهم .

وقد عدلوا إلى الحديث عن الجزئية الأخرى من قول يعقوب ، وكأنهم أدركوا أن نجاحهم في الرد على الجزئية الثانية ، وإقناعهم يعقوب بأنه ليس هناك داع لخوفه من الذئب ، رد ضمني على الجزئية الخاصة بحزن يعقوب . فلعلّ من الأسباب الكثيرة المعمقة لحزنه الخوف من الذئب الذي عبر عنه صراحة في الجزئية التالية .

وإن هذه الجزئية التي استهان بها الإخوة هي التي طبعت جزءاً كبيراً من قصة يوسف بطابعها .

وهل كان حزن يعقوب إلا نابضاً نامياً منذ زعم الإخوة بعد عودتهم عشاء دون يوسف بأن الذئب قد أكله حتى جاء البشير وألقى قميص يوسف على وجه يعقوب فارتد بصيراً . إنّ هذه العبارة تعتبر تنبيهاً عميقاً بعيد المغزى من يعقوب لأبنائه . وكان الأولى بهم أن يقدروها حقّ قدرها ، ولكنهم

لأمر يريده الله تعالى ، أهملوها إهمالا كلياً أو شبه كلي ، ونزلوا بكل ثقلهم على القول الآخر ليعقوب . قال تعالى عنهم: « قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذن لخاسرون » .

والمتأمل لهذا القول يدرك أن الإخوة بمهارة فائقة يغلقون كل المنافذ التي يمكن للذئب منها أن يفتك بيوسف . ويأتي بطبيعة الحال في المقدمة ما أشار إليه يعقوب من غفلتهم عن يوسف المحتملة والتي قد تؤدي لفتك الذئب به . إنهم يطمئنون يعقوب بأنهم لن يكونوا مطلقاً غافلين عن أخيهم يوسف ، فلن يتركوه وحيداً مطلقاً .

ومن الجائز أن يشتركوا جميعاً في بعض أنواع اللعب ، ولكنهم سيكونون بالضرورة بالقرب منه . ولو فُرض أن بعضهم ابتعد أو أوغل في الابتعاد ، فإن البعض الآخر يجب أن يكون مع يوسف ، أو على أقل تقدير قريباً منه قرباً بيناً .

وفي كل هذه الأحوال لن يستطيع الذئب الفتك بيوسف ، لأنه لن يجده وحيداً ، وليس هناك الذئب الذي يستطيع مهاجمة عصبة من الرجال ، أو بعض هذه العصبة .

ومعنى هذا أن الذئب لا يستطيع مطلقاً الوصول إلى يوسف ، وبالتالي لاداعي أساساً لحزن يعقوب على ذهاب يوسف . وإن كل هذه الافتراضات شملها القول الذي جاء على لسانهم « لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذاً لخاسرون » .

ونحن نلمح في قولهم هذا اعتداداً بالنفس بعيد المدى ، فهم يأتون باللام الموطئة للقسم ، وإن الشرطية والضمير المنفصل « نحن » الثقيل الوزن . ولفظة عصبة التي تدل على العدد الكبير من الرجال . بينما يأتون في المقابل بالذئب في صيغة المفرد . وأتوا بعد ذلك بإن التي تدل على التوكيد واللام الداخلة على خبر إن . وقد أظهر الإخوة مهارة فائقة في التعبير .

وهل يستطيع ذئب واحدٌ مفردٌ مهما كان شديداً بطشه أن يصل إلى صغير يحميه عصبة من الرّجال ؟ إن شيئاً كهذا في حكم المستحيل ، وعليه فإن الإخوة لو وافق فعلهم قولهم ، لما كانوا يوماً من الأيام من الخاسرين . ولكنه القول المعسول الذي أتقن الإخوة حبكه لغاية في أنفسهم .

وحينما واتتهم الفرصة نفذوا ما بيتوه . وبعد ذلك فكروا في عذر يقدمونه . فلم يجدوا سوى ما سبق أن أخبرهم يعقوب صراحة بخوفه منه « وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون » ذلك الخوف الصادر من فؤاده عليه الصلاة والسلام .

قال تعالى:« فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب ، وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون » ولم يكن الإخوة ليذهبوا إلا ويوسف معهم وفي صحبتهم ، وهنا يكون لجميع الإخوة العشرة ، إجماع في الرأي على جعله في غيابة الجب ، وفيهم الأخ الأكبر الذي لم يبد أيّة معارضة حينما أوشكت ساعة التنفيذ ! ولعلّ ذهاب يوسف معهم الذي تحقق ببساطة لم يكونوا يتوقعونها ، وإمكان التخلص منه بسبب الذّهاب معهم طمعاً في أن يخلو لهم وجه أبيهم ويكونوا من بعده قوماً صالحين . وتصميم الإخوة التسعة أوّل الأمر على التنفيذ ، وبقاء الأخ الأكبر الدائم في هذا المحيط الممتلىء بالحسد ليوسف ، ذلك المحيط الذي يمثله تسعة من الأشخاص القادرين بإجماعهم على أمر ما ، ولو كان ضلالا ، التأثير في شخص واحد، ولو كان الأخ الأكبر لهم ، لعلّ كل هذه الأمور مجتمعة هي التي جعلت الأخ الأكبر ينجرف في التيار نفسه ، ولا تكون منه أدنى مخالفة .

وإن جملة « وأجمعوا » تظلّ تدل على أن الإجماع حتى هذه اللحظة ، كان في الرأي ، ويبقى بعد ذلك التنفيذ . وقد ذهب البعض إلى أن للأخ العاشر الأكبر دوراً فعالا في التخفيف من سوء معاملة الإخوة ليوسف . وليس ذلك بمستبعد إن أظهر الإخوة حقيقة شعورهم ليوسف قبل جعله

في غيابة الجبّ ، أما إذا كتم الإخوة رغبتهم حتّى أغروا يوسف بالنزول إلى غيابة الجبّ كي يملأ لهم ماء ، وهو ما نرجحه ، فلا مجال لإساءة المعاملة أو تدخل الأخ الأكبر للتخفيف منها .

وقبل أن يقدم الإخوة على تنفيذ الخطة ، هم فكروا مليّاً في العـُذْر الذي سيقدمونه بين يدي يعقوب ، والذي يرجي أن يكون مقبولا : وبما أنهم سيجعلون يوسف في غيابة الجب ، دون أن ينال شخصه أي أذى ، فمعنى هذا أنه لن يكون عندهم أي دليل مادي يمكن أن يقال عنه في صورة أكيدة قطعية إنه جزء من الغلام يوسف .

إنهم لم يقتلوه مثلا كي يأتوا بجثته زاعمين أنّ الذئب قد فتك به بعد أن يعبثوا بها ، وفكروا قبل التنفيذ مليّاً في العذر الذي يتمشى مع صنيعهم بيوسف ، فلم يجدوا خيراً من العذر الذي سبق أن جاء على لسان يعقوب ، الخائف من أعماقه على ابنه « وأخاف أن يأكله الذئب » إن خوف يعقوب الفائق على ابنه اقتنص هذه الظاهرة فبلورها إشفاقه الأبويّ في القول الذي جاء على لسانه .

وحينما بحث الإخوة عن عـُذر لم يكن عندهم القدرة لأن يبتدعوا سبباً آخر وجيهاً ، ولم يجدوا غايتهم أخيراً إلا فيما خاف منه يعقوب وهو الذئب فتمسكوا مرغمين بهذا العذر وقد أوصدت المنافذ أمامهم .

والحقيقة أن الإخوة قد بلوروا هذا العـُذر في عبارة منمقة تتضمن سبباً معقولا لتمكن الذئب من الفتك بيوسف ، ألا وهو الاستباق الذي قاموا به ذلك النهار ، والذي يقومون به في كلّ مناسبة كهذه . خاصة وأنهم في ريعان الشباب .

وبما أنّ يوسف لا يستطيع مجاراتهم لهذا كان طبيعياً أن يبقى وحيداً عند متاعهم ومن ثم أكله الذئب .

والذي يدل على أن الإخوة كانوا يحسبون ليعقوب حساباً كبيراً هو أنهم

قبل التنفيذ فكروا في العذر ، ومن ثم فهم قبل جعل يوسف في غيابة الجب نزعوا عنه قميصه . وبعد إلقائه فيه قاموا بتلطيخه بدم كذب . وبما أنه ليس هناك نص قرآني يشير إلى أنّ الإخوة لم يتقنوا إظهار القميص في المظهر اللائق بهذه المناسبة ، فليس هناك ما يمنع قبول ما ذهب إليه الكثير من أنّ الإخوة ذُهلوا عن تمزيق القميص ، وقد أخذ يعقوب ذلك حجة عليهم . ولكنا إذا نظرنا من زاوية حرص هؤلاء الإخوة على إقناع يعقوب بصدق كل ما جاءوا به ، ثم هم عشرة يكمل بعضهم ما غفل عنه البعض الآخر ، وليس هناك إشارة في القرآن إلى عدم تمزيق القميص ، لكل ذلك نحن لا نستبعد أن يكون الإخوة قد فطنوا إلى تمزيق القميص . ولكن الدلائل الأخرى هي التي جعلت يعقوب لا يصدق لهم شيئاً . ومن أهم هذه الد لائل أنّ الذئب الذي خاف منه على يوسف هو الذي زعموا أنه أكله .

النبأ الجلل يصل إلى يعقوب عليه السلام :

قال تعالى:« وجاءوا أباهم عشاءً يبكون ، قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ، وجاءوا على قميصه بدمٍ كذب ، قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبرٌ جميل ، والله المستعان على ما تصفون » .

إن هؤلاء الإخوة حينما يعودون يتوجهون مباشرة إلى أبيهم ، فعندهم الجرأة الكافية لأن يواجهوا أباهم بهذا النبأ العظيم . ولكن في أي وقت يعودون وفي أي حال ؟ إنهم يعودون عشاءً وفي ظلمة الليل الحالكة . ونرجح أنهم تعمدوا مواجهة أبيهم بذلك النبأ في ذلك الوقت بالذات ، لأن الظلام مسعفٌ لهم على إخفاء حقيقة ملامح أوجههم ، وإتاحة الفرصة لأصواتهم العالية بالبكاء لأن تلعب دورها .

وإذا افترضنا أنه كان لزاماً عليهم أن يواجهوا أباهم بهذه الحقيقة

بأنفسهم فليس لهم الخيار في ذلك ، فإنهم لم يكونوا مرغمين على المواجهة في ذلك الوقت بالذات . ولكن علمهم اليقينيّ بالكذب الكبير الذي هم مقدمون عليه يجعلهم يختارون ذلك الوقت من الليل مسعفاً لهم على كذبهم . وهذا الاختيار دليل على أنهم كانوا يشعرون في قرارة أنفسهم بأنهم أقدموا على أمر جلل ، وأنهم يحملون النبأ الذي سيسوء يعقوب أيما إساءة .

وحينما يجيء هؤلاء الإخوة عشاءً يبكون ، هل هم صادقون في ذلك ؟ هم بطبيعة الحال كاذبون ، وكانوا يريدون بهذا البكاء أن يهيئوا والدهم لتلقي النبأ الفاجع . وإنا لنتساءل أيُّ عشاءٍ هذا الذى جاء فيه الإخوة ؟ هل هو عشاء ذلك اليوم أم عشاء يوم آخر ؟ الراجح في اعتقادي . والله أعلم ، أنه عشاء ذلك اليوم ونستطيع أن نفهم أنّ هؤلاء الإخوة منذ أن أذن لهم يعقوب بأخذ يوسف في الغد ، أخذوا يتدبرون الأمر ؛ ويتدارسون في أنفسهم الخطة . كما نستطيع أن نفهم أنهم استيقظوا صباحاً في وقت أكثر تبكيراً ، وحجتهم الظاهرة أنهم مقدمون على رحلة ينبغي أن يستعدّ لها . وحجتهم الخفية أنه آن الأوان لأن يخلو لهم وجه أبيهم بعد التخلص من يوسف ، فعليهم أن يتعجلوا الأمر وأن يستعدوا له .

ومن الأدلة على أن المراد عشاء ذلك اليوم ، أن الأخ الأكبر أتى بالجبّ معرّفاً في اقتراحه الثالث : « وألقوه في غيابة الجبّ » . وهذا التعريف دليل على معرفة الأكثرية له إن لم يكن الجميع ، وحينما نتصور بطء وسائط النقل آنذاك ، واعتياد الإخوة الذهاب للاستباق والرياضة إلى المكان القريب من ذلك الجبّ ، نستطيع أن نفهم أنّ ذلك المكان والجبَّ غيرُ بعيدين عن مكان يعقوب بُعداً شاسعاً ، ويُفهم من هذا ضمناً أنّه يمكن قطع المسافة بين مكان يعقوب ومكان الجبّ ، ذهاباً وإياباً ، مع تنفيذ الخطة في ذلك اليوم نفسه ، خاصةً وقد ألـمحنا من قبلُ إلى أنّ الراجح أن هؤلاء الإخوة استيقظوا صباح ذلك اليوم مبكّرين .

ومن الأدلة على أن المراد عشاء ذلك اليوم أيضاً ، أن الإخوة حينما صرح يعقوب بحزنه على ذهابهم بيوسف تجاهلوا ، متعمدين ، مجرَّد الإشارة إلى هذه المسألة . وربما أفهموا يعقوب بهذا التجاهل الكلّي ، بأنه لا داعي لذلك الحزن ، لأنه يعرف تماماً أنّ المكان الذي سيذهبون إليه ليس بعيداً ، ويفهم ضمناً أنهم سيعودون عشاء ذلك اليوم . فلا داعي للحزن على يوسف الذي لن يطول غيابه بحال .

ومن الأدلة علىأن ذلك أيضاً أن الإخوة يقولون:« أرسله معنا غداً » وهم يريدون سحابة اليوم التالي فقط .

وإن كان هناك من شيء نودّ الوقوف عنده مما جاء على لسان الإخوة « وجاءوا أباهم عشاءً يبكون » هو جملة « جاءوا » فنحن لا نتبين منها ، في هذه المناسبة ، أي رغبةٍ في أنفس الإخوة للعودة أو الرجوع أو الذهاب إلى أبيهم (١) .

إنا نتبين فقط المجيء الذي اضطر إليه الإخوة اضطراراً ؛ لأنه أمر لا مندوحة منه . وهل يستطيع الإخوة ألا يجيئوا ؟ ولو فُرض أنهم لم يجيئوا فعلام يدل ذلك؟ على أنّ لهم يداً في اختفاء يوسف ، وهذا ما حرَصوا على نفيه عن أنفسهم ثمّ إنّ الهدف الذي سعوا إليه ليس مجرَّد التخلص من يوسف ، ولكنه التخلص بقصد أن يخلو لهم وجه أبيهم . إذن لقد كان لزاماً عليهم أن يجيئوا إلى أبيهم ، ولكنه مجيء المضطرّ . إن الآية تستعمل الفعل جاء ، ولا تستعمل مثلاً الفعل رجع أو ذهب ، وكلٌّ منهما يدلّ على أن هناك رغبة من نوع ما في الرّجوع أو الذهاب ، ولا يفيد الفعل « جاء » هنا شيئاً من ذلك .

---

(١) تبين من الاستعمالات الكثيرة فى القرآن الكريم لجملتى (جاء) و (أتى) أن جاء تستعمل دليلا على القرب ، المكانى والزمانى والنفسى . وأن أتى تستعمل دليلا على البعد ، المكانى والزمانى والنفسى .

وهكذا جاء الإخوة أباهم في ظُلمة الليل ، لأن في عدم ظهور ملامحهم على حقيقتها في ذلك الظرف ، بسبب الظلام ، مساعدة لهم أيّ مساعدة . « ولذا قيل : لا تطلب الحاجة بالليل فإن الحياء في العينين ، ولا تعتذر في النهار من ذنب فتتلجلج في الاعتذار »(١) ونستنتج من تعمد الإخوة المجيء في الظلام أن يعقوب عليه السلام صحيح الإبصار ، لأنه لو لم يكن كذلك لاستطاع الإخوة أن يجيئوا في كل وقت ولما كانت هناك حاجة لتعيين الوقت بأنه في العشاء .

وبقصد تهيئة يعقوب رفعوا أصواتهم بالبكاء ، ولا يخفى أن للصوت دوراً فعالاً في مثل ذلك الوقت ، ولم يجهل الإخوة ، أنّ حاسة السّمع عند يعقوب السليمة سلامة عينيه . مسعفة لهم . فرفعوا أصواتهم بالبكاء . ولعلهم إنما ابتدأوا به حينما أصبحوا قريبين من مكان والدهم . ومن يدري ؟ علها فكرة عرَضت لواحد منهم ، فاستحسنها الباقون ، وقاموا بتنفيذها جميعاً . خاصة وهم يعرفون أن صدمة كهذه ستكون عنيفة على يعقوب . وكان البكاء سبباً في نزولها تدريجيّاً قال تعالى:« قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ، وجاءوا على قميصه بدم كذب » .

لقد كان طبيعيّاً أن يسأل يعقوب عن سبب بكائهم ، ولعله فرَّ بآماله إلى أنّ البكاء ليس على يوسف . وكان الامتحان الأكبر بعلمه بحقيقة النبأ .

وحينما نتأمل عرض الإخوة له فإنا نتبين نيتهم الصادقة في عرضه في أقل الصُّور إلحاق أذى بيعقوب . إنهم يقدمون بين يدي النبأ بالسبب الذي من أجله أكلَ الذئبُ يوسف بعد قولهم:« يا أبانا » المحاول تلطيف الجوّ الممتلىء بالمخاوف هذا السبب يبدو من قولهم:« إنا ذهبنا نستبق » وإذا

---

(١) البحر المحيط ٢٨٨/٥ .

كان يعقوب منذ أن سمع بكاءهم أوجس في نفسه خيفة أن يكون حلّ بيوسف خطب ، فإنا نستطيع أن نفهم أنه منذ أن سمع بالسبب الذي جرى على لسانهم رجح عنده أن ذلك توطئة لخطب ألمّ بيوسف ، أليست هذه المقدمة أو التوطئة تدخل تماماً تحت قوله لهم سابقاً:« وأنتم عنه غافلون » إنّ كل أبنائه الذين ذهبوا بيوسف يستطيعون أن يستبقوا باستثناء يوسف ، صغير السن . فمعنى هذا أنهم تركوه عند متاعهم وابتعدوا عنه بالضرورة لأن الاستباق يعني ذلك ، وقد تحقق حَدْس يعقوب حينما جاء على لسانهم : « وتركنا يوسف عند متاعنا » . إذَنْ فسيزعمون أن الذئب قد أكل يوسف . وكأن الذي خوفتهم منه محقّاً دلالتهمْ على اتخاذه ستاراً لعمل شيء قاموا به تجاه أخيهم .

وقد تحقق حَدْس يعقوب حينما جاء على لسانهم قوله تعالى:« فأكله الذئب » لقد بلغ الإخوة من الوقاحة وصفاقة الوجه للدرجة التي يستعيرون الفعل أكل الذي استمد عظيم دلالته على لسان يعقوب من بساطته المعبرة عن وداعة يوسف وخبث الذئب . إنهم يستعملون هذا الفعل على الرّغم من حاجتهم إلى التفخيم والتهويل . لأن يعقوب ببساطة ، سبق أن استعمله . وحينما يستعملونه بالذات يعود يعقوب إلى الأحداث التي تخيلها حينما جاء على لسانه « وأخاف أن يأكله الذئب » فتلوح له على أنها ممكنة الحدوث في الواقع .

ومع علمهم بأن عذرهم هو ما حذرهم والدهم منه ، وأنه يعتبر طعنة لهم في صميم رجولتهم وتبجحهم السابق بأنهم عصبة ، إلا أنهم رضوا به عُذراً لأنه ليس هناك عذر آخر مساو له . بل ليس هناك عذر آخر قريب منه في الاستساغة واحتمال القبول . بل إنّ العذر الذي يُعتبر أبلغ الأعذار ، ليسوا متأكدين من قبول يعقوب له . إلا أنهم يرجحون رفضه له، ولهذا جاء على لسانهم قوله تعالى:« وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين » والمعنى ،

والله أعلم ، إنك لست مطمئناً إلى تصديقنا لمحبتك الفائقة ليوسف ، ولو كنا صادقين فيما نقول ، فكيف وأنت لم تطمئن من قبل إلى نصحنا ليوسف ، لهذا كنت غير مؤتمن لنا عليه .

وهناك نوع من التشابه بين قول الإخوة الآن:« وما أنت بمؤمن لنا » وقولهم من قبل:« ما لك لا تأمنا على يوسف » ومصدر ذلك التشابه أن نفسية الإخوة في الموضعين متشابهة . إذ لم يكونوا صادقين في المناسبتين . إنهم حينما يقولون:« وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين » إنما يعبرون بإخلاص عن حقيقة الموقف الذي يتوقعون يعقوب عليه السلام أن يتخذه منهم ؛ بناءً على ما يعرفون من حقيقة عدم صدقهم ، على الرغم من محاولة إضفاء جوّ الصدق على فعلهم وقولهم .

قال تعالى:« وجاءوا على قميصه بدم كذب » قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » .

لقد وصف الدم بأنه كذب على سبيل المبالغة ، لأنهم أرادوا إيهام يعقوب بأنه دم يوسف، ولم يكن الأمر كذلك . وكان جواب يعقوب موافقاً للموقف الذي توقعوا أن يقفه . فابتدأ كلامه بحرف العطف « بل » للإضراب عن كلامهم المذكور قبله وجعله في حكم المسكوت عنه وهو يدلُ هنا على أن ما جاء قبله كذبٌ صريحٌ في عرف يعقوب ، وأن الصحيح ما جاء بعده .

فما الأسباب التي جعلت يعقوب لا يصدق الإخوة . بل يتهمهم بأنهم المسؤولون عن عدم عودة يوسف معهم ؟ هذه الأسباب نجملها فيما يلي :

١ — التناقض الواضح بين عهدهم المعسول « وإنا له لناصحون » و « وإنا له لحافظون » وبين فعلهم بعكس ذلك .

٢ — جرأة الإخوة الغريبة المفاجئة في قولهم:« ما لك لا تأمنا على يوسف » وهي جرأة منهم غير عادية ، لا شك أنها جعلت يعقوب وقد

جاءوا عِشاءً يبكون يفكر ملياً في الدافع لهم على هذه الجرأة و العلاقة بينها وبين النبأ الفاجع الذي جاءوا به .

٣ ــ طلب الإخوة غير العادي أخذ يوسف معهم مكاناً على بعد ما . ونعتقد أن هذا الطلب بالذات الأوّل من نوعه .

٤ ــ إغفال الإخوة المتعمد في جوابهم على يعقوب للحزن الذي أشار إليه بوضوح في ردّه على طلبهم « إنّي ليحزنني أن تذهبوا به » وكأنّي به عليه السلام وقد حدث ما حدث يقول في قرارة نفسه : لقد تجاهل أبنائي حقيقة الحزن الذي أعنيه بقولي:« إنّي ليحزنني أن تذهبوا به » وقد أعماهم الضلال البعيد الذي هم فيه ، ونيتهم السيئة تجاه أخيهم وحسدهم النامي له عن مجرّد الإشارة إلى الحزن الذي سيحل بي لابتعاد يوسف عني بعض يوم . أما وقد ذهب عني الآن ، ولا عِلم لي متى نلتقي وأين ؟ فأهلا وسهلا بك يا حزني .

٥ ــ اقترن بطلب الإخوة غير العادي إلحاح غريب في الطلب ، غير عادي أيضاً . فإذا كان يعقوب بالإضافة إلى تعبيره عن حزنه ، قد عبر عن خوفه في قوله تعالى على لسانه:« وأخاف أن يأكله الذّئب وأنتم عنه غافلون » فإن الإخوة يظهرون خوفه مظهر ما ينبغي ألا يوجد أساساً .

أمن المعقول أن يكون بإمكان أيّ ذئب أكلُ شخص ما بين جماعة من الرّجال الأفذاذ ؟ قال تعالى:« قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذن لخاسرون » .

٦ ــ حينما جاء على لسان الإخوة « أرسله معنا غداً » فهم يعقوب ضمناً أنهم سيعودون عشاء ذلك اليوم . وحينما يجيء الإخوة في ذلك الوقت نفسه ليس بيوسف ، ولكن بالنبأ الفاجع ، فإن التوافق الزمنيّ هذا يجعل من كان في مثل وضع يعقوب يعتقد بأنه لا يمكن أن يحدث اعتباطاً ، وأن هناك أمراً قضي بليل .

٧ ـ لقد جاء الإخوة أباهم عشاء يبكون ، وإن بكاء عصبة من الرجال ، بصوت عال ، على أمر ما ، مهما كان جللا غير عادي . ولا شك أنّ هناك فرقاً بين البكاء النابع من القلب والبكاء المصطنع . وليست المستأجرةُ كالثكلى .

٨ ـ هناك تناقض بيّن بين قول الإخوة ، في سبيل إغراء يعقوب ، بأن يوسف سيرتع ويلعب . وبين قولهم الآن:« وتركنا يوسف عند متاعنا » . إن يوسف قد ذهب ليرتع ويلعب لا أن يترك عند المتاع ويغفل عنه . وهو ما سبق أن حذرهم منه يعقوب ، فكأن تحذيره إغراء .

٩ ـ هناك تناقض بين قول الإخوة من قبل:« وإنا له لحافظون » وقولهم الآن :« إنا ذهبنا نستبق » .

١٠ـ حينما نتأمل قول الإخوة في عرض الأسباب التي من أجلها تمكن الذئب من أكل يوسف فإنا نجدها إخراجاً جديداً ، وعرضاً بارعاً ذكيّاً لما جاء على لسان يعقوب من قبل « وأخاف أن يأكله الذّئب وأنتم عنه غافلون » خاصة حينما يستعير الإخوة بمهارة الفعل « أكل » ولفظ الذّئب اللذين سبق أن جاءا على لسان يعقوب والإخوة أيضاً .

١١ـ التناقض التامّ بين تبجح الإخوة بأنهم عصبة ، ومن المستحيل تمكن ذئب ، في أي صورة من الصور ، التعرّض ليوسف بأدنى سوء ، وبين ما جاءوا به فعلا .

١٢ـ بعد كل الملابسات السابقة ، حينما يجيء على لسان الإخوة هذه العبارة التعقيبية « وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين » فإنا نستطيع القول : إنه ينطبق عليهم تماماً القول:« كاد المريب أن يقول خذوني » .

١٣ـ ولعل هذا السبب من أقوى الأسباب في عدم تصديق يعقوب لادعاء الإخوة . وبقاء حُزنه على يوسف نابضاً نامياً ، وأمله في لقائه مدة

بقائه حياً . هذا السبب هو الرؤيا الطيبة التي رآها الصغير يوسف ، والتي قصها على والده الحبيب قصاً بريئاً .

وفهم يعقوب منها أن ابنه الحبيب يوسف ، سيكون له في المستقبل شأن ديني ودنيوي معاً . وبما أنّ ذلك لم يتحقق ، والدلائل تشير إلى أنه بإذن الله سيتحقق ، في المستقبل الذي لا يمكن تحديد بعده ، لذلك كان من المستحيل أن يصدق يعقوب أبناءه بأنّ ابنه الحبيب قد أكله الذئب وأنه فارق الحياة .

ألم يأت على لسان يعقوب مخاطباً يوسف ، محذراً له ومبشراً قوله تعالى: « قال يا بنيّ لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً ، إن الشيطان للإنسان عدو مبين ، وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتمّ نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق ، إن ربك عليم حكيم » ؟ وهكذا رفض يعقوب عليه السلام قبول كل ما جاء به الإخوة ؛ قال تعالى:« قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » .

ومعنى « سوّلت لكم أنفسكم أمراً » : أي زينت لكم أنفسكم غير الصافية الطيبة النقية أمراً ليس الزين صفته ، ولكنه القبح كله .

وبهذه المناسبة نقول إن الفعل:« سوّل » جاء أربع مرات في القرآن الكريم ، في مناسبات متشابهة . بمعنى إظهار القبيح في المظهر الحسن . منها اثنتان على لسان يعقوب عليه السلام ، والثالثة على لسان السامري في قوله تعالى في سورة طه (١):« قال بصرْتُ بما لم يَبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها ، وكذلك سولت لي نفسي » والرابعة في قوله تعالى

---

(١) آية ٩٦ .

في سورة محمد (١):« إن الذين ارتدّوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم » .

لقد نجم عن الأمر الذي سولت للإخوة أنفسهم ، ذلك الأمر الذي لم يعينه يعقوب بل جاء به في صيغة التنكير ، إذ لم يكن بإمكانه تعيينه ، عدم عودة ابنه الحبيب يوسف الذي كان ينتظر عودته على أحر من الجمر ، وإذا به يفاجأ بالنبأ الجلل .

وحينما نتأمل هذا القول من يعقوب الذي يخاطب أبناءه:« بل سولت لكم أنفسكم أمراً » فإنه على الرغم من صدوره من قلب أب محروق الفؤاد فإنا نجده أهون كلام ، وألين كلام ، وأعف كلام يمكن أن ينتظر من شخص في مثل وضع يعقوب . ولكن هل يمكننا أن ننسى أننا بصدد نبي من أنبياء الله رب العالمين ؟

إنه قادر على التحكم في نفسه كلّ القدرة ، ويبدو لنا في اللحظة التي تعتبر أحلك فترات حياته رابط الجأش ، حسن التصرّف ، طيب الحديث ، يأبى الخلق العظيم الذي فطره الله تعالى عليه التصريح بتكذيب الذين لايشك في كذبهم .

ومن هؤلاء ؟ إنهم أبناؤه الذين فرّطوا في فلذة كبده يوسف . إنه لا يصدق ما جاء به أبناؤه ، ولكنه يعبر عن ذلك في الجزئية التي تخصهم في أوجز عبارة وأطهر عبارة .

وبذلك يظل عليه الصلاة والسلام مرفرفاً في عليائه . ويقول فقط لأبنائه : لقد زينت لكم أنفسكم بصدد أخيكم أمراً ليس الزين صفته . ولعل من أقوى ما جاء في خطابه لأبنائه دلالة ضمير المخاطبين الذي جاء مرتين في « لكم أنفسكم » .

---

(١) آية ٢٥ .

وإذا كان كلام يعقوب في هذه اللحظة الحرجة بهذه الدرجة من الطهر والإيجاز ، فالذي يُنتظر حينما يكون من الأبناء سكوت تام في المستقبل عن يوسف سكوت من يعقوب مثله . لا ليس ذلك فحسب . بل إنه سكوت الرّضا بما قضى الله تعالى وقدّر ، فليس منه انصراف عنهم ولا عبوس يبدو على وجهه حينما يراهم أو حينما يقبلون عليه .

وهذا ما عبر عنه صراحةً في حديث عن ذات نفسه « فصبرٌ جميل » والمعنى ، والله أعلم ، فصبرٌ جميلٌ هو الأولى بي ، فليس هناك شكوى إلى مخلوق ، ولا تضجّر ولا تبرّم . أليس الذي حلّ بيوسف من ابتعاد عني قدرٌ من الله تعالى عليه وعليّ ؟ .

إذن أهلاً وسهلاً بما قدر الله تعالى . وإن الذي حل بيوسف لا يبدو لنا نحن البشر خيراً ، فهل هذا هو حقيقة باطنه ؟ لا يعلم ذلك إلا الله . إذن علينا بالصبر . ولعل يعقوب كان يتصور ضعف ابنه الحبيب يوسف ، وقلة حيلته ، فتشتعل في فؤاده النيران ، ولا يلبث أن يفرّ إلى أرحم الراحمين ويطلب منه تعالى العون على ما حلّ به كي ينال الثواب الذي أعده لعباده الصابرين كاملا ، فيجيء على لسانه قوله تعالى:« والله المستعان على ماتصفون» والمعنى ، والله أعلم ، إني أطلب المعونة من الله تعالى في احتمال ما جئتم به إليّ مما لم ترتح نفسي له ، ولم تطمئن لقبوله .

وإن كان هناك من شيء ينبغي الإشارة إليه ، فهو أنّ يعقوب عليه السلام لم يكن فقط مستعدًّا لرفض الزعم بأن الذّئب قد أكل يوسف ، بل كان مستعدًّا بسبب الرّؤيا الطيبة التي قصها يوسف عليه ، لرفض فكرة أن يوسف قد فارق هذه الحياة ، في أيّ صورة من الصُّور أساساً .

أما تحديد الأمر الذي سوّلت أنفس الإخوة لهم به ، فهذا الذي لم يكن بإمكان يعقوب . ونستطيع أن نتمثل بعضاً من الظنون التي مرّت به ، وبعضاً

من الآلام التي عصرته . خاصةً حينما يتمثل صغر سن ابنه الحبيب ، وقلة حيلته .

ولكن إيمان النبوّة العميق كان لكلّ ذلك بالمرصاد . أليس ابنه الحبيب تحت رعاية أرحم الراحمين الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ؟ إذن فالصّبر الجميل . وطلب العون من الله تعالى على ما نزل به . وتبقى بعد ذلك حقيقة ماثلة هي : ولكن الفراق صعيب فكان الحزن الذي يندر وجود نظير له .

وبانتهاء القول الذي جاء على لسان يعقوب ، يُسدل الستار على الفصل الأول الطويل الذي ظهر فيه يعقوب وأبناؤه كي نعيش مع الصغير يوسف والأحداث التي حلت أو ارتبطت به حتى صار عزيزَ مصر وجاءه إخوته للميرة .

تصوير تقريبي لذهاب الاخوة بيوسف حتى رحيل السيارة به :

وقبل أن ننتقل إلى مشهد آخر ، نتساءل : ألم يخطر ببال الإخوة ، وقد رأوا الحزن الذي حلّ بيعقوب أن يتداركوا ما فات ، أم أن ذلك لم يخطر ببالهم ؟ ولو أنهم حاولوا تدارك ما فات ، هل كان سيُقدّر لهم النجاح في استعادة يوسف أم أن ذلك لن يقدّر لهم ؟ للإجابة على ذلك نود أن نتصور ببساطة كيف تمت عملية الذهاب بيوسف ، ووضعه في غيابة الجبّ وتلطيخ قميصه ، وعودة الإخوة إلى أبيهم عشاءً ومجيء السّيارة ، وأخذ الوارد ليوسف ، ورحيل السيارة به ؟ كما نودّ أن نعرف الوقت المعقول الذي تمت فيه كلُّ هذه الأحداث .

أشرنا من قبل إلى أنّ الإخوة قد فهموا أن والدهم لم يمانع صراحةً في أخذ يوسف في صباح اليوم التالي ، وأنه قد سمح له في ذلك .

وعليه نستطيع أن نفهم أنهم أخذوا يتدارسون في الخفاء عملية تنفيذ

جعل يوسف في غيابة الجب ، والعذر الذي سيقدمونه ليعقوب بعد أن يعودوا . ونستطيع أن نفهم أيضاً أنهم استيقظوا أو على أقل تقدير أكثرهم ، صباح اليوم التالي في وقت مبكّر جداً .

ولا نستبعد أن الصغير البريء يوسف قد استيقظ لفرحه بالنزهة المرتقبة في الصباح الباكر جداً على غير عادته .

ونستطيع أن نفهم أن المجموعة قد انطلقت صوب المكان المعلوم في أول وقت ممكن لا تلوى على شيء ، وأن الإخوة الذين درسوا العملية من أولها حتّى آخرها قد فطنوا إلى الحاجة لحيوان يُذْبح لتلطيخ قميص يوسف ، ومع أنهم عُصْبة ، وربما استطاعوا وهم الذين اعتادوا الاستباق والرّياضة أن يصطادوا حيواناً مّا ، ولكن هذا الاصطياد قد لا يكون ممكناً ، والصيد ليس ميسوراً .

ومن غير المعقول أن يترك الإخوةُ المسألة للظّروف ومن ثمّ نحن نستنتج أن الإخوة قد أخذوا الحيوان الذي سيذبحون معهم .

وهل هناك شيء من غرابةٍ في أخذ مجموعة من الرّجال تقصد النزهة لحيوان واحد طعاماً لهم؟ ونستطيع أن نفهم أن الإخوة منذ أن وصلوا إلى المكان القريب من الجب ، أظهروا الحاجة الملحة للماء ، فمن غير المعقول أن يُحْمل الماء ، إلى المكان الذي يقرُب منه جُبٌّ فيه ماء لكلّ من يعرف حقيقة ذلك الجب ، فكيف إذا كانت هناك مجموعةٌ تريد أن تجعل شخصاً واحداً صغيراً منها في غيابته ؟ ونستطيع أن نفهم أن الحديث عن الماء بدأ بإعلان ضرورة إنزال شخص منهم إلى الغيابة ، كي يقوم مثلا بدور المائح ، وهو الذي يستقي الماء إغترافاً بكفه . وما أسهل اقتناع صغير طاهر القلب كيوسف ، من مجموعة له من الإخوة ؛ بأنه الأولى بالنزول !

وهذا يعني أن عليه أن ينزع قميصه كيلا يتسخ ، وأن عليه أن ينزل بواسطة حبلُ يمسكون به حتّى يصل إلى الغيابة .

وما دام أنه وصل إلى الغيابة ، فليس مهماً بعد ذلك أن يسحب الحبل بحيلة أن على يوسف أن يتركه ، وإن كان في وسطه أن يحله ، كي تتمّ به عملية رفع الماء ، أو أن يُترك يوسف في غيابة الجبّ برمته .

المهمّ أن يصل يوسف سالماً . والأهمّ أن تنجح عملية التخلص منه .

ونستطيع أن نفهم ، ما دام أن بالقرب من ذلك الجبّ طريقاً عامرةً بالسيارة ، أن بعض الإخوة قد أشرفوا على عملية التنفيذ ، والبعض الآخر راقب المنافذ خوف الافتضاح وعدم نجاح العملية لو فاجأتهم سيارة .

ومنذ اطمئنانهم إلى نجاح العملية قرّروا المغادرة حالاً ، والذهاب إلى مكان آخر كي يطعموا ويشربوا ويرتعوا ويلعبوا بينما كان يوسف آنذاك في غيابة الجبّ .

وفي المكان الذي تحولوا إليه ، قاموا بذبح الحيوان المعدّ لطعامهم . وهناك تمت عملية تلطيخ قميص يوسف . ومن يدري ربما كانوا يستعملون الماء الذي أخرجه لهم يوسف .

أمّا لماذا قرَّر الإخوة البقاء في المكان الذي تحوّلوا إليه حتّى وقتٍ معين ، ولماذا لم يعودوا إلى أبيهم فالجواب على ذلك ، والله أعلم . أنّهم الذين يعرفون الوقت الذي يستغرقه ذهابهم إلى أبيهم ، كانوا حريصين على ألا يعودوا إليه إلا في وقت العشاء المخفي لملامحهم الحقيقية ، المسعف لهم على الادعاء ولا تستبعد أنهم كانوا لنجاح الخطة القمة في السعادة والانشراح. ومن يدري ؟ ربما بعد أن أكلوا وشربوا أخذوا في الاستباق والمناضلة واللعب. حتّى إذا حان الوقت الذي عينوه للعودة استعدوا للانطلاق ، وأخذوا يتناقشون في الكيفية الصحيحة لتنفيذ الشق الثاني من العملية ، ألا وهو إعلامُ يعقوب بأن الذئب أكل يوسف .

ونتنقل الآن إلى تصور حال الغلام يوسف الذي جعله إخوته في غيابة

الجب . وأول ما نودّ الإشارة إليه أنّ أرحم الرّاحمين كان دائماً مع عبده المرشّح للنبوّة يوسف . قال تعالى :« فلمّا ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب ، وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون » .

ما معنى هذا ؟ معناه أنّ الغلام الصغير يوسف في تلك اللحظة الحرجة ، خاصة على غلام صغير مثله ، عنده بإلهام من الله تعالى اطمئنان بأنّ هذا قدر من الله تعالى عليه ، وأنّ أحكم الحاكمين ، الذي اصطفاه بهذا لن يتخلى عنه . فماذا حدث ؟ قال تعالى :« وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام ، وأسروه بضاعة ، والله عليم بما يعملون ، وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين » .

إنّ النقطة الوحيدة التي سنقف عندها هي جملة « وجاءت » من قوله تعالى :« وجاءت سيارة » سبق أن أشرنا إلى أن الفعل « جاء » من قوله تعالى عن الإخوة :« وجاءوا أباهم عشاءً يبكون » يدل على المجيء الطبيعي الضروري للإخوة .

والشيء نفسه يقال عن الفعل جاء من قوله تعالى :« وجاءت سيارة » فإن مجيء هذه السيارة طبيعيّ وضروريّ . وإذا أمعنا فيه النظر ، أدركنا أنها العناية الإلهية هي التي جاءت بهم .

ففي الوقت الذي هب فيه الإخوة من هنا ، بعد جعل يوسف في غيابة الجبّ ، جاءت السيارة من هناك .

ألم نفهم قبل ، من لفظة « بعض » في قوله تعالى على لسان الأخ الأكبر : « وألقوه في غيابة الجبّ يلتقطه بعض السيارة » أن تلك الطريق عامرة بالسيارة . ولو فرض أن واحدة منها لم تحتج الماء وأخطأت الغلام يوسف ، فإن الثانية أو الثالثة ، اللتين لن يطول تأخرهما لن تعدم الحاجة إلى الماء ، وبالتالي لن تخطيء الغلام يوسف .

وهذا ما نعتقد أنه حدث فعلا . وأن السيارة التي أرسلت بواردها كانت

أول سيارة تمرّ . ألا يكفي الوقت الذي قام فيه الإخوة بالذّهاب، إلى الجبّ ، ووضع يوسف في غيابته ، وتركهم يوسف حتى مجيء السيارة أن يكون ذلك الوقت قد دنا من وقت القيلولة ، وأن على السيارة بالضرورة أن تعرّج على المكان القريب من الجبّ للمقيل ؟ بطبيعة الحال كل ذلك يكفي لأن يكون الوقت على أقل تقدير قد دنا من القيلولة .

وعرّجت القافلة ، وكانت الحاجة بطبيعة الحال إلى الماء ملحّة ، وبمجرد أن وضعوا الرحال أرسلوا واردهم إلى الجبّ ووجد الغلام يوسف ، وعاد به إلى السيارة .

ونستطيع أن نفهم أن السيارة ، وهم جماعة التجار همُّها الكسب المادي . قد وجدت من الغلام الصغير يوسف ، الذي لا حول له ولا قوّة ، والذي يمكن أن يدُرَّ عليهم ربحاً ولو بسيطاً ، حافزاً لها على مغادرة المكان الذي نزلت فيه للقيلولة والتي وجدت في غيابة جبه الغلام يوسف ، في أول فرصة ممكنة ، خوفاً من أن يأتي قومه فيأخذوه منهم .

وهكذا تحرّكت السيارة المدفوعة على التحرك في غير الوقت المعتاد . ولعلّ ذلك تمّ في الوقت الذي ما زال فيه الإخوة يرتعون ويلعبون ويستبقون.

وبما أن السيارة تريد مصر ، فمعنى هذا أن يوسف كان في طريقه إلى مصر ، قبل أن يصل الإخوة إلى أبيهم . وقبل أن يوصّلوا إليه النبأ الفاجع الجلل . نبأ أكل الذئب ليوسف .

ما معنى هذا بالنسبة للإخوة ؟ معناه انهم سواء حاولوا تدارك ما فات أم لم يحاولوا ، فإن إرادة الله قد نفذت . وسواء عادوا إلى الجبّ أم لم يعودوا ، فإن يوسف ليس في غيابته ، بل ليس في تلك الناحية على الإطلاق . ولا يمكن بحال معرفة الوجهة التي كان فيها ، ولو حرصوا على ذلك .

فكيف بهؤلاء الإخوة وقد اغلقوا على أنفسهم بقولهم : إن الذّئب قد فتك بيوسف كل طريق للعودة . إنهم لم يقولوا مثلا إن يوسف قد سُرِقَ

منا او ندّ علينا كي يكون عندهم منفذ للبحث عنه والضرب في الأرض ، كما حدث في المستقبل بعد أن أرغمهم إشراف والدهم على الهلاك . وابيضاض عينيه على عدم رفض طلبه لهم بأن يذهبوا فيتحسّسوا من يوسف وأخيه ، أو إعادة الادعاء بأن الذئب قد أكل يوسف .

والآن نريد أن نتصور ببساطة حال هؤلاء الإخوة وقد شاهدوا أثر الصدمة العنيفة على والدهم وعلى آل يعقوب أيضاً .

نعتقد أن الإخوة قضوا تلك الليلة في دوّامة المأتم الذي كانوا سبباً فيه . وليس هناك ما يمنع أن يكون بعض هؤلاء الإخوة ، وبخاصة الذين كان رأيهم طرح يوسف أرضاً والأخ الأكبر ، قد أدركوا يقيناً الجريمة التي ارتكبوها بحق يوسف وأبيه وآل يعقوب . ولعل هؤلاء أو بعضهم صمموا على تدارك ما فات . وكيف يتمّ ذلك ؟ عن طريق العودة إلى الجبّ . فمن الجائز أن يكون يوسف ما زال باقياً فيه ، مع علمهم شبه الأكيد بأن هذا أملٌ جدُّ ضعيف .

ولكن هل المأتم الذي فيه آل يعقوب يهيىء لهم العودة في تلك الفترة ؟ أم أن الدّوامة التي كانوا فيها أخذت من الليل شطراً كبيراً . وفهم هؤلاء أن الفجر قريب ، ويمكن أن يتسللوا فيه صوب الجبّ الذي جعلوا يوسف فيه فلربما وجدوه .

ونميل إلى أن هؤلاء الإخوة الذين فكروا في هذا النوع من التفكير ،أو على الأقل بعضهم . قد قاموا في أول فرصة ممكنة بالانطلاق صوب الجبّ . وكانت أفئدتهم موزّعة بين الأمل واليأس ، والرّجاء والقنوط . وكانوا يفزعون بآمالهم إلى الكذب وحينما وصلوا إلى الجبّ ، وأمعنوا النظر في غيابته تبينت لهم الحقيقة المرة ، ولعل بعضهم أخذ يستعين بالبعض الآخر في إعادة النظر ، فلعل بصرهم زاغ أو طغى . ولكن من سمات الغيابة أن يكاد يختفي من فيها عن العيون . ولا نستبعد أن واحداً منهم ، وربما أكثر ؛ قد نزل

بنفسه إلى الجب كي يفحص بعيني رأسه غيابته . ولكن الحقيقة هي الحقيقة .

ولم يكن في تلك النواحي من أحد يمكن أن يُسأل تلميحاً عن مكان غلام صغير نسوه في غيابة الجب . إن كان من الجائز أن يتفوّه أناسٌ عقلاء بكلام كهذا . لأنّ السيارات إنما تعرّج على ذلك المكان لأنّ بالقرب منه جُباً فيه ماء . وليس لأنه قرية مثلاً . أو محطة لقوافل يمكن أن يكون بهما بعض الأشخاص المستقرين . الذين من الجائز أن يُسألوا في صورة من الصُّور .

وانتهى الإخوة إلى أن يوسف قد أخرجه من غيابة الجبّ شخص أو أشخاص . وأنهم اتجهوا به وجهة ما . لا يمكن تعيينها على وجه الدّقة . وهكذا عاد ذلك البعض من الإخوة بخفى حنين .

ولا تختلف هذه النتيجة لو فُرض أنهم عادوا إلى الجبّ أدراجهم بعد أن ذُهلوا لهول الصَّدمة التي حلت بوالدهم والتي لم يكونوا يتوقعون لها كلّ ذلك العنف . لأنّ الإخوة قبل عودتهم إلى أبيهم بالنبأ الفاجع ، كان الصَّغير يوسف في طريقه إلى مصر كي يباع في سوقها بثمن بخس دراهم معدودة .

ورجع هذا البعض من الإخوة إلى مكان يعقوب دون أن يعلم أحدٌ بذهابهم إلى الجبّ وعودتهم منه . ولعلهم أخبروا البعض الآخر بهذه الحقيقة ، واستقرّ رأي الجميع على إبقاء الأمر سرّاً والتمسك بالزعم السابق أنّ الذئب أكل يوسف . ألم يجيئوا إلى والدهم بقميصه وعليه دمه ؟ بلى إذن فليتصرفوا كما لو أن يوسف قد فارق الحياة فعلاً .

اخوة يوسف فى مصر للمرة الأولى :

وبعد عودة الإخوة إلى أبيهم عشاءً يبكون ، وزعمهم أنّ الذئب فتك بيوسف ، ومجيء السيارة وذهابهم بيوسف وبيعهم له في مصر ، تتوالى

المشاهد التي يختفي فيها إخوة يوسف ووالده بالكلية . ويطالعنا الإخوة لأوّل مرّة بعد ذلك حينما يجيئون إلى مصر للميرة ، ويدخلون على عزيزها الذي له حقُّ التصرّف في الميرة وفي كلّ شؤون مصر بعد الملك .

وفي المشاهد القرآنية التالية ؛ تبدو في صورة حوارٍ خفايا أنفس آل يعقوب . وسنحاول بإذنه تعالى ، تَبيُّن خفايا هذه الشخصيات ، على غرار ما سبق . قال تعالى: « وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون ، ولما جهزهم بجهازهم قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم ، ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين ، فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون ، قالوا سنراود عنه أباه وإنّا لفاعلون » .

وأوّل ما نقف عنده الفعل « جاء » من قوله تعالى: « وجاء إخوة يوسف » الذي يقال عنه ما قيل في الموضعين السابقين . فهو يدلّ على المجيء الطبيعيّ الضروريّ .

ثم نتساءل : لماذا توجه الإخوة بالضرورة إلى مصر وليس إلى أيّ مكان آخر ؟ لأنّ المجاعة لم تكن وقفاً على مكانٍ دون مكان ، وإذا كانت مصر ، وهي من أخصب الأماكن ، قد مرَّتْ بسبع السنين العجاف ؛ فقد مرَّت فلسطين حيث يعقوب وآله بالمحنة نفسها . وإذا كان أخصب المناطق ، مصر والشام ، هدفاً للمجاعة ، فمن باب أولى باقي الأماكن الأخرى .

والحقيقة أنّ رؤيا الملك التي عبّرها يوسف . وإن كانت خاصة بمصر ، إلا أنَّ وضع الأماكن الأخرى ، مماثل لوضع مصر في سني الشدة ، بل لعله أشدُّ سوءاً .

وتفسير ذلك أن إرادة الله تعالى شاءت أن يرى ملك مصر رؤياه المعروفة التي عبرها له يوسف عليه السلام ، فعرفت المجاعة الرهيبة التي لاحت في الأفق البعيد جداً . ولم تشأ إرادته تعالى أن تُرَى رؤيا مماثلة في مكان خصب آخر كي يحتاط للشدة قبل حلولها .

بل ليس المهمُّ هو الرُّؤيا ولا من يؤوّلها إن صحّ أن وُجد من يحسن ذلك إنما المهمُّ حقاً هو الشخص الحفيظ العليم الذي يُجعل على خزائن الأرض . وكان هناك شخصٌ واحد فقط هو الذي يستطيع أن يقود المركب إلى برّ الأمان ، هذا الشخص هو يوسف عزيز مصر آنذاك .

لكلّ ذلك كان طبيعياً جداً ، حينما تحلّ المجاعة بكل مكان أن يكون عضُّها في غير مصر أكثر إيلاماً . وكان طبيعياً جداً أن يُهرع الناس من كل حدب صوب مصر وعزيزها للميرة .

والحقّ أنه لم يكن بمصر اكتفاء ذاتيٌّ من الطعام فقط ، بل كان عندها من الفائض ما تستطيع أن تمدّ الناس منه بما يُقيم أودهم لسبع سنواتٍ شداد . لا بل لأكثر من ذلك لو فرض أنّ الحاجة كانت لا تزال قائمة . فهذا هو الذي ينتظر من الحكيم يوسف ، الحفيظ العليم ، الذي يُشرف بنفسه على عملية التوزيع ، ولم يكن يُعطي الشخص الواحد الطالب للميرة أكثر من حمل بعير .

وبطبيعة الحال ؛ ليس إخوةُ يوسف أوّل من جاء مصر طلباً للميرة ولا آخر من جاء فقد سبقتهم أفواج وأفواج حتّى انتشر الخبر وبلغهم أن بإمكانهم أن يحصلوا على الضروريّ من الطعام في أرض مصر .

وكان لتحديد يوسف كمية الطعام التي يبيعها ، بحيث لا تتخطى حمل بعير ، دوره في جعل كلّ إخوته لأبيه يغادرون أرضهم صوبه طلباً للطعام الذي يحتاجون إلى أكبر كمية منه .

وهكذا شاءت إرادة الله تعالى ، أن يكون إخوة يوسف لأبيه العشرة ، الذين جعلوه في غيابة الجب ، هم أنفسهم الذين يقصدونه الآن للميرة . كما شاءت إرادته ألا ينقص واحدٌ من أبناء يعقوب حتّى يجيء هو وآله من البدو إلى مصر حيث يوسف عليه السلام .

وإنّ عدم مجيء شقيق يوسف إلى مصر مع إخوته لأبيه ، دليل على

تشبث يعقوب به ومنزلته عنده ، وتعزيه به عن يوسف . على الرّغم من أنّ الشقيق يُعدُّ الآن واحداً من الرّجال . ومع ذلك فإن يعقوب متعلق به ، ولا يطيق له فراقاً وذلك دليل على تعلقه بيوسف وتذكره وعدم نسيانه البتة له .

وحينما جاء الإخوة إلى مصر . كان عليهم إن أرادوا الميرة ، أن يلتقوا بعزيزها وجهاً لوجه فهو الذي له حقُّ التصرُّف فيها . وهو الذي يُشرف بنفسه لأهمية المسألة على عملية التوزيع ، وهو الذي يحيط علماً بالاحتياطي وبالكمية المبيعة . وهو الحريص كل الحرص على التوفيق بين حاجة الناس الملحة النامية للطعام وبين السنوات السبع الطوال التي ستستمر فيها المجاعة .

وإن يوسف عليه السلام ، في هذا الظرف العصيب ، حينما يقوم بنفسه بالهيمنة على كل ملابسات المسألة . ليضرب المثل الأعلى في الطريقة الصحيحة الجدية التي ينبغي أن تؤخذ بها الأمور . إنه عليه السلام لا يعتمد في هذه المسألة الحيوية البتة على سواه ، وحينما جاء إخوته دون سابق علم منه كان هو نفسه المتولي الأمر بنفسه ، ولو صادف أن جاء إخوته في أي وقت آخر فإنهم لن يجدوا متولياً لهذا الأمر سواه .

وما معنى أن يدخل على العزيز أبناء يعقوب ؟ معناه أنّ هذه الطريقة المتبعة مع كلّ طالب طعام .

وما الفائدة من هذا الدخول ما دام أن بإمكان العزيز أن يضبط الأمور بطريقة أخرى ، دون الحاجة إلى مقابلة كل طالب . والجواب على ذلك : إنه التقدير السليم الصحيح للمسؤولية . فحينما يشترط ألا يُعطى لشخص واحد زيادة عن حمل بعير ، ولا يتم هذا الإعطاء إلا بعد مقابلة مباشرة مع المعطي ذلك أدعى إلى أن تُضبط الأمور وألا يأخذ شخص ما فوق حاجته على حساب الآخرين ، وقد يدفعه ذلك إلى العبث ، بسبب هذا الفائض ، بمصالح الآخرين . إن يوسف ، حرصاً منه على مصلحة الجميع ، يقوم خير قيام بما سبق أن اشترطه على نفسه فيما جاء على لسانه من قوله تعالى

مخاطباً ملك مصر: « قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم » .

وبناءً على ما سبق نستطيع أن نفهم أن دخول الإخوة على العزيز لم يكن أمراً خاصاً بهم ، بل كان عاماً لكلّ طالب طعام ، وذلك دليل على التواضع الجميل الذي فطره الله تعالى عليه . ونحن في غنىً عن أن نقول : إن الإشراف على عملية تصريف الطعام جزء بسيط جداً من أعمال يوسف ، عزيز مصر .

وقد أشارت الآية إلى أن الإخوة ، منذ أن دخلوا على يوسف عرفهم ، بينما لم يعرفوه البتة ، وذلك شيء طبيعي جداً ، لأن آخر عهد ليوسف بإخوته ، حينما كانوا في ريعان الشباب ، فليس هناك سوى التغير الطبيعي في أشكالهم بفعل السنين . ولو فرض أن يوسف أخطأ معرفة واحدٍ منهم أو أكثر فمن غير المعقول ألا ينتهي إلى معرفتهم وهم عشرة .

أما لماذا لم يتبينه الإخوة ؟ فلأنه حينما ألقي في غيابة الجبّ كان صغير السنّ حقاً . وقد حدث بالنسبة له تغيّر ملموس في الحجم ، بالإضافة إلى التغير الطبيعي في الشكل . ثم إنه حينما دخل عليه إخوته كان بالضرورة ممثلاً للمنصب الرفيع الذي يتقلده خير تمثيل . وفي مثل هذه الحال تباعد هيبة الحاكم المرء عن حقيقته الفطرية . وفوق كلّ ذلك لم يكن ليخطر ببال واحد من الإخوة أن أخاهم الذي ألقوا به في غيابة الجب ، والذي يجهلون هل هو حي يرزق أم أنه قد فارق الحياة ؟ يمكن أن يكون ذلك العزيز الذي يبصرون .

ومع أن هؤلاء الإخوة ، هم أنفسهم الذين ألقوا بيوسف في غيابة الجبّ إلا أن الخُلق العظيم الذي فطره الله عليه أبى إلا أن يُحسن إلى الذي أساء إليه ، فما نوع ذلك الإحسان بنص القرآن ؟ لقد أكرمهم كلّ الإكرام ، وأنزلهم أحسن مُنزل ، فقد جاءت على لسانه بهذا الصدد ، هذه الجزئية من القرآن « وأنا خير المنزلين » وإذا كان يفهم منها أن إكرام يوسف ليس وقفاً على إخوته النازلين به ، بل كان شاملا لكل قاصد له ، إلا أن المرجح

أن نصيب الإخوة أكثر من نصيب سواهم . لأنهم إخوته ، وقد نال منهم تعب السفر كما كان حريصاً ، تمهيداً لمجيء أهله من البدو إلى الحضر ، على طلب شقيقه ثم استبقائه عنده كما هو معروف .

ولم يكن إكرام يوسف لهم عن طريق أمر فتيانه بذلك فحسب بل تخطى ذلك إلى الحديث والمؤانسة وإلا كيف يستطيع يوسف الحريص على عدم معرفة إخوته له هذه المرة ، أن يطلب منهم بصريح العبارة كما جاء على لسانه في القرآن الكريم « قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم » ؟ إنما استطاع أن يطلب منهم ذلك بعد أن أخذ منهم هذه المعلومات ، التي كانوا يعتقدون أنها جديدة عليه .

ونستطيع أن نفهم أن يوسف ، القمة في البر بأبيه وأهله ، كان حريصاً على معرفة كلّ ما يمكن معرفته عنهم من هؤلاء الإخوة . وكان يستطيع أن يصل إلى هدفه مع الحفاظ على عدم الكشف عن شخصيته .

ونستطيع أن نفهم أن الحديث بين يوسف وإخوته . وإن كان الضروريّ إلا أنه بالتأكيد لم يكن بالقصير المخلّ . واستطاع أن يأخذ من المعلومات ما شاء ، دون أن يأخذوا منه شيئاً .

ولا شكّ أن الحديث تطرّق لشقيقه بنيامين ، وهذا هو الذي يفسر طلبه منهم أن يأتوه بأخ لهم من أبيهم ، إذ لم يكن من المعقول أن يطلب يوسف ذلك ، لأن معناه الكشف عن شخصيته ، وهذا شيء لم يُؤذَن له فيه بعد .

ولم يقتصر إكرام يوسف لإخوته على إنزالهم مُنزلا كريماً ومؤانستهم بالحديث ، بل تخطى ذلك ، وهم الذين أساءوا له من قبل ، إلى تلبية طلبهم من الطعام . بل إنه أوفى لهم الكيل ، في ظلّ تلك الظروف القاسية . وهذا شيء طبيعيٌّ منتظر من نبي الله يوسف ولم يكن يوفي الكيل لإخوته فقط ، بل كانت بطبيعة الحال ، تلك طريقته دائماً مع كلّ طالب .

وحصل الإخوة على كمية الطعام المسموح بها ، وهي ولا شك كمية ضخمة فهم عشرة أشخاص ، ونصيبهم حمل عشرة أبْعِرَة من الطعام . ولكن هؤلاء العشرة ، وراءهم الكثير من الأفواه التي هي في حاجة ماسّة إلى الطعام . ومعنى هذا أنهم يتمنون لو أن هذه الكمية كانت أكبر ، ولو بقليل . إنّها لو كانت مثلا أحد عشر جملاً لكانت فرحتهم أكبر . ومنْ يدري ؟ ربما تمنوا في تلك اللحظة لو أن شقيق يوسف معهم في تلك الرحلة ، وحصل على حمل بعير باسمه ، لأن عزيز مصر يشترّط الحضور الشخصي كي يُعطي الطالب ذلك الحمل .

وما السبب الذي حال بين الأخ ومجيئه معهم ؟ حبُّ يعقوب له وعدم قدرته على مفارقته

ولماذا كلُّ هذا ؟ لأنه يتعزى به عن ابنه الحبيب يوسف ، الذي زعم إخوته لأبيه ، أن الذئب قد أكله ، بينما وضعوه في غيابة الجبّ .

وهنا يقول الإخوة في أنفسهم : ما زال شبح الجريمة التي ارتكبناها بحقّ أخينا يوسف ، يطاردنا على الرغم من السنين الطوال التي فصلت بين يومنا هذا واليوم الذي جعلناه فيه في غيابة الجبّ .

وفجأة يقطع على الإخوة التمادي في هذه التخيلات ما جاء على لسان يوسف من قوله تعالى:« قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم ، ألا ترون أني أُوفي الكيل وأنا خير المنزلين ، فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون » .

وتأمّل صيغة تنكير لفظة « أخ » التي تعمدها الألمعيّ يوسف ، إنه لم يأت بها معرّفة ، فلم يأت على لسانه مثلا : « قال ائتوني بأخيكم من أبيكم » فإن التنكير في هذه الحال أبلغ ؛ لأنه يدلّ على أنه ليس هناك شيء من علم عند العزيز بأخيهم من أبيهم . وهذا مُسعف للهدف الذي يرمي إليه يوسف من عدم الكشف عن شخصيته لإخوته ، بينما التعريف بطبيعته يوهم بشيء من العهد بين المتكلم والمخاطب « ألا ترى فرقاً بين مررت بغلامك ومررت

بغلام لك ؟ إنك في التعريف تكون عارفاً بالغلام ، وفي التنكير أنت جاهلٌ به . فالتعريف يفيد نوع عهد في الغلام بينك وبين المخاطب ، والتنكير لا عهد فيه البتة » (١) .

وإذا نظرنا من زاوية اخرى إلى هذه العبارة « قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم » فإنّا نتبين أنها شاغلة لأذهان الإخوة ، مُبعدة بينهم وبين احتمال اكتشافهم لحقيقة شخصية العزيز .

فإذا كانت هذه العبارة من زاوية يوسف يراد بها المعنى الذي يفيده تعريف الأخ لأن له شقيقاً واحداً هو بنيامين . فلا فرق من زاويته هو أن يقول ما جاء على لسانه أو يقول : ائتوني بأخيكم من أبيكم . إلا أن عبارة التنكير هذه تختلف نظرة الإخوة لها . فهم حينما ينظرون إليها من زاويتهم هم ، وهم الذين تركوا عند أبيهم أخاً واحداً لهم منه ، فلا تختلف عبارة التنكير على لسان العزيز عن عبارة التعريف ، لأن المعنى في الحالتين واحد . ولأن هناك أخاً واحداً . ولكن الإخوة ينظرون إلى هذه العبارة ، ليس من زاويتهم ، وإنما من زاوية العزيز الذي يخاطبهم والذي يشترط عليهم شرطه .

إنه يجيء على لسانه « ائتوني بأخ لكم من أبيكم » وهذا القول مؤلم للإخوة ؛ لأنهم وهم الذين اخبروا العزيز بأنهم تركوا عند أبيهم أخاً واحداً لهم من أبيهم ، لا يوحي هذا القول بأنه مقتنع بصدق ما قالوا ؛ لأن الأخ الحيّ الذي يمكن أن يأتوا إليه به واحد ليس غير . فكان على العزيز ، لو أنه صدقهم ، أن يجيء على لسانه : ائتوني بأخيكم من أبيكم ، خاصة وأنهما اثنان فقط ، أكل أحدهما الذئب .

ثم إن هذا القول على لسان العزيز الذي لا يُفهَم منه الإفراد ، نقل

---

(١) البحر المحيط ٥/٣٢٦ .

الإخوة سريعاً إلى تصوُّر العمل الإجرامي الذي قاموا به تجاه أخيهم يوسف ، وفي ذلك إيلامٌ لهم أي إيلام .

وحينما نتأمّل هذا القول نتبين أن يوسف عليه السلام ، كان يتعمّد تنبيه الإخوة من طَرْف خفيّ إلى العمل السيىء الذي قاموا به تجاهه عن طريق جعل عبارته مفتوحة ، تعني كلّ أخ لهم من أبيهم . وقد نجح عليه السلام في ذلك دون أن يفطنوا إلى أن الذي يخاطبهم أخوهم يوسف ، لأن هذه العبارة المفتوحة إنما يَفهم معناها القريب والبعيد من كان على علم بفعل الإخوة بيوسف ، وكانوا واثقين أن العزيز لا يريد إلا المعنى القريب . ولكنهم وهم المسيئون إلى يوسف ، كانوا بالضرورة يفهمون المعنيين معاً .

وبهذه المناسبة نقول : إنّ تنكير الأخ في هذه العبارة لا يمكن أن يصدر إلا من أخيهم يوسف ، ولم يكن ليخطر ببالهم أن العزيز هو أخوهم يوسف ، لأن كلّ الملابسات الأخرى لم تكن مهيئة لذلك الفهم .

وحينما نتأمل ما جاء على لسان يوسف بعد طلبه الصّريح منهم بإتيانه بأخ لهم من أبيهم ،أعني قوله تعالى:« ألا ترون أني أُوفي الكيل وأنا خير المنزلين فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون » فإنا نجده منقسماً إلى قسمين : إغراء وتحذير . أو ترغيب وترهيب .

أما الإغراء والترغيب . ففيما جاء على لسانه « ألا ترون أني أُوفي الكيل وانا خير المنزلين » .

وأما التحذير و الترهيب ففي الآية التالية:« فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون » .

وبتأملنا لجزئية الإغراء والترغيب ، فإنا نجد يوسف عليه السلام القمة في رهافة الإحساس وكرم الخلق .

إنه لا يشير مثلا إلى تسهيله حصولهم على الطعام النادر الوجود عند

سواه ، ولا يشير من قريب أو بعيد ، إلى كمية الطعام الكبيرة التي سمح لهم بها . ولا إلى أنه لم يمانع في إعطاء كلّ واحدٍ من الإخوة ، وهم عشرة ، حملَ بعير . وكان بإمكانه ، ما دام انّهم من عائلةٍ واحدة أن يجعلهم شركة في كمية أقلّ من التي حصلوا عليها فعلاً .

كلّ هذه الجوانب وأشباهها لم تكن لتمرَّ ببال يوسف الكريم الخلق ، فلم يكن يريد تأنيباً ولا منّا ، إنما كان يريد فقط جلب كلّ أهله إليه في مصر ، بعد معاقبته . بإذن من الله تعالى ، إخوته نفسياً . ووسيلته الأولى إلى ذلك استقدام شقيقه .

وهنا يلجأ يوسف إلى الإغراء والترغيب كما قلنا ، ويمسّ المسألة مسّاً رفيقاً جميلا . إنه يذكرهم فقط بأنه في تلك اللحظات الحرجة يوفي الكيل ، في الوقت الذي ربما لجأ فيه سواه إلى التطفيف . بلى ربما لجأ إلى إخفاء ماعنده من طعام بالكلية ، ولو أدّى ذلك إلى تضاعف الشدّة على الكثيرين ، بل ربما لجأ إلى رفع الأسعار إلى مستوى غير معقول إن جادت نفسه بالبيع .

وحينما نتصوّر المشقة التي عاناها الإخوة في سبيل الحصول على كمية الطعام الكبيرة هذه التي لم يكونوا يتوقعون الحصول عليها بكلّ هذه البساطة نستطيع أن ننتهي إلى أن هذه الجزئية على لسان العزيز « ألَا ترون أَني أُوفي الكيل » قد فعلت في أنفسهم فعل السحر ، ووقعت منهم موقع الرّضا التامّ .

وإن الشيء الذي نودُّ التنويه به أن أسعار يوسف كانت في متناول الجميع ، بدليل أن كل واحد منهم حصل من الميرة على حمل بعير . ولكن في رحلتهم الثالثة إلى مصر لم يكن قد بقي عندهم سوى الدراهم غير الجيدة . ولو فرض أن أسعار يوسف كانت عالية ، فلربما لم تكف دراهمهم الجيدة ، لغير الرحلة الأولى ، بل لعلها لا تكفي لها فضلا عن سواها . إن همّ آل يعقوب منصرف إلى الآخرة وليس إلى الدنيا .

وإذا كانت الجزئية الأولى من الإغراء والترغيب على لسان يوسف « ألا ترون أني أُوفي الكيل » مرتبطة بالطعام المبيع للإخوة ، فإن الجزئية الثانية على لسان يوسف « وانا خير المنزلين » مرتبطة بإكرام يوسف ، من ذات نفسه للإخوة ، وإنزالهم منزلا طيباً .

وتأمّلْ نبل نبيّ الله يوسف إذ بدأ في الإغراء والتّرغيب بالجزئية التي تتحدث عن الحق الخالص لهم ، وهو الطعام الذي اشتروه بـُحرّ مالهم بقصد أن يـُبقى عليهم ماء أوجههم ويحفظ لهم كرامتهم تامةً غير منقوصة ، في الوقت الذي كان بإمكانه فيه ، وهم الذين أساءوا له من قبل ، أن يضع لهم العراقيل . أو أن يكون كلامه لهم في صورة غير هذه .

ولكنه النُّبل الذي فطره الله تعالى عليه يجعله يفعل ما فعل ، ويقول ما قال . ويبدأ إغراءه وترغيبه فضلا منه بالإشارة إلى ما هو حق خالص لهم « ألا ترون أنّي أوفي الكيل » بينما يجعل إكرامه لهم ثانياً « وأنا خير المنزلين».

وحينما نتأمل هذه الجزئية الثانية فإنا نجد يوسف لا يقول إلا ما يقوله أكثر المتواضعين لله شكراً .

إنه يجعل نفسه واحداً من المكرمين للأضياف وهم كثير . وفرق ما بينه وبينهم أن الله تعالى وفقه كي يكون خيرهم .

ولا شكّ أن هذه الجزئية فعلت مثل سابقتها في أنفس الإخوة فعل السحر وكانت برداً علَى أفئدتهم وسلاماً . ألم يعان الإخوة من بُعد الشقة الشيء الكثير ؟ ألم يجدوا في مصر من إكرام العزيز ما لم يكن يخطر لهم ببال ؟ ألم يصادفوا وهم بين ظهراني أهلهم بسبب المجاعة شيئاً كبيراً من العنت بينما وجدوا في مصر وهم عشرة ، لين العيش ورغده ؟ ألم يصادفوا في مصر أناساً ، قلوبهم منفتحة وأنفسهم راضية ، وأوجههم باشة .

إن ما جاء على لسان يوسف من إغراء وترغيب ليس مصدرُه المنّ ، ولكنه التنبيه اللطيف إلى الفعال الحسن ، بقصد أن يعودوا ثانية كي ينالوا

من الإكرام ما نالوا وتتحقق في النهاية إرادة الله تعالى بلمّ شمل آل يعقوب وتعبر الرؤيا . قال أبو حيان(١)« وظاهر كلّ ما فعله يوسف عليه السلام معهم أنه بوحي ، وإلا فإنه كان مقتضى البرّ أن يبادر إلى أبيه ويستدعيه . لكن الله تعالى أراد تكميل أجر يعقوب ومحنته ولتفسّر الرؤيا الأولى » .

وإذا كان الإغراء والترّغيب يميلان بطبعهما إلى اللين ، فإن التحذير والترّهيب ، في قوله تعالى على لسان يوسف:« فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون » يميلان إلى شيء كبير من الجد .

وحينما نتأمل هذه الآية فإنا نجد جواب الشرط فيها منقسماً إلى قسمين موافقين في الترّتيب لعبارة الإغراء والترّغيب ومترّتبين عليها .

فإذا كانت جزئية الإغراء والترّغيب الأولى « ألا ترون أني أوفي الكيل » مرتبطة كما هو واضح بعملية الكيل ، فإن القسم الأول من التحذير والترّهيب مرتبط كذلك بعملية الكيل « فلا كيل لكم عندي » .

وإذا كانت جزئية الإغراء والترّغيب الثانية « وأنا خير المنزلين » مرتبطة بنزول الإخوة على العزيز ، فإن القسم الثاني من التحذير والترّهيب مرتبط بذلك النزول « ولا تقربون » .

القسم الأوّل : إن لم يأتوه بأخ لهم من أبيهم ، يحرمهم من الكيل الذي سمح لهم به في المرة الأولى ، وإنه بطبيعة الحال صعب على الإخوة ، إذ من أين يأتون بالطعام إذ منعوه من مصدره ؟

والقسم الثاني:« ولا تقربون » يمنع هؤلاء الإخوة من المحاولة العقيم للحصول على الطعام ، إن لم يأتوه بأخيهم من أبيهم بل يحرمهم من مجرد الاقتراب من مصر . وفي حرمانهم من الاقتراب ، حرمان لهم من كل المزايا التي حصلوا عليها في المرة الأولى . وفي مقدّمتها ما أشارت إليه الجزئية

---

(١) البحر المحيط ٣٢٢/٥ .

الثانية من الإغراء والترّغيب « وأنا خير المنزلين » .

كان يوسف على علم تامّ بأن يعقوب هذه المرّة ، لن يسمح للإخوة ، بأخذ الشقيق إلى مصر ببساطة لما سبق أن فعلوه مع يوسف . لهذا كان حريصاً على أن يكسب أفئدة إخوته بحُسن معاملته ، كي ينقلوا هذه الصّورة إلى والدهم فيسهل لهم عملية أخذ أخيهم معهم .

كما كان بحاجة إلى إظهار الكمية الضرورية من الحزم ، فانتهى الإخوة إلى اقتناع تام بأنهم إن أرادوا طعاماً فإنّ عليهم إثبات صدق ما قالوا للعزيز (١) .

والوسيلة الوحيدة لذلك الإتيان بأخيهم من أبيهم معهم . لهذا جاء على لسانهم ردّاً على العزيز « قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون » .

وحينما نتأمل الآية على لسان الإخوة ، نتبين أنّ يوسف عليه السلام ، فهم منها شيئاً جديداً عن والده ومحبته لشقيقه ، وتعزيه به عنه . فهذه الجزئية « سنراود عنه أباه » بمعنى أنهم سيستميلون أباهم ، الضنين بأصغر أبنائه ، أن ينزل على رغبتهم فيسمح لهم بأخذه معهم إلى مصر ، بناء على اشتراط عزيزها .

كما فهم يوسف من الجزئية ، منزلته العالية عند والده التي لم يبلها بياض الأيام وسواد الليالي .

ثم هي تدلُّ على أنّ هؤلاء الإخوة ، ليسوا واثقين من تلبية أبيهم طلبهم . لهذا عبروا عن المعنى نفسه مرّة ثانية في صورة قوية من التعبير ، في هذه الجزئية « وإنا لفاعلون » التي اشتملت على إنّ التي تفيد التوكيد ولام التوكيد الداخلة على الخبر .

وهذه الآية بصفة عامة تدلُّ على اقتناع الإخوة بوجاهة طلب العزيز ،

---

(١) من انهم ليسوا جواسيس ضد بلاده . فى ظلال القرآن .

وتصور رد الفعل الحسن لكل ما تفضل به العزيز عليهم . وأي غرابة في أن يأتي معهم أخوهم من أبيهم . فيكرم إكرامهم ، وينال حمل بعير كأي واحد منهم ، ويعود معهم إلى أبيهم صالحاً سالماً ؟

وإن كان هناك من شيء نود الوقوف عنده فهو ضمير المفرد الغائب الذي جاء على لسان الإخوة في هذه الآية في قولهم « أباه » إنهم لم يقولوا ، وقد كان بالإمكان « سنراود عنه أبانا » .

وهذا دليلّ على أن الإخوة ما زالوا يشعرون بأنّ هناك حاجزاً يفصل بينهم وبين أخيهم لأبيهم شقيق يوسف ، وأنّ قلوبهم ما زالت تجد على هذا الأخ ، خاصة وقد وجد المحرك لهذه الموجدة ، أليس حصولهم على الطعام مستقبلا مرتبطاً بمجيء الشقيق معهم ؟ ولو فرض أن يعقوب لم يأذن لهم بأخذه فما معنى هذا ؟ معناه أن المجاعة تخنقهم . وإن السبب في رفض يعقوب معروف ، فهم الذين عادوا في المرّة الأولى بغير يوسف . إذن فالذي ينغص عليهم رغد عيشهم في حقيقة الأمر ، يوسف وشقيقه .

وإن استعمال ضمير المفرد الغائب وليس ضمير جماعة المتكلمين ، يجعلنا نتذكر ضمير المفرد الغائب الذي سبق أن استعمله الإخوة ، للسبب نفسه ، فيما جاء على لسانهم « ليوسف وأخوه » من هذه الآية « إذ قالوا ليوسف وأخوه أحبُّ إلى أبينا منا ونحن عصبة ، إنّ أبانا لفي ضلال مبين » . ويلاحظ أنّ عدد الإخوة في المناسبتين عشرة !

وكان يوسف مطمئناً إلى اقتناع الإخوة بعدالة طلبه ، وأنهم جادون في وعدهم ، وسيقومون بإعطاء فكرة طيبة عنه إلى والدهم . ولكن ذلك كله قد لا يكون كافياً لحمل يعقوب على إرسال الشقيق معهم . وهنا جاء قوله تعالى: « وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون » .

إن يوسف يطلب من فتيانه الذين يثق فيهم ويطمئن إليهم أن يضعوا

في رحال الإخوة ثمن الميرة الّتي أخذوا . ويلاحظ أن الثمن لا يوضع في رحل واحد وإنما في الرحال ، ولعله وزع عليها كلها .

ولكن ما الفائدة من ذلك ؟ الفائدة أن الإخوة حينما يفتحون متاعهم بعد وصولهم إلى أهلهم ، ويجدون بضاعتهم في كلّ الرّحال ، فذلك أدعى إلى أن يعتقدوا يقيناً بأن هذه البضاعة هي ثمن الطعام الذي اشترّوا من مصر ، بخلاف ما لو وضع الثمن في رحل واحد ، فربما لا ينتهي بصورة أكيدة إلى أن البضاعة ثمن الطعام .

وحينما يطمئن الإخوة إلى أنها حق للعزيز ، وهم الذين لا يستحلون حراماً مطلقاً ، فذلك أدعى إلى أن يعيدوا الحق إلى صاحبه العزيز ، أو على أقل تقدير يكون عندهم حافز بالإضافة إلى الحوافز الأخرى ، على العودة إلى مصر وعزيزها . وهذا ما صرح به يوسف في ترجّيه ، فيما جاء على لسانه « لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون » .

إنه يرجو أن يعرفوا حينما ينقلبون إلى أهلهم ، أنّ هذه الدراهم عائدة للعزيز ، ويبني على الرّجاء الأول رجاء ثانياً « لعلهم يرجعون » .

إنّ الاتزان والتّروي من النعوت الّتي فطر الله تعالى يوسف عليها . وهو بدوره يذكرنا بالاتزان والتّروي الذي اكتسبه ساقي الملك لملازمته يوسف ، فقد سبق أن جاء على لسانه « لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون ».

وواضح أن يوسف مطمئن إلى أنّ الإخوة لن يفتحوا متاعهم إلا بعد وصولهم إلى أهلهم .

وهذا دليل على أنّ كلّ الإخوة ، لن يضطرّوا بحال ، إلى فتح واحد من الرحال أثناء السفر ، لأن يوسف أتاح لهم الحصول على كمية الطعام الّتي تكفيهم في سفرهم الطويل نسبيا .

وإنّ كلّ ما قام به يوسف ، بما في ذلك وضع البضاعة في رحال الإخوة ، دليل على أنه لم يأخذ منهم قليلا ولا كثيراً في مقابل الأشياء الكثيرة

التي أخذوا ، وسيكون ذلك رد فعل حسن في أنفس الإخوة من ناحية ، ونفس يعقوب عليه السلام من ناحية اخرى .

ولكن والحق يقال ، إنّ البضاعة التي وجدت في رحال الإخوة ، هي فقط التي سهلت عملية أخذ الإخوة لهذا الشقيق معهم .

الإخوة يراودون يعقوب عن شقيق يوسف لأخذه :

قال تعالى: « فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا مُنع منّا الكيل فأرْسلْ معَنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون ، قال هل آمنكم عليه إلا كما امنتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين ، ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم رُدّت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغي ؟ هذه بضاعتنا رُدّت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ، ذلك كيل يسير ، قال لن أرسلهُ معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتنني به إلا أن يحاط بكم ، فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل » .

هؤلاء الإخوة وقد رجعوا بعشرة الأحمال من الطعام على الجمال إلى أبيهم الذي سرَّ بها سروراً بالغاً يفاجئونه بأنهم منعوا الكيل في المستقبل ما لم يبعث معهم أخوهم ، فإنه بسببه فقط ، يستطيعون أن يحصلوا على الطعام أو لا يحصلوا ولسان حالهم يقول : إن الأمر بيدك يا والدنا ، فإن أرسلت أخانا حصلت على الطعام ، وإن لم ترْسله لم نحصل . ويختمون طلبهم بأنهم سيكونون حافظين لأخيهم .

ويلاحظ على كلام الإخوة ، الصادقين هذه المرة ، إنه موجز لا تصنع فيه ولا تنميق .

وهيج هذا الطلب في نفس يعقوب ذكرياته الأليمة السابقة مع هذا العدد نفسه من أبنائه الذين سبق أن قدّموا الطلب نفسه ، واستعملوا هذا

القول: « وإنا له لحافظون » الذي يستعملونه بحذافيره الآن ، وأخذوا ابنه الحبيب يوسف ، وعادوا عشاءً دونه .

وهنا يأتي على لسان يعقوب « قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين » .

وفي سبيل تبيين المبرر لما جاء على لسان يعقوب في هذه الآية ، علينا أن نعود أدراجنا إلى آيتين سبق أن جاءتا على لسان هؤلاء الإخوة أنفسهم مخاطبين أباهم .

قال تعالى: « قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون ، أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون » .

إنهم – كما أوضحنا من قبل – يشيرون صراحة إلى عدم ائتمان يعقوب لهم على يوسف . ويعقوب في رده عليهم لا يشير البتة إلى عدم الائتمان هذا بل يسكت عنه سكوتاً . وإن سكوته دليلٌ على عدم مخالفتهم في استنتاجهم ولكنه دليل صامت . إنه لم يجبهم لأنه لم يكن عنده الدليل الكافي .

وفعلوا بيوسف ما سولت لهم به أنفسهم وعادوا عشاء يبكون . ولم ينس يعقوب تبجح هؤلاء الإخوة بأنهم ينبغي أن يؤتمنوا على يوسف وأنهم ناصحون وحافظون له .

وفي هذه المرة الثانية ، حينما يطلبون منه أن يُرسل معهم أخاهم . فعلى الرغم من أنهم لم يشيروا إلى أنه ينبغي أن يأتمنهم على أخيهم ، إلا أن يعقوب الذي حرك طلبهم في نفسه كوامن الشجن وأليم الذكريات يجيبهم مؤنباً كما جاء في القرآن « هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل » .

وهذا القول في حقيقته ردٌ على تبجحهم السابق بأنهم ينبغي أن يؤتمنوا ، وتقريع بأنهم لا يمكن أن يؤتمنوا هذه المرة على الشقيق ، لأنهم أثبتوا أنهم ليسوا أهلا لذلك .

وواضح أن يعقوب يقصر حديثه الموجه إليهم على الأمانة خاصة ، التي كان في إمكانهم أن يحافظوا عليها بكلّ يسر وبساطة لو شاءوا . وحديث يعقوب الآن عن الأمانة ردّ على طلبهم بأن يرسل معهم أخاهم . لأن الإرسال لا يتم إلاّ إذا كان مؤتمناً لهم ، وقد أثبتوا أنهم ليسوا أهلاً لذلك .

وقد توج الإخوة طلبهم بقولهم:« وإنا له لحافظون » وهو ما سبق أن تبجحوا به من قبل ، ولكن يعقوب يعلم يقيناً ، أن حفظ الإخوة لأخيهم ، إن كانوا صادقين ، ليس بذي جدوى ، إذا لم يشأ ذلك ارحم الراحمين .

وهنا يجيء على لسان يعقوب ردّاً عليهم قوله تعالى:« فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين » . إنه عليه السلام ، ينبه أبناءه في لطف ، إلى أن الله تعالى هو خير الحافظين ، فعلى المرء الّا يثق في حفظه هو ولا في حفظ أي مخلوق ، ولكن في حفظ القادر على كل شيء .

وكأن يعقوب يقول لأبنائه عليكم أن تعرفوا أقداركم ، وإنكم وإن أردتم أن تكونوا محافظين ، فإن ذلك لمن يقـدّر لكم إلاّ بإرادة الله تعالى . وإن يعقوب يبدو من قوله هذا من المتوكلين على الله ، الواثقين في حفظه ، وليس في حفظ أي مخلوق ، ولو كانوا أبناءه . وربما كان الإنسان حريصاً على أن يكون حافظاً ورحيماً ، ولكن ذلك ليس شيئاً بالقياس إلى حفظ أرحم الراحمين ورحمته .

وبعد جواب يعقوب الموجز المبكت للإخوة ، المنبه لهم إلى حقيقة أقدارهم يُسدل الإخوة ستار الصمت على هذا الموضوع . ولعلهم قرروا في أنفسهم إرجاء الحديث فيه حتى مناسبة أخرى أكثر ملاءمة . وانصرفوا بطبيعة الحال إلى متاعهم الفرحين به . وعمد كلّ واحد منهم إلى فتح ما يخصه منه .

وهنا يجد كل منهم في رحله ثمن الطعام الذي سبق أن دفعه في مصر وأصبح حقّاً خالصاً للعزيز . وكان ذلك مفاجئاً للإخوة مفرحاً لهم ، إذ فتح

لهم من جديد باب الحديث مع والدهم عن الرحلة الثانية إلى مصر ، وسيكون في رفقتهم بطبيعة الحال أخوهم إن أراد يعقوب الحصول على الطعام الذي هم في أشد الحاجة إليه .

إن وجود الثمن في رحالهم معناه أن هناك رحلة أخرى إلى مصر تنتظرهم ، فإن المال الذي وجدوه في رحالهم حق خالص للعزيز ، وهو حق في عرف يعقوب وآله يجب أن يعود إلى صاحبه في أي صورة من الصور .

ولكن حاجتهم إلى الطعام ما زالت قائمة . إذن فقد وجدت أسباب عدة لعودة الإخوة ثانية إلى مصر . وستكون رحلتهم قمة في النجاح لو قدر لهم أخذ أخيهم . فإن الكيل سيكون مضموناً ، بخلاف ما لو عادوا إلى مصر ، أو عاد بعضهم لإعادة الحق إلى صاحبه ، دون أخيهم ، فإن الحصول على الطعام غير أكيد على الرغم من أنهم يثبتون للعزيز أنهم قمة في الأمانة . ألم يقل لهم العزيز من قبل بصريح العبارة:« فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون » .

وكان الإخوة في اهتبال الفرصة الجديدة للحديث . قمة في الذكاء ، فقد جاء على لسانهم قوله تعالى:« قالوا يا أبانا ما نبغي ؟ هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ، ذلك كيل يسير » . إنهم في فرح مستطير يقولون:« يا أبانا ما نبغي » ما الذي يمكن أن نبغي أكثر من الذي حصلنا عليه أو يمكن أن نحصل عليه في المستقبل ؟ لقد حصلنا في الرحلة السابقة على كل شيء نبغي . حتّى ثمن الطعام نجده ، الآن في رحالنا . وإن لسان حالهم ليستمرّ قائلا : إن هذا يا أبانا دليل على كرم العزيز البعيد المدى ، وقناعته وقناعة فتيانه الذين هم صورة منه . لو كان هناك حرص على جمع المادة لا نعكس في تصرف أتباعه ، ولما جاز لنا أن نجد في كل رحالنا وليس في بعضها فقط ، ثمن كل الطعام الذي أخذنا .

ويلاحظ أن حديث الإخوة عن الرحلة السابقة موجزٌ للغاية ويقتصر على

ما استجدّ في الموضوع « هذه بضاعتنا رُدت إلينا » أما حديثهم عن الرحلة الثانية ، التي يتمنون لها أن تتحقق ، فإنه يميل إلى شيء من التفصيل المغري ويدل على الذكاء البعيد المدى الذي يُعرف به أبناء يعقوب . إذ عرفوا كيف يستميلون قلب والدهم ويقنعونه بأخذ أخيهم معهم ؟ فقد أشاروا إلى المكاسب التي يمكن أن يعودوا بها من الرحلة الثانية الناجحة ، والتي لا يمكن أن تكون كذلك إلا بأخذ الشقيق ، وجاء على لسانهم « ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ، ذلك كيلٌ يسير » .

إن كمية الطعام التي أحضروها لا تكفي آل يعقوب مدة طويلة . إذن لا بد من الطعام الذي لا يمكن الحصول عليه إلا من عزيز مصر .

وهنا يتناول الإخوة إحدى نتائج الرحلة « ونمير أهلنا » وينبغي أن يسبق ذلك إرسال أخيهم معهم . وهنا يتناولون أهمّ ما يشترط في إرسال هذا الأخ ، ألا وهو حفظهم له « ونحفظ أخانا » وبما أنّ عددهم هذه المرة سيزيد واحداً ، فمعنى هذا أن الطعام الذي سيحصل عليه الإخوة أكثر من الطعام الذي يراه آنذاك يعقوب بعيني رأسه . وهنا يتناول الإخوة زيادة الكيل هذه ، ولا شك أن آل يعقوب في حاجة ماسة لكل ذلك .

ويتوّج الإخوة حديثهم بهذه الجزئية على لسانهم « ذلك كيلٌ يسير » وهي تشير إلى العزيز وكرمه ، وعند يعقوب من المعلومات الصحيحة الشيء الكثير .

وإذا كان يعقوب ، حينما طلب الإخوة منه ، قبل العثور في الرّحال على ثمن الطعام ، قد عرّج إلى السبب الذي يحول دون ذلك ، وهو عدم الأمانة ، فإنه في هذه المرّة حينما أشاروا إلى المكاسب المتوقعة ، دون الإشارة إلى عملية إرساله ، باللفظ الصريح ، فهي معروفة ضمناً ، فإنه عليه السلام ، في جوابه ، يشير إلى عملية إرسال ابنه معهم . وكأنّ هذا الجواب الثاني ، وقد اطمأنّ إلى إرساله معهم بعد أخذ العهد عليهم ، جوابٌ لطلبهم الأول .

وكأن ما جاء على لسانه « قال لن أرسله معكم حتّى تؤتون موْثقاً من الله لتأتنني به إلا أن يحاط بكم » رد على قولهم:« يا أبانا مُنع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنّا له لحافظون » .

والحقيقة أن جواب يعقوب الثاني مبني على اطمئنانه النسبي لأبنائه ، الذي تحوّل بعد أخذ العهد منهم فعلا ، إلى اطمئنان كلّي . بينما لم يكن عنده شيء من هذا الاطمئنان حينما فاجأوه أول الأمر بطلبهم أخذ أخيهم معهم ، وإن كان عنده شيءٌ من الاقتناع بذهابه للحصول على نصيبه من الطعام .

فلنتأمل الآية على لسان يعقوب التي فيها الجواب بالإيجاب المشروط . قال تعالى:« قال لن أرْسِلَه معكم حتى تؤتون موْثقاً من الله لتأتنّني به إلا أن يحاط بكم ، فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل » .

إنه ليجيب بإرسال أخيهم معهم ، ولكن بعد أن يحلفوا له بالله العظيم ليأتنه بأخيهم وألا يكونوا سبباً في عدم عودته إلى يعقوب . وليسوا بطبيعة الحال مسؤولين عما يقدره عليهم جميعاً أحكم الحاكمين ، مما لا يد لهم فيه، ولا طاقة لهم على دفعه . ولا يتردد الأبناء جميعاً في إعطاء الموثق وهم النقيّو السريرة هذه المرة .

وحينما نقارن ، في سبيل تبيين الموقف المتطور ليعقوب والأبناء ، بين ما دار في كلّ من المناسبتين على لسان الأب وأبنائه فإنه يتضح ما يلي :

١ ـ يميل حديث المناسبة الأولى ، منذ طلب الإخوة إرسال يوسف معهم حتّى ظفرهم بذلك ، إلى القصر ، في جملته ، بينما يميل حديث المناسبة الثانية إلى الطول .

٢ ـ حديث المناسبة الأولى يسير بالضرورة في طريق أقرب إلى الاستقامة بينما يسير ، حديث المناسبة الثانية بالضرورة في طريق به شيء من انحناء . وتفسير ذلك أن الحوار في المناسبة الأولى يسير في طريقه الطبيعي

المعتاد ، بينما هو في المناسبة الثانية ، موجه بحكم ما حدث في المناسبة الأولى ليوسف وجهة أخرى معينة .

٣ ـ في المناسبة الأولى كان من الإخوة تركيز كثير على يوسف بأنه سيرتع ويلعب ، بينما في المناسبة الثانية ، كان التركيز على ذات أنفسهم « فأرْسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون » فهم الذين سيكتالون ، لأن نصيبهم أكبر .

٤ ـ في المناسبة الأولى كان من يعقوب نبيّ الله توكّل على الله تعالى بعيد المدى ، بدليل أنه سمح لابنه يوسف بالذهاب مع إخوته ، ولم يُصرّح بذلك التوكل الذي صرح به في الثانية ، لأن الداعي موجود ، وهو تنبيه الإخوة إلى أنّ الله تعالى وكيل على ما دار بين يعقوب وبينهم من طلب للموثق وإعطاء له . ولم يحدث شيء من ذلك في الأولى ، لعدم وجود السبب القاضي بذلك .

٥ ـ في المناسبة الأولى لم يكن يعقوب مقتنعاً بأخذ الإخوة يوسف معهم ، ولكن ليس عنده الدليل المادي لرفض طلبهم ، فوافق على مضض ، بينما كان في المناسبة الثانية ، بعد وجود الإخوة البضاعة في رحالهم مقتنعاً بذهاب الأخ معهم ، ولكنه يخشى كيدهم ، وهم الذين عادوا في المرة الأولى دون يوسف . وهنا يجد يعقوب في نفسه القدرة الكافية لأن يطالبهم بعهد الله وميثاقه ، بألا ينال الأخَ أيُّ سوء منهم . بل إن عبارة يعقوب ، نبي الله ، قمة في الأدب والحياء ، غاية في القوة الآن « لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتنني به إلا أن يُحاط بكم » وإنّ ظلم الإخوة أنفسهم في المرّة الأولى ، هو الذي حمل نبرة يعقوب التعبيرية في المرة الثانية ، على أن تكون شديدة ، بينما كانت الغاية في اللين أوّلا « إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذّئب وأنتم عنه غافلون » .

٦ ـ على الرغم من أن الإخوة في المناسبة الأولى قد صمموا على شرّ

مستطير إلا أنهم لعدم وجود دليل مادي ضدهم من قبل ، وجدوا في أنفسهم القدْرة لأن يستمروا في الحديث عن أخذهم يوسف معهم ، على الرغم من أن يعقوب أبدى حزنه وتخوفه من ذلك . وفي المناسبة الثانية ، على الرغم من أن الإخوة كانوا صادقين في كلّ ما قالوا ، إلا أنهم بسبب ما فعلوا بيوسف ، لم يجدوا القدرة على الاستمرار في الحديث عن أخذ أخيهم معهم بعد تأنيب يعقوب لهم .

٧ – في المناسبة الأولى ، كان لدى الإخوة الجرأة لأن يفاجئوا أباهم بطلب إرسال يوسف معهم ، أما في المناسبة الثانية ، فلم يستطيعوا أن يتفوهوا بالطلب إلا بعد أن رأى والدُهم الكميات الكبيرة من الطعام . بدليل أن هذه العبارة الموجزة على لسانهم « يا أبانا مُنعَ مِنا الكيل » كانت معروفة ليعقوب ؛ إذ فهم أنهم يريدون المستقبل .

٨ – مهد الإخوة في كلّ من المناسبتين لطلبهم . وبتأمُّل التمهيدَين يتضح أن الأول « يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون » مرتبط بذات أنفسهم بينما الثاني « يا أبانا مُنعَ مِنا الكيل » مرتبط إلى درجة كبيرة بالطعام .

٩ – في المناسبة الأولى كان لدى الإخوة القدرة على الادعاء والاستمرار فيه ، بينما هم في المناسبة الثانية ، لم يستطيعوا أن يستمروا في الحديث المستقيم إلا بعد تدخل خارجي . ألا وهو وجود ثمن الطعام .

١٠– في المناسبة الأولى ، حينما طلب الإخوة أخذ يوسف عبر يعقوب عن حزنه لذهابه وخوفه عليه من الذئب . بينما في المناسبة الثانية عبر يعقوب عن خوفه على الشقيق فقط ، سواء قبل عثور الإخوة على ثمن الطعام أو بعده وتفسير ذلك أن حبَّ يعقوب ليوسف أكثر من حبه لشقيقه .

١١– أخْذ يعقوب عليه السلام الموثق من أبنائه ليس فيه البتة منافاة لإيمانه بالقضاء والقدر والتوكل على الله ، بدليل أنه أخذ الموثق من أبنائه

بألا يفعلوا من جانبهم أيَّ ضرر يقدرون على عدم فعله . أما ما لا يد لهم فيه فقد جاء على لسانه قبل أخذ الموثق « فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين » وجاء بعده على لسانه « الله على ما نقول وكيل » بل إن ما فعله يعقوب من أخذ الموثق على الإخوة الذين فعلوا بيوسف ما فعلوا يعتبرُ درساً نافعاً لكل ذي بصيرة نيرة ، والمؤمن لا يلدغ من جحرٍ مرّتين ، وإن يعقوب قد أخذ الموثق من أبنائه وفلذات كبده ، فمن باب أولى أن يأخذ الموثق من سواهم مِمن قد يخشى أذاهم .

١٢ــ لو أنّ الإخوة في المناسبة الثانية غير مقتنعين بطلب والدهم منهم إعطاء الموثق لكان منهم على أقل تقدير حوار في هذا الموضوع . ولكنهم يعرفون تماماً ما عملوه بيوسف وأن والدهم محق في طلبه . لهذا أعطوا الموثق ببساطة ، بل لعلهم أعطوه مع شيء غير قليل من الارتياح ، لأن هذا الإعطاء موافق لنيتهم الطيبة الصافية تجاه أخيهم ، ثم إن الحاجة للطعام ما زالت قائمة .

١٣ــ تبين من القول على لسان يعقوب « لتأتنني به » أنه قد سد عليهم كلّ فرص الإيذاء لأخيهم ، سواء كانت من ذات أنفسهم أو بإيحاء منهم لسواهم .

١٤ــ اطمئنان يعقوب لأبنائه بأخذ الشقيق بعد إعطاء الموثق شهادة منه بصلاح أبنائه ، وأنهم يقدّرون العهد الذي آتوا حق التقدير . ولو كان اعتقاده فيهم بغير ذلك لما فكر البتة في طلب الموثق الذي سيعطى ولكن لن ترعى له حرمة .

يعقوب المحب لأبنائه يخشى العين عليهم :

قال تعالى:« وقال يا بَنِيَّ لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ، وما أغني عنكم من الله من شيء ، إن الحكم إلا لله عليه توكلت

وعليه فليتوكل المتوكلون ، ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجةً في نفس يعقوب قضاها . وإنه لذو علم لما علّمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

وهكذا بعد أن أعطى الإخوةُ الموثق الذي طلب والدهم عرفوا أن رحلة أخرى في انتظارهم . وبما أنهم عادوا لتوّهم من سفر بعيد ، وسيقطعون المسافة مرة ثانية ، فمعنى هذا أنهم في حاجة إلى نوع من الراحة من ناحية ، وإلى استعداد معين لذلك السفر . ولعلهم اكتفوا بأقصر فترة ممكنة ، لأن الحاجة إلى الطعام قائمة . فالكمية التي حصلوا عليها ، وإن كانت كبيرة إلى حد ما ، فإنها تكفي آل يعقوب لفترة معينة ؛ بينما تستغرق رحلتهم ذهاباً وإياباً أياماً عديدة . تكون تلك الكمية آخذة أثناءها في النقصان .

ثم إن إكرام العزيز الفائق لهم كان مغرياً لهم بالعودة .

وفوق كل ذلك هم قد نجحوا في أخذ أخيهم معهم وسيثبتون للعزيز حينما يشاهده ويتحدث إليه أنهم صادقون في كل ما قالوا ، وسوف ينال هذا الأخ كيل بعير من الطعام الذي سينتفع به آل يعقوب ولا شك .

كل هذه الأسباب مجتمعة جعلت الإخوة جادين في الاستعداد للرّحلة . وفي أول فرصة ممكنة كانوا على وشك الرّحيل . وتمّ كل ذلك بمرأى من يعقوب . وحينما حانت لحظة المغادرة كانت منه تلك الوصيّة التي تنمّ عن المحبة الفائقة التي وضعها في قلبه لكل أبنائه أرحم الراحمين : « يا بَنِيَّ لا تدخلوا من بابٍ واحدٍ وادخلوا من أبواب متفرقة ، وما أُغني عنكم من الله من شيء ، إن الحكم إلا لله ، عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون » .

إن يعقوب يخاطب كل أبنائه ولا يخصّ واحداً منهم دون غيره ، ولا بعضهم دون بعض في هذه الصيغة « يا بَنِيّ » التي تدل على الحنان الفائق لكل بنيه . ويُردف ذلك بالنهي فالأمر « لا تدخلوا من بابٍ واحدٍ وادخلوا من أبواب متفرقة » .

هو يخشى عليهم العين وهي حقّ . نصّ على ذلك القرآن الكريم في أكثر من موضع والحديث النبويّ الشريف . ففي الحديث : إن العَين لتُدخِل الرجُل القبر والجمل القِدْر ، وفي التعوذ : ومن كلّ عين لامّة (١) .

ويلاحظ أنه يقول في صفة الأبواب « متفرقة » ولا يقول « متعددة » فقد تكون هناك أبواب متعددة ولكنها متقاربة . ولا فرق حينئذ بين دخولهم من هذه الأبواب التي تلك صفتها وبين دخولهم من بابٍ واحدٍ . وإنّ الصفة « متفرقة » تفيد معنى متعددة ، وتزيد عليها بأنها متباعدة عن بعضها .

ونود أن نعين المكان الذي سيدخل منه الإخوة : هل هو البلاد المصرية ، أم المدينة التي فيها العزيز ؟ وقد ذهب البعض إلى أن المراد البلاد المصرية ، وكأنّ المراد لا تدخلوا البلاد من باب واحد ولكن من أبواب متفرقة . والمعروف أن منافذ الحدود ليس بها سوى عدد محدود من الناس . ثمّ إنّ العادة جرت أن يكون لكلّ منفذ بابٌ واحد . ومن ثم نحن نميل إلى عدم قبول هذا الرأي وإلى أن المراد دخولُ المدينة التي فيها عزيز مصر . فقد جرت العادة بأن يكون للمدينة ، التي هي بمثابة العاصمة أكثر من مدخل وأكثر من باب .

ثم إن دخول أحد عشر رجلا من باب مدينة واحد ، حيث تكون هناك عادة مجموعات من الناس ، ذلك أدعى لأن يأخذ المرء حذره من العين .

ومما قد يدلّ على ذلك أن آل يعقوب ، وفيهم والدا يوسف ، في الرّحلة الرابعة والأخيرة ، حينما اقتربوا من المدينة ، كان يوسف عليه السلام قد خرج لهم ، وآوى إليه أبويه بالذّات ، ثم طلب إليهم جميعاً

---

(١) البحر المحيط ٣٢٥/٥ والعين اللامة : المصيبة بسوء . أو هى كل ما يخاف من فزع وشر . القاموس .

أن يدخلوا مصر إن شاء الله آمنين . فدلّ الدخول هنا على أنّ المراد به في قوله تعالى على لسان يعقوب:« لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة » مدينة مصر الّتي فيها عزيزها وليس الحدود المصرية ، والله أعلم .

ونتساءل عن الأسباب الّتي دفعت يعقوب لإسداء هذه النصيحة القيمة لأول مرّة ، بينما هذه الرحلة ليست الأولى ، ومن يدري ؟ ربما لم تكن الثانية أيضاً . فلعلها سبقتها إلى غير مصر رحلةٌ أو أكثر . وللجواب على ذلك نقول : إنّ هناك أسباباً لذلك ، نجملها فيما يلي :

١ ـ هذه هي المرّة الأولى الّتي يعود فيها الإخوة إلى ذات المكان الهام الذي ذهبوا إليه من قبل .

٢ ـ الفتّرة قصيرة بين ذهاب الإخوة إلى مصر في المرّة الأولى وفي هذه المرة . فهي لن تعدو الفتّرة الّتي يُقطع فيها الطريق ذهاباً وإياباً ، يضاف إليها فتّرة استعدادهم للرحلة . وهذا لافت للأنظار عادة .

٣ ـ عدد الإخوة في المرة الأولى عشرة ، وهو عدد ليس بالقليل ، ونستطيع أن نقول : إنه لا يوجد دائماً إخوة يصل عددهم إلى هذا الرقم . وإن أقلّ زيادة عليه ستكون أكثر لفتاً للأنظار . ولا نستطيع أن نغفل التشابه الضروري بين الإخوة في الملامح ؛ وإن كانوا غير أشقاء ، فكيف وقد عُرف في المرة الأولى أن هؤلاء العشرة إخوة ؟ فإذا جاء معهم الأخ الحادي عشر فإن الرائي قد يستطيع أن ينتهي إلى أنه أخوهم . ولا ننسى أنه قد عرف من قبل أن الإخوة لن يستطيعوا العودة إلا ومعهم أخوهم من أبيهم .

٤ ـ كان يعقوب ، أثناء غياب الأبناء ، يتعزى بشقيق يوسف عنه وعن إخوته . ثم عادوا إليه ، وكان سروره بهم بالغاً ، وألِفَهُمْ بالقرب منه في هذه الفتّرة القصيرة الّتي أخذوا يستعدون فيها للسفر وملأوا عليه

الدّار . وفجأة يتبين هذا الأب ، أنه بين لحظة وأخرى لن يكون معه واحد من أبنائه ، بما في ذلك الشقيق ، وفي ذلك ولا شك تحريك لغريزة الإشفاق عنده على فلذات كبده ، وتجسيد لما هو ممكن وليس بمستبعد ، ألا وهو الحسد لهؤلاء الأبناء .

٥ ـ لا يمكن أن ننسى أن الإخوة سيأخذون معهم في هذه الرّحلة أحبَّ الأبناء إليه بعد يوسف .

٦ ـ إن يعقوب يقول ما يقول ؛ بإيحاء من الله تعالى ، كما نص على ذلك القرآن .

وقد قال الزمخشريّ معللا :« لأنهم كانوا ذوي بهاء وشارة حسنة ، اشتهرهم أهل مصر بالقرْبة عند الملك والتكرمة الخاصّة التي لم تكن لغيرهم ، فكانوا مظنة لطموح الأبصار إليهم من بين الوفود ؛ وأن يشار إليهم بالأصابع ويقال : هؤلاء أضياف الملك انظروا إليهم ، ما أحسنهم من فتيان ! وما أحقهم بالإكرام ! لأمر ما أكرمهم الملك وقرّبهم وفضلهم على الوافدين عليه ، فخاف لذلك أن يدخلوا كوكبة واحدة فيعانوا لجمالهم وجلالة أمرهم في الصدور فيصيبهم ما يسوؤهم ولذلك لم يُوصِهمْ بالتفرُّق في الكرّة الأولى . لأنهم كانوا مجهولين مغمورين بين الناس » (١) .

وبعد إسداء يعقوب نصيحته يجيء على لسانه قوله تعالى:« وما أغني عنكم من الله من شيء » إنّه يبين لأبنائه في وضوح تام بأنّ نصيحته لا تعدو أن تكون نوعاً من الحيطة والحذر ، الذي يجمل بكلّ إنسانٍ أن يقوم به ، وليس معناها أنه ، وإن كان نبياً لله ، يمكن أن يكون لها شيء من أثرٍ فيما قدّره أحكم الحاكمين وقضاه عليهم .

كما يريد أن يُشعرَهم بأنه ليس هناك تعارض أبداً بين الحيطة والحذر من ناحية ونفاذ أمر الله تعالى من ناحية أخرى .

---

(١) الكشـاف ٢ : ١٤٦ .

وتأمل الجارّ والمجرور « عنكم » الذي تضمنه كلام يعقوب ، بل الذي حرص يعقوب على تضمينه كلامه ، على الرّغم من إمكان الاستغناء عنه لو شاء . ولا يخفى أن الضمير الذي دخل عليه الجار ، ضمير جماعة المخاطبين ، وهم أبناء يعقوب .

وحينما يُصرح في خطاب صريح لأبنائه وفلذات كبده ، بأنه وهو نبيُّ الله ، لا يغني عنهم من الله شيئاً ، فمن باب أولى أن يكون ذلك موقفه من غير أبنائه .

وتأمل أيضاً حرْف الجر « من » الذي يفيد التبعيض من قوله تعالى على لسانه:« من شيء » وفي ذلك توكيد لعدم قُدرة يعقوب على إحداث أدنى شيء فيما قدّره على أبنائه القادر على كلّ شيء جل وعلا .

وقد عمق المعنى السابق الجزئية التي جاءت مباشرة على لسان يعقوب « إن الحكمُ إلا لله » . والتي تدلّ دلالة تامة الوضوح على أنّ المتحكم المطلق في الأمور كلها هو الله تعالى وحده لا شريك له .

أما الجزئية على لسان يعقوب « عليه توكلت » فهي مؤكدة لسابقتها موضحة تمام الوضوح ، بأنه لا تعارض مطلقاً بين النصيحة التي أسداها لأبنائه وبين التوكل على الله .

ويلاحظ أنّ الفعل في الجزئية المتعلقة بذات يعقوب فعل ماض ، فهذه حاله دائماً وفي كل وقت ، بينما جاء الفعل في الجزئية الخاصة بسواه « وعليه فليتوكل المتوكلون » في صيغة الأمر المؤكد . وهذه نصيحة أخرى تشمل أبناءه وسواهم بأن عليهم أن يكونوا دائماً متوكلين على الله حقّ التوكل . كما تفيد فهم الأبناء لنصيحته ، بأن عليهم في الوقت الذي يقومون فيه بتنفيذ نصيحته ، أن يكونوا متوكلين على الله رب العالمين .

وأتت بعد ذلك الآية التعقيبية على نصيحة يعقوب واستدراكاته . ولها علاقة وثيقة بيعقوب . قال تعالى:« ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم

ما كان يُغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها ، وإنه لذو علم لما علمناه ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون » .

هذه الآية ، تشير إلى أنّ أبناء يعقوب قاموا بتنفيذ نصيحة والدهم بحذافيرها ، ولم يخالفوا أمره وهي طاعة تدلّ على ما بعدها ، وأن الإخوة سيحاولون جاهدين العملَ وفقَ العهد الذي قطعوه على أنفسهم .

وهذا دليل على أن تطوراً ما ، تجاه الخير والحسن ، طرأ على شخصيات الإخوة . وقد سبق أن ألمحنا إلى أنه ليس هناك واحد من أبناء يعقوب يمكن أن يقال إنه شر خالص . حتّى في اللحظة الحرجة الّتي هموا فيها بجعل يوسف في غيابة الجب .

والآية تشير بوضوح إلى أن أبناء يعقوب حينما دخلوا مدينة مصر من أبواب متفرقة ، لم يحدث لهم أيُّ سوء . لأنّ هذه النتيجة الّتي وافقت الحاجة الّتي كانت في نفس يعقوب ، هي الّتي كان قد قدّرها عليهم أحكم الحاكمين . ولو أنه تعالى قدّر عليهم سوءاً لما نفعتهم نصيحة والدهم وعملهم بها . ولكن الآية تنص صراحة على أن نصيحة يعقوب وتحذيرهم من العين ، كان بإذن من عالم الغيب والشهادة ومن علمه تعالى الذي علمه يعقوب فعمل به .

إن يعقوب لم يكن ليكتم عن أي مخلوق علماً علمه البارئُ إياه ، فكيف إذا كان المنتفع من ذلك العلم أبناءه !

وهذه الجزئية الّتي تختم بها الآية « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » تنص على أن قليلا من الناس فقط . هم المؤمنون ، الذين يؤمنون بهذا القرآن وبكل ما جاء به . يعلمون ما علمه يعقوب من الجمع بين الأخذ بالأسباب وبين التوكل . أما جمهور الناس فإنهم عن هذا غافلون .

لـن يعـود الإخـوة إلى يعقوب موفوري العدد :

الأبناء الذين عملوا بنصيحة والدهم ، ولم يُصبهم – لموافقة هذه النصيحة ما قدّر الله تعالى – أدنى أذى ، لا يعودون إلى أبيهم موفوري العدد ، ولا ينقص منهم واحدٌ فقط ، كما حدث في المرة الأولى ، إنما ينقصُ منهم اثنان . أحب الأبناء الباقين ليعقوب ، بنيامين والأخ الأكبر ، الذي رفض العودة إلى أبيه دون بنيامين ، الذي أعطى هو وإخوته الموثق لأبيهم ليأتنه به إلا أن يحاط بهم .

ونستطيع أن ننتهي إلى أن يعقوب لم يعد إليه في هذه السفرة الثانية أحبُّ أبنائه إليه بنيامين الذي يتعزى به عن يوسف والأخ الأكبر ، وهما أحبَّ الأبناء إليه قاطبة . أما الأخ الأكبر فهو الذي سبق أن انتهينا إلى أنه الأخ الذي وضع الله في قلبه الكمية الضرورية من الود ليوسف ، وهو الذي رفض قتله أو طرحه أرضاً ، واقترح جعله في غيابة الجب إن كانوا فاعلين .

وهو الابن الوحيد الذي لا يجرؤ على العودة إلى أبيه دون الشقيق ويصرّ على البقاء في مصر .

وإذا كان تصرّف الأخ هكذا مع يوسف ولأجل الشقيق ، فمعنى هذا أنه أبرُّ الإخوة بأبيه بعد يوسف وبنيامين ، ومعنى هذا أنّ مصاب يعقوب عليه السلام على ابنيه جلل . ويتضح إذن أن الحذر لا ينجي من القدر .

إخوة يوسف فى مصر للمرة الثانية :

قال تعالى:« ولمّا دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه ، قال إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون . فلما جهّزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذّن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون ، قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون ؟ قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم ، قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين ، قالوا فما

جزاؤه إن كنتم كاذبين ؟ قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه ، كذلك نجزي الظالمين ، فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه ، كذلك كدنا ليوسف ، ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله ، نرفع درجات من نشاء وفوق كلّ ذي علم عليم » .

وهكذا بعد الرحلة الطويلة الشاقة كالمعتاد وصل الأحد عشر أخاً مصر واتجهوا صوب العزيز ، ولم يفكروا البتة في التوجه صوب سواه ، فهو الآن المتصرف في شؤون مصر ، ودخلوا عليه جميعاً ، ولعل ذلك تمّ بعد استئذانه وإعلامه بأن الذين اشترط عليهم من قبل أن يجيئوا بأخ لهم من أبيهم إن أرادوا الطعام في المستقبل قد جاءوا ومعهم شاب آخر . لعله أخوهم ، فإن التشابه في الملامح بينه وبينهم ظاهر .

ولا نستبعد أن يكون العزيز قد أوحى إلى حاجبه بأن عليه حينما يدخل الأحد عشر رجلا أن يجعلوا أصغرهم ، الذي جاء معهم لأول مرة بالقرب منه ، فهذا هو الذي يُفهم ، والله أعلم ، من جملة « آوى » بمعنى قرّب وأدنى .

كما يفهم من هذه الجزئية « ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه » أن الإيواء تمّ بعد الدخول مباشرة .

ونستطيع أن نفهم أن يوسف حينما علم بأن إخوته بالباب وأن معهم شخصاً آخر ، استنتج أنه شقيقه بنيامين . لذلك كان حريصاً على أن يأذن لهم بالدخول في أول فرصة ممكنة لشوقه البالغ له .

وبعد دخول الإخوة ، نستطيع أن نفهم أن يوسف كان يحاول جاهداً أن يكبح جماح طَرْفه من ملازمة الشقيق ، كيلا يكون ذلك مثار تعجب الإخوة ، وأسئلة كثيرة منهم عن السرّ الذي يكمن وراء تلك النظرات المتلاحقة . خاصة وأن يوسف قرر في نفسه استبقاء أخيه عنده ورسم الطريقة التي سيتم بها التنفيذ .

وإذا كنا انتهينا الآن إلى أن الإيواء حدث بعد الدخول عليه مباشرة ، في قوله تعالى:« ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه » فإنا لا نستطيع أن ننتهي إلى أن ما جاء على لسان يوسف في الآية نفسها مخاطباً شقيقه « إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون » قد تم أثناء ذلك الاجتماع .

لماذا ؟ لأن الشقيق حينما يرنّ في أذنه إني أنا أخوك ، في هذه الصورة القوية من التعبير ، فنحن بصدد ضمير المتكلم المنفصل المؤكد للمتصل ، فإنه لن يستطيع تلقي هذا النبأ المفاجيء بهدوء . بل إنه يكادُ يصعق لهول المفاجأة ، تماماً كما حدث لإخوة يوسف وهم تسعة ، حينما فوجئوا بأن العزيز الذي أمامهم هو أخوهم يوسف بعد أن أماط اللثام عن حقيقة نفسه .

وعلى ذلك فلا يمكن أن يكون تعريف يوسف حقيقة نفسه لشقيقه تمّ في تلك الأثناء ، لأن ذلك معناه أن يعرفه إخوته ، وهذا شيء لم يأذن به الله تعالى .

وبما أن الإخوة كانوا جاهلين تماماً بحقيقة العزيز ، حتّى مجيئهم في الرحلة الثالثة متحسسين ، نزولا على رغبة أبيهم ، من يوسف وأخيه ، فمعنى هذا أنّ ما جاء على لسان العزيز « إني أنا أخوك فلاتبتئس بما كانوا يعملون » لم يكن بحضرة الإخوة بحال ، لأن معناها في غير صالحهم أيضاً .

ثم إن هذه الجزئية نفسها « فلا تبتئس بما كانوا يعملون » نعتقد أنها لم تصدر من يوسف إلا بعد حديث طويل مع شقيقه ، ومعرفةٍ منه شخصياً للمعاملة السيئة التي كان الإخوة يعاملونه بها .

ونعتقد أن الفعل الناقص من قوله تعالى:« بما كانوا يعملون » يرتبط بفترة زمنية لا يعرف يوسف ، من ذات نفسه عنها شيئاً(١) . إلا بعد حصوله على المعلومات من ذات الشقيق .

---

(١) الا اذا تم ذلك بإلهام من الله تعالى له ، كما عرف فى المستقبل عن كون والده يعقوب أعمى .

وتفسير ذلك أن علاقة يوسف بشقيقه انقطعت منذ أن ذهب الإخوة به ، وجعلوه في غيابة الجب ، حتّى الرحلة الثانية الّتي جاء فيها الشقيق .

وعرفنا أن يوسف حينما جُعل في غيابة الجبّ كان صغير السن حقاً . كما عرفنا أنه أكبر سنّاً من شقيقه . إذن لم يكن هذا الصغير الشقيق . قبل أن يُجعل يوسف في الغيابة ، مظنّة إساءة إخوته معاملته ؛ لصغر سنه من ناحية وانصراف اهتمام الإخوة إلى يوسف من ناحية أخرى .

ثم إن الإخوة حتّى أخذهم يوسف وإلقائه في الغيابة ، لم تكن معاملتهم ليوسف ظاهرة السوء . وإلا لرفض من ذات نفسه الذهاب معهم حتّى ولو أذن له والده .

ومن باب أولى ألا يعامِلَ الإخوة الشقيق معاملة سيئة للأسباب الّتي ذكرنا .

وعلى ذلك فإن يوسف لم يكن عنده علم بنوع المعاملة الّتي عومل بها شقيقه ، ومن ثمّ لم يكن بمقدوره أن يجيء على لسانه ، مشيراً إلى معاملة الإخوة السيئة ، قوله تعالى: « فلا تبتئس بما كانوا يعملون » إلا بعد حصوله على هذه المعلومات منه .

وسنحاول تحديد الفترة الزمنية الّتي ساءت فيها معاملة الشقيق . وليس هناك ما يمنعنا من الاعتقاد بأن هذه المعاملة اتخذت صورتها الحقيقية من الوقت الذي بدا فيه للإخوة إطاقة الشقيق لها .

ولا شكّ أنها بداية تعجلوا بها قبل أوانها ونضجها .

ودليلنا على ذلك أنهم سبق أن حمّلوا الصغير يوسف ما ليس في طاقته ووضعوه في المكان الذي لولا إنقاذ الله تعالى له لمضى كأمس الدّابر .

أما إلى أي وقت استمرت فيه هذه المعاملة السيئة القادرة على الإيذاء دون

القدرة على الرَّد ، فحتى أصبح الشقيق قادراً على الدفاع عن نفسه والانتصار لها .

ومن يدْري ؟ ربما كان من الأسباب التي جعلت نفس يعقوب تسمح له بإرسال الشقيق أنه رجلٌ في ريعان الشباب ، ولعله كان يتمتع بصحة ونشاط وحيوية ليست لجميع إخوته بلا استثناء ، فقد كان حينما سافر ، في حدود الثلاثين من عمره . وهذا يعني ضمناً أنهم لو فُرض أن نكثوا العهد وحاولوا الإيذاء فإنه في مقدوره أن ينتصر لنفسه ويعود بالتالي إلى والده .

إذن اتضح من كل ما سبق أن قوله تعالى:« إني أنا أخوك » جاء على لسان يوسف ، مخاطباً شقيقه ، حينما لم يكن واحد من إخوته بحضرته بل حينما لم يكن معهما ثالثٌ إلا الله تعالى . وأن قوله تعالى:« فلا تبتئس بما كانوا يعملون » جاء على لسانه بعد حديث طويل بين الشقيقين أما متى حدث ذلك وكيف ؟ فهذان شيئان يسيران جداً .

أما متى تم فالمعروف أن الإخوة جاءوا مصر بعد رحلة طويلة شاقة ، وهم على وشك القيام بالرحلة نفسها فهم في حاجة إلى الراحة والاستعداد وذلك يستغرق وقتاً .

فإذا عرفنا أن الإخوة في هذه الرحلة يشكلون جزءاً من القافلة ، فمعنى هذا أنهم مقيدون بوقت معين .

ومن السهل جداً التوفيق بين وقت الرحيل وما خطط له يوسف وشقيقه .

ولا ننسى أن العزيز كريم على حد ما جاء على لسانه « ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين » وذلك مما يجعل عندهم الاستعداد لقبول طول فترة البقاء .

أما كيف تم ذلك ؟ فما أسهله على كل من العزيز وشقيقه ! إذ نستطيع

أن نفهم أن يوسف اتفق مع شقيقه على أن يستبقيه عنده تمهيداً لجلب كل آل يعقوب إلى مصر .

كما أنهما اتفقا على الوسيلة التي يتم بها الاستبقاء ، دون أن يعلم الإخوة بحقيقة الاتفاق .

فمن المستبعد تماماً أن يوضع صواع الملك في رحل شقيق يوسف ، دون سابق علم منه . فكيف يدري الشقيق أن يوسف هو الآمر بوضعه في رحله ؟ وكيف يدري بالمغزى البعيد الذي يرمي إليه يوسف ؟

وهل من المعقول أن يفاجأ إنسان بتهمةٍ كبيرةٍ كهذه دون أن ينبس ببنت شفة ؟ خاصة وأنّ القضية لم تعالج في رفق إنما في صورة قوية من العُنف ، إنّ سكوته معناه صدق نسبة التهمة إليه ، أو أن هناك مفاهمة سابقة بألا يرفض هذه التهمة بل يسكت عنها لغرضٍ ما . وهو ما حدث فعلاً .

وضع السقاية فى رحل الشقيق :

قال تعالى : « فلمّا جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثمّ أذن مؤذّن أيتها العير إنكم لسارقون » .

ومتى يجهزهم العزيز ؟ بعد إنزالهم منزلا كريماً ، ومكثهم في كنفه ورعايته المدّة المقررة ، وبعد تزويدهم بكل ما يحتاجون إليه في سفرهم . وبعبارة أخرى : بعد أن قدّم لهم كلّ ما سبق أن قدمه لهم في المرة الأولى .

ونتساءل : من الذي قام بتجهيزهم الحسّي ؟ والجواب على ذلك أن المفروض أن يكون العزيز أصدر أمره بتجهيزهم ، والفتيان هم الذين قاموا بالتنفيذ أي التجهيز الحسى .

ومعنى هذا أن الفعل الماضي جهز من قوله تعالى:« فلما جهزهم بجهازهم» يفهم منه أن الأمر من العزيز والتنفيذ من الفتيان .

ونقيس على تلك الجملة الفعلية ، جملة جعل ، من قوله تعالى في الجزئية التي جاءت مباشرة:« جعل السقاية في رحل أخيه » فالذي يفهم ، أنّ الفكرة صدرت من العزيز ، والذي قام بتنفيذها فتى واحدٌ من الفتيان .

أما لماذا قام بها فتى ؟ فقياساً على ما حدث في المرة الأولى . قال تعالى عن يوسف:« وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون » .

وأما لماذا حُدد العدد هذه المرة بواحد ؟ فلأن هنا صواعاً واحداً ، سيوضع في رحل واحد . بينما في المرّة الأولى كانت الحاجة لوضع البضاعة في كلّ الرّحال .

ثمّ إن عملا هاماً كوضع الصواع في رحل شقيق يوسف يحتاج إلى تضييق دائرة من يعرفون ذلك السرّ إلى أبعد الدرجات لخطورة الأمور التي ترتبت على ذلك . والحكمة تقتضي ألاَ يعلمَ أكثر من شخصٍ واحد مؤتمن بذلك . ما دام أنه يستطيع القيام به منفرداً .

ونستطيع أن نفهم أن العير قد فصلتْ ، وافتقد الصواع ، وبحث عنه فلم يُعثر له على أثر ، وبما أن آخر جماعة كيل لهم به هم أبناء يعقوب ، وافتقد الصواع على إثرها مباشرة . وبما أنهم غادروا البلدة قبل برْهة وجيزة متجهين صوبَ ديارهم ، إذن فالذي يرجّح بعد التثبت من فقده وعدم أخذ شخص آخر له ، أن الصواع قد سرقته العير التي فصلت . إذن ينبغي أن يتتبعوا ويؤمروا بالوقوف ويفتشوا تفتيشاً دقيقاً .

وهنا اندفع مجموعة من المسؤولين المأمورين تجاه العير ، وصاح واحد منهم بأعلى صوته منادياً ، بل مكرراً النداء ، كما جاء في القرآن الكريم « ثمّ أذن مؤذّنٌ أيتها العير إنكم لسارقون » .

والذي يدل على أن هناك فاصلا زمنياً بين رحيل القافلة ، وأذان المؤذن حرف العطف ثمّ .

وحينما نتأمل ما جاء على لسان المؤذن ، فإنا نجده بليغاً موجزاً مؤلما ، فيه صراحة واضحة ، وفيه قوة . إنه يخاطبهم وجهاً لوجه مضمناً كلامه إن واللام المفيدتين للتوكيد . ولا يخفى أن خبر إن جاء في صيغة جمع المذكر السالم ، فكأن صفة السرقة لاصقة بكل أفراد القافلة ، ولم يكن بإمكانه إلا أن يقول ما قاله .

ونستطيع أن نفهم أنّ المؤذّن الذي صاح بأعلى صوته من الأعماق ، عز عليه أن يُسرق صواع ملكه . وأوحى إليه أن العير الّتي فصلت هي الّتي سرق أصحابها . ولا يخفى أن في الإيحاء له باستخدام صيغة الجمع مغزى بعيداً ، إذ يُبعد ظن الإخوة في المستقبل ، حينما يوجد الصواع في رحل شقيق يوسف ، عن محاولة إيجاد نوع من علاقة ، بين ما قد كان في الإمكان أن يجيء على لسان المؤذن : أيتها العير إن فيكم لسارقاً ، وبين وجوده عند شخصٍ واحد معين . إذ ربما قالوا لماذا جاءت صيغة المفرد على لسان المنادي ؟ ولم تأت صيغة الجمع مثلا . فمن الجائز جداً أن تكون هناك مجموعة من الأفراد قامت بسرقة الصواع .

وفي سبيل تبيين خفايا شخصيات هذا المشهد البليغ الموجز . نرى لزاماً علينا ابتداء توضيح بعض النقاط المسعفة لنا على الوصول إلى الهدف الذي ننشده :

أولا : يفهم من قوله تعالى:« ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون ، قالوا وأقبلوا عليهم . . » أن هناك مجموعة من المسؤولين المخولين رسمياً بالبحث عن صواع الملك .

ومن الجائز أن يكونوا من فتيان العزيز بل هذا هو الراجح ، والله أعلم ، للسبب الذي سنذكره بعد قليل ، وأن من بين هؤلاء المسؤولين المؤذن الذي كرر نداءه المعروف بتسريق أهل القافلة .

ثانياً : يفهم من هذه الآية الكريمة « قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به

حمل بعير وأنا به زعيم » أن جزءاً منها . بصيغة الجمع ، جرى على لسان المسؤولين « قالوا » وأن جزءاً منها بصيغة المفرد « وأنا » جرى على لسان المؤذن .

ثالثاً : سبق أن أشرنا إلى أننا فهمنا من حرف العطف « ثمّ » أن القافلة قد انطلقت في طريقها إلى فلسطين .

ونحب أن نضيف أننا نفهم من قوله تعالى على لسان الأخ الأكبر: « واسأل القرية التي كنا فيها » أن المؤذن والفتيان لم يدركوا القافلة إلا بعد أن قطعت مسافة طيبة وصلت إلى قرية ما في الطريق ، يقال إن اسمها « صوْعن » (١) ولا يمكن أن يراد بالقرية سكان المدينة التي فيها العزيز . لأنه في المناسبات الأخرى لم تستخدم لفظة القرية في الدلالة عليها ؛ فقد جاء مثلا قوله تعالى:« وقال الذي اشتراه من مصر » . وقال تعالى:« وقال نسوة في المدينة » ، وقال تعالى:« فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين » .

كما نحب أن نضيف إلى أننا نفهم من لفظة « العير » التي جاءت على لسان الأخ الأكبر في قوله تعالى:« واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها » أن الإخوة كان معهم في تلك الرحلة سواهم ، وهم الذين استشهد بهم هذا الأخ ، وكان بمرأى منهم ومسمع نداء المنادي والحوار الذي دار بين المسؤولين وفيهم المنادي وبين الإخوة .

كما نحب أن نضيف أننا نفهم من الحوار الذي دار بين الإخوة والمسؤولين أن الاتهام كان مقصوداً به الإخوة فقط ، فلعلهم قد كيل لهم الطعام آخراً ، على الرغم من أن النداء كان شاملا لكل أهل القافلة .

وتفسير ذلك أن المنادي لم يكن يستطيع أن ينادي في تلك الصورة . ثم إنه لم يكن يعرف أين مكان الإخوة في تلك القافلة ؟

---

(١) انظر مؤتمر تفسير سورة يوسف ٢ و ١٠٩٤ و ١١٢٩ .

ثم إن هناك اطمئناناً إلى أن الصواع في تلك العير بالذات وليس في سواها أو أي مكان آخر بحال .

كلّ هذه الأسباب مجتمعة جعلت المنادي ينادي في تلك الصورة التي أزعجت كلّ أهل العير . وقد تم تحت سمعهم وبصرهم جميعاً ، الحوار المعروف كما أنهم قد وصلت إليهم الأنباء الأكيدة بعثور الصواع في رحل الأخ الأصغر واسترقاقه .

ومن هنا جاز للأخ الأكبر أن يستشهد على صحة ما يقول الإخوة لأبيهم بأهل العير ، تماماً كما استشهد بأهل القرية .

ونعتقد أن المسؤولين عن البحث لم يكونوا ليلحقوا القافلة في تلك القرية بالذات لولا حساب العزيز الدقيق .

أما لماذا وقع اختيار العزيز على ذلك المكان المأهول بالناس بالذات ؟ فلأنه ارتبط به تشهير واضحٌ بما حدث . وفي ذلك إبعاد تامٌ للإخوة عن مجرّد الظن بأنّ في المسألة لسرّاً وجعلهم يعتقدون أن الأمور تسير سيراً طبيعياً لا تصنُّع فيه ؛ فإنه قد يكون من حقهم أن يظنوا ظناً ما .

أليسوا هم الذين وجدوا في المرة الأولى ثمن الطعام الذي اشتروه من مصر في كل رحالهم ؟

أليس من حقهم أن يتساءلوا من الذي وضع الثمن في كل رحالنا ؟

أليس من حقهم أن يعقدوا نوعاً من العلاقة بين وجود الثمن في رحالهم ووجود الصواع ؟ ولكن الذي حال بينهم وبين ذلك التشهيرُ الذي حدث على أوسع نطاق . وقد ذهل الإخوة ، بالتفكير في هذه المصيبة التي حلت بهم عن كل شيء آخر .

رابعاً : إن السبب الذي يجعلنا ننتهي إلى أن المسؤولين عن البحث هم من فتيان يوسف ، أنّهم كانوا مؤتمنين على أدق الأمور وأخطرها .

فهم الذين طلب منهم في المرة الأولى أن يضعوا في رحال الإخوة ثمن البضاعة .

وهم الذين وضعوا الصواع في المرّة الثانية أو واحد منهم بعبارة أدق .

ثم إننا حينما نتأمل ما جاء على لسان هؤلاء المسؤولين من قوله تعالى: « قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين » . بقصد أخذ الحكم على السارق من أفواه الإخوة وذلك كما هو معلوم بإيحاء من الله تعالى إلى يوسف قال تعالى: « كذلك كدنا ليوسف . ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله » . فإن ذلك يدل على أنّ هؤلاء السائلين إنما سألوا بإيحاء من يوسف الذي نبههم إلى ضرورة طرح هذا السؤال .

وكان يوسف على يقين من أن جواب الإخوة سيكون موافقاً لشريعة إبراهيم ، وليس موافقاً لقوانين المصريين الوضعية .

وما دام أن يوسف هو صاحب السلطة وأن فتيانه يستمدون سلطتهم من سلطته ، لذلك فالأقرب إلى العقل ، أن يُوحى يوسف بهذا السؤال إلى فتيانه وليس إلى أية سلطة أخرى ، خاصة وأنهم – كما أشرنا – مؤتمنون على كل صغيرة وكبيرة .

ونحن نود أن نتلو معاً ست آيات من هذا المشهد ، كي يتبين لنا أنها لا تتضمن أي حديث مباشر من يوسف لإخوته . قال تعالى: « فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون ، قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون ؟ قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم ، قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين ، قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ؟ قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين » .

خامساً : إن جملتي : « بدأ » و « استخرج » من قوله تعالى: « فبدأ

بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ، ثم استخرجها من وعاء أخيه » . تعودان كما هو واضح إلى شخص مفرد . وليس عندنا سوى المؤذن والعزيز اللذين يمكن أن يعود إليهما ضمير الجملتين ، كما يقول بذلك السياق .

ونريد أن نعرف بصفة أكيدة على من يعود الضميران فنتساءل : أيمكن أن يكون المراد المؤذن في هذه الآية « فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه ، كذلك كدنا ليوسف ، ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله ، نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم » ؟ والجواب بالنفي .

لماذا ؟ لأن تركيب هذه الجزئية « فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه » لا يهيىء لفهم كهذا ، فلو أن المؤذن هو المراد لجاء السياق في صورة كهذه « فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخي يوسف ثم استخرجها من وعائه » فدل عدم مجيء اسم يوسف في الظاهر أن الضمير في الفعلين لا يعود على المؤذن . وهذا يعني بالتالي أنه بالضرورة يعود على يوسف .

وقد يبدو لأول وهلة أن تحقيق من يعود عليه الضميران ليس من الأهمية بمكان ، ولكن الحقيقة غير ذلك .

إذ حينما يتضح أن الذي قام بالتفتيش الفعليّ هو يوسف عليه السلام وليس المراد بطبيعة الحال أنه قام بهذه العملية بنفسه لكن تحت إشرافه ، فهذا يعني أن سلطة الفتيان والمؤذن محدودة .

وهذا يعني أيضاً أن التفتيش لم يتمّ في القرية التي لحق المؤذنُ العير فيها ، ولكن في مدينة العزيز نفسها ؛ إذ من المستبعد تماماً أن يتحول العزيز إلى المكان الذي وصلت إليه القافلة بقصد البحث عن الصواع . فلا يتمشى هذا بالكلية مع الهيبة التي كانت للعزيز دائماً .

والأقرب إلى العقل أن يكون الإخوة هم الذين عادوا إلى المدينة ، والله أعلم .

وبناءً على ما سبق فإن قوله تعالى:« فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه » إلى آخر الآية يبدأ به مشهد جديد .

وبعد توضيح النقاط المسعفة على الوصول إلى تبين خفايا شخصيات هذا المشهد ، نعود إلى تأمل آياته ، كلٌ جزئية على حدة .

قال تعالى:« فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذن مؤذنٌ أيتها العير إنكم لسارقون ، قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون ؟ قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم » .

وقفنا عند الآية الأخيرة ، وانتهينا إلى أن قوله تعالى:« نفقد صواع الملك » جاء على لسان الفتيان وقوله تعالى:« وأنا به زعيم » جاء على لسان المؤذن .

وتبقى بعد ذلك هذه الجزئية بينهما « ولمن جاء به حِملُ بعير » على لسان مَنْ جاءت ؟ فلنتل الآية مرة أخرى . قال تعالى:« قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم » .

في الحقيقة من الجائز أن تكون استمراراً لقول الفتيان ، فيكون قد جاء على لسانهم:« نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير » .

ومن الجائز أن تكون قد جاءت على لسان المؤذّن ابتداءً ، فيكون قد جاء على لسانه « ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم » ، ونحن إلى هذا الرأي الأخير أميل . . لماذا ؟

لأن الإخوة قد أقبلوا بكليتهم على المؤذن لهول ما سمعوا . وكان كلامهم موجزاً « ماذا تفقدون » ؟ فاقتضى كلامهم الموجز الجادّ في هذا الظرف الحاسم ردّاً موجزاً جادّاً يكافئه « نفقد صواع الملك » ثم تلا ذلك كلام المؤذن الذي فيه شيء كبير من الإغراء والترغيب .

ويلفت انتباهنا إضافة الصواع للملك . ويستفاد من ذلك ما يلي :

١ ـ بما أن هذا الصواع ليس ملكاً لشخص بعينه وإنما هو ملك للدولة ورأس البلاد ، لذلك أضيف الصواع إليه .

٢ ـ إصرار الفتيان على إضافة الصواع لرأس البلاد دليل على ولاء هؤلاء الفتيان المطلق له .

فعلى الرغم من ارتباطهم التام بالعزيز ، إلا أنهم يعرفون تماماً أن العزيز سيدهم تبع لحاكم البلاد الأول . ولا نشك أن هذا الولاء من الفتيان صورة طبق الأصل من ولاء سيدهم لسيده .

٣ ـ لو أن جواب الفتيان على أهل العير المنزعجين تمام الانزعاج لتسريقهم « نفقد صواعاً » دون أن تأتي الإضافة ، لما كان جواب الفتيان مقنعاً لأهل العير بأحقية هؤلاء المسؤولين للاهتمام بهذا الصواع كل هذا الاهتمام والتشهير بكل أهل العير في تلك الصورة القوية من التعبير بأنهم سارقون ، بل وتوقيف العير وإعادتها من المكان الذي وصلت إليه إلى مدينة العزيز .

ولكن حينما يضاف الصواع إلى الملك « نفقد صواع الملك » فليس ذلك الجواب مقنعاً لأهل العير بكل ما يحدث فقط ، بل ومثيراً لاهتمامهم وحرصهم على دفع التهمة عنهم .

ونستطيع أن نفهم أن هذا الصواع ليس عادياً إنما هو من طراز معين لذا جاز إضافته إلى الملك .

٤ ـ حينما يجيء على لسان الفتيان « نفقد صواع الملك » ويعثر على ذلك الصواع في رحل الشقيق ، فإن الإخوة المذهولين لهول الصدمة لا يثير ما جاء على لسان الفتيان التفكير عندهم وقتاً من الأوقات لإيجاد نوع من علاقة بين كلام الفتيان من ناحية ، وبين العثور على الصواع هذه المرة في

رحل أخيهم ، وثمن البضاعة في المرة الأولى في رحالهم جميعاً . بخلاف ما لو جاء على لسان الفتيان مثلا « نفقد صواع العزيز » .

ومن يدْري ؟ ربما رن لفظ الملك في آذان الإخوة لأول مرة بعد فترات طويلة ، لأن علاقتهم دائماً بالعزيز وليست بالملك . فإن صحَّ هذا فهذا يعني أن اهتمامهم بالمسألة أكبر .

وعموماً فقد قلب هذا النداء ، وذكر السبب فرحة الإخوة رأساً على عقب .

فإذا انتقلنا إلى عبارة الإغراء والترغيب ، التي انتهينا إلى أنها أتت بجزأيها على لسان المؤذن أعني قوله تعالى:« ولِمنْ جاء به حِملُ بعير وأنا به زعيم » فإنا نلاحظ ما يلي :

١ – يبدو من هذا القول الاهتمام البعيد بالصواع والحرص على العثور عليه .

٢ – كما تبدو الرغبة في معالجة المسألة بطريقة ودية ، إن صحَّ أن هناك تجاوباً من المخاطبين .

٣ – يبدو من الجزئية الأولى « ولمن جاء به حمل بعير » ذكاء هذا القائل في اختيار الطعام جزاء لمن جاء بالصواع في الوقت الذي كانت فيه المجاعة في أوجها .

٤ – كمية الطعام التي اتخذت جزاء كبيرة جدّاً ، إنها حمل بعير .

وهذا دليل من ناحية ، على قيمة الصواع العالية .

ومن ناحية أخرى على الرغبة الأكيدة في استعادته مهما كان الثمن غالياً .

ويكفي أن نعرف أن الشخص الذي يأتي من أقصى الأرض لا يمنح أكثر من حمل بعير واحد ، حتى ولو كانت حاجته لأكثر من ذلك .

٥ ــ يبدو من هذه الجزئية « وأنا به زعيم » ثقة هذا المؤذن المطلقة في نفسه واطمئنانه إلى أنه بحكم منصبه والسلطة المخولة له ، قادرٌ على أن يفعل ما يقول . ونظن بناءً على ذلك أن المؤذن لم يكن شخصاً عادياً .

٦ ــ نستشف من هذه العبارة « ولمنْ جاء به حملُ بعير وأنا به زعيم » اعتقاد القائل بوجود الصُّواع لدى الذين يخاطبهم واحتمال مجيء واحد منهم به . فهذا هو الذي يفسر الإغراء والترغيب وإعطاء الوعد الأكيد .

٧ ــ كانت عبارة الإغراء والترغيب وتأكيد الجزاء مثار استفزاز بعيد المدى للإخوة . فقد فهموا أن المؤذن يعنيهم بما قال ، وأن الصواع لا محالة ، وأنه يُغريهم بالطعام الذي أتوا من مكان بعيد للحصول عليه . وإن تحديد الجزاء بحمل بعير ، طعنةٌ موجهةٌ في أفئدة الإخوة جميعاً .

٨ ــ نعتقد ، والله أعلم ، أن قوله تعالى على لسان المؤذن:« ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم » قول لم يكن ليخطر على بال المؤذن لولا أن العزيز أوحى إليه بأن يقول ما قال . فلا يمكن بحال أن يكون ذلك من قبيل المصادفة .

٩ ــ فهمنا أن الإخوة أرادوا أن يعودوا بعد جعل يوسف في غيابة الجبّ قوماً صالحين ، وقد عادوا قوماً صالحين بالفعل .

وحينما يتبين الإخوة الذين هذه صفتهم ، أن الكلام الأليم الصادر من الفتيان والمؤذن ، يكاد يكون مفصّلا عليهم ، فإن ذلك مزعج لهم تمام الإزعاج ، يطعن في خلقهم ويمرّغ في الرغام كبرياءهم .

وبطبيعة الحال لم يسكت الإخوة على هذه الإهانة الموجهة إليهم ، وهم أبناء نبي الله يعقوب ، المعروفون بالتقوى والورع . ولا يجهل الفتيان هذه الصفة فيهم ، ولذلك جاء عنهم قوله تعالى « قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسدَ في الأرض وما كنا سارقين » .

وحينما نتأمل ما جاء على لسان هؤلاء الإخوة ، فإنّا نجده مزيجاً من التعجب والاستغراب والدفاع عن النفس والاعتداد بها .

فنحن نجدهم يبدأون حديثهم بتاء القَسَم ولفظ الجلالة المُقسم به « تالله » ، ويلاحظ أن التاء تفيد التعجب زيادة على ما يفيده سواها .

فقد قال الزمخشري في قوله تعالى على لسان إبراهيم في سورة الأنبياء: « وتا الله لأكيدن أصنامكم بعد أن تُوَلوا مدبرين » : فإن قلت : ما الفرق بين الباء والتاء (يريد باء القسم وتاءه) ؟

قلتُ : إن الباء هي الأصل والتاء بدلٌ من الواو المبدلة منها ، وأن التاء فيها زيادة معنى وهو التعجُّب ، كأنه تعجّب من تسهُّل الكيد على يده وتأتيه لأن ذلك كان أمراً مقنوطاً منه لصعوبته وتعذُّره . ولعمْري إنّ مثله صعب متعذر في كل زمان ، خصوصاً في زمن نمروذ مع عتوه واستكباره وقوة سلطانه وتهالكه على نُصرة دينه ولكن : إذا الله سَنّى عقد شيءٍ تيسرا » (١) .

فهؤلاء الإخوة يتعجبون من الذين قالوا لهم ما قالوا دون أن يرعوا حُرمة لأمانتهم ودينهم المعروفين .

وقد كان بمقدور الإخوة أن يُقسموا فقط بالله العظيم وليس بسواه ، أليسوا بمسلمين لله رب العالمين ؟ بلى . وكانت اللام من قولهم « لقد علمتم » التي تفيد التوكيد ، هي جواب القسم ، وقد دخلت على قد التي تفيد التوكيد أيضاً (٢) وإن الفعل علم ، الذي جرى على لسانهم ليدلُ على ثقة هؤلاء الإخوة في صحة سلوكهم جميعاً ، وأن باطن كل واحدٍ منهم كظاهره ، لا يشكّون في كل ذلك مثقال ذرة .

---

(١) الكشـاف ٢/٣٣١ .

(٢) انظر مثلا كتاب اللامات للزجاجى ص ٧٨ و ٧٩ .

فهم مطمئنون إلى أن الجميع ، وفي مقدمتهم الفتيان والمؤذن ، عندهم صورة واحدة عنهم .

فكيف انقلبت هذه الصورة رأساً على عقب ؟

وكيف أباح هؤلاء لأنفسهم أن يخاطبوهم بهذه الجرأة الغريبة المفزعة ؟

إنهم ليعلمون يقيناً أننا لم نجيء مصر بقصد الإفساد في الأرض ولكن بقصد الامتيار .

لقد اتضح ذلك حينما أتينا في المرة الأولى للغرض نفسه وخرجنا بسلام ولم يحدث من أي فردٍ منّا أيُّ سوءٍ . وهذا دليلٌ بليغٌ على نقاء مَعدننا وطهر أنفسنا .

وقد علم كلٌّ واحد بحقيقتنا ، فكان الأولى أن يُقدّر لنا ذلك وألا نخاطبَ في الطريقة التي خوطبنا بها والتي صورنا فيها سارقين . وكأن الشيء الذي سُرق قد وجد في رحالنا فعلا .

يا لها من جرأة لا حدّ لها اتسم بها المؤذن .

إنه لا يجيء على لسانه : أيتها العير إنكم لمتهمون ، ولكن أيتها العيرُ إنكم لسارقون .

إنه حينما يقول ما يقول ويعضده الفتيان . أكانوا يجهلون حقيقة خُلقنا في المرة الأولى ؟ لا . . لم يجهلوا خلقنا .

هل سمعوا عنا شيئاً غير رأيهم فينا ؟ ومن الشخص أو الأشخاص الذين يعرفون عنا أي شيءٍ نحن الغُرباء .

هل كُنا جميعاً أو كان واحد منا يوماً من الأيام سارقاً ؟ يأبى الله ذلك والمسلمون لله رب العالمين .

وتأمل الفعل الذي جرى على ألسنة الإخوة في « علمتم » وليس هناك فعل آخر يجاريه في قوة الدلالة في هذا الموضع إذ أنه يدل على العلم اليقيني .

وإنه ليذكرنا بالفعل نفسه الذي جرى على لسان يوسف مخاطباً إخوته كاشفاً النقاب عن حقيقة ذاته « هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون » .

ونختم حديثنا عن هذه الآية بالقول : إن هذه الجزئية على لسان الإخوة « ما جئنا لنفسد في الأرض » تتعلق برحلتهم الثانية » التي مازالوا يقومون بها .

وإن هذه الجزئية « وما كنا سارقين » تتعلق بالماضي والحاضر . فإن الإخوة في ذلك الظرف الصعب أكثر ارتباطاً بالفترة الزمنية التي لهم فيها علاقة بالفتيان والمؤذن ، وأكثر تمثلا لها وتعلقاً بها مِنْ سواها .

والشيء الذي لا مراء فيه أيضاً أن كلام الإخوة في هذا المشهد يلفه الخلق الكريم الذي يتحلون به دائماً ما دام الأمر لا يتعلق بيوسف وأخيه .

إنهم حينما يقولون : « ماذا تفقدون » يفرضون على الفتيان أن يجيء على لسانهم « نفقد صواع الملك » فلا يجيء على لسانهم مثلا : سُرق منا صواع الملك » على الرغم من تصريح المؤذن بالتسريق ابتداءً .

ولانشك أن هذا الخلق الكريم الذي ظهر من حديث الإخوة والذي وجه حديث الفتيان وجهة معينة ، هو الذي وجه أيضاً حديث المؤذن وجهة أخرى مغايرة لحديثه الأول .

فإذا كان قد قال في جُرأة غريبة أولا: « أيتها العير إنكم لسارقون » فإنه لا يلبث بسبب جواب الإخوة اللطيف ، أن يتحول إلى الإغراء والترغيب والتعهد بتقديم المكافأة لمن جاءه بالصواع « ولمن جاء به حِملُ بعير وأنا به زعيم » .

ونلمس هذا الخلق الكريم أيضاً فيما جاء على لسان الإخوة بعد ذلك مباشرة « تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين » .

ومع أن رد الفتيان بعد ذلك فيه شيء من عنف ، إذ صرّحوا باحتمال

كذبهم « فما جزاؤه إن كنتم كاذبين » ، إلا أن جواب الإخوة عليهم كان يلفه شيء كبير من الخلق العظيم والثقة التامة في براءة ساحة كلّ منهم والتمسك بحبل الدين المتين .

وسننعم النظر في هاتين الآيتين مليّاً « قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ، قال جزاؤه من وُجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين » .

ونتساءل : علام يعود الضمير في قول المسؤولين « فما جزاؤه » ؟ هل يعود على شخص معين أم أنه يعود على الصواع ؟ .

وللجواب على ذلك نقول : لو ذهبنا إلى أن الضمير يعود على شخص واحد معين ، ويتضح في النهاية أن الصواع وجد عند شخص واحد معين . فكأن المسؤولين الذين نظن أن بعضهم على علم بموضع الصواع يسمحون للإخوة مستقبلا وهم الذين وجدوا في المرة الأولى ثمن الطعام أن يتساءلوا . هل هناك نوع من علاقة بين ضمير المفرد هنا وأخيهم المفرد الذي وُجد الصواع في رحله ؟ .

ولو فرض أن هؤلاء الفتيان لم يعلموا بحقيقة موضع الصواع . وهذا جائز عقلا ، وقد عرفنا رغبة الفتيان في العثور على الصواع عند الإخوة بالذّات ، فالأقرب إلى المنطق لو أنهم أرادوا بالضمير غير الصواع أن يستعملوا ضمير جماعة المخاطبين : فما جزاؤكم إن كنتم كاذبين ، خاصة وأنّ لدى المسؤولين جرأة في الخطاب واضحة .

وحينما يستعمل المسؤولون ضمير المفرد الغائب فقد دلّ ذلك على أنه يعود على الصواع وليس على سواه ، وأن معنى قوله تعالى على لسانهم : « فما جزاؤه إن كنتم كاذبين » ؟ فما جزاء سرقة الصواع إن وجدنا الصواع عندكم وثبت كذبكم ؟ والله أعلم .

وما قيل عن ضمير المفرد الغائب هنا يقال عنه في هذه الآية على لسان الإخوة : « قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه ، كذلك نجزي الظالمين» .

فالضمير من « جزاؤه » يعود بطبيعة الحال على الصواع . والمعنى ، جزاء سرقة الصواع ويكون « جزاء » مبتدأ خبره « من وجد في رحله » والمعنى ، أخذ من وجد في رحله .

وقولهم : فهو جزاؤه . تقرير لحكم ، أي فأخذ السارق نفسه هو جزاؤه لا غير ، كقولك : حق زيد أن يكسي ويطعم وينعم عليه فذلك جزاؤه أو فهو حقه لتقرر ما ذكرته من استحقاقه ، قاله الزمخشري (١) » .

وختم الإخوة حديثهم بهذه الجزئية «كذلك نجزي الظالمين » . والمعنى : هذا هو الجزاء الذي يستحقه السارق في شريعتنا العبرانية الإبراهيمية (٢) وخلاصته أن جزاء الشيء المسروق هو نفس السارق الذي يؤخذ كعبد لمدة سنة .

ويلاحظ أن الإخوة يجيء على لسانهم « من وجد في رحله » ولا يجيء مثلا : « من سرق » وكلامهم رد على الفتيان الذين وجهوا إليهم تهمة السرقة علناً .

وكان الإخوة على يقين أنهم من هذه التهمة بُرآء . فلم يشاءوا أن ينزلوا بأسلوبهم عن المستوى الرفيع الذي يساوي ثقتهم في طهر ذيل كل واحد منهم ، فجاء على لسانهم « من وجد في رحله » أولا ، وجاء على لسانهم « كذلك نجزي الظالمين » ثانياً .

فلم يجيء على لسانهم مثلا : كذلك نجزي السارقين .

فدل فرارهم إلى الظلم عن السرقة على سمو منزلتهم .

وبما أن المراد بالظالمين السارقون ، ولم يحدث أن اتهم واحد منهم بشيء كهذا ، فدل ذلك على أن حديثهم يتعلق بسواهم وليس بذات أنفسهم.

---

(١) البحر المحيط ٥ ـ ٣٢١ .

(٢) مؤتمر تفسير سورة يوسف ٢ ـ ١٠٨٥ .

والحقيقة أن هناك أكثر من سؤال حول هذا المشهد نحبّ أن نجيب عن كل منها منفرداً .

والسؤال الأول هو أننا استنتاجاً من قوله تعالى على لسان الأخ الأكبر : « واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها » انتهينا إلى أن الإخوة كانوا بالضرورة في قافلة ، ولم يشكلوا من ذات أنفسهم فقط تلك القافلة .

فكيف نوفق بين هذه الحقيقة والحقيقة الأخرى التي نستنتجها من الحديث الذي وُجه إلى أهل العير على لسان المؤذن والفتيان وهي أن السياق يوحي بأن كل الأجوبة التي حصل عليها المؤذن والفتيان كانت من الإخوة فقط ؟ .

والجواب على ذلك أنه ليس هناك ما يمنع أن يكون الإخوة يشكلون أكبر كتلة متماسكة في القافلة ، وأكثر من في القافلة تمسكاً بأهداب الدين وآخر من كيل له الطعام من القافلة ، خاصة وقد عرفنا من إكرام العزيز للإخوة أنه كان يعطيهم من الطعام ما يكفيهم حتى يصلوا إلى بلدهم دون الحاجة إلى مس الرحال . بدليل أنّ الإخوة في المرّة الأولى وجدوا بضاعتهم في رحالهم بعد أن وصلوا إلى بلدهم بالفعل .

لكل ما سبق كان انزعاج الإخوة أكبر من كل فرد في القافلة ، بسبب ما جاء على لسان المؤذن « أيتها العير إنكم لسارقون » فتصدوا هم للردّ . وصح أن تؤخذ شهادة الباقين .

والسؤال الثاني هو أننا حينما نتأمل ملياً الحديث والتساؤلات وتصرف المؤذن والفتيان مع الإخوة ، فهل في إمكاننا أن ننتهي إلى أن هؤلاء المسؤولين قد قاموا بكل ذلك من عند ذات أنفسهم ؟

والجواب على ذلك هو أن كلام المسؤولين ينقسم إلى قسمين :

(أ) قسم يمكن أن يقال فيه إنهم قاموا به من عند ذات أنفسهم . وهذا ينتهي بقول المؤذن: « وأنا به زعيم » .

(ب) وقسم لا يمكن أن يقال فيه إنهم قاموا به من عند ذات أنفسهم . وهذا يشمل سؤال القائلين : « فما جزاؤه إن كنتم كاذبين » ؟

أما لماذا لا يستطيع المسؤولون أن يسألوا سؤالا كهذا من عند أنفسهم ؟

فالجواب على ذلك أن هذا السؤال هو محور الكيد ليوسف عليه السلام . في قوله تعالى : « كذلك كدنا ليوسف ، ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله ، نرفع درجات من نشاء وفوق كلّ ذي علم عليم » .

فدل هذا على أن هذا السؤال إنما تنبه إليه المسؤولون عن طريق نبي الله يوسف ، الذي انتهى إليه بدوره عن طريق الوحي .

لقد شاءت إرادة الله تعالى أن تكيد ليوسف بإبقاء شقيقه عنده جزاء وفاقاً للإخوة على كيدهم ليوسف من قبل .

وما أسهل وضع الصواع في رحل الشقيق !.

وما أسهل اتّهام الإخوة بالسرقة !.

وما أسهل تفتيشهم والعثور على الصواع في رحل الشقيق !

ولكن ما أصعب استبقاءه عند يوسف ! لأن جزاء السارق في عرف المصريين أن يغرم مثليْ ما أخذ لا أن يلزم ويُستعبد (١) ، أما في آل يعقوب فأن يسترقّ سنة (٢) .

وإنما فطن يوسف عليه السلام إلى هذه النقطة المهمة ، بإيحاء من الله تعالى ، وألقى بها هو بدوره في روع المسؤولين .

ومن هنا جاء على لسانهم هذا السؤال : فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ؟

---

(١) الكشاف ١٤٨/٢ ، ومؤتمر تفسير سورة يوسف ١٠٨٦/٢ .
(٢) الكشاف ١٤٨/٢ .

لأن القصد منه حملُ الإخوة على اختيار الحكم الذي يطبقونه في شريعتهم .

وأنى للمسؤولين أن يفطنوا إلى مغزى بعيد جداً كهذا ؛ لو لم يكن يوسف عليه السلام قد نبههم إليه .

وبما أننا انتهينا إلى أن هذا السؤال ، الذي يشكل القسم الثاني من حديث المسؤولين ، لم يقوموا به من عند أنفسهم ، فإنا نستطيع أن نقول أيضاً إن القسم الأول من الحديث في مادته وطريقة إلقائه كان بإذن بل إغراء من يوسف .

بل إننا نستطيع أن نقول : إن يوسف هو الذي طلب من المسؤولين أن يتم تفتيش الإخوة بحضرته ؛ وليس في المكان الذي ينادَى عليهم فيه كما يقضي بذلك العرْف .

والسؤال الثالث هو : أكان بإمكان الإخوة أن يكون جوابهم غير الذي جرى على لسانهم « جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه ، كذلك نجزي الظالمين » ؟

والجواب على ذلك أن هناك سبباً رئيسيّاً جعل هذا جواب الإخوة . هذا السبب هو أنهم كانوا على ثقة تامة من أنهم جميعاً بريئون من هذه التهمة التي وجهت إليهم .

لماذا ؟ لأنهم واثقون من صلاح كل فرد منهم .

ألم يجيء على لسانهم قبل جعل يوسف في غيابة الجب قوله تعالى : « اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين » ؟

وها هم أولاء قد عادوا فعلا قوماً صالحين . وبما أن شقيق يوسف لم يكن واحداً منهم حينما تخلصوا من يوسف ، إذن هو شخص صالح أصلا ، لم يتورط في مثل الجريمة التي تورطوا فيها . وبالتالي هو أولى من إخوته لأبيه بالابتعاد عن تهمة كهذه .

وكأن الإخوة قد فهموا من هذا السؤال « فما جزاؤه إن كنتم كاذبين » ؟ ما جزاء سرقة هذا الصُّواع من قِبل شخص من سواكم ؟

وكان جوابهم مبيناً حد السارق في شريعة آل يعقوب عليه السلام .

ويلاحظ أنهم في ذكرهم لحد السارق في الشريعة الإبراهيمية ، يكتفون بالقدر الضروري من الحديث الذي يفهم منه أنهم لا يرتضون بذلك الحد بديلا .

إنهم لا يذكرون ذلك الحد بالتفصيل بأن يشيروا مثلا إلى استرقاق السارق لمدة سنة .

وهم إنما فعلوا ذلك اطمئناناً منهم إلى أن قصدهم معروف . « جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه ، كذلك نجزي الظالمين » .

ونود أن نسأل سؤالا افتراضياً متفرعاً من السؤال السابق هو : هبْ أن الإخوة اعتقدوا احتمال أخذ واحد منهم للصواع . أيكون جوابهم هو السابق أم أنهم سيختارون الحكم المصري الوضعي ؟ إن صح أنهم أو أن بعضهم كان على علم بذلك الحكم .

والجواب على ذلك – ولا يخفى أننا ما زلنا في دور الافتراض – أن الصالحين منهم لن يختاروا غير حكم الشريعة الإبراهيمية بعكس غير الصالحين الذين ربما اختاروا الحكم الآخر .

ولكنّ الشيء الذي نودّ تأكيده أن كل أبناء يعقوب بلا استثناء كانوا قمة في الطُّهر والصلاح ، وبالتالي لا ينتظر منهم البتة جواب غير هذا الجواب ، والله أعلم .

والسؤال الرابع والأخير ، وثيق الصلة في حقيقته بالثالث ، وهو : أكان بإمكان يوسف عليه السلام ألاّ يسأل إخوته هذا السؤال « فما جزاؤه إن كنتم كاذبين » ؟

والجواب على ذلك ذو شقين :

الشق الأول : تتبينه في قوله تعالى : « كذلك كِدْنا ليوسف ، ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله ، نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم » فدل ذلك على أن هذا السؤال الإلهاميَّ ضروري . فلولاه لما نجحت الخطة ولما استطاع يوسف أن يبقي شقيقه عنده .

والشق الثاني ، يتضح من القول التالي : لا شك أن نبي الله يوسف عليه السلام ، كان يدعو الناس إلى دين الله ، وكان حريصاً على دخولهم في دين الله أفواجاً .

أليس هو الذي جاء على لسانه مخاطباً الفتيين في السجن قوله تعالى: « يا صاحبي السجن أأرباب متفرّقون خير أم الله الواحد القهار ، ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

ولا شك أيضاً أنه عليه السلام كان حريصاً على تطبيق الشريعة الإبراهيمية بحذافيرها .

والآن نتساءل : لو فرض أن يوسف عليه السلام لم يسأل سؤالا كهذا فما معنى هذا ؟ معناه أن الحكم الذي تقول به الشريعة الإبراهيمية يعطل في حق أتباع الشريعة الإبراهيمية نفسها ، ويطبق القانون الوضعي . وهذا الشيء لم يكن ليحدث البتة من يوسف عليه السلام ، ودل ذلك بالتالي على أن هذا السؤال بإيحاء منه عليه السلام « فما جزاؤه إن كنتم كاذبين » كان سؤالا حتمياً .

نفوس الاخوة غير صافية تجاه الشقيقين :

قال تعالى:« فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ، ثمّ استخرجها من وعاء أخيه ، كذلك كدنا ليوسف ، ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله

نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم ، قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ، فأسرّها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم ، قال أنتم شرٌّ مكانا والله أعلم بما تصفون » .

لقد كان طبيعياً أن يبدأ يوسف بتفتيش أوعية الإخوة قبل الشقيق .

كما كان طبيعياً أن توجد السّقاية في وعاء الشقيق .

فما ردّ الفعل عند الإخوة ؟ قال تعالى: « قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل » .

ونلاحظ على هذا القول ما يلي :

١ — هذا القول على لسان الإخوة ، دليل على أن الخدعة قد انطلت عليهم ، وأن تنفيذها لغاية في الاتقان . فهذا قول واثق من أن الأمور كلها تسير سيراً طبيعياً وأن شقيق يوسف سارق فعلا .

٢ — أخرج هؤلاء الإخوة قولهم في يوسف وشقيقه في صورة المتحقق من سرقة كل منهما ، وكأنهم قالوا إن سرق بنيامين الآن فلا غرابة في ذلك ، إذ أنه يحذو حذو شقيقه يوسف « كبرت كلمة تخرج من أفواههم » .

٣ — من حقّ الإخوة أن ينزعجوا لهول الصدمة ، بسبب ظاهر السرقة الذي ثبت . ولكننا لا نجدهم في هذا الظرف العصيب ، يتحدّثون كإخوة ، ولكن كأعداء متباعدين متباغضين .

ولو أن هناك شيئاً من مودة لأخيهم ، لكان منهم كلام غير الذي جرى على لسانهم تماماً .

ومهما كان تأثر الإخوة مما يجري ؛ فليس من حقهم مطلقاً أن يكون هذا تعليقهم الذي أخذ مأخذ الشماتة .

٤ — حينما جرى هذا القول على ألسنتهم لم يكونوا متمثلين بعدُ للعهد الذي سبق أن آتوه والدهم ليأتنه بأخيهم إلا أن يحاط بهم . ففهم من

كلامهم أن أخاهم يستحقّ ما يحلّ به بسبب سوء صنيعه .

٥ ـ كان الإخوة متهيئين بسبب حسدهم ليوسف لتذكره في كلّ ظرف سيء . وعلى الرّغم من طول العهد بيوسف إلا أنه كان قريباً من ذاكرتهم جميعاً في هذه اللحظة العصيبة .

٦ ـ لم يكن الإخوة ليتورعوا عن قذف المظلوم يوسف بالسرقة ، وأن يلبسوه ما ليس له .

٧ ـ يبدو سوء طويتهم من مساواتهم أخذ صنم يُعبد من دون الله والتخلص منه ، وهو العمل الذي قام به يوسف . بظاهر السرقة التي لصقت ببنيامين .

٨ ـ يبدو سوء طويتهم من مساواتهم العمل الذي يقوم به غلامٌ صغير غير مكلف بالعمل الذي قام به في الظاهر رجلٌ في حدود الثلاثين من عمره .

٩ ـ يبدو من قولهم : « له » بإنهم كانوا ما زالوا مصرّين على اعتبار يوسف وشقيقه كتلة قائمة بذاتها ، بينما هم جميعاً يمثلون كتلة أخرى .

١٠ ـ لم يجيء على لسانهم لفظ الأخ معرّفاً ، فلم يقولوا : فقد سرق أخوه من قبل . ولكن جاء منكراً « أخ له من قبل » لأن الحاضرين ، في اعتقادهم ، يجهلون أن له شقيقاً اسمه « يوسف » ثم إن عهدهم به قد طال ، ولعلهم كانوا يعتقدون أنه مضى كأمس الدّابر .

والذي يساعد على هذا الفهم قولهم : « من قبل » .

ومن يدري ؟ ربما كان لإحساس الإخوة ببشاعة العمل الذي قاموا به تجاه يوسف ، وشعورهم بالخزي من جراء ذلك ، دوراً في مجيء الأخ منكراً وليس معرّفاً ، فكأنهم حينما يُضطرون إلى الحديث عنه يلمسونه برؤوس ألسنتهم .

ومن يدري أيضاً ؟ ربما خافوا أن يطلب العزيز هذه المرة منهم . بناءً على

هذا القول ، أن يأتوه بأخ آخر لهم من أبيهم إن أرادوا الطعام مستقبلا . ألم يطلب مثل هذا الطلب منهم في المرة الأولى ؟

ولكن المسألة مرت هذه المرة بسلام ، لأن يوسف الذي سيبقي شقيقه عنده قد ضمن عودة إخوته إليه مرة ثالثة ، لأنه كان على يقين من أن والدهم سيرغمهم على ذلك .

فإذا انتقلنا إلى الجزئية التالية من الآية: « فأسرها يوسف في نفسه ، ولم يبدها لهم » فإنا نجد ضمير التأنيث من « فأسرها » و « لم يبدها » قد استنفد شيئاً من جهد المفكرين . فذهب البعض مثلا إلى أنه يعني الكلمة أو المقالة التي تمتم بها يوسف في قرارة نفسه ، والتي تشكل الجزئية الثالثة من الآية « قال أنتم شرمكاناً ، والله أعلم بما تصفون » .

وذهب بعضهم إلى أن ضمير التأنيث يعني الحزازة التي حدثت في نفسه من قولهم(١) وكراهية مقالتهم(٢) .

ونحن إلى الرأي الأخير أميل . لمـــاذا ؟

لأن قولهم عن يوسف: « فقد سرق أخ له من قبل » تهمة لا يُطيق احتمالها الإنسان العادي ، فكيف بنبي الله يوسف ؟ .

ومع ذلك فقد كظم غيظه ، وتجرَّع مرارتها عليه السلام ، وأسر الحزازة في نفسه ، ولم يُبْد الكراهية لهم امتثالا منه لإرادة الله تعالى ، التي لم تأذن له بعد في كشف النقاب لهم عن حقيقة نفسه .

وهكذا يضرب يوسف عليه السلام المثل الأعلى في الحلم .

وبناءً على هذا الرأي تكون الجزئية الأخيرة من الآية « قال أنتم شرٌّ مكاناً والله أعلم بما تصفون » مستقلة بذاتها . والآن حان الانتقال إليها .

إن المتأمل لهذه الجزئية ينتهي إلى أنها ذات شقين :

---

(١) انظر البحر المحيط مثلا ٥/٣٣٣ .
(٢) البحر المحيط ٥/٣٣٤ .

الأول: « أنتم شرّ مكاناً » . والثاني: « والله أعلم بما تصفون » .

وحينما نتلو الآية كاملة بكل جزئياتها « قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم ، قال أنتم شرّ مكاناً ، والله أعلم بما تصفون » يتضح أن الشق الأول من الجزئية الأخيرة « أنتم شرٌّ مكاناً » ردٌّ فعل من يوسف على إخوته الذين تضمن تعليقهم القول:« إن يسرق » والمراد « إن يسرق بنيامين الآن في الحقيقة . كما يتضح أيضاً أن الشق الثاني من الجزئية الأخيرة « والله أعلم بما تصفون » ردّ فعل من يوسف على إخوته الذين جاء بعد تعليقهم السابقمباشرة القول : «فقد سرق أخ له من قبل» . والمراد بطبيعة الحال : فقد سرق شقيق له اسمه يوسف من قبل .

فكأن الجزء الأول من التعليق خاص ببنيامين .

والجزء الثاني منه خاص بيوسف .

وكذلك كان رد الفعل عند يوسف ، فإن شقّي الجزئية الأخيرة ردّ فعل للحزازة التي تولدت في نفسه لتعرّض الإخوة لشقيقه وله على التوالي .

ومعنى « أنتم شرٌّ مكاناً » أنتم في الحقيقة شرّ منزلةً من أخيكم بنيامين الذي تشمتّم به بسبب ظاهر السرقة التي اعتقدتم ببساطة حقيقتها .

وإن السبب الذي من أجله أنتم تحتلون هذه المنزلة ، هو ما سبق أن قمتم به معي حينما جعلتموني في غيابة الجب وأنا صغير السن حقاً بقصد التخلُّص مني حسداً منكم لي وبغياً عليّ .

إنكم قد استعظمتم هذه السرقة التي سيتضح لكم مستقبلا أنها خدعة قد انطلت مني وأخي عليكم ؛ إذ يأبى الله تعالى أن يكون ابن نبي الله يعقوب وأحبُّ أبنائه إليه بعدي سارقاً . ولم تستعظموا ما قمتم به تجاهي من محاولة إزهاق نفس حرم الله قتلها إلا بالحق .

كيف انطلت عليكم ، وأنتم الأذكياء الألمعيون ، نسبة السرقة إلى ابن من أبناء يعقوب نبي الله ؟

إن الذي جعل تهمة كهذه تجوز عليكم أنها صادفت هوى في أنفسكم ، ووجدت تربة صالحة في أفئدتكم .

ومعنى « والله أعلم بما تصفون » الله تعالى ، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، أعلم بحقيقة كذبكم الممثل في زج أخيكم من أبيكم بتهمة السرقة علناً وعلى رؤوس الأشهاد ، دون أن تتحرك ضمائركم وتحول بينكم وبين زج ابن من أبناء نبي الله يعقوب ، وأخ لكم ، بهذه التهمة الخطيرة التي لا يمكن أن تصدر من ابن نبي لم يطل ما بينه وبين نبي الله وخليله إبراهيم عليه السلام .

إن الله جلّ وعلا أعلم بحقيقة ما قلتم مما لم ترتح نفسي إليه ، ولم ترض عنه بل وترفضه رفضاً باتّاً عنيفاً .

ويبقى بعد ذلك سؤال هام : هل قال يوسف عليه السلام لإخوته: « أنتم شرٌّ مكاناً والله أعلم بما تصفون » في قرارة نفسه أم قاله علناً وعلى رؤوس الأشهاد .

وفي سبيل الإجابة نتساءل : لو فُرض أن يوسف عليه السلام ، قال ذلك لإخوته علناً ، فما الذي يمكن أن يفهمه الإخوة من ذلك ؟ وهل هُم مهيأون لتلقي كلام كهذا ؟ أم أنه كلام يعتبر طفرة ليس لها مقدمة تهيّيء لها وتفضي إليها .

والذي يبدو لنا ، والله أعلم ، أن الإخوة لو سمعوا هذا الكلام من يوسف لما خطر على بالهم بتاتاً المعنى الذي سبق أن أشرنا إلى أن يوسف أراده . وبالتالي لاعتبروا هذا الكلام هجوماً سافراً عليهم . ودفاعاً حارًّا عن أخيهم يوسف الذي اتهموه بالسرقة . وكل ذلك لا مبرر له تماماً في اعتقادهم .

والذي يجعله لا مبرر له أن العزيز كان معهم قمة في حُسن المعاملة ولطف الحديث . فمن غير المعقول في اعتقادهم ، وهم الذين تورطوا بسبب أخيهم في هذه المشكلة ، أن يفاجئهم العزيز بهذا الكلام الجاف الخشن ، الذي يصور

العزيز وقد تحول كلامه من غاية في اللطف إلى غاية في الخشونة والعنف .

ولا يمكن بحال من الأحوال أن نعتبر الحوار الذي دار بين المسؤولين بالبحث عن الصواع ، وبين الإخوة توطئة لكلام كهذا من العزيز . فلم يكن طرفاً في ذلك الحديث وإن كان بإيحاء منه .

ثم إن الإخوة لو فرض أنهم سمعوا هذا الكلام من العزيز الذي لا يمكن أن يصدر إلا من يوسف ، فهل معنى هذا أنهم سيتبينون حقيقة يوسف ؟ ولكن ذلك شيء لم يأذن به الله تعالى بعد .

وهل يستطيع يوسف أن يتفوه بشيء يُفضي إلى ما لم يأذن له الله تعالى به ؟ لا . لن يستطيع .

وهل يُعجز نبيَّ الله يوسف الحليم أن يكظم غيظه ويتحكم في لسانه ؟

لا . . لا يعجزه هذا ولا ذاك .

إذن ننتهي بعد ذكر كل ما سبق ، إلى أن يوسف إنما قال : « أنتم شرٌّ مكاناً والله أعلم بما تصفون » في قرارة نفسه وأن الإخوة لم يسمعوا ذلك منه أبداً .

ويكون بالتالي هذا القول في السرّ منه : « أنتم شرٌّ مكاناً والله أعلم بما تصفون » امتداداً للحزازة التي تولدت في نفسه من اتهامهم له بالسرقة وكراهة ما قالوا عنه بصدد ذلك ، دون أن يُبين لهم ببنت شفة عن هذا وذاك ، كما قال تعالى : « فأسرّها يوسف في نفسه ولم يُبدها لهم » .

ومما قد يساعد على أن الإسرار كان من نصيب القول كما كان من نصيب الحزازة عدم ابتداء الجزئية الأخيرة بواو العطف مثلا ، فلم تجيء في هذه الصورة مثلا : وقال أنتم شرٌّ مكاناً . . ، كي يقال إن الواو تعني حالا آخر .

وإذا كان يوسف قد جعل كلامه الذي يصف بالحق فيه إخوته ويدفع

التهمة عنه ، قد جعله في نفسه سراً ، فإنه كان بإلهام من الله تعالى على يقين من أنه قادرٌ على أن يكيد لهم بالفعل جزاءً وفاقاً لسوء صنيعهم معه بالإيذاء سابقاً ، وتهمة السرقة لاحقاً .

الانكسار النفسي يتمكن من الإخوة :

قال تعالى: «قالوا يا أيّها العزيز إنله أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه ، إنّا نراك من المحسنين » .

وأول ما يلاحظ على هذه الآية أن الإخوة لم يفكروا مطلقاً في مناقشة نوع الحكم الذي يعرفون أن أخاهم يستحق أن يطبق بحقه .

وهذا دليلٌ على أن أبناء يعقوب عليه السلام قمة في التمسُّك بأهداب الدين ، ما دام أن الأمر لا يتعلق بيوسف وشقيقه .

وهذه الآية تدل أيضاً على أن الإخوة الذين شطحوا أول الأمر إلى اتّهام يوسف بالسرقة ، لأنه شقيق أخيهم المتهم بها ، قد عادوا سريعاً للتنبيه إلى حقيقة المشكلة التي تورطوا فيها .

إنهم سيعودون دون أخيهم من أبيهم .

وأين الموثق الذي أعطوه والدهم ؟

وكيف سيتلقى يعقوب هذا النبأ ؟

وهل سيصدق قولهم في وصف ما حدث فعلا ؟

ومتى يمكن ليعقوب أن يقتنع بأن ما حدث يدخل تحت استثنائه « إلا أن يُحاط بكم » وأنه قضاءٌ من الله تعالى وقدر لا يد لهم فيه ولا قدرة لهم على دفعه ؟

وهنا نجد الإخوة يبدأون حديثهم بالقول:« يا أيُّها العزيز » . ولا يخفى أن هذا القول يشمل تقديراً كبيراً من الإخوة للعزيز ، وإكباراً عظيماً منهم له.

وربما يقف وراء ذلك أن الإخوة قد تلقوا من العزيز كلّ إكرام وتبجيل ، ولم يسمعوا منه هُجراً من القول ، بما في ذلك هذه الجزئية التي رجحنا أنها قيلت في السر: « قال أنتم شرٌّ مكاناً والله أعلم بما تصفون » .

وواضح أنه يجيء على لسان الإخوة مباشرة « إن له أباً شيخاً كبيراً » ولا يجيء على لسانهم : إن لنا أباً شيخاً كبيراً .

فلماذا جيء بضمير المفرد الغائب هنا ؟

والجواب على ذلك أن هذه المسألة تخصّ بطريق مباشر أخاهم من أبيهم فقط ، فهو الذي سيبقى في مصر . أما هم فأحرار يفعلون ما شاءوا .

ثمّ إن هذه الجزئية التي فيها ضمير المفرد الغائب « إن له أباً شيخاً كبيراً » حينما يجيء بعدها مباشرة هذه الجزئية « فخذ أحدنا مكانه » نفهم أن هذا الأخ الذي يستحق الاسترقاق بسبب ما اقترف ، خليق بأن يفتقده والده الشيخ الكبير الفاني ، وأن يحزن لعدم عودته إليه لأنه يحبه حباً جماً .

ونستطيع أن نفهم هنا بأن هذا التلميح بحب يعقوب لأخيهم أكثر من حبه لهم ، لا يمكن أن يكون بحال نهاية ما كان يدور بخلد الإخوة ، بل يجب أن تكون في تلك الأثناء صدورهم تغلي حقداً على السبب الأول لكل بلاءٍ حل بهم ، ألا وهو أخوهم من أبيهم ، أعني يوسف .

فما الذي جعل لبنيامين ، أصغر أبناء يعقوب ، كل هذه المنزلة عند والده ؟

غياب يوسف ، وهم يعرفون تماماً السبب في غيابه ، ألا وهو حسدُهم له .

وإنما لجأ الإخوة في التعبير عن حب يعقوب لبنيامين ، إلى الإشارة الخفية ، لأنهم إنما يخاطبون العزيز ، الذي عنده علم منذ الرحلة الأولى ، بالمنزلة التي يحتلها هذا الابن في قلب والده . وإلا كيف طلب منهم ، بل أصر أن يأتوه بأخ لهم من أبيهم إن أردوا طعاماً مرة ثانية ؟

ثم هم قد جاء على لسانهم في حوارهم مع العزيز قوله تعالى:« قالوا سنراود عنه أباه وإنّا لفاعلون » فدلّ ذلك على المنزلة الرفيعة لهذا الابن في قلب والده .

وحينما نتأمل ما جاء على لسان الإخوة « إنّ له أباً شيخاً كبيراً » نتبين أن الإخوة قد أدركوا ما يعنيه عدم عودة أخيهم معهم بالنسبة لأبيهم الشيخ الكبير الفاني ، وإذا بهم في لهجة كلها استعطاف يصفون حال هذا الوالد بأنه شيخ وبأنه كبير .

والحقيقة أن إحدى هاتين الصفتين تفي بالغرض ، خاصة وأن العزيز يعلم يقيناً أن أصغر أبناء يعقوب في حدود الثلاثين من عمره إذن يرجح أن يكون والد الاثني عشر ولداً شيخاً كبيراً .

ولكن الإخوة إنما أصروا على تضمين كلامهم هاتين الصفتين ، لأنهما في اعتقادهم أبلغ في الدلالة ، وأقوى في الاستعطاف .

ويلاحظ أن هناك أكثر من عامل جعل أنفس الإخوة يخيم عليها مسحة من انكسار نفسي . وقد ابتدأت بالحاجة الملحة للطعام ، وها هي ذي تتوج الآن بتهمة السرقة التي تورط في ظاهرها أخوهم ، فكأنهم قابلوا الإحسان بالإساءة .

ويبدو هذا الانكسار النفسي في القول الذي جاء على لسانهم:« يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه ، إنا نراك من المحسنين » .

حقّاً إن هذه الجزئية « يا أيها العزيز » تصوّر المكان الطبيعي العالي الذي يحتله العزيز في قلوب الإخوة وأنفسهم .

ولكن الأنفس نفسها منكسرة الآن وبالتالي فإن هذه الجزئية « يا أيها العزيز » تمثل ارتفاعاً سامقاً لمكانة العزيز ، أظهره في ذلك العلو انكسار أنفس الإخوة وانخفاض معنوياتهم .

وهي جزئية تجيء على لسانهم هنا لأول مرة ، كما تجيء هي نفسها في الرحلة الثالثة .

« قال تعالى: «فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضرّ وجئنا ببضاعةٍ مزجاة » .

ويلاحظ أن انكسار الإخوة النفسي في الرحلة الثالثة أقوى فكأن الإخوة إنما استعملوا هذه الجزئية حينما كانت أنفسهم منكسرة .

وحينما نتأمل هذا القسم من الكلام « إن له أباً شيخاً كبيراً » وهذا القسم « فخذ أحدنا مكانه » نتبين أن الإخوة الذين ينطلقون من نقطة الضعف المعنوي ، يجعلون القسم الأوّل المرقق للقلوب الملين للأفئدة ، توطئة للقسم الثاني الذي يشكل طلبهم من العزيز ، « فخذ أحدنا مكانه » .

إنهم لا يجرؤون مطلقاً على تبين طلبهم أولا ، ثم ذكر السبب ، إن شاءوا ، ثانياً . ولكنهم يبينون السبب أولا ثم الطلب ثانياً كما أوضحنا .

ويختم الإخوة كلامهم للعزيز بهذه الجزئية التعقيبية « إنا نراك من المحسنين » وواضح أن صفة الإحسان التي خلعها الإخوة على العزيز تشمل تصرفات العزيز معهم وكلامه لهم في كل وقت .

والذي يساعد على هذا الفهم أن الفعل « نرى » جاء في صيغة المضارع ، والمراد « نراك دائماً من المحسنين .

وإن هذه الجزئية « إنا نراك من المحسنين » يمكن أن تكون دليلا يضاف إلى الأدلة السابقة على أن هذه الجزئية على لسان يوسف خطاباً لإخوته « أنتم شرٌّ مكاناً والله أعلم بما تصفون » كانت في السر لا في العلن . وإلا لما جاءت هذه الجزئية على لسان الإخوة .

وهذا الطلب على لسانهم بأن يأخذ العزيز واحداً منهم بدلا من أخيهم ، لا يتفق مع روح الشريعة الإبراهيمية كما هو معروف ، ثم إنهم لا يودون

هذا الأخ فليس طلبهم ذلك من أجل الأخ بل من أجل أبيهم . وهذا دليل على انزعاج الإخوة البعيد المدى على والدهم الذي سيتلقى ولا شك نبأ جللا .

ويبقى بعد ذلك سؤال هام هو : من صاحب هذه الفكرة بأخذ العزيز واحداً منهم بدلا من أخيهم ؟ هل كل الإخوة أم بعضهم أم واحد منهم ؟

والجواب على ذلك أن سياق الآية يشير إلى أن صاحب هذه الفكرة جماعة وليس واحداً بعينه .

وبما أنه قد ثبت أن الذي أزعج الإخوة هو والدهم ، وكانوا جميعاً ودون استثناء بارين به ، فليس هناك ما يمنعنا أن نعتقد أن كل واحد منهم كان مستعدّاً لو أجابهم العزيز لطلبهم ، أن يكون الشخص الذي يأخذه العزيز مكان الأخ الأصغر .

كما أنه ليس هناك ما يمنعنا أن نعتقد أن أكثر هؤلاء الإخوة استعداداً للقيام بهذه التضحية دون أدنى تردد هو الأخ الأكبر .

أليس هو الذي رفض العودة إلى أبيه بعد أن رفض العزيز تلبية طلب الإخوة ؟ وما دام أنه قد قام بهذه التضحية رحمة بأبيه دون أي مقابل ، فمن باب أولى أن يقوم بها بمقابل لو صح ذلك .

ويبقى بعد ذلك سؤال أخير هو ما الذي دفع الإخوة إلى طرح هذا الطلب بالفعل أمام العزيز ، مع علمهم القطعي أنه يتعارض في جوهره مع روح الشريعة الإبراهيمية ؟ هل هو الأزمة النفسية التي وجد الإخوة أنفسهم فيها أم أنهم ليسوا على يقين من حقيقة الدين الذي يعتنقه العزيز ؟ أم هما معاً ؟

والذي يبدو لنا والله أعلم ، أن للأزمة النفسية التي فيها الإخوة دورها البعيد في هذا الطلب .

ولو أن الإخوة نظروا للمسألة من زاوية أخرى ، لكان خليقاً بهم ألا يقفوا عند هذا الحد ، وأن يتخطوه إلى المطالبة بتنفيذ حدّ السارق في عُرف المصريين وليس الحدّ في الشريعة الإبراهيمية .

ونستطيع أن نفهم أن الإخوة كانوا ينظرون إلى العزيز من جهة اعتقاده نظرة إكبار وإجلال .

ومن الأدلة على ذلك ما جاء على لسانهم في الرّحلة الثالثة خطاباً للعزيز « وتصدّق علينا ، إن الله يجزي المتصدّقين » .

وإذا كان جواب يوسف ، الممثل في هذه الآية « قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده . إنا إذن لظالمون » أليماً للإخوة ، إلا أنه لم يكن غريباً عليهم ولا مفاجئاً لهم كل المفاجأة . لأنهم يعرفون تماماً أنهم قاموا بذلك الطلب بينما يحدوهم يأس مميت . فهو آخر ورقة يلعبون بها في هذه المسألة . ثم هم على يقين من عدل العزيز . والعدل يحتّم عليه أن يقول ما قال .

وحينما نتأمل ما جاء على لسان يوسف ، يستوقفنا لأول وهلة ، قوله : « معاذ الله » أي عياذاً بالله من فعل السوء(١) وهو القول الذي استعمله بحذافيره حينما راودته امرأة العزيز ، قال تعالى: « وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك ، قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي ، إنه لا يفلح الظالمون » .

وحينما نتأمل السياق الذي استعمل فيه في المناسبة الأولى ، نتبين أنه موقف الرفض العنيف لطلب امرأة العزيز منه أن يرتكب الفحشاء .

وحينما يستعمل يوسف عليه السلام ، هذا القول نفسه ، البعيد الدلالة ، ردًّا على طلب إخوته ، فذلك دليل واضح على رفضه العنيف لطلب الإخوة .

ويلاحظ أن يوسف لا يستخدم هذا القول في غير هاتين المناسبتين ، بل إنه لم يأت في القرآن الكريم في غير هذين الموضعين .

ولا يخفى أن ليوسف الحق كل الحق في استعمال هذا القول في المناسبتين.

---

(١) البحر المحيط ٥ ـ ٢٩٤ .

إنه في المناسبة الأولى يستعيذ بالله تعالى من ارتكاب الفاحشة .

وفي الثانية من ارتكاب الظلم .

ولا يخفى أيضاً أن الإخوة على يقين من عدالة الحكم الذي صدر بحق أخيهم ، بل الذي أصدروه هم أنفسهم بحقه ، بسبب ظاهر السرقة التي ثبتت عليه .

ويلاحظ أنه يجيء على لسان يوسف « إلا من وجدنا متاعنا عنده » ولا يجيء مثلا : إلا من سرق متاعنا ، أو أخذ متاعنا . وإن الإخوة يفهمون من قول العزيز شيئاً بينما يريد يوسف شيئاً آخر .

وتأتي بعد ذلك أخيراً الجزئية التعقيبية « إنا إذن لظالمون » وهذا شيء طبيعي ، لأنه حينما يؤخذ بريء بدلا من الجاني ، لأي سبب من الأسباب فإن ذلك ظُلم ما بعده ظلم .

وهذا هو ما تقول به الشريعة الإبراهيمية ، وما تقول به كل بصيرة نيرة.

وبما أن ما نطق به يوسف هو العدل ، وهو ما تقول به الشريعة الإبراهيمية ، فإنا لا نجد الإخوة بعد ذلك ينبسون ببنت شفة . لأن هناك توافقاً تامّاً بين ما يقوله العزيز وما يقتضيه العدل والشرع .

وقد قال تعالى في سورة النجم(١) « أم لم ينبأ بما في صحف موسى ، وإبراهيم الذي وفى ، ألا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يُرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى » .

انشقاق كبير الاخوة على اخوته :

بعد جواب يوسف البليغ الموجز العادل ، يتمكن اليأس الكامل من نفوس الإخوة ، ذلك اليأس الذي نعتقد أنه قد دبّ إليهم منذ أن قدّموا طلبهم ، الذي يعتقدون يقيناً أنه ليس من العدل في شيء .

---

(١) ٣٦ ـ ٤١ .

قال تعالى: «فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً ، قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرّطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين ، ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون » .

ونستطيع أن نفهم من « استيأسوا » اليأس الذي ليس وراءه يأس .

وفي الإمكان أن نفهم المبالغة في ذلك ، قياساً على ما ذهب إليه الزمخشري في « استعصم » من قوله تعالى على لسان امرأة العزيز: «ولقد راودته عن نفسه فاستعصم » .

وإن في هذه السورة ميلا إلى استعمال هذه الصيغة ، ذات الدلالات المختلفة ، ونعتقد أن من أسباب ذلك نقل إحساس الشخصيات العميق ، وتفاعلها الإيجابي الفعال مع الأحداث .

وبينما كان الإخوة الذين تنحوا يتدارسون المسألة بعد اليأس القاتل الذي تمكن منهم .

وبينما كان كلُّ واحد منهم متلهفاً كي يسمع من أخيه رأياً سديداً لمعالجة هذه القضية العويصة التي تستهدف في الحقيقة يعقوب والدهم ، الشيخ الكبير الفاني .

إذاً بانشقاق بين هذه المجموعة من الإخوة ، ينفجر مدوّياً كالإعصار في القول الذي جاء على لسان كبيرهم وأعقلهم الذي عصوه سابقاً وأصروا على التخلص من يوسف ، فاقترح إنقاذاً لحياته جعله في غيابة الجب بدلا من الرأيين القاضيين بقتله أو طرحه أرضاً .

وقد يقول قائل : لماذا نصر على أن القائل أكبرُ الإخوة ؟ وإن لفظ كبير ، هو الذي جاء في الآية القرآنية الكريمة .

ويبدو أن الأخ الأكبر أكثر الإخوة تأثراً لما حدث وتألماً لمصير يعقوب المؤكد حزناً على الشقيقين ، إن لم يتداركه أرحم الراحمين برحمته .

وكأنه لفرط تأثره لمـــا حدث يعتقد أن الإخوة قد نسوا الموثق الذي آتوه والدهم . فذكروا السرقة وماحلّ بأخيهم مجرداً عما سيحدث لوالدهم . وهذا في اعتقاده أهم ما في الأمر .

إنهم لم يأبهوا جميعاً لما حل بيوسف الذي لم يكن يستحق شيئاً مما حل به ، فهل سيأبهون لما يحل بشقيقه الذي نال الجزاء العادل ؟ وفوق ذلك هما سواء في كره الإخوة لهما .

وعلى الرغم من عدم بعد العهد بالقول:« إن يسرق فقد سرق أخٌ له من قبل » إلا أننا نجد الأخ الأكبر يستيقظ ضميره فجأة وفي عنف ، وكأنه يريد بقوله وفعله التكفير عن مشاركته لإخوته فيما حلّ بالشقيقين . تلك المشاركة وإن كانت فيما يخصّ يوسف ، توصف بأنها سلبية ، إلا أن السكوت يوحي بالرضا خاصة إذا كان السكوت عن أذى يلحق بأخ .

ونقول مثلا : هب أن هذا التعليق : « إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل » قد صدر من بعض الإخوة دون بعض ، ولعل الذين صدر منهم ذلك هم الذين اقترحوا قتل يوسف مثلا ، وبطبيعة الحال لم يكن الأخ الأكبر منهم ، فلماذا سكت عن كلام جارح كهذا ؟ بدليل أن كلام يوسف في نفسه ردّا عليهم « أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون » شامل لهم جميعاً ؛ وفيهم الأخ الأكبر .

إن السكوت في مثل هذه المناسبة على الباطل دليل على الرضا عنه .

والشيء الهام الذي نود التنويه به هو أن الشرارة الأولى التي جعلت قول الأخ الأكبر وفعله فريدين متميزين مصير يعقوب المرتقب . لهذا جاء على لسانه « ألم تعلموا أن أباكم » .

ومن هذه النقطة ، نقطة رحمة هذا الابن البار بأبيه الشيخ الكبير الفاني انبجست عين الرحمة في نفسه كي تشمل كلا من الشقيقين الصغيرين ، سيئَي الحظ في نظره : يوسف وبنيامين .

وإذا كان في الجزئية الأولى التي تخص الأصغر ، قد أشار إلى الموثق ، فإن ضميره المستيقظ ، ليتألم مما فرط منه ومن إخوته بحقه سواء بالإيذاء المباشر منهم ، أو بالسكوت منه عن ذلك ، ذلك الإيذاء الذي نص عليه صراحة القول الذي جاء على لسان يوسف مخاطباً شقيقه « قال إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون » .

ولا يخفى أن الجزئية الخاصة بيوسف « ومن قبل ما فرّطتم في يوسف » تحمل الإخوة مسؤولية التفريط في يوسف وليس هو .

فهم الذين أرادوا قتله أو طرحه أرضاً ، أما هو فقد اقترح لإنقاذ يوسف جعله في غيابة الجب .

وإذا كان هذا القول بجزئيته على لسانه:« ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ، ومن قبل ما فرطتم في يوسف » متعلقاً بالماضي . فإن هذا القول على لسانه :« فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين » متعلق بالمستقبل .

وإذا كنا تبينّا العلاقة بين هذه الجزئية « ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله » وبين هذه الجزئية « ومن قبل ما فرطتم في يوسف » فإنا قبل تبيين العلاقة بين هاتين الجزئيتين وبين ما جاء بعدهما ، نود تبيين نوع من علاقة بين هذه الجزئية « ومن قبل ما فرطتم في يوسف » والآية العاشرة في هذه السورة قال تعالى: « قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجبّ يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين » .

إن هذا الأخ ، الذي وضع الله تعالى في قلبه الكمية القليلة الضرورية

والجواب عن ذلك أن العادة قد جرت بأن يستعمل القرآن الكريم هذه اللفظة ويريد الأكبر أو الأكبر أهمية .

ولأن المنتظر أن استيقاظ الضمائر إنما يبدأ عادة بالأكبر سناً والأكثر تجربة .

لهذا نرى أن هذا السبق ما كان ينبغي أن يفوت الأكبر . خاصة وأنه سبق أن قُدم اقتراح لإنقاذ حياة يوسف وجعله في غيابة الجب ، قبل سنوات وسنوات ، ومثل هذا الاقتراح ينتظر ممن يعتبر في تلك الأثناء كبير إخوته أو أكبرهم بتعبير أدق .

ومن هنا ذهبنا إلى أن الأخ الأكبر هو صاحب الاقتراح الثالث .

ومن هنا ذهبنا أيضاً إلى أنه هو المراد بقوله تعالى:« قال كبيرهم . . . » والله أعلم .

وفي ضوء هذا الموقف الجديد لأكبر الإخوة نستطيع أن نقول : إن أبناء يعقوب عليه السلام ينقسمون في الظاهر أربعة أقسام ، يمثل ثلاثة منها يوسف وشقيقه والأخ الأكبر . ويمثل بقية الإخوة القسم الأخير .

بينما ينقسمون في حقيقة الأمر ثلاثة أقسام فقط .

ومع أننا نستطيع أن نستنتج أن الأمور النظامية اتخذت أمام الملأ بحق الشقيق ، الذي ثبت عليه ظاهر السرقة على رؤوس الأشهاد ، إلا أن الشقيقين ما لبثا أن التقيا . واستطاع يوسف حينئذ أن يستمتع بأخيه كما يشاء .

ونستطيع أن نفهم أن قرار الأخ الأكبر بالبقاء في مصر . ورحيل الإخوة . واجتماع شمل الشقيقين ، كل ذلك تمّ في أقصر وقت ممكن .

لمـــاذا ؟

لأن هؤلاء الإخوة ، كما سبق أن أشرنا ، كانوا يشكلون جزءاً طيباً

من القافلة . وبمجرّد أن صدر بحق الأخ الأصغر الحكم الذي يستحقه ، لم يكن هناك مبرّر لتأخر القافلة أكثر مما تأخرت .

كما نستطيع أن نفهم أن القافلة إنما توقفت عن السير حتّى ثبتت التهمة على الأخ الأصغر ، وجاز أن يتخذ من أهلها شهوداً ، على هذه القضية ، بعدها انطلقت لا تلوى على شيء .

فإن طلب الإخوة من العزيز أخذ واحد منهم بدلا من أخيهم ، ورفض الطلب ، وقرار الأخ الأكبر ، وتزويده للإخوة بما يقولونه لأبيهم . كل ذلك لم يستغرق وقتاً طويلاً ؛ إذ ما لبث الإخوة أن وجدوا أنفسهم مع القافلة متجهين ، دون الأخوين الأكبر والأصغر ، صوب والدهم الحبيب يعقوب عليه السلام .

وحينما نتأمل ما جاء على لسان الأخ الأكبر ، وقد صار حال الإخوة إلى يأس ، وينبغي أن يكون حاله من حالهم ، وربما أكثر ، فإنا نجد حديثه يتناول كلاًّ من بنيامين ويوسف على التوالي .

إنه لا يجهل أن ما حدث للصغير يدخل تحت استثناء يعقوب « إلا أن يحاط بكم » ، وأنه لا دخل له هو وإخوته في تصرف الشقيق .

ولكن ضميرهُ الذي استيقظ ينقله سريعاً إلى مسألة من النوع نفسه ، لهم كلٌّ دخل فيها ، مسألة يوسف « ومن قبل ما فرّطتم في يوسف » .

وحينما نتأمل الحديث الذي يخص بنيامين « ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله » فإنا نجده الحديث الموحي المشع ، فإن تمامه الذي لم يفصح به : لتأتنه بالأخ الأصغر إلا أن يحاط بكم .

ولكن الإخوة بالإجماع يعرفون معنى هذه الومضة ، وإن كان للأخ الأكبر فضل تمثل ملابسات أبعاد المسألة وبلورتها في هذه العبارة الموجزة الموحية .

من الود ليوسف ، والذي سبق أن اعتبرناه حجر الزاوية في قصة يوسف ، يرفض فكرة قتله أو طرحه أرضاً ، مكتفياً بحسده السلبي ، ويجيء على لسانه « وألقوه » وليس « ولنلقه » كما يجيء « إن كنتم فاعلين » وليس إن كنا فاعلين .

وسبق أن انتهينا إلى أنه كان ملازماً الموقف السلبي حتى تمت عملية التنفيذ .

والآن حينما يستيقظ ضميره من غفلته ، يحاسب نفسه حساباً دقيقاً إلى أبعد الحدود ، خاصة وأن السبب في إيقاظ الضمير من نوع تأنيبه . فيصدر على نفسه حكماً قاسياً .

وقبل ذلك يجيء على لسانه « ومن قبل ما فرطتم » يريد إخوته ، وليس : ومن قبل ما فرطنا ، إنهم هم الذين فرطوا في يوسف وليس هو .

والآن حان الانتقال إلى تبيين العلاقة الجديدة .

الحقيقة أننا نربط ربطاً لا نهائياً بين الشرط الأول:« حتى يأذن لي أبي » وبين هذه الجزئية « ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله » .

كما نربط ربطاً لانهائياً أيضاً بين الشرط الثاني:« أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين » وبين هذه الجزئية « ومن قبل ما فرطتم في يوسف » وهي بدورها ترتبط بالآية العاشرة التي أفضنا الحديث فيها من قبل (١) .

إن العلاقة واضحة بين الشرط الأول والجزئية التي إليها أشرنا

فقد كان الأخ الأكبر قد أعطى لأبيه ضمن إخوته عهداً بأن يعودوا بشقيق يوسف معهم ، وغادروا به على هذا الأساس .

وبسبب ظاهر السرقة لا يمكن العودة بهذا الشقيق .

لذا فإن هذا الأخ يستفحل تلقي يعقوب النبأ بعدم مجيء الشقيق استفحاله تلقي يعقوب نبأ أكل الذئب يوسف .

---

(١) ص ١٣٩ وهي مندرجة تحت عنوان «إخوة يوسف لأبيه ليسوا شرا محضا» .

لذا هو يربط العودة دون هذا الشقيق ، بإذن والده له بالعودة ، وهذا واحدٌ من شرطي العودة .

إن هذا الأخ عنده إحساس باحتمال هذا الإذن من الأب ، لأنه على يقين من أنه ، هو وإخوته ، ليس لهم يد في إبقاء هذا الشقيق لدى عزيز مصر . وأن يعقوب سيدرك ، ولو بعد حين ، أن ما حدث للشقيق ، يندرج تحت استثنائه السابق حينما أخذ على أبنائه الموثق « إلا أن يُحاط بكم » وأنه قضاءٌ من الله تعالى لا يمكن دفعه .

أما العلاقة بين الشرط الثاني بالجزئية « أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين » وبين هذه الجزئية من الآية « ومن قبل ما فرطتم في يوسف » فقبل أن نبينها ، نود أن نعرف ، هل يمكن ربط الشرط الثاني بالجزئية التي قلنا إنها ترتبط بالشرط الأول « حتى يأذن لي أبي » .

أو بعبارة أخرى ، هل يمكن ربط « حتى يأذن لي أبي » بـ « ومن قبلُ ما فرطتم في يوسف ؟ » .

والجواب بالنفي .

لأننا نعرف أنه لم يحدث بعدُ لقاء بين يعقوب ويوسف من ناحية ، والإخوة ويوسف من ناحية أخرى .

ولأن يعقوب يجهل ما فعلوا بيوسف .

فانحصرت العلاقة إذن بين الشرط الأول وجزئيته التي توافقه في تقسيم الآية تقسيماً منطقياً .

والآن في سبيل تبيين العلاقة بين الشرط الثاني والجزئية التي إليها أشرنا فبالإضافة إلى أننا نستفيد من التقسيم المنطقي للآية ، وكون الشرط الثاني « أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين » يوافق في التقسيم هذه الجزئية « ومن قبل ما فرطتم في يوسف » فإننا نقول :

سبق أن بيّنا أن استيقاظ ضمير الأخ الأكبر جعله ينتقل بذاكرته سريعاً من الرجوع إلى والده دون الصغير ، وقد أخذ الوالد عليهم الموثق بأن يعودوا به ، إلى الرجوع دون يوسف .

هو لا دخل له هذه المرة فيما حدث للشقيق ، ولكن ضميره الذي استيقظ ينقله إلى ما حدث ليوسف مما له يد فيه .

هذا الانتقال من الحاضر إلى الماضي نتبينه أولا من قوله تعالى : « فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين » .

وأيُّ ماض يفر هذا الأخ إليه ؟

ماضيه مع يوسف ، مع كيده معه . فالضمير الحي يؤلمه ما أسرف به صاحبه في حق الآخرين ، ولو كان اقتراحاً أنقذ به حياة أخيه .

أو لسنا بصدد أخ قد وضع الله في قلبه الكمية الأقلّ من الود ليوسف مما لم يوضع مثله في قلب أحد من إخوته لأبيه ؟

أو ليس هو القائل : « لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين » ؟

ثمّ أليس هو القائل الآن منبهاً إخوته مؤنباً لهم : « ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف » ؟

لقد كان راضياً بحسده السلبي ليوسف ، والآن يتبدد هذا الحسد في غمرة الهموم ، وتكون من هذا الأخ توبة نصوح مضمرة ، في هذا التعبير الذي ألهمه الله تعالى إياه : « أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين » .

وبماذا يحكم له خير الحاكمين ؟

يحكم له على أقل تقدير بأنه صاحب الرأي لإنقاذ يوسف من القتل أو شبهه .

وكيف يتم ذلك ؟

هذا ما عنيته من قولي : إن الله عزّ وجل ألهمه بأن يقول: « أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين » .

ففي هذا الإلهام نلمح استجابة الرحمن للمضطر إذا دعاه .

ونشتم من الأفق البعيد جدّا رائحة قميص يوسف الذي جاء به البشير .

ونتبين في جو تصعب فيه الرؤية الأمل غير المفصح في الله عزّ وجل في وجود يوسف ، المهيىء أنفسنا لتقبّل الأمل المُفصح المبين في قول يعقوب : « عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً ، إنه هو العليم الحكيم » .

ونود أن نقف عند قول هذا الأخ الأكبر : « لي » وإصراره عليه .

فقد كان في إمكانه أن يستغنى عنه ، ويكتفي بالقول: « أو يحكم الله » ولكنه كان حريصاً على ذلك لأن دوره السلبي بصدد يوسف غير أدوارهم الإيجابية .

وفي وجود يوسف والعثور عليه ، بإرادة الله القادر على كل شيء حكم من الله له .

كما نود أن نقف عند لفظة « خير» من قوله: « وهو خير الحاكمين » فإنها أبلغ لفظة تحتل هذا المكان ، لأنها تتمشى مع نفسية هذا الأخ المنكسرة ، صادق التوبة ، خالص الدعوة ، الفقير إلى رحمة مولاه ، الوحيد القادر على الحكم له .

وإن هذا الأخ ليقرن الفعل بالقول ، وقبل مغادرة إخوته له يلقنهم القول الذي يُدلون به لوالدهم والذي يعتبر في حقيقته ردّ فعل للتساؤل الذي رفعه هذا الأخ من قبل « ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله » ؟

قال تعالى على لسانه: « ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين ، واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنّا لصادقون » .

والذي يلفت انتباهنا على هذا الكلام ، أنه يميل إلى الطول .

وإن المتأمل للقسم القصصي في سورة يوسف عليه السلام ، والأحاديث التي جرت على ألسنة الشخصيات يتضح له أن هناك مواقف محدودة أفاضت الشخصيات فيها بالحديث .

هذه المواقف على وجه الدقة كالتالي :

١ — موقف يعقوب عليه السلام من ابنه الحبيب حينما قص عليه رؤياه .

فإذا كان قد أوجز في تحذير ابنه عن قص رؤياه فإنه أطاله فيما يتصل بتبشير ابنه بمستقبله الديني والدنيوي الباهر ، وحمدِه لله عز وجل على آلائه .

وتعليل الإيجاز والإطناب أن النفس الطيبة الطاهرة المطمئنة ليعقوب عليه السلام ، لا ترتاح إلى حقيقة شعور الإخوة تجاه يوسف . لذا هي توجز وتكتفي بالقدر الضروري منه ، بينما فيما يتصل بما يسُرُّ ويُبهج هي أكثر ارتياحاً ورضاً وسعادة ، لذا هي تفيض فيه وتجنح إلى تناول الأمر من جوانبه المشرقة المتعددة .

٢ — موقف يوسف عليه السلام من الفتيين في السجن فإنه في أربع آيات ، تميل ثلاث منها للطول النسبي يمهد بدعوة الفتيين لدين الله ، لتعبير الرؤية في آية واحدة فقط .

وتعليل ذلك أن تعبير الرؤيا وسيلة في نظره عليه السلام ، أما الغاية فالدعوة لدين الله تعالى الذي ارتضى لعباده .

٣ — الموقف الذي نرجح أنه ليوسف عليه السلام وقد ثبتت براءته بعد طول انتظار شبيه باليأس ، وذلك من قوله تعالى: «ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ، وما أبريء نفسي ، إن النفس لأمّارة بالسوء إلا ما رحم ربي ، إن ربي غفور رحيم » .

٤ ـ موقف يوسف عليه السلام بعد أن منّ الله تعالى عليه بجمع الشمل بعد تحول يعقوب وآله من الشام إلى مصر ، وقد انفرد يوسف بالحديث في المشهد الأخير من القصة ، ضارباً المثل الأعلى في شكر المنعم .

٥ ـ موقف هذا الأخ الأكبر الذي نحن بصدد الحديث عنه : إذ يفيض منفرداً في الحديث الذي لا يقتصر على الحاضر بل يعود إلى الماضي كما مر بنا .

ملاحظات على قول الأخ الأكبر وفعله :

نودّ في هيئة نقاط ، أن نبيّن الملاحظات على قول هذا الأخ الأكبر وفعله :

١ ـ تضمنت الآية الكريمة لفظ « كبير » في قوله تعالى : « قال كبيرهم » الذي نتبين منه أن شخصية هذا الأخ تتطور تطوراً طبيعيّاً تجاه الخير والصلاح فهذا العقل الراجح هو الذي ينتظر من أكبر الإخوة سنّاً .

والحقيقة أنه لا غرابة في هذا الموقف منه . فقد سبق أن مثّل الخير في أول بذوره ، حينما رفض قتل يوسف بطريق مباشر أو غير مباشر واقترح إلقاءه في غيابة الجبّ .

وها هو ذا الخير يخرج شطأه الذي آزره فاستوى على سوقه ممثّلا في كلامه وفعله الدالّين على أننا بصدد نفس طيّبة دلت على أصل معدنها النقيّ .

٢ ـ يجيء على لسان هذا الأخ « ألم تعلموا » وليس « أما علمتم » وحينما يجيء بعد صيغة المضارع هذه الصيغة في الماضي مع حرف التحقيق « قد » في قوله تعالى على لسانهم : « أنّ أباكم قد أخذ عليكم » فذلك دليلٌ على أن هذا الأخ يتعمّد صيغة الفعل المضارع ، التي تعكس رغبته في كون علم إخوته بما فعلوا بيوسف ، ليس مقتصراً على الزمن الماضي ، وإنما

يستمر ليغطّي الفترة الحاضرة ، وهي في نظره أهم الفترات التي ينبغي أن يكون العلم فيها حيّاً .

٣ — يجيء على لسان هذا الأخ « ألم تعلموا أنّ أباكم قد أخذ عليكم » ولا يجيء على لسانه مثلا « ألم تعلموا أن أبانا قد أخذ علينا » .

وتفسير ذلك والله أعلم ، أنّ هذا الأخ بسبب إحساسه العميق بالورطة التي هم فيها ، قد بدا له أن إخوته ، الذين لم ير عمق إحساسه بالمسألة بادياً عليهم ، قد ظنّ أنّهم لم يتمثلوا أبعاد تهمة السرقة التي ثبت ظاهرها على أخيهم ، وأنهم يظنون أن المسألة تنتهي عند استرقاق هذا الأخ . وكأنهم نسُوا الموثق الذي أخذه منهم والدهم ، وغفلوا عن الصّدمة النفسية العنيفة التي سيتلقاها يعقوب عليه السلام .

لهذا نجد هذا الأخ يستعمل ضمير جماعة المخاطبين وليس المتكلمين ، وكأنه أخرج نفسه لأنه يعلم يقيناً أبعاد المسألة ، أما هُم فلا .

ولا نشك أن إحساس هذا الأخ المرهف ، هو الذي جعل هذا تصوُّره . إذ نميل إلى أن بعض هؤلاء الإخوة على الأقل ، عندهم إحساسٌ ولو غامضٌ بشيءٍ كهذا . على الرغم من حنقهم الشديد على أخيهم الأصغر ، بل لعلّ هذا الإحساس نفسه السبب الأكبر في حنقهم عليه .

٤ — هذا الأخ حريصٌ على تضمين كلامه « قد » التي تفيد التحقيق « ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله » وكان بإمكانه أن يستغني عنها ، لولا أنّ انفعاله العنيف لم يكن يسمح له بذلك خاصةً وقد قدمها على « موثقا » ولم يؤخرها ، وذلك ممكن .

كما لا يخفى أنّ لقوله : « من الله » دوره البعيد المدى أيضاً .

فالقصد من ذلك إشعار الإخوة بوجوب تقديرهم للموثق من الله الذي آتوه والدهم ليأتنه بأخيهم الأصغر .

٥ – يبدو من هذه الجزئية « ألم تعلموا أنّ أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله » وهي الّتي تتعلق في جوهرها بالأخ الأصغر . أن هذا الأخ الأكبر عفُّ اللسان ، طيب القلب ، صافي السّريرة .

إنه يتناول هذه القضية من جانبها الإنساني ، جانب ردّ الفعل المتوقّع في نفس والدهم نبي الله يعقوب . لهذا هو لا يقول عن أخيه هجراً من القول .

وهذا قد يكون دليلا على أنّ هذا القول السابق من جانب الإخوة « إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل » لم يصدر منهم جميعاً ، أو على أقل تقدير ، لم يكن هذا الأخ الأكبر شريكاً فيه ، ويقتصر دوره على السكوت عمّا قيل (١) .

٦ – يبدو من انتقال هذا الأخ العاصف ، من الحديث عن الحاضر إلى الماضي ، ومن القضية الّتي لا يد لواحدٍ منهم فيها ، إلى القضية الّتي لكلّ واحدٍ منهم يدٌ فيها ، والّتي طال بها العهد جداً ، أننا بصدد إنسان مرهف الإحساس ، حيّ الضمير ذكّر كلّ واحد من إخوته بالخطأ الشنيع الذي ارتكبه بحقّ أخيه يوسف .

ويلاحظ أنه كي يكون كلامُهُ كامل الوضوح تامّ الدّلالة ، يأتي باسم يوسف صراحة « ومن قبل ما فرَّطتم في يوسف » ولا يقول مثلا : ومن قبل ما فرّطتم في أخيكم .

ولا نجد تعليلا لذلك سوى رغبة هذا الأخ ، في حمل إخوته على تمثُّل الموقف بأبعاده المختلفة تمثّله هو .

والنقطة الباقية الّتي يمكن لنا أن نتكلم فيها هي « ما » من قوله : « ما فرّطتم » .

---

(١) ومن ثم فان هذا القول من يوسف عليه السلام « انتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون » كان فى السر لا فى العلن · والا لشمل البرىء والمسىء معا · وهـذا شيىء لا يمكن أن ينسب بحال الى نبى الله تعالى يوسف عليه السلام ·

ويُمكن أن تُعتبر « ما » مصدريّة ، والواو للعطف ، ويكون المعنى : ألم تعلموا أنّ أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ، وتفريطَكُم من قبل في يوسف .

ونكون في هذه الحال قد نظرنا إلى « ومن قبل » من الوجهة النفسية . بمعنى أن الأخ مرهف الإحساس ، قد أدرك نقله المفاجيء للإخوة ، من الحاضر إلى الماضي البعيد ، فمهد لذلك بقوله : « من قبل » . .

ويمكن أن نعتبر المصدر المؤول من « ما فرطتم » مبتدأ مؤخراً خبره « ومن قبل » .

وفي هذه الحال نضمّن الواو معنى الاستئناف . وعند التلاوة لا نربط بين الجزئيتين ، ولكن نتلو هذه الجزئية أولا « قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله » ثم تستأنف تلاوة الجزئية الثانية .

ويمكن أيضاً أن نعتبر « ما » زائدة ، وهذا أضعف الآراء في اعتقادي فيكون المعنى على ذلك ، ومن قبل فرطتم في يوسف .

وفي هذه الحال ، لعل عدم الرّبط بين الجزئيتين ، أثناء التلاوة ، أولى ، والله أعلم .

٧ — على الرغم من أن هذا الأخ الأكبر لا يد له ، أسوة بإخوته في قضية بنيامين ، وأن موقفه في قضية يوسف سلبيّ ، بعكس كافة الإخوة ، إلا أنه يحمّل نفسه ما لا يحمّل إخوته ، ويعاقبها على سكوتها عن الباطل ورضاها عنه من قبل ، بالبقاء في مصر وعدم المغادرة إلا بشرط من اثنين .

وليس لذلك من تعليل سوى رهافة إحساس هذا الأخ ورجاحة عقله .

وألطف ما في هذا الحكم القاسي العنيف ، أن هذا الأخ يصدره من ذات نفسه على ذات نفسه في القضية التي مضى عليها سنوات وسنوات ، مع علمه القطعي بأن صاحب الحق الشرعي في هذه القضية غائب ، ولا يعلم

شيئاً عن هذا الحكم ، بل لعله ليس في هذه الحياة الدنيا أساساً .

وإن كان هناك من دور للقضية الثانية ، فإنه يقتصر على كونها الشرارة الأولى التي فجرت نفس الأخ الأكبر ضميراً حيّاً نابضاً متألماً لما فرط منه بحق أخيه يوسف ، وما ترتب على ذلك من أذى لحق يعقوب عليه السلام .

وقد كان الحكم قاسياً عنيفاً في هذه الصورة القوية جداً من التعبير « فلن أبرح الأرض حتّى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين » .

ونفهم من هذا التعبير الإرادة القوية والعزم الأكيد .

وأكبر دليل على ذلك أن ما قاله ليس كلاماً ألقي على عواهنه ، ولكن هناك التنفيذ الفوري .

وإن « برح التامة » تكون بمعنى ذهب وبمعنى ظهر . ومنه برح الخفاء ، أي ظهر وذهب . لا ينتصب الظرف المكاني المختص بها ، إنما يصل إليه بوساطة « في » فاحتيج إلى اعتقاد تضمين برح بمعنى فارق فانتصب « الأرض » على أنه مفعول به .

ولا يجوز أن تكون « برح » ناقصة ، لأنه لا ينعقد من اسمها والأرض المنصوب على الظرف مبتدأ وخبر ، لأنه لا يصل إلا بحرف في « لو قلت: زيد الأرض لم يجز » (١) .

٨ — حينما نتأمل الحكم الذي أصدره هذا الأخ بحق نفسه « فلن أبرح الأرض حتّى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين » فإنا نتبين حرصه على تضمين كلامه مرتين للام الجر ، وضمير المتكلم المفرد « لي » وقد كان بإمكانه أن يستغني عنهما في الموضعين لو شاء .

ولكن هذا شيء لا يمكن أن يسمح به ضمير هب كإعصار عاصف ، على الرغم من يقينه بأنه كان له موقف من نوع معين ، لو قيس بموقف إخوته لاتضح أنه الرحمة عينها .

---

(١) البحر المحيط ٥/٣٣٦ .

كما نتبين اشتمال هذه الجزئية « وهو خير الحاكمين » على لفظ الخير ، الذي يدل على أننا بصدد نفس تواقة للإقبال على الخير ، وقلب سليم من كل شائبة . ولم يأت على لسانه مثلا : وهو أحكم الحاكمين ، الذي يؤدي الغرض ولا شك ، ولكنه يدل أيضاً على أننا بصدد شخص يتعامل إلى حد كبير مع الفكر والعقل ، وليس مع القلب الذي يعتبر دوره في هذا الظرف أولى . وقد قام القلب بدوره خير قيام فعلا ، حينما استعمل الأخ لفظ الخير ، وليس أي لفظ آخر .

وحينما نقول إن لفظة الخير تدل على القلب السليم أكثر من دلالتها على غيره ، فليس معنى هذا أن العقل أو الفكر قد عطلا عن العمل في هذا الظرف الدقيق ، وخير دليل على ذلك لفظ « الحاكمين » الذي جاء في الجزئية نفسها . .

وحينما نتأمل هذه الجزئية ككلّ « وهو خير الحاكمين » يتضح أننا بصدد توازن غاية في الدقة والعدل ، بين القلب والعقل ، بين العاطفة والفكر .

ففي الوقت الذي نجد لفظة « الخير » تتعلق بنفس الأخ الأكبر ، فإنا نجد لفظة « الحاكمين » تتعلق إلى درجة كبيرة بالذي لا يبدل القول به وما هو بظلام للعبيد ، بالله الكبير المتعال ، الذي كل ما يشاء له أن يكون هو الحكمة ذاتها .

وهكذا يتضح لنا العدل التام والتوازن الكامل ؛ فلفظة الخير ترتبط في جملتها بالقلب والعاطفة ، ولفظة الحاكمين ترتبط في جملتها بالعقل والفكر .

٩ — حينما نتأمل كلا من شرطي مبارحة الأخ الأكبر أرض مصر ، فإنه يتضح أن كلا منهما ، على الترتيب ردّ فعل لتمثل هذا الأخ ، المرهف

الإحساس ، لأبعاد كل من القضيتين ، قضية بنيامين ويوسف اللتين أشار إليهما قبل مباشرة ، في هذا الترتيب نفسه .

فإذا تأملنا الشرط الأول « حتى يأذن لي أبي » اتضح لنا أن هذا الأخ عفّ اللسان نقي السريرة ، ينظر لقضية بنيامين من زاويتها الإنسانية ، من زاوية والده نبي الله يعقوب ، الذي سيؤوده حمل النبأ العظيم ؛ والذي قرر من أجله عدم مبارحة أرض مصر ، حتى يأذن له أبوه بالعودة ، بأن يثبت بصفة أكيدة له ، أنهم لا يد لهم فيما حدث للصغير .

أو أن يفرّج الله تعالى عنه من الاسترقاق بعفو العزيز عنه ، إن صح ذلك أنه من حق العزيز الحريص على تطبيق هذا الحد الإبراهيمي .

أو انتهاء مدة الاسترقاق التي ذهب البعض إلى أن مدتها عام واحد .

وحينما نتأمل الشرط الثاني « أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين » الذي قلنا:إنه رد فعل لقوله في الآية نفسها : « ومن قبل ما فرطتم في يوسف » فإنه يتضح أننا بصدد نفس قد عصرها الألم عصراً ، فبلغت الغاية في الرقة والشفافية ، وأقبلت بكليتها على الذات العلية ، على الله تعالى القادر على كل شيء .

ومن هذه الزاوية نستطيع أن نقول : إن هذا الأخ الأكبر ، يعتبر من أكثر أبناء نبي الله يعقوب ، بعد نبي الله يوسف ، إقبالا على الله تعالى وإيماناً بذاته العلية .

١٠- حينما يتضح أن الإخوة في الرحلة الثالثة إلى مصر ، لم يكن عندهم سوى الدراهم غير الجيدة، فقد جاء على لسانهم قوله تعالى : « وجئنا ببضاعة مزجاة » .

فهذا يعني ضمناً ، أن الدراهم الجيدة كانت على وشك أن تنفد في الرحلة الثانية .

ومعنى هذا أن الأخ الأكبر ، حينما يقرر في هذه الرحلة البقاء في مصر ، فإن هناك مجهوداً من نوع معين سيبذله سعياً وراء لقمة العيش .

فليس هناك فرار إلى راحة ، ولكن هناك كد وعناء ، وهذا مما يجعل تضحيته بالبقاء في مصر ، ذات طعم وقيمة .

١١- يبيح هذا الأخ لنفسه أن يستعمل فعلين للأمر في مخاطبته لإخوته « ارجعوا إلى أبيكم فقولوا » .

ونستطيع أن نفهم أن لكونه كبير إخوته دوراً في ذلك ، وأنه من باب الانتفاع من توقير إخوته وتبجيلهم له باعتباره كبيرهم .

وحينما نتأمل الفعل الأول يتضح أنه تعميق لمعنى القرار الذي اتخذه بحق نفسه « فلن أبرح الأرض » لأنه حينما يبقى ، فعلى الباقين أن يرجعوا كما رجعوا بعد التخلص من يوسف ، كي يقف يعقوب على حقيقة الأمر .

وهم سيرجعون جميعاً ، لأن الأخ الأكبر انفرد بهذا الحكم على نفسه دون سابقة .

ولا نجد واحداً من الإخوة ، باعتبار باب البقاء في مصر قد فتحه هذا الأخ يتخذ قراراً مماثلا ليس من باب الإبداع ، فقد سبق الأخ الأكبر لذلك ، ولكن من باب الاتباع .

وهذا دليل على أن هذا الأخ ينفرد برهافة إحساس ليست لواحد من إخوته الذين شاركوه هذه الرحلة .

وحينما نتأمل الفعل الثاني ، نجده يفتح الباب للكثير من القول الذي ينبغي على الإخوة أن ينقلوه إلى والدهم ، وهذا دليل آخر على رهافة إحساس هذا الأخ .

١٢- يجيء على لسان هذا الأخ « ارجعوا إلى أبيكم » ولا يجيء على لسانه : ارجعوا إلى أبينا ، وهذا تعميق لعزل هذا الأخ نفسه عن إخوته .

وقد ابتدأ قوله: « ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم » وإذا كانت بداية العزل بهذا القول ، فقد عززها القرار بالبقاء في مصر « فلن أبرح الأرض »

وها هو ذا الآن في قوله: « ارجعوا إلى أبيكم » يعمق الحكم ويعزز العزل ويأمر الإخوة بالرجوع ، دونه بطبيعة الحال .

١٣– لنتأمل قول هذا الأخ : « يا أبانا » في تلقينه لإخوته ما يقولون « فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق . . » إلى آخر القول .

لقد كان بإمكانه أن يستغني عنه ويجيء على لسانه : فقولوا إن ابنك سرق : ولكن هناك فرقاً بعيد المدى بين التعبيرين ، فلو لم يأت قوله : « يا أبانا » وجاء على لسانه : فقولوا: إن ابنك سرق » لكان في خطابهم لأبيهم شيء كبير جداً من الجفوة والغلظة والخشونة . خاصة في ذلك الوقت العصيب .

ولكن حينما يجيء على لسانه ما جاء فعلاً ، فذلك ولا شك ، دليل بعيد الدلالة على رقة شعور هذا الأخ ، ورهافة إحساسه ، وبره بوالده . وليس بخاف أن القول : « يا أبانا » يعتبر توطئة لها قيمتها بين يدي ذلك النبأ الجلل .

ومن يدري ؟ ربما لو أن هذا الأخ ، لم ينبه إخوته إلى أدب في الحديث كهذا لتورطوا في نقل النبأ إلى والدهم على علاته ، ولحدثت له ، بناءً على ذلك مضاعفات أكثر .

١٤– يجيء على لسان هذا الأخ « ارجعوا إلى أبيكم فقولوا » ولا يجيء على لسانه مثلا: ارجعوا إلى أبيكم وقولوا . بالواو بدلا من الفاء ، كي يقال: إن المجيء والقول متساويان في الأهمية .

فدل مجيء الفاء من « فقولوا » أن المهم في الموضوع هو القول ، وأن المجيء ليس سوى وسيلة ضرورية وسبب حيوي ، لأن بدونه لا يمكن أن يتم القول بحال .

١٥- يجيء على لسان هذا الأخ « إن ابنك سرق » فهل كان بإمكان هذا الأخ أن يستغنى عن جملة « سرق » ؟ ولماذا لم يجيء على لسانه مثلا : إن أصغر أبنائك سرق ، مع العلم بأن يعقوب عليه السلام ، لا يعود إليه في هذه الرحلة اثنان من أبنائه ، أكبرهما وأصغرهما ؟

والجواب على الشق الأول أن هذا الأخ المرهف الإحساس ، يسوؤه في أعماقه أن يُنقل نبأ السرقة إلى أبيه . ولكنه نبأ يجب أن يصل إلى نبي الله يعقوب لأنه حينما يعلم ثبوت السرقة على ابنه ، يعرف أن ابنه الحبيب على قيد الحياة وأنه لم يرجع إليه لأنه استرقّ ، كما تقضي بذلك الشريعة الإبراهيمية .

وإذا كان هذا النبأ عاصفاً بيعقوب ، إلا أنه سيتضح بعد حين ، أن الاسترقاق لعام واحدٍ أهون من الموت مثلا .

وتأمّل رهافة إحساس هذا الابن . إنه يؤخر جملة « سرق » الضرورية الورود حتى لا مجال للتأخير .

إنه لا يقول مثلا : ارجعوا إلى أبيكم فقولوا سرق ابنك . ولكن « إن ابنك سرق » . وكما هو واضح ، فإن « إن » والكاف من « ابنك » اسمها ، لا يدلان على أكثر من ثبوت تهمة السرقة في نظرهم على أخيهم . ذلك الثبوت الذي حاول الأخ تأكيده لوالده والإتيان عليه بالشهود كما سنرى .

ولا يمكن أن يقال بحال ، إن في قول الأخ المؤكد: « إن ابنك سرق » ذرةً من تشف . فليس هذا من خلق الأخ الكريم الخلق ، خاصة في هذا الظرف العصيب .

والجواب على الشق الثاني من السؤال هو أن هذا الخبر غاية في السوء . وليس مما يسر الأخ الأكبر بحال ، أن يصرح ابتداء بأن أخاه الأصغر هو الذي سرق .

ثم إنه على يقين تام ، من أن أحبّ أبناء يعقوب بعد يوسف إليه ، هذا الأخ الأصغر ، الذي لم يسمح لإخوته بأخذه معهم إلا بعد جهد جهيد . لذلك هو خليق به ، حينما يعود الإخوة إلى أبيهم دون الآخرين ، الأكبر والأصغر أن يفتقد الأخ الأصغر ، لأنه أحب الأبناء الموجودين ، ولأنه سبق أن غاب عنه في رحلة سابقة أحبُ أبنائه إليه ، أعني يوسف .

فكان أول من سيفتقده يعقوب من ابنيه بنيامين .

وكأنه سيسأل في وجل ، حينما لا تقع عيناه عليه : أين هو ؟ وكأن الأخ الأكبر يعد الجواب على هذا السؤال البديهي الذي سيطرحه يعقوب عليه السلام .

حقاً إن يعقوب سيسأل عن الأخ الأكبر أيضاً ، وسيسوؤه ، عدم رجوعه ولكن السؤال عنه سيكون ثانياً ، واستياءه سيكون متمماً لاستيائه من عدم عودة أصغر الأبناء إليه . لهذا جاء على لسان هذا الأخ « إن ابنك سرق » وليس : إن أصغر أبنائك سرق أو ما شاكل ذلك .

١٦– حينما نتأمل الجزئية التي أتت على لسان هذا الأخ مباشرة « وما شهدنا إلا بماعلمنا» فالذي يلفت انتباهنا أولا هذه الصيغة القوية من التعبير التي تضمنت « ما » النافية ثم « إلا » .

ولم تأت هذه الجزئية مثلا ، في صورة كهذه أقل قوة : وقد شهدنا بما علمنا .

فدل ذلك على اهتمام هذا الأخ البعيد المدى برد الفعل العاصف في نفس يعقوب عليه السلام ، ومحاولته الجادة ، في هذه الجزئية التي أتت بعد الإشارة إلى حادث السرقة ، أن يشير بوضوح ، إلى أن هذه المسألة ، ليست قذفاً منهم لأخيهم بارتكاب السرقة ، وليست حيلة انطلت عليهم .

وهل يمكن أن ينطلي شيء كهذا على أخيهم ؟

وهل من المعقول أن يسكت شخص بريءٌ عن تهمة كهذه ؟

ولماذا سكت ولم ينبس ببنت شفة ، حينما استُخرج الصواع من رحله ؟

وإن جملة « شهد » التي يستعملها الأخ هنا ، والتي سيستعملها الإخوة بدورهم أمام والدهم ، لثقيلة الوزن قوية الدلالة ، إذ أنها تُشعر بأن النبأ الذي نقلوه إلى والدهم ، وإن كان سيئاً ، إلا أنهم يدلون به ، وكأنه شهادة يشهدون بها أمام والدهم وهم مسؤولون أمام الله تعالى عما يقولون .

وإذا كانت جملة « شهد » لها هذه الدرجة البعيدة من ثقل الوزن وقوة الدلالة فإن جملة « علم » في الجزئية نفسها ، المعضدة لجملة « شهد » لها ثقل الوزن نفسه ، وقوة الدلالة نفسها . فليس هناك جملة في الدلالة على العلم اليقيني والاطمئنان القطعي إليه تقارب هذه الجملة التي استعملت في هذه الجزئية « وما شهدنا إلا بما علمنا » .

وليس يخاف أن الإخوة صادقون كل الصدق فيما سيقولون لوالدهم .

وهذا من الأدلة العديدة على أن الإخوة جميعاً ، على يقين تام من أن تهمة السرقة لاصقة بأخيهم ولا ريب .

وأنهم لم يفطنوا البتة إلى شيء من الاتفاق بين يوسف وشقيقه ، وأن الحيلة محكمة التنفيذ .

١٧ـ حينما نتأمل الجزئية التي أتت على لسان هذا الأخ بعد ذلك مباشرة « وما كنا للغيب حافظين » نتبين أنها متعلقة في جوهرها بالموثق الذي سبق أن آتاه الإخوة والدهم ، ليأتنه بأخيهم ، ولا يكونون حائلا دون عودته .

وواضح أن هذه الجزئية تقرر حقيقة لا يجهلها أحد ، وهي أن مفاتح الغيب عند الله وحده .

وكأنهم يقولون : إنه لم يكن يخطر ببالنا مطلقاً أن أخانا ، الحريصين

على عودته إليك سليماً معافى ، يتورط في عمل كهذا ، يحول بينه وبين أن يعود إليك .

ولو كان عندنا إرهاصات بعمل كهذا يمكن أن يقوم به هذا الأخ ، لما تورطنا في طلبنا وإلحاحنا أخذه معنا .

وإن لسان حال الإخوة ليستمر قائلا ؛ وهكذا يتضح لك يا أبانا تمام الوضوح ، أن ما حدث لأخينا لا يد لنا فيه ، ولا طاقة لنا على دفعه ، وأنه يدخل تحت استثنائك « إلا أن يحاط بكم » حينما طلبت منا أن نؤتيك عهد الله وميثاقه .

وهكذا يتضح يا أبانا أن هذا الأمر ، قضاء من الله تعالى علينا جميعاً وقد لا يرد .

١٨ـ حينما نتأمل هذه الجزئية التي أتت على لسان هذا الأخ بعد ذلك مباشرة « واسأل القرية التي كنا فيها » نستطيع أن نفهم أن القافلة التي كان فيها الإخوة ، بعد أن فصلت العير من المدينة مرت بقرية في الطريق ، تعتبر من المحطات التي من الجائز أن تحط فيها الرحال . ومن هنا جاز القول « كنا فيها » .

وهناك أذنَّ المؤذن على العير « أيتها العير إنكم لسارقون » وأن هذا الأذان والحوار كان بمرأى من أهل القرية ومسمع . وقد عرفوا أخيراً عند من وجد الصواع .

وبما أن من سمات سكان القرية الاستقرار ، لذلك جاز لهؤلاء الإخوة أن يتخذوا هؤلاء السكان شهوداً في هذه القضية ، يمكن أن يسألوا في أي وقت من الأوقات .

ونستطيع أن نفهم أنّ عدد هؤلاء الذين يمكن أن يُستشهد بهم غير قليل .

فلو فرض أن البعض لم يكن في القرية وقت طلب الشهادة ، فإن البعض الآخر سيكون حاضراً .

ومن هنا جاز لنا أن ننتهي إلى أن المؤذن والفتيان كانوا حريصين كل الحرص على العثور على الصواع .

ومن هنا أخذ صوت المؤذن المدوي يقرع كلّ أذن تقريباً في القرية والقافلة « أيتها العير إنكم لسارقون » .

١٩- حينما نتأمل هذه الجزئية التي أتت على لسان هذا الأخ بعد ذلك مباشرة « والعير التي أقبلنا فيها » فإنا نستطيع أن نفهم أن هذه القافلة كانت متجهة من مصر إلى البلد الذي فيه يعقوب عليه السلام على أقل تقدير ، وأن الإخوة يشكلون جزءاً من القافلة وليس كلّ القافلة ، وأن بعض المسافرين من باب المصادفة أو الضرورة ، سينزلون إلى البلد الذي فيه يعقوب ، ولعلهم من سكانه .

ومن هنا جاز أن نُعرض شهادة هؤلاء في أي وقت يريدها فيه يعقوب عليه السلام .

٢٠- حينما نتأمل هذا القول على لسان الأخ « واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها » يتضح أن هذا الأخ الأكبر ، الذي مازال في الديار المصرية ، وكان كأي واحد من إخوته ، قد أعد العدّة للعودة إلى بلاده . وباعتباره كبير إخوته ، والمسؤول الأول بينهم ، لذلك نراه على علم تام ببعض الأشياء التي قد لا يعلمها من تحمل مسؤولية السفر عنه سواه . فهذا الأخ نعتقد أنه المدبر لشؤون إخوته في هذه الرحلة ، ومن هنا جاز له أن يكون على علم بأن بعض المسافرين ستكون نهاية رحلتهم البلد الذي فيه يعقوب .

ومن يدري ؟ ربما كان هناك اتفاق على أن يكونوا قريبين في القافلة من بعضهم . وقد أفسد حادث السرقة كل شيء .

٢١ـ حينما نتأمل هذه الجزئية التي أتت على لسان هذا الأخ بعد ذلك مباشرة « وإنا لصادقون » فإن الذي يلفت انتباهنا اشتمالها على إن واللام ، وكلٌ منهما يفيد التوكيد .

ونستطيع أن نقول أيضاً بهذا الصدد : حتى صفة الصدق ، لا يبخل هذا الأخ المرهف الإحساس أن يلقنها إخوته .

وعلى الرغم من أن كل ما يقوله هذا الأخ الآن والإخوة لأبيهم مستقبلا صدق . إلا أننا نجد ميلا أكيداً إلى خلع صفة الصدق على الكلام الذي يقال كما نجد اهتماماً بعيد المدى بالشهادة .

فنحن بصدد جملة شهد من قوله : « وما شهدنا إلا بما علمنا » كما أن الآية الأخيرة تدور في مجموعها حول الشهادة « واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون » فلم كلُ هذا الاهتمام بالشهادة ؟ مع أنهم صادقون الصدق كله ؟

والجواب على ذلك أنه رد فعل للشعور العميق بالنقص الجوهري في القضية الأولى ، قضية يوسف عليه السلام . فلم يكن عندهم من شاهد آنذاك سوى القميص الذي عليه دم كذب .

٢٢ـ في الإمكان أن نقف بعض الوقت عند جملة « ارجعوا » من قوله تعالى على لسان هذا الأخ:« ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا » إلى آخر ما جاء على لسانه .

وقبل ذلك ، نود الوقوف عند جملة واحدة استعملها كلٌ من يعقوب ويوسف عليهما السلام في خطاب هؤلاء الإخوة أنفسهم .

قال تعالى على لسان يعقوب : « يا بنيّ اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله ، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » وقال تعالى على لسان يوسف : « اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً وأتوني بأهلكم أجمعين » .

فدل استعمال جملة ذهب في المناسبتين ، أن المراد ذهاب الإخوة مع انتظار عودتهم . فهذا هو الذي يأمله يعقوب عليه السلام ، وهذا هو الذي ينتظره يوسف عليه السلام ، بل هذا الذي أمر به صراحة في قوله: « وأتوني بأهلكم أجمعين » .

فإذا عدنا إلى جملة ارجعوا ، على لسان الأخ الأكبر ، فلا نشمّ منها أي انتظار منه وأمل في عودة إخوته إليه .

وهذا دليل على تصميم هذا الأخ على البقاء في مصر حتى يأذن له أبوه أو يحكم له خير الحاكمين .

٢٣- حينما نتأمل قول يعقوب للإخوة : « يا بني اذهبوا » وقول هذا الأخ الأكبر للإخوة أنفسهم: « ارجعوا إلى أبيكم » دون توطئة . فإنا نتبين فرقاً بين لهجة الأب الحنون المتألم ، ولهجة الأخ المنفعل الثائر .

هذه هي ملاحظاتنا على قول الأخ الأكبر وفعله ، والله أعلم .

ويبقى بعد ذلك سؤال لطيف بشأن هذا الأخ الأكبر الذي قرر البقاء في مصر هو : هل قُدر لهذا الأخ أن يعود مرة أخرى إلى الشام قبل تحول يعقوب عليه السلام وآله إلى مصر ؟ أم لم يقدر له ذلك ؟

والجواب يمكن أن يكون عن طريق تأمل الشرطين اللذين اشترط تحقق واحد منهما كي يعود إلى والده .

قال تعالى على لسانه : « فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين » .

والآن نتساءل ، هل قدر ليعقوب عليه السلام أن يأذن لهذا الأخ الأكبر في مغادرة مصر والعودة إليه ، وكيف يمكن أن يتم ذلك ؟

باقتناع يعقوب بأن ما حدث لابنه الأصغر قدر من الله تعالى لا يد لمخلوق فيه .

ولكن يعقوب مشغول الفكر بابنيه اللذين كان نصيبهما من الشقاء كبيراً ، يوسف وبنيامين .

لهذا طلب من أبنائه أن يتحسسوا من يوسف وأخيه . قال تعالى: « قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون ، يا بنيّ اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله ، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » .

وحينما يعود الابنان الحبيبان يعود الأخ الأكبر ضمناً . وقد صرح يعقوب برجائه الكبير في الله تعالى أن يحقق له ذلك .

قال تعالى على لسانه: « عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً ، إنّه هو العليم الحكيم » .

وبما أن يعقوب إنما علم لأول مرةٍ علماً أكيداً عن يوسف بأنه حيٌّ يرزق ، حينما ألقي عليه القميص ، الذي بعث به يوسف إليه ، وتحول بعد ذلك مباشرة إلى مصر . فمعنى هذا أنه لا مجال أساساً لأن يأذن يعقوب لابنه الأكبر أن يبرح أرض مصر ويعود إليه .

والآن إلى تأمل الشرط الثاني « أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين » وقد عرفنا أن المراد هو الحكم له بأنه صاحب الرأي بجعل يوسف في غيابة الجب إنقاذاً له من قتل مباشر أو غير مباشر .

وكيف يتحقق هذا الحكم من الله خير الحاكمين ، لهذا الأخ الأكبر ببراءته؟ بالعثور على يوسف حيّاً يرزق، وعلم يعقوب الأكيد بذلك .
وقد عرفنا أن ذلك تحقق عن طريق القميص .

وقد آن الأوان كي نتلو بعض الآيات التي فيها الجواب على سؤالنا ،

هل قُدر لهذا الأخ أن يعود مرة أخرى إلى الشام قبل تحول يعقوب وآله إلى مصر أم لم يقدر له ذلك ؟

وقبل التلاوة نود أن نشير إلى ضرورة التنبيه إلى لفظ البشير بصيغة المفرد وجملة ألقاه التي تعود إلى البشير المفرد في هذه الآيات . قال تعالى : « اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً وأتوني بأهلكم أجمعين ، ولما فصلت العير قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ، قالوا تا الله إنك لفي ضلالك القديم ، فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا ، قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون ، قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين ، قال سوف أستغفر لكم ربي ، إنه هو الغفور الرحيم » .

ولا يخفى أن خطاب يوسف عليه السلام موجه إلى جماعة الإخوة « اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً وأتوني بأهلكم أجمعين » . بينما جاء البشير في صيغة المفرد . فمن هذا البشير ؟

في الحقيقة ، لا نجد أحداً من أبناء يعقوب عليه السلام ، أولى بكونه البشير الذي يُلقي بقميص يوسف على وجه يعقوب فيرتد بصيراً من هذا الأخ الأكبر .

فمن الجائز أن يكون الأخ الأصغر قد عاد مع الإخوة الحاملين لقميص يوسف ، بل ان هذا ما يوجبه بره بأبيه خاصة وأنه سلوة يعقوب عن أحب أبنائه إليه يوسف الذي قضت حكمته تعالى أن ينتقل إليه أبوه ويتحول معه في مصر حيث الخصب والخير الوفير .

ولكننا مع ذلك نجد الأخ الأكبر أولى أبناء يعقوب ، وفيهم أصغر أبنائه ، بكونه أول داخل على يعقوب ، حاملا البشارة بكون يوسف عليه السلام على قيد الحياة ملقياً القميص على وجهه فارتد الإبصار إلى كلتا عيني يعقوب بعد أن تحول إلى أعمى من الحزن على ابنيه الحبيبين .

وهكذا يتضح أن الأخ الأكبر قُدر له أن يرجع إلى والده في الشام ، ويتحول برفقة والده إلى مصر .

وبناء على ذلك يكون أكبر الإخوة قام بثلاث رحلات وأصغرهم برحلتين فقط بينما قام بقية الإخوة بأربع رحلات .

أما يوسف عليه السلام ، ويعقوب عليه السلام وآله ، فقد كان من نصيبهم رحلة واحدة فقط ، تمّ فيها بالنسبة ليعقوب وآله الالتقاء بيوسف الذي آتاه الله تعالى من الملك وعلمه من تأويل الأحاديث .

وبهذه المناسبة نستطيع أن نقول : إن شخصية الأخ الأكبر تطورت بعد ثبوت ظاهر السرقة على الأخ الأصغر تطوراً سريعاً تجاه الخير والصلاح .

وكانت أخيراً النهاية السعيدة حينما تبينت له حقيقة العزيز وأنه هو أخوه يوسف . وتمت على يديه البشارة كما سبق أن أشرنا .

ويبقى في الحقيقة سؤال بسيط يُطلُّ برأسه علينا وهو : كيف عرف هذا الأخ الأكبر ، أن عزيز مصر هو أخوه يوسف ؟ ومتى تمت المعرفة وهو الشخص الذي انقطعت عنه أخبار إخوته ، ولم يكن يعرف أنهم سيعودون إلى مصر مرة أخرى ؟

والجواب على ذلك أن هذا الأخ ولا شك ، كان عند وعده الذي أخذه على نفسه ، ومصمماً على الاستمرار في البقاء بمصر حتى يأذن له أبوه أو يحكم له خير الحاكمين ، وقد انقطعت كلُّ صلة له بإخوته تقريباً .

ونستطيع أن نفهم أنه كان يائساً من احتمال إطلاق سراح العزيز لأخيه قبل انقضاء المدة المعلومة ، التي يبقى فيها السارق مسترقاً ، فإن جواب العزيز الحاسم على طلب الإخوة سابقاً « قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ، إنا إذن لظالمون » جعل اليأس من هذا الأخ متمكناً ، لهذا لم يفكر مطلقاً في تجديد محاولة الطلب من العزيز بأخذه ، بدلا من أخيه .

فضلا عن طلبهم من العزيز شيئاً آخر أبعد من هذا .

بل إننا نميل إلى أن هذا الأخ الأكبر ، قمة في الصلاح والتقوى ، لن يخطر بباله البتة شيء من هذا ، ما دام أن المسألة تتعلق بحد من حدود الله تعالى .

لكل ذلك نميل إلى أن الإخوة بمجرد وصولهم إلى مصر في المرة الثالثة ، كان همهم البحث عن أخيهم الأكبر والعثور عليه .

ونستطيع أن نفهم أنه قد تم لهم ذلك بكل يُسر . فلا يمكن بحال لهذا الأخ الأكبر الذي ضحى بكل شيء في سبيل الأخ الأصغر ووالده أن يكون بعيداً عن المكان الذي اعتقد أن أخاه المسترق ينزله .

ونستطيع أن نفهم أنه عرف كلَّ شيء عن والده وساءه تماماً الحال السيئة التي انتهى إليها ، والعمى الذي حل بكلتا عينيه ، ولكن ليس باليد حيلة ، والأمر كله لله .

وفي إمكاننا بهذه المناسبة أن نتساءل : هل كان هذا الأخ الأكبر واحداً من الإخوة الذين دخلوا على العزيز في الرحلة الثالثة ؟

والجواب على ذلك أننا حينما نتأمل الكلام الذي جرى على لسان الإخوة لا نجده يهيئ للفهم بأن للأخ الأكبر دوراً فيه . قال تعالى : « فلما دخلوا عليه قالوا يا أيُّها العزيز مسنا وأهلنا الضرُّ وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين » .

إن هؤلاء الإخوة يمسون مسألة أخيهم الأصغر مسّاً رفيقاً ، لإيمانهم العميق بأن العدل فقط هو الذي جرى بحقه . مع ملاحظة أن مساس الضر لآل يعقوب ليس مصدره فقط عدم رجوع الأخ الأصغر إلى أبيه .

ونميل إلى الاعتقاد بأن هذا الأخ ، الذي ما بقي في مصر إلا من أجل الأخ الأصغر المسترق ووالده ، لم يكن يشبعه إشارة خاطفة كهذه لو أنه أباح لنفسه مفاتحة العزيز في قضية أخيه .

وبما أن هذا الأخ قمة في التدين ورهافة الإحساس ، لذا نميل إلى أنه ليس له دور مطلقاً في هذه الجزئية التي نعتقد أنها جرت على لسان إخوته : « يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر » .

والذي يساعد على فهم كهذا ، وأن الأخ الأكبر لم ينبس ببنت شفة هذه المرة ، ما جاء في الآية نفسها بعد ذلك مباشرة « وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين » .

إن جملة « جئنا » تدلُّ على المجيء إلى المكان الذي فيه العزيز . وقد كان ذلك حال الإخوة . أما الأكبر فقد كان في مصر كما هو معروف . وهم جاءوا بدراهم غير جيدة ويطمعون من العزيز أن يتفضل عليهم بقبولها وإيفاء الكيل لهم .

إذن المسألة التي استطاع الإخوة أن يتحدثوا فيها هي الحاجة إلى الطعام . وهل لهذا الأخ حاجة إلى طعام وهو الوحيد في مصر ، وسيبقى فيها حسب اعتقاده ؟ لم يكن له حاجة بطبيعة الحال .

لكل ما سبق نميل إلى أن هذا الكلام كله ، خطاباً للعزيز ، كان من قبل الإخوة . وليس للأخ الأكبر أي دور فيه .

ولو فُرض أنه ، وهو الرجل المرهف الإحساس ، لم يجرؤ هذه المرة . على الدخول مع إخوته على العزيز ، فإنه لن يكون بحال من الأحوال بعيداً عن إخوته الذين دخلوا على العزيز ، بل يجب أن يكون قريباً منهم كلَّ القرب ، منتظراً على أحر من الجمر نتيجة حوار الإخوة مع العزيز .

وفي هذه الحال يكون عدد الإخوة الذين دخلوا على يوسف هذه المرة تسعة ويكون سؤال العزيز الإنكاري لهم « هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون » مقصوراً على هؤلاء التسعة الذين اقترحوا قتل يوسف أو طرحه أرضاً وهم الذين في حقيقة الأمر فرطوا في يوسف . وما أسرع علم الأخ الأكبر بحقيقة العزيز ! .

ومن الجائز أن يكون كلٌ الإخوة قد دخلوا على العزيز ، ولكن الأخ الأكبر لم يتكلم ، وفي هذه الحال يكون كلُ الذين أجمعوا على جعل يوسف في غيابة الجب هم الذين نبأهم يوسف بأمرهم ذلك في لحظة واحدة جميعاً .

وهنا نقول : ما أشد اندهاش الأخ الأكبر وفرحه ! وما أحرصه على كونه البشير الذي يذهب بقميص يوسف ويلقيه على وجه والده نبي الله يعقوب كي يرتد بصيرا ! .

وتبقى بعد ذلك بشأن هذا الأخ الأكبر ملاحظة طريفة ، هي أن قراره بالبقاء في مصر ، كان على علم تام من العزيز ، الحريص على تسجيل كل حركة للإخوة وسكنة .

ونستطيع أن نفهم أن يوسف البار بأبيه وإخوته ، كان دائم العناية والرعاية لأخيه الأكبر . وسواء عرف هذا الأخ مصدر كل ذلك أم لم يعرف فإن لعزيز مصر في نفس هذا الأخ ، لإحسانه الدائم وعدله التام ، منزلة ليس وراءها منزلة .

ولعل الذي جعل هذا الأخ وبقية الإخوة لا يجرؤون على مفاتحة العزيز مرة ثانية في قضية أخيهم ، بشكل صريح ، تمسك العزيز التامٌ ؛ وإلى أبعد الحدود بالمثل والمبادىء الدينية منها على وجه الخصوص .

يعقوب عليه السلام وتسعة من أبنائه :

وعاد الإخوة إلى أبيهم تنفيذاً لأمر كبيرهم الذي بقي في مصر ، ولكنهم كانوا تسعة بعد أن ذهبوا أحد عشر .

فكيف واجه هؤلاء التسعة أباهم ؟ وكيف نقلوا إليه كلام أخيهم ؟ وكيف عرف يعقوب بكل الذي جرى في مصر ، بما في ذلك قرار الأخ الأكبر ؟

إن القرآن الكريم ، ينقلنا سريعاً إلى رد يعقوب على كلام الإخوة الذي هو في حقيقته وجوهره كلام الأخ الأكبر .

وسنتأمل هذا الرد محاولين أن نفهم من منطوقه قول الإخوة ليعقوب وكيفية نقلهم ما حدث له .

قال تعالى عن يعقوب : « قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً ، إنه هو العليم الحكيم » .

إن أول نقطة نود الوقوف عندها هي قول يعقوب : « عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً » وواضح أن رجاء يعقوب في ربه كبير أن يأتيه بأبنائه الغائبين جميعاً .

وكم عدد الأبناء الغائبين ؟ إنهم ثلاثة : يوسف وبنيامين والأخ الأكبر تمام الاثنى عشر أخاً .

إذن هذه الإشارة الأولى بضمير الجماعة إلى الأبناء « بهم » في أول جواب من يعقوب على أبنائه دليل على أنه عليه السلام عرف ما جرى للأخ الأكبر بمصر جنباً إلى جنب مع ما جرى للأخ الأصغر ، وإلا لكان كلامه ، ما دام أنه لا يمكن أن ينسى ابنه الحبيب يوسف « عسى الله أن يأتيني بهما » .

فدل مجيء ضمير الجماعة على علمه بما جرى للأخ الأكبر أيضاً ، ودل ذلك بدوره على أن الإخوة قد قالوا شيئاً ما ، إضافة إلى القول الذي لقنهم إياه أخوهم . لأن الإخوة لو قالوا لأبيهم ابتداء ما طلب منهم أخوهم أن يقولوا ، لفهم يعقوب أن المراد بذلك الأخ الأصغر ، ولما فهم شيئاً عن مصير الأكبر .

لهذا نميل إلى الاعتقاد بأن هؤلاء الإخوة التسعة ، قد دخلوا على أبيهم جملة واحدة .

وما أسهل إدراك الأب الحنون يعقوب عليه السلام ، من النظرة الأولى للفرق البعيد ، بين العدد الذي ذهب فيه الإخوة والعدد الذي رجعوا به !

وما أسرع تبينه عدم وجود سلوته ، أصغر أبنائه بنيامين ، وأكبرهم الذي هو من أكثرهم براً به ! .

وكأني بيعقوب قد سأل عن الأصغر ، وتلاه مباشرة السؤال عن الأكبر وإن حال الإخوة ليغني عن سؤالهم وينبيء بشر مستطير .

ونستطيع أن نفهم أن الإخوة الذين هزتهم المصائب هزاً ، وعصرتهم الآلام عصراً ، قد أصبحوا لبقين في الحديث إلى والدهم المكلوم ، لطيفي المعالجة للمسألة الشائكة التي هم بصددها .

وكأني بهم قد بدأوا جوابهم في طريقة حسنة عن القرار الذي اتخذه كبيرهم بالبقاء في مصر حتى يأذن له أبوه أو يحكم له أحكم الحاكمين ؛ فإن ابنه قد سرق إلى آخر الرسالة الطويلة التي حملهم إياها كبيرهم .

والذي يجعلنا نؤكد أن الإخوة لم يبدأوا الحديث بظاهر السرقة ، ولكن بقرار الأخ الأكبر المترتب عليها ، هو ضمير جماعة الغائبين على لسان يعقوب كما سبق أن أشرنا .

وإن لفظ « جميعاً » مسعف لضمير جماعة الغائبين هذا في مدلوله « عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً » . ويكون الإخوة بذلك لم يقتصروا على ما حملهم الأخ الأكبر من حديث .

وقد يقال: إن الإخوة كانوا مضطرين للحديث عن الأخ الأكبر لأن أباهم سأل عنه . وهذا صحيح . ولكن يبقى لهم فضل عرض النبأين الجسيمين في صورة حسنة ، مبتدئين بالنبأ الأقل جسامة ، مثنين بالضرورة بالنبأ العظيم.

ونستطيع أن نوجز القول عن الإخوة في نقطتين :

أولاهما : هي أن الإخوة راعوا مقتضى الحال والسؤال الذي طرحه والدهم ، فكانت منهم لباقة في الرد ، استطعنا أن نستنتجها من تعليق يعقوب على ردهم .

وثانيتهما : وثيقة الصلة بالأولى ، فقد أشعرَنا تعليق يعقوب على رد الإخوة بأنهم لم يقتصروا على القول الذي لقنهم إياه كبيرهم .

ومن الجائز أن نفهم أن الإخوة قاموا بنقل هذا القول بروحه وليس بنصه . فهذا هو الذي ينتظر حينما يكون هناك كلام يضاف إلى كلام معدٍّ من قبل ، لأن التنسيق بينهما ضروري وحتمي .

وبناءً على هذه التغييرات التي أحدثها الإخوة في القول ، والتي نعتقد أنها جرت تحت فعل التأثر الفطري الإنساني في أنفس هؤلاء الأبناء البررة ، بسبب المعاناة التي كابدها ويكابدها والدهم ، فإنا نستطيع أن نقول : إن هؤلاء الإخوة ، قد أخذت تبدو عليهم طلائع التجاوب الإنساني الرحيم البعيد الحدود .

ذلك التجاوب الذي وصل بهم إلى درجة الاعتراف الصامت ، قبل أن يُعرف أيٌّ شيء عن يوسف بأن اتهام يعقوب لهم في كل مناسبة عن عدم عودة يوسف وبنيامين « بل سولت لكم أنفسكم أمراً » صحيح .

بل تجاوز ذلك إلى البحث الجماعي عن يوسف . الذي لا يعرفون تماماً عنه ، هل هو حيٌّ يرزق أم أنه غادر هذه الحياة الدنيا ؟

ولم يفعل الإخوة كل ذلك إلا تحت ضغط تجاوبهم الإنسانيّ النبيل مع والدهم ، في القضية التي لهم فيها يد ، والقضية التي لا يد لهم فيها .

وهذا دليل على أن هناك تطوراً جماعياً في نفسيات الإخوة جميعاً تجاه الخير والصلاح . وسنتبين ذلك بالتفصيل في حينه إن شاء الله .

وكان رد يعقوب على أبنائه التسعة موجزاً مركزاً .

قال تعالى : « قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً ، إنه هو العليم الحكيم » .

هذه الآية على لسان يعقوب عليه السلام ، هي كلُّ ما كان له من رد فعل مباشر على ذلك النبأ العظيم .

وبعبارة أخرى : لم يكن له عليه السلام ، أي عمل حركي ليس في هذه المناسبة فقط ، وإنما في المناسبة الأولى أيضاً ، بعد زعم الإخوة فتك الذئب بيوسف ، فلماذا ؟

والجواب على ذلك أن خصم يعقوب في المرة الأولى عشرة من أبنائه ولم يكون معه سوى أصغر أبنائه ، ولو فرض أنه أراد أن يقوم هونفسه بعمل ما ، باعتبار أنه كان فيه فضل من قوة ، فما العمل الذي كان بإمكانه أن يقوم به ؟ وهو الذي يعتقد كذب فلذات كبده .

لهذا فر في هذه المناسبة إلى الله تعالى ، فصبر صبراً جميلا لا شكوى فيه ولا تأفف ، يقيناً منه بأن هذا قدر من الرحمن ، سيثيبه عليه إن عاجلا أو آجلا .

أما في المناسبة الثانية فكان يعقوب شيخاً فانياً ، لا يستطيع بطبعه القيام بأي عمل .

يضاف إلى ذلك أن ابنه الأصغر الذي كان بإمكانه هذه الأثناء أن يعينه أو ينوب منابه في القيام بما يريد ، مسترقٌ في مصر .

ومعنى هذا أنه حتى العمل البسيط ، سؤال الشهود الذين كانوا آنذاك في البلدة التي فيها يعقوب ، لا يستطيع هذا الأب المحروق الفؤاد ، أن يسألهم عن جلية الأمر .

ثم إنه قد أيقن لغياب أحبّ أبنائه إليه بالذات ، بأن هناك يداً لطيفة خفية تحرك كل هذه الأمور ، فأقبل بكله على أرحم الراحمين .

وحينما نتأمل الآية التي جاءت على لسان يعقوب فإنا نستطيع أن نقسمها إلى أربع جزئيات :

« بل سولت لكم أنفسكم أمراً » .

و « فصبر جميل » .

و « عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً » .

و « إنه هو العليم الحكيم » .

فإذا تأملنا الجزئية الأولى « بل سولت لكم أنفسكم أمراً » لفت انتباهنا لأول وهلة أن الجزئية نفسها سبق أن استعملها يعقوب رداً على أبنائه الذين زعموا أن الذئب فتك بيوسف .

إن السبب الجوهري الذي يكمن وراء الإجابة نفسها ، مع أن الإخوة صادقون كل الصدق في المناسبة الثانية ، هو أن يعقوب ، بالإضافة إلى علمه القطعي بعدم وُد الإخوة للشقيقين ، فقد كان غير مستعد البتة لقبول ما جاء به الإخوة في المناسبتين .

ففيما يتصل بيوسف كانت الرؤيا التي رآها لما تعبّر بعد .

وفيما يتصل ببنيامين ، فقد كان من الصعب عليه جداً بل من المستحيل أن يقتنع بأن أصغر أبنائه وهو الذي لا يقل تديناً عن أكثر إخوته تقوَى وإقبالا على الله تعالى يمكن أن يتورط في عمل مخز كتهمة السرقة التي يشهد الإخوة أمامه بأنها ثابتة في حقه .

وفوق ذلك هم يدعون بأن هناك العديد من الشهود ، القريبين والبعيدين على حد سواء .

إن يعقوب مهيأ نفسيّاً لرفض كل ما يجيء به الإخوة من أنباء سيئة عن الشقيقين ، فكيف إذا كان الذي يخص الأخ الأصغر تهمة السرقة التي لا يمكن بحال أن تلصق برجل صالح ؟

ومن هذا الرجل ؟ إنه ابن نبي الله تعالى يعقوب الذي ما زال على قيد الحياة .

ولا يخفى أن هذه الجزئية التي يستعملها يعقوب للمرة الثانية ، يستحقها الإخوة جزاءً وفاقاً لعملهم الأول السيئ مع يوسف .

وواضح أن « بل » تفيد الإضراب وإلغاء كل الكلام الذي تفوه به الإخوة واعتباره من لغو القول .

ولا شك أن هذه صفعة عنيفة للإخوة .

وتأمل « أمراً » التي جاءت منكرة والتي اكتسبت قوتها وعميق مغزاها وواسع شمولها من هذا التنكير .

إن الذهن ليجتهد في سبيل تبيين ذلك الأمر الذي لن يكون في كل أحواله إلا شرًّا مستطيراً . . والمتأمل لهذه الجزئية من الآية ككل ، يتضح له أنها هي فقط المقصورة على الإخوة . وعلى الرغم من أن يعقوب موقن من أن للإخوة يداً من نوع معين في قضيتي يوسف وبنيامين . فإن هذه الجزئية التي استعملت نفسها في المناسبتين ، تعتبر قمة في النقاء والطهر .

وهل ينتظر من نبي الله شيء غير هذا حينما يبلغ منه الغيظ غايته والحنق منتهاه .

والمنتظر أن الإخوة سيؤلمهم جدًّا الكلام الموجز البليغ الذي وجهه إليهم والدهم ، ولكن الذي يجعلهم يتجرعون مرارة هذا الكلام مع شيء من الاقتناع بأنهم يستحقون ذلك وأكثر منه ، أنهم يذكرون جيداً عملهم السيئ بيوسف . خاصة وأن هذا الكلام ، هو نفسه الذي وجه إليهم في تلك المناسبة .

وإذا كان يعقوب في المناسبتين قادراً حينما يوجه الكلام الخاص بأبنائه على ضبط أعصابه والتحكم في لسانه إلى أبعد الحدود ، فإن هذه القدرة العجيبة تزداد وضوحاً ونزداد منها ثقة حينما ننتقل إلى الجزئية الثانية التي تتعلق في حقيقتها بذات نفس يعقوب عليه السلام « فصبر جميل » .

إنه لدرس جميل بليغ نافع يلقيه نبي الله يعقوب ، وكل نبي ورسول على أمة الإسلام ، فبانتهاء الجزئية الأولى ، القصيرة جدًّا ، الطاهرة جدًّا ، ينتهي كل ما يتعلق بالإخوة وينتقل إلى ذات نفسه ويضرب المثل الأعلى في الصبر الجميل عنه الصدمة الأولى .

إن هذه الصدمة وإن كانت في العدد ثانية إلا أنها توشك أن تكون في حقيقتها أولى . ألم يكد يحتل بنيامين المنزلة التي يحتلها يوسف نفسها ؟ خاصة وقد بعد العهد جداً بيوسف فكاد يكون لبنيامين المنزلةالأولى في قلب يعقوب بالأصالة . ولا ننسى أن نلكء القرح بالقرح أوجع .

ومع كل ذلك فإن يعقوب يصبر صبراً جميلا ليس فيه شكوى إلى مخلوق ، ولا عبوس في وجه ابن ، لعلمه القطعي بأن هذه الأمور ، وإن كان يبدو أن لبعض البشر يداً في تحريكها . فإن هذه اليد لا تتحرك إلا بإرادة الذي شاء لها ذلك . فالإيمانَ الإيمانَ بالقدر خيره وشره ، والصبرَ الصبرَ الجميل .

وإن كل نفس تصادف موقفاً عصيباً ، فإنها تتخذ موقفاً من هذه المواقف التالية :

١ ــ موقف الجزع الشديد الجامح الذي يأخذ مع مرور الأيام في الضعف والفتور الطبيعيين وهذا الموقف غير محمود .

٢ ــ موقف الجزع الشديد الذي لا يلبث حالا أن يعود صاحبه إلى جادة الصواب ، وهذا موقف محمود على سابقه .

٣ ــ الصبر وهذا الموقف أحسن الثلاثة .

٤ ــ الصبر الجميل ، الذي ليس فيه شكوى ولا تبرم ولا تأفف .

وهذا الموقف أحسن المواقف جميعها .

وليس بخاف أن حظ يعقوب أحسن المواقف ، وهل يستغرب الشيء من معدنه ونحن بصدد نبي مصطفى من أنبياء الله تعالى ؟

وإن الشيء الآخر الذي يمكن أن يذكّر به ، وهو أن الصبر الجميل موقف يعقوب دائماً . وبعبارة أخرى : ليس هناك شيء من تطور أو تغير في موقف يعقوب من المصائب التي تحل به والتي تجيئه من زاوية أغلى ما يملك. إن موقفه من عدم مجيء يوسف الصبر الجميل ، وليس هناك شيء آخر سواه.

وإن موقفه من عدم مجيء الأخ الأصغر والأكبر في المرة الثانية هو الصبر الجميل أيضاً .

إن موقفه في المرتين الغاية التي ليس وراءها غاية .

إنه الصبر الجميل عند الصدمة الأولى في المناسبتين .

وما أجمل الصفة « جميل » في نعت الصبر الذي أهم صفاته العاجلة « المرارة » ! .

وكيف يكون المر جميلا ، وكيف يتم ذلك ؟ إنه يكون كذلك عند ذوي النفوس المطمئنة التي تتذوق الحلاوة ، النتيجة النهائية لحلاوة الصبر ، في الوقت الذي لا يطعم غيرها باستمرار سوى المرارة الدائمة .

هذه النفوس يجب أن تكون من نوع ممتاز .

لهذا هي تفطن دائماً لمواطن الجمال والحلاوة حيث لا يرى سواها إلا قبحاً ومرارة ، ومن هنا ندر وجود أمثال هذه النفوس ، وحينما توجد ، يجمل التنويه بجمالها والإشادة بجلالها .

ولا يمكن بحال أن يقال عن صبر يعقوب في المرة الثانية إنه تبع للأولى ، وامتداد لها وإن يعقوب عليه السلام قد اكتسب دُربة ومراناً من المرةالأولى ؛ فإن هناك سؤالا يلح علينا في هذه المناسبة ، ولا نجد عليه جواباً إلا إكبارنا لصبر يعقوب في المناسبتين معاً .

وهذا السؤال هو : وهل كان صبر يعقوب في المناسبة الأولى تبعاً لمناسبة سابقة وامتداداً لها ؟ .

والجواب بطبيعة الحال معروف .

ولا يمكن بحال أن ننقص من وزن الصدمة في المناسبة الثانية ؛ فإن الابن الأصغر احتل تقريباً منزلة يوسف ، يضاف إلى ذلك عدم عودة الأخ الأكبر في الرحلة نفسها .

وهل كان الذي جرى على لسان يعقوب في المناسبتين ، فيما يتعلق بأبنائه المخاطبين وذات نفسه إلا واحداً « بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل » .

فإذا انتقلنا إلى الجزئية التالية في الآية : « عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً » فإنه يتضح منها إيمان يعقوب المطلق في الله عز وجل ، الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء . إن يعقوب يتبين له أن الله عز وجل يصطفيه بالابتلاء في أبنائه أعز ما يملك في هذا الوجود . وليس هناك دليل واحد على أنه ليس هناك أمل مطلقاً في عودتهم جميعاً وبدون استثناء .

إن الأخ الأكبر يمكن أن يعود . ألم يجعل إذن والده له بالعودة واحداً من شرطي العودة . وإن الأخ الأصغر يمكن أن يعود يوماً من الأيام . فإن لاسترقاق السارق ـ إن جاز أن ابنه سرق ، وكان ذلك مستحيلا في اعتقاده ـ حدًّا زمنيّاً في الشريعة الإبراهيمية .

وحتى يوسف عليه السلام يمكن أن يعود يوماً من الأيام ، ويلتقي به يعقوب ويضمه إليه ويجد ريحه . لأن رؤيا يوسف لما تعبر بعد .

ولا شك أنه كان على علم تام بأن عدم عودة يوسف إليه أول الأمر يعتبر اصطفاء من الله تعالى له بالابتلاء . وكان على أمل اللقاء به ، ذلك الأمل الذي لم يمحه سواد الليل وبياض النهار ، بل كان له مجرى فريد يسير فيه .

ففي الوقت الذي تأخذ فيه أمثال هذه الآمال نحو الضعف فالتلاشي فالاختفاء إذا بأمل يعقوب لا يزداد مع الأيام في القوة إلا تمادياً . ومعنى هذا أنه كان ينتظر أن يعود عدد أبنائه اثنى عشر أخاً ذكراً بدلا من الأحد عشر أخاً باقياً بعد غياب يوسف .

ومعنى هذا أنه كان يطمع في الزيادة وإذا به يصعق للنقصان .

وهنا يرتفع إيمان يعقوب المطلق في الله عز وجل إلى مستوى الابتلاء بل إلى الدرجة التي نعتقد أنها ليس وراءها درجة . إن إيمانه لا يجعله مكتفياً

بالصبر الجميل عند الصدمة الأولى ، وإن الصبر الجميل في حد ذاته ليصور الإيمان في درجة من أعلى الدرجات التي لا يصل إليها إلا من اصطفاه الله تعالى بها وأعانه عليها .

بل إن إيمان يعقوب الموقن بأن هذه إرادة الله تعالى ليحدث رد فعل حسن في نفسه المطمئنة ، مصدره حسن الظن المطلق بالعليم الحكيم ، والثقة في عفوه ، واليقين في عاقبته ، والرجاء في ثوابه ، والأمل في كشف ضره ورفع بلائه ؛ لهذا جاء على لسانه « عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً » .

ونود أن نقارن بين الجزئيتين في المناسبتين فنقول : لم اختلفت الجزئيتان هنا : « والله المستعان على ما تصفون » و « عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً » ؟ بينما اتفقت الجزئيتان السابقتان في كل من المناسبتين « بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل » ؟ .

والجواب على ذلك أن نفسية يعقوب في المناسبتين مختلفة . فحينما قال في المرة الأولى : « والله المستعان على ما تصفون » كان حديث عهد بحزن، وعنده ثقة مطلقة في عون الله عز وجل، مع أمل غير مبين، فصبر واحتسب، وكان عنده شقيق يوسف الذي أخذ يتعزى به عنه وكان بمثابة القشرة التي تغطي جرح يوسف .

ومرت السنون ولم يندمل الجرح ، وفجأة إذا بهذه القشرة تنزع في عنف ودون مقدمات ، ممثلا ذلك في عدم عودة الشقيق فيتدفق الدم حارًّا وبغزارة ، ويبقى الجرح عارياً .

وهنا يبدو إيمان يعقوب غير المتناهي ، وثقته في الله غير ذات الحدود .

وبقدر ما كانت هذه الصدمات من العنف والقسوة ، بقدر ما كان إيمان يعقوب في مستواها ، بل وفوق مستواها .

ونستطيع أن نقول : إن هذه الجزئية « والله المستعان على ما تصفون »

في المناسبة الأولى ، تمثل طفولة الألم عند يعقوب وإيمانه المطلق في الحق جل وعلا .

وإن هذه الجزئية : « عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً » في المناسبة الثانية تمثل هذا الألم وقد بلغ أشده واستوى ، وذلك الإيمان وقد بلغ أعلى قممه التي يمكن لعقل بشري أن يتصورها .

« وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سأل جبريل عليه السلام : ما بلغ من وجد يعقوب على يوسف ؟ قال : وجد سبعين ثكلى . قال : فما كان له من الأجر ؟ قال : أجر مائة شهيد ، وما ساء ظنه بالله ساعة قط » (١) .

وهل يستغرب الشيء من معدنه .

وهل يُنبت الخطيَّ إلا وشيجُه   وتغرسُ إلا في منابتها النخلُ(٢)

أو لم يقل الله عز وجل في كتابه العزيز عن موقف أبينا إبراهيم من مشركي قومه وجزائه له « فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيّاً، ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدقٍ عليّاً »(٣) .

فإذا انتقلنا إلى الجزئية الأخيرة التعقيبية من الآية : « إنه هو العليم الحكيم » فإننا نتبين ثقة نبي الله يعقوب المطلقة في الله تعالى .

وهو بذلك يُلقي درساً نافعاً على كل ذي بصيرة نيرة وأُذن مصغية وقلبٍ واعٍ .

وتأمل الصيغة التي جاءت فيها هذه الجزئية ، والتي تنقل لنا إيمان يعقوب بأن الله عز وجل فقط هو العليم الحكيم .

---

(١) الكشاف ١٥١/٢ .
(٢) البيت لزهير بن أبي سلمى ، الشاعر الجاهلي .
(٣) سورة مريم : ٤٩ ، ٥٠ .

إنه العليم ببواطن الأمور ، ومن ذلك المكان الذي فيه ابنه الحبيب يوسف وحقيقة التهمة التي زعم الإخوة ثبوت لصوقها بابنه الأصغر الحبيب .

فهاتان المسألتان أهم ما كان يشغل بال نبي الله يعقوب .

وإن الله عز وجل ، يخضع كلُّ ما يجري في هذا الكون لإرادته ولحكمة يريدها وإن خفيت على الكثير من البشر .

وحينما نتأمل هاتين الجزئيتين ذواتي العلاقة الوثيقة بينهما : « عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً ، إنه هو العليم الحكيم » نجد أن كلا منهما حددت معنى الأخرى أو وجهته وجهة معينة .

فحينما نتأمل الأولى في ضوء الثانية فإنا لا ننتهي فقط إلى أن الأولى مجرد أمل ورجاء كبيرين في الله تعالى من العبد العاجز يعقوب ، وإنما ننتهي أيضاً إلى أن يعقوب إنما يستمد قوله هذا من علم الله اللّدنيِّ الذي يصطفي الله تعالى به من يشاء من عباده الصالحين .

ألم يأت بعد قليل على لسان يعقوب قوله تعالى : « وأعلم من الله ما لا تعلمون » ؟

ألم يأت عنه قوله تعالى : « وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ؟

ألم يأت على لسان يعقوب قوله تعالى : « ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون » ؟

وفي ضوء هذه العلاقة بين الجزئيتين ، نستطيع أن نفهم من قوله تعالى على لسان يعقوب: « إنه هو العليم الحكيم » أن ما سبق أن جاء على لسانه مباشرة : « عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً » هو من باب العلم اللدني الذى مصدره العليم الحكيم .

فإذا عدنا إلى تأمل هذه الآية ككلّ « قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً

فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم » فبالإضافة إلى أن الجزئية الخاصة بأبنائه كلها عفة وطهر ، فإنا نتبين أن يعقوب يتجه سريعاً من مخاطبة أبنائه ، إلى الكلام عن نفسه ، إلى الكلام عن الذات العلية

وحينما نتأمل كمية الكلام التي خص بها أبناءه ونفسه ، وكمية الكلام التي توجه بها إلى الذات العلية ، فإنا نجد الكمية الأخيرة هي الأكبر .

يقول عن أبنائه ونفسه : « بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل » .

ويقول عن الذات العلية : « عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً ، إنه هو العليم الحكيم » .

بل إننا حينما نتأمل الجزئية التي يخص بها نفسه « فصبر جميل » نجده يعبر فيها عن امتثاله لإرادة الله تعالى وأمره بالصبر الجميل .

إنها تخص الذات العلية بأكثر مما تخص يعقوب .

وكل ذلك من الأدلة الكثيرة على إقبال يعقوب بكليته على الله تعالى .

وهذه كلها دروس بليغة يلقيها نبي الله تعالى يعقوب على أمة الإسلام ، فالإقبالَ الإقبالَ على الله .

ونستطيع أن نقولَ أيضاً : إن هذه الجزئية التي تخص الأبناء « بل سولت لكم أنفسكم أمراً » تشمل يعقوب أيضاً ، إذ تدل على عدم اطمئنانه لصدق كل ما قالوا ، وأنهم قد قاموا فعلا بعمل سيئ مّا في غير صالح بنيامين .

وبعد هذا الكلام الطيب الطاهر من نبي الله يعقوب لأبنائه يتولى عنهم راضي النفس بقدر الله وقضائه ، مذعناً لإرادته وأمره ، خالياً مع نفسه التي غطى فيها الحزن لأجل يوسف على ما عداه .

وينبغي أن نشير إلى أن السبب الذي من أجله تذكر يعقوب يوسف فقط وجاء على لسانه « يا أسفي على يوسف » أن عند يعقوب بصيصاً من الاطمئنان عن الأصغر والأكبر ، وليس عنده شيء من ذلك عن أحب أبنائه إليه ،

يوسف عليه السلام ، الذي لم يكن ميتاً فيسلي وينسى ولا حيّاً أوبته ترجى .

وقد وجد يعقوب في هذا القول نوعاً من العزاء والسلوى . وهو قول نعتقد أن يعقوب يردده باستمرار .

وسواء سمعه أبناؤه منه حالا بعد أن تولى عنهم ، ثم بعد ذلك لتكريره إياه ، أو أنهم سمعوه بعد ذلك الوقت ، فالمؤكد أنهم سمعوا ذلك القول منه مرات ومرات . بدليل قولهم :

« تالله تفتؤ تذكر يوسف حتّى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين »

والمعنى : لا تزال تذكر ابنك يوسف ، حتّى تكون مشرفاً على الهلاك بسبب إلحاحك في ذكره أو تكون من الهالكين فعلا .

وإن لنا لأكثر من وقفة عند هذه العبارة على لسان يعقوب « يا أسفي على يوسف » .

فهي من ناحية تدل على مبلغ أسف يعقوب على يوسف ، حتّى إنه لينادي الأسف الخاص به بقوله : « يا أسفَي » .

والمعتقد أن الأصل يا أسفِي ، وقد قلبت ياء المتكلم ألفاً كما تقول : يا غلاما في يا غلامي .

ثم إنها تتضمن الجناس الذي أتى عفواً ودون تعمد ولا تكلف في « أسفي » و « يوسف » .

وحينما يأتي في هذه الصورة العفوية ، يضيف إلى جمال العبارة المعنوي ، جمالا موسيقياً تطرب له الأذن وترتاح له النفس .

وهذا القول « يا أسفَي » لم يأت في القرآن الكريم إلا على لسان يعقوب نبي الله .

ونستطيع أن نلمح الفرق بين ما قاله يعقوب حينما حلت به المصيبة « يا أسفي » وبين الاسترجاع ، الذي هو في حقيقته خاص بالأمة المحمدية ، أي القول في المصيبة : « إنا لله وإنا إليه راجعون » .

وهذا التأسف في الحقيقة إنما هو نفثة المصدور يعقوب عليه السلام ، المحزون على ابنه الحبيب يوسف .

ولم يكن هذا القول منه موجهاً إلى أبنائه الذين هم في اعتقاد يعقوب السبب الأول في هذا القول منه ، بقدر ما هو محاولة للتنفيس من الكرب العظيم الذي هو فيه .

بل إن يعقوب لا يفاتح أبناءه مطلقاً فيما حل به ولا يعاود الحديث في هذه الموضوعات البتة ، وإنما الذي يبدأ بالحديث وفي الموضوع بالذات ، هم الأبناء كما سنرى .

والحقيقة أن ابتلاء الله تعالى ليعقوب لم يقف عند هذا الحد ، فقد تخطاه إلى ابتلاء من نوع جديد . فنتيجة لبكاء عينيه المتواصل منذ غياب يوسف الذي استمر سنوات وسنوات ، وازدياد سيلان الدمع منهما لابتلائه بغياب ابنيه ، فإن عينيه الآن أضعف من أن تتحملا جريان هذه الأنهر مع الدمع مع احتفاظهما بالرؤية : « وابيضت عيناه من الحزن » .

وهكذا تحول يعقوب ، إضافة إلى كل هذه الأحزان إلى شخص أعمى لا يبصر بكلتا عينيه . ولم يكن له متنفس من هذه الأحزان ، بل كانت في تجمع مستمر ، فامتلأت نفسه بها .

واستمرت الأحزان تنبع من ذات هذه النفس الممتلئة بها حتى غدت كالإناء الممتلىء الذي أحكم غطاؤه « وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم ».

ونود أن نعرف لماذا جاءت العين في صيغة المثنى : « وابيضت عيناه » مع أن المفرد في مثل هذه الحال يفي بالغرض ويغني عن المثنى ؟

والجواب على ذلك أن صيغة المثنى هنا أبلغ من المفرد ، لأنها تثبت ، بما لا يدع مجالا للتساؤل ، بأن العمى كان من نصيب العينين معاً وليس من نصيب واحدة فقط ، وهو الذي من الجائز أن يفهم من صيغة المفرد فيما لو قدر لها أن جاءت .

وإن في ذهاب ماء العينين معاً دليلا على أن الحزن فوق كل احتمال .
وكأن الحزن ، لامتلاء نفس يعقوب به ، حاول أن يجد له مخرجاً في صورة الدموع من عينيه ، فذهب بمائهما ولم يغادر ؛ لأن النبع الداخلي أكبر من التصريف .

وإن هناك نقطة هامة نود الوقوف عندها هي دور الفاء من قوله تعالى : « فهو كظيم » .

وإن فرقاً جوهريّاً في الدور الأبلغ الذي تلعبه الفاء هنا ، والدور الذي تلعبه الواو مثلا والتي لم تأت هنا .

إن الواو لو جاءت هنا فقيل : وهو كظيم لكان دورها تقريريّاً صرفاً ولا تضيف جديداً ، خاصة وقد سبقتها واو من جنسها في قوله تعالى : « وابيضت » .

أما الفاء التي جاءت « فهو كظيم » فإنها تضيف جديداً ، إذ أنها من ناحية غير الواو التي سبق أن جاءت في « وابيضت » .

وإن التحول من حرف إلى حرف مما يشد الانتباه ويثير الاهتمام .

وحينما نبحث من ناحية أخرى عن السر في هذا العدول إلى الفاء فإننا نتبين أن ابيضاض العينين سبب جديد في الحزن الذي امتلأت به نفس يعقوب فغدت كالإناء الممتلئ الذي ربط على ما فيه ، كيلا يخرج منه شيء .

وهكذا يتضح الفرق الجوهري بين الواو والفاء ، إن الأخيرة تنفرد بأنها تضيف جديداً أو تشير إلى أن ابيضاض العينين سببٌ في حزن جديد أضيف إلى حزن يعقوب القديم ، فأصبح بذلك كظيماً ، وهي صيغة مبالغة تدل على أنه عليه السلام ، لم يشك إلى مخلوق ، وإنما كان يكتم حزنه في نفسه ويُبقي همه في صدره .

فكأن للفاء فضلا جديداً في تحديد معنى اللفظ « كظيم » وأنه صيغة مبالغة ، وليس بمعنى مكظوم . لأن صيغة المبالغة هنا تتلاءم مع الحزن الجديد

الذي حل بيعقوب بسبب ابيضاض كلتا عينيه . وقد عرفنا أن للفاء دوراً في ذلك .

ونود الآن أن نعرف الفترة الزمنية التي استغرقها ابيضاض عينيه في قوله تعالى:« وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم » .

والمعروف أن مثل هذا الابيضاض يستغرق فترة زمنية قد تطول وقد تقصر . فإن الابيضاض لا يمكن أن يطرأ فجأة .

فإذا عرفنا أنه من نصيب العينين معاً وليس من نصيب عين واحدة ، وأن العادة جرَتْ بأن تسبق إحدى العينين الأخرى ، فهذا دليل على أن هذه العملية استغرقت بالضرورة فترة زمنية ذات طول معين .

كل ذلك يجري وقلوب أبناء يعقوب تنفطر أسى على والدهم ، وأنفسهم تذهب حسرات على الحال السيء الذي آل إليه .

وليس ذلك فحسب . بل إنه يبدو أن الأمور لا تريد أن تقف عند حد .

فقد كان والدهم يتردد على شفتيه « يا أسفي على يوسف » .

وكان الإخوة يسمعون هذا القول منه باستمرار وكلهم أمل أن يكف يعقوب عن ترديد هذه العبارة التي تصدر من قلب مجروح ونفس مفعمة بالآلام . خاصة وأنه يعتقد أن هذه العبارة لم تكن تجري على لسانه في الفترة التي كان يتعزى فيهابينيامين . وحينما ذهب بقي مكانه خالياً وكُشف الغطاء عن حب يوسف .

وبما أن يعقوب ليس عنده شيء يدخل على قلبه الاطمئنان من جانب يوسف ، بعكس الأخوين : الأصغر والأكبر ، لذا اجتمع الحب وعدم الاطمئنان على قلب يعقوب المتألم ونفسه البائسة فتجسد ذلك على لسانه في تلك العبارة التي يرددها باستمرار ، أراد أم لم يرد . « يا أسفَي على يوسف»

وكان الأبناء يرقبون كل ذلك في أسى من بعيد ، ولعلهم يتظاهرون

بعدم سماع شيء من ذلك ، مع أنهم في حقيقتهم ، كلهم آذان واعية لكل حرف وآهة تمر بين شفتي يعقوب .

ولكنهم كان يحدوهم في أول الأمر الأمل في أن يعود حاله ، على أقل تقدير ، إلى حاله قبل غياب بنيامين .

ونستطيع أن نفهم أن هؤلاء الأبناء البررة ، قد حاولوا كلهم ، بجميع الوسائل الممكنة ، أن يصرفوا يعقوب عما هو فيه .

وكان كل واحد منهم يتمنى لو أنه حل في قلب والده ولو محل بنيامين ، ليس في هذه المرة حسداً لبنيامين مثلا ، ولكن شفقة بيعقوب وأملا أن ينسى بذلك الحب يوسف الذي ما فتيء يذكره في تلك العبارة ، التي تنطلق خناجر تمزق أفئدة هؤلاء الأبناء البررة .

وفي الوقت الذي سعى فيه الأبناء للعمل على نقصان ما فيه يعقوب ، إذا بالزيادة تحل حينما ابيضت كلتا العينين .

ونستطيع أن نفهم الألم الذي حل بالإخوة حينما ابيضت إحدى العينين. وكانوا يتمنون النقصان ، ولعلهم تمنوا أن يقف الحال عند ترديده هذه العبارة « يا أسفي على يوسف » وأن تبرأ العين المريضة . وإذا بالعين الأخرى تتبع أختها في الطريق نفسه .

وقد صُعق الأبناء لهول المضاعفات التي انتابت والدهم الحبيب .

إنهم يسعون وراء النقصان ، وإذا بالزيادة تحل . وهي زيادة تجاه السوء أبدا .

وهنا ينفجرون في أسى ولوعة وحسرة ، منبهين أباهم في إشفاق ليس عليه من مزيد بضرورة التنبيه للخطر المحدق به إذا استمر في مطاوعة نفسه وعدم كبح جماحها . قال تعالى:« قالوا تا لله تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين » .

وبتأمل هذا الكلام يتضح أنه اشتمل على تاء القسم . والمعروف أنها تتضمن معنى التعجب .

فكأن الأبناء بلغ بهم التعجب والاستغراب من إلحاح يعقوب في ذكر يوسف حدّاً بعيداً .

ويبدو ذلك من هذه الصورة القوية جداً من التعبير .

كما اشتمل على لفظ الجلالة ، المُقسم به ، وما كان لهم أن يقسموا إلا بالله العظيم .

والحقيقة أن هذه الصيغة بالذات « تا لله » جاءت في هذه السورة أكثر من مرة .

وإن مجيء هذه الصيغة هنا تدل على أننا بصدد شخصيات متجاوبة مع الأحداث متفاعلة مع المواقف .

وإن الأبناء ليجيء على ألسنتهم جملة « تذكر » ولا يجيء جملة : تفكر ، مثلا ، فدل ذلك على أنهم دائمو المتابعة لوالدهم الحبيب ، وكلهم آذان صاغية لما يخرج دائماً من شفتيه وبين جنبيه من كلمات وزفرات .

وكانوا بالتالي دائمي السماع والتأثر لهذا القول على لسانه ، من قبيل الإشفاق عليه .

ولا يستبعد مطلقاً أن يكون في الوقت نفسه هناك شعور بالنقمة على هذا الشخص ، السبب الأول لكل هذه المنغصات .

وهنا يجيء على ألسنة الإخوة اسم يوسف صراحة . إنهم مضطرون للتفوه باسمه لأن يعقوب ذكر اسمه صراحة في الآية السابقة .

ومع ذلك هم لا يتعرضون ليوسف إلا بالقدر الضروري الكافي ، المفروض عليهم أن يتعرضوا له به .

ولولا أن ذكر اسمه ضروري لفروا إلى ضمير الغائب للدلالة عليه

ولقالوا: « تذكره » ولكنهم يريدون أن ينبهوا أباهم إلى أن يوسف بالذات هو سبب كل الذي حاق به من شبه هلاك قد يصير هلاكاً فعلا .

إنهم يتعجبون من ذكر يعقوب العقيم ليوسف ، وانتقاله المفاجيء إليه وهو الذي مضى على غيابه سنوات وسنوات .

وكان من الجائز في اعتقادهم أن يذكر بنيامين والأخ الأكبر حديثي عهد بالفراق ، وأن يستتبعه حزن معقول عليهما أو على أحدهما وليس هذا الحزن الذي لا يعرف له نظير .

وإن كلامهم فيه الصراحة والوضوح وقوة الاندفاع بعد طول حبس وكبت « تا لله تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين ». وإن قصدهم من ذلك حمل يعقوب على كبح جماح عواطفه كي يعيش ما بقي من عمره في حدود الحالة الطبيعية التي يسمح بها سنه .

وكان لزاماً على يعقوب عليه السلام أن يجيب أبناءه بعد ذلك السكوت الطويل .

والحقيقة أن يعقوب دائماً هو ذلك الشيخ الوقور ، الذي يزن كلامه الضروري بميزان الحكمة .

في مسألة يوسف لا يزيد مطلقاً على القول : « بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » .

ويظل مقبلا على أبنائه بوجهه السمح ونفسه المطمئنة . ولا يفاتحهم في هذه القضية حتى يطلبوا إرسال الشقيق معهم كما عرفنا .

وفي هذه المرة ، بعد النبأ الجلل عن بنيامين والأخ الأكبر وابيضاض عينيه لا يفاتحهم في أي مسألة حتى يثير هؤلاء الأبناء البررة مشاعره بقولهم الذي يفيض حناناً به وإشفاقاً عليه .

وماذا قال يعقوب رداً عليهم ؟ .

قال تعالى على لسانه : « قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون ، يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » .

إنه يشير صراحة إلى أن كل ما يصدر عنه من شكوى ، بما في ذلك قوله: « يا أسفي على يوسف » الذي يتضمن شيئاً من بثه وحزنه ، والذي سمعه الأبناء منه مراراً ، إنما هو موجه إلى الله تعالى .

لقد كان على اطمئنان تام بأنه ليس هناك مخلوق يمكن أن يبلغ إشفاقه عليه جزءاً من إشفاق أبنائه البررة عليه . ومع ذلك فهو إنما يخص بشكواه أرحم الراحمين ، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، والذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء .

وإن لسان حاله عليه السلام يقول : إن كان ما صدر عني من شكوى أقصد بها الله تعالى ولا أقصد بها سواه ، قد حملكم على مفاتحتي في هذه المسألة التي لا يد لي في شدة حزني بسببها ومخاطبتي في هذه الطريقة التي تفيض رحمة بي وشفقة عليّ ، فإن ذلك من رحمة أرحم الراحمين الذي يعلم ما توسوس به نفس كل مخلوق .

وتأمل صيغة الفعل التي جاءت فيها جملة « أشكو » إنها صيغة المضارع وليس الماضي كي يقال ربما كانت الشكوى أول الأمر لله تعالى وبعد تجاوب الأبناء الإنساني كان لهم حظ من نوعٍ ما فيها .

وإن هذه الصيغة « أشكو » تنسحب على الحاضر والمستقبل ولها أيضاً جذورها في الماضي حتى يأذن الله تعالى بالفرج .

وهي تصور طبيعة يعقوب الدائمة في التوجه إلى الله تعالى في السراء والضراء .

وهذا درس بليغ نافع يلقيه علينا نحن المسلمين يعقوب عليه السلام .

وإن الصيغة الزمنية نفسها تستعمل في جملة « وأعلم » من قوله:« وأعلم من الله ما لا تعلمون » وهي تشعرنا أنها بالنسبة للماضي السر في بقاء الأمل بكون يوسف ما زال حياً يرزق ، وبالنسبة للحاضر والمستقبل ، الأساس للأمل العريض الذي يبدو من القول على لسان يعقوب نبي الله « يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله ، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » .

لقد جرت العادة بأن نتجاوب عاطفياً مع القول :

ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة

أما يعقوب عليه السلام فإنه إنما يشكو بثه وحزنه للذي يعلم السر وأخفى

وتأمل قوله : « من الله » الذي ما كان يعقوب ليحذفه مع إمكان ذلك في قوله تعالى : « وأعلم من الله ما لا تعلمون » .

فهنا اعتراف واضح من العبد الفقير العاجز بأن الله عز وجل هو مصدر العلم اللدني الذي يتصرف في ضوئه وينطق بوحيه .

وإن يعقوب في هذه العبارة التي كلها اعتراف بمنّ الله وفضله ، وكلها إقرار بضعف يعقوب وفقره ، ليقرر المنزلة التي حباه الله تعالى بها واصطفاه لها ، وأن هذه المنزلة ليست لواحد من الأبناء التسعة المخاطبين في تلك اللحظة .

فإذا عرفنا أن الأخوين الغائبين الأصغر والأكبر ، لم يكونا نبيين ، ننتهي إلى أن يوسف عليه السلام فقط النبيُّ من أبناء يعقوب عليه السلام . وكأن النبوة محصورة الآن في يعقوب ويوسف . والله أعلم .

فإذا انتقلنا إلى الآية على لسان يعقوب ، التي تعتبر في حقيقتها تبيينا للعلم اللدني الذي خصه الله تعالى به « يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله ، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » فإن كل حبة من عقد هذه الآية خليقة بإمعان النظر وإدامة التأمل.

فهناك أولا التوطئة بالنداء « يا بني » التي كان بإمكان الأب يعقوب أن يستغني عنها لو شاء ، ولكن الحنان الفائق الذي حباه الله به لأبنائه . لم يكن ليسمح له بذلك .

ولا ننسى أن يعقوب يخاطب أبناءه الذين لا يزال يعتقد أن لهم يداً على أقل تقدير فيما حل بيوسف ، ولكن الجولة الأخيرة دائماً لمحبته وحنانه .

فإذا انتقلنا إلى مناسبة سابقة ، استعمل فيها يعقوب توطئة النداء نفسها ، أعني ما جاء على لسانه رداً على ابنه يوسف الذي قص عليه رؤياه « يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً ، إن الشيطان للإنسان عدو مبين » وعرفنا أن يوسف المخاطب هنا صغير بريء ، وأن الإخوة هناك كبار وفي نظر يعقوب مذنبون ، أدركنا إلى أي حد كان يعقوب عليه السلام عادلا في توزيع ما يملك على كل أبنائه دون تمييز(١) .

فإذا انتقلنا إلى جملة « اذهبوا » من قول يعقوب : « يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه » استطعنا أن نستشف منها تفاؤل يعقوب بأن يذهب هؤلاء الإخوة التسعة ويعودوا في الوقت نفسه سالمين موفورين .

وإن لنا لعضداً على فهم كهذا في قوله تعالى على لسان يوسف خطاباً لإخوته : « اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً وأتوني بأهلكم أجمعين » .

يضاف إلى هذا أن إشفاق يعقوب الدائم وتلهفه على أبنائه مقويان لهذا الفهم الذي يفيده أصلا الفعل ذهب في هذين السياقين .

فإذا انتقلنا إلى جملة « فتحسسوا » ازداد الأمل وضوحاً وإشراقاً .

---

١ ـ لمحنا من قبل استفادة من هذه التوطئة «يابنى» الى الفرق بين طريقة الأب الحنون فى الحديث ، وطريقة أخ من أكثر الاخوة برا باخوته ، أعنى الأخ الأكبر الذى وجه الخطاب اليهم دون شىء من توطئة فيما جاء على لسانه من قوله تعالى: « ارجعوا الى أبيكم فقولوا ... »

فالتحسس طلب الأخبار في الخير ، فيعقوب الآن كله أمل واطمئنان وثقة في أن يوسف ما زال حياً يرزق ، وفي حالة حسنة .

لا . . ليس ذلك فحسب ، بل إنه كله أمل واطمئنان وثقة في أن هذه الحال الحسنة ستكون من نصيب شقيق يوسف ، على الرغم من ثبوت ظاهر السرقة عليه .

ولكن بصيرة يعقوب النيرة تقضي باستحالة تورط هذا الشقيق في السرقة لذا هو يطلب من أبنائه في رفق أن يتحروا الأخبار الحسنة الخيرة الطيبة عن يوسف وأخيه .

وليس في إمكاننا إلا أن نقف عند حرف الفاء من قوله « فتحسسوا » فنتساءل لماذا لم تأت الواو أو ثم بدلا من الفاء ؟

والجواب على ذلك أنه لو جاء : يا بني اذهبوا وتحسسوا . لتساوي الذهاب والتحسس في الأهمية . ولو جاء : ثم تحسسوا . لدل ذلك على أن المهم في الأمر الذهاب ، بينما يأتي التحسس بعد ذلك بكثير في الأهمية .

ولكن حينما يجيء على لسان يعقوب « يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه » فدل ذلك على أن التحسس أهم ما في الموضوع وأن الذهاب سبب ضروري فيه فقط .

فإذا انتقلنا إلى قوله : « من يوسف وأخيه » فالذي يروعنا حقاً هو هذا الترتيب .

ولو كنا نتعامل مع شخص عادي لكان ترتيب مثل هذا الكلام في هذه الصورة : فتحسسوا من بنيامين وأخيه . لماذا ؟ لأن هناك معلومات من نوع معين عن بنيامين ، وليس هناك شيء من هذه المعلومات عن يوسف .

إذن فالمنتظر في هذه الحالة أن يكون الابتداء ببنيامين فبهذا يقضي المنطق . وربما اتخذ هذا الشخص العادي أمله المعقول عن الابن الأول مطية لأمله البعيد عن الابن الثاني .

بل إننا نميل إلى أن هذا الشخص العادي لن يجد عنده الجرأة لأن يعبر في موقف جدي كهذا عن أمل هو أقرب إلى الأحلام منه إلى أي شيء آخر .

أما فيما يتصل بيعقوب عليه السلام ، فنحن بصدد شخص من نوع آخر ، شخص اصطفاه الله تعالى بالنبوة وحباه بالعلم اللدني ، فلم تكن هذه الجزئية على لسانه « من يوسف وأخيه » مراعى فيها التدرج بالأمل من القريب إلى البعيد ، من الممكن إلى المستحيل .

ولكن هذا الترتيب روعي فيه حبه ليوسف ، والإيمان المطلق في قدرة القادر على كل شيء ، والثقة غير ذات الحدود ، بإلهام من الله تعالى ، بأن لكل ضيق فرجاً .

وبما أن المحن قد بلغت أوجها وغايتها ، فإن الإيمان بالله العلي القدير يجب أن يبلغ أوجه وقمته . ومع الإيمان الأمل والرجاء والتفاؤل .

لا . . ليس ذلك فحسب ، بل إن كل ذلك يجب أن يكون القمة التي ليس وراءها قمة . لأن كل ذلك متعلق بالذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء .

من هنا جاء على لسان يعقوب عليه السلام تقديم يوسف الممثل للأمل والرجاء الكبيرين في قوله تعالى: « يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه».

وبهذه المناسبة نقول : إن « وأخيه » المعطوف على « مِن يوسف » يرتفع مستوى الأمل والرجاء فيه بسبب العطف على يوسف إلى مستوى الأمل والرجاء السابقين .

وليس بخاف أنه ليست هناك إشارة إلى الأخ الأكبر . وهذا شيء طبيعي لأن في عودة الأخوين عودة للأخ الأكبر الذي قرر بمحض إرادته البقاء في مصر ، حتى يأذن له أبوه أو يحكم له خير الحاكمين .

فإذا انتقلنا إلى هذه الجزئية « ولا تيأسوا من روح الله » فإنا ننتهي إلى أنها

تتعلق في مجموعها بهؤلاء الأبناء التسعة الذين يخاطبهم يعقوب عليه السلام .

وهي تنهاهم عن اليأس من روح الله وتنفيسه وفرجه .

وحينما نتأمل هذه الجزئية والجزئية السابقة عليها معاً « يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله » فإنه يتبين أن الجزئية الأولى الخاصة بيعقوب تصوره القمة في الأمل والتفاؤل .

ولا يخفى أننا بصدد نبي من أنبياء الله تعالى يهتدي بنوره وينطق بوحيه وإلهامه وأين منزلة هؤلاء الأبناء من منزلة أبيهم الدينية العالية ؟

إنهم ليسوا مهيئين أساساً لأن يكون لهم مثل هذا الأمل الكبير في الله تعالى ، وبالتالي فهم غير مهيئين لتفهم أمل والدهم يعقوب الكبير ، خاصة فيما يتعلق بالتحسس من يوسف بالذات .

إن يعقوب عليه السلام يمثل منزلة دينية من طبقة معينة ، والأبناء يمثلون منزلة دينية من طبقة أخرى ، بعيدة كل البعد عن طبقة يعقوب الذي كان على علم تام بحقيقة موقف أبنائه من أمله الكبير الذي أساسه الإيمان العميق .

وهنا يسعى عليه السلام جاهداً لتهيئة أبنائه لتلقي هذا الأمل في ارتياح وتفهمه .

وكان ذلك في صورة هذه الجزئية التي قلنا:إنها تتعلق في مجموعها بالأبناء التسعة « ولا تيأسوا من روح الله » وهي جزئية تدل عل أن شيئاً من اليأس ، خاصة فيما يتعلق بيوسف ، قد دب إلى نفوس الإخوة .

بل إنها تدل أيضاً على أن تسرب اليأس في مثل مسألة يوسف أمر ليس بمستبعد .

ولكن يعقوب له رأي في هذا اليأس وفي النفوس التي يجوز بحقها وهو ما عبر عنه في الجزئية الثالثة والأخيرة من الآية كما سنرى .

وإن يعقوب حينما ينهى أبناءه عن اليأس من روح الله ، إنما يعين لنا منزلة هؤلاء الأبناء الدينية .

إنه وهو نبي الله لم ييأس قط من روح الله ، بل إنه تخطى مرحلة اليأس إلى الأمل ، بل إنه تخطى مرحلة الأمل إلى مرحلة الأمل العالية التي ليس وراءها مرحلة .

وهو إنما وصل إلى ما وصل إليه لأنه ببساطة نبي .

أما هؤلاء الأبناء التسعة فليسوا كذلك . إنهم من عباد الله الصالحين فقط .

وقد عين لنا يعقوب عليه السلام منزلتهم الدينية بهذه النصيحة التي أسداها إليهم والدهم الحنون نبي الله يعقوب « ولا تيأسوا من روح الله » .

فإذا انتقلنا إلى الجزئية الثالثة من الآية « إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » يتبين أننا بصدد قوة في التعبير واضحة .

فهنا إنّ التي تفيد التوكيد ، ولا النافية ، و أداة الاستثناء إلا ، وفي ذلك حصر لليأس من روح الله على الكافرين .

أما المسلمون لله رب العالمين فإن هذا النوع من اليأس لا يجوز بحقهم وقد جعلهم خارجه حصر اليأس في الكافرين .

ولا يخفى أن هذه الطريقة في التعبير جعلت المعنى غاية في الوضوح ، وأن هذه الجزئية الثالثة ، التي تتحدث عن اليأس ، قوة للجزئية الثانية التي تشير إليه .

وإذا كانت الثانية تنهى الأبناء عن اليأس من روح الله ، فإن الثالثة تحصره في الكافرين ، وفي ذلك أكبر نهي للأبناء عن اليأس وإخراج لهم من زمرة اليائسين من روح الله .

وإن الهدف البعيد الذي ينشده يعقوب عليه السلام ، تزويده لأبنائه بأكبر قسط من أمله الكبير في الكبير المتعال ، وقد تم له ذلك فعلا .

وأكبر دليل على ذلك أن الإخوة لا ينبسون ردًّا على والدهم ببنت شفة ، ولا نراهم إلا واقفين بانكسار أمام العزيز بعد أن قاموا بالرحلة الثالثة إلى مصر .

ولا يخفى أن الاستعداد لهذه الرحلة يستغرق زمناً ، وهذا شيء مفهوم .

أما الشيء الذي هو بحاجة إلى تبيين فالفترة الزمنية التي قضاها الإخوة عند والدهم قبل القيام بالرحلة .

والحقيقة أن الإشارة الوحيدة للفترة الزمنية التي قضاها الإخوة عند يعقوب هي قوله تعالى : « وابيضت عيناه من الحزن » وواضح أنها فترة تميل بطبعها إلى الطول النسبي .

فإن العبارة القرآنية تعني أن يعقوب كان يرى إلى درجة ما بكلتا عينيه ، ثم حل العمى بهما .

والمعروف أن ذلك لا يحدث طفرة واحدة ولكن بالتدريج ، والمعروف أيضاً أن إحدى العينين تسبق الأخرى . فدل ذلك على أن هذه الفترة تميل إلى الطول النسبي .

والذي يجعلنا نقيد الطول بأنه نسبي أن كظم يعقوب للحزن المتجدد سبب في اتجاه العينين سريعاً تلك الوجهة المعينة .

وهذا يعني أيضاً أن الإخوة طوال هذه الفترة لم يكونوا يعرفون كيف يتصرفون بحق أبيهم ؟

وحينما ابيضت عينا يعقوب وفاتحه الأبناء في ذكره المستمر ليوسف إذا به يصرح لهم بأمله الكبير في الله تعالى ويفتح لهم باب البحث عن يوسف وأخيه على مصراعيه . فتجدد الأمل وتحدد العمل أيضاً .

وإن في الاستطاعة أن نقول أكثر من شيء حول هذا الموقف المتطور من جانب يعقوب والموقف المتطور أيضاً من جانب الإخوة .

ففيما يتصل بموقف يعقوب عليه السلام ، كلما استحكمت حلقات الشدة عليه ضيقاً ، ازداد صبره عمقاً وقوة .

وحينما بلغت الشدائد ذروتها كان عند نفس يعقوب الطيبة النقية

الطاهرة ، رد فعل تفاؤلي ، يطاول أعلى الشدائد ذروة بل يتخطاها ويحلق فوقها بعيداً بعيداً ، محاولا إحياء الأمل في أنفس أبنائه التسعة ورفعه إلى أعلى الدرجات الممكنة .

وهكذا يتضح أن الموقف المتطور ليعقوب عليه السلام ، لا يقتصر على الصبر الجميل ، وإنما يشمل في الدرجة الأولى الأمل والتفاؤل العجيبين .

وفيما يتصل بالأبناء فإن الموقف المتطور لهم يبدو واضحاً جليّاً في تجاوبهم الإنساني النبيل ، وتعاطفهم مع والدهم . لدرجة أنهم لا ينبسون ببنت شفة ردّاً على كل ما قاله يعقوب لهم .

فما معنى هذا ؟ خاصة بالنسبة ليوسف .

معنى هذا أنهم سحبوا زعمهم السابق بأن الذئب قد فتك بيوسف وأنهم تخلصوا من وجوده بينهم ولكن ليس عن طريق مغادرته هذه الحياة الدنيا وأن قول يعقوب لهم في قضية يوسف:« بل سولت لكم أنفسكم أمرا » حق .

لا . . ليس ذلك فحسب ، بل إن الإخوة ليتحملون بسكوتهم فوق ما يطيقون ، ولكنهم يعتقدون في قرارة أنفسهم أنهم لذلك يستحقون .

فإن يعقوب عليه السلام أجابهم في مسألة بنيامين بالقول: « بل سولت لكم أنفسكم أمرا » مع أنهم في الحقيقة بريئون .

ولكن ما الذي يمكن أن يقولوا ؟ هل يستطيعون أن يقولوا شيئاً عن يوسف وإن سكوتهم أبلغ من القول لأنهم لو قالوا شيئاً فلن يؤدي إلا إلى المعنى الذي يفيده السكوت ؟ إذن فالصمت أولى .

وهل يستطيعون أن يقولوا شيئاً عن مسألة بنيامين ؟

إنهم صادقون في قولهم السابق ، وما الشيء الجديد الذي يمكن أن يضيفوه لو أرادوا أن يقولوا شيئاً ؟

ثم إنهم لو قالوا الشيء نفسه عن بنيامين ، فهل يحق لهم ألا يقولوا شيئاً عن يوسف ؟

لا . . لا يحق لهم ذلك .

إذن فالصمت التام أولى . وإن كان يلحق بهم ضيماً من جانب بنيامين إلا أنهم في اعتقادهم مستحقون لذلك ، لأنه لولا مسألة يوسف التي هم سبب فيها لما كانت مسألة بنيامين .

وإن هذا الموقف الصامت من جانب الإخوة يعتبر من أكثر المواقف نبلا ، كما يعتبر دليلا على شعورهم بتأنيب الضمير .

هذا بالإضافة إلى أننا في حقيقة الأمر أمام أول اعتراف علني للإخوة بأن لهم يداً في عدم عودة يوسف إلى أبيه .

وهذا الاعتراف أمام من ؟ إنه أمام من يهمه الأمر بالدرجة الأولى ، يعقوب عليه السلام .

والحقيقة أن هناك نوعين آخرين من ابتلاء الله تعالى ليعقوب وآله غطى عليهما ما حدث ليعقوب مباشرة .

هذان النوعان أحدهما قديم متأصل والثاني يلوح أنه حديث الحلول .

أما القديم المتأصل فهو الحاجة الملحة إلى الطعام بسبب المجاعة التي ما زالت تخنق الناس في كل مكان .

وأما الحديث الحلول فهو الفقر المدقع الذي حل بيعقوب وآله .

ويبدو هذان النوعان من الابتلاء بجلاء في القول الذي جاء على لسان الإخوة خطاباً للعزيز حينما دخلوا عليه « يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين»

اخوة يوسف في مصر للمرة الثالثة :

حينما نتأمل أولى آيات المشهد الذي يصور كل ما دار في الرحلة الثالثة

للإخوة تقريباً ، فإن الذي يلفت انتباهنا حقّاً هو أنها خلافاً للعادة تنقل لنا لأول مرة ما يقوله الإخوة ابتداءً ، في أول لقاء لهم بالعزيز : «يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ، إن الله يجزي المتصدقين » .

ولو أننا عدنا إلى المناسبتين الأوليين لوجدنا تجهيز الطعام ، هو ما يهتم له الإخوة حقّاً ، وهو الذي تشير إليه الآيات ابتداء .

فقد جاء في المناسبة الأولى قوله تعالى: «وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون ، ولما جهزهم بجهازهم » .

وجاء في المناسبة الثانية قوله تعالى : « ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه ، قال إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون ، فلما جهزهم بجهازهم»

وحينما نبحث عن السبب الذي من أجله سجلت الآية قول الإخوة في الرحلة الثالثة ابتداء ، فإننا ننتهي إلى أن موقف الإخوة من الوجهة النفسية مخالف للموقفين السابقين .

كان الإخوة في الرحلة الأولى محتاجين للطعام حقّاً ولكن مهما كانت مساعدة العزيز وإكرامه لهم فإنهم يظلون في حكم من يشتري بحر بماله ما يريد ، ولو كان الثمن رمزيّاً ، ولو كانت الحاجة للطعام ملحة ، ولو كان الطعام لا يوجد إلا عند العزيز .

إنه لا فرق بينهم وبين سواهم في هذه المسألة .

والشيء نفسه يقال عنهم في الرحلة الثانية . ولعل روحهم المعنوية ابتداء كانت قمة في العلو والارتفاع .

فبالإضافة إلى أنهم سيدفعون من حر ما لهم ثمناً لما يشترون من طعام ، فإنهم مرفوعو الرأس لاستطاعتهم أن يجيئوا بأخيهم من أبيهم نزولا على رغبة العزيز ، وثبت بذلك صدق كل ما قالوا .

أما في الرحلة الثالثة فقد كانت نفسيات الإخوة غاية في الانكسار .

ذلك الانكسار الذي بدا عليهم منذ أن أخرج الصواع من رحل أخيهم .

وبدا على ألسنتهم أيضاً حينما قالوا للعزيز : « يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه ، إنا نراك من المحسنين » .

وأكده رفض العزيز طلبهم رفضاً عنيفاً « قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ، إنا إذن لظالمون » .

وقد أخذ الانكسار النفسي وانخفاض الروح المعنوي يستبد بهم خلال الفترة التي قضوها مع أبيهم في الشام بين الرحلتين الأخيرتين .

إن يعقوب لا يصدقهم ، ويحل العمى به ، وهم ولا شك سبب فيه لأجل ما فعلوا بيوسف .

ويوافقون على طلب أبيهم أن يذهبوا فيتحسسوا من يوسف بالذات وأخيه كذلك .

يضاف إلى كل ذلك أن المجاعة متمكنة من آل يعقوب وكذلك الفقر .

والحقيقة أن في الإمكان أن نضيف سبباً نفسياً أخيراً في هذه المسألة ، وهو أننا بصدد تسعة رجال قمة في الصحة والرجولة وتشاء إرادة الله تعالى أن يسافروا من بلدٍ إلى بلد ، لماذا ؟ كي يحضروا طعاماً لهم ولآل يعقوب .

لكل هذه الأسباب مجتمعة تنقل لنا الآية الكريمة ما جرى على ألسنة هؤلاء الإخوة خطاباً للعزيز في أول لقاء لهم في هذه الرحلة وهذا الشيء لم تجر به العادة كما أشرنا .

هذا الانكسار النفسي الذي لاح على الإخوة في المظهر وفي القول هو السبب الذي من أجله تفطر قلب يوسف على إخوته رحمة بهم وشفقة عليهم .

وإن هناك لتطوراً آخر للإخوة تجاه الخير والصلاح ، نلمسه من قولهم .

ويتمثل ذلك في أننا بدأنا نلمس من قول الإخوة إقبالا على الله تعالى منهم بعيد المدى .

فلنتأمل قولهم في طلبهم الأول من العزيز : « يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه ، إنا نراك من المحسنين » .

ونود أن ننبه بالذات إلى هذه الجزئية « إنا نراك من المحسنين » .

فلنتأمل الآن ما يقوله الإخوة للعزيز نفسه في الرحلة الثالثة : «ياأيها العزيز مسنا وأهلنا الضرُّ وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين » .

ونود أن ننبه أيضاً إلى هذه الجزئية « إن الله يجزي المتصدقين » فإنا نتبين أننا بصدد إقبال أكيد منهم على الله تعالى .

بل إننا لنستطيع أن نقارن بين المعجم اللغوي المائل إلى الجفاف ، الذي كان يدور على ألسنة هؤلاء الإخوة الناقمين على يوسف وأخيه لحب والدهما لهما أكثر من حبه لهم ، وبين المعجم اللغوي الذي يدور على ألسنة هؤلاء الإخوة أنفسهم ، الذين صفت نفوسهم وطهرت أفئدتهم .

لقد جاء على ألسنتهم من قبل مثلا : « ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة ، إن أبانا لفي ضلال مبين ، اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين ، قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين » إلى آخر ما جرى على ألسنة هؤلاء الإخوة من حوار وادعاء .

وإن المتأمل لقول الإخوة وحقيقة فعلهم يخيل إليه لأول وهلة أنه بصدد عصبة من الرجال كادت تقطع كل ما بينها وبين أرومتها الطيبة الطاهرة من صلات .

حتى إذا انتقلنا إلى القول الذي دار على ألسنة هؤلاء الإخوة أنفسهم ،

تبين لنا أن هذه العصبة قد عادت حقاً إلى الأصل الذي خرجت منه ، فالتحمت به وذابت فيه .

قال تعالى على لسان هؤلاء الإخوة : « يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضرُّ وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ، إن الله يجزي المتصدقين » .

وقال تعالى: « تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين » .

ولا يمكن أن نستبعد مؤثراً هاماً على شخصيات الإخوة ، أسهم بقسط وافر على حملها إلى التطور السريع حيث الخير والصلاح . هذا المؤثر هو شخصية نبي الله يعقوب ، الرجل الطيب القلب ، الصافي الضمير ، النقي السريرة .

إن المتأمل لشخصيات الإخوة أول القصة يحس أنها تسير في خط غير الخط الذي يسير فيه يعقوب وابناه الحبيبان يوسف وبنيامين .

حتى إذا طلب يعقوب من أبنائه أن يذهبوا مرة أخرى فيتحسسوا من يوسف وأخيه ، إذا بالإخوة لا يملكون إلا أن يلبوا النداء . وفي ذلك الكثير من المعاني الطيبة .

وإن الموقف النبيل من الإخوة ، المتطور تجاه الخير والصلاح ، خير مهيئ لأنفسنا للانتقال مع الإخوة إلى قمة الخير والصلاح التي مثلها هؤلاء الإخوة في اللحظات التي سبقت تبينهم حقيقة العزيز والفترات التي تلت ذلك .

ونميل إلى الاعتقاد بأن كل أبناء يعقوب نبي الله – ويستثنى يوسف نبي الله ، فإن له درجة خاصة به – كانوا يرفرفون في أعلى الدرجات تقوى وصلاحاً وإيماناً حتى توفاهم الذي بيده ملكوت كل شيء .

فإذا تأملنا القول الذي جرى على لسانهم انتهينا إلى أنه قريب في روحه وجوهره من القول الطيب الطاهر الذي يجري على لسان يعقوب ويوسف عليهما السلام .

وكأن هناك نبعاً صافياً واحداً يستقى منه يعقوب وبنوه .

وإن الفرق ليتركز في أن يعقوب وابنه يوسف نبيان ، وليس كذلك باقي الإخوة .

وفي إمكاننا أن نتأمل كل جزئية من كلام الإخوة على حدة ، في هذا المشهد في هيئة ومضات من نور ، وكيف بلغت الأحداث قمتها ؟ والطريقة المريحة التي عولجت بها ، والنهاية السعيدة المرتقبة .

هناك أولا هذه الجزئية « يا أيها العزيز » وهي تدل من ناحية على المنزلة الرفيعة العالية في نفوس كلّ الإخوة ، ومن ناحية أخرى على أنهم واثقون الثقة كلها بأنهم إنما يخاطبون عزيز مصر وليس أي شخص آخر .

وهذا بدوره دليل على أن الكيد للإخوة متقن الحبكة دقيق التنفيذ ، وأنهم كانوا مقتنعين تماماً بأن الأمور كلها تسير سيراً طبيعياً .

وهناك هذه الجزئية « مسنا وأهلنا الضرُّ » وتأمل جملة مسَّ ، التي تدل أساساً على التماسّ التام بين الماسّ والممسوس .

وهي جملة دقيقة التعبير ، ولكنها بسيطة تتمشى مع نفسية هؤلاء الإخوة المنكسرة التي همها موجه إلى حل الورطة التي هم فيها وليس إلى التفخيم والتهويل .

وتأمل لفظ الأهل الذي يستخدمه الإخوة هنا « مسنا وأهلنا الضرُّ » وهو يذكرنا باللفظ نفسه الذي سبق أن استعمله الإخوة خطاباً ليعقوب عليه السلام « ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغي ، هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ، ذلك كيل يسير » .

ونعتقد أنهم حينما يستعملون لفظ الأهل في المناسبة الثانية خطاباً للعزيز ، إنما يستعملونه وفي أنفسهم مرارة خيبة الأمل .

لقد أرادوا من رحلتهم الثانية أن يميروا أهلهم ، وإذا بهذه الرحلة تكون سبباً في الضر الذي لحق بهؤلاء الأهل أنفسهم .

ويلاحظ أنه يجيء على لسان الإخوة « مسنا وأهلنا الضرُّ » ولا يجيء مثلا مسنا وأبانا الضرُّ ، والسبب في ذلك أن لفظ الأهل يشمل أباهم أيضاً . ثم إن هذه هي الحقيقة ، إذ شمل الضر آل يعقوب جميعاً .

وإن انكسار الإخوة معنويّاً يجعلهم بطريقة عفوية تلقائية ينقلون شمول الضر الذي انتاب آل يعقوب جميعاً ، ويتمثل ذلك في استخدامهم لفظ الأهل وليس أي لفظ آخر .

وتأمل لفظة الضر التي جاءت معرفة بأل ، فكأنهم يقولون ، والله أعلم : مسنا وأهلنا الضر الذي تعرف والذي لا يمكن أن يخفى عليك .

والحقيقة أن الإخوة الذين كانوا على ثقة تامة آنذاك أنهم إنما يخاطبون عزيز مصر ، كانوا يريدون بهذه اللفظة معاني ويتوقعون من العزيز أن يكون على علم ببعضها وليس بها كلها .

إنهم يتوقعون علم العزيز التام بالضر الذي حل بهم بسبب شقيق يوسف والأخ الأكبر والمجاعة التي ما زالت تخنقهم مع الفقر المدقع .

ولم يكونوا يتوقعون البتة أن يكون عند العزيز علم بشأن أخيهم يوسف .

وكيف يصل إليه أي علم وهم واثقون أن كبيرهم حريص على إبقاء تفريطهم في يوسف سرًّا ؟ وأنه ليس له علاقة مطلقاً بالعزيز . ومن غير المعقول أن يكون بين الشقيق ، الذي ثبت ظاهر السرقة عليه ، وعزيز مصر أدنى علاقة .

وهنا نتساءل : من أي زوايا الكلام الأربع يستطيع الإخوة مفاتحة العزيز ؟

هل من المعقول أن يفاتح الإخوة عزيز مصر بشأن يوسف ، على الرغم

من أنهم إنما ذهبوا من عند يعقوب امتثالا لأمره « اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه » مع علمهم القطعي بأن العزيز لا يعرف أن هناك أخاً لهم اسمه يوسف ؟

بطبيعة الحال لم يكن من المعقول أن يفاتحوه بشأن يوسف ، مع أن خروجهم من بلادهم بسببه أساساً . خاصة وأنهم كانوا حريصين على بقاء ما قاموا به تجاه يوسف في طي الكتمان .

ولو أنهم أرادوا أن يفاتحوه في هذه القضية فماذا عساهم قائلين ؟

هل يستطيعون مجرد الإشارة من بعيد إلى وضعهم لأخيهم يوسف في غيابة الجب ؟

قطعاً لا ؛ لأنهم في موقف طالب الرحمة . ولو علم العزيز عن بعض فعلهم بيوسف هل سيرحمهم أم سيغير من موقفه السابق معهم ؟ إنهم إلى الافتراض الثاني أكثر ميلا .

وهل يستطيعون مفاتحة العزيز بشأن الشقيق تمشياً مع قول يعقوب كما جاء في الآية : « فتحسسوا من يوسف وأخيه » ؟ وما معنى هذه المفاتحة ؟

معناها أنهم يحاولون تعطيل حد يعقوب نبي الله في السرقة ، الذي يثبت بحق الشقيق في اعتقادهم ، وكان الإخوة ، باستثناء ما فعلوا بحق الشقيقين ، آية في التمسك بأهداب الدين والتقوى ، إذن لن يستطيعوا مفاتحته في هذا الموضوع أيضاً .

وهل يستطيعون مفاتحته بشأن كبيرهم الذي اشترط ألا يبرح أرض مصر حتى يأذن له أبوه أو يحكم له خير الحاكمين ؟

وما دخل العزيز في هذا الموضوع ؟ إن شاء الكبير أن يعود فليعد ، وإن شاء أن يبقى فليبق .

إذن لم تبق سوى زاوية الطعام والكيل .

ومع أن الإخوة لم يجيئوا أساساً للميرة ، وإنما هي وسيلة من الوسائل ، ومع ذلك فإنها هي فقط التي تستطيع إخراج الإخوة من الحيرة التي وجدوا أنفسهم فيها . فهي الزاوية الوحيدة التي يستطيعون مخاطبة عزيز مصر منها .

ونعتقد أن إشارة الإخوة صراحة إلى دراهمهم غير الجيدة لم تكن غريبة على مسمعي العزيز بل لعله كان ينتظر كلاماً كهذا ، فالمظنون أن الدراهم الجيدة استنفدتها أو كادت الرحلة الثانية ، وكان يوسف على علم بهذه الحقيقة عن طريق أخيه بنيامين .

ومعنى هذا أنّ الدّراهم التي هذه صفتها مظهر من مظاهر الضر الذي حل بآل يعقوب .

ومعروف أن الدراهم وسيلة للحصول على الطعام .

فاتضح بناء على ذلك أنّ هذه الجزئية « وجئنا ببضاعة مزجاة » كما أنها وثيقة الصلة بالضرّ ، لأنها مظهر من مظاهره ، هي كذلك توطئة ضرورية للجزئية التي أتت بعدها مباشرة والتي تمّ فيها طلب الطعام بشكل صريح .

والحقيقة أنّ الحاجة الملحة إلى الطعام بسبب المجاعة التي طبقت الآفاق ، لا يقتصر دورها على فرض معجم لغوي من نوع معين ، بل يتعدى ذلك ، وهذا على درجة كبيرة جدًّا من الأهمية إلى دفع عجلات أحداث القصة إلى الأمام .

فبسبب الحاجة إلى الطعام توجه الإخوة أول الأمر إلى عزيز مصر ، وبالطعام أغراهم كي يأتوا بأخيهم من أبيهم إليه .

وهل كانت الدراهم التي وضعها يوسف في رحال الإخوة ، أو البضاعة ، إلا ثمناً للطعام الذي اشتروه من العزيز ؟

ألم يكن كيل البعير الذي منّى الإخوة به أباهم ، بأن يكون من نصيب الشقيق ، إلا سبباً لجعل يعقوب يسمح لهم بأخذ الشقيق معهم ؟

أو ليس الصواع الذي وضعه يوسف في المرة الثانية للاحتفاظ بشقيقه هو ما يكال به الطعام ؟

ألم يعد المؤذن في صورة مؤكدة بأن الذي يجيء بالصواع له حمل بعير ؟

وحينما طلب يعقوب منهم أن يذهبوا فيتحسسوا من يوسف وأخيه ، ألم يكن للحاجة إلى الطعام دور في تحديد وجهتهم إلى مصر ؟

والآن يتبينون أن الباب الوحيد الذي يستطيعون الولوج منه للحديث إلى العزيز هو الطعام أيضاً .

ولكنهم يتبينون كذلك ، أن دراهمهم اليوم غيرها بالأمس ، لقد كانت دراهمهم جيدة ، أما اليوم فزيوف وغير جيدة ، وهنا تجيء على لسانهم هذه الجزئية : «وجئنا ببضاعة مزجاة» أي وجئنا بدراهم غير جيدة ، كلٌ من وقعت عليها عينه من التجار دفعها ورفض قبولها .

ويمكن أن يستفاد من هذه الجزئية ما يلي :

(أ) هي تدل على ثقتهم المطلقة في كرم العزيز وإحسانه للدّرجة الّتي يقبل فيها الدراهم الّتي يرفضها كل البائعين سواه .

(ب) هي تدل على الشدة الّتي كان فيها يعقوب وآله ، والّتي أكلت الأخضر واليابس ، ولم يبق لديهم سوى هذه الدراهم .

(ج) هي تدل على الحالة الّتي يرثى لها للإخوة ، وانكسار روحهم المعنوية .

(د) هي تدل على تقوى هؤلاء الإخوة وصلاحهم .

إنهم ينصون صراحة وفي أقوى الصور بأن دراهمهم رديئة لا يمكن أن يقبلها أي تاجر .

وتأتي بعد ذلك مباشرة هذه الجزئية « فأوف لنا الكيل » .

ويمكن أن يستفاد منها أيضاً ما يلي :

(أ) هي تؤكد ثقتهم المطلقة في كرم العزيز وإحسانه وتفضله .

إنه لتكرم كبير منه مجرد قبول دراهمهم غير الجيدة التي رفض قبولها كل تاجر ، فلو أعطاهم من الكيل ما يقابل الثمن الحقيقي لها ، إن كان لها ثمن ، فذلك شيء جميل منه حقاً .

ولكنهم كلهم ثقة واطمئنان في أن يوفي لهم الكيل « فأوف لنا الكيل » لا أن يكيل لهم فقط ما يوازي ثمن دراهمهم .

(ب) يستعير الإخوة هنا في الحقيقة ما سبق أن قاله العزيز لهم في المرة الأولى ، وما ترجمه فعلا إلى عمل: « ألا ترون أني أوفي الكيل » .

ألم يقل في المرة الأولى بعد هذه الجزئية مباشرة ، وقد ترجمه إلى عمل أيضاً « وأنا خير المنزلين » .

(جـ) هي تعمّق الانكسار النفسي الذي كان فيه الإخوة ، الذي يعمقه بدوره قولهم مباشرة كما جاء في الآية « وتصدق علينا » .

إن هؤلاء الإخوة ، بعد كل ما قالوا ، ليسمحون لأنفسهم أن يطلبوا من العزيز أن يفعل شيئاً يثيبه الله عز وجل عليه ، أن يتصدق عليهم بما تجود به نفسه السخية من كيل يواجهون به الشدة المتمكنة منهم ، وحاجتهم إلى الطعام الملحة ، كي يبقوا عند أبيهم ، فيما لو قدر لهم العودة إلى بلادهم ، مدة أطول .

ويلاحظ أن ظاهر هذه الجزئية يفيد أن الصدقة كانت جائزة على آل إبراهيم ، وقد نص على ذلك البعض ، وهو ما أقول به ، والله أعلم .

ونود أن نقف عند حرفي الجر وضمير جماعة المتكلمين « لنا » و « علينا » في الجزئيتين « فأوف لنا الكيل وتصدق علينا » .

فإن حرص الإخوة في كل من المناسبتين على حرفي الجر وضمير جماعة

المتكلمين ، مع إمكان الاستغناء عنهما ، دليل على التدهور النفسي المعنوي الذي كانوا فيه .

وكي يتضح ذلك الانكسار نتساءل : هل ينتظر المتصدق من المتصدَّق عليه شيئاً ؟

لا ؛ بطبيعة الحال .

أتجوز الصدقة على كل الناس أم على فئات معينة ؟

على فئات معينة .

هل تستطيع فئة من هذه الفئات أن تجازي المتصدق عليها ؟

لا ؛ بطبيعة الحال ، وإلا لما جازت عليها الصدقة .

ثم إن المتصدق والمتصدق عليه على علم تام بأن الله تعالى هو المجازي .

إذا عبر شخص تقي صراحة وقال : تصدق عليّ ، هذا يعني أنه صادق أم غير صادق ؟

هو صادق ولا شك .

فإذا أضاف قائلا : « إن الله يجزي المتصدقين » فما معنى قوله هذا ؟

معناه أنه واثق من أنه لن يستطيع يوماً من الأيام ، في اعتقاده ، أن يكافىء المحسن عليه ، وأن الله تعالى يتحمل عنه الجزاء .

هذا ما قاله الإخوة ، وهذا هو حالهم .

وإنا لنتبين في هذه الجزئية « إن الله يجزي المتصدقين » صفاء روحيّاً يمثل مرحلة متطورة من المراحل التي مر بها الإخوة من قبل .

وبالإضافة إلى أنها تصور صفاء الإخوة الروحي ، هي تعكس الصفاء الذي استفادوه من والدهم والذي تبينوه في نفس العزيز ، ذلك الصفاء غريب الوجود في مثل ذلك المجتمع الذي فيه العزيز .

لقد شعر الإخوة في الأعماق بانجذاب روحي إلى شخصية العزيز .

والذي ساعد على ذلك اتجاه الإخوة السريع إلى الخير والصلاح ، وارتفاع درجة الصفاء الروحي فيهم .

وقد ساعد على تبلوره في هذه الصورة ذلك الغيض من فيض تواضع نبي الله يوسف وخلقه العظيم .

ومن هنا جاز لنا أن نتبين نوعاً من شبه بين الصفاء الروحي الذي يشع بدرجة معينة من كلام الإخوة ، والذي يشع بدرجة كبيرة جداً من كلام نبي الله يعقوب ويوسف عليهما السلام .

ولا ننسى أن المقصود الأول من هذه الجزئية على لسان الإخوة « إن الله يجزي المتصدقين » هو يوسف نبي الله .

وكأن الإخوة يخاطبون على علم ، واحداً من أتباع الشريعة الإبراهيمية ، لأنه لاح لهم ، كمال دين ، وعظم خلق ، في أحسن الصور التي يلوح فيها هؤلاء الأتباع . فكان خطابهم له خطاب خير ممثل لهذه الشريعة ممن اعتادوا مخاطبتهم ، وأثبتوا أنهم ألمعيون حقاً .

وبما أنه لم يكن هناك مخلوق سوى يوسف على علم بوضع يوسف في غيابة الجب ، وبالتالي لا يمكن أن يصدر كلام كهذا « هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون » إلا من يوسف . لذلك كان هذا السؤال على لسانهم « أإنك لأنت يوسف » ؟ طبيعياً جداً(١) .

ومع أنهم لم يكونوا ليخطر على بالهم أن العزيز الذي يخاطبون هو أخوهم

---

١ ـ سنعود ان شاء الله تعالى الى تبين خفايا شخصيات الاخوة فى هـــذا المشهد بالذات حينما نتكلم عن شخصية يوسف عليه السلام ، وذلك بسبب التلاحم التام بين ماقاله الاخوة ويوسف ، والحقيقة أننا بين أمرين ، اما أن نســـهب عن الاخوة هنا ، وسنضطر الى الاسهاب أثناء حديثنا عن يوسف ، فنتورط فى التكرار ، واما أن نقول الضرورى الآن ، ونسهب أخيرا ، وهذا ما ارتأيناه ، لأن الأمر الأول يعنى أننا سنسهب عن يوسف ، بينما لا نعرف عنه حتى الآن الا الضرورى والقليل .

يوسف ، إلا أنهم مهيأون من الوجهة النفسية ، بسبب الأمل الكبير الذي ألقاه في روعهم والدهم ، لأن يقتنصوا الشاردة والواردة مما له علاقة بأخيهم يوسف ، فكيف إذا سمعوا كلاماً لا يمكن أن يصدر إلا منه ؟

لذلك لم يكن غريباً أن يوقن الإخوة بأن الذي يسألهم في هيئة الاستفهام الإنكاري « هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون » هو يوسف أخوهم . فليس هناك من دليل أبلغ من هذا .

وكان جواب يوسف عليهم بالإيجاب ، فزال عنهم وطء مفاجأة الاستفهام الإنكاري . قال تعالى: « قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين » .

وإن في الإمكان أن نقسم هذا الكلام إلى قسمين :

الأول : « تالله لقد آثرك الله علينا » .

والثاني : « وإن كنا لخاطئين » .

وحينما نتأمل القسم الأول ، فإنا نتبين أنها عبارة غاية في القوة فنحن بصدد تاء القسم ولفظ الجلالة المقسم به . فما زال الإخوة يستعملون هذه الصيغة من معجمهم اللغوي . ونشتم منها معنى التعجب وبصدد اللام التي تفيد التوكيد . وقد التي تفيد التحقيق .

وهي جزئية تتضمن ، كما هو واضح ، اعترافهم الصريح بأن الله تعالى قد آثر يوسف من بينهم بفضله .

ولا يقتصر ذلك على الحاضر فقط ، للمنزلتين العاليتين ، الدينية والدنيوية اللتين يلوح فيهما يوسف عليه السلام . إنما يمتد هذا الاعتراف ليشمل في شيء كبير من لوم الإخوة لأنفسهم وتأنيب ضمائرهم لهم ، الماضي البعيد جداً .

وإن لسان حالهم ليقول : لقد كان الأولى بنا ونحن عصبة من الرجال ، أن يعدّل بعضنا بعضاً ، أن نفهم في اقتناع ، بأن محبة يعقوب والدنا الفائقة ليوسف بالذات ، قدر من الله تعالى عليه ، لا يد له فيه ولا قدرة له على دفعه . خاصة وأن أبانا ، فيما له قدرة عليه ، الغاية في العدل بيننا جميعاً .

إنها لزلة الأبد ، أن نتورط ، ونحن عصبة من الرجال ، في جعل غلام صغير في غيابة الجب ، إنه عمل مخز يستحي من مجرد تمثله في المخيلة ، فكيف به وقد حدث في الواقع ولكنه الشيطان عليه لعنة الله ، هو الذي زين لنا سوء عملنا .

وإذا كان هذا القسم اعترافاً بالخطأ ضمناً ، فهو في حقيقته ممهد للاعتراف الصريح بالخطأ في القسم الثاني من الآية « وإن كنا لخاطئين » وهذا الاعتراف في حقيقته أبلغ الاعترافات الثلاثة أثراً . ويلاحظ أنّ صيغة خاطيء تستعمل عادة بشأن المتعمّد ارتكاب الخطأ ، وليس كذلك المخطيء .

الاعتراف الأول جاء في سكوت الإخوة على لوم أخيهم الأكبر العنيف لهم.

والثاني جاء في سكوتهم أيضاً على طلب والدهم أن يذهبوا فيتحسسوا من يوسف وأخيه .

وهذا الاعتراف الثالث يجيء بصريح العبارة وأمام الشخص المجني عليه ، ومن هنا كان أبلغ الاعترافات الثلاثة أثراً .

وحينما نتأمل هذه الآية ككل « قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين » نتبين فيها روحاً صافية ، واستشعاراً بعيد المدى بالذنب ، وجواً مشبعاً بالروح الدينية ، وإقبالا أكيداً على الله تعالى . إن الصفاء الروحي الذي كانوا فيه يهيئهم لأن يتكرر لفظ الجلالة في الجزئية الأولى من الآية مرتين .

والشيء اللطيف في إحساس الإخوة العميق بعظم الذنب هو أنهم يقفون عند حد الاعتراف ، ولا يتعدونه إلى طلب العفو ، وربما كانوا مهيئين هذا

الطلب لعرضه في اللحظة المناسبة أثناء الحديث الذي اعتقدوا أنه سيطول مع أخيهم.

ولكن النبيل يوسف وفر عليهم مشقة هذا الطلب ، بإعراضه عن اللوم مجرداً ، قال تعالى على لسانه: « قال لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » .

مشهدان أخيران للاخوة :

ويبقى بعد ذلك مشهدان يظهر فيهما الإخوة ، أحدهما مع يعقوب والدهم وآله ، والثاني في مصر مع يوسف عليه السلام .

أما المشهد الأول فذلك حينما ذهب الإخوة بقميص يوسف إلى يعقوب وقام البشير بإلقائه على وجهه فارتد بصيراً .

قال تعالى : «فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً ، قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون ، قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين » وأول ما نود الوقوف أمامه بإكبار هو أن الإخوة أخذوا قول يوسف كما جاء في القرآن « اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً وأتوني بأهلكم أجمعين » قضية مسلمة غير قابلة للمناقشة . وهذا دليل على المنزلة العالية الرفيعة التي احتلها يوسف في قلوب إخوته .

ونميل إلى الاعتقاد بأن عدد الإخوة الذين رجعوا هذه المرة إلى يعقوب أحد عشر أخاً . فإذا كان يوسف نبي الله ، قد بقي في مصر ، بإيحاء من الله تعالى الذي شاءت إرادته أن يتحول يعقوب وآله من الشام ، حيث المجاعة ، إلى مصر حيث الخصب والخير الوفير ويكون في انتظارهم خارج المدينة يوسف عليه السلام ، وتعبر الرؤيا التي سبق أن رآها وقصها يوسف على والده ، فإنا لا نرى مبرراً لعدم عودة أي ابن إلى يعقوب .

فقد أشرنا من قبل إلى أننا نميل إلى الاعتقاد بأن أولى أبناء يعقوب بكونه البشير الذي يحمل القميص من مصر ويلقيه على وجه أبيه في الشام هو الابن الأكبر .

أما فيما يتصل ببنيامين فنعتقد أنه ما كان له ألا يكون مع إخوانه الحاملين لكل هذه البشائر لسببين :

السبب الأول هو أنه سلوة يعقوب عن ابنه الحبيب يوسف . وبما أن يوسف لم يكن معهم وتأكد يعقوب من كونه حيّاً يرزق ، فإنه حينما يرى بنيامين فكأنه قد رأى يوسف حتّى حين .

والسبب الثاني هو أن يوسف الذي لم يكن بإمكانه أن يأتي ، فإنه يجب أن يمثله هذه المرة واحد من إخوته ، يقوم بالواجب منابه . ولا نرى أحداً من الإخوة أولى بالقيام بهذه المهمة من بنيامين . وهكذا عاد عدد أبناء يعقوب أحد عشر ابناً ، وعن قريب يكتمل عقدهم بجوهرته ، يوسف عليه السلام .

فإذا تأملنا ما جرى على لسان هؤلاء الإخوة ، خطاباً لوالدهم يعقوب « يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين » فإنا نجد أنفسنا أمام التوطئة الّتي سبق أن لقنها الأخ الأكبر تسعة من إخوته « يا أبانا » وهي هنا تفيض محبة وحناناً وإحساساً عميقاً بالإساءة البالغة إليه من جانبهم .

ثم هم يأتون بالذنوب في صيغة الجمع ، وليس المفرد ، دليلا على إحساسهم بعظمها فإذا انتقلنا إلى تأمل باقي الكلام ، فالذي يلفت انتباهنا التطور الجديد الذي طرأ على موقف الإخوة .

إنهم سبق في كلامهم مع يوسف أن اكتفوا بالاعتّراف بالخطأ الذي ارتكبوه عن عمدٍ وسابق إصرار .

أما هنا فإنهم يقدمون طلب الاستغفار لهم على الاعتّراف بالخطأ وليس العكس فلماذا ؟

والجواب على ذلك هو أنه بالإضافة إلى أن الإساءة أساساً لم يكن يُقصد بها إلا يوسف ، وأنها شملت بالضرورة يعقوب ، فإن للأبناء عادةً دالةً على والدهم ليست لهم على أخيهم ، خاصة إذا كان هذا الأخ قد أساءوا له من قبل ، في تلك الصورة العجيبة الغريبة .

ثم إن الإخوة كانوا على يقين تام من أن السرور الذي هجم على يعقوب أذهله عن كل إساءة لحقته . أرادها الأبناء أم لم يريدوها .

وهل فكر يعقوب نبي الله ، يوماً من الأيام ، حينما كان الابتلاء في أوجه ، أن يوجه إلى واحد من الأبناء لوماً أو تثريباً ؟

وهل في إمكانه ألا يصفح وقد هجم عليه السرور من كل ناحية ، وعما قريب يكمل سروره بضم ابنه الحبيب يوسف وشمه ؟

لكل هذه الأسباب قدم الإخوة الطلب من يعقوب أن يستغفر الله لهم وتلا ذلك الاعتراف بالخطأ صراحة أمام يعقوب لأول مرة .

فإذا انتقلنا إلى المشهد الآخر في مصر ، فلا نجد واحداً من الإخوة يقول أو يفعل شيئاً ، ويقتصر وجودهم على تعبيرهم بحركاتهم عن تأويل رؤيا يوسف عليه السلام .

قال تعالى: «ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربي حقّاً » وبهذا يسدل الستار على آخر الأدوار التي قام بها إخوة يوسف الأحد عشر .

المشاهد الأربعة الأخيرة ليعقوب عليه السلام :

فإذا تحولنا إلى يعقوب نبي الله ، فإن هناك أربعة مشاهد يظهر فيها عليه السلام .

المشهد الأول:حينما فصلت العير التي فيها قميص يوسف من مصر ، فإن يعقوب وهو في الشام وجد ريح يوسف وتم الكلام المعروف بينه وبينهم .

والمشهد الثاني:حينما جاء البشير بالقميص فألقاه على وجهه فارتد بصيراً وجرى على لسانه وألسنة أبنائه الكلام المعروف .

والمشهد الثالث:حينما دخل يعقوب وآله على يوسف في مصر فآوى إليه أبويه « وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين » .

والمشهد الرابع: حينما « رفع أبويه على العرش وخروا له سجداً » .

وفيما يتصل بالمشهد الأول فإن العير حينما تحركت من مصر وخرجت من عريشها بقصد أن تقطع ما بين مصر وكنعان ، والمسافة بينهما ثمانون فرسخاً . إذا بيعقوب عليه السلام يقول كما جاء في الآية: « إني لأجد ريح يوسف » إنه يجد ريح القميص حين أقبل من مسيرة ثمانين فرسخاً .

والحقيقة أننا حينما نتأمل هذه الآية فإنا لا نستطيع إلا أن نقول : إننا بصدد معجزة لنبي الله يعقوب ، وإن كلامه الغاية في الوضوح والاطمئنان إلى صحة ما يقول إنه يجيء على لسانه جملة أجد وليس جملة أشم مثلا . فكأنه ضم ابنه الحبيب فشمه واستنشق ريحه ، وهو الرجل الأعمى ، فأسعفته حاسة الشم في هذه المناسبة الإسعاف كله .

وقد سبق هذه الجملة إنّ واللام اللتان تفيدان التوكيد .

كما يجيء على لسانه لفظ « ريح » وليس رائحة . وفرق بينهما . فالرائحة تفيد الكمية القليلة منها ، وقد تكون آتية من بُعد ، أما الريح فتفيد القوة والقرب معاً .

وما معنى قول يعقوب: « إني لأجد ريح يوسف » ؟

معناه أن يوسف حي يرزق ، بل معناه أن ريحه متجهة إليه ، بل إنها ليست بعيدة منه .

وإذا كان كل ذلك يفهم من كلامه ضمناً ، فإن الجزئية التالية « لولا أن تفندون » قوة لما سبقها على ذلك الفهم ، إذ أنها تكاد تكون قولا صريحاً يقرب لقائه بابنه الحبيب يوسف . ولولا خوفه من نسبة آله له إلى ضعف الرأي لصرح بذلك .

فإن معنى هذه الجزئية « لولا أن تفندون » لولا خوفي من نسبتكم الخَرَفَ لي لكان لي تعبير أكثر صراحة ووضوحاً ، ولقلت لكم قد حانت ساعة لقائي بابني الحبيب يوسف بعد طول غياب . والله أعلم .

ويجمل بنا أن نتمثل أبعاد هذا الموقف من يعقوب نبي الله على حقيقته ، فلعله يعرف أن أبناءه قد توجهوا إلى مصر حيث العزيز ، ولكنه بكل تأكيد ليس عنده علم بأي شيء وراء ذلك .

وكيف يعلم أن العزيز هو ابنه وأنه كشف لإخوته عن حقيقة نفسه وأعطاهم قميصاً له وطلب منهم أن يلقوه على وجه أبيه كي يرتد بصيراً ؟

وكيف تم هذه الموافقة بين تحرك القافلة من مصر ، وتحرك ريح يوسف في المكان الذي فيه يعقوب ؟

إننا لنقف مشدوهين أمام هذه الأمور العجيبة التي شاء لها القادر على كل شيء أن تكون .

ونستطيع أن نقول بقلوب مؤمنة مطمئنة : إنها النبوة والمعجزة لنبي الله يعقوب .

وحينما نتأمل هذا الموقف الجديد ليعقوب نبي الله في ضوء مواقفه السابقة فإنا نستطيع أن نقول : إن اليأس لم يتسرب إلى نفس يعقوب نبي الله وقتاً من الأوقات منذ اللحظة التي صعقه فيها النبأ الجلل بأكل الذئب ليوسف حتى هذه اللحظة والموقف الذي يجيء فيه على لسانه « إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون » .

وإنما كان متفائلا ، وإنما كان آملا ، وكان أمله إيجابياً دائماً ويتجه صُعُدا باستمرار حتى كانت القمة التي ليس وراءها قمة في هذا القول الأخير الذي جرى على لسانه والذي وافقه الواقع حينما جاء البشير فألقى قميص يوسف على وجهه فارتد بصيراً .

وإن هذه الموافقة بين القول والفعل تجعلنا نقول : إن هذه ببساطة معجزة لنبي الله تعالى يعقوب عليه السلام .

وكان جواب الحاضرين معه ، المستمعين له ، موافقاً لتوقعه عليه السلام .

قال تعالى عنهم : « قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم » .

وتأمل تاء القسم ولفظ الجلالة المقسم به ، وإن واللام من « إنك لفي ضلالك القديم » وكلاهما يفيد التوكيد . وصفة الضلال البعيدة المرمى من قولهم : « في ضلالك القديم » والمراد بالضلال القديم ، لهج يعقوب بذكر يوسف ، الذي يرجح الحاضرون من الأهل أنه ميؤوس من العثور عليه .

وإذا تتبعنا موقف الأهل من يعقوب الذي لا يفتأ يذكر يوسف .

ووقفنا على تنبيه الإخوة ، وهم جزء من الأهل ، بأن عليه أن يكون رفيقاً بنفسه كيلا يتحول شبه الهلاك الذي هو فيه إلى هلاك محقق .

وعرفنا أن الأهل يجهلون تماماً ما حدث في مصر ، وإذا بيعقوب عليه السلام ، الذي يتمنون ألا يأتي اسم يوسف على لسانه يفاجئهم ، ودون مقدمات ، في صورة قوية من التعبير كلها ثقة بقوله: «إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون » فإنا ننتهي إلى أنه من الطبيعي جداً أن يكون موقف الأهل الذين يطلبون النقصان فيفاجأون بالزيادة هكذا من يعقوب ؛ وأن يعبروا له صراحة بأن ما يسمعونه منه الآن ما هو إلا امتداد لضلاله القديم ، في أمله العقيم بكون يوسف ما زال على قيد الحياة ، ذلك الأمل الذي يسير في اعتقادهم سيراً عكسياً ، فالأولى بأمل من كان في مثل وضع يعقوب أن يخف فيذوب فيفنى ولكن أمله لا يزداد مع مرور السنين إلا شدة وقوة .

وإذا نظرنا من ناحية ثانية إلى قول يعقوب عليه السلام ، من زاويته هو ، الذي يجهل مثلهم تماماً كل ما حدث في مصر ، فإنا نجد أمله يسير سيرة طبيعية أيضاً .

وهكذا يتضح أن الأمل الحي من جهة يعقوب والخوف الحي عليه من جهة الأهل ، يسيران سيراً طبيعياً .

ووصلت العير أخيراً إلى كنعان ، وكأني بالبشير الآن ، وهو الذي سبق

أن أحضر قميص يوسف وعليه الدم الكذب ، يسبق إخوته الآن في الدخول على أبيه ، وحمل هذه البشارة إليه ، فليس بين إخوته من هو أولى بهذه البشارة وأحرص عليها منه .

وقد رجحنا من قبل أنه الأخ الأكبر .

قال تعالى عن هذا المشهد : « فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا ، قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون ، قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين ، قال سوف أستغفر لكم ربي ، إنه هو الغفور الرحيم » .

ونستطيع أن نقول ابتداء : إننا بصدد تعامل وتفاهم من مستوى معين عال بين يعقوب ويوسف عليهما السلام .

فنحن أولا أمام البشير بصيغة المفرد ، الذي حمله إحساسه المرهف على أن يكون أول داخل على أبيه حاملا للقميص ، ملقياً به على وجه أبيه فارتد بصيرا .

وسواء تم الإلقاء أمام باقي الإخوة العشرة ، وهذا ما نرجحه إذ ما لبث أن توالى باقي الإخوة ، أم لم يتم ذلك أمامهم ، فالذي لا شك فيه أن دور الريح المنعش للقميص أخذ في القوة المطردة حتى دخل البشير بالقميص .

وكان يعقوب يزداد يقينه بأن ساعة اللقاء بيوسف آخذة في الدنو .

وقد بلغ هذا اليقين ذروته حينما ألقي القميص على وجهه فارتد بصيراً .

إن وجود يعقوب لريح يوسف معجزة ليعقوب عليه السلام .

وإن عودة الإبصار إلى كلتا عيني يعقوب بإلقاء قميص يوسف على وجهه بأمر يوسف ، معجزة ليوسف عليه السلام .

وقد فهم يعقوب بهذه العملية كل شيء ، لقد فهم أن ابنه قد اصطفاه الله تعالى بالنبوة .

وليس للفرح بهذا الفهم وبأن ابنه مسلم لله رب العالمين من مزيد .

ويا له من فرح آخر هجم على يعقوب نبي الله ، حينما وقعت عيناه أولا وقبل أي شيء ؛ بعد عودة الإبصار إليهما ، على أبنائه الأحد عشر . ولم يبق سوى يوسف عليه السلام .

وهكذا يتضح أننا بصدد نوع سام من التفاهم مقصور على يعقوب ويوسف.

ومن هنا جاز لنا أن نفهم أن يعقوب ما دام أنه على يقين من نبوة ابنه يوسف ، فمعنى هذا أنه لم يكن محتاجاً أساساً لأن يسأل أبناءه عن الدِّين الذي تركوا عليه أخاهم .

وما الذي جرى على لسان يعقوب نبي الله من قول ، بعد أن أصبح أمله الكبير في الله الكبير المتعال حقيقة ؟

قال تعالى عنه: « قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون » .

فنحن أولا بصدد « لكم » التي كان بإمكان يعقوب أن يستغنى عنها لو شاء ، ولكنه حريص على شد انتباه أبنائه إليه شدًّا وإشعارهم أنهم هم المقصودون أولا بقوله المتكرر سابقاً: « إني أعلم من الله ما لا تعلمون » .

ولا يخفى الدور التوكيدي لإن ، والدور القوي للفعل « علم » .

وتأمل هذه اللفتة الكريمة في قوله : « من الله » إنه التواضع الدائم الجم لله تعالى ، وإنه الشكر والحمد والامتنان له عز وجل .

وقد قدم يعقوب هذا القول : « من الله » ووضعه في المكان الذي لا يمكن تقديمه عنه . وفي ذلك إشعار دائم بأن المصدر لهذا العلم غير العادي هو الله المتفضل ، الذي لا تعدّ نعمه ولا تُحصى آلاؤه .

وهذا القول على لسان يعقوب: « إني أعلم من الله ما لا تعلمون » يعين مستوى العلم الذي لا يمكن أن يصل إليه أبناء يعقوب ، والذي هو قصر عليه وعلى ابنه يوسف عليه السلام .

وهذا من الأدلة المتعددة على أن النبوة مقصورة بين أبناء يعقوب . على يوسف .

وبعد أن طلب الأبناء الذين يهمهم الأمر من يعقوب أن يستغفر لهم كما قال تعالى: « قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين » كان من الطبيعيّ جداً أن يجيءَ على لسان الأب الحنون قوله تعالى: « سوف أستغفر لكم ربي ، إنه هو الغفور الرحيم » .

ونود أن نقف مليّاً عند لفظ « سوف » الذي تعمد يعقوب استعماله وليس السين مثلا . ولا يخفى أنّ السين تدلُّ على المستقبل القريب وأنّ سوف تدل على البعيد .

فلماذا أرجأ يعقوب نبي الله ، الرجل الطيب القلب والأب الحنون استغفاره لبنيه ؟

والجواب على ذلك في اعتقادي ، والله أعلم ، هو أن التأجيل لا يخرج عن احتمالين :

الأول: أن يكون يعقوب نبي الله يريد أن يتحرّى أنسب الأوقات التي يعتقد أن نفسه ستكون أكثر صفاء ، وقلبه أكثر إقبالا على الله تعالى ، علّ الله عز وجل يستجيب دعاءه .

والاحتمال الثاني : أن يكون نبيُّ الله يعقوب تعمد تأجيل الدُّعاء حتّى يتوج فرحه بلقائه الفعليّ بابنه الحبيب يوسف وضمه .

فعلى الرّغم من أنّ كلّ شيءٍ يقول بأن اللقاء الأكيد بإذن الله تعالى قريب . إلا أن اللقاء الفعليّ ضروري ، كي تعود نفس يعقوب إلى صفائها الذي كانت عليه قبل غياب يوسف ، وقلبه إلى راحته .

ولعل الاحتمال الثاني أرجح .

وإن «سوف» على كلّ حال تظل تدلُّ على عتاب صامت من يعقوب لأبنائه .

وتأمل قوله : « ربي » الذي نستشف منه صفاءً روحياً ليس له حدود نستشف ذلك من لفظ الرّب أوّلا .

فكثير هي الألفاظ التي يمكن أن يستعملها يعقوب في هذا الموضع ، ولكنه تعمد هذا اللفظ ، لما فيه من معنى رعاية الله تعالى الدائمة له منذ أن قدّر له أن يكون حتى اللحظة التي يخاطب فيها أبناءه .

وإن انتقاء يعقوب لهذا اللفظ بالذات من الأدلة التي لا تدخل تحت حصر على أن يعقوب عبد شكور لمولاه وخالقه .

كما نستشف الصفاء الروحي ثانياً من ضمير المتكلم في « ربي » .

وكأنه عليه السلام قد استشعر في نفسه اصطفاء الله تعالى له بالمنن التي لا تُحصى مما ليس لأبنائه الحضور نصيب منها ، لهذا ضمن كلامه هذا الضمير الذي يدل في هذه الصورة على أن له ، بمنّ الله وفضله ؛ عند بارئه ، منزلة ليست لواحد من الحاضرين .

وإن هذه الجزئية على لسان يعقوب « إنه هو الغفور الرحيم » لدرس بليغ لأبنائه بأن الغفور الرحيم هو الله عز وجل فقط ، ولا يمكن بحال ، أن يكون حظ يعقوب من السماح والرحمة شيئاً ، بالقياس إلى الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الغفور الرحيم .

فإذا انتقلنا إلى المشهد الثالث في قصة يوسف ، الذي ظهر فيه يعقوب ، فإنه الذي خرج فيه يوسف خارج المدينة لاستقبال يعقوب وآله .

ويشير إلى ذلك قوله تعالى : « فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين » .

ويفهم من هذا أن يوسف عليه السلام كان خارج البلدة ينتظر قدوم والديه وبقية أهله ، وأنه جمع بين بر الوالدين بمغادرته المدينة وانتظاره لهما

خارجها ، وبين هيبة الحاكم ، فكأنه حين استقبلهم نزل لهم في مضرب أو بيت ثم دخلوا هم عليه في ذلك المضرب أو البيت .

وليس يخاف أن الإشارة إلى والدي يوسف تأتي صراحة في هذه الآية لأول مرة ، وقد سبقت الإشارة إليهما ضمناً في أول السورة حينما قص يوسف على والده رؤياه ، وقد فسر الشمس بوالده والقمر بوالدته .

وقد يقول قائل: وأين دور والدة يوسف عليه السلام في الحزن عليه ، إذ جرت العادة بأن تتفوق الوالدة على الوالد في هذا المضمار .

والجواب على هذا أننا نتبين في يعقوب عليه السلام أباً في الحنان لا كالآباء ؟

فنحن بصدد رجل قد خصه الله تعالى بأن وضع في قلبه من المحبة لأولاده الشيء الذي لا يكاد يتصور ؟ وبخاصة يوسف وأخوه .

وكذلك خصه بابتلائه في فلذتى كبده ، وأحب أبنائه إليه .

فإذا عرفنا أنه كان بين رؤيا يوسف ومسير إخوته إليه أربعون سنة(١) أدركنا أنها فترة على أقل التقديرات طويلة ، قضاها يعقوب حزيناً على يوسف ، ذلك الحزن الذي لم تزده الأيام إلا استفحالا حتى انتهى به إلى العمى .

وأين هي الوالدة التي يمكن أن تحزن على ولدها حزناً قريباً من حزن يعقوب في القوة وطول المدة ؟

إن والدة يوسف ، ونرجح أنها هي المقصودة بقوله تعالى : « آوى إليه أبويه » وليس خالته ؛ يجب أن تكون قد حزنت عليه حزناً بعيد المدى .

وفرق ما بين الحزنين ، أن حزنها كان يسير باستمرار نحو الضعف بعكس حزن يعقوب .

---

١ ـ الكشاف ١٢٣/٢ وفى ظلال القرآن ١١/١٣ عشرون سنة .

بل ليس هناك ما يمنع ، أن يكون لها بدافع الإشفاق عليه ، رأي فيه . يوافق ما قيل بحقه كما جاء في الآية : « قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم » .

فإذا انتقلنا إلى المشهد الأخير الذي ظهر فيه يعقوب ، فهو الذي عبرت فيه رؤيا يوسف .

وقد تكلم يوسف عليه السلام في هذا المشهد منفرداً بعد أن دخل يعقوب وآله مدينة مصر ، قال تعالى : « ورفع أبويه على العرش وخرّوا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقّا وقد أحسنَ بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي ، إنّ ربي لطيف لما يشاء ، إنه هو العليم الحكيم ، رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث ، فاطر السماوات والأرض أنت وليي في الدُّنيا والآخرة ، توفني مسلماً وألحقني بالصالحين» .

الفصل الثالث

شخصية يوسف عليه السلام



شخصية يوسف عليه السلام

حينما نتكلم عن شخصية يوسف عليه السلام ، آخر الشخصيات التي سنتناولها بالدراسة في قصة يوسف عليه السلام ، فإنه يجب أن يكون واضحاً فيأذهاننا أننا بصدد الشخصية التي تعتبر المحور الذي تدور عليهالأحداث في القصة .

والشخصية الأولى المحركة لكل شخصيات القصة بلا استثناء بطريق مباشر وغير مباشر .

إن يوسف عليه السلام المحرك الأول لوالده يعقوب من أول القصة إلى آخرها .

والشيء نفسه يقال عن إخوته بلا استثناء .

وهو المحرك أيضاً للسيارة .

وكذلك الحال بالنسبة لعزيز مصر وامرأته ، ولنسوة المدينة . وللذين بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين ، وللساقي في السجن ، وينبغي أن يكون له دوره مع الخباز .

وهو المحرك الفعلي للملك الذي رأى الرؤيا التي عبرها يوسف فطلبه بناء على ذلك .

وإن رفضه الخروج من السجن قبل ثبوت براءته السبب في حمل الملك على دراسة قضيته دراسة عادلة .

وثبتت براءته للملك الذي خاطب النسوة بما ثبت له من موقفهن : « ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه » .

وقد توِّجت براءته بشهادة النسوة على أنفسهن ، وبناء على ذلك طلبه الملك وكلمه ، فرشح يوسف نفسه لمنصب عزيز مصر الذي كان وقتها شاغراً .

ومرّت سبع سني الرَّخاء ، تلتها سبع الشدة .

وإن خلق يوسف الكريم وسمعته الطيبة ، وحسن تصرفه في الميرة ، هو الذي جعل إخوته مع غيره يتجهون نحوه في كل مرة للميرة .

وهو الذي حمل يعقوب على السماح لأبنائه بأخذ أخيهم الأصغر معهم لكرمه من ناحية ، ولوضع البضاعة في رحال الإخوة الذين لا يستحلون حراماً .

وهو المحرك الفعلي للأحداث في رحلة الإخوة الثانية إلى مصر ، لأنه آوى إليه شقيقه ، وجعل الصواع في رحله ، وأوحى لفتيانه وللمؤذن بالبحث الجاد عن الصّواع .

وبسؤال الإخوة عن نوع الحكم الذي يرتضون في حق السارق ، اختاروا الاسترّقاق الذي تقضي به ملتهم ، وليس تغريم السارق ضعف ما سرق ، كما يقضي بذلك الحكم الوضعي المصري .

ووجد الإخوة أنفسهم في ورطة ، إذ استخرج الصواع من رحل أخيهم الأصغر .

ورفض العزيز طلبهم بأخذ واحد منهم مكان أخيهم ، فقرر الأخ الأكبر بناءً على ذلك البقاء في مصر حتى يأذن له أبوه في العودة أو يحكم الله له وهو خير الحاكمين .

وعاد الإخوة التسعة إلى أبيهم ، وابيضت عينا يعقوب من الحزن ، خاصة على يوسف وطلب يعقوب من أبنائه أن يذهبوا فيتحسسوا من يوسف وأخيه ولا ييأسوا من روح الله .

ومع أنه لا يعين لهم الوجهة التي يذهبون فيها إلا أنهم لا يخطر ببالهم أن يذهبوا إلا إلى عزيز مصر لأن الطعام عنده وأخاهم الأصغر ، وبالقرب منه الأخ الأكبر .

وإن لكرم العزيز وحسْن خلقه سبباً في توجيه الإخوة إليه .

وتصرف الإخوة بعد كشف يوسف عن حقيقته ليس إلا تنفيذاً حرفيّاً لما أمرهم به .

وإن رحيل يعقوب وآله إلى مصر ليس إلا نزولا على رغبته .

حتى إذا كان المشهد الأخير في القصة اتضح أنه تعبير فعليّ للرؤيا التي سبق أن رآها يوسف وقصها على أبيه .

وينفرد يوسف بالحديث في المشهد الأخير .

من هذا الاستعراض السريع يتضح مما سبق أن أشرنا إليه من كون شخصية يوسف المحرّك الأول لكل الأحداث في هذه القصة .

وسنحاول بإذنه تعالى تتبع هذه الشخصية الطيبة الطاهرة في مختلف الأطوار التي مرت بها .

نسأله تعالى العون والتوفيق .

في الإمكان أن نقسم حياة يوسف عليه السلام ، التي تعرضت لها السّورة إلى ثلاث مراحل :

الأولى : مرحلة الغلام المحبوب من والده ذي النفس الصافية المشرقة .

وتنتهي بوضع إخوته العشرة لأبيه له في غيابة الجب .

الثانية : مرحلة اختيار الله تعالى له بالابتلاء ، منذ وضع إخوته له في غيابة الجبّ ، حتى ثبوت براءته وخروجه من السجن .

وهذه المرحلة تنقسم إلى قسمين : الأول في بيت العزيز والثاني في السجن الذي زُجّ به فيه ظلماً .

الثالثة : مرحلة اختبار الله تعالى له بالنعماء ، بتعيين ملك مصر له في منصب العزيز ، الذي كان آنذاك شاغراً ، حتّى اجتماع شمل آل يعقوب به في مصر وتعبير رؤياه .

المرحلة الاولى

يوسف الغلام المحبوب من والده ذو النفس الصافية المشرقة

قال تعالى : « إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين ، قال يا بنيّ لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيـــدوا لك كيدا ، إن الشيطان للإنسان عدو مبين ، وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويـــل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق ، إن ربك عليم حكيم » .

إن الجوّ الذي يدور فيه الحوار بين يوسف ويعقوب ودّي للغاية .

كيف لا ونحن بصدد نبي الله يعقوب ، الذي لا نكاد نعرف أباً نظيراً له في حبّ أبنائه .

فكيف به وهو يخاطب أحب أبنائه إليه قاطبة ؟

وإن الغلام يوسف يضمن حديثه قوله : « يا أبت » الذي كان بإمكانه أن يستغنى عنه ، ولكنّ الودّ والجوّ الروحي لم يكونا ليسمحا بذلك .

وإن الشيء نفسه يقال عن قول يعقوب : « يا بنيّ » فإن الأب الحنون ليتقدم ابنه في هذا المضمار ، إذ يجيء بالابن في صيغة تصغير التمليح الذي له دور بالإضافة إلى غيره من الشواهد ، على أن يوسف غلام صغير السن حقاً .

وواضح أن يوسف يقص على والده ما رأى في المنام وليس في اليقظة بطبيعة الحال ، خاصة وقد جاء على لسان يعقوب خطاباً له « ويعلمك من تأويل الأحاديث » .

ومع أن قصّ يوسف للرؤيا موجز ، إلا أنه القمة في البلاغة والدلالة على أننا بصدد نفس الغاية في الصفاء والإشراق الروحي .

إننا أولا إزاء « إنّ » التي تفيد التوكيد ، وهذا دليل على تأكد يوسف الغلام الصغير من صحة ما يقول عن رؤياه ودقته .

وتأمل الفعل « رأى » الذي جاء في صيغة الماضي ، بينما جاء الفعل في صيغة المضارع « أرى » ثلاث مرات في مناسبتين أخريين مماثلتين لهذه المناسبة . وذلك على لسان الساقي والخباز والملك الذين قص كلّ منهم رؤياه.

وليس لذلك من تعليل في اعتقادي ، والله أعلم ، سوى أن الغلام الصغير يوسف ، ذا النفس البريئة المشرقة يريد أن يقص في براءة الرؤيا التي رأى ،دون أن يكون منه بطبعه شيء من اهتمام لما تدل عليه أو يترتب عليها.

لهذا جاء الفعل في صيغة الماضي الذي يشعرنا بأن كلّ شيء عن الرؤيا ينتهي بقصها على والده .

أما فيما يتصل بالساقي والخباز والملك فإن الأمر يختلف ، فهم بحكم السن والتجربة مهيؤون بطبعهم للتمثل الدائم للرؤيا ، حريصون على تعبيرها ، لهذا جاء الفعل « أرى » مرات ثلاثاً لما ذكرنا ، وليس الفعل « رأى » الذي انفرد باستعماله الغلام البريء يوسف . والله أعلم .

وفوق ذلك نتبين هذا الإشراق الروحيّ والصفاء في موضعين آخرين من هذه الآية :

الأول من قول يوسف : « أحد عشر كوكباً » لقد حدد العدد بهذا الرقم ، وما أسهل مثلا ذكره وتذكره للشمس والقمر ، باعتبار أنهما مفردان من

نوعين مختلفين!ولكن ما أصعب أن يكون عدد الكواكب كثيراً ! وما أصعب تحديد العدد بأنه أحد عشر ! وليس أكثر بواحد مثـــلا أو أقل . ذلك العدد الذي يوافق عدد إخوة يوسف .

إننا بصدد نفس بلغت الغاية التي ليس وراءها غاية في الصفاء والطهر والنقاء ، ومن هنا تسنى أن تعد الكواكب الساجدة واحدة واحدة ، وأتت في النهاية بالرقم على وجه الدقة .

والموضع الثاني من الآية الذي نتبين فيه ذلك هو قوله: « لي » مما جاء على لسانه « لي ساجدين » إن هذا الغلام حينما يتبين أن الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً ساجدة له سجود العقلاء فهذا دليل على أن الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً كانت من يوسف بالذات في وضع معين ، جعله يوقن أنه هو المقصود بالسجود .

وهذا اليقين من الأدلة على أننا بصدد نفس مشرقة وروح صافية .

وسبحان القادر على كل شيء ، الذي جمع ليوسف في رؤياه الشمس والقمر من ناحية ، والشمس والكواكب من ناحية أخرى .

والذي يفهم من السياق أن القمر كان في ليلة البدر ، والمعروف أنهما في ليلة النصف لا يجتمعان ، وإنما سمي البدر بدراً لأنه تلك الليلة يبادر الشمس بالطلوع ، بمعنى أنه يحاول أن يسبقها قبل غروبها .

وإن الآية في اجتماع الشمس والكواكب أقرب تناولا وأشد وضوحاً .

فالمعروف أن الشمس حينما تطلع لا يبقى في السماء كوكب واحد .

وقديماً قال النابغة :

فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب(١)

---

١ ـ مختار الشعر الجاهلى ١/١٧٥

وحينما نتبين في هذه السورة علاقة بين رؤيا كل من الساقي والخباز والملك ، وبين الواقع المحسوس .

فالساقي يرى نفسه يعصر خمراً ، وللخمر علاقة بعمله .

والخباز يرى نفسه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه ، وللخبز علاقة بعمله .

والملك يرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ، ولذلك كله علاقة بأرض مصر الزراعية التي يحكمها ، فإن في إمكاننا أن نتبين هذه العلاقة في رؤيا يوسف .

فبالإضافة إلى أنها تدل على أننا بصدد نفس يوسف الصافية المشرقة فإنها تدلنا بالتالي على الصفاء الغالب على سماء تلك المنطقة التي عاش فيها يوسف آنذاك ورأى فيها رؤياه .

ومع أن يوسف غلام صغير السن حقاً ، ويقص هذه الرؤيا العجيبة على والده نبي الله يعقوب ، فإن هذا الوالد يأخذ هذه الرؤيا قضية مسلمة ، ويستنتج منها استنتاجات بعيدة الغور عميقة المغزى ، ويبني عليها أحكاماً .

فبعد أن نهى ابنه عن قص هذه الرؤيا على إخوته خوف حسدهم له بكيد من الشيطان ، وهذا في حد ذاته دليل على اقتناع يعقوب بأن رؤيا ابنه حق ، يجيء على لسانه قوله تعالى: « وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق ، إن ربك عليم حكيم » .

فعلام يدل كل ذلك خاصة وأن هذا موقف يعقوب عليه السلام ، الذي كان آنذاك بالفعل نبياً ؟ .

والجواب عن ذلك هو أن نبي الله يعقوب ، قبل أن يقص يوسف عليه رؤياه ، كان يتوسم من هذا الابن الخير كل الخير ، وليس هناك من درجة

يتمناها لابنه الحبيب أعلى من درجة النبوة ، خاصة وأنه لم يتبين أي شيء من الدلائل في واحد من أبنائه العشرة الذين يكبرون يوسف أو الابن الأصغر.

وحينما قص يوسف عليه رؤياه كان ذلك الإثبات الذي طال انتظار يعقوب له ، فلم يكن ذلك غريباً على يعقوب ولا مفاجئاً له ، وهو الذي كان ينظر بنور الله عز وجل .

وإن يعقوب نبي الله ، حينما يقبل رؤيا يوسف الغلام الصغير حقاً ، برضا وارتياح ، ويستنتج منها استنتاجات ويبني عليها أحكاماً ، فذلك دليل أكيد على أن يوسف قد حباه ربه بهذه المنة ، ورفعه تلك الدرجة العالية الرفيعة ، وقد جعلت يعقوب يوقن بأن ابنه الحبيب يوسف آخذ طريقه إلى درجة النبوة التي اصطفى الله تعالى يعقوب نفسه بها .

والحقيقة أننا حينما نتأمل قول يعقوب عليه السلام رداً على يوسف ، فإننا نستطيع أن نقسمه إلى قسمين كل قسم يختص بآية .

وبتأمل القسم الأول « قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً ، إن الشيطان للإنسان عدو مبين » يتبين أنه يحلق فوق الرؤيا مباشرة .

فيعقوب ينهى ابنه نهياً صريحاً عن قص رؤياه على إخوته مع ذكر السبب في ذلك النهي بوضوح تام . فإذا انتقلنا إلى آية القسم الثاني من كلام يعقوب فإنه يتبين من تأملها أنها تحلق في الأجواء البعيدة جداً من قاعدة الرؤيا .

إنها تتعلق بالاستنتاجات التي انتهى إليها يعقوب نبي الله ببصيرته النيرة من رؤيا يوسف ، وبالأحكام التي بناها على ذلك .

وبتأمل الجزئية الأولى من الآية « وكذلك يجتبيك ربك » يتضح الأفق البعيد جداً الذي حلق فيه يعقوب . فمعنى هذه الجزئية والله أعلم ، ومثل

ذلك الاجتباء والاختيار والاصطفاء بتلك الرؤيا الصالحة الطيبة ، يصطفيك ربك بنعمه الظاهرة والباطنة . وكأن يعقوب عليه السلام يتخذ من الرؤيا قاعدة لاستنتاجاته وأحكامه .

وتأمل لفظة الرب من « ربك » بمعنى المنعم عليك ومربيك ومالكك ، التي يستعملها يعقوب السعيد بهذا النبأ ، القرير العين به . والمعروف أن لفظة الرب إنما تدور في قصة يوسف على الألسنة عادة حينما يكون الجو غاصاً بالرضا وتذكر النعم وتمثلها(١) .

وتأمل ضمير المخاطب في القول على لسان يعقوب : « ربك » . فعلى الرغم من أن النعمة التي تحل بيوسف كأنها حلت بيعقوب ، وكان بإمكانه أن يقول : وكذلك يجتبيك ربي ، ولكن يعقوب يعلم يقيناً أن النعمة تخص بالدرجة الأولى ابنه ، لهذا جاء على لسانه : « وكذلك يجتبيك ربك » وإن الشيء نفسه يقال عن كل ضمير للمخاطب في هذه الآية .

فإذا انتقلنا إلى تأمل الجزئيـــة الثانية من الآية « ويعلمك من تأويل الأحاديث » فإن في الإمكان أن نعقد ببساطة علاقة بينها وبين الرؤيا التي رأى يوسف ، وهي السبب في القول الذي يجيءُ الآن على لسان يعقوب .

والحقيقة أنه انطلاقاً من حقيقة حكمة الله تعالى في جعل معجزة كل رسول من جنس ما نبغت فيه أمته ، فقد كانت معجزة موسى عليه السلام تحدياً لقومه الماهرين في السحر ، ومعجزة عيسى عليه السلام تحدياً لقومه البارعين في الطب ، ومعجزة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم تحدياً لقومه المتفوقين في الفصاحة والبلاغة ، وانطلاقاً من جو الرؤى الذي يصادفنا في هذه السورة في أكثر من مجتمع وموضع ، فهناك رؤيا يوسف والساقي

---

١ ـ جاء على لسان يعقوب مثلا خطابا لأبنائه قوله تعالى : «سوف أستغفر لكم ربى انه هو الغفور الرحيم» وجاء على لسان يوسف : «ياأبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا » .

والخباز والملك ، فإن في إمكاننا القول : إن المراد من هذه الجزئية على لسان يعقوب « ويعلمك من تأويل الأحاديث » ويعلمك من تأويل الرؤى تحدياً لكل من في عصرك .

وقد كان يوسف عليه السلام أعبر الناس للرؤيا .

وفي هذه الحال نكون ما زلنا نراعي الأفق البعيد جداً من قاعدة الرؤيا ، الذي يحلق فيه قول يعقوب ، وهو ما راعيناه في الجزئية الأولى من الآية .

وبذلك يكون المعنى الآخر الذي يفهم من هذه الجزئية الثانية ، وهو أن المراد « بتأويل الأحاديث ، معاني كتب الله وسنن الأنبياء وما غمض واشتبه على الناس من أغراضها ومقاصدها ، يفسرها لهم ويشرحها ويدلهم على مودعات حكمها »(١) مرتبطاً بالجزئية الثالثة « ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق » .

إذ المراد بإتمام النعمة ، نعمة النبوة ، ومن موجباتها العلم بتأويل معاني كتب الله وسنن الأنبياء وما غمض واشتبه على الناس من أغراضها ومقاصدها ، إلى آخر ما قيل .

وإن هذه الجزئية الأخيرة التعقيبية « إن ربك عليم حكيم » لتدل كما هو واضح على علم الله تعالى الذي لا يحد ، وحكمته التي تتسم بها كل أعماله جل وعلا .

وإن اجتباء يوسف وتعليمه من تأويل الأحاديث وإتمام النعمة عليه ، يخضع كل ذلك لعلمه تعالى وحكمته .

والمسألة الهامة التي نود التنويه بها من المشهد السابق ، وهذا الحوار بين يوسف وأبيه ، هي أن الكلام الذي صدر من يعقوب في حق ابنه يوسف قد رفع من شأن هذا الابن عالياً حتى لنكاد نشعر بأن منزلته ليست بعيدة

---

١ ـ الكشاف ١٢٣/٢ .

جداً من منزلة والده نبي الله يعقوب وبالتالي فإن يعقوب ويوسف يشكلان منزلة ليست لواحد من أبناء يعقوب الأحد عشر ، الذين أشارت إليهم الرؤيا.

والحقيقة أن هذه ليست المرة الوحيدة التي يبدو فيها يوسف ويعقوب في منزلة واحدة .

بل إننا كلما تقدمنا في القصة أخذت هذه الحقيقة تتبلور .

حتى إذا كانت رحلة الإخوة الثالثة إلى مصر ، وتم تعرف الإخوة على حقيقة شخصية يوسف ، وأمرهم أن يذهبوا بقميصه ويلقوه على وجه أبيه ، فإنه يتضح وقتها حينما تفصل العير ويجد يعقوب ريح يوسف أنهما من درجة عالية رفيعة واحدة فعلا .

وهي الدرجة التي كدنا نفهمها بل فهمناها بالفعل من المشهد الأول في القصة .

وفرق بين المشهدين أن يوسف في أولهما نبي بالقوة ، وفي ثانيهما كأبيه نبي بالفعل .

ويبدو يوسف الغلام الصغير البريء في المشاهد التالية حتى شراء عزيز مصر له . فعلى الرغم من أن أباه ينهاه عن قص رؤياه على إخوته ، وكأنه يحذره بصفة عامة من حسدهم له ، إلا أننا نجد يوسف هو الغلام البريء دائماً.

حقاً إنه لم يقصص رؤياه على إخوته تنفيذاً لنصيحة والده ، إلا أننا لا نجد له رأياً تجاه طلب إخوته أخذه معهم غداً كي يرتعوا ويلعبوا ؛ على الرغم من حرص يعقوب على عدم تلبية طلبهم أولا ، وعلى الرغم من قبوله لطلبهم على مضض .

بل لعل يوسف كان حريصاً على أن تتم موافقة يعقوب كي يستمتع للمرة الأولى مع إخوته بالنزهة واللعب ، ولعله أيضاً كان ينتظر تلك الليلة ظهور فجر اليوم التالي على أحر من الجمر .

ومن يدري ؟ ربما كان طول ليله ليس أقل من طول ليلهم ، وحينما لاحت تباشير الفجر ، كان شعوره فرحاً كله ، بينما كان شعور إخوته مزيجاً من الرجاء والخوف ، من الفرح والشقاء .

وبعد أن تم للإخوة أخذ يوسف معهم واستقر رأيهم على وضعه في غيابة الجب ، لا يبدو أن يوسف أحس بشيء مما بيته الإخوة .

بل لعله لم يفطن إلى ما أريد به إلا بعد أن تركه الإخوة في غيابة الجب .

ولعلهم تركوه برمته ، الذي ربط طرف منه في جزء من يوسف أو لعله أمسك به ، بينما أمسك بعض من الإخوة بالطرف الثاني ، كي يصل يوسف إلى غيابة الجب سالماً ، بحيلة أن يملأ لهم ماء .

وبعد ذهاب الإخوة حتّى مجيء وارد السيارة الذي أدلى دلوه فوقعت عينه على يوسف فصاح بملء فيه : « يا بشرى هذا غلام » لم يستطع يوسف مغادرة الجب الذي لا يبدو أنه كان عميقاً لأنه استطاع أن يتنفس فيه دون صعوبة .

ولعله لم يخطر بباله أن يحاول الخروج ؛ وإنما كان موقفه سلبيّاً حتّى يتبينه من أول نظرة الواردُ الذي أدلى دلوه .

ونستطيع أن نفهم أن الوارد لم يجد صعوبة في إخراج الغلام من الجب .

وسواء عرّفهم بحقيقة نفسه أم لم يعرّفهم ، فمن المؤكد أنه لن يستطيع أن يقوم بأي تصرف من جانبه كي يعود إلى والده وأهله .

وذا كان عاجزاً عن أي عمل مع الوارد المفرد ، فمن باب أولى أن يكون أكثر عجزاً مع مجموعة السيارة .

وبما أن السيارة مجموعة من التجار يسعون وراء الكسب المادي بطبعهم ، ويخافون أن يسألوا في كل وقت عن مصدر ذلك الغلام ، لذلك قرروا التخلص منه ببيعه في أول سوق تصادفهم بأي ثمن .

لأن هذا الثمن مهما كان زهيداً فكله مكسب لأنهم لم يدفعوا فيه شيئاً .

وبما أن مصر وجهتهم ، وأول سوق تصادفهم فيها ، لذلك قرروا بيعه هناك ، جرياً على عادة العصر الذي يتعامل بالتكسب عن طريق الرقيق .

وبعد أن تم بيع يوسف وشراء عزيز مصر له ، تحول يوسف من الغلام الحر المحبوب من والده حباً جماً إلى الغلام المحبوب من عزيز مصر حباً أبوياً .

وبذلك تبدأ مرحلة جديدة ذات حلقات مختلفة في حياة يوسف عليه السلام .

وقبل أن ننتقل إلى المرحلة الجديدة، نود أن نتأمل ملياً قوله تعالى : « فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب ، وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون » .

لقد شاءت إرادة الله تعالى أن يكون هناك إجماع من هؤلاء الإخوة العشرة وفيهم الأخ الأكبر على جعل يوسف في غيابة الجب .

ونود الوقوف عند الواو من قوله تعالى : « وأوحينا » فلو كان الإيحاء في اللحظة التي أجمعوا فيها على جعل يوسف في غيابة الجب لكان الكلام بدون الواو .

فدل مجيء الواو على أن هناك كلاماً محذوفاً مفاده أنهم ترجموا الإجماع فعلا وتركوا يوسف وحيداً .

ولكن الله تعالى كان مع يوسف فآنسه تعالى وبدد وحشته وأوحى إليه بأنه سينبيء هؤلاء الإخوة بأمرهم هذا مستقبلا . ولم يشعر الإخوة بهذا الإيحاء اللطيف من اللطيف الخبير لهذا الغلام البريء .

فما معنى هذا الإيحاء في هذه اللحظة الحرجة بالذات ؟

معنى هذا أن هناك خطين ، سار الإخوة الغاوون في أحدهما ، وسار يوسف الغلام المحسن في ثانيهما .

وسيفضي الخط الأول في النهاية بالإخوة إلى القول : « تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين » .

بينما يفضي الخط الثاني بيوسف بعد المعاناة التي كابدها في رضا الله عز وجل إلى النبوة التي اصطفاه بها أرحم الراحمين .

ومعنى أن يكون الإيحاء في تلك اللحظة العصيبة بالذات ؟

معناه أن الله تعالى دائماً مع عبده المصطفى يوسف ، وأنه وإن كان غلاماً صغيراً واحداً ، إلا أنه كثير بالله عز وجل .

وأن الإخوة وإن كانوا كثيرين في العدد ، إلا أنهم في الحقيقة قليلون ، لأنهم سمحوا لأنفسهم بأن يكونوا أداة طيعة للشيطان الرجيم عليه لعنة الله .

ومعنى هذا أن الله تعالى سيكون مع عبده المصطفى يوسف دائماً ، حينما تبلغ كل شدة ذروتها .

وأن يوسف سيصطفي بإتمام النعمة عليه وعلى آل يعقوب بالنبوة دون إخوته .

وأن هؤلاء الإخوة وإن أرادوا الشر بيوسف إلا أن الله تعالى أراد الخير في النهاية له .

وأن الإنسان لا يصيبه إلا ما كتبه الله تعالى له أو عليه .

وأن الناس جميعاً لو أرادوا إنساناً بخير أو شر لم يرده الله تعالى له فإن ذلك لن يكون « والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

والآن حان الانتقال إلى المرحلة الثانية .

المرحلة الثانية

مرحلة اختبار الله ليوسف بالابتلاء :

هذه المرحلة ذات شقين :

الشق الأول : في بيت عزيز مصر .

الشق الثاني : في السجن .

فمع يوسف المملوك المحسن .

في بيت العـزيز :

قال تعالى:« وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ، وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

لقد شاءت إرادة الله تعالى أن يشتري عزيز مصر الرجل الطيب القلب ، النافذ البصيرة ، الراجح الفكر ، الغلام يوسف الزهيد الثمن ، الذي كان في مقدور كل واحد أن يشتريه .

ويأمر العزيز زوجته ، أحب الناس إليه وأوثقهم عنده بأن تكرم مثواه عسى أن ينفعهما أو يتخذاه ولداً .

وهكذا شاءت إرادة الله تعالى أن تبدل خوف يوسف في الجب أمناً في بيت العزيز ووحشته أنساً ، وجوعه شبعاً وريّاً .

وإنّ منّ الله تعالى وفضله على يوسف يتخطى مجرد التعويض المادي إلى التصريح بأنه تعالى سيصطفيه بعلم من عنده . هذا العلم هو القدرة على تأويل الأحاديث « ولنعلمه من تأويل الأحاديث » .

وقد سبقت إشارة يعقوب عليه السلام إلى ذلك « ويعلمك من تأويل الأحاديث » .

وهكذا أراد الله تعالى الخير ليوسف .

وقد جاء التصريح بأولى درجات الاصطفاء . وهي القدرة الفائقة على تعبير الرؤي في قوله تعالى: « ولنعلمه من تأويل الأحاديث » .

وإن هذا القول بالإضافة إلى قول يعقوب السابق خير مهيئين لنا للعلم يقيناً بقدرة يوسف على تلبية طلب الفتيين تعبير رؤياهما وطلب الملك تعبير رؤياه كذلك .

وهذه القدرة على تعبير الرؤى من رحمة الله تعالى بيوسف وهي فوق رحمة الله به بإنزاله في مصر منزلا كريماً .

ومن هنا جاء قوله تعالى في نهاية الآية : « والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

لقد رأى يوسف رؤيا طيبة قصها على والده ومعروف أن الرؤيا التي هذه حقيقتها جزء من أربعين أو ستة وأربعين جزءاً من النبوة .

وحينما يخص الله تعالى يوسف بالقدرة على تعبير الرؤى فإنا نتبين من ذلك ارتباط هذه القدرة بدرجة تعلو على الرؤيا الطيبة في الطريق إلى أعلى الدرجات ، درجة النبوة الفعلية، المرحلة الثانية في حياة يوسف عليه السلام .

قال تعالى: « ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً ، وكذلك نجزي المحسنين».

هذه الآية نعتقد أنها قد طوت فترة طيبة من عمر يوسف وقفزتها إلى الفترة التي بلغ فيها أشده . وهي فترة تقع عادة بين العشرين والثلاثين(١) .

ولعل محنته مع امرأة العزيز وقعت حينما بلغ الخامسة والعشرين .

---

١ ـ فى ظلال القرآن ٩٩/١٢

فإذا عرفنا أن يوسف حينما اشتراه العزيز كان غلاماً ، وهو لفظ يطلق عادة على من هو في حدود الرابعة عشرة ، لا يتخطاها بحال ، عرفنا أن هناك فترة زمنية طويلة قضاها يوسف الذي كان آنذاك مملوكاً في بيت العزيز .

وهي فترة زمنية يجب أن يكون لها طابعان :

الطابع الأول : حينما كان يوسف ما زال غلاماً ، ونعتقد أن هذه الفترة التي لم تكن طويلة ، بالقياس إلى الأخرى ، قد مرت هينة لينة .

ويكفي أنه كان في منزل من يلقب الآن برئيس الوزراء ، كي نعرف أنه كان الغاية في النعيم ، في ظل العزيز الرجل الطيب القلب الرحيم .

والطابع الثاني : حينما بلغ يوسف عليه السلام مبلغ الرجال . ونستطيع أن نفهم أنه عليه السلام ، كان في قبضه على دينه كالقابض على الجمر ، في ذلك البيت المترف ، في ذلك المجتمع الذي أقل ما يقال فيه إنه غير ديني .

وإن هذه الفترة التي تمتد حتى يبلغ يوسف أشده ، يجب بناء على ذلك أن تكون طويلة طولا بيناً ، وأن تمتد على أقل تقدير عشر سنوات قضاها يوسف في المكابدة والجهاد النفسي ، وقد بلغ الجهاد قمته في محنته مع امرأة العزيز .

وفي سبيل تبيين طبيعة هذه الفترة التي تلت بلوغه مبلغ الرجال ، وسبقت محنته مع امرأة العزيز ، نود تأمل لفظ المحسنين في قوله تعالى : « ولما بلغ أشدّه آتيناه حكماً وعلماً ، وكذلك نجزي المحسنين » .

فما معنى هذا اللفظ الذي ليوسف عليه السلام منه نصيب موفور ، والذي استحق بسببه أن يؤتيه الله حكماً وعلماً ؟ .

إن معنى هذا اللفظ يجيء على لسان يوسف ، خطاباً لإخوته في قوله تعالى : « قال أنا يوسف وهذا أخي قد منّ الله علينا ، إنه من يتق ويصبرْ فإنّ الله لا يضيع أجر المحسنين » .

إذن فقد كان يوسف القمة في التقوى والصبر بعون الله وتوفيقه ، في الفترة التي تعتبر من أكثر فترات العمر احتمال انزلاق وتردٍّ في مهاوي الرّذيلة خاصة في ذلك المكان المترف وفي المجتمع غير الدينيّ .

وباختصار ، نستطيع أن نفهم الإغراء الذي كان يتعرض له الفتى يوسف ، الذي أُوتيَ شطر الحسن ، والذي كان أجمل من القمر ليلة البدر .

ونستطيع أن نتصوّر شيئاً من المعاناة التي ظل يكابدها في القبض على دينه لعدة سنوات مرّت بِطاء قبل أن تتوّج بالمحنة الكبرى مع امرأة العزيز !

والحقيقة أنه عليه السلام في ذلك المجتمع كان أشبه ما يكون بمصباح في ظلام ذلك المجتمع الدّامس .

وهنا يجب أن نشيد بِمَنٍّ الله وفضله على عبده يوسف ، الذي دبره قبل أن يبتليه ، فنقول :

لقد شاءت إرادته تعالى ألا يتمّ لإخوة يوسف التخلص منه بإلقائه في غيابة الجبّ إلا في السن التي تسلح فيها بسلاح الإيمان الذي اكتسبه وارتوت منه عروقه في كنف والده نبيّ الله يعقوب عليه السلام ، « وكان فضل الله عليك عظيماً » .

وقد رعت العناية الإلهية يوسف في كل مرحلة من مراحل حياته ، وكان دائماً المصباح الذي ينير الطريق للسالكين ، وكان تمامُ النعمة عليه باصطفاء الله تعالى له بالنبوّة .

وإن يعقوب نبيّ الله ليلقي علينا نحن المسلمين درساً في وجوب تنشئة أبنائنا تنشئة دينية ، فإنها السلاح النافذ دائماً ، والذي لا يزداد مع كرّ الليالي والأيام إلا قوة وجدّة .

وننتقل الآن إلى تأمل الآية التي تمثل هذه المرحلة ، قال تعالى : « ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً ، وكذلك نجزي المحسنين » .

إن جملة « بلغ » هنا تدل كما سبق أن أشرنا ، على أن يوسف بعد فترة زمنية تميل إلى الطول قد بلغ أشدّه .

وهذه الفترة الزمنية قد فُهمتْ ضمناً من هذا البلوغ ومن الحكمة والعلم اللذين آتاهما الله تعالى يوسف جزاء إحسانه وتقواه وصبره .

وواضح أن هذا الإيتاء تكرُّم من أحكم الحاكمين على عبده يوسف جزاء إحسانه .

فما المراد بالحكم ؟

إنه النظرة الصائبة للأمور والتقدير الصحيح للمواقف .

وما المراد بالعلم ؟

إنه العلم اللدني الذي اصطفى الله تعالى به يوسف .

وإن في إمكاننا أن نلمح في سهولة ويسر من هذه الآية الدرجة العالية الرفيعة الجديدة التي رفع الله تعالى إليها يوسف .

فقد آتاه في هذه السنّ حكماً وعلماً .

وفي إمكاننا أن نتبين الدرجات التي ارتفع فيها يوسف حتى الآن .

فهناك الرؤيا الطيبة أولا ، والعلم اللدني بتأويل الأحاديث ثانياً ، وهنا الحكم والعلم جزاء إحسانه .

وهكذا يتضح أنه كلما تقدم بيوسف العمر ، اصطفاه أرحم الراحمين برحمته جزاء إحسانه .

وإذن نستطيع أن نقول : إن شخصية يوسف تسير حثيثاً حيث الدرجة الرفيعة التي تنتظره ، درجة النبوة .

والآن إلى المشهد التالي :

قال تعالى: « وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك . قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواى ، إنه لا يفلح الظالمون ،

ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ، واستبقا الباب وقدّت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب ، قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يُسجنَ أو عذاب أليم ، قال هي راودتني عن نفسي » .

ونودّ أن نتأمل جملة راود أولا من قوله تعالى: « وراودته التي هو في بيتها عن نفسه » ، التي تدل على المجهود البعيد المدى الذي بذلته هذه المرأة في سبيل تحقيق غرضها .

وكانت الظروف مسعفة لها كي تكون مراودتها ليوسف مستمرّة في كل الصور الممكنة .

فقد كان يوسف بالضرورة في بيتها لأنه مملوك لسيدها ، فلم يكن بإمكانه بعون الله تعالى إلا أن يستعصم .

اما أن يغادر المنزل ، واما أن يبتعد عنها بحال من الأحوال ، فإن ذلك لم يكن في مقدوره مطلقاً .

وإن الشيء الذي نود التنبيه إليه ، هو أن هذه المراودة لم تكن الأولى من امرأة العزيز ، وإن كان يبدو أنها قد اتخذت الآن ثوب الصراحة ، وبالتالي يجب أن تكون قد سبقت هذه الصراحة تصريحات وتلميحات .

كما نود التنبيه أيضاً إلى أن امرأة العزيز لم تنفرد بالمراودة ، فقد شاركها فيها أخريات .

فهذا هو الذي ينتظر في مثل هذا البيت المترف في ذلك المجتمع غير الديني .

وإن من الأدلة على ذلك قول الملك خطاباً لجماعة النسوة اللاتي يعتبرن صورة من الأخريات كما جاء في القرآن : « قال ما خطبكن إذ راودتنّ يوسف عن نفسه » .

وإن في الإمكان أن نقول : إن المحنة التي مرَّ بها يوسف مع امرأة العزيز تعتبر القمة في المضمار وليست الوحيدة ، فقد سبقها من نوعها كثير ، وتلاها من نوعها كثير .

وما دمنا عرفنا أنه قد سبقت هذه المحنة الكبرى محن ، فمعنى هذا أن يوسف الذي صبر واتقى بعون الله وتوفيقه ، قد اكتسب شيئاً كبيراً من الرياضة والدربة والمران على مواقف مختلفة من جنس ذلك النوع .

حتى إذا كانت المحنة الحقيقية كان عنده شيء كبير من المناعة .

ولم يكن أرحم الرّاحمين ليبتلي عبده المخلص المحسن يوسف ، إلا بعد أن آتاه القدرة على اجتياز هذه المحنة بسلام .

والآن فلنعد إلى تمثل الآية مرّة أخرى لشيء في أنفسنا .

قال تعالى : « وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك ، قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواى ، إنه لا يفلح الظالمون » .

والشيء الذي في النفس يتركز في هذا السؤال : هل هذه الآية تتحدث عن محنة واحدة فقط ، أم أنها تتحدث عن أكثر من محنة ؟

وبعبارة أوضح هل هذه الجزئية « وراودته التي هو في بيتها عن نفسه » مرتبطة بما بعدها أم أنها منفصلة عنها ، وتمثل بالتالي محاولة سابقة ، تعتبر امتداداً لمحاولات سابقة من امرأة العزيز ومن سواها ، في تلك الفترة التي تمتد من بلوغ يوسف مبلغ الرجال حتى بلغ أشده ؟

أنا في حقيقة الأمر أميل إلى الرأي الثاني ، وهو أن هذه الجزئية « وراودته التي هو في بيتها عن نفسه » تشير إلى نوع صريح من المراودة ، في هذه المرحلة من عمر يوسف ، متميز عما سبقه .

وأن هذه المراودة من امرأة العزيز ، كما أنها متميزة عما سبقها من مراودات إذ تعتبر الأخيرة تطوراً طبيعيّاً لها ، كذلك ما تلاها ، يعتبر تطوراً طبيعيّاً صارخاً لها .

وهذا يعني أن قوله تعالى : « وغلقت الأبواب وقالت هيت لك » يمثل قمة الصراحة في موقف امرأة العزيز من يوسف ، وأنها هذه المرة قرنت الفعل بالقول ، فلم تكتف ، بالتلميح ، ولا بالكلام الصريح .

وها هي ذي تقوم بتغليق الأبواب كي تضمن عدم دخول من في الخارج .

وهنا يجيء على لسانها القول : « هيت لك » .

وليس وراء هذه الصراحة من القول والفعل صراحة .

وهنا يجيء عن يوسف قوله تعالى : « قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواى ، إنه لا يفلح الظالمون » .

وبتأملنا لهذا القول على لسان يوسف نستطيع أن نقسمه إلى ثلاثة أقسام :

« معاذ الله » و « إنه ربي أحسن مثواى » و « إنه لا يفلح الظالمون » .

وواضح أن القسم الأول يتعلق بالذات العلية ، فإن يوسف يستعيذ بالله العلي القدير ، من أن يتورط فيما تدعوه إليه امرأة العزيز ، وإن موقفه هو الرفض التام لهذا الطلب .

حتى إذا تحولنا إلى القسم الثاني « إنه ربي أحسن مثواى » لمحنا نوعاً من شبه بين هذا القول على لسان يوسف والقول السابق على لسان العزيز « أكرمي مثواه » .

وإن هذا الشبه يدعونا إلى الظن بأن هذا القول على لسان العزيز لامرأته قد قيل أمام الغلام يوسف ، وها هو ذا الآن ، بعد هذه السنوات العديدة ، يستعمل لفظة المثوى التي سبق للعزيز أن استعملها .

وإن الاستعمال لهذه اللفظة يجعلنا نعتقد أن قول يوسف : « إنه ربي » معناه إنه سيدي يعني العزيز ، خاصة وأن يوسف نفسه يستعمل في مناسبة أخرى الرب بمعنى السيد .

فقد جاء على لسانه خطاباً للساقي « وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك » .

وجاء عنه قوله تعالى : « فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم » .

وكذلك يستعمل القرآن الكريم في هذه السورة هذه اللفظة في المعنى نفسه « فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين » .

فإذا اتضح كلُّ هذا استطعنا أن نقول : إن يوسف ينتقل من استعاذته بالله تعالى إلى الحديث عن الشخص الذي أحسن إليه بمن الله وفضله .

وفي الإمكان أن نتبين اعتراف يوسف بإحسان العزيز إليه ، قبل تصريحه بالقول : « أحسن مثواى » وذلك من إطلاقه للفظة الرب بمعنى المنعم ، في الدلالة على إنعام العزيز ، وإيثاره لها على ما سواها .

وإن لضمير المتكلم في « ربي » دوراً آخر في الدلالة على اعتراف يوسف بالجميل، وشعوره بالامتنان . وإن هذا القول : « أحسن مثواى » يعتبر تبييناً وتوضيحاً لقوله : « ربي » .

ونود أن نعقد نوعاً من علاقة بين قول العزيز السابق خطاباً لزوجه: « أكرمي مثواه » وقول يوسف الآن : « أحسن مثواى » ويتضح ذلك من مبالغة كل من العزيز ويوسف في الحرص على استعمال لفظ المثوى ، بمعنى مكان الثواء ، مبالغة من كل منهما في وصف الإكرام والإحسان .

فإن قصد العزيز ببساطة « أكرميه » .

وقصد يوسف « أحسن إليَّ » .

وهذا دليل على إكبار يوسف لليد البيضاء التي أسداها إليه العزيز .

وفي الإمكان أن نتبين في قول يوسف هذا تقديراًمنه أبعد لإكرام العزيز له.

إن العزيز يجيء على لسانه جملة أكرم في خطابه لزوجه « أكرمي مثواه » بينما يجيء على لسان يوسف جملة « أحسن » في خطابه للزوجة نفسها ، « أحسن مثواى » .

إن العزيز قد جاء على لسانه أقصى ما يمكن أن يجيء على لسان من كان في مثل موقفه خاصة وأنه بحكم ظروفه وطبيعة عمله لا يستطيع أن يقوم بدور الإكرام وإنما يوكل ذلك إلى أحب الناس إليه، ومن يعتقد أن له عندها المنزلة نفسها .

أما فيما يتصل بيوسف ، فإنه إكباراً منه للإكرام الذي كان العزيز سبباً فيه لا يجد جملة أكرم . قادرة على التعبير عما يشعر به في أعماقه من امتنان للعزيز ، ومن ثم فهو يلجأ إلى جملة أخرى تعتبر أكثر قدرة على التعبير ، هذه الجملة هي « أحسن » التي نعتقد أن يوسف أخرجها من أعماق نفسه ، كرد فعل نفسي للإحسان إليه .

إن العزيز يستعمل جملة أكرم ، وهي تدل على الإكرام الذي سيصل من امرأته إلى يوسف .

أما يوسف فيستعمل جملة أحسن ، وهي تدل على امتنانه وإنزاله الإكرام منزلة أبعد وأعلى ، ألا وهي منزلة الإحسان ، فيا له من وفاء من يوسف عليه السلام ، في تلك اللحظة العصيبة .

وإن يوسف عليه السلام ، حينما يتضمن كلامه لفظة مثوى ، في هذا الظرف العصيب ، الذي تريد فيه المرأة الإساءة ليوسف ولزوجها الذي سبق أن تضمن كلامه لها لفظة مثوى ، فهذه براعة من يوسف ، المراد منها إيقاظ ضمير هذه المرأة السادرة في غيّها ، التي لم تحفظ وصية زوجها ، المصممة على خيانته بالغيب(١) .

وإذا كان يوسف تحول من هذه الجزئية « معاذ الله » المتعلقة بالذات العلية ، إلى هذه الجزئية « إنه ربي أحسن مثواى » المتعلقة في مجموعها بالعزيز ، فإنه يتحول الآن إلى نفسه في هذه الجزئية « إنه لا يفلح الظالمون » .

---

١ ــ واضح أن استنتاجنا هذا مبنى على أن قول العزيز : «اكرمى مثواه» كان امام الغلام يوسف بقصد أن يطيب خاطره ويطمئن نفسه · ولو فرض أن قول العزيز لزوجه لم يكن امام الغلام · ففى هذه الحال يكون قول يوسف المتضمن لفظه المثوى الموافقة للفظه نفسها فى قول العزيز ، من قبيل احساس يوسف العميق باحسان العزيز اليه · وفى ذلك تقريع لهذه المرأة على سوء صنيعها والحقيقة اننا الى الافتراض الأول اميل ، والله أعلم ·

إن امرأة العزيز تطلب منه أن يرتكب الفحشاء .

وفي ذلك ظلم أيما ظلم لأوامر الله تعالى التي تنهى عن الزنى نهياً باتاً .

وظلم بيِّن لنفسه ، إذ يسيء إليها أيما إساءة والواجب عليه أن يحسن .

وظلم للعزيز ولامرأته أيضاً .

إنه ظلم للعزيز لأن معنى تلبية طلب الزوجة مقابلة إحسان العزيز بالإساءة ، وائتمانه له على حرمه ، أغلى ما يملك بالخيانة .

وإنه ظلم لامرأة العزيز ، لأن معنى تلبية طلبها ، وحاش لله أن يتم شيء من ذلك ، كشف ما لا يحق كشفه إلا بالطريق المشروع . وكيف يكون هناك حق أساساً وإن المرأة لمتزوجة ! .

وإن يوسف عليه السلام ، ليلقي علينا نحن المسلمين شبابنا على وجه الخصوص درساً بليغاً في الوفاء والأمانة وحفظ الفرج .

وهذا الموقف الطاهر العف ، أثنى عليه القرآن الكريم في أكثر من موضع ،

قال تعالى في سورة المؤمنون (١) : « قد أفلح المؤمنون ، الذين هم في صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون » .

وقال تعالى في سورة الفرقان(٢) : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ، والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً ، والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ، إن عذابها كان غراماً ، إنها ساءت مُستقراً ومُقاماً والذين إذا أنفقوا لم يُسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ، والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاماً ،

---

١ ـ آيات ١ـ٧

٢ ـ آيات ٦٣ـ٧٠

يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلدْ فيه مهاناً ، إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأُولئك يبدِّل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفوراً رحيماً » .

وقال تعالى في سورة الإسراء(١) : « ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشةً وساء سبيلا » .

وقال تعالى في سورة النور(٢) : « الزّاني لا ينكح إلاّ زانيةً أو مشركةً والزّانية لا ينكحها إلاّ زانٍ أو مُشرك ، وحُرِّم ذلك على المؤمنين » .

وقال تعالى ثناء منه على مريم ابنة عمران في سورة التحريم(٣) : « ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين » .

والحقيقة أنّ سورة يوسف ، عن طريق قص محنة يوسف مع امرأة العزيز وصرف الله تعالى عنه السوء والفحشاء ، لأنه من عباد الله المحسنين المخلصين ، تنتهي إلى الغاية نفسها التي انتهت إليها آيات القرآن المتعددة في النهي عن ارتكاب جريمة الزنى صراحة .

ولكن سورة يوسف تصل إلى هذه الغاية في مجرى فريد لها .

إنها تقص علينا المحنة التي مر بها الشاب المثالي يوسف مع امرأة العزيز واستعاذة هذا الشاب الصالح غير المتزوج بالله تعالى مما تدعوه إليه هذه المرأة ومراقبته لله تعالى في تلك الخلوة التي فرضت عليه فرضاً ، وإنقاذ الله تعالى في النهاية له « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب »(٤) « ومن يتق الله يجعل له من أمره يُسرا » (٥) .

---

١ ـ آية ، ٣٢
٢ ـ آية ، ٣
٣ ـ آية ، ١٢
٤ ـ الطلاق ، من آيتى ٣،٢
٥ ـ الطلاق ، من آية ٤

إنه لنعم الدرس الذي يلقيه علينا الشاب الصالح يوسف الذي كان آنذاك مملوكاً وغير متزوج .

إنه لأسوةٌ حسنة لكلِّ شاب مُسلم في كل زمان ومكان .

وإن إنقاذ الله تعالى لعبده المبتلي يوسف ، لدليلٌ من أقوى الأدلة على أن الله تعالى لن يتخلى مطلقاً عن عباده الصالحين ، وأنه لا يكون منه تعالى إلا الخير .

ما أجمل الدرس الذي يلقيه علينا نحن المسلمين نبيُّ اللهُ يوسف ! وما أحلى وقعه على كل نفس مؤمنة مطمئنة !

ولو أن كلّ شاب مُسلم اتخذ يوسف الشاب المسلم لله رب العالمين مثالا يحتذى في هذه القضية التي نحن بصددها لتخلصت كل مجتمعاتنا الإسلامية من هذه الرذيلة ، ولأصبحت مجتمعات طيبة طاهرة عاطرة . وحينما يعف الرجال تعف النساء .

ونتحول الآن إلى الآية التالية :

قال تعالى: « ولقد همت به ، وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ، إنه من عبادنا المخلصين » .

ونود أولا تناول هذا القول من الآية : « ولقد همت به ، وهم بها لولا أن رأى برهان ربه » وإن هاتين الجزئيتين من هذه الآية ، مما يتهيب فطاحل العلماء الخوض فيه خوف الزلل ، وإنا لنسأله تعالى دائماً العون والتوفيق .

هناك بعض النقاط التي نود تبيينها بهذا الخصوص :

أولا : ليس بخاف موقفُ امرأة العزيز المريب من يوسف .

وليس بخاف موقف يوسف الخالي من كل شائبة .

ثانياً : لإحسان يوسف الدائم فقد كان الله تعالى معه في كل لحظة من لحظات حياته ، وبخاصة في أوقات الشدة .

فحينما أجمع الإخوة أمرهم أوحى الله تعالى إليه لينبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون قال تعالى : « فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب ، وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون » .

وحينما بلغت المحنة ذروتها مع امرأة العزيز أراه الله تعالى برهانه .

وحينما اتهمته الزوجة أمام زوجها قيض الله تعالى له الشاهد الذي قضى ببراءته . وحينما قدر عليه السجن ، قدر عليه ساعة دخوله السجن الخروج منه بإدخال الفتيين معه ، وكان الساقي الذي نجا منهما سبباً في خروج يوسف من السجن بعد تعبيره رؤيا الملك .

ثالثاً : لقد نعت الله تعالى عبده يوسف بأنه من المحسنين ، قال تعالى : « ولما بلغ أشده آتيناه حُكماً وعِلماً ، وكذلك نجزي المحسنين » .

كما نعته تعالى بأنه من عباده المخلصين . قال تعالى : « كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ، إنه من عبادنا المخلصين » .

ونستطيع أن نقول باختصار : إن رحمة الله تعالى كانت في هذه المحنة مع يوسف عليه السلام ، بينما كانت امرأة العزيز منساقة وراء الهوى موكولة إليه .

وبعد هذه المقدمة الموجزة ننتقل إلى تأمُّل هاتين الجزئيتين معاً ، لأن هناك نوعاً من علاقة بينهما .

قال تعالى : « ولقد همَّت به ، وهمّ بها لولا أن رأى بُرهان ربه » .

وواضح أن الجزئية الأولى القصيرة خاصة بامرأة العزيز « ولقد همَّت به » وأنّ الجزئية الثانية التي تميل إلى الطول خاصة بيوسف عليه السلام « وهم بها لولا أن رأى برهان ربه » .

فما الذي يلمحه المتأمل لهاتين الجزئيتين ؟

إنَّ أول ما يُلمح هو أن الجزئية الخاصة بامرأة العزيز تتضمّن اللام التي تفيد التوكيد ، وقد التي تُفيد التحقيق « لقد » بينما لا يوجد شيء من ذلك في الجزئية الخاصة بيوسف عليه السلام .

فلنتأمّل معاً الجزئية الثانية « وهمَّ بها لولا أن رأى بُرهان ربه » فعلام يدل هذا؟

هذا يدلُّ على أن همَّ يوسف عليه السّلام ، لا يمكن بحال أن يكون من نوع همّ امرأة العزيز .

وحاش لله أن يكون ليوسف المحسن ، ، عبد الله المخلص المرشح للنبوة علاقة مِن همِّ هذه المرأة المنساقة وراء الهوى ، التي كان همها عملياً ، بدليل أنّها حاولت اللحاق به وهو مندفع حيثُ البابُ للفرار بدينه ، وأمسكت بقميصه وقدته من دُبُر .

وما دام أنّه اتّضح أنّ هناك نوعين مختلفين من الهم ، وما دمنا نعرف أن حرف العطف (الواو) في مثل هذه الحال يرفع بطبعه الهمَّ الثاني قريباً من مستوى الأول ، ولم يكن ذلك حقاً بحال ، فإن أوّل ما نطالب به ونُلحّ في الطلب ، هو أننا أثناء التلاوة ينبغي أن نقف عند نهاية الجزئية الأولى الخاصة بامرأة العزيز ثم نستأنف التلاوة .

وبالتالي تكون التلاوة في هذه الصُّورة « ولقدْ همّت بهْ ، وهمَّ بها لولا أن رأى بُرْهان ربه » .

وإن هناك لجمالا موسيقيّاً داخليّاً نكسبه من هذه الصورة من التلاوة ، وذلك من الباء والهاء الساكنة في الموضعين ، إضافة إلى إحقاق الحق المعنوي .

ثم ماذا يلمح المتأملُ للجزئيتين مِن فرق ؟

إنه يلمح أنَّ الجزئية الأولى الخاصة بامرأة العزيز تقف عند الهم ولا تتخطاه بينما يتبين أن الجزئية الثانية ، الخاصة بيوسف ، تتضمن هذه الزيادة « لولا أن رأى بُرهان ربه » .

فما معنى هذا ؟

معنى هذا أن رحمة الله تعالى دائماً مع العبد المبتلى يوسف ، وأنه في اللحظة التي همت فيها امرأة العزيز عملياً ، كان بُرهان الله عزّ وجل ، الذي لا نعرفه على وجه التحديد ، والذي نستطيع أن نقول عنه : إنّه أثر من آثار رحمة الله بيوسف ، يراه يوسف عليه السلام أمامه رأي العين .

وكان هذا البرهان من الله تعالى في اللحظة التي كان فيها الهم عملياً من امرأة العزيز ، وكاد يكون من يوسف ، المرشح للنبوة ، ردُّ فِعل عنده ، ممثل في صورة همٍّ نفسي .

وإن الذي حال دون هذا الهم النفسي منه بُرهان الله تعالى الذي قضى على هذا الهم النفسي قبل أن يكون .

وإن الذي جعل السياق يجيء في هذه الصُّورة بالذات « ولقد همت به ، وهمَّ بها لولا أن رأى برهان ربه » هو أن هذا السياق أفهم أن ليوسف فضلا له دوره في الوصول إلى النهاية الحميدة ، لا يكاد يقل عن البرْهان الذي رآه(١) إضافة إلى ما يسمى بمراعاة النظير في البلاغة .

فلنعد الآن إلى تأمّل الجزئيتين معاً « ولقد همتْ به ، وهمَّ بها لولا أن رأى برهان ربه » .

وبما أن برهان الله قد قضى على الهم النفسي ليوسف عليه السلام .

وبما أن الجزئية الأولى الخاصة بامرأة العزيز تتلى منفردة ، فإن الجزئية الخاصة بيوسف عليه السلام ينبغي أن تُتلى بشقيها معاً ، وتكون تلاوة الجزئيتين بالتالي في هذه الصُّورة « ولقد همتْ به ، وهمَّ بها لولا أن رأى برهان ربه » (٢) والله أعلم .

---

١ ـ لو كان السياق فى هذه الصورة مثلا ، ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها ، لما تبينا له دورا . وقد كان له عليه الصلاة والسلام في الوصول الى النهاية السعيدة دور كبير .

٢ ـ ان قلبى لا يرتاح لأى قراءة فى غير هذه الصورة ، والله أعلم .

فإذا انتقلنا إلى ما تبقى من الآية تبين أنه ينقسم إلى قسمين : « كذلك لنصرف عنه السُّوء والفحشاء » و « إنه من عبادنا المخلصين » .

وبتأمل القسم الأول يتبين أن رب العزة لم يتخل ولم يكن ليتخلى عن عبده المبتلى يوسف .

وأن برهان ربه الذي رآه كان السّبب المباشر في صرف السوء والفحشاء عنه .

« والسُّوء هو الاستجابة النفسية للإغراء . والفحشاء هي الفعل الذي ينتهي إليه » (١) .

وبما أن الفحشاء ، بمعنى جريمة الزنى ، قد صرفها الله تعالى عن يوسف ، فقياساً على ذلك تكون الاستجابة النفسية للإغراء لم تكن أساساً وهو ما سبق أن أوضحنا .

وإنّ الشيء الذي نودّ توكيده هو أنّ يوسف عليه السلام كان الغاية في بُغض ما تقوم به امرأة العزيز تجاهه ، وبخاصة في هذه المحنة التي تُعتبر بالقياس إلى ما عداها قمة القمم .

وكان مقبلاً على الله تعالى بكله .

هذه التّربة الطيبة قبلت غيث بُرْهان الله تعالى فأنبتت بإرادة الله تعالى صَرْفَ السوء والفحشاء .

وقد كانت الجزئية الأخيرة من الآية « إنه من عبادنا المخلصين » خَيْرَ شاهد من الذي لا يخْفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، من ربّ العزّة ، على طهرِ قلب يوسف ونقاء سريرته وصفاء نيته .

واستجابة من يوسف لبرهان ربه الذي أراه إياه .

---

١ ـ فى ظلال القرآن ١٠٣/١٢

وتجسيداً لمنْيته الأكيدة في الخلاص من هذه المحنة له في دينه ، أغلى ما يملكه المُسْلمُ لله ربّ العالمين في هذه الحياة .

ما كان منه إلاّ أن قام بانطلاقةٍ منه خاطفةٍ صَوْبَ الباب الرئيسي .

وكانت رغبةُ المرأة فيه ، كرغبته في الفرار منها .

وقد صوَّر القرآن الكريم ما حدث ، في هذا المشهد الرّهيب المهيب .

قال تعالى :« واستبقا الباب وقدّت قميصه من دُبُر وألفيا سيدها لدى الباب ، قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا إلاّ أن يُسْجَنَ أو عذاب أليم».

وإنّ الشيء الذي نود توكيده هو أنه لو لم تكن المرأة في كامل ثيابها لما جَرُؤت على الوقوف بحضرة الفتى أمام زوجها فضلاً عن توجيه الإتّهام إليه .

وماذا كان موقف يوسف من هذا الاتّهام الخطير ، وهو الموقن من طُهْرِه وبراءته ، وأنها هي التي راودته عن نفسه ، المتهالكة عليه ، التي لا يزيدها انصرافه عنها ، تنفيذاً لأمر خالقه ، إلاّ اندفاعاً متأججاً نحوه ، وأنها هي المتشوقة ، ولو للفظ واحد منه ، تختلف نبرته عما اعتادته منه ، بما في ذلك الظرف العصيب الذي أوْجدتهُ فيه الآن ؟

لقد كان موقفُ يوسف موقف الرَّجل الكامل الإيمان ، الموقن في فضل الله وعفوه .

قال تعالى عنه : « قال هي راودتني عن نفسي » .

إن يوسف عليه السلام ، لو كان عنده ذرة من غير حسن النية ، لما كان منه ، في هذا الموقف الذي يقف فيه متهماً بالخيانة ، من زوجة أمام زوجها الذي يكاد يكون الحاكم الفعلي للبلاد ، هذا الكلامُ الغاية في القوة المستمدة من هذا الإيجاز البليغ ، ومن نبرة الطاهر المظلوم ، الذي يتهمه الخائن الفعلي بالخيانة بدلا من أن يُثاب لعفته .

وقد اتجه دفاع يوسف في هذا القول عن نفسه خناجر تمزق هذه المرأة في كبرها الزائف وعزتها الآثمة وغرورها المخدوع .

براءة يوسف وموقف متطور للمرأة :

تشاء إرادة الله تعالى ، الذي لم يكن ليتخلى عن عبده المخلص المبتلى يوسف ، أن يثبت صِدْق الفتى وزَيفُ المرأة عن طريق الشاهد الحكيم .

قال تعالى: « وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصُه قد من قُبل فصَدَقت وهو من الكاذبين ، وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن . إن كيدكن عظيم » .

لقد أوجدت إرادة الله تعالى الدليل على براءة يوسف قبل الاتهام .

فقد قدّ قميصه من دُبر قبل أن يلفيا سيدها لدى الباب .

ويستمر الشاهد في القول كما جاء في القرآن الكريم « يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك ، إنك كنت من الخاطئين » .

لقد وضع حد لهذه المسألة الآن ، ليس لأن يوسف هو البريء ، ولكن لأن المرأة هي المتهمة !

هذه صورة من صور معالجة أمثال هذه الأمور ، في تلك المجتمعات غير الدينية ، عند تلك الطبقات التي تسمى بالراقية ، ولكنه في حقيقته رقي معكوس .

وصدق الله تعالى إذ يقول في كتابه العزيز « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمّرناها تدميرا » (١) .

وذاع في المدينة موقف المرأة من الفتى ، ولاكته ألسنة جماعة من النسوة ، فدعتهن المرأة كما هو معروف إلى وليمة ، وطلبت من الفتى أن يخرج عليهن ، وأكبرنه وقطعن أيديهن .

---

١ ـ الاسراء ، ١٦

ولم يرفض يوسف الخروج ، لأنه لا يملك إلا أن يطيع فيما ليس فيه معصية لخالقه .

وبعد أن كسبت المرأة الجولة يجيء عنها قوله تعالى : «قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ، ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين » .

وواضح أنها تتحدث عن الفتى في فجور وكبر ، فهي تخيّره بين أن يفعل ما تأمره ، — ويلاحظ أن طلبها سابقاً أصبح أمراً الآن — وبين أن يُزَج به في السجن .

ومادام أن في الأمر تخييراً بين هذين الأمرين المرَّين فقدكان طبيعياً أن يختار يوسف عليه السلام السجن .

وقبل أن نتحوَّل إلى القسم الثاني من مرحلة الاختبار بالابتلاء ، مع يوسف في السجن ، نود أن نجيب عن سؤال هام يلحُّ علينا ، هذا السؤال هو : ما دام أن يوسف قد بلغ الآن أشده ، وكان الغاية في الصحة والقوة والعلم ، وعلى علم تام بمكان أبيه وآل يعقوب ، فهلا فكر في التوجه إلى آل يعقوب ومغادرة مصر . ؟

والجواب عن ذلك أن إرادة الله تعالى لم تشأ ذلك ليوسف وإن لنا على ذلك دليلين :

الأول : هو أن مصر مكان تعبير رؤيا يوسف عليه السلام . وقد تم ذلك في نهاية القصة كما هو معروف .

والثاني : هو أننا نعتقد ، أن يوسف ، سواء نال حريته أم لم ينلها ، لم يكن يرغب أساساً في مغادرة مصر ! ليس للإكرام الذي خصّه به العزيز ، فإن إيذاء زوجته له أكبر ، ولكن لأن يوسف عليه السلام صاحب رسالة وحامل أمانة .

وحينما نتبين عما قريب في السجن أن يوسف كان يتحين كل فرصة للدعوة إلى دين الله ، فهذا ما فعله مع صاحبيه في السجن ، وأن المجتمع المصري آنذاك عامة في حاجة إلى يوسف كي يكون سبباً في إخراجه من الظلمات إلى النور أكثر من حاجة المجتمع الشامي ، حيث يعقوب نبي الله وآله ، إذا تبين ذلك ، أدركنا السبب الذي من أجله آثر يوسف التصدي للصعاب والصمود لها حتى يأذن الله بالفرج . والبقاء في مصر ابتغاء رضوان الله ، على الراحة والأهل والأوطان .

وإن هذا لدرس بليغ آخر يلقيه يوسف عليه السلام ، على كل حامل أمانة من أمة الإسلام .

وحينما نتأمل ردّ يوسف عليه السلام على امرأة العزيز التي أرادت أن يفعل ماتأمره به ، قال تعالى : « قال ربّ السِّجنُ أحبُّ إلي ممايدعونني إليه ، وإلا تصرف عني كيدهن أصبُ إليهن وأكن من الجاهلين » فإن أول ما يلاحظ ، هو أن تفضيل يوسف للسجن على ما يدعوه إليه النسوة ، إنما تم في ضوء تخيير امرأة العزيز له بين الأمرين المرّين . وإلا فقد كان عليه السلام يؤثر السلامة والعافية على هذين الأمرين معاً .

كما يلاحظ ميل يوسف الواضح لاستعمال لفظة الرّب وإيثاره لها على ما عداها لما تتضمنه من الإشعار بالاعتراف بإنعام المنعم .

وعموماً فإن هذه اللفظة ، بهذا المعنى تدور في هذه السورة على الألسنة في كثير من المناسبات للسبب نفسه .

وإن يوسف عليه السلام لا يجيء على لسانه مثلا « ربّ السجن أفضل عندي » مما يفهم منه أن الفارق بين فعل ما يُدْعى إليه وبين السجن ليس كبيراً ، إنما يجيء على لسانه : « ربّ السجن أحب إلي ممايدعونني إليه » .

فليس هناك مجال للمقارنة أساساً بين الأمرين .

ومع أن كل نفس حرة تبغض السجن على كل حال ، ومن باب أولى حينما تكون مظلومة ، وأن يوسف ليعتبر القمة في إباء الضيم أو أن يسام خسفاً ، إلا أن الأمر يختلف الآن اختلافاً بيناً .

إنه ليس هناك مجال للترجيح أو المفاضلة ، ولكن هناك الرفض التام لأحد الأمرين ، وبالتالي فهناك القبول التام بالضرورة لثاني الأمرين ، بل هناك الرضا ، لا بل هناك الحب « رب السجن أحبُّ إلي مما يدعونني إليه » .

وإن يوسف نبي الله المعصوم ، لا يتكل على نفسه طرفة عين ، ولا يغتر بكونها على الصراط المستقيم لحظة من اللحظات ، وها هو ذا يعبر في صراحة عن ضعفه ويعلن عن عجزه « وإلا تصرف عني كيدهن أصبُ إليهن وأكن من الجاهلين » .

إنه ليسأل ربه مخلصاً أن يعينه على ما ابتلاه به ، وينقذه مما هو فيه ، ويصرف عنه كيد هؤلاء النسوة اللاتي يتعرضن له محاولات إغراءه بالتلميح والتصريح والأمر الواضح الصريح ، وإلا فإن ضعفه سيغلبه فيصبو إلى النسوة ، ويتجاوب معهن ويكون في النهاية ، وحاش لله أن يكون شيء من ذلك ، واحداً من الحمقى الطائشين الجاهلين .

وإن الله تعالى الذي هو أقرب إلى يوسف من حبل الوريد ، قد استجاب دعاءه فصرف عنه كيد هؤلاء النسوة ، إنه هو السميع العليم .

ولا نعرف على وجه التحديد كيف تم ذلك الصرف ، هل ليأسهن منه على الرغم من قربه منهن ، أم لبعده عنهن ؟ الله أعلم .

ولكن الذي لا شك فيه هو أن رحمة اللطيف الخبير بالعبد المبتلى يوسف ، كانت وراء ذلك الصرف ؛ قال تعالى : « فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن ، إنه هو السميع العليم » .

ونود الوقوف عند « يدعونني » و « كيدهن » و « إليهن » هكذا بصورة الجمع في قوله تعالى على لسان يوسف : « قال رب السجن أحب إلي مما

يدعونني إليه ، وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين » .

و « كيدهن » بصورة الجمع أيضاً في قوله تعالى: « فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم » فنقول :

إن يوسف عليه السلام لم يكن هدفاً لإغراء امرأة العزيز فقط ، بل كان هدفاً لإغراء نسوة المدينة اللاتي جاء على لسانهن قوله تعالى: «امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبّاً ، إنا لنراها في ضلال مبين » لأن يوسف خرج عليهن بأمر امرأة العزيز « فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشراً ، إن هذا إلا ملك كريم » .

لا ، ليس ذلك فحسب ، بل كان يوسف هدفاً لإغراء نساء أخريات أيضاً . فإذا كانت محنته مع امرأة العزيز قد ذاعت وهي التي كان لها من الظروف ما يمنعها أن تذيع ، فكيف لا تذيع محنته الثانية مع امرأة العزيز ونسوة المدينة . وبما أن الأولى كانت سبباً في إغراء جديد ليوسف ، فقياساً على ذلك ينبغي أن تكون الثانية سبباً في إغراء جديد له أيضاً .

كمانود الوقوف عند قول يوسف: « أصب إليهن » فإن هذه الحال التي يشير إليها يوسف إنما تكون من المرء وهو في ريعان الشباب .

وهو بهذا يشير إلى السن التي كان فيها ، ونستطيع أن نفهم ضمناً حقيقة شيء من المعاناة التي كان يكابدها عليه السلام ، وقد قال المعري مشيراً إلى ما يمكن أن يصدر من المرء بين الخامسة عشرة والأربعين(١) :

وما بعد مر الخمس عشرة من صِبا وما بعـــد مر الأربعين صباء

فإذا أضفنا إلى ذلك أن رحمة الله تعالى اقتضت أن يدخل مع يوسف فتيان مماثلان له سنا ، استطعنا أن نعين سن يوسف في تلك الأثناء .

---

١ ـ المزوميات : اللزمية الأولى .

وأخيراً فإن يوسف عليه السلام يضرب لشباب المسلمين لله رب العالمين مثلا جديداً في التضحية إرضاء لله تعالى ، والفرار بدينه أن يمسه أدنى سوء .

إن السجن بكل ما يعنيه في حقه من ظلم ووحشة وكآبة ، أحب إليه من أن يستمتع في ظل الخيانة بالنعيم في بيت العزيز ، لأن ذلك في حقيقته نعيم زائل مهما امتد أجله وطالت به الحياة .

يوسف في السجن :

وكيف كانت المحنة التالية ليوسف عليه السلام بالسجن ؟

قال تعالى : « ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين » .

ونود الوقوف أولا عند حرف العطف « ثم » الذي ينطوي على فترة زمنية ذات طول نسبي قضاه يوسف عليه السلام في جهاده النفسي ومكابدته ابتغاء رضا الله عز وجل .

وهكذا يضرب لنا يوسف دائماً المثل الأعلى في الصبر ، الصبر على البلاء والصبر على النعماء .

كما نود الوقوف عند ضمير جماعة الغائبين في الجزئية السابقة نفسها « ثم بدا لهم » .

فليس الذي بدا له هو العزيز مثلا ، إنما الذين بدا لهم مجموعة يعنيها الأمر . ولعل العزيز واحد من هذه المجموعة التي كانت قادرة على أن تنفذ ما بدا لها من سجن يوسف .

ويفهم من هذا أن هذه المجموعة ممن بيدها الحل والعقد في البلد ، وأنها تمثل علية القوم والطبقة التي تسمى في ذلك المجتمع راقية .

إنا نقول بأن هذه المجموعة من علية القوم ، لأنا نعرف أن لامرأة العزيز يداً في هذه القضية عن طريق زوجها وهو من علية القوم .

وإن هذه المرأة هنا ، بغرورها وصلفها وتكبرها وتجبرها رمز لنسوة تلك الطبقة اللاتي تصدين ليوسف فطعنهن جميعاً في كبريائهن ، وكن قادرات مع امرأة العزيز على التأثير في المسؤولين بزج يوسف في السجن ، جزاء أمانته وعفته وطهره .

وقد صادف هذا الاقتراح منهن هوى عند رجالهن المسؤولين ، فعن طريق سجن يوسف في اعتقاد هؤلاء يقطع لسان الشائعات التي لم تفتر لحظة واحدة منذ قول النسوة : « امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبّاً ، إنا لنراها في ضلال مبين » .

كما نود الوقوف عند لفظة « الآيات » هكذا بصيغة الجمع وليس المفرد في قوله تعالى : « ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين » .

فلم تكن الآية على براءة يوسف مع امرأة العزيز هي الوحيدة ، بل كانت هناك آيات وآيات .

ونستطيع أن نفهم أن بعض هذه الآيات ثبت للبعض اتفاقاً ودون تعمد ، كالآية على براءته في نظر الشاهد حينما وافق قميصُ يوسف الذي قد من دبر ، شِقَّ القاعدة الثاني الذي يقضي ببراءته ، وأن البعض الآخر من الآيات ثبت تعمداً منهم لها واختياراً ليوسف .

وقد كانت النتيجة دائماً وأبداً واحدة ، هي براءة يوسف وطهره وعفته .

وإن كل ذلك لدليل على أن تصدي النسوة ليوسف قد فاحت رائحته في كل زوايا ذلك المجتمع وأصبح لهو المقيم ولهو المدلج الساري .

كما نود الوقوف عند جملة « ليسجننه » . وتأمل لام التوكيد الداخلة عليها ، ونون التوكيد الثقيلة اللاحقة بها .

إن هؤلاء الرجال المسؤولين ليعجزون في هذا المجتمع الفاسد العقيدة عن كبح جماح نسائهن عن اتباع الهوى .

وإن عندهم من الوقاحة ما يجعلهم قادرين على التعبير في هذه الصيغة القوية من التعبير عن سجن الفتى الطاهر الطوية النقي السريرة .

والأدهى من ذلك أنهم قرنوا الفعل بالقول .

وإن يقينهم بأنهم يقدمون على أمر جلل ، وشعورَهم بوخز الضمير إذ لم يستطيعوا لانحلالهم هم أنفسهم أن يُسيطروا ، بالحق ، على نسائهم وهن في الباطل ليجعلهم يحددون الفترة التي سيقضيها الفتى في السجن تحديداً تقريبياً في القول الذي جاء على لسانهم « حتى حين » .

وإن لسان حالهم ليحدد هذا الحين بالوقت الذي يثبت لهم فيه أن الشائعات عنهم وعن نسائهم قد ماتت .

وهكذا نجد أنفسنا أمام صورة من صورمعالجة هؤلاء المسؤولين لقضية غير عويصة بالقياس إلى ما عداها من القضايا التي تصادف هذا المجتمع غير الديني .

والآن مع الآيات المتعلقة بيوسف عليه السلام في السجن .

قال تعالى: « ودخل معه السجن فتيان » قال أحدهما إني أراني أعصر خمرا وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه نبئنا بتأويله ، إنا نراك من المحسنين ، قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ، ذلكما مما علمني ربي ، إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهُم بالآخرة هم كافرون ، واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نُشرك بالله من شيء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ، يا صاحبي السجن أأرباب متفرّقون خير أم الله الواحد القهار ، ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، يا صاحبي

السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمرا ، وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه ، قُضي الأمر الذي فيه تستفتيان ، وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك ، فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين » .

فإلى تأمل الآية الأولى ، قال تعالى : « ودخل معه السجن فتيان ، قال أحدهما إني أراني أعصر خمرا ، وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه ، نبئنا بتأويله ، إنا نراك من المحسنين » .

إنه على الرغم من كون يوسف بصدد محنة جديدة إلا أنا نفهم يقيناً من هذه الآية أن رحمة الله ترفرف حول يوسف في أكثر من جانب .

فمن رحمته تعالى أن يدخل السجن معه ، في اللحظة التي دخل فيها نفسها فتيان ، رِجلا برِجل .

والمعروف أن المرء أكثرُ إلفاً لمن كان في مِثلِ سنه .

هذا صحيح بالنسبة للصغار والكبار ، وكذلك بالنسبة للفِتيان بطبيعة الحال .

وقد كان في دخول فتى واحد السجن مع يوسف سلوة له وعزاء . فكيف إذا كان هناك اثنان . لا شك أن ذلك مما يخفف عنه شيئاً من وطأة الألم الذي انتابه للظلم الذي حل به .

وإن رحمته تعالى لا تقف عند هذا الحد ، ويتضح ذلك تماماً حينما نعرف أن واحداً من هذين الفتيين سبب في خروج يوسف من السجن .

وصدق تعالى إذ يقول في كتابه العزيز : « إنا كل شيءٍ خلقناه بقدر » .

ونستطيع من القول الذي جاء على لسان الفتيين في السجن أن نتبين نضجهما العقلي ورجاحة تفكيرهما وذلك من صيغة الزمن المضارع التي جاء فيها تعبيرهما وليس الماضي ، على الرّغم من أن الحديث يتعلق بما حدث في الماضي .

قال تعالى : « قال أحدهما إني أراني أعصر خمراً ، وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه ، نبئنا بتأويله ، إنا نراك من المحسنين » .

لقد كان بالإمكان أن تجيء صيغ الأفعال المضارعة الستة في صيغة الماضي ، ولكننا بصدد شخصين يتمثلان الرُّؤيا ويهمهما ما تؤول إليه ، ولهما رأيهما الشخصي في يوسف .

فمع أن هذا هو رأيهما فيه منذ اللحظة الأولى التي قُدر لهما فيها الاجتماع به ، فإن هذا هو رأيهما فيه ، في الحاضر وفي المستقبل أيضاً .

ومن رحمته تعالى بالعبد الصابر المبتلى يوسف أن يرى كل من الفتيين المشركين رؤيا . ويطلب تعبيرها من يوسف الذي خصه الله تعالى برحمته فكان أعبر الناس للرؤيا .

ولو لم يكن يوسف معبراً للرؤى لما خطر على بال الساقي الذي نجا منهما حينما طلب الملك تعبير رؤياه . ولكن حينما تحقق تعبير يوسف لرؤيا الفتيين كان طبيعياً أن يتذكره الساقي حينما حلت المناسبة .

وإن الشيء الذي يمكن الإشارة إليه ، هو أنه من الطبيعي أن يستغرق رأي الفتيين في يوسف فترة من الوقت حتى يتبلور في هذه الصورة .

كما أنه من الطبيعي أن يكون كل من الفتيين قد رأى رؤياه بعد قضائه في السجن فترة من الزمن معينة .

وكل ذلك معناه أن هذه الفترة الزمنية يجب أن تضاف إلى السنوات التي قضاها يوسف في السجن والتي جاءت الإشارة إليها في قوله تعالى عن يوسف: « وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذِكر ربه فلبث في السجن بضع سنين » .

وبقيت مسألة هامة جداً بشأن هذه الآية ، هي الدرس العظيم الذي يلقيه علينا معشر المسلمين نبيُّ الله تعالى يوسف عليه السلام . فإنه بتقواه وصبره كان المثل الأعلى لكل فرد في السجن، فلم يكن الفتيان إلا رمزاً لسواهما.

وإن يوسف بخلقه العظيم وسلوكه المستقيم وتمسكه بحبل الدين المتين ، كان قُدوة في السجن وإماماً .

إنه لنعم الدرس الذي يلقيه علينا نحن المسلمين يوسف عليه السلام من منبر القرآن الكريم .

وإنه لدرس نافع مفيد في كل زمان ومكان .

فقد أثبتت التجربة دائماً أن المسلم حينما يكون في غير بلاد الإسلام مطبقاً تعاليم دينه فإنه خير سفير وداعية للإسلام . لا فرق في ذلك بين كونه في بلاد متحضرة أو متخلفة ، فإن الإنسانية عطشى لغذاء الروح وماء الحياة ، وما أغزر هذا الماء وما أعذبه في الإسلام ! وما أغنى المسلمين به ! وما أفقرهم هُم وسواهم بدونه !

وإن التاريخ ليسجل بمداد من نور هذه المفخرة ، لأولئك النفر من المسلمين الذين ضربوا في الأرض طلباً للرزق ووصلوا إلى تلك الأصقاع النائية التي لم يصلها أساساً جندي واحد ، وكانوا بخلقهم العظيم بسبب تطبيقهم لتعاليم الإسلام الحنيف خير دعاة وخير هداة مهتدين .

وإنه لخليق بالمسلمين أن يتأسوا في كل جيل بالسلف الصالح .

وإنه لنعم الدرس الذي يلقيه علينا يوسف عليه السلام ، السراج المنير في ليل ذلك الشرك الدامس .

وحينما يخص كل من الفتيين يوسف بتعبير الرؤيا ، فذلك شيء طبيعي جدًّا ، وإن ذلك يُعتبر مظهراً من مظاهر العزة ، في ليل الشرك الحالك ، ليوسف عليه السلام ، المسلم لله رب العالمين .

وليس بخاف أن يوسف لم يُعبر الرؤيا للفتيين مباشرة ، والسبب في ذلك يكمن في أن مايعتبره الفتيان غاية ، وهو تعبير الرؤيا ، يعتبره يوسف عليه السلام وسيلة ، لأن غاية رُسل الله الدعوة لدين الله تعالى ونبذ الأرباب المتفرقين .

وقد استطاع يوسف بتوفيق من الله تعالى ، أن يجمع في جوابه الغاية والوسيلة أحسن ما يكون الجمع . فلننتقل مع يوسف في جوابه خطوة خطوة .

إنا نتبين في الآيتين الأوليين تماسكاً مصدره أنهما تتعلقان بيوسف عليه السلام نفسه .

قال تعالى : «قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما

ذلكما مما علمني ربي ، إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ، واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نُشرك بالله من شيء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون » .

فلنتأمل أولا هذه الجزئية التي تمثل كتلة متماسكة « قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما » .

وأول ما يلاحظُ المتأمل هو أن العلم اللدني الذي يشير إليه يوسف عليه السلام يسير مع تأويل الرؤيا في اتجاه واحد .

إن تأويل الرؤيا إنباء عما تؤول إليه ، وإن الحديث عن الطعام قبل أن يأتي الفتيين إنباء عما يؤول إليه .

وهذا يعني أن يوسف وإن لم يجب الفتيين عن رؤياهما مباشرة فإن نقله لهما إلى شيء آخر ، في الاتجاه نفسه ، يعتبر نقلا هيناً ليناً ليس مزعجاً لهما ولا مفاجئاً ، لأنهما لا يشعران مُطلقاً بأنه يتحدث عن موضوع غريب عن طلبهما ، أو غريب الحدوث من يوسف نفسه ، وهو الذي نعتاه لتوهما بالقول على لسانهما : « إنا نراك من المحسنين » .

بل إن يوسف عليه السلام ، في حديثه عن الطعام الذي نقل الفتيين إلى الحديث عنه نقلا هيناً ليناً ، ليتعمد استعارة ما يمكن استعارته من معجمهما اللغوي .

فإذا كان قد جاء على لسانهما : «نبئنا بتأويله » فإنه يجيء على لسان يوسف « إلا نبأتكما بتأويله » .

ولا يخفى أن ذلك مسعف على إشعار الفتيين بأنّ الحديث في اتجاه طلبهما ، وأنّ طلبهما نفسه في طريقه للتحقيق .

وإن المتأمل لهذا القول على لسان يوسف ليُكبر أيما إكبار اللفتة الكريمة في هذه الجملة « ترزقانه » في القول على لسانه:« لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله » .

لقد كان في إمكانه أن يستغني لو شاء عن هذه الجملة ، ولكن هذه اللفتة الكريمة منه تشد انتباه الفتيين إلى أن الطعام الذي يأتيهما إنما هو رزق من الله تعالى الواحد الأحد وليس من سواه .

وإن يوسف حينما يشير إلى العلم اللدني الذي خصه الله تعالى به لا يريد من ذلك شيئاً من كسب لشخصه .

وهذا واضح تمام الوضوح . إنما قصده الإشادة بمن الله وفضله عليه .

وإن هذه الجملة « ترزقانه » على لسانه ، لتهيء الفتيين لفهم قصد يوسف الذي يتدرج بالفتيين حتّى يصل إلى دعوتهما صراحة إلى دين الله تعالى وعبادته وحده لا شريك له ، ثم يعبر لهما رؤياهما .

ومع أن إشادة يوسف بفضل الله تعالى عليه بجعله قادراً على إنباء الفتيين بتأويل الطعام قبل أن يأتيهما ، مهيئة للفهم بأن يوسف سيؤول رؤياهما ، لأن الاتجاه في الأمرين واحد ، إلا أننا نحس في أعماقنا بأن يوسف إنما يشيد بنعمة عظيمة جداً ، لا يمكن أن تقل بحال عن إنعامه تعالى عليه بجعله قادراً على تعبير الرؤى .

وفي إمكاننا أن نشير إلى السرّ في هذه العظمة فنقول :

إذا كان تعبير الرؤيا ينطلق من الرؤيا نفسها ، فإن فضل الله تعالى على يوسف بجعله قادراً على تعيين نوع الطعام الذي سيصل للفتيين في المستقبل ، دون أن تكون هناك قاعدة كقاعدة الرؤيا ينطلق منها تأويل يوسف للطعام ، وكان فضل الله عليه عظيماً .

والمتأمل لإشارة يوسف إلى قدرته على تأويل الطعام لينتهي ، كما سبق أن ألمحنا ، إلى أن هدفه من ذلك كسب قلبي الفتيين كي يستميلهما إلى دين الله تعالى وعبادته وحده لا شريك له .

ويوسف يلقي علينا نحن المسلمين درساً في وجوب بذل كل المحاولات لاستمالة الناس إلى دين الله تعالى .

ومن الوسائل إلى ذلك إظهار نعمة العلم التي أنعم بها تعالى على عبده . ولا يدخل ذلك بحال من الأحوال في باب تزكية النفس المنهى عنه ، ما دام المرء يقصد من ذلك وجه الله تعالى ، إنما يدخل في باب شكر المنعم ، وإن يوسف عليه السلام ليلوح لنا عبداً شكوراً .

والمتأمل لهذا القول على لسان يوسف « لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما » يتبين أنه بصدد صيغة الغاية في قوة التعبير ووضوح الدلالة ، في أنه عليه السلام عنده بفضل الله تعالى القدرة على القيام بهذا العمل ليس لمرة واحدة بل مرات ، لا بل في كلّ مناسبة .

وإنا لنتساءل : هل هذا العمل عادي أم أنه معجز ؟

والجواب معروف بطبيعة الحال ، وهو أننا بصدد عمل الغاية في الإعجاز ، فكيف به وهو يتكرر في كل مناسبة ؟

وإنا لنتساءل أيضاً : أي فئة من البشر تستطيع القيام بعمل كهذا ؟ .

والجواب عن ذلك : إنها النبوة وكفى .

والذي يلوح لنا والله أعلم ، هو أننا الآن أمام أول نص صريح بأن يوسف نبي من أنبياء الله تعالى « لا يأتيكما طعامٌ ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما » .

وهكذا يتضح أنه كلما اصطفى الله تعالى يوسف بالابتلاء ، رفع درجته. وكان جزاء ابتلائه بالسجن اصطفاءه بدرجة النبوة .

وإذا كنا تبينا اللفتة الكريمة والخلق العظيم في هذه الجملة على لسان يوسف « ترزقانه » فإنا نتبين ذلك أيضاً في إصرار يوسف على تضمين كلامه المثنى المخاطب ؛ فإن بالإمكان الاستغناء عنه بكل بساطة في كل مناسبة . ولكن هذا التضمين يشعر كلا من الفتيين بأنه موضع الاهتمام ومحل التقدير .

وهذا وسيلة من وسائله عليه الصلاة والسلام لاستمالة قلبي الفتيين فياله من درس بليغ نافع عظيم يلقيه يوسف عليه السلام على أمة الإسلام .

كما نتبين اللفتة الكريمة والخلق العظيم في هذه الجزئية التالية « ذلكما مما علمني ربي » .

إن جملة « ترزقانه » في الجزئية السابقة التي توجه الفتيين في لطف إلى الله اللطيف الخبير ، لتعتبر خير مهييء للانتقال الكلي في هذه الجزئية الثانية « ذلكما مما علمني ربي » إلى اللطيف الخبير .

وتأمل ضمير التثنية الذي نقول عنه ما قلنا في الجزئية السابقة .

وتأمل « من » التي تفيد التبعيض في قوله : « مما علمني ربي » .

إنه عليه السلام جد حريص على أن ينفي عن نفسه فضل ذلك العلم ، وقد مهد لذلك بجملة « ترزقانه » المهيئة لانتقال كهذا .

وها هو ذا الآن تجيء على لسانه الجزئية الغاية في وضوح الدلالة « ذلكما مما علمني ربي » .

وهو حريص على إظهار فضل الله العظيم عايه والإشارة إلى نعمه التي لا تحصى .

وإن لـ « من » التي تفيد التبعيض لدوراً بعيد المدى في ذلك .

فلا يقتصر فضل الله تعالى على يوسف في جعله قادراً على الإنباء بما يؤول إليه الطعام الذي يرزقانه ، ولكنه يمتد فيشمل مثلا تعبير الرؤى . وهو ما يهتم له الفتيان في تلك اللحظة .

فكأن هذه الجزئية « ذلكما مما علمني ربي » لها دورها الفعال في تطمين الفتيين بأن يوسف سيؤول رؤياهما .

وتأمل لفظة الرب التي آثرها يوسف في هذا الموضع على ما سواها لما تتضمنه من معنى الإنعام الدائم عليه .

وتأمل ضمير المتكلم من « ربي » الذي يقدم لهذا الغرض النبيل أجمل خدمة .

فإذا أضفنا إلى ذلك أن يوسف يُعتبر وحده السراج المنير في ذلك المجتمع

استطعنا أن نفهم شيئاً من فعل سحر هذا القول: « ربي » في نفسي الفتيين ، وشيئاً من الشوق عندهما لمعرفة ما يمكن معرفته عن هذا الرب المنعم على هذا الشاب المحسن ، عسى أن ينالهما وقتاً من الأوقات غيض من الفيض الذي نال يوسف عليه السلام .

فإذا انتقلنا إلى الجزئية التالية بشقيها « إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون » اتضح لنا أنها هي والجزئية الأولى من الآية التالية بمنزلة السبب لكل هذه النعم التي أنعم الله تعالى عليه بها .

وهي تتعلق بتركه ملة القوم الذين لا يؤمنون بالله تعالى ولا باليوم الآخر .

وتأمل جملة « ترك » التي تستمد عظيم دلالتهامن بساطتها المعبرة إنها تدل على أن يوسف عليه السلام ترك أساساً ملة القوم .

وإنا لنتساءل عن هؤلاء القوم فنقول : أي قوم عناهم يوسف بقوله هذا؟

والمسألة لا تخلو بين كونه يعني المجتمع الذي فيه آل يعقوب أو المجتمع الذي باعته السيارة فيه .

ولا يمكن أن يقصد يوسف المجتمع الذي فيه آل يعقوب لسببين : الأول هو أنه يمكن أن يكون ليعقوب وآله فيه آثار حسنة وآثار .

والثاني هو أن الفتيين اللذين يوجه إليهما الحديث ، لا يعرفان شيئاً عن ذلك المجتمع ، ولو عرفا عنه شيئاً لما عرفا أن يوسف يعنيه بالذات .

ولم يبق بعد ذلك سوى أن يوسف يقصد المجتمع المصري الذي عاش فيه الفتيان حتى قضى عليهما بالسجن .

وليس بخاف أن الفتيين على علم تام بقصد يوسف ، لأن الوصف الذي ذكره ينطبق على ذلك المجتمع الذي يعرفانه يقيناً .

وإن لنا وقفة أخرى عند لفظة « قوم » التي تعمد يوسف تنكيرها ، لأن ذلك يفي بالغرض ، والفتيان يعلمان يقيناً أن المراد مجتمعهما .

وفائدة التنكير في هذه المناسبة تتركز في أنه عليه السلام كان حريصاً على

استمالة قلبي الفتيين إلى دين الله تعالى بالقول اللين والموعظة الحسنة ، فجاء بلفظة القوم منكرة ، لأنها في هذه الصورة مستساغة من الفتيين وهما جزء لا يتجزأ من القوم .

بخلاف ما لو جاءت معرَّفة بأل العهدية أو بالإضافة فقيل : « القوم » أو « قومكم » فإنها في هذه الصورة ربّما كانت منفرة لهما ، إذ يفهمانها بأنها هجوم سافر عليهما ولم يكن يوسف عليه السلام يقصد شيئاً من ذلك وقتاً من الأوقات بحال .

فدل ذلك على أن لفظة « قوم » منكرة ، تمر هينة لينة في آذانهما ، وتتحدّر إلى قلبيهما في هدوء ويسر فتعمل عمل السحر . وهذا ما يُعتقد أنه قد حدث فعلا .

ومن الواضح أنه يجيء على لسان يوسف الآن « لا يؤمنون بالله » بينما جاء في الجزئية السابقة « ذلكما مما علمني ربي » .

إنه عليه السلام حينما أراد أن يعبر عن النعم الجليلة التي خصه الله تعالى بها استعمل لفظة الرب ، وإن ضمير المتكلم قوة لهذا الفهم .

بينما الكلام في المناسبة الأخرى يعم كل القوم الذين أخطأوا الطريق الصحيح فلفظ الجلالة « الله » هو المناسب لهذا العموم .

وفي شطر الجزئية الثاني « وهم بالآخرة هم كافرون » يتكرر الضمير المنفصل الدال على التوكيد وأن هؤلاء القوم يأتون أمراً جللا .

وإن هذه الجزئية بشطريها « إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون » لتقرر مبدأين إسلاميين عظيمين :

الإيمان بالله تعالى . والإيمان باليوم الآخر .

والجزئية الأولى من الآية التالية وثيقة الصلة بالآية التي انتهينا لتوّنا منها فإلى هذه الجزئية .

قال تعالى : « واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب » .

ونودّ الوقوف أوّلا عند جملة « واتبعت » من الاتباع التام المطلق .

ومن الذي يقول هذا ؟

إنّه نبي الله يوسف عليه السلام .

ومن الذي يقرّر أنّ الدين اتباع فحسب ، وليس فيه مجال مطلقاً للتغيير أو التبديل ؟

إن الذي يقرر كل ذلك يوسف عليه السلام .

وإذا كان يوسف نبي الله يقرّر هذا ويقول بملء فيه إنه متبع لآبائه الأنبياء إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، فهل من حق سواه في كل زمان ومكان أن يقول بغير هذا ؟

لا بطبيعة الحال وألف لا . ليس من حق أيّ مُسلم لله رب العالمين إلا أن يكون متبعاً « إن الدين عند الله الإسلام » .

فلننتقل الآن إلى النسق الذي ذكر فيه يوسف آباءه « واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب » .

إن يوسف يبدأ بإبراهيم وليس بيعقوب أبيه وإنه ليجعل أباه آخراً ، أليس كذلك ؟ بلى .

فما تعليل ذلك ؟

والجواب على ذلك هو أننا بصدد عبد من أكثر عباد الله تعالى شكراً للنعمة . وليس هناك نعمة كنعمة الله تعالى على المسلم بالدين القيم . فكيف إذا كانت النعمة الدينية هي النبوة التي منّ الله تعالى بها على إبراهيم وإسحاق ويعقوب على التوالي ؟

لا شك أنها هي الخليقة بالإشادة بها وشكر النعم عليها . ومن هنا جاء هذا النسق « إبراهيم وإسحاق ويعقوب » الذي يعتبر دليلا من الأدلة التي لا تحصى على أن يوسف عليه السلام ، لا يقول ولا يسكت ولا يتحرك ولا يهدأ إلا لله تعالى .

ولم يكن ليجيء بحال على لسان يوسف نبي الله في هذه المناسبة هذا النسق . يعقوب وإسحاق وإبراهيم الذي يدلّ على النسب ليس غير .

إنه لدرس جميل بليغ يلقيه علينا يوسف نبي الله بهذا النسق ، وإن لسان حاله عليه الصلاة والسلام ليقول لنا : يجب أن يكون كل ما يصدر عنا من قول ومن فعل أيضاً ، قياساً على القول ، إنما نريد به الله عز وجل وحده .

فإذا انتقلنا إلى الجزئية التالية في هذه الآية « ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء » فإن معناها كما هو واضح . ما صحّ لنا ولا استقام أن نشرك بالله من شيء .

وإن لنا وقفة عند حرف الجر « من » الذي يفيد التبعيض « من شيء » فإن نفي جزء الشيء أبلغ من نفيه كله .

ولا تخفي العلاقة الوثيقة بين الجزئيتين في الآية ، فإن كلا منهما تدعو إلى عبادة الله وحده « واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء » .

وإن ما يقال عن لفظ الجلالة في قوله تعالى : « إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله » يقال عنه هنا .

فإذا انتقلنا إلى الجزئية الأخيرة من الآية « ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون » فإنا نتبين أن جزءاً منها يخص يوسف وآباءه وأتباع الشريعة الإبراهيمية ، وأن البعض الآخر يخص أكثر الناس الذين قرع آذانهم صوت الحق ولكنهم كانوا صماً وبكماً وعمياً ، فلم يقوموا بشكر الله تعالى الواجب عليهم ، لفضل الله تعالى ونعمه التي لا تحصى ، وفي مقدمتها بعث الرسل إليهم .

وهذه الجزئية ، كما هو واضح ، تقرّر حقيقة كون العدد القليل جداً من الناس ، هم الذين يقومون بحق شكر المنعم ، كما قال تعالى : « وقليل من عبادي الشكور(١) » .

---

١ ـ سبأ ، ١٣

وإنا لنتبين نوعاً من التوافق بين هذه الجزئية « ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون » وبين قوله تعالى في السورة نفسها خطاباً لنبينا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم تسلية له : « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » .

وقوله : «وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون» فكأن ما يجيء الآن على لسان يوسف ، يعتبر تسلية غير مباشرة له صلى الله عليه وسلم .

والآن لننتقل إلى الآية التالية :

قال تعالى : « يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار » .

وإن لياء النداء لوقعاً حسناً في نفسي الفتيين السجينين اللذين ينبغي أن يكونا متعطشين ، بسبب الظرف العصيب الذي هما فيه ، إلى كل لفظ جميل بطريقة جميلة ، تدل على العناية بهما ، والاهتمام لهما ، فكيف إذا رن في آذانهما لفظ الصاحب الذي يدل على المصاحبة . ولكن في أي شيء ؟

إنها المصاحبة ساعة دخول السجن وفي البقاء فيه . فهذا ما يفهم من القول على لسان يوسف « يا صاحبي السجن » .

وليس هناك من لفظ يحتل مكان لفظ السجن أصدق ولا أبلغ منه .

وهل هناك نوع آخر من المصاحبة يتقدم المصاحبة في السجن ، بين يوسف عليه السلام ، المسلم لله رب العالمين ، وبين الفتيين المشركين ؟ والجواب بطبيعة الحال معروف .

ودلّ ذلك بالتالي على الوقع الجميل لهذا القول في نفسيهما . لأنهما يسمعان خير ما يمكن أن يسمعه من كان في مثل موقفهما وموضعهما في السجن من عبادة الله وحده .

وتأتي بعد ذلك المقارنة الجوهرية في القول على لسان يوسف: «أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار » .

فهناك من ناحية ، الأربابُ المتفرقون بطبعهم دائماً ، الذين « لا يخلقون

شيئاً وهم يخلقون . ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً » (١) .

وهناك في المقابل الله الواحد القهار .

وإن للاستفهام دوره العظيم هنا ؛ إذ يحمل الفتيين على المشاركة الفكرية الإيجابية ، لأن فيه إشعاراً لهما بكيانهما ووجودهما ورد شيء من الاعتبار لهما الذي ضاع في زحمة الأحداث التي هما فيها .

وبما أن السؤال الذي يطرحه يوسف منطقي فالجواب معروف .

وليس في إمكاننا إلا أن نقف ونتأمل اللفظ البسيط البريء الهادئ « خير » الذي يجب أن يكون له فعل السحر في نفسي الفتيين المنكسرتين .

وإذا وضعنا صفة الأرباب « متفرّقون » في كفة ، ووضعنا في الكفة الأخرى صفة « الواحد » والصفة « قهار » في صيغة المبالغة ، اتضح لنا كيف تتعلق الكفة الأولى بالفراغ ؟

ومع علم يوسف بموافقة جواب الفتيين لمراده فإنه يزيد المسألة توضيحاً. قال تعالى على لسانه: « ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه . ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

وإنا لمتفقون على أن يوسف قد بلغ بتدرجه اللطيف الغاية وأصبح من حقه أن يتوجه إلى الفتيين بخطابه المباشر .

ومع ذلك فهو إنما يجيء على لسانه « ما تعبدون » وليس ، ما تعبدانّ ، فكأن ما جاء على لسانه عليه السلام يجمع بين الصراحة لاستعماله تاء الخطاب. وبين استمرار اللطف السابق ؛ إذ أن كلامه عن كل القوم في ذلك المجتمع ، ويدخل الفتيان فيه ضمناً .

وكأنه عليه السلام يتخيل كلّ القوم أمامه ، فيوجه خطابه إليهم وإلى الفتيين .

---

١ ـ الفرقان : ٣

وتأمل اللفتة الكريمة في قوله: « من دونه » ففيها حصر للكلام فيما يعبد من دون الله تعالى ، من الأسماء التي خلعوها هم أنفسهم من ذات أنفسهم على بعض المسميات على أنها آلهة .

ومعنى « إلا أسماء أي ألفاظاً أحدثتموها أنتم وآباؤكم فهي فارغة لا مسميات تحتها » (١) .

ولم يأذن الله تعالى في أي صورة من الصور بذلك « ما أنزل الله بها من سلطان » .

عملية البناء الصحيح للعقيدة :

وبعد تبيين فساد عقيدة هؤلاء القوم ، ومحاولة هدمها من أساسها الزائف ، تأتي عملية البناء الصحيح للعقيدة : « إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

إن الحكم لله الحكيم وحده ، وليس للقوم ولا لأصنامهم ، فالله تعالى أمر ألا تعبدوا إلا إياه .

إننا ولا شك بصدد عبارة الغاية في القوة ، تحصر العبادة في الله وحده ، خاصة إذا وضعنا جملة « أمر » من قوله: « أمر ألا تعبدوا إلا إياه » في كفة . وجملة « أنزل » من قوله تعالى على لسان يوسف بشأن أصنام القوم: « ماأنزل الله بها من سلطان » في الكفة الأخرى .

وتأتي العبارة التي تصف حقيقة هذا الدين « ذلك الدين القيم » . « ومعنى القيم ، الثابت الذي دلت عليه البراهين » (٢) .

وهذه الجزئية الأخيرة « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » لتقرّر حقيقة النسبة المحدودة للمؤمنين بالقياس إلى من عداهم .

وقد يكون عَدَم عِلْم الناس لأنه لم يصلهم أساساً نداء الحق .

وقد يكون ذلك ناجماً عن انحراف منهم بعد علم .

٢،١ ـ البحر المحيط ٥/ ٣١٠ .

وهذه الجزئية أيضاً لها دور غير مباشر في تسلية نبينا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم الذي كان آنذاك بمكة .

تعبير رؤيـا الفتيين :

وبعد أن انتهى يوسف عليه السلام من دعوة الفتيين صراحة إلى دين الله ربّ العالمين وهي الغاية التي يسعى إليها كل مسلم لله ربّ العالمين ، فكيف بنبيّ الله يوسف الذي واتته الفرصة كي يكون سبباً في إخراج الفتيين من ظلام الشرك إلى نور الإسلام ؟ انتقل عليه السلام إلى تعبير الرؤيا وإجابة طلب الفتيين .

وقبل الانتقال إلى التعبير ، نود الإشارة إلى أن هذا العمل من يوسف ، والمجهود العظيم الذي بذله متدرجاً بالفتيين من مسألة إلى مسألة حتّى هيأهما لتقبل دعوته ، ثم دعاهما صراحة إلى دين الله تعالى ، ليس إلا رمزاً للمجهود العظيم الذي يبذله في كل مناسبة .

وهذه الحقيقة أعظم الأسباب في إيثار يوسف عليه السلام التعب والنصب والشقاء في مصر إرضاء لله تعالى على الأهل والأقارب والخلان والراحة في الشام .

وإن هذا لدرس عظيم يلقيه هذا النبي العظيم على كل حامل أمانة من أمة الإسلام في كل زمان ومكان .

والآن إلى الآية التي عبر فيها يوسف عليه السلام الرؤيا ، قال تعالى على لسانه: « يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمرا ، وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه ، قضي الأمر الذي فيه تستفتيان » .

وأول ما يلاحظ هو أنه عليه السلام يكرر قوله: « يا صاحبي السجن » الذي سبق أن جاء على لسانه .

وهذا القول فيه لطف وأنس ، وفي تكراره تعميق لكل ذلك في نفسي

الفتيين اللذين أخذ كلام يوسف الطيب الصادق يروضهما كي يدخلا في دين الله تعالى ويعبداه وحده لا شريك له .

وبعد هذه التوطئة اللطيفة يأتي دور تعبير الرؤيا « أما أحدكما فيسقي ربه خمرا ، وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه » .

ويلاحظ أن تعبير يوسف لرؤيا كل من الفتيين وافق ترتيبهما في الطلب ، وبما أن الساقي هو السابق فبناء على ذلك هو السابق لأن تعبر رؤياه .

ويلاحظ أيضاً أن التعبير يدل على أن نهاية الساقي سعيدة وليس كذلك الخباز ، فهو الشخصية الوحيدة التي نهايتها غير سعيدة ، في قصة يوسف .

وبما أنه من الطبيعي أن يكون صريحاً في تعبير رؤيا الساقي ، فهل كان مرغماً على أن يكون صريحاً مع الخباز الذي نهايته أليمة ؟

كي نجيب على ذلك ويتضح موقف يوسف عليه السلام فإنا نقرّر ما يلي :

أولا : بما أن الساقي هو الذي طلب تعبير رؤياه أولا وأن على يوسف ، القمة في حسن المعاملة ، أن يجيب السائل الأول على طلبه ، ووافق أن نهاية الأول سعيدة ، وهي نهاية يجب أن يعرفها بوضوح صاحبها على حقيقتها ، لذلك فقد كان ذكر يوسف لحقيقة تعبير رؤيا الأول موطّئاً ومهيئاً لذكر حقيقة تعبير رؤيا الثاني .

ثانياً : إن الهدف البعيد الذي يرمي إليه يوسف ، ليس تعبير الرؤيا ، وهذا واضح ، إنما الدعوة إلى دين الله تعالى وعبادته وحده .

وإذا صادف أن عند الساقي فسحة من الوقت كي يتدبر أمره ، وليس عند الخباز مثل ذلك ، ولا يعلم هذه الحقيقة من البشر إلا يوسف الذي كان حريصاً على أن يلقى الخباز ربه مؤمناً به عابداً له وحده لا شريك له ، لذلك كان طبيعيّاً أن يكون يوسف صريحاً معه .

ثالثاً : إن يوسف عليه السلام ، بدليل أنه طلب من الذي ظن أنه ناج منهما أن يذكره عند سيده ، كان عنده اعتقاد بأن موافقة تعبيره لما سيحدث

لكل من الفتيين ، ربما كان له دور ما في خروجه من السجن .

وتفسير ذلك هو أنه حينما كان صريحاً في تعبيره مع الفتيين ، وتحقق للساقي إسقاؤه لسيده خمرا ، وتحقق للخباز صلبه وأكل الطير من رأسه ، فإن الذي نجا منهما يتحقق له من نجاته هو وصلب رفيقه قدرة يوسف الفائقة على تعبير الرؤيا . بخلاف ما لو كان يوسف صريحاً معه وغير صريح مع رفيقه فإن الساقي ربما قال : إنما وافق تعبير يوسف لرؤياي ما حدث لي في الحقيقة من قبيل المصادفة ، وإلا فلماذا لم يوافق تعبير يوسف لرؤيا زميلي ما حدث له في الحقيقة ؟

أو لماذا لم يكن صريحاً معه صراحته معي ؟

بل إن الساقي إنما استدل على قدرة يوسف هذه ليس من صلب الخباز فقط ، وإنما من أكل الطير من رأسه أيضاً .

وهكذا يتضح بعد كل الذي ذكرنا أن يوسف علّيه السلام كان محقّاً الحق كله في أن يكون صريحاً مع الخباز .

وهي صراحة تدلنا على أن يوسف رجل قوي الشخصية حقّاً ، شجاع ، يجهر بالحقيقة مهما كانت ، أكانت حلوة أم مرة .

وهو جهر يدلنا على شجاعته في قول الحق دائماً وأبدا وفي كل مناسبة مهما كلفه ذلك من تعب وعنت .

وهل يستغرب شيء من هذا ونحن بصدد نبيّ من أنبياء الله تعالى ؟ لا ، بطبيعة الحال .

ومع أن يوسف صريح في قوله ، إلا أن في الإمكان القول : إنه ، رحمة منه بغير سعيد النهاية منهما ، كان صريحاً الصراحة الضرورية وليست الصراحة المطلقة .

إنه يجيء على لسانه ، أما أحدكما فيسقي ربه خمرا ، وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه ولا يجيءُ على لسانه مثلاً : أما أنت فتسقي سيدك خمراً وأما أنت فتصلب فتأكل الطير من رأسك .

ومع أنّ الفعل المبني للمجهول « يصلب » هذا هو مكانه الطبيعي ، إلا أنه يظل يدل على تجاوب يوسف عليه السلام الإنساني النبيل مع الذي سيصلبه المسؤولون بأمر سيده .

الصراحة ومقدارها :

في ضوء صراحة يوسف ، خاصة مع الساقي ، لنتساءل : أي المواقف يجمل فيها الصراحة وأي المواقف يجمل فيها التلميح والكناية ؟

وإن الجواب على ذلك لنأخذه من فم نبي الله يوسف عليه السلام .

إنه في هذا الموقف الذي نحن بصدده يكتفي بالقدر الضروري من الصراحة،ولكن حينما تتهمه امرأة العزيز أمام زوجها بقولها: « ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا إلاّ أن يُسْجَنَ أو عذاب أليم » يكون رده عليها أمام زوجها القمة في الصراحة .

قال تعالى عنه : « قال هي راودتني عن نفسي » .

بينما حينما أرسل إليه الملك رسولا كي يأتي عنده بعد تعبيره لرؤياه إذا بيوسف ، وهو الذي يريد أن تثبت براءته ، لا يتعرض لامرأة العزيز ، السبب الأول في دخوله السجن ، ولا لامرأة بعينها ، إنما يتعرض ، أدباً منه صلوات الله وسلامه عليه ، لجماعة النسوة .

قال تعالى : « فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله مابال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ، إن ربي بكيدهن عليم » .

إنه عليه السلام يتخذ الموقف الصريح ردًّا على امرأة العزيز لأنها تتهمه في خلقه .

وقد قال تعالى عن المؤمنين في كتابه العزيز : « والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون » (١) . ويتخذ الصراحة الكافية الضرورية مع الفتيين في تعبير الرؤيا امتداداً لتلطفه المستمر معهما واستمالة منه لقلبيهما إلى عباده الله وحده

---

١ ـ الشورى : ٣٩

لا شريك له . بينما يكتفي بالتلميح إلى جماعة النسوة حينما جاءه رسول الملك ، لأن همه منصب على إثبات براءته والانتصار لدينه وأنه زج به في السجن ظلماً وليس منصباً على رد الإساءة إلى امرأة العزيز .

وبناء على هذه المواقف المختلفة ليوسف عليه السلام من الصراحة وعدمها نستطيع إجابة على تساؤلنا أن نقول : إن الفيصل في مقدار الصراحة يجب أن يكون المنفعة الدينية وليس المنفعة الشخصية . إن يوسف عليه السلام إنما كان يرضى في الله ويغضب في الله ويصدر في كل أقواله وأفعاله بتوجيه من دين الله عز وجل . وما أجمل التأسي بنبي الله يوسف ذي الخلق العظيم !

وإن هذه الجزئية التعقيبية على لسان يوسف عليه السلام « قضي الأمر الذي فيه تستفتيان » لتدل على الثقة المطلقة فيما قاله بوحي من الله تعالى للفتيين . وإن كلاماً كهذا لا يمكن أن يصدر إلا من نبي من أنبياء الله رب العالمين . وهذا دليل آخر يضاف إلى الأدلة الأخرى في هذا المشهد على أن يوسف قد نبيء فعلا .

طلب يوسف من الناجي منهما ذكره عند ربه :

والآن إلى الآية الأخيرة في هذا المشهد :

قال تعالى: « وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك ، فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين » .

وإنا لنتساءل : متى قال يوسف ذلك للفتى الذي ظن أنه ناج منهما ؟

هل قال له ذلك بعد تعبير الرؤيا مباشرة أم في وقت لاحق ؟

الحقيقة أنه ليس هناك ما يمنع أن يكون قد قال ذلك بعد تعبير الرؤيا مباشرة ، امتداداً منه صلى الله عليه وسلم لثقته المطلقة في صحة العلم الذي أوحى الله تعالى له به ، شريطة ألا يسمع الخباز هذا القول ، فإن احتراساً كهذا هو الذي ينتظر من نبي الله يوسف ، القمة في رهافة الإحساس .

وهذا الرأي هو الراجح في اعتقادي ، خاصة وأنه قد جاء في السياق جملة « ظن » التي تتمشى مع الذي لما يحدث بعد ، والله أعلم .

كما أنه ليس هناك ما يمنع أن يكون قد قال ذلك في اللحظة التي همّ فيها الساقي بمغادرة السجن بعد علمه بإطلاق سراحه وإعادته لعمله السابق ساقياً للملك .

ومع ذلك فمن الجائز أن يكون قد قال ذلك للساقي في المناسبتين من باب التذكير .

وهذا القول طبيعي من يوسف عليه السلام الذي سجن ظلماً ، خاصة وأنّ الساقي بحكم عمله ، يرى الملك دائماً ، ومن الجائز جداً أن يذكره لسيده دون أن يطلب يوسف منه ذلك لأنه قد أَحْسَنَ إليه إحساناً بعيد المدى ؛ إذ بشره ليس بنجاته فقط ، وإنما بعودته لعمله السابق أيضاً . فكيف إذا طلب يوسف منه أن يذكره عند سيده ؟

ولكن إرادة الله تعالى لم تشأ ذلك ، فأنساه الشيطان ، عدو الإنسان وعدو عباد الله الصالحين ذكره عند سيده الملك . وهكذا مضت إرادة الله تعالى النافذة ، وتساوى طلبُ يوسف من الفتى ذكره عند سيده وعدم طلبه منه ذلك .

والشيء الذي نود تبيينه هو أن الفتيين قد مكثا في السجن مدة قبل أن يغادراه ، كل في وجهته .

وفي تلك الأثناء . كان يوسف عليه السلام ، امتداداً لدعوته الفتيين لدين الله تعالى ، ينبئهما كل مرة بالطعام الذي سيأتيهما ويكرر دعوته لهما لعبادة الله الواحد القهار ونبذ الأرباب المتفرقين .

وهذه الفترة التي سبقت طلب يوسف من الساقي أن يذكره عند سيده الملك غير السنوات العدة التي قضاها في السجن ، بينما قضاها الساقي ساقياً للملك .

ونستطيع أن نفهم أن فعل يوسف مع الفتيين من دعوتهما إلى الله تعالى ، رمزٌ لفعله دائماً مع كل من في السجن .

تعبير يوسف عليه السلام لرؤيا الملك :

القرآن الكريم ، يلقي علينا نحن المسلمين ، من مكث يوسف عليه السلام في السجن بضع سنين ، على الرغم من طلبه من الساقي أن يذكره عند سيده ، درْساً بليغاً نافعاً مفاده باختصار : أن الإنسان مهما كان حريصاً على الخير العاجل لنفسه ، فلا يحدث إلا الخير الذي قضاه وقدره أحكم الحاكمين .

وقد تساوى بشأن يوسف طلبه من الساقي ذكره عند سيده وعدم طلبه منه ذلك . وإنما خرج يوسف من السجن ، حينما أراد الله تعالى له ذلك . فشاءت إرادته أن يرى ملك مصر رؤيا يعجزُ أهل الحل والعقد عن تأويلها ، ويعلم الساقي بحاجة الملك الملحة إلى ذلك ، وهنا فقط يتذكر يوسف ، ليس صاحبه في السجن الذي أحسن إليه الإحسان كله ، لكن المعبر للرُّؤى . « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » (١) .

فإلى رؤيا الملك وتعبير يوسف لها :

قال تعالى : « وقال الملك إني أرى سبع بقرات ٍ سمان ٍ يأكُلُهن سبعٌ عجاف وسبعَ سنبلات خُضْر وأُخَرَ يابسات ، يا أيُّها الملأُ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرُّؤيا تعبرون ، قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ، وقال الذي نجا منهما وادّكر بعد أمّة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون ، يوسف أيُّها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمانٍ يأكُلُهن سَبْعٌ عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون ، قال تزرعون سبع سنين دَأَباً فما حصدتمْ فذروه في سنبله إلا قليلا مما تأكلون ، ثم يأتي

---

١ ـ الانسان ، ٣٠

من بعد ذلك سبعٌ شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون ، ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يُغاثُ الناس وفيه يعصرون » .

إنا جميعاً لنقف بإجلال وإكبار أمام هذا الخلق العظيم لنبي الله يوسف عليه السلام الذي أُسيء له في ذلك المجتمع الإساءة كلها ، والذي كان ما زال في السجن الذي زُجَّ به فيه ظلماً منذ سنوات .

ولا نتبين هذا الخلق العظيم فقط من تعبيره للرؤيا الذي يعود بالنفع العظيم على ذلك المجتمع ، إنما ومِنْ نصحه البعيد المدى الغريب الصفة للقوم وإعطائهم بسخاء علم العام الخامس عشر ، ذلك العلم الذي منحه الله تعالى إياه وخصه به . والذي لو فرض أنه سكت عنه ، فلن يخطر بحال ، على بال أحد السؤال عنه أو الإحساس بفقده .

إن كل هذا من الأدلة الكثيرة على أن يوسف عليه السلام إنما يصدر في كل أقواله وأفعاله ، عن المنفعة الدينية والدنيوية للجماعة ، وليس عن المنفعة الشخصية الدنيوية ، وأنه عليه السلام يضحي في سبيل رسالته بكل رخيص وغال .

فإلى أُولى الآيات التي تخص يوسف عليه السلام :

قال تعالى على لسان الساقي : « يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون » .

وأول ما يلاحظ على قول الساقي ذكر اسم يوسف صراحة وهي صراحة تدل على منزلة يوسف الرفيعة في نفسه ، تماماً كما كانت له عليه السلام في نفس الشاهد الذي أكبر في يوسف عفّته وطهره .

كما ينعته بصيغة المبالغة « صديق » « يوسف أيها الصديق » .

وهي صيغة تدل على تتبع الساقي لكل ما حدث ومقارنته له بكل ما قاله

يوسف فتبين له صدق قوله ، وكلّ ذلك امتداد للصدق الذي عرفه به طوال الفترة التي صاحبه فيها .

لكل ذلك لم يقتنع بصيغة اسم الفاعل « صادق » .

وهذه الصيغة تدل أيضاً على ثقة الساقي المطلقة في موافقة ما سيقوله يوسف ، تعبيراً لرؤيا الملك ، مع الأحداث المقبلة ، وصدقه في كل ما سيصدر عنه من قول .

ويستعمل الساقي جملة « أفتنا » وليس أي جملة أخرى أخف وزناً وأقلّ أثرا . إنه يطلب الفتيا في هذه الرؤيا ، والمعروف أنها لا تطلب إلا في الأمر الجلل . ولا يخفى أن قول الساقي هذا يعبر عن اهتمام صاحب الرؤيا نفسه بها .

وحينما لا يستفتي الساقي إلا يوسف ، فذلك دليل على منزلته عنده ، تلك المنزلة التي ما لبثت أن كانت ليوسف ، بعد تعبير الرؤيا ، عند الملك نفسه .

ومع أن القرآن الكريم لا يشير إلى صاحب الرؤيا في قص الساقي لها على يوسف ، إلا أنه ليس هناك ما يمنع أن يكون الساقي قد صرح ليوسف بصاحبها . ولم يشر القرآن إلى ذلك ، اكتفاء بالإشارة الأولى الصريحة في قوله تعالى : « وقال الملك إني أرى . . . »

فإلى تعبير يوسف للرؤيا . قال تعالى : « قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلا مما تأكلون ، ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون » .

وأول ما يلاحظ على الآية الأولى هو أنه يجيء على لسان يوسف : « تزرعون » وليس ازرعوا قياساً على قوله بعد ذلك : «فذروه» فلماذا ؟

والجواب على ذلك هو أن جملة الفعل المضارع « تزرعون » مع أنها تشير بالزراعة وتنصح بها إلا أنها لا تنصح بشيء معدوم إنما بشيء موجود

فعلا . ولكن والحق يقال هي إضافة إلى ذلك تنصح بالاستمرار في العمل بجد واجتهاد وتعب ، وهو ما يؤكده قوله : « دأبا » (١) .

حتى إذا انتقل يوسف إلى الحديث عن الشيء الذي لم يعمل به أساساً ، ولم يفكر فيه أصلا ، تحول إلى جملة فعل الأمر ، ذات الدور الأكثر إيجابية ، إزاء الشيء الذي ينصح بالقيام به ، هذه المرة ابتداء .

وإنك لتوافقني على أن هذا اللفظ « دأبا » مظهر من مظاهر نصح يوسف للمجتمع الذي أساء إليه .

فإلى الجزئية الثانية من الآية :

قال تعالى على لسانه : « فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلا مما تأكلون » .

لقد لاحظنا التحول من الفعل المضارع في الجزئية الأولى إلى الماضي فالأمر في هذه الجزئية .

ونود الوقوف أولا عند « ما » من قوله: « فما حصدتم » وهي من الجائز أن تكون موصولة ، ولكن تبقى مسألة الفاء من قوله: « فذروه » فإن الكلام يستقيم بدونها وكأنه قال:فالذي حصدتم ذروه في سنبله ، ويبقى الكلام عادياً لا نتبين فيه حرارة إخلاص يوسف عليه السلام .

فبقي بعد ذلك أن نذهب إلى أن « ما » شرطية وأن الفاء رابطة للجواب ، وكأن المعنى : فإن حصدتم فذروا المحصود في سنبله .

وإن لسان حاله عليه السلام ليضيف إلى ذلك قوله : « في كل مرة » .

وعلى هذا يكون دور الفاء من « فذروه » إيجابياً ، وهو ما نعتقد أنها جاءت من أجله ، ونتبين حرارة إخلاص يوسف عليه السلام في نصحه ، وقد جعل من أدلة ذلك التحول من صيغة المضارع في الجزئية الأولى إلى الصيغة الشرطية في الثانية .

---

١ ـ انظر القاموس مثلا .

وينبغي أن يكون يوسف يقصد من هذا التحول شيئاً هاماً ، وإلا فقد كان بإمكانه أن يجعل كلامه يسير على وتيرة واحدة ، بصيغة المضارع .

وإن لجملة فعل الأمر « فذروه » لوزناً ووقعاً من نوع معين يتمشى مع إخلاص يوسف النصيحة للقوم ، ومع سني الشدة السبع التي ستعقب سني الرّخاء .

وإن يوسف عليه السلام ، بإلهام من الله تعالى ، ليبدو من أكثر العلماء خبرة بالزراعة وطريقة حفظ المحصول من الآفات .

وقد استثنى بقوله : « إلا قليلا مما تأكلون » ما يجب أن يكون طعاماً للقوم ، فهذا هو الذي يعمل به ما يعمل بمثله في المناسبات الأخرى .

ومعروف أنه عليه السلام يريد من القوم أن يضاعفوا من عملهم ويحاولوا جاهدين زيادة الإنتاج عن المعتاد ، لأن محصول السنة الواحدة من سبع الرّخاء سيوزع على مثلها من سبع الشدة .

وفوق ذلك هو كان على يقين من أن الناس سيتجهون من كل حدب وصوب تجاه مصر طلباً للطعام ، فعلى القوم أن يحتاطوا لذلك .

وفي الآية التالية: «ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهنّ إلا قليلا مما تحصنون » يبين عليه السلام ما ستعمله سبع سني الشدة ، فيصفها بأنها شداد .

فليس هناك مدد من السماء ولا نبع من الأرض ، وبالتالي سيكون الاعتماد على المخزون .

وتأمل التعبير المجازي الرائع في قوله عن السبع الشداد: «يأكلن ما قدمتم لهنّ » .

إن لدى هذه السنوات السبع الشداد القدرة لأن تبتلع كل ما يقدم لها من طعام ، حتى تكاد تأتي على الطعام كله ، باستثناء القليل جداً من الذي الذي سبق أن وضعوه في حصن حصين وحرز أمين .

وهوما يفيده قوله في الجزئية الأخيرة: «إلا قليلا مما تحصنون» التي تعتبر امتداداً لنصحه عليه السلام للقوم .

وكأنه يقول لهم : عليكم أن تضعوا ما تذرونه في سنبله في أماكن هذه صفتها ، خوفاً من الآفات المتعددة» ومنها النار مثلا .

وتأتي الآية الأخيرة التي فيها علم العام الخامس عشر الذي خصه الله تعالى به، فلم يبخل بعلمه على القوم الذين سجنوه ومازال باقياً في سجنه ظلماً .

قال الله تعالى على لسانه : « ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يَعْصِرون » .

والمراد أن القوم سيغاثون في ذلك العام بالمطر ، فتحيا الأرض بعد موتها وتنبت من كل زوج بهيج ، فلا يكتفون بأكل الناتج ، ولا يقتصر ذلك على ما يؤكل إنما يتسع فيشمل ما يعصر أيضاً .

وهم بسبب الفائض في الإنتاج سيقومون بما اعتادوا عصره سابقاً من سمسم وفجل وقصب وعنب وزيتون . وإن مصر لبلد عصير لأشياء كثيرة .

وهكذا يتبين أن يوسف عليه السلام لا يكتفي بتعبير الرؤيا إنما يتخذ تعبيره وسيلة لنصح غير محدود .

إنه لا يطلب منهم مجرد الزراعة ولكن أن يجدوا ويجتهدوا ويتعبوا في ذلك .

وهو ينصح في أسلوب الشرط أن يذروا ما يحصدون في سنبله فلا يكتفي بالأسلوب البسيط ولا بالنصح المجرد ، ولكن يعين للقوم الطريقة التي عرفها بإلهام من الله تعالى وهو الرجل الذي ليس له علاقة مطلقاً بالزراعة ولا بالاقتصاد .

ويبين في أبلغ عبارة الطريقة التي تلتهم بها سنو الشدة كل ما يقدم لها من طعام باستثناء القليل الذي ينصحهم بأن يكونوا قد جعلوه هو ومايستهلكونه طعاماً لهم تلك السنوات ، في حصن حصين وحرز أمين .

إن كل ذلك النصح من يوسف للقوم الذين ما زالوا يسجنونه ظلماً لدليل على أننا أمام إنسان لا يمكن إلا أن يكون القمة في الخلق العظيم .

وهو إنما عرف بإلهام من الله تعالى كل دقائق المستقبل .

ولا يمكن أن يصدر ذلك إلا من نبي من أنبياء الله تعالى .

والآية الأخيرة في هذا المشهد ، لا يصف فيها يوسف نبي الله ، العام الخامس عشر ، وصفاً عادياً ينطبق على كل عام ليس واحداً غير سني الشدة السبع . ولكن يصفه وصفاً يميزه عن أي عام سواه من سني الرخاء والشدة على السواء .

إنه عليه السلام ينصح القوم في سني الرخاء بأن يجتهدوا غاية الاجتهاد في الزراعة استعداداً لسني الشدة ، ونميل إلى الاعتقاد بأن سنوات الرخاء السبع لو كانت تشبه العام الخامس عشر المتميز لكان يوسف في غنى عن لفظ « دأباً » في قوله تعالى على لسانه « قال تزرعون سبع سنين دأباً » لأن المطر حينما ينهمر من السماء انهماراً فإن الإنتاج بطبعه سيكون كبيراً يفوق الإنتاج في العادة مع بذل الجهد المضني حينما لا يكون هناك مطر أساساً .

وإن الآية التي تتحدث عن العام الخامس عشر ، لتشير إلى المطر صراحة « فيه يغاث الناس » وهذا يعني أنه عام متميز ، خاصة والمعروف أن المطر بوادي النيل قليل في العادة .

وإن الإنتاج الكثير لهذا العام ليجعل الناس قادرين على عصر كل ما اعتادوا عصره .

وفي إمكاننا أن نفهم أن ذلك يتم دون الحاجة إلى بذل المجهود المضني الذي طلبه منهم يوسف في سبع سني الرخاء .

إن كل المعلومات المتميزة الدقيقة عن هذا العام ، بإلهام من الله عز وجل، تجعلنا نقول بكل بساطة :

إننا أمام نبي من أنبياء الله تعالى ، وإن هذا دليل من الأدلة العديدة على

أن يوسف إنما كان نبياً فعلا قبل أن يخرج من السجن ، وكأن النبوة مظهر من مظاهر اصطفاء الله تعالى لعبده يوسف بآلائه التي لا تحصى ، مقابل ابتلائه له مع إخوته والنسوة وفي السجن ، وصبر يوسف عليه السلام دائماً وتقواه .

ونستطيع أن نقول إن هذا الخُلق العظيم ، ليسير في كنف النبوة التي اصطفى الله تعالى بها يوسف ورعايتها .

والحقيقة أن هناك مسألة هامة جداً تلح علينا هي أنه ما دام أن يوسف عليه السلام قد نبيء في السجن فهل اعترِف له بحريته قبل دخوله السجن أو بعد خروجه منه .

والجواب على ذلك ، في ضوء كونه عليه السلام قد نبيء في السجن ، هو أننا لا نرى ما يمنع أن يكون عليه السلام قد نال هذه الحرية قبل أن يزجّ به في السجن ، ولا نستكثر ذلك من القوم الذين سجنوه لسبب بسيط هو أن القوم عندهم شيء من ضمير يؤنبهم في صورة مبهمة غامضة على سجنهم يوسف ظلماً فيقررون سجنه على أمل إطلاق سراحه حينما تهدأ الشائعات ، ما يفهم من قوله تعالى : « حتّى حين » في قوله : « ثم بدا لهم من بعدما رأوا الآيات ليسجننه حتّى حين » .

رفض يوسف الخروج من السجن قبل ثبوت براءته :

وفرح الملك بتعبير رؤياه المعقول جداً .

وأعجب بشخصية يوسف عليه السلام القادرة على كل هذا ووجودها ، بالرغم من ذلك في السجن .

وتبين له أن هناك تناقضاً ولغزاً يكمن وراء هذا المكث في السجن . فبعث إليه رسولا يدعوه . فإلى الآية التي تبين ما جرى ورد يوسف عليه السلام .

قال تعالى: « وقال الملك ائتوني به ، فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ، إن ربي بكيدهن عليم » .

ونود تأمل جواب يوسف عليه السلام واستنتاج ما يمكن أن يدل عليه .

وأول ما يلفت انتباهنا حقاً هو أنه على الرغم من قضاء يوسف هذه السنوات العديدة مظلوماً في السجن ، إلا أنه حينما يطلب إليه أن يغادر السجن ومقابلة الملك ، فإنه يسعى بكل ما أوتي من قوة لإثبات براءته ، والإثبات ، قبل أن يغادر السجن ، أنه سجن ظلماً بسبب الكيد له .

إنا في الحقيقة لنقف مشدوهين أمام القوة العجيبة لهذه الشخصية الفذة ، الغاية في الهدوء والرزانة والصبر وقوة الاحتمال والسعى الدائب لإحقاق الحق ، مهما كان الثمن غالياً .

وحينما نتبين أن يوسف قد ثبتت براءته بحضرة الملك بينما هو في السجن ، فإنا ندرك قيمة خروجه وقد ثبتت براءته فعلا ، والمكسب الذي ناله من تمسكه بثبوت البراءة أولا .

ويتضح ذلك من تمثلنا خروجه من السجن لو لم يتمسك بذلك وقد اعتقد الجميع بأنه يستحق على أقل تقدير شيئاً مما ناله . وإن هناك لفرقاً واضحاً في ثبوت البراءة ، التي سينتهي إليها بصفة أكيدة ، بين الثبوت أمام يوسف ، بحضرة الملك ، وبين الثبوت الذي تم فعلا وهو غائب .

ولا شك أن الثاني أبلغ وأعمق أثراً في النفوس .

فإذا تأملنا القول الذي جرى على لسان يوسف عليه السلام ، فإنا نتبين من استعماله لجملتي فعل الأمر « ارجع » و « فاسأله » عزة الإسلام لله رب العالمين .

إنه عليه السلام على حق ، وهو عزيز بدين الإسلام ، ونتبين في هذا القول على لسانه: « ارجع إلى ربك فاسأله » شيئاً من شبه بقول سليمان ابن داود عليهما السلام « ارجع إليهم » خطاباً لرسول ملكة سبأ التي أرسلت

إليه بهدية في قوله تعالى(١) « ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون » .

إن يوسف عليه السلام ليتعمد صيغة جملة فعل الأمر مرّتين ، وليس أي صيغة أخرى لأنها تقلّ قوة أبداً . ثم إنه يجيء على لسانه قوله: « ربك » وليس ربي .

وكي نتبين عزة نفس يوسف بالحق وقوة شخصيته ، فإنّ في إمكاننا أن نتأمل قوله : « ربي » اعترافاً منه بإحسان زوج امرأة العزيز في قوله تعالى على لسانه خطاباً لها : « معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي » .

إنه لم يقل مثلا : إنه ربك أحسن مثواى . لأن الموقف موقف اعتراف من يوسف بإحسان العزيز له خاصة ؛ ولأن الأمر الذي يدعي إليه يسيء إلى الرجل الذي أحسن إليه . أما في خطابه لرسول الملك فإن موقفه يختلف . إنه موقف عزّة المسلم لله رب العالمين ، الذي لا يمكن إلا أن يكون بالحق عزيزاً دائماً .

فإذا تحولنا إلى هذا السؤال على لسان يوسف؛« ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن » ؟ فإن هناك أكثر من ملاحظة على هذا السؤال . إن الخلق العظيم الذي فطره الله تعالى عليه ، يجعله ينبه على الظلم الذي حاق به بالإشارة إلى جانب من المسألة يشي بالغرض ويفي به . ولا يسيء إلى شخص بعينه ، بما في ذلك امرأة العزيز، السبب الأول في دخوله السجن ، دون أن يكون هناك جانبٌ آخر أقل منه شأناً يمكن أن يفي بالغرض .

وتفسير ذلك أن النسوة اللاتي قطعن أيديهن يعتبرن وسطاً بين امرأة العزيز المتطرفة في مراودة يوسف عن نفسه ، والنسوة الأخريات اللاتي يجب أن يكون لهن دور في مراودة يوسف ولكنهن لم يتعرضن لتقطيع أيديهن.

وبما أن تقطيع الأيدي إنما تم بسبب امرأة العزيز التي خططت لذلك .

---

١ ـ النمل ٣٧

وبما أن لهذه المرأة ولنسوة المدينة الدور الأكبر في سجن يوسف .

لذلك لم يكن باستطاعة يوسف في سؤاله أن يتخطى نسوة المدينة ، ولم يشأ الخلق العظيم الذي فطره الله تعالى عليه أن ينص على امرأة معينة ولو كانت أهم سبب في دخوله السجن ظلماً .

وتأملْ هذه البساطة البارعة في قوله : « ما بال » ، أي ما شأن .

إنه يكتفي بالتساؤل وإثارة الاهتمام بالإشارة إلى موضع الزناد الكفيل بإشعال المسألة لأدنى مس له .

وكي نتبين بساطة قوله : « ما بال » فإن بإمكاننا أن نتأمل الفرق بين هذا القول وقول الملك خطاباً للنسوة وقد ثبت له بالدراسة الفاحصة للقضية براءة يوسف « ما خطبكنّ إذ راودتن يوسف عن نفسه » وإنّ دراسة القضية نفسها إنما تمت بناء على إشارة يوسف البسيطة المعبرة .

ثم إنه لماذا يجيء على لسانه « ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن » ولا يجيء على لسانه مثلا : ما بال النسوة قلن امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ، إلى آخر ما قيل مما كان بإمكانه أن يسأل عنه . بدليل قول امرأة العزيز للنسوة « فذلكن الذي لمتنني فيه » مع أن هذه شهادة صريحة ليوسف ؟

والجواب على ذلك هو أن السؤال الذي لم يجيء على لسان يوسف بجعل امرأة العزيز هدفاً مباشراً ، وكان قصد يوسف جعلها هدفاً ، ولكن يوصلُ إليه بطريق غير مباشر .

ثم إن سؤالا كهذا يجعل نسوة المدينة على هامش الأحداث ، بينما هن في الحقيقة لهن دور إيجابي في زج يوسف في السجن ظلماً .

وهذا القول على لسان يوسف: « قطعن أيديهن » هكذا في صيغة فعّل الدالة على تكثير الفعل لتثير الاهتمام في زاوية معينة عناها يوسف ، إذ تجعل البحث في مسألته يبدأ من هذه الزاوية .

فيبحث الملك عن السبب في تقطيع النسوة أيديهن .

ويأتي بعد ذلك سؤال آخر هو : لماذا قطع النسوة أيديهن ؟

ويليه هذا السؤال : وكيف تم ذلك ؟

وفجأة نجد امرأة العزيز في قفص الاتّهام هي وجماعة النسوة .

وإن لسان حال يوسف ليقول : إن ذنبي في نظر هؤلاء يتركز في أن الذي خلقني في هذه الصورة صرف عني السوء والفحشاء .

وإن في قوله عليه السلام: « ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن » لنكتة لطيفة ، فكأنّه يقول :

إن كثيراً من الأمور في ذلك المجتمع فاسد العقيدة يوجهها النساء وليس الرجال ! .

فإذا تحولنا إلى الجزئية الأخيرة على لسانه عليه السلام « إن ربي بكيدهن عليم » فإنه يتبين منها ، حينما تصل إلى أذن الملك ، أن كيد النسوة وراء الزج بيوسف في السجن ظلماً .

وهي تبين رأي يوسف الواضح في القضية .

ولكنا نحس بأننا إزاء نفس مؤمنة مطمئنة إلى أن ما أصابها لم يكن ليخطئها .

نتبين هذا الإيمان والاطمئنان من صيغة المبالغة « عليم » ومن إيثاره للفظ الرّب الذي يدور استعماله في سورة يوسف ، وقد سبق أن أوضحنا هذا ، حينما يكون هناك رضاً واعتراف تام بإنعام المُنعم .

وإنّ لضمير المتكلم في « ربي » لدوراً بعيد الدلالة في تعميق مفهوم الإيمان والاطمئنان في نفس يوسف عليه السلام وإن لسان حاله ليقول : إن ربي الذي جعل لكيد النسوة ، وقتاً من الأوقات ، سلطة على . لن يتخلى عني وسيثيبني جزاء صبري ورضاي بقدره على .

وهكذا يتضح أنه إذا كنا وقفنا مشدوهين أمام رفض يوسف الخروج من السجن حينما طلب الرسول ، بأمر سيده ، منه ذلك ، فإنّه وقد اتضح

السبب وثبتت براءة يوسف وهو في السجن أمام الملك بحضور النسوة ، يتبين أي درس عظيم يلقيه علينا يوسف عليه السلام ، وأنه واجب على كل مسلم أن يدفع قَدْر الطاقة التهم عن نفسه وجوب ابتعاده عن مواقفها .

« قال عليه السلام : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن مواقف التهم(١) » .

وإن رحمة الله تعالى هي التي جعلت هذا الملك العادل ذا المشاغل الجمة بالضرورة يدرس هذه القضية بنفسه بإنعام ، وانتهى إلى وجه الحق فيها .

وكان لحبه للحق صريحاً كل الصراحة في خطابه للنسوة وامرأة العزيز ، متأسياً بأدب سيدنا يوسف وخلقه العظيم في توجيه الخطاب إلى كل النسوة وفيهن امرأة العزيز « ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه » .

وواضح أن جماعة النسوة في جوابهن ، لا يرفضن حقيقة مراودتهن ليوسف التي أشار إليها الملك صراحة ، بل يسكتن عنها ، وفي السكوت اعتراف .

وفوق ذلك هنّ يثبتن براءة يوسف « قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء » .

وإن لحرف الجر « من » دوراً بعيداً في نفي السوء ، فنفي الجزء أبلغ من نفي الكل . وإنا لنجد نوعاً من التوافق في لفظة« سوء » التي جاءت على لسان النسوة ، وفي قوله تعالى عن يوسف: « كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء » وقد عرفنا السوء بأنه « الاستجابة النفسية للإغراء »(٢) .

وتوجت براءة يوسف بشهادة امرأة العزيز على نفسها وشهادتها ليوسف عليه السلام . قال تعالى : « قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق، أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين » .

---

١ ـ البحر المحيط ٣١٦/٥

٢ ـ فى ظلال القرآن ١٠٣/١٢ :

إن امرأة العزيز تنعت يوسف بأنه صادق ، وهو نعت موافق لما جاء على لسان الساقي « يوسف أيها الصديق » فهنا تواتر في نظرة البشر الواحدة ، لصدقه عليه السلام ونستطيع أن نخرج بدرس عظيم من هذه النهاية السعيدة ليوسف عليه السلام وللنسوة وامرأة العزيز هو أن الحقّ أحق أن يتبع ، وأن العودة إلى الحق فضيلة ، لا فرق في ذلك بين جليل الأمور وهينها .

آيتــان تعقيبيتان :

والآن إلى الآيتين اللتين ذهب البعض إلى أنهما جاءتا على لسان يوسف والبعض الآخر أنهما على لسان امرأة العزيز ، قال تعالى : «ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ، وما أبريء نفسي ، إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي ، إن ربي غفور رحيم » .

وفي سبيل تبيين الذي جاءت على لسانه الآيتان نود أولا تأمل هذا القول « لم أخنه » .

فإن كان الكلام على لسان امرأة العزيز فمعنى الخيانة هنا ، في ضوء اعترافها الصريح أنها الاستمرار في الافتراء على يوسف .

وإن كان الكلام على لسان يوسف فمعنى الخيانة هنا في ضوء ما قصه القرآن الكريم من مراودة امرأة العزيز واستعصام يوسف وصرف السوء والفحشاء عنه أنها خيانة العزيز في أهله .

ونجد أنفسنا بعد ذلك ملزمين بتأمل الجار والمجرور « بالغيب » من قوله تعالى : « ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب » .

فما معناهما في ضوء السياق إن كان القائل امرأة العزيز ؟

معناهما أنها في تلك اللحظة التي يغيب فيها يوسف عن حضرة الملك ، لا تقول إلا بالحق ولا تستمر في الافتراء عليه .

وما معناهما إن كان القائل يوسف ؟

معناهما أنه بمن الله وفضله . ولصرف الله تعالى السوء والفحشاء عنه ، كان بعيداً عن التورط في خيانة العزيز الذي ائتمنه على أهله .

وفي ضوء هذا المفهوم نتساءل : لوفرض أن هذا القول : « ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب » جاء على لسان امرأة العزيز التي سبق أن اتهمت يوسف أمام زوجها بأنه أراد بها سوءاً ، فهل معنى ذلك أنها لو استمرت بحضرة الملك في اتهامها ليوسف ، فإن ذلك يعني أن اتهامها ليوسف بغيبته أخطر شأناً من اتهامها له بحضرته ؟

والواقع أن اتهامها له بحضرته ، أخطر أنواع الاتهام والكذب .

ولو ذهبنا إلى أن الجار والمجرور « بالغيب » جاء على لسان يوسف ، فإن ذلك يتمشى تماماً مع غيبة العزيز المتكررة ورعاية يوسف للأمانة .

وإن في القول بأن امرأة العزير هي القائلة : « ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب » إرغاماً لجملة « أخنه » على أن تعني الاستمرار في الاتهام ، مع أن معناها الأصلي واضح ، وارتباطها بنوع معين من الخيانة ، خيانة الأهل بيِّن ، وهو ما يتمشى تماماً مع الرأي الذي يقول بأن يوسف هو الذي جاء على لسانه هاتان الآيتان(١) .

وننتقل إلى الجزئية الأخيرة في الآية الأولى : قال تعالى «وأن الله لايهدي كيد الخائنين » .

إن معنى هذه الجزئية ، على افتراض أن امرأة العزيز صاحبتها ، أن الله عز وجل لا يمكن أن يسدد في النهاية ولا يوافق كيد الخائنين الكاذبين ، وإن كان ظاهر الجولة الأولى في صالحهم .

وهنا نتساءل : علام يدل هذا ؟ هذا يدل على أن امرأة العزيز تحولت

---

١ ـ ان هناك مسالة هامة استطرادية تترتب على هذا الرأى وهى ان جملة «ليعلم» بصيغة المبنى للمعلوم فى قوله تعالى:«ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب» اشارة اكيدة الى ان عزيز مصر كان مازال على قيد الحياة ، وهى آخر اشارة فى سورة يوسف الى هذه الشخصية .

فجأة إلى شخصية القمة في التدين – ولا يخفى أننا في مجتمع غير ديني أساساً وأن هذه المرأة أخذت في طرفة عين ، ودون سابق إنذار ، تستقي من أصفى المنابع الدينية وأعلمها بالواحد المعبود .

وهل كانت امرأة العزيز ، من الوجهة الدينية مهيأة لأن يصدر منها كلام كهذا ؟

وكي نجيب على ذلك نود تبيين بعض الجوانب فنقول أولا وقبل كل شيء : ليس بخاف أن امرأة العزيز كانت تعتبر واحدة ممن يمثلن الطبقة الراقية في ذلك المجتمع غير الديني وغير صحيح العقيدة . وإذا كان المجتمع بصفة عامة هذا وضعه ، فالمعروف أن الطبقة الراقية المترفة أكثر من غيرها انغماساً في الشهوات وابتعاداً عن الكمية الدينية الأقل من القليل التي وصلت إلى القوم في صورة من الصور .

وصدق الله تعالى إذ يقول في كتابه العزيز : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً »(١) .

ولا نتبين إلا الشيء الطفيف من الآثار الدينية في القول الذي يمثل الإشارة الدينية الوحيدة على لسان النسوة ، وهن على كل حال في حكم صواحب الطبقة المترفة ، قال تعالى : « وقلن حاش لله ما هذا بشراً » و « قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء » .

ولا يخفى أن الجزئية التي نحن بصددها « وأن الله لا يهدي كيد الخائنين » تمثل مستوى دينياً سامياً أعلى ما يكون التسامي ، فهل كانت امرأة العزيز المترفة وهي من الطبقة الراقية ، مستعدة لأن يصدر منها كلام كهذا ؟

إن هذا يدفعنا لتتبع المراحل التي مرّت بها امرأة العزيز ، من هذه الزاوية بالذات فنقول :

إن شراء عزيز مصر ليوسف ، الغلام الصغير ، يعتبر نقطة تحول في حياة امرأة العزيز .

---

١ – الاسراء : ١٦

لقد كان أمل العزيز في يوسف كبيراً بأن ينفعهما مستقبلا أو يتخذاه ولداً لو أكرمت المرأة الإكرام الذي يليق بمن كان مثل يوسف صفحة بيضاء نقية . خاصة وأنهما ليس لهما ذرية .

ومعروف أن يوسف قضى فترة من الزمن طيبة في منزل العزيز قبل أن يبلغ مبلغ الرجال .

ونستطيع أن نفهم من سجل حياة يوسف عليه السلام العاطر ، في كل مراحل حياته ، أنه في بيت العزيز ، وقبل أن يبلغ مبلغ الرجال ، كان يطبق تعاليم الشريعة الإبراهيمية التي أشربت بها روحه في بيت يعقوب والده نبي الله .

ولم تكن هذه المرأة مستعدة لأن تستفيد من الغلام الصغير الذي يعتبر بالنسبة لها واحداً من أطفالها لو كان لها أطفال . ولم يكن يوسف . في هذه المرحلة المبكرة جداً من عمره ، يعي بوضوح ويقوم فعلا بالدور الذي قام به في السجن مع الفتيين ، ذلك الدور الذي نظنه يقوم به مع غير الفتيين .

ولم تكن هذه المرأة المترفة ، في ذلك المجتمع غير الديني ، والتي تعني بزينتها شأن نساء طبقتها وعصرها ، أكثر من عنايتها بأي شيء آخر ، مستعدة أن تستفيد من يوسف ، لو افترضنا أنه وعى دوره قبل الأوان .

بل من الجائز أن نفهم ، أن امرأة العزيز منذ أن وقعت عيناها على الغلام الصغير يوسف ، وبحكم بقائه معها في البيت وهو الذي لم يبلغ الحلم ،قد هيأت نفسها لما قامت به في المستقبل فعلا من مراودة يوسف عن نفسه .

إذن نستطيع أن نفهم أن امرأة العزيز حين بلغ يوسف أشده لم تكن مهيأة لأن تستفيد روحياً منه .

فإذا سرنا مع المرأة في المرحلة التي بلغ فيها يوسف أشده ، فإن موقفها من عدم الاستفادة الروحية منه أكثر وضوحاً .

ونظراً لموقف يوسف الواضح من مراودتها وطعنها في عزتها الآثمة أمام

زوجها ، فقد كانت بالضرورة أكثر بعداً عن الاستجابة والإفادة من الدروس الروحية الدينية التي يلقيها دائماً وأبداً يوسف عليه السلام .

وإن موقفها هذا في عدم الاستجابة قد ازداد رسوخاً بعد قول النسوة عنها ما قلن ، ودعوتها لهن ، وخروج يوسف بأمرها عليهن ، وتحولها من التصريح بالمراودة إلى الأمر الواضح الصريح ، وموقف يوسف المعروف منها .

وأخيراً صرف الله تعالى كيد النسوة عن يوسف ، ولعل ذلك بابتعاد مكانه عنهن ، وحكم عليه بالسجن ظلماً ، وانقطعت بذلك كل صلة بين يوسف وامرأة العزيز . دون أن تستفيد منه روحياً أي شيء ، لأنها باختصار كانت وراء هواها .

ونبيء يوسف عليه السلام في السجن ، كما سبق أن أشرنا ، وأخذ يدعو إلى دين الله تعالى .

وظل يوسف في طريقه وتظل المرأة في طريقها الذي لا يلتقي بطريق يوسف مطلقاً ، حتى نجدها أمام الملك ، ويفاجئها هي وجماعة النسوة بالقول على لسانه : « ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه » ؟

ويعترف النسوة ببراءة يوسف وتعترف امرأة العزيز في كلام موجز مركز بأنها هي الآثمة وبأن يوسف من الصادقين .

فهذه المرأة ، في هذا الموقف الذي لا تحسد عليه ، ولعلها تمنت لو أن الأرض انشقت وابتلعتها والتي كان جوابها على سؤال الملك الغاية في الإيجاز ، هل تستطيع أن تتحول فجأة وكأنها خطيب من أكثر رجال الدين علماً وتقوى كي يجيء على لسانها هاتان الآيتان اللتان تعتبران في سورة يوسف من المواقف التي أطالت الشخصيات الحديث فيها ؟

إننا نقول بكل اطمئنان : إن امرأة العزيز من الوجهة النفسية ، إضافة إلى الوجهة الدينية ، لم تكن مستعدة ، مطلقاً بعد اعترافها أن تنبس ببنت

شفة فضلا عن أن يصدر عنها القول الذي تضمنته الآيتان اللتان هما أقرب لكلام نبي من أنبياء الله تعالى منه إلى كلام أي مخلوق آخر .

ونستطيع أن نقول : إن امرأة العزيز بعد اعترافها الموجز آثرت الانزواء فالاختفاء بعد ما تخلصت باعترافها إلى حد ما من علة وخز الضمير التي أقضت مضجعها وأقلقت راحتها .

وما دام أن امرأة العزيز ليست هي التي جاء على لسانها هذه الآية : « ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين » فإن ذلك يعني بالضرورة أن القائل هو يوسف عليه السلام .

فلنتأمل الجزئية الأخيرة في ضوء هذا الرأي الأخير .

هذه الجزئية « وأن الله لا يهدي كيد الخائنين » تتمشى تماماً مع التجربة الصعبة التي مر بها يوسف مع امرأة العزيز والنسوة ، مع النهاية السعيدة بثبوت براءته عليه الصلاة والسلام .

وبما أن هذه الجزئية معطوفة على سابقتها « ذلك ليعلم أن لم أخنه بالغيب » ففي هذه الحال علينا أن نعين المقصود من اسم الإشارة « ذلك » إذ المعنى والله أعلم : ذلك الإصرار منّي بأن يسأل الملك عن شأن النسوة اللاتي قطعن أيديهن ليعلم العزيز أني لم أخنه بالغيب وهو الذي ائتمني على أهله وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ، أي لا يسدده ولا يوفقه ولا يباركه في النهاية .

ولعله اتضح أن كلاماً كهذا « وأن الله لا يهدي كيد الخائنين » إنما يصدر من نبي لله رب العالمين ، وأنه يمثل زبدة التجربة القاسية التي مر بها مع امرأة العزيز والنسوة .

إن هذه الجزئية على لسانه عليه السلام . تصور لنا العاقبة الوخيمة التي تنتظر كلّ من تسول له نفسه أي نوع من أنواع الخيانة .

إن الخيانة هنا ، وإن كانت تعني أساساً خيانة المرء في أهله ، إلا أن التعبير ينطبق على كل أنواع الخيانات بلا استثناء .

ونود الوقوف عند لفظ الجلالة «الله» فلماذا لم يأت على لسانه مثلا : وأن ربي لا يهدي كيد الخائنين ؟

والجواب على ذلك أن يوسف الذي صرف الله تعالى عنه السوء والفحشاء، والذي عصمه الله تعالى بمنه وفضله إنما يريد أن يدعو الآخرين إلى طريق الفلاح وينبه السادرين في غيهم إلى الطريق الخاطيء الذي يسيرون فيه، فيجعل كلامه الذي يخص بالدرجة الأولى الآخرين، متجهاً إلى العموم.

أوليس هذا القول: «وأن الله لا يهدي كيد الخائنين» يتعلق بالآخرين الخائنين ؟

وهنا نجد لفظ الجلالة «الله» يتلاءم مع هذا العموم.

وسنتبين في الآية التالية أنه عليه السلام يؤثر قوله: «ربي» في الموضوع الذي له علاقة مباشرة به.

وهناك مسألة هامة نتبينها في هذه الجزئية، هي التواضع الجم الذي فطر الله تعالى عليه يوسف عليه السلام، فهو هنا لا يتكلم عن نفسه، ولا يجعل النصر الذي تحقق له بإرادته تعالى موضع درسه. ولكنه تواضعاً منه يجعل الآخرين الذين لم يتأسوا به، ولم ينتفعوا من خلقه العظيم موضع ذلك الدرس.

والذي يجعل هذه اللفتة الكريمة ذات قيمة، الغاية في العظم، هي أن الجزئية الأولى من الآية خاصة بيوسف والعزيز وامرأته، أما الجزئية الثانية فإنه عليه السلام يختفي فيها تماماً، وهي ذات الدرس العظيم الذي يلقيه يوسف المتواضع ..

وإذا كان التواضع في الجزئية الثانية مفهوماً، فإنه ملموس باليد في الآية التالية :

قال تعالى على لسانه: «وما أبريء نفسي، إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي، إن ربي غفور رحيم».

الآية بجزئياتها الثلاث تفيض بالتواضع الجم .

فهذه الجزئية « وما أبريء نفسي » يتحدث فيها عن نفسه ، وكأنه وهو نبي الله المعصوم ، لا يبريء نفسه ، ولا يغتر بهذه النفس ، التي عرفنا شيئاً من طهرها وصفائها ، طرفة عين . ومصدر ذلك كله الاعتماد الكلي المطلق على الله عز وجل ، والأدب الكامل والخلق العظيم .

إن هذه الجزئية تتمشى في جوهرها مع قوله تعالى: « فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى »(١) .

وسنتبين أن الجزئيتين التاليتين تستقيان من النبع الخالد نفسه .

فإلى الجزئية التالية « إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي » .

وواضح أن صدر الجزئية « إن النفس لأمارة بالسوء » عام يشمل جنس النفس .

ولكن بما أننا عرفنا أن الله تعالى صرف عن يوسف السوء والفحشاء لأنه من عباد الله المخلصين ، لذا فإن نفسه لا تخضع لهذا العموم .

فلماذا تخضع إذن ؟

لعموم آخر يلفه الخلق العظيم والتواضع الجم نجده في عجز الجزئية « إلا ما رحم ربي » أي نفساً رحمها ربي فأنقذها وصرف عنها السوء والفحشاء .

وهذا العجز نفسه يشكل قاعدة عامة تنطبق على كل نفس هذه صفتها إضافة إلى نفس يوسف عليه السلام .

وإذا أردنا تعليلا لهذه القواعد العامة والحكم الخالدة على لسانه عليه السلام ، فلا نجد إلا اليقظة التامة وعدم الغفلة . والشكر الدائم للمنعم في صورة هذا التواضع الحميد .

وهذه الجزئية بشقيها : « إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي »

---

١ ـ النجم ، ٣٢

تضع قاعدتين عامتين تخرج نفس يوسف من أولاهما وتدخل في ثانيتهما .

والذي يجعل نفس يوسف تدخل بقوة في ثانيتهما شيئان: لفظ الرب وضمير المتكلم .

فهذا اللفظ جزء لا يتجزأ من معجم يوسف عليه السلام اللغوي .

ومع أن القاعدة عامة ، إلا أن يوسف يعتبر محور هذه القاعدة ، ومن هنا حسن استعمال لفظ الرّب ، تماماً كما حسن في العموم على لسان يوسف في مناسبات أخرى ، استعمال لفظ الجلالة « الله » كما سبق أن أوضحنا .

فإذا تحولنا إلى الجزئية الأخيرة من الآية « إن ربي غفور رحيم » نتبين إضافة إلى لفظة رَبّ الحبيبة إلى نفس يوسف ، لفظة « غفور » التي تتمشى تماماً مع قوله: « إن النفس لأمارة بالسوء » .

فهنا إشارة إلى أن رحمة ربه وسعت كل شيء .

كما نتبين أن لفظة « رحيم » تتمشى تماماً مع قوله: « إلاما رحم ربي » .

فهنا شكر لله تعالى من يوسف الذي شملته رحمة ربه والذي يعتبر محور القول على لسانه: « إلاما رحم ربي » ، وأن هذه اللفظة تشير من طرف خفي إلى أنّه عليه السلام لم يستعصم حينما راودته امرأة العزيز والنسوة عن نفسه ، إلا بصرف الله تعالى عنه السوء والفحشاء وتداركه تعالى برحمته .

وهكذا يتضح أن الآية بجزئياتها الثلاث قمة في تواضع يوسف عليه السلام وأدبه . وفي التلاحم الفني أيضاً .

ولعلك أدركت أن منهجنا في تأمل الآية الثانية قد اختلف عن منهجنا مع الآية الأولى ، فلم نفترض أن امرأة العزيز هي التي جاءت الآية على لسانها ، وبالتالي لم ننظر أساساً من زاوية أن القائل هو امرأة العزيز ، اكتفاء بما قلناه في الآية الأولى واقتناعاً بأن امرأة العزيز لم تكن وقتاً من الأوقات مهيأة لأن يصدر منها معان كهذه ، وأن المهيأ لأن تجيء على لسانه في ذلك المجتمع هو يوسف عليه السلام فقط . والله أعلم .

وبناء على هذا نستطيع أن نفهم أن هذه المعاني إنما فاضت بها نفس يوسف بعد أن وصله في السجن نبأ براءته واعتراف النسوة وامرأة العزيز بحقيقة موقفهن .

الملك يطلب يوسف كي يستخلصه لنفسه :

لم يكتف ملك مصر هذه المرّة بما طلبه في المرة الأولى ؛ إذ صرّح بأنه سيستخلص يوسف لنفسه .

فإلى آيات هذا المشهد الذي يتضح فيه موقفه عليه السلام وإنعام الله تعالى عليه تمهيداً للمرحلة الثالثة الهادئة الرخاء في حياته .

قال تعالى: « وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي ، فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين ، قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ، وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ، نُصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ، ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون » .

ونود أولا تأمل هذا القول على لسانه عليه السلام: « اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم » الذي يمكن أن نتبين منه ما يلي :

أولا : إن يوسف عليه السلام ، نبي الله تعالى ، الكريم الخلق ، ليطلب من الملك أن يجعله على خزائن الأرض .

وسنتبين أنه أصبح عزيز مصر ، فمعنى هذا أن ذلك المنصب شاغر ، وإلا لما خطر على النبيل يوسف أن يرشح نفسه له .

وليس مهمّاً أن يكون العزيز حيّاً أو ميتاً إنما المهم أن منصبه بالتأكيد شاغر .

وقد سبق أن استنتجنا من جملة يعلم ، شريطة القراءة بصيغة المبني للمعلوم ، في قوله تعالى على لسان يوسف : «ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب» أن العزيز حي يرزق .

ثانياً : نتبين من الطريقة التي يرشح فيها يوسف نفسه لهذا المنصب عزّة الإسلام لله رب العالمين .

إنه لا يجيء مطلقاً على لسانه مثلا « لو جعلتني على خزائن الأرض » ولكن « اجعلني على خزائن الأرض » .

ثالثاً : على الرغم من الإساءة البالغة التي لحقت بيوسف في مصر حتى هذا اليوم الذي أُخرج فيه من السجن ، فقد كان عليه السلام دائماً ذلك الرجل الذي همّه أن يوصل الرسالة التي أُؤتمن عليها ، ويهتبل كل فرصة ، كي يلقي ببذور الخير في كل تربة حل بها .

لقد كان الناصح الأمين لرفاقه في السجن ، ولم يكن الفتيان إلا رمزاً لسواهما .

وحينما طلب إليه أن يعبر رؤيا الملك لم يكتف بتعبير الرؤيا بل ضمن ذلك نصحه الخالص . ولم يبخل بما علمه الله تعالى إياه عن طبيعة العام الخامس عشر .

والآن وقد خرج من السجن يجد نفسه مرفوع الرأس أمام ملك البلاد الذي صرح بأنه سيستخلصه لنفسه وفتح بذلك ليوسف باب ترشيحه لنفسه للمنصب الذي يرتضى بالقول على لسان الملك خطاباً له : « إنك اليوم لدينا مكين أمين » .

وقد أيقن عليه السلام ، بما علمه الله تعالى أن العالم بأسره على باب مجاعة رهيبة ، وأنه ليس هناك شخص آخر يمكن أن يقود السفينة إلى بر النجاة بعون الله وتوفيقه ، سواه .

فهل ينتظر منه عليه السلام وهو الرجل الحريص على أن يؤدي أمانته على خير وجه أن يبخل على ذلك المجتمع الحريص على إخراجه من ظلمات الشرك إلى نور الإسلام بأن يحاول إنقاذه جهده من المجاعة التي تلوح في الأفق البعيد جداً والآتية لا محالة .

بطبيعة الحال لا يمكن أن يبخل عليه السلام بشيء في صالح الإنسانية ، لأنه يستمد من هذا المنصب قوة أدبية تعتبر خير عون لقوته الدينية .

ونستطيع أن نفهم بكل بساطة ، أنه عليه السلام وقد مكن الله تعالى له بهذا المنصب في أرض مصر ، قد استطاع بعون الله وتوفيقه أن يوطد أركان الإيمان في البلاد وأن ينشر راية العدل .

ومعنى هذا أن المنصب الذي رشح يوسف نفسه له ، لم يكن وقتاً من الأوقات غاية لذاته ، ولكنه كان وسيلة للغاية الحقيقية لكل أنبياء الله تعالى ورسله ، وهي الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده ونبذ الأرباب المتفرقين . وقد نجح عليه السلام . بمن الله وفضله ، في ذلك النجاح كله .

وإن يوسف عليه السلام ليلقي علينا نحن المسلمين درساً بليغاً نافعاً هو أن الواجب على كل ذي منصب من أمة الإسلام في أي مكان أن يستفيد من منصبه وقوته الأدبية والمادية جهد الطاقة ، لإعزاز دين الله تعالى الذي ارتضى لعباده .

رابعاً : من الواضح أن يوسف عليه السلام حينما قابل ملك مصر لم يبدأ بالكلام ، فضلا عن ترشيح نفسه للمنصب المذكور ، ولكن بعد أن آنسه الملك بالكلام وقال له بصريح العبارة كما جاء في القرآن: « إنك اليوم لدينا مكينٌ أمين » بمعنى أنك اليوم عندنا ذو مكانة ، ومؤتمن على كل شيء ، لأنك ضربت بعفتك المثل الأعلى في حفظ الأمانة .

وعند ذلك فقط جاء على لسانه عليه السلام قوله تعالى : « اجعلني على خزائن الأرض ، إني حفيظ عليم » .

خامساً : إن يوسف عليه السلام ، حينما عبر له الملك صراحة عن مكانته العالية عنده ، وائتمانه له على كل شيء . ورشح نفسه لما يمكن أن يسمى بمنصب وزير التجارة أو التموين أو الزراعة أو الاقتصاد ، لأن الفروق الدقيقة لم تكن آنذاك واضحة(١) إنما يضرب لنا أعلى الأمثلة في

---

١ ـ بل يمكن أن يكون فى منصب من يلقب حاليا برئيس الوزراء ٠

التضحية ونكران الذات . وتعمد التصدي لعظام الأمور وخطيرها .

إن هناك الكثير من المناصب التي كان بإمكانه عليه السلام لو لم يكن نبي الله ، والقمة في التضحية والإخلاص أن يختار واحداً منها . ولكنه صاحب رسالة ، وبإلهام من الله تعالى ، عن طريق رؤيا الملك التي عبرها ، على علم تام بحقيقة المجاعة الرهيبة الآتية لا محالة ، وكان على يقين من أنه ليس هناك الرجل الكفء لعمل خطير كهذا ، وأصعب منه الرجل الذي يجمع بين الكفاءة والأمانة .

وكان بإلهام منه تعالى على علم تام بأن هناك رجلا واحداً فقط هو الحفيظ العليم ، الذي يمكن أن يناط به ذلك العمل الخطير ، هذا الرجل هو يوسف عليه السلام نفسه لذلك حينما واتته الفرصة لم يتردد في ترشيح نفسه لذلك المنصب الذي يجعله مسؤولا أمام الله تعالى عما قدم من عمل إزاء المجاعة الرهيبة التي ستهدد أُمما وأُمماً .

وواضح أنه يجيء على لسان يوسف « اجعلني على خزائن الأرض » هكذا بصيغة الجمع في « خزائن » وليس بصيغة المفرد : خزينة . وقد قيل :

* على قدْر أهل العزم تأتي العزائم(١) *

ولا يمكن أن ننسى مطلقاً أنه عليه السلام كان على يقين من أنه بسبب حفظه وأمانته ، سيكسب قلوب القوم المشركين ، وبذلك يتسنى له أن يدعوها إلى عبادة الله وحده ونبذ الأرباب المتفرقين ، وإنا لواثقون بأن هذا هو ما فعله عليه السلام وأنه نجح في ذلك نجاحاً كبيراً .

قال تعالى في سورة غافر(٢) « ولقد جاءكم يوسفُ من قبلُ بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا ، كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب » .

---

١ ـ للشاعر المتنبي .

٢ ـ آية : ٣٤

إنه عليه السلام ، لو كان وقتاً من الأوقات يسعى لنفع شخصي ، لكانت هذه أولى المناسبات لأن يختار عملا من أقلها إتعاباً وأكثرها إفادة ، وبالتالي يستطيع أن ينفع نفسه وآل يعقوب إن شاء ، ويجنب نفسه وإياهم خطر سبع السنوات الشداد .

ولكنه عليه السلام وهو صاحب الرسالة ، كان دائماً الشمعة التي تنير للآخرين الطريق ، مع ما يكلفها ذلك من عنت ومشقة حتى يخرج الزرع شطأه فيؤازره فيستغلظ فيستوي على سوقه .

سادساً : إن يوسف عليه السلام على الرغم من أنه يجيء على لسانه « حفيظ » و « عليم » بصيغة مبالغة اسم الفاعل ، إلا أننا نتبين أنه أعطى نفسه بعض ما تستحق وليس كل ما تستحق .

وذلك أن لفظ « حفيظ » ليس سوى تعبير عن امتنانه وشكره لله تعالى على صرف السوء والفحشاء عنه ، فتسنى له أن يضرب المثل الأعلى في الأمانة والحفظ .

وليس هناك أمانة وحفظ ، يمكن أن يكونا وقتاً من الأوقات ، أصعب من قبض يوسف على جمر الدين إزاء إغراء النسوة له ، وهو الفتى غير المتزوج.

إن حفظه لخزائن الأرض أهون بكثير وكثير من حفظه لعرض النسوة .

وإن لفظ « عليم » ليس سوى تعبير عن امتنانه وشكره لله تعالى على ما أنعم به عليه من علم لدني .

لقد كان أعبر الناس للرؤيا واستطاع أن ينبيء الفتيين في السجن دائماً بتأويل طعامهما قبل أن يأتيهما .

كما أعطاه الله تعالى علم الأعوام الخمسة عشر القادمة إلى غير ذلك من علم .

وإن علمه بطريقة معالجة الأمور في السنوات القادمة من أهون أنواع العلم الذي حباه الله تعالى إياه .

من كل ما سبق يتضح ما سبق أن قلنا من أنه عليه السلام يعطي نفسه بعض ما استحق وليس كل ما استحق .

كما يتضح أن لفظ « حفيظ » على لسانه ، له قاعدته الصلدة الثابتة باعتراف النسوة وامرأة العزيز بأمانته ، وأن لفظ « عليم » على لسانه له قاعدته الصلدة الثابتة أيضاً بصحة كل ما أدلى به في السابق من علم « وفوق كل ذي علم عليم » .

وإن هذا القول على لسانه عليه السلام : «إني حفيظ عليم» ليس من باب تزكية النفس المنهى عنه ، إنما هو من باب إظهار فضل الله تعالى ونعمه كي يكسب بحق قلب من يخاطبه .

وواضح أننا تكلمنا عن يوسف عليه السلام من زاوية بقائه في مصر ، فقارنا بين الأعمال التي كان بإمكانه أن يختار منها فآثر جليلها وأعظمها خطراً . ولم نتساءل بعد : لماذا لم يخطر بباله عليه السلام وقد واتته الفرصة أن يستأذن في العودة إلى أبيه ووالدته وآل يعقوب عليه السلام ؟

والجواب على ذلك : إنها النبوة وإنه عبء الرسالة الضخم على كاهله عليه السلام الذي يجعله متفرغاً للدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة ، مؤثراً لذلك على كل راحة ونفع شخصي .

ونستطيع أن نفهم من قوله عليه السلام : « اجعلني على خزائن الأرض » أن خزائن الطعام كانت منتشرة حينما وجدت الزراعة في تلك الأرض المنساحة التي تشقها المياه وتتفرع فيها ، وبالتالي فقد كان عليه السلام الحركة الدائمة والتنقل المستمر .

وبناء على ذلك يمكن أن نقول : إن يوسف عليه السلام ، ضرب المثل الأعلى في الصورة الطيبة التي يمكن أن يكون عليها كل حامل رسالة من أمة الإسلام في الجمع أحسن مايكون الجمع بين المصلحتين : الدينية والدنيويةمعاً .

ويلاحظ أنه عليه السلام يجيء على لسانه « اجعلني على خزائن الأرض » ولا يجيء على لسانه مثلا : اجعلني مسؤولاً عن خزائن الأرض .

ونتبين من القول الذي جاء على لسانه أننا بصدد نفس أقل ما يقال عنها إنها نفس كبيرة يجري في دمها الإحساس التام بعزة الإسلام لله رب العالمين .

وليس بخاف أن ذلك اليوم مشهود بالنسبة له عليه السلام ، إذ انتهى فيه اختبار الله تعالى له بالابتلاء ، ليبدأ فيه اختباره بالنعماء .

وقد جاء تعقيباً على مرحلة الاختبار هذه بالابتلاء هاتان الآيتان «وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ، ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون » .

فإذا تأملنا الآية الأولى اتضح أنها تتصل بالجزاء الحسن في الحياة الدنيا لمن أحسن .

وإذا تأملنا الآية الثانية اتضح أنها تتصل بالجزاء الأوفي والأفضل في الآخرة لهذا المحسن بسبب إيمانه وتقواه .

فإلى الآية الأولى أولا :

قال تعالى : « وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأُ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين » .

وبتأمل الجزئية الأولى « وكذلك مكنا ليوسف في الأرض » يتضح أنها هي التي سبق أن جاءت تعقيباً على توصية العزيز امرأته بإكرام مثوى يوسف .

قال تعالى : « وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ، وكذلك مكنا ليوسف في الأرض » .

وواضح أن هذه الجزئية تجيء في كل من المناسبتين بعد امتحان من الله تعالى ليوسف عصيب وهذا يعني أن رحمة الله تعالى دائماً قريبة من المحسنين .

ومعناها في المناسبة الأولى : ومثل ذلك التمكين ليوسف في قلب العزيز مكنا له في قلوب الآخرين ، في بيت العزيز على أقل تقدير .

ومعناها في المناسبة الثانية ، ومثل ذلك التمكين ليوسف في قلب الملك مكنا له في قلوب المصريين .

ونتبين نوعاً من فرق بين لفظ الأرض في كل من المناسبتين .

إن يوسف في المناسبة الأولى بحكم كونه غلاماً صغيراً ، فقد كان تمكين الله تعالى له في أرض محدودة الرقعة ، لا تكاد تتعدى بيت العزيز بحال.

وقد اتسعت هذه الأرض بعد تعيين الملك له في منصب عزيز مصر .

وإن من الأدلة القوية على هذا أن الجزئية في المناسبة الأولى تقف عند لفظ الأرض مجرداً ولا تبين شيئاً من طبيعة هذه الأرض .

أما في المناسبة الثانية فتأتي مباشرة هذه الجزئية « يتبوأ منها حيث يشاء » بمعنى أنه عليه السلام يتخذ أي مكان يشاء منها منزلا ومحلا .

كما جاءت في الآية هذه الجزئية بعد ذلك مباشرة « نصيب برحمتنا من نشاء » وهي تشكل قاعدة عامة لرحمة الله تعالى التي يصطفي بها من يشاء من عباده ، ولكن هؤلاء العباد يجب أن يكونوا صالحين محسنين ، لأن لفظ الرحمة الذي تضمنته الآية مجانس للعباد الصالحين الذين من أهم خصائصهم أن قلوبهم رحيمة . وقد قال تعالى في كتابه العزيز : « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان(١) » .

ومعنى هذا أن من حقنا أن نفهم من هذه القاعدة العامة في هذه الجزئية التي جاءت في إحدى آيتي التعقيب على جزاء الله تعالى يوسف على إحسانه ، أنه عليه السلام هو المعنى أولا بهذه الجزئية وهو محورها ويدخل بعد ذلك تحتها كل من كانت هذه صفته وحاله . خاصة وقد جاء في هذه الجزئية الأخيرة من الآية لفظ المحسنين « نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين » .

وقد كان نصيب يوسف من هذا اللفظ كبيراً ، فقد جاء خطاباً له على لسان الفتيين في السجن « إنا نراك من المحسنين » .

وإن الجزئية نفسها جاء على لسان إخوة يوسف خطاباً له في القول على

١ ـ الرحمن ، ٦٠

لسانهم : « يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه ، إنا نراك من المحسنين » .

وجاءت اللافظة على لسان يوسف نفســه في قوله تعالى على لسانه : « إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » .

وعلى ذلك فالذي قلناه عن الجزئية السابقة من أن يوسف محورها نقوله عن الجزئية الأخيرة : « ولانضيع أجر المحسنين» وهو أنه عليه السلام المعنى أولا ، ويدخل بعد ذلك تحتها كل من كانت هذه صفته وحاله .

وإن ما قلناه عن الجزئيتين يقال عن آية التعقيب الثانية « ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون » .

إن هذه الآية تقرر أساساً أن كل ما أنعم الله تعالى به في الدنيا على يوسف عليه السلام ، لا يقاس مطلقاً بما سينعم عليه الله تعالى به في الآخرة .

وإن هذه ولا شك قاعدة تنطبق على كل مؤمن يتقي الله حق تقاته ولا يموتن إلا وهو مُسلم .

وإن هناك مسألة هامة نود تبيينها هي أنه من موجبات المحسن بالمعنى الذي حدده القرآن على لسان يوسف ، وأنّه بمعنى التقوى والصبر ، أن يكون الإنسان محسناً لأخيه الإنسان .

إن الفتيين السجينين مثلا ، بالإضافة إلى تبينهما التقوى والصبر في شخصه عليه السلام فإنه قد أحسن إليهما ولسواهما الإحسان كله .

والشيء نفسه يقال عن الإخوة الذين جاء على لسانهم خطاباً ليوسف القول : « من المحسنين » .

والشيء نفسه أيضاً نستطيع أن نفهمه بالبداهة من قوله تعالى: « ولا نضيع أجر المحسنين » .

ومن قوله قبل ذلك « نصيب برحمتنا من نشاء » .

وتفسير ذلك هو أنه عليه السلام كان عند قوله خطاباً للملك : « إني حفيظ عليم » كما كان عليه السلام الأسوة الحسنة دائماً لكل خير . آثر راحة الجماعة على راحته وأخلص لهم النصيحة .

ومعنى هذا أن يوسف عليه السلام في هذه المرحلة من حياته انتفع من إيجابيته ومن قدرته على الحركة الدائبة أحسن ما يكون الانتفاع في المجالين : الديني والدنيوي . فاستمال إليه كل القلوب .

ونستطيع أن نتمثل شيئاً من النجاح الذي تحقق له عليه السلام ، بسبب خلقه العظيم في نشر رسالة الإسلام .

وإن القرآن الكريم حينما يجيء فيه « وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء » فليس المراد بالأرض بطبيعة الحال التراب فقط الذي أمكن له أن يفترشه عليه السلام دائماً . إنما المراد بالدرجة الأولى النفوس التي أسرها بإحسانه ، والقلوب التي ملكها بمحبته ، وإخلاصه وتفانيه .

وكأن لسان حاله عليه السلام يقول لنا : ليس المهم الوصول إلى أمثال هذه المناصب ، إنما المهم الانتفاع بها والاستفادة منها لما فيه خير البشرية دينياً ودنيوياً .

وليس المهم هذه المساحات الشاسعة من الأرض التي يمكن للإنسان أن يتنقّل فيها ، إنما المهم قلوب أصحابها وأنفسهم . وإن أسر القلوب والنفوس رهين بالإحسان إليها ، في صورة الكلمة الحلوة والنّصيحة الخالصة النابعة من قلب صاف خال من الشوائب . وفي النفع الذي يقدم عن طيب نفس ورضا خاطر .

وإنه عليه السلام ليضرب لنا بذلك المثل الأعلى في أداء حق النعمة بشكر المنعم بها في صور البر الكثيرة المعروفة .

وعموماً نتبين في آيتي التعقيب هاتين : « وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين » ، « ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون » ما نتبينه في قوله تعالى في سورة النحل(١) : « مَنْ عمل صالحاً مِن ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

---

١ ـ آية ، ٩٧

المرحلة الثالثة والاخيرة في حياة يوسف عليه السـلام

مرحلة اختباره بالنعماء

بتعيين يوسف عليه السلام في منصب عزيز مصر ، تبدأ المرحلة الهادئة الرخاء في حياته عليه السلام .

والقرآن الكريم حينما تجيء فيه ابتداء عن إخوة يوسف الذين غادروا الشام إلى مصر طلباً للطعام هذه الآية « وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون » فإن ذلك يعني أن هناك فترة زمنية تزيد بكل تأكيد على سبع السنين قد تخطتها الآية الكريمة .

هذه الفترة هي سبع سني الرخاء وشيء لا بأس به من سني الشدة ، لأن الإخوة لن يتجهوا إلى مصر زمن الشدة إلا بعد أن يذيع في الآفاق كرم عزيز مصر ، وإمداده لكل محتاج بكمية معلومة من الطعام ، وذلك بطبعه يستغرق شيئاً من الزمن وفي الإمكان أن نتخذ إخوة يوسف الذين قصدوه طلباً للطعام رمزاً لكل قاصد .

وحينما يكون عنده عليه السلام الاستعداد لإعطاء الإخوة كل مرة الكمية المحددة من الطعام ، فمعنى هذا أن عنده الاستعداد للقيام بالعملية نفسها مع كل طلب .

ومعنى هذا أن مصر أصبحت تُشَدُّ إليها الرحال من كل النواحي . وكان يوسف في كل مرة يلبي طلب المحتاجين مع علمه القطعي بأن الفترة التي ستبقى فيها المجاعة متمكنة ليست قصيرة ، وطلب الطعام بمرور الأيام سيشتد ، ومع ذلك فقد كان مستعداً لأن يلبي كل الطلبات بدليل أنه أعطى إخوته طعاماً في الرحلة الثانية ، ولم يكونوا ليطلبوه في الثالثة لو لم يعلموا أنه ما زال يعطي .

والنتيجة التي نود أن ننتهي إليها من كل ذلك هي أنه عليه السلام في سبع سنوات الرخاء قد بذل كل ما كان بإمكانه أن يبذله في سبيل إنقاذ الإنسانية وليس الشعب المصري فقط ، من المجاعة الرهيبة التي لاحت له عليه السلام بالذات في الأفق البعيد .

ومعنى هذا أن سنوات الرخاء بالنسبة له ، كانت عملا دائباً وإخلاصاً وتضحية ، ولم تكن وقتاً من الأوقات راحة وتسلية .

وإذا كان هذا ما يقال عن سنوات الرخاء فالذي يقال عن سنوات الشدة أكثر .

وكيف لا يكون يوسف كذلك ؟ وهو الذي لم يبخل في لحظة من لحظات الشدة على القوم المشركين بشيء مما علمه الله تعالى ، وكان دائماً الناصح الأمين للقوم ، وإن نصحه وإخلاصه سيكونان الغاية التي ليس وراءها غاية ، وقد أصبح ، وهو صاحب الرسالة ، المسؤول الأول أمام الله تعالى ، وقد مكن له في أرض مصر ، يتبوأ منها حيث يشاء .

وإنا لنقول بكل اطمئنان وثقة : إنه عليه السلام ، بتمكين الله تعالى له في الأرض ، كان مظهراً من مظاهر رحمته تعالى بعباده ، فقد تم على يديه إنقاذ أرواح وأرواح ، وأجساد وأجساد (١) .

يوسف عزيز مصر ، واخوته في رحلتهم الأولى :

والآن مع آيات المشهد الأول :

قال تعالى: «وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون، ولما جهزهم بجهازهم قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم ، ألا ترونْ أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين ، فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون ،

---

١ ـ الملاحظ أنه حينما نجد أنفسنا مع يوسف فى هذه المرحلة من حياته ، نتبين أننا قد بدأنا فى النصف الثانى من السورة ، وكأن كل نصف عنى بحالة من الحالتين المتميزتين فى حياته عليه السلاة والسلام .

قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون ، وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون » .

ونستطيع أن نستنتج أنه عليه السلام قد ملأ على أحسن وجه المنصب الذي تقلده ، وجمع أحسن ما يكون الجمع بين لين الجانب والحزم .

إن لين الجانب نتبينه مثلا في قدرة كل طالب للطعام على الدخول على العزيز شخصياً ومؤانسة العزيز بدوره له بالحديث ، وبالحديث الطويل في بعض الأحايين ، فهذا هو الذي نفهمه من القول الذي جاء على لسان يوسف: « ائتوني بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين » .

فلم يكن بمقدوره عليه السلام أن يطلب من الإخوة أن يأتوه بأخ لهم من أبيهم ، لو لم يكن قد أفهمهم أن هذه المعلومات هي التي سبق أن أخذها منهم .

والإخوة هنا رمز لكل الذين يخاطبهم العزيز ، يوسف عليه السلام ، صاحب الرسالة وحامل الأمانة .

يضاف إلى هذا إكرام العزيز الفائق لكل طالب للطعام ، وحسن معاملته في البيع ، ومساواته بين المشترين ، وقد جاء على لسانه « ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين » .

وإن الحزم نتبينه مثلا في إشرافه عليه السلام بنفسه على عملية بيع الطعام للمحتاجين .

وإن دخول الإخوة عليه في كل مرة وليس على سواه ، رمز لدخول كل طالب عليه .

ولو جاء الإخوة في أي وقت غير الوقت الذي جاءوا فيه فعلا لوجدوا العزيز نفسه هو المهيمن على الأمور .

كما نتبين الحزم في قطع العزيز خط العودة دون هذا الأخ على هؤلاء الإخوة « فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون » .

وواضح أن الإخوة وهم عشرة لم يستطيعوا تبين شخصية العزيز ، على الرغم من حديثه الطويل معهم ، وينبغي أن يكون لهيبة المنصب الذي يتقلده عليه السلام دور فعال في ذلك .

ومع أنه يطلب من إخوته أن يأتوه بأخ لهم من أبيهم ، ومع أن مس هذه المسألة بالذات موقظ لانتباه كل الإخوة ، إلا أن طريقة تنكير لفظ « أخ » وإفهام الإخوة أن هذه المعلومات مأخوذة منهم ، جعل اهتمام الإخوة ينصرف إلى الطلب ، وكيفية تلبيته لأن الحصول على الطعام مستقبلا متوقف على ذلك ، دون أن يخطر ببالهم مطلقاً التفكير في شخص العزيز ، لأن الأمور كلها في نظرهم تسير سيراً طبيعياً .

ونستطيع أن نفهم سببين ساعدا على ذلك :

السبب الأول : هو أنه عليه السلام في هذا المنصب الذي تقلده ، إنما كان معروفاً بلقب « العزيز » وليس باسمه ، على الرغم من أن اسمه يسهل التلفظ به في ذلك المجتمع ، فقد جاء على لسان الشاهد مثلا « يوسف أعرض عن هذا » وجاء على لسان الساقي « يوسف أيها الصديق » . ولكن يبدو أن العادة جرت بأن يشار إلى من يتقلد هذا المنصب بلقب العزيز وينادى به أيضاً .

فقد جاء عن النسوة قوله تعالى : « وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا » .

والإخوة خاطبوا يوسف أكثر من مرة ، بقولهم : « أيها العزيز » . ولا يخفى أن لفظ « العزيز » يدل على المنزلة العالية الرفيعة التي يضع فيها المجتمع المصري من يتقلد هذا المنصب .

والسبب الثاني : هو أن اللغة التي يتكلم بها المصريون آنذاك غير اللغة

التي يتكلم بها آل يعقوب ، ومن هنا لم يكن بإمكان الإخوة أن يتغلغلوا في الحديث مع أفراد الشعب .

ومع أن تاريخه عليه السلام ، حتى تلك اللحظة ، كان معروفاً لأفراد الشعب ، إلا أن الإخوة ، وهم عشرة ، لجهلهم بلغة القوم ، لم يستطيعوا أن يفهموا شيئاً من أخبار العزيز دائماً .

وإنه عليه السلام حينما لا يكشف لإخوته عن شخصيته فإنما يفعل ذلك وكلّ ما فعله معهم بأمر مولاه عز وجل جزاء فعلهم السيء معه بإلقائه وهو الغلام الصغير في غيابة الجب بقصد التخلص منه ، ولو أدى ذلك إلى هلاكه .

ونشير إلى دليلين فقط :

أولهما : إيحاء الله تعالى ليوسف حينما أجمع الإخوة أمرهم بإلقائه في الجب بأنه سينبئهم بأمرهم هذا .

قال تعالى : « فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب ، وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون » .

فقد كان بإمكانه عليه السلام هذه المرة أن ينبئهم بأمرهم هذا . وحينما لا يفعل فذلك دليل أكيد على أنه تعالى لم يأذن بذلك .

وثانيهما : لولا إلهامه تعالى ليوسف عليه السلام حينما وضع صواع الملك في رحل شقيقه أن يجعل فتيانه يسألون الإخوة عن نوع الحكم الذي يرتضون تطبيقه بحق سارق الصواع ، الذي يوجد عنده ، لما أدت عملية وضع الصواع في رحل الشقيق الغاية المرجوة منها ، فإن نجاحها مرتبط بهذا السؤال وبالحكم الذي أصدره الإخوة بحق من يوجد عنده الصواع ، قال تعالى : « كذلك كدنا ليوسف ، ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله ، نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم » .

وواضح أنه عليه السلام يعامل إخوته أحسن معاملة ويكرمهم كل الإكرام.

ولعله أوحى إلى غلمانه أن يعنوا بهم عناية خاصة كي يستميل قلوبهم فيجتهدوا في مراودة يعقوب أن يبعث معهم أخاهم .

وقد لعب ذلك الإكرام دوره في أنفس الإخوة ؛ واتضح ذلك في القول على لسانهم عن العزيز : « ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير » .

والمراد أن العزيز كريم بطبعه ، ويعتبر كيل البعير الواحد شيئاً هيناً للغاية في نظره .

عقاب يوسف لاخوته نفسي :

وإذا كان هؤلاء الإخوة قد عرضوا حياة يوسف للخطر بوضعه في غيابة الجب ، وكانوا – بإذنه تعالى بطبيعة الحال – سبباً في الأزمات النفسية التي تعرض لها في الجب ، ومع السيارة ، وبالبيع في سوق المماليك ، وفي بيت العزيز ، وفي السجن ، فإنه عليه السلام لم يشأ وقتاً من الأوقات أن يعاقب هؤلاء الإخوة حسياً ، أو يعرض حياة واحد منهم لشيء من الخطر الذي عرضّوه له بوضعه في غيابة الجب . إنما أراد أن يعاقبهم نفسياً .

إنه عليه السلام يعطيهم من الطعام ما يعطي سواهم ، ويكرمهم كما يكرم سواهم وزيادة ، ولكنه يشترط عليهم إن أرادوا الطعام مرة ثانية ، أن يثبتوا أنهم غير جواسيس ضده ، وأنهم صادقون فيما قالوا ، فإن عليهم أن يأتوه بأخ لهم من أبيهم الذي أشاروا إليه في معرض حديثهم معه .

إنه يعرف يقيناً تمسك يعقوب والده بشقيقه وهذه أول ورطة نفسية يضعهم فيها ، والذي يدل عليها ورضا يوسف عن إيقاعهم فيها القول الذي جاء على لسانهم : « سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون » .

فالمراودة تدل على المجهود العظيم الذي كان على الإخوة أن يبذلوه في مفاتحة يعقوب في هذا الموضوع أولا ، والمجهود الذي بذلوه بعد ذلك ، حتى نجاحهم في أخذ الشقيق معهم .

وإن علمه عليه السلام بهذه الصعوبة يجعله حريصاً على محاولة جعل الباب مفتوحاً للإخوة ، وذلك بأمر فتيانه أن يجعلوا الثمن الذي دفعه الإخوة

للطعام في رحالهم ، وذلك قد يجعل الإخوة يفهمون أن العزيز ليس لديه الرغبة في بيعهم الطعام مرة ثانية إلا بتحقيق طلبه (١) .

ثم إن هؤلاء الإخوة الأتقياء لم يكونوا يستحلون حراماً أبداً .

وقد وفق عليه السلام في ذلك كل التوفيق ، فإن هذا الثمن ، الذي وضع في رحال الإخوة ، هو الذي جعل عندهم القدرة لأن يفاتحوا يعقوب مرة ثانية في أمر أخيهم ، بعد تأنيبه العنيف لهم على طلبهم الأول أخذ أخيهم.

وبهذا خرج الإخوة من صمتهم ، وخرج يعقوب عليه السلام من صمته أيضاً .

قال تعالى : « ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغي ؟ هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ، ذلك كيل يسير ، قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتنني به إلا أن يحاط بكم ، فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل » .

وكي يتضح الدور الإيجابي لوضع الثمن برحال الإخوة في دفع أحداث القصة إلى الأمام ، لنتصور أن هذه العملية لم يقم بها يوسف عليه السلام ، واكتفى بطلبه أن يؤتى بأخ للإخوة من أبيهم إن أرادوا مرة ثانية طعاماً . إن القصة ستتجه وجهة أخرى وستنتهي سريعاً ، ولن يستطيع عليه السلام إعطاء إخوته الدرس النفسي الذي هو أشد وقعاً من العقاب الجسدي الذي لن يكون منه عليه السلام ، فليس ذلك من طبعه .

والذي سيحدث لو أنه عليه السلام لم يضع البضاعة في الرحال ، أن الإخوة سيطلبون من أبيهم أن يرسل معهم أخاهم ، ويرفض الأب البار ذلك الطلب رفضاً عنيفاً ، ولن يستطيع الإخوة بحال أن يفاتحوه في هذا الموضوع مرة ثانية .

وقد يجد هؤلاء الإخوة أو بعضهم بحكم وطأة المجاعة الشديدة أنفسهم

---

١ ـ انظر هنا فى ظلال القرآن ١٣/١٣

مضطرين للعودة للعزيز دون أخيهم ، طلباً للطعام من باب المغامرة ، التي يغريهم على القيام بها حسن خلق العزيز .

وهنا سيجد يوسف عليه السلام نفسه مضطرًّا لأن يكشف لإخوته عن حقيقة نفسه . وبذلك تنتهي القصة سريعاً بعد أن سارت في غير الطريق الآخر الذي سارت فيه فعلا ، والذي أمكن له عليه السلام فيه أن يكيد بعون مولاه لإخوته نفسياً ، ويجازيهم بعض ما قاموا به في حقه من إيذاء جسدي ونفسي .

كما أمكن وقد سارت القصة في طريقها الصحيح الذي قدره يوسف عليه السلام أن يكون عفوه عن إخوته عن قدرة فعلية حقيقية أقر بها كل الإخوة ، ومن هنا كان العفو أحلى وقعاً في نفوس الإخوة وفي نفس كل عالم به .

مظاهر عقاب يوسف النفسي لاخوته :

نود أن نتمثل مظاهر العقاب النفسي الذي طبقه يوسف عليه السلام ، بحق الذين وضعوه في غيابة الجب وسببوا له الكثير من الأزمات النفسية والجسدية .

إنه عليه السلام كان على علم تام بحاجة إخوته إلى الطعام ، كما كان على علم تام بمنزلة شقيقه في نفس يعقوب ، فأعطى الإخوة من الطعام الكمية التي تكفيهم لأجل محدود ، واشترط عليهم إن أرادوا الطعام مرة ثانية أن يأتوه بأخ لهم من أبيهم .

وإن أول أثر نفسي لهذا الطلب في نفوس الإخوة نلمسه في القول على لسانهم : « سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون » .

إن هناك مجهوداً نفسيًّاً كبيراً — كما سبق أن أشرنا — سيتجشمه الإخوة حتى يتفوهوا بهذا الطلب ليعقوب .

ونلمس ذلك من جملة «سنراود» التي تدل على ذلك المجهود العظيم فعلا .

وإن ضعف موقفهم نلمسه من قولهم : « وإنا لفاعلون » لأنهم في حاجة إلى الطعام ، فعليهم أن يفاتحوا والدهم في هذه المسألة إن عاجلا أو آجلا .

وليس يخاف أن هذا الطلب أول عقاب نفسي للإخوة ، فإن يعقوب يتعزى بهذا الشقيق عن يوسف الذي يعلم الإخوة يقيناً أنهم هم واضعوه في الجب ، ولولا ذلك لكان مثل هذا الطلب عليهم هينا .

ونلمس ذلك العقاب في طريقة الإخوة في الطلب .

إنهم اقتناعاً ببشاعة الفعل الذي قاموا به تجاه يوسف ، يقدمون منع الكيل منهم توطئة بين يدي طلبهم إرسال الشقيق معهم .

وليست الصفة التي وجهها يعقوب عليه السلام لهم هينة ، لهذا سكتوا في الحال عن هذا الأمر تماماً .

ولولا أنهم وجدوا بضاعتهم في رحالهم لسكتوا عن هذا الأمر حتى يرغموا بعد وقت ما ، حينما تعض المجاعة آل يعقوب ، على معاودة الطلب.

ولكن الذي عجل بالأمر وجود ثمن البضاعة في رحالهم . وقد أطلق فرح المفاجأة ألسنتهم المعقودة ، ومع ذلك فإن كلامهم الحذر ، يدلّ على العذاب النفسي الذي يعانون منه ، فإنهم يجعلون كلا من ثمن البضاعة الذي وجدوه في رحالهم ، والطعام الذي سيحصلون عليه من مصر مستقبلا ، توطئة ، ليس فقط لإرسال الشقيق معهم ، وإنما لحفظهم هذا الشقيق ، ذلك الحفظ الذي كأنهم يتعهدون به،قال تعالى : « ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغي ؟ هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ، ذلك كيل يسير » .

وحينما يعود هؤلاء من مصر ، بعد الرحلة الثانية دون هذا الشقيق ، نعرف العقاب النفسي الذي حل بهؤلاء الإخوة الذين لم يأخذوا هذا الأخ لأنهم جاء على لسانهم قوله تعالى : «وإنا له لحافظون» وقوله: « ونحفظ أخانا » وإنما أخذوه بعد أن آتوا يعقوب موثقاً من الله ليأتنه بهذا الشقيق إلا أن يحاط

بهم ، قال تعالى: « قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتنني به إلا أن يحاط بكم ، فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل » .

وحينما نعرف أن يعقوب عليه السلام ، البار بكلّ أبنائه كان يخشى العين عليهم ، لهذا هو يطلب منهم أن يدخلوا المدينة من أبواب متفرقة وليس من باب واحد ، يعود إليه هؤلاء الأبناء وقد نقص منهم ليس واحداً ولكن اثنان ، نعرف العقاب النفسي الذي كان فيه الإخوة البررة بأبيهم .

وحينما نعرف أن الإخوة باستثناء معاملتهم للشقيقين ، كانوا قمة في الصلاح والتمسك بأهداب الدين ، نعرف العقاب النفسي الذي نزل بهؤلاء الإخوة حينما جاء على لسان المؤذن مخاطباً القافلة التي فيها الإخوة « أيتها العير إنكم لسارقون » .

ويبدو ذلك من الحوار الذي دار ، قال تعالى: «فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون ، قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون ؟ قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم . قالوا تا لله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين ، قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ، قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه ، كذلك نجزي الظالمين » .

وإن هؤلاء الإخوة ، انطلاقاً من تمسكهم بحبل الدين المتين ، يعلنون رأيهم في وجوب تطبيق حد الشريعة الإبراهيمية على السارق ، إن صح أنه واحد منهم ، وقد كانوا على يقين ، أنهم جميعاً بريئون من تهمة كهذه . وإنهم حينما يجيء على لسانهم « كذلك نجزي الظالمين » فكأنهم يقولون للسائلين : لا داعي لأن تسألونا عن جزاء سارق الصواع ، فمعلوم أنه يسترق لعام واحد ، وليس المهم أن تسألونا عن جزاء السارق ، إنما المهم إثبات وجوده عندنا .

وكان وجود الصواع في رحل أخيهم عقاباً نفسياً شديد الوطأة عليهم وكان رد فعل ذلك العقاب النفسي مزيجاً من الغيظ ، من هذا الأخ الذي

وجد الصواع في رحله ، ومن الحقد الدفين عليه وعلى شقيقه ، ومن الافتراء على هذا الشقيق أعني يوسف عليه السلام ، قال تعالى : « قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل » .

وبمناسبة مجيء هذا القول على ألسنة الإخوة ، نستطيع أن نقول : إن هؤلاء الإخوة لمّا تصفُ أنفسهم لأخيهم يوسف الذي ألقوه في غيابة الجب منذ سنوات وسنوات ولم يشعروا بالندم على ما فرط منهم ، ولما تستيقظ ضمائرهم بعد . وبالتالي لم يتورعوا عن اتهام يوسف بالسرقة التي لم يكن لها أساس أصلا ، قياساً على ما ثبت لهم من ظاهر سرقة الشقيق .

وربما كان من الأسباب التي جعلت يوسف عليه السلام يعمل على تسريق شقيقه أن يعرف حقيقة شعور الإخوة تجاه هذا الشقيق وتجاهه .

وقد كشف الإخوة بهذا القول عن حقيقة هذا الشعور .

ونعتقد أن شعور الإخوة غير الودي للشقيقين إضافة إلى رغبة يوسف في إبقاء شقيقه هما اللذان جعلاه عليه السلام حازماً كل الحزم ، صارماً كل الصرامة معهم ، رافضاً بشدة طلبهم بعد أن هدأت ثائرتهم وأفاقوا من هول الصدمة الأول ، أن يأخذ واحداً منهم بدلا من الشقيق . قال تعالى : « قالوا يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه ، إنا نراك من المحسنين ، قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ، إنا إذاً لظالمون»

إن نفوس الإخوة حتى هذه اللحظة تجاه الشقيقين ليست صافية ، والقلوب ليست طاهرة نقية ، وكان عليه السلام بإذن من مولاه حريصاً أولا على أن تصفو تلك النفوس وتطهر تلك القلوب كي يكشف لهم عن حقيقة نفسه ، وكان بإلهام من مولاه ، على علم تام بأن هذه الغاية التي يصبو إليها ليست بعيدة وأن رجوع الإخوة إليه في رحلة ثالثة ، بقلوب غير هذه القلوب ، ونفوس غير هذه النفوس ، ليس ببعيد لهذا ترك الأمور تجري في مجراها الطبيعي .

وقد ضرب عليه الصلاة والسلام هنا أعلى الأمثلة في رباطة الجأش ،

والحلم ، وعدم استعجال الأمور ، بل تركها حتى الفرصة المواتية ، كي تعالج علاجاً طبيعياً . وفي الحزم حيث يلزم وبالحزم .

ومن مظاهر عقاب الإخوة النفسي أنهم بمجرد أن أفاقوا من هول الصدمة تمثلوا الموقف بأبعاده المختلفة .

فبعد أن كان لسان حالهم يقول إن الأخ يستحق ما سيحل به جزاء عدم أمانته ، إذا بهم يتمثلون حال يعقوب والدهم وقد بلغه النبأ الجلل ، فيطلبون من العزيز في ذلة وانكسار أن يأخذ واحداً منهم بدلا من الشقيق ، وقد تلقوا من العزيز صفعة عنيفة وعقاباً نفسياً بعيد المدى في الرفض العنيف لطلبهم ، قال تعالى : « قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ، إنا إذاً لظالمون » .

وإن الإخوة حينما يجيء على لسانهم « إنا نراك من المحسنين » خطاباً للعزيز ، بينما يقولون : « كذلك نجزي الظالمين » إشارة إلى إنزال العقاب بالسارق وحده وليس بسواه ، فإنا نستطيع أن نتبين تبكيت يوسف لهؤلاء الإخوة في القول على لسانه : «إنا إذاً لظالمون» وكأنه يقول لهم : لقد تورطتم ، وأنتم الذين تدعون أنكم صالحون متدينون في تناقض عجيب .

حينما كان السؤال عن حد السارق مجرداً عن معرفة الشخص الذي سيطبق عليه الحكم أعلنتم الحكم في صورة من التعبير واضحة قوية .

وحينما تبين أن ذلك الشخص واحد منكم ، إذا بكم تطلبون مني لإحساني إليكم أن أعفو عن السارق وأعاقب البريء محله ، فهل هذا هو الإحسان أم أنه الظلم عين الظلم باعترافكم أنفسكم !

وقد قضى الإخوة فترة في هذا العقاب النفسي ، حتى تمكن اليأس منهم ، وعرفوا يقيناً أن العزيز لن يطلق سراح أخيهم .

وكان تنحيهم وحيدين إلى زاوية معينة ، متناجين ، مظهراً من مظاهر العقاب النفسي الأليم الذي حل بهم بسبب تحديد الموقف من والدهم نبي الله

يعقوب الذي كان على أمل اللقاء يوماً من الأيام بابنه الحبيب يوسف إذا به لا يعود إليه الابن الحبيب الآخر الذي يتعزى به عن يوسف .

وفجأة يحل بالإخوة عقاب نفسي لم يكن متوقعاً مطلقاً ، يندفع هذه المرة من بينهم كالإعصار المدوي في القول الذي جاء على لسان كبيرهم ، قال تعالى: « فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً ، قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين ، ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون » .

وإن هذا العقاب النفسي لذو جوانب . فهو من ناحية يبين الموثق الذي أخذه منهم أبوهم بشأن الشقيق ، وهم يعرفون أنه إنما أخذ منهم ذلك لحبه لهذا الشقيق وتعزيه به عن يوسف فإذا كان عند الإخوة تمثل لجوانب هذه المسألة غير كامل ، فإن كلام هذا الأخ الكبير مكمل لكل نقص ، وفي ذلك إيلام للإخوة أيما إيلام .

وإذا كانت العلاقة بين أخذ الموثق منهم ووضعهم ليوسف في غيابة الجب غير واضحة ، فإن في كلام هذا الأخ توضيحاً أيما توضيح .

بل إنه باعتباره الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يؤنب الإخوة وأن يلومهم وهم الذين اقترحوا قتل يوسف أو طرحه أرضاً . بينما اقترح هو لإنقاذه جعله في غيابة الجب ، لذلك كان قادراً على حصر التفريط في يوسف عليهم وإخراج نفسه من بينهم « ومن قبل ما فرطتم في يوسف » .

وإذا كان قرار هذا الأخ البقاء في مصر عقاباً نفسياً للإخوة في حد ذاته ، إذ يعتبر انشقاقاً عليهم ، وتعميقاً فعلياً بعيد المدى للخلاف المبدئي الذي تمثل في كون هذا الأخ يقترح طرح يوسف في غيابة الجب ، خلافاً لبقية الإخوة ، فإن ذلك يعني أيضاً أنهم هم الذين سيواجهون يعقوب

مباشرة بهذا النبأ الجلل ، خلافاً للعادة التي جرت بأن يقوم هذا الأخ الأكبر بدور الناطق بلسان هؤلاء الإخوة .

فقد استنتجنا قبل من كلام هذا الأخ الأكبر أنه كان على علم بدقائق الأمور التي يليق علمها بمن كان قائماً بشؤون الآخرين .

ومعنى هذا أن الإخوة سيقومون للمرة الأولى بتجربة لم يسبق لهم القيام بمثلها ، وذلك في حد ذاته درس قاس لهم وعقاب بعيد المدى ، فليس مواجهة والدهم بهذا النبأ الجلل مما ترتاح النفوس له بحال . على الرغم من أنهم لا دخل لهم فيما حدث للشقيق .

وإذا كان انشقاق الأخ الأكبر على إخوته وما قاله لهم يعتبر عقاباً نفسياً ذا صور مختلفة لهؤلاء الإخوة ، فإن كل ذلك صورة للعقاب النفسي الذي حل بالأخ الأكبر نفسه أولا .

وليس يخاف أن السبب في كل ذلك استرقاق العزيز للشقيق .

وإن بقاء الأخ الأكبر في مصر ليس عقاباً جسدياً لهذا الأخ بقدر ما هو عقاب نفسي له . فإن عليه أن يعمل ويكدح في مصر في سبيل لقمة العيش ، تماماً كما يفعل حيث يعقوب وآله .

ولكنه وهو الرجل القمة في رهافة الإحساس ، والذي قرر البقاء في مصر لعدم قدرته على مواجهة أبيه بذلك النبأ الجلل الذي سبق أن تلقاه يعقوب عن يوسف ، يجب أن يكون عائشاً بروحه وأفكاره ومشاعره مع والده نبي الله يعقوب .

والذي يجعل عقابه النفسي مرًّا جهله التام بما جرى لوالده حينما تلقى النبأ الفاجع بعدم عودة ابنيه .

ومعنى هذا أن الأخ الأكبر يشعر في أعماقه بأن عدم عودته مع إخوته يسوء يعقوب من ناحية ، ولا يغير من جوهر قضية الشقيق ، ووقع النبأ السيء في نفس يعقوب من ناحية أخرى .

وكان هذا الأخ يجهل ما يجري لإخوته وآل يعقوب بسبب ما سيحدث ليعقوب . كما أنه لا يدري هل سيقدر له أن يلتقي مرة أخرى بأبيه وإخوته وآل يعقوب ، أم أن ذلك لن يقدر له .

وباختصار فإن أحسن ما يمكن لهذا الأخ أن يتخيله عن يعقوب لن يقل سوءًا عن الحال التي كان فيها يعقوب عليه السلام بالفعل .

ونستطيع أن نفهم أن المدة ذات الطول النسبي التي قضاها الأخ الأكبر في مصر قد مرت في بطء قاتل(١) .

فإذا تحولنا إلى الإخوة الذين سيقابلون أباهم ، فإن هناك أكثر من عقاب نفسي سيحل بهم .

إنهم في حاجة لاستجماع كل شجاعتهم كي يخبروا أباهم بما حل بالشقيق . وهم يتلقون من يعقوب الجواب الذي قد لا يستحقون هذه المرة ، ولكنه باعتباره الجواب الذي سبق أن تلقوه منه حينما زعموا أن الذئب قد أكل يوسف ، فمعنى أن هذا القول: « بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل » يحرك غيظهم الشديد على يوسف ، السبب الأول في كل ما حدث .

وإن هذا الغيظ ليبلغ أشده حينما يتردد على لسان يعقوب بقصد منه وبدون قصد هذا القول: « يا أسفي على يوسف » فيتبلور في هذا القول على لسانهم « تالله تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين » وبقدر ما هو تعبير عن الغيظ من أخيهم يوسف . بقدر ما هو تعبير عن تألمهم من وضع يعقوب المتردي وصحته المتدهورة .

ولا يمكن بحال أن ننسى أن ليوسف عايه السلام قصداً نبيلا وغاية حسنة ، بوضع إخوته في هذا الموقف من والدهم .

وذلك يتضح من تحول الإخوة سريعاً إلى صفاء نفس ، وطهر أفئدة ، وتوبة نصوح صامتة ، وندم على ما فرط منهم بحق والدهم نبي الله يعقوب .

---

١ ـ الاخوة وهم جماعة عانوا من طولها وبطئها عناء شديدا .

بالتفريق بينه وبين ابنه الحبيب يوسف ، وإحساس تام بجريمة إساءتهم لأسرة آل يعقوب التي اضطرب نظمها ، ونقصت حبة عقدها ، ونية صادقة في رأب الصدع ، وإعادة لم الشمل ، لو أن ذلك بالإمكان .

إنا لنفهم كل ذلك وكثيراً سواه من سكوت الإخوة التام وعدم إجابتهم أباهم البتة حينما خاطبهم بقوله كما جاء في القرآن الكريم: « يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله ، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » .

إن يعقوب عليه السلام يطلب من الإخوة أن يذهبوا ويتصيدوا كل خبر طيب سارّ عن يوسف بالذات وشقيقه كذلك .

ولا يملك الإخوة إلا أن يجيبوا الطلب ، ويضربوا في الأرض الطويلة العريضة تحسساً من يوسف وأخيه .

وإن ذلك ليعتبر خير دليل على التحول إلى الحسن . الذي طرأ على شخصيات الإخوة وعودتهم إلى الجادة التي أراد لهم يوسف بتصرفاته معهم ، أن يعودوا إليها .

وبذلك انضم الإخوة بهذا التحول إلى أخيهم الكبير الذي بقي في مصر بعد انشقاقه عليهم لأنه انفرد بسبقهم إلى هذا التحول .

وما دام أن الإخوة عادوا إلى أرومة آل يعقوب الطيبة الطاهرة فالتحموا بها وذابوا فيها مرة ثانية ، فمعنى هذا أن يوسف عليه السلام الذي كان يصدر في تصرفاته عن مصلحة جماعية وليس عن رغبة شخصية ، سيكشف لهم عن حقيقة نفسه وهو ما تم فعلا .

ونستطيع أن نقول : إن الوصول إلى هذه النهاية السعيدة إنما تم ، لحسن تحريك يوسف عليه السلام للأحداث ، وحسن تلقي يعقوب عليه السلام لها ، وقد تم كل ذلك بإذن الله تعالى وإرادته .

يوسف عزيز مصر · يكشف في الرحلة الثالثة لاخوته عن حقيقة نفسه :

قال تعالى: «فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضرُّ وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين ، قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ، قالوا أئنك لأنت يوسف ؟ قال أنا يوسف وهذا أخي قد منّ الله علينا ، إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ، قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ، قال لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ، اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً وأتوني بأهلكم أجمعين».

سبق أن درسنا الآية الأولى في هذا المشهد(١) ووعدنا بدراسة شخصيات إخوة يوسف في بقية هذا المشهد بالذّات إلى جانب شخصية يوسف ، وذلك بسبب التلاحم بين ما قاله يوسف والإخوة(٢) .

قبل الانتقال إلى جواب يوسف ، في هيئة السؤال التقريري المفاجىء للإخوة ، الدّال على طيب نفس يوسف ، وطهر قلبه ، وصفاء روحه ، ونقاء معدنه ، ولطف تعبيره ، نتلو هذه الآية التي يشير الله تعالى فيها إلى إيحائه ليوسف الغلام آنذاك ، بأنه سينبيء هؤلاء الإخوة بأمرهم هذا ، قال تعالى : « فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب ، وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون » .

لقد تحقق وعده تعالى ليوسف ، وها هو ذا يقوم الآن بتذكير الإخوة بأمرهم .

ولكن في أي الطرق يقوم يوسف بتذكير إخوته بفعلهم ؟

وبعبارة أخرى : ماذا ينتظر من الكريم ، نبي الله يوسف ، أن يقول لإخوته؟

في أي صورة من صور التعبير سيقوم هذا الإنسان النبيل بتنبيه إخوته إلى الجريمة ، في عرفنا ، التي ارتكبوها بحقه ؟

---

١ ـ أثناء دراستنا لشخصيات الاخوة تحت القسم بعنوان «اخوة يوسف فى مصر للمرة الثالثة» ·

٢ ـ ص ٣١٨ من هذا البحث ·

إنهم النهاية في الضعف ، وهو النهاية في القوة ، فما هو فاعل بهم ؟

وهل نسى الإخوة ما قاموا به تجاه يوسف ؟

كيف ينسون وهم إنما خرجوا من بلادهم آخر مرة للتحسس من يوسف وأخيه ؟ .

وهل أدركوا الجرم الذي ارتكبوه بحقه أم أنهم لم يدركوه ؟

كانوا مدركيه تمام الإدراك ، ولكنهم كانوا حريصين على إبقائه طي الكتمان .

وما الفائدة في اعتقادهم ، من إزاحة الغطاء عن هذا السر ؟

لا فائدة على الإطلاق .

فلنتأمل في هدوء لطف تعبير يوسف في مخاطبته لإخوته ، وطريقته اللينة في التنبيه ، الملطفة من السقوط المفاجيء للمعرفة بأن الذي أمامهم يوسف .

لقد كان الإخوة متلهفين لجواب العزيز على طلبهم المتعلق بالطعام ، وقد جاء في الآية « قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضرُّ وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ، إن الله يجزي المتصدقين » .

كان اهتمامهم محصوراً في الطعام ، ويتوقعون أن يكون جواب العزيز المتعلق بالطعام ، بالإيجاب ، وإذا بهم يفاجأون بحرف الاستفهام هل ، يأتي بعد ذلك في صيغة الماضي،الفعل لطيف الوقع من جملة « علمتم » .

إن الإخوة وقد طال عليهم الوقت الذي استغرقه قول العزيز : « هل علمتم » وتبين أن الاستفهام لا يوحي أنه مرتبط بالطعام الذي جاءوا من أجله للحاجة إليه ، وبدا أنه بعد أن كان المنتظر أن يقوم العزيز بدور المجيب عن الطلب وإذا بطريقته في التعبير توحي بأنهم هم الذي عليهم أن يجيبوا كأني بهم يتساءلون : ماذا علمنا ؟

وهل السؤال لنا أم لسوانا ؟

إننا مجموعة وقد استعمل العزيز ضمير جماعة المخاطبين ، هل علمتم ؟

ونحن الذين ابتدأنا بالطلب ، وكلنا يقظة واهتمام بجوابه على طلبنا نحن .

ولم يعودنا العزيز ، القمة في الأدب أن نخاطبه فيوجه الحديث إلى سوانا ، لا . . ليس هذا من خلقه .

إذن يجب أن نكون نحن المقصودين باستفهامه : هل علمتم . ولكن علمنا ماذا ؟

ويأتي مباشرة قول العزيز : « ما فعلتم » .

ما هذا ؟ إن جماعة المخاطبين يستعمله العزيز مرة ثانية .

إذن قطعاً نحن المرادون .

ولكن ، ما الذي فعلنا ونحن متمسكون بأهداب الدين الحنيف ؟

ولا نذكر أننا فعلنا سوءاً منذ سنوات وسنوات . خاصة وأننا كلنا ثقة في الله تعالى أن نكون قد عدنا صالحين بعد توبتنا النصوح على ما فرطنا في حق أخينا يوسف ، وهذا سر بيننا وبين بارئنا .

أتكون هناك سرقة من نوع آخر ستعلق بنا جميعاً بعد أن ثبت ظاهرها من قبل في حق الشقيق واسترق بسببها ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله (١) .

وفجأة يرن في أسماعهم ، من الشخص الذي أمامهم صراحة ، الاسم الذي لا يمكن أن يتفوه به إلا صاحبه « يوسف » « هل علمتم ما فعلتم بيوسف » .

ولماذا لا يمكن أن يتفوه بهذا الاسم صراحة إلا صاحبه ؟

ومن أين يعرف العزيز أن هناك أخاً لهم اسمه يوسف ؟

أمن الأخ الأكبر الذي كان أكثرهم زهداً عن مجرد تذكر الجريمة التي ارتكبوها بحق يوسف ؟

---

١ ـ يمكن أن يكون القول بلسان عصرهم «يا أسفى علينا وعلى حالنا » .

أمن الشقيق الذي ثبتت عليه السرقة واسترق بسببها (١) ؟ لا هذا ولا ذاك .

إذن لا يمكن بحال من الأحوال أن يتفوه بهذا الاسم ، في هذه الصراحة والوضوح ، إلا يوسف .

وإن لسان حال الإخوة يقول : ليس هناك مخلوق يعرف تماماً ما فعلنا بيوسف من غير أنفسنا سواه .

وإن استفهامه ، وطريقة الاستفهام نفسها ، يوحيان بالمعرفة التامة بما فعلنا .

لقد آن الأوان ، بإذن منه تعالى ، أن يكشف لهم يوسف عن حقيقة نفسه ، ويعرفهم ، في ألطف عبارة بذاته ، ويتدرج بهم في التذكير بما فعلوا به كيلا يكون وقع المفاجأة عليهم مزعجاً !

وبطبيعة الحال ، كان الإخوة على علم تام بكلّ ما فعلوا بيوسف .

بل كان هذا التذكير اللطيف من يوسف مصدر تعجب منهم ، إذ ليس هناك مناسبة بين هذا التعبير الهين اللين وبين الجريمة التي ارتكبوها بحقه .

ما أنبل هذا الأخ ! ألا يقول الآن : هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه ؟

وإن واو العطف تفيد مطلق الجمع ، أليس كذلك ؟ بلى .

ولكنه يأتي بعد الواو التي هذه صفتها بأخيه مباشرة ، فما معنى هذا ؟

معنى هذا أن أخانا النبيل يوسف ، ذا الخلق العظيم ، يهون من جريمتنا في حقه .

فهو من ناحية يصف هذه الجريمة بالفعل ، ومن ناحية ثانية هو يساوي بين فعلنا مع شقيقه وفعلنا معه .

ألم يقل : ما فعلتم بيوسف وأخيه ؟ إن عطف الأخ هنا ، الذي لا يمكن

---

١ ـ على أساس أن عنده معلومات من نوع ما بسبب معاصرته لما جرى لآل يعقوب .

أن يوصف فعلنا السيء معه بأنه جريمة ، على لفظ « يوسف » في القول «بيوسف وأخيه » يظهر عملنا مع يوسف ، الذي يعتبر جريمة حقاً ، مساوياً لعملنا مع أخيه .

ولا يمكن بحال أن يكون يوسف يريد أن يساوي فعلنا بأخيه بفعلنا معه لا ، لا يمكن أن يكون هذا هو المراد .

ألا يبدو عليه التأثر التام لاضطراره لذكر ما لا بد منه ؟

ألا يبدو في تعبيره اللطف البعيد المدى والرقة والتسامح .

ألا نتبين التوافق الإلهامي في الترتيب بين ما قاله والدنا « فتحسسوا من يوسف وأخيه » ، وقول يوسف الآن : « ما فعلتم بيوسف وأخيه » .

إن أبانا قدّم يوسف في الذكر لحبه له .

وإن يوسف بهذا العطف بالواو يريد أن يلطف من فعلنا به بمساواته بفعلنا بأخيه وليس العكس .

والدليل على صحة ما نقول هذه الجزئية التي ختم بها تذكيره اللطيف : « إذ أنتم جاهلون » .

ما أنبل هذا الأخ القادر على البطش بنا جميعاً في حسن التعليل !

إنه يصفنا بأننا كنا وقت إلقائه في الجب طائشين . لم يكتمل لنا رشدنا بعد ، مع أننا جميعاً ، وبدون استثناء (١) ، أكبر منه سناً .

إننا لو طلب منا تبرير لجريمتنا بحقه لم يجرؤ واحد منا على مجرد التفكير في وصف نفسه بهذه الصفة البسيطة الهينة .

ولكن النبيل هذه صفته دائماً .

ثم إن هذا القول منه: « إذ أنتم جاهلون » يشتم منه أن صفة الجهل بمعنى الطيش ، كانت عرضاً علق بنا ، ما لبث أن فارقنا ، ولكن بعد فوات الأوان .

---

١ ـ أعنى الذين وضعوه فى غيابة الجب .

حتّى العذر نفسه ، لا يبخل علينا هذا الأخ الكريم الخلق ، بتلقيننا إياه وإظهاره في أحسن مظهر .

لقد ثبت للإخوة أن الذي أمامهم أخوهم يوسف ، ولم تكن أنفسهم مهيأة لتلقي هذه المفاجأة بالذات ، وهنا يدخلون همزة الاستفهام على جملة تعتبر قمة في التوكيد « قالوا أئنك لأنت يوسف » .

إن الاستفهام قد جاء لطرد ما سقط على أنفسهم من غرابة المفاجأة ، والجملة التي أتت بعدها تعكس يقين الإخوة المطلق في أن الذي يخاطبهم أخوهم يوسف وليس سواه .

وأصل الجملة « إنك يوسف » ولا يخفى أن « إنّ » تفيد التوكيد ولكن الجملة تضمنت الضمير المنفصل « أنت » الذي يفيد التوكيد .

لا ، ليس ذلك فحسب ، بل إن لام التوكيد نفسها دخلت على الضمير المنفصل الذي تلك صفته .

فليس القصد من الاستفهام التثبت من أن الذي أمامهم يوسف بقدر ما هو بقصد التعبير عن غرابة المفاجأة غير المتوقعة على الإطلاق .

وهنا يأتي جواب يوسف في هذه الصورة « قال أنا يوسف وهذا أخي » .

وإنا لنتساءل ، لماذا أضاف يوسف على جوابه قوله : « وهذا أخي » ولم يسأل الإخوة إلا عنه ؟

وكي نجيب على ذلك فإن علينا أن نتأمل قول يوسف السابق : « قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه » إن الاستفهام التقريري عن يوسف وأخيه ليس عن يوسف فقط .

وقد فوجىء الإخوة تماماً بقول العزيز هذا ، فهنا إشارة دقيقة كاشفة لما حرصوا على إبقائه سرّاً .

هنا ذكر صريح ليوسف وعودة الضمير من « أخيه » إليه .

فالمفاجأة أتت من الذكر الصريح ليوسف ومن الربط الدقيق بالضمير بين هذا الأخ ويوسف .

وكأني بالإخوة يقولون : إن العزيز لا يجهل أن لنا أخاً من أبينا . أليس هو الذي اشترط مجيئه كي يكيل لنا ثم ثبت ظاهر تهمة السرقة عليه فاسترق .

ولكن الغريب علينا حقاً ما توحي به عبارة العزيز هذه من أن هذا الأخ من أبينا هو شقيق يوسف .

ألم يقل : « وأخيه » ؟ تماماً كما قال والدنا من قبل : « وأخيه » وهو يعني به شقيق يوسف .

وإن في أنفس الإخوة علامات استفهام كثيرة بناء على ذلك .

هل أخفى يوسف عن شقيقه حقيقة نفسه أم أعلمه بها ؟

ومتى كان ذلك إن صح أن أعلمه فعلا ؟ .

وسواء أعلمه أم لم يعلمه فأين هو الآن ؟

ولو صح أنه لم يعلم فهل سيكون علمه بحقيقة العزيز مفاجئاً له كما فاجأنا نحن ؟

وما سيكون موقفه حينما يتبين أنه سرق أخاه ؟ أم أنه لم يسرق ؟

ولكن لِمَ لمْ يرفض التهمة التي وجهت إليه علناً وعلى رؤوس الأشهاد ؟

أم أن ما حدث له كان بعد اتفاق بينه وبين يوسف وقد عرفه الأخير بنفسه ؟

لقد وجدنا في المرة الأولى بضاعتنا في رحالنا ، ويجب أن يكون لها واضع . فهل معنى هذا أن للصواع واضعاً ، قياساً على ذلك ؟

وهل مصدر الفعلين واحد ؟ أم أن الأمر بعكس ذلك وأن أخانا سرق

بالفعل . لا . إن الشقيق كما أوحى بذلك والدنا ، لا يمكن أن يسرق ، ويشهد بذلك خلقه القويم .

علامات استفهام كثيرة كانت تدور بخلد هؤلاء الإخوة ، وقد قطع عليهم التمادي فيها جواب يوسف المتضمن قوله : « وهذا أخي » .

لقد كان يوسف وأخوه شريكين في ظلم الإخوة لهما ، والآن هما شريكان فيما أنعم الله تعالى به عليهما .

حقاً كان نصيب يوسف في الشركتين هو الأكبر ، والثواب على قدر الابتلاء « ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون » .

وهكذا يتضح أن انتقال يوسف عليه السلام إلى الحديث عن أخيه ، تمشياً مع تنبيهه اللطيف حينماقال : « هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه » فيه راحة لهؤلاء الإخوة الذين أدركوا خطأهم الفادح تجاه يوسف وأخيه .

وهي راحة لا يمكن أن تكون بسيطة بحال ، لأن اسم الإشارة « هذا » من قول يوسف : « أنا يوسف وهذا أخي » دليل على أن أخا يوسف قريب منهم القرب كله ، فيحدث لهم حينما يلتفتون مع إشارة يوسف صوب أخيه ، هدوء نفسي ذو بال ، ينسجم مع الهدوء النفسي الذي أحدثه لهم تنبيه يوسف اللطيف لما فعلوا وكشفه التدريجي عن حقيقة نفسه .

والحقيقة أن ما وصل إليه يوسف ، وقد نال أخاه شيء منه ، كان تفضلا من الله تعالى عليهما .

وتأمل الجزئية التالية التي جرت على لسانه عليه السلام « قد منّ الله علينا » والتي تتمشى مع قوله تعالى « فلا تزكوا أنفسكم ، هو أعلم بمن اتقى » .

فقد أثاب تعالى كلا من يوسف وأخيه في الدنيا على إحسانهما ، ولكنه عليه السلام يتأدب في التعبير ، فيشير إلى أن ما أنعم الله به عليهما ما هو إلا منة امتن بها عليهما .

ويأتي بعد ذلك مباشرة قوله : « إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » .

إن يوسف نبي الله ، يشير مؤكداً ، إلى أن الله تعالى لا يضيع العمل الحسن لأي عامل يتقي الله تعالى باجتناب ما نهى عنه وفعل ما أمر به ويصبر صبراً جميلا ويحتسب .

وليس شرطاً أن يكون الجزاء في الدنيا ، فقد لا يكون فيها ولكنه يجب أن يكون في الآخرة . وقد يكون في الدنيا والآخرة معاً . وكل ذلك بمنّ الله وفضله .

وواضح التلاحم بين هاتين الجزئيتين « قد من الله علينا ، إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » » فمع أن الثانية تشير إلى التقوى والصبر ، وقد ضرب عليه السلام ذلك المثل الأعلى ، وكذلك أخوه ، ومع أنها تؤكد اطمئنان يوسف إلى أن الله لا يضيع عمل عامل ، وأنه تعالى سيجازيه ، إلا أنه ليس هناك تعيين لوقت الجزاء .

وقد جازى الله تعالى يوسف في الدنيا ، ويطمع في جزائه الأوفى في الآخرة .

فالجزئية الأولى « قد منَّ الله علينا » ليست سوى شكر لله تعالى على جزائه الحسن في الدنيا .

والجزئية التي تليها « إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » ليست سوى تعبير عن اطمئنانه عليه السلام ، إلى أن الله تعالى الكريم المتعال سيجازيه في الآخرة على ما أعانه عليه في الدنيا من تقوى وصبر ، وطمعه في أن يمنّ الله عليه في الآخرة ، بأن يتغمده برحمته هو وكل محسن ، تماماً كما من عليه في الدنيا وتغمده برحمته .

وحتى هذه اللحظة لم نتكلم عما فهمه الإخوة من قول يوسف: « إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » كي يكون جوابهم كما جاء

في الآية « قالوا تا لله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين » .

إن يوسف النبيل يأتي بهذه الجزئية العامة التي يدخل فيها هو وأخوه ضمناً ، وإن كان حظه كبيراً فهو الذي صبر على فعل إخوته واحتسب ، ولكل ما جرى له مع النسوة وفي السجن وهكذا . وهو الذي اتقى الله في كل مناسبة .

وبما أن آخر عهد لهم بيوسف هو وقت إلقائه في الجب ، ولا يعرفون شيئاً مما صادف ، فإنهم يفهمون التقوى بمعناها العام العادي ، ويفهمون الصبر ، صبر يوسف بالذات بأنه الامتثال التام منه لأمر الله تعالى وقضائه عليه بأن يفعلوا به ما فعلوا ، وكان ذلك ملازماً له هو والتقوى حتى تم التعرف عليه ولا يخفى أن لأخيه حظاً من كل ذلك .

وهنا نتساءل : ما نصيب الإخوة من التقوى والصبر ؟

هل اتقوا الله في يوسف وأخيه ؟

لا .

هل صبروا وعلموا أن الله تعالى هو الذي وضع في قلب يعقوب المحبة الفائقة ليوسف وأخيه ؟

لم يصبروا ولم يحاولوا أن يعلموا ، وقد استزلهم الشيطان فزين لهم الكيد ليوسف أول الأمر ، وإساءة المعاملة لشقيقه بعد ذلك . وذنبهما أن يعقوب يحبهما رغماً عنه أكثر من حبه لهم .

وهكذا يتضح أن هذه العبارة العامة من يوسف « إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » يفهمها الإخوة بالضرورة على أنها تنبيه لطيف من يوسف لهم بأنهم أثناء فعلهم به وبأخيه ما فعلوا ، لم يكن لهم نصيب من التقوى والصبر فجازاهم الله على صنيعهم ، لأنهم لم يكونوا وقتها من المحسنين .

وهنا يأتي جواب الإخوة في صورة قوية جداً من التعبير ، المصور

لوضع يوسف أخيراً وقد منّ الله عليه ، المتضمن اعترافهم الصريح بخطئهم المحض المتعمّد ، بحق يوسف على وجه الخصوص ، قال تعالى : « قالوا تا لله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين » .

وتأمل تاء القسم ، ولفظ الجلالة المقسم به ، واللام التي تفيد التوكيد ، الداخلة على « قد » التي تفيد التحقيق .

كل ذلك بقصد التعبير عن ثقة هؤلاء المطلقة في أن الله تعالى قد فضله عليهم ، وكان الأحرى بهم أول الأمر أن يفهموا ذلك ويمتثلوا لإرادة الله ، ولكنهم لم يفهموا ولم يمتثلوا ، وأرادوا الشر بيوسف ، وأراد الله تعالى الخير له .

ولا يخفى أن الإخوة يريدون بالإيثار أيضاً ، إيثار الله تعالى له ، بما أنعم به عليه في الدنيا ، بينما هم ، بسبب ظلمهم لأنفسهم ، في ذلك الوضع المؤلم والحالة التي يرثى لها .

لقد أثاب الله تعالى يوسف على صبره وتقواه وجازاهم على أفعالهم .

وهنا يأتي على لسانهم هذه الجزئية التي تتعلق بذات أنفسهم « وإن كنا لخاطئين » .

فهنا إقرار في صورة قوية من التعبير بأنهم كانوا الخاطئين .

ويلاحظ أن جملة « كنا » في صيغة الماضي تفهم أن الإخوة ، بعد فوات الأوان ، أدركوا خطأهم ، وندموا حيث لا ينفع الندم . ولو أرادوا تصحيحه لما استطاعوا .

لذا يكتفون أمام يوسف الآن بالاعتراف الصريح بالخطأ الذي ارتكبوه ، ولعلهم تمثلوا شيئاً من الصعاب التي يجب أن يكون قد صادفها عليه السلام بسبب إلقائه في الجب وإقصائه عن والده وأهله ، وكأن لسان حالهم يقول : إن سوء حالنا الآن يغني عن ذل سؤالنا لصفحك وعفوك .

يوسف يعفو عن إخوته :

النبيل يوسف عليه السلام ، لا يحوج إخوته للخوض في المسألة التي لا تخص سواه بأكثر من الاعتراف الذي أدلوا به بمحض إرادتهم .

قال تعالى على لسانه : « قال لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » .

إنه عليه السلام يتنازل عن كل حق له ، ويأبى خلقه الكريم ، في ذلك اليوم الذي قدر فيه فعفا ، حتى عن مجرد توجيه اللوم إلى الذين ألقوه في غيابة الجب .

إن ذلك اليوم ، في نظره عليه السلام ، أولى أن تبدأ به صفحة جديدة من الصفاء والمودة ، وفي مجرد توجيه اللوم ، عودة إلى الماضي البغيض وإحياء له ، وهذا يتعارض مع الصفحة البيضاء النقية التي يريد أن يبدأ بها ذلك اليوم .

ولكن يوسف عليه السلام البر الرحيم ، يتنازل عن حقه فقط ، ويبقى حق الله ، ومع ذلك فهو على ثقة ، كما كان والده على ثقة ، من أن الله تعالى أرحم بالمخلوق من أخيه وأبيه وكل محب .

فإذا كان العبد يوسف ، قد رحم إخوته فتجاوز حتى عن مجرد اللوم ، فكيف بأرحم الراحمين ؟

لذا جاء على لسانه ، داعياً أرحم الراحمين أن يتغمدهم برحمته ، قوله تعالى : « يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » .

وإن هذه المعاملة منه عليه السلام لإخوته دليل على أن ما قاموا به تجاهه كان نزوة طارئة بإغراء من الشيطان الرجيم ، وإن معدن هؤلاء النقي ؛ هو الذي جعلهم يعودون إلى الخط الذي يسير فيه آل يعقوب .

وقد كان العقاب النفسي الذي اختاره يوسف لهم وأوقعه عليهم مكتفياً به مع إكرامه لهم في كل مرة يأتون إليه ، خير دليل على أننا إزاء نوع

متميز من عباد الله الصالحين الذين خدعهم الشيطان الرجيم ، وسوّل لهم طرح أخيهم في غيابة الجب .

ولا نستطيع أن ننتقل من جو الصفح والرحمة قبل أن نتمثل موقف محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، من قريش بعد أن فتح مكة ، ونزل بها ، واطمأن الناس .

فقد خرج عليه الصلاة والسلام حتى جاء البيت ، فطاف به سبعاً على راحلته ويستلم الركن بمحجن(١) في يده ، فلما قضى طوافه دعا عثمان ابن طلحة ، فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له ، فدخلها وصلى فيها ثم خرج (٢) .

و « أخذ بعضادتي باب الكعبة . . فقال لقريش (فيما قال) ما تروني فاعلا بكم ؟ قالوا نظن خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، وقد قدرت فقال : أقول ما قال أخي يوسف : لا تثريب عليكم اليوم » (٣) .

وفي سبيل تبيين المعنى المراد من « اليوم » في قوله تعالى : « لا تثريب عليكم اليوم » وقد تلاه عليه الصلاة والسلام في هذه المناسبة ، نود أن نتبين معنى اللفظة نفسها وقد جاءت في غير الآية على لسانه صلى الله عليه وسلم في المناسبة نفسها .

فبعد انتهائه عليه السلام من حديثه لقريش جلس في المسجد « فقام إليه علي بن أبي طالب ومفتاح الكعبة في يده فقال : يا رسول الله ، اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أين عثمان بن طلحة ؟ فدعي له فقال : هاك مفتاحك يا عثمان ، اليوم يوم برٍّ ووفاء » (٤) .

---

١ ـ المحجن : عود معوج الطرف ، يمسكه الراكب للبعير فى يده ٠

٢ ـ انظر مثلا السيرة ٢/٤١١ـ٤١٣

٣ ـ الكشاف فى تفسير قوله تعالى «يغفر الله لكم» ٠

٤ ـ السيرة ٢/٤١٢

لقد جاءت لفظة اليوم في كلامه صلى الله عليه وسلم وفي القرآن على لسان يوسف ، والمعنى والله أعلم ، اليوم يوم بر ولم شمل ورأب صدع وابتداء صفحة جديدة بيضاء نقية .

وإن اللوم مجرداً يفسد ذلك كله فلا داعي له أصلا فضلا عما سواه « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً » (١) .

على أنه ينبغي أن نعرف أن العفو مقصور على الذين يستحقونه ، فإنه بالنسبة لهم أبلغ وأنفع من أي وسيلة أخرى ، وقد قال الشاعر (٢) :

* ومن وجد الإحسان قيداً تقيدا *

وإن هناك نفوساً أخرى لا يجدي معها إلا استئصال الشأفة(٣) . ونكتفي في هذه المناسبة بحادثة واحدة في سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم .

فبعد ما جرى للمسلمين في أحد ما جرى وبلغه عليه السلام أن أبا سفيان يريد أن يكرّ على المدينة المنورة مرة أخرى لاستئصال البقية الباقية من المسلمين خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القوم ، حتّى انتهى إلى حمراء الأسد ، وهي من المدينة على ثمانية أميال (٤) .

وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم في جهة ذلك . . . . أبا عزة الجمحي وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أسره ببدر ، ثم منّ عليه فقال : يا رسول الله ، أقلني ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والله لا تمسح عارضيك(٥) بمكة بعدها وتقول : خدعتُ محمداً مرتين ، اضرب عنقه يا زبير ، فضرب عنقه .

---

١ ـ الأحزاب : ٢١
٢ ـ المتنبى ، ديوانه ١ ، ٢٩٢
٣ ـ الأصل .
٤ ـ السيرة ١٠٢/٢
٥ ـ العارض : صفحة الخد

قال ابن هشام : وبلغني عن سعيد بن المسيب أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن المؤمن لا يلدغُ من جُحر مرتين ، اضرب عنقه يا عاصم بن ثابت ، فضرب عنقه » (١) .

يوسف عليه السلام ، البار بأبويه وأهله ، الشكور لمولاه :

وإذا كان يوسف عليه السلام بارًّا بإخوته في هذه الصورة ، فكيف به مع أبيه الحبيب الذي عاد أعمى بكاءً عليه ؟

فبعد أن انتهى عليه السلام من الحديث اللازم في أوجز عبارة وأبلغها عن نفسه وإخوته ، انتقل سريعاً للحديث عن والده كما جاء في الآية التالية: « اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً وأتوني بأهلكم أجمعين » .

وقبل أي شيء نتساءل : كيف عرف يوسف بأن أباه ابيضت عيناه وعاد أعمى بينما كان حديث عهدٍ بعمى ، ولم يعلم بذلك شقيق يوسف والأخ الأكبر بتاتاً ، ولم يُشر الإخوة بحرفٍ واحدٍ إلى هذه الحقيقة ؟

والجواب على ذلك إنها النبوة وإنه العلم اللدني الذي وهبه الله تعالى إياه . والآن إلى تأمل جملة فعل الأمر « اذهبوا » .

---

١ ـ السيرة ٢/١٠٤ وان واجبنا نحن المسلمين أن نستفيد من كل هذه الدروس ، وأن نعرف يقينا ، أن الضر الذى يحل بالمسلمين في أكثر من مكان ، لا يرفعه الا العودة الى التمسك بحبل الدين المتين وتطبيق تعاليمه بدقة والانتفاع من سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم · ولا يليق بالمسلمين أن يقال عنهم : قد خدعناهم مرة ومرة ومرة ، فقد قال المصطفى «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين» · قال تعالى : «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ، ان الله يحب المقسطين ، انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون» (الممتحنة ٨ ، ٩) · وينبغى أن يعلم انه مادام أن هناك قرآنا كريما وسنة مطهرة وتاريخا مجيدا فهناك مسلمون ، ومادام أن هناك مسلمين فهناك جهاد فى سبيل الله ، ومادام أن هناك جهادا فى سبيل الله فهناك راية لا اله الا الله محمد رسول الله عالية خفاقة · «ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز» (الحج ، ٤٠) ·

ألا تذكرنا بعبارة يعقوب اللطيفة التي فيها الجملة نفسها في قوله تعالى: « يا بنيّ اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله ، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » ؟

ألم نتبين من قبل الفرق بين عاطفة الأب وهو يستعمل هذه الجملة « اذهبوا » وعاطفة الأخ الأكبر وهو يستعمل الجملة « ارجعوا » ؟

ألا نتبين في هذه الجملة التي استعملها يوسف « اذهبوا » مسحة من البرّ والحنان اللذين لمسناهما في قول يعقوب الذي استعمل فيه الجملة نفسها ؟

ألم نشتم منها على لسان يعقوب رائحة التفاؤل بأن يعود الإخوة ومعهم الأخبار الطيبة عن يوسف وأخيه ؟

وبناءً على ذلك ، أليس في الإمكان أن توحي الجملة على لسان يوسف بشيء من هذا التفاؤل بعد هذا العفو الشامل منه ، خاصة ونحن لا نشتمّ شيئاً كهذا من الجملة التي استعملها الأخ الأكبر « ارجعوا » ؟ .

ألم يتحقق كل الذي قاله أبوهم لهم آخر العهد ؟

ألم يهدأ الإخوة نفساً ويرتاحوا بالا ويقروا عيناً بشأن يوسف وأخيه ، ويدخل فيهم ضمناً أخوهم الأكبر ؟ .

ويتساءل الإخوة في أنفسهم : وهل سيطيق يعقوب تحمل فرح المفاجأة ؟

ليت لنا أجنحة فطرنا بالبشارة إلى والدنا ، علنا ننقذه من شبه الهلاك الذي هو فيه ، والذي يوشك أن يكون هلاكاً فعلا .

إنا لنأمل ألاّ تكون حالته قد ازدادت سوءا عما تركناه آخر مرة .

إن كل الرياح تهب الآن في صالحنا ، ونبتهل إلى الله العلي القدير أن يكون حظ والدنا منها موفوراً .

ولكن الذي ينغص علينا كل هذه السعادة حقاً ، هو العمى الذي حل بكلتا عينيه .

ومن السبب الحقيقي وراء ذلك ؟

نحن .

وإلى متى يظل يطاردنا شبح هذه الجريمة ، بينما صاحب الحق قد تنازل ، ودعا لنا أرحم الراحمين بأن يغفر لنا خطايانا ؟

وفجأة يرن في آذانهم جملة « اذهبوا » التي ابتدأت بها الآية التي خُصَّ بها في جملتها يعقوب عليه السلام ، قال تعالى : « اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً وأتوني بأهلكم أجمعين » .

وتأمل الباء من قوله « بقميصي » التي تدل على المصاحبة ، والمعنى : اذهبوا وفي صحبتكم قميصي .

وتأمل اسم الإشارة « هذا » المخصص لقميص معين ، ونكتفي في هذا الصدد بالقول : إن يوسف عليه السلام الآن ، نبي من أنبياء الله تعالى ، وإن هذا القميص بالذات ، وسيلة إظهار معجزة من معجزاته صلى الله عليه وسلم كما تقول بذلك الآية .

وواضح ثقته عليه السلام في ربه ، فهو يخاطب إخوته في لهجة المطمئن إلى أن مولاه لن يخيب له رجاء ، ولن يرد له طلباً .

أليست إشارته على إخوته بإلقاء قميصه على وجه أبيه كي يرتد بصيراً ، بإذن من مولاه وإرادته ؟

فكيف لا يتسم كلامه بالثقة المطلقة والاطمئنان غير المحدود ! .

وإنه عليه السلام لم يعرف حقيقة والده بإعلام من مخلوق ، بل لم يأت له ذكر في هذا المشهد إلا في هذه الآية .

ويتصل بثقته عليه السلام المطلقة في مولاه ، أن ذكره لأبيه ، في هذه الآية التي تتعلق في مجموعها به ، لم يأت إلا في نصفها الثاني ، وبعبارة أخرى حيث تحتم ذكره .

إنا نتلو هذا القسم من الآية « اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه .. » ولا نعرف أنها تتعلق بيعقوب حتى نأتي بالمضاف إليه « أبي » .

وإن القميص لا يلقى على وجه يعقوب من أجل وجهه ، وإنما من أجل عينيه ، فليس هناك اتصال مباشر بين القميص والعينين ، وهذا من أسرار المعجزة .

وإن هناك علماً لدنياً خصّ الله تعالى به يوسف ، فكان على علم تام بكل ما حل بأبيه ، وأوحى إليه مولاه بأنه آن الآوان كي يرتد إلى يعقوب بصره ، وأن ذلك سيتم ، بإذنه تعالى ، عن طريق إلقاء قميص يوسف على وجه أبيه ، معجزة ليوسف عليه السلام .

كل هذه الحقائق ، جعلت يوسف البار بأبيه ، يقدم دلائل البشائر بين يدى قوله بعد ذلك : « يأت بصيراً » الذي أثلج أفئدة الإخوة خاصة وأنه جاء بعد قوله : « أبي » مباشرة .

لقد تبين الإخوة أن العمى سيذهب إلى غير رجعة ويعود النور إلى كلتا عيني يعقوب ، وبذلك يذهب آخر أثر سيء يؤلمهم في قضيتهم مع يوسف .

وقد أخذ الإخوة قوله قضية مسلمة .

وتمثل الإخوة بهجة أبيهم بهذه الأنباء وعودة الإبصار إليه ولم الشمل .

وهكذا هجم السرور على الإخوة من كلّ ناحية حتى كاد يبكيهم .

ونود أن نقف عند لفظ وجه من قول يوسف « فألقوه على وجه أبي » .

فهل وجه يعقوب المريض أم عيناه ؟

عيناه بطبيعة الحال ، والعينان جزء من الوجه .

فلم قيل « فألقوه على وجه أبي » ؟

ولا يخفى أنه أساساً لا يمكن أن يقال : « فألقوه على عيني أبي » .

ثم إنه ليس هناك شيء يمكن أن يلقيه بشر على عيني مخلوق ، فضلا عن إلقائه على وجهه ، كي يرتد الأعمى بصيراً .

وإن الإتيان بلفظ الوجه هنا ، دليل بليغ على أن ارتداد الإبصار إلى

يعقوب ، بإذنه تعالى ، إنما تمَّ بفعل قوة خفية وسر عظيم وضعه القادر على كل شيء في قميص يوسف (١) .

ونفرّ إلى القول : إنها المعجزة له عليه السلام ، التي خصه الله تعالى بها والتي جعلت القميص يلامس الوجه فتبرأ العين « وكان الله على كل شيءٍ مقتدراً » (٢) .

ونود أن نقف أيضاً عند قوله تعالى : « يأت بصيراً » .

فلماذا أتت جملة يأت هنا ، بينما جاءت جملة « ارتد » للدلالة على نفسه في قوله تعالى : «فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً» ؟

والجواب على ذلك أن جملة « يأت » بمعنى يرتد ، تعتبر مهيئة الإخوة لتلقي بشارة جديدة أتت بها الجملة نفسها التي تكررت مباشرة في قوله : « وأتوني بأهلكم أجمعين » .

ومَنْ هم الأهل ؟

إنهم الذين سبق أن جاءوا في قول الإخوة « مسنا وأهلنا الضرُّ » يريدون أنفسهم وأباهم وذويهم .

وما هي البشارة الجديدة ؟

إنها النعمة التي حمد يوسف عليه السلام ربه من أجلها حينما جاء على لسانه قوله تعالى:« وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو» .

ألم يأت الإخوة من أجل الطعام ضمناً ؟

أليس أهلهم في شدة بسبب المجاعة التي ما زالت قائمة ؟

ألم يطلب الإخوة من العزيز صراحة أن يتصدق عليهم ؟

---

١ ـ معروف أن هناك دورين آخرين لقميص يوسف : الأول : حينما جاء بـه الاخوة بعد جعل يوسف فى غيابة الجب ، وعليه دم كذب · والثانى : حينما استبق هو وامرأة العزيز الباب وقدت قميصه من دبر · وكان دليلا على براءته عليه السلام

٢ ـ الكهف : ٤٥

إن الإخوة وأهلهم أجمعين سينعمون في مصر بالخير الوفير ، أليست هذه بشارة جديدة لهم ولأهلهم ولأبيهم على السواء ؟

أليس عزيز مصر هو يوسف عليه السلام الذي آتاه الله من الملك ؟

وكيف يكون فرح يعقوب عليه السلام وقد علم أن ابنه قد اصطفاه الله بالنبوة وتحقق فيه قوله سابقاً : « وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق ، إن ربك عليم حكيم » ؟

ولا ننسى أن يوسف عليه السلام مسؤول عن رعاية مصالح قومه الدنيوية ، لهذا كان طبيعياً أن يطلب أهله إليه وليس العكس ، ويدخل فيهم ضمناً والداه ، لأن مصر مكان تعبير الرؤيا التي تدل على منزلة يوسف الدنيوية والدينية .

وفوق ذلك هو رجل موحى إليه ينفذ ما يأمره به مولاه .

ثم ننتقل إلى بقية الآيات الدالة على برّ يوسف بأبويه وشكره لمولاه ، قال تعالى : «فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ، ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي ، إنّ ربيّ لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم ، ربّ قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث ، فاطر السماوات والأرض ، أنت وليّ في الدنيا والآخرة ، توفني مُسلماً وألحقني بالصالحين » .

وهكذا ضمّ يوسف أبويه وقرّبهما منه . وواضح أنه عليه السلام يعلق دخولهم مصر ، مصحوبين بالأمن والطمأنينة ، بمشيئة الله تعالى وإرادته ، وهذا درس يلقيه علينا يوسف عليه السلام . وهو يذكرنا بقوله تعالى مخاطباً رسوله الكريم : «ولا تقولنّ لشيء إني فاعل ذلك غداً ، إلا أن يشاء الله ،

واذكر ربك إذا نسيت ، وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً »(١) .

ويرفع عليه السلام أبويه بالذات على السرير . قال تعالى: « ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً » .

والخر معناه السقوط ، فكأن المعنى ، والله أعلم ، أن إخوة يوسف وأباه وأمه ، بعد أن رفع يوسف أبويه على العرش وارتفع هو نفسه قاموا بهذه الحركة بقصد التحية ليوسف والاحترام .

ويفهم من هذه الجزئية أن هذه الحركة ، بقصد التحية ، كانت جائزة آنذاك (٢) .

والذي يجعل ضمير المفرد الغائب لا يعود إلا على يوسف فقط ، هو أنه عليه السلام حينما قص رؤياه على يعقوب في أول السورة ، حرص على تضمين تعبيره القول: « لي ساجدين » فدل ذلك على أن السجود بقصد التحية إنما كان له هو بالذات .

ولو لم تتضمن الآية قوله: « لي » لكان من الجائز أن نفهم أن يوسف قد لا يكون هو المقصود بالضرورة .

والذي يدل أيضاً على أن الضمير في « وخروا له سجداً » يعود على يوسف القول الذي جاء على لسانه بعد ذلك مباشرة: «وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً » فهو يشير إلى قص يوسف رؤياه على والده ، وأن هذه الرؤيا قد عبرت الآن ، وهذا الذي كان ينتظره يعقوب عليه السلام .

وإن لفظة العرش التي جاءت في الآية ، والإشارة في القول على لسانه

---

١ ـ الكهف ٢٣ ، ٢٤

٢ ـ لقد تبين من قبل أن للسارق حدا هو الاسترقاق ، وحدد البعض ذلك بعام واحد . كما أنه فهم من قول الاخوة «وتصدق علينا» أن الصدقة كانت جائزة في آل يعقوب والله أعلم .

بعد ذلك إلى الملك الذي منحه الله تعالى يوسف يجعلاننا نشير إلى حقيقة الدور العظيم الذي قام به يوسف عليه السلام دنيوياً إضافة إلى دوره الديني .

فلم نسمع مطلقاً أن الإخوة ـ وهم من الفئات الكثيرة التي كانت تقصد يوسف ـ في كل ما حل بهم من قبل ، فكروا في عرض سوء حالهم على غير يوسف .

وذلك دليل على المنزلة العظيمة التي كان يتمتع بها من وصل إلى منصب عزيز مصر .

وإنه عليه السلام ليضرب لنا المثل الأعلى في النجاح الباهر الذي يمكن أن يحققه رجل الدين في المجالين : الدنيوي والديني .

إنه من خير الذين جمعوا بين الحسنيين ، فلم ينس نصيبه من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليه .

وهذا درس بليغ يلقيه عليه السلام على أمة الإسلام بأن صلاح الدنيا من صلاح الدين ، وعلى الحاكم بأن يكون خليفة الله في أرضه ، وأسوة حسنة للمحكومين .

وإنّ لسان حاله عليه السلام يقول لنا : إن الخطأ كلّ الخطأ أن يُفْصل الدين عن الدولة .

وإن الخطأ كل الخطأ أن يقف رجل الدين من الحياة موقفاً سلبيّاً

ثم إنه عليه السلام قد ضرب المثل الأعلى في الأمانة منذ حداثة سنه حتى توفاه الله تعالى .

ألم يكن أميناً على عِرض العزيز وأهل مصر وأموالهم ؟

ألم يكن يتصرف باستمرار في حدود صلاحيات منصب عزيز مصر ؟

والآن مع هذا القول على لسانه الذي يعتبر قمة في تواضعه عليه السلام وأدبه ، قال تعالى : « وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن » .

إنه لا يتعرض لسبب دخوله السجن وهو المظلوم ، فهذا ابتلاء من

العليم الحكيم ، ولكنه يشيد بفضل الله عليه بإخراجه من السجن الذي كاد يبقى فيه ، لولا لطف الله به ، إلى أن يتوفى .

إنه عليه السلام ليبدو في هذا القول والذي يليه أيضاً: « وجاء بكم من البدو » عبداً شكوراً . حيث منَّ الله تعالى على يعقوب وآله إضافة إلى لم الشمل بالخير الوفير .

وتأمل هذه الجزئية « من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي » الدالة على لطف التعبير وحسن التعليل .

إذ ينسب الفساد إلى الشيطان الرجيم .

ثم إنه عليه السلام يجعل نفسه طرفاً ثانياً في قوله : « بيني وبين إخوتي » وكان بإمكانه ، وهو المجني عليه ، أن يعبر في طريقة أخرى لا تجعله طرفاً ثانياً للمسيئين إليه .

ولكنه الخُلق النبيل الذي يجعله يمس هذه القضية التي اضطر للإشارة إليها مساً رفيقاً لا يؤلم الإخوة البتة .

ثم هو يقول « إخوتي » ولا يقول : بعض إخوتي ، كي يخرج شقيقه من بينهم ، لأن في ذلك إيلاماً شديداً لهم وهو ما يأباه عليه السلام ويرفضه رفضاً باتاً .

والحقيقة أن ما جاء على لسانه عليه السلام مخاطباً أباه « هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربي حقاً وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي » يعتبر عرضاً سريعاً موجزاً مركزاً متضمناً أهم ما صادفه عليه السلام منذ الرؤيا حتى تعبيرها في تلك اللحظة التي يخاطب فيها أباه .

ويأتي بعد ذلك قوله كما جاء في الآية : « إن ربي لطيف لما يشاء ، إنه هو العليم الحكيم » .

إن إرادته تعالى قد شاءت أن يجتمع له عليه السلام النبوة وشيء من

الملك ، وأن يلم شمل آل يعقوب أخيراً ، وسبقت ذلك ألطاف خفية التدبير من العليم الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، الحكيم الذي يجيء كل تدبير منه على وجه الحكمة والصواب .

وإنا لنتساءل لماذا قال عليه السلام : « ربي » ولم يقل مثلا : إن الله لطيف لما يشاء ؟

والجواب على ذلك أنه عليه السلام يريد أن يعبر عن امتنانه لإنعام الله تعالى عليه ، وإن لفظ الرب خير دليل على ذلك .

ثم إنه عليه السلام يعتبر المحور الرئيسي الذي دارت عليه القصة من أولها إلى منتهاها .

وحينما قص على والده في إيجاز ما جرى عليه كان لضمير المتكلم الذي تكرر أكثر من مرة ، دوره الذي لا يخفى ، لذلك كان طبيعياً أن يستمر عليه السلام مستعملا الضمير نفسه في قوله : « إن ربي لطيف لما يشاء » .

وتأتي مباشرة هذه الآية على لسانه « رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث ، فاطر السماوات والأرض ، أنت وليي في الدنيا والآخرة ، توفني مسلماً وألحقني بالصالحين » .

وهي تدل على أننا بصدد العبد الشكور ، نبي الله يوسف عليه السلام ، القمة في الأدب والتواضع .

إنه يعترف بمنّ الله وفضله عليه بإيتائه شيئاً من الملك ومن تأويل الأحاديث .

وإن حرف الجر « من » الذي يدل على التبعيض الذي جاء مرتين ليدل من ناحية على أن الملك وتأويل الأحاديث من أهون الأشياء على الذّات العلية ، ومن ناحية ثانية على أنه تعالى قد خصه عليه السلام بهذه الهبة .

وبهذا يجمع عليه السلام بين شكر النعمة وإعطائه نفسه قدرها الذي تستحق . فإن الملك الكامل والعلم التام لمبدع السماوات والأرض .

إن الجمع بين الملك والعلم اللدني لا يهبهما الله معاً إلا لمن اصطفى ، كنبي الله يوسف الذي يفوّض أمره ، كما تقول الآية ، إلى الله تعالى في الدنيا والآخرة ، والذي يطمع أن تكلأه عناية الله مدة بقائه في الدنيا ، وأن يكمل تعالى فضله بإحسانه ، بأن يكون له الحظ نفسه في الآخرة أيضاً .

وما الشرط الأساسي الذي لا يتحقق أي طلب بدونه ؟

أن يكون المرء مسلماً لله رب العالمين ، عابداً له وحده دون سواه ، مخلصاً له العبادة .

وهنا يدعو عليه السلام ربه أن يمنّ عليه ، حينما يقدّر عليه الوفاة ، بنعمة الإسلام .

إنه عليه السلام ، وقد اصطفاه الله تعالى بالنبوة ، لم يصرفه ذلك عن معرفة حقيقة قدر نفسه . بل كان ذلك حافزاً له على عبادة الله تعالى ، وأخذ جانب الحذر والحيطة ، والأدب والتواضع ، إنه يدعو الله تعالى بما يدعو به كل مسلم لله رب العالمين « توفني مسلماً » .

وتأتي الجزئية التي يدعو بمثلها أيضاً كل مسلم ، والتي تعتبر استمراراً لتواضعه عليه السلام وأدبه مع بارئه « وألحقني بالصالحين » .

الكل يعرف أن درجة النبوة ليس فوقها درجة ، وقد مُنحها يوسف عليه السلام .

ومعروف أن منزلة الشهيد عند الله فوق منزلة الصالح . فبماذا يدعو نبي الله يوسف ربه ؟

إنه يدعوه بأن ينعم عليه في الآخرة بأن يكون من الصالحين والصالحين فقط ! بل إنه عليه السلام لا يقول مثلا : واجعلني من الصالحين : مما يُفهم أن له عليه السلام حقاً من نوع ما في ذلك إنما يجيء على لسانه « وألحقني بالصالحين » .

ويُفهم من الإلحاق أن ذلك تفضل وتكرم منه تعالى عليه .

يا لهُ من أدب ، ويا له من تواضع ٍ جمّ ، ويا له من درس بليغ نافع يلقيه نبي الله يوسف على أمة الإسلام .

الفصل الرابع

أ- المجتمعات في سُورة يوسُف عليه السّلام

ب- الدروس المستفادة مِن سُورة يوسُف عليه السّلام



(أ) المجتمعات في سورة يوسف عليه السلام :

عرضت سورة يوسف بشقيها القصصي والتعقيبي للعديد من المجتمعات.

ففي الشق القصصي عرضت للمجتمعين : الشامي والمصري زمن يوسف عليه السلام ، بالإضافة إلى إعطائنا شيئاً من المعلومات عن روح ذلك العصر .

وفي الشق الثاني إشارة إلى المجتمع المكي وموقف العرب من دعوة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، ثم الانتقال إلى الأمم السابقة التي اتخذت موقفاً مشابهاً لموقف المكيين والعرب بعامة ، إذ انقسموا في كل العصور ، كما انقسم هؤلاء إلى فرقتين : القليلة وهم المؤمنون والكثيرة وهم المكذبون .

وكان النصر دائماً وأبداً حليف جند الله . قال تعالى : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » (١) وقال « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، إنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون » (٢) .

المجتمع المكي ونظائره

مع أن القِسْم التعقيبي في سورة يوسف يشير إلى كثير من المجتمعات ، إلا أننا بحكم تشابهها يمكن أن تكون صورتها قريبة من مجتمع الجزيرة العربية في فجر الدعوة الإسلامية .

وعلى ذلك يمكن اعتبار مجتمع الجزيرة العربية رمزاً للمجتمعات السابقة ، كما يمكن اعتبار موقف المجتمع المكي بخاصة رمزاً لموقف كل مجتمع من النبي المرسل إليه .

وبتأملنا لهذه الجزئية « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى » أمكن أن نفهم أن حكمة الله تعالى ، ضماناً لنجاح دعوة

---

١ ـ الروم ، ٤٧

٢ ـ الصافات ، ١٧١ ـ ١٧٣

كل رسول ، قد اقتضت ألا يبعث إلا في مجتمع له استعداد من نوع معين لتقبل الدعوة ولو بعد حين .

وقد أمكن أن نستنتج من هذه الحقيقة ، ومن مواقف العرب المختلفة من الدعوة أن المجتمع العربي ينقسم آنذاك إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : أهل القرى ، وهم الذين لهم ذوق حضاري من درجة معينة ، ويميلون إلى الاستقرار . وهؤلاء هم الذين يبْعث منهم وفيهم الرُّسل بنص القرآن .

القسم الثاني : أولئك الذين لهم من الحضارة والبداوة نصيب . هؤلاء لا يقبلون الدعوة سريعاً ولا يدفعونها طويلا .

القسم الثالث : الأعراب الموغلون في البداوة ، وقد ذم القرآن الكريم معظمهم ومدح بعضهم .

قال تعالى مثلا في سورة التوبة(1) : « الأعرابُ أشدُّ كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، والله عليم حكيم . ومِنَ الأعراب من يتخذ ما ينفق مَغرَماً ويتربص بكم الدوائر ، عليهم دائرة السوء ، والله سميع عليم ، ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرّسول ، ألا إنها قربة لهم ، سيدْخلهم الله في رحمته ، إن الله غفور رحيم » .

ومع أن إرادة الله تعالى اقتضت أن يغلب جنده ، إلا أن ذلك لا يتم إلا بعد تعب شديد . ويشترك في هذه الحال ، المجتمع العربي بأقسامه المختلفة مع كل مجتمع يبعث الله تعالى فيه رسولا .

قال تعالى : « حتى إذا استيأس الرُّسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين » . إن القاعدة واحدة وثابتة ينجي الله المسلمين له ، ويهلك الكافرين .

---

١ ـ آيات ٩٧ـ٩٩

وهكذا يتضح ما سبق أن ألمحنا إليه من أن المجتمع العربي ، وقت البعثة المحمدية ، يمكن أن يكون رمزاً لكلّ المجتمعات السابقة التي يبعث فيها رسل الله ومن هنا كانت معالم هذه المجتمعات المتشابهة ، في القسم التعقيبي من السورة واضحة ، والتعامل معها سهلا ميسوراً .

الملامح المشتركة في عصر يوسف عليه السلام

فإذا تحولنا إلى القسم الأول من السورة ، اتضح أنه يعطينا بعض ملامح العصر ، كما يعطينا في شيء من الوضوح ، بحكم السرد القصصي بعض ملامح المجتمعين : الشامي والمصري زمن يوسف عليه السلام .

وحينما نتكلم عن ملامح العصر فينبغي أن نوضح أن المراد بذلك في المقام الأول الملامح المشتّركة بين المجتمعين : الشامي والمصري . فإلى ملامح العصر المشتّركة .

من ملامح العصر الذي عاش فيه يوسف عليه السلام الرؤى وما يتعلق بها مِنْ حرص على تعبيرها ووجود معبرين تختلف قدراتهم على التعبير .

وكأنّ إرادة الله تعالى اقتضت أن يتحدى عليه السلام بقدرته الخارقة على تعبير الرُّؤى كل المعبرين في عصره ، قياساً على جَعل الله تعالى معجزة موسى عليه السلام من جنس ما تفوق فيه قومه من السحر ، ومعجزة عيسى عليه السلام من جنس ما برع فيه قومه من الطب . ومعجزة محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم من جنس ما نبغ فيه قومه من الفصاحة والبلاغة .

إن الرؤيا تصادفنا في كل من المجتمعين : الشامي والمصري .

فهناك رؤيا يوسف والساقي والخباز والملك . وإن كل الرُّؤى تعبر . وقد أثبت عليه السلام أنه أعبر الناس للرؤى .

وكان جو الرؤى قادراً على فرض معجم لغوي من نوع معين . كما أمدنا بالكثير من المعلومات المفيدة عن طبيعة كل من المجتمعين أو المكانين .

وقد لا نكون مغالين حينما نقول: إنا نستطيع أن نفهم من القول على

لسانه عليه السلام: « إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين » الطبيعة الصافية غالباً لسماء المنطقة التي كان فيها عليه السلام آنذاك ، إضافة إلى صفاء نفس يوسف وإشراقه الروحي (١) .

ومن ملامح ذلك العصر الحركة التجارية الدائبة الممثلة في تلك القوافل المتجهة في كل صوب . فليس اتجاه السيارة ، من الشام إلى مصر ، الذين أسروا يوسف بضاعة إلا رمزاً لقوافل أخرى تسير في كل وجهة .

وإن الإخوة الذين رحلوا إلى مصر فالشام أكثر من مرة إنما كانوا يشكلون جزءاً من القافلة وليس كل القافلة . بدليل أن المنادي يجيء على لسانه « أيتها العير إنكم لسارقون » وليس مثلا : أيتها السيارة ، مما قد يفيد أنّ العدد محصور في الإخوة .

وكان التجار يتعاملون في البيع والشراء بالدراهم وأحياناً تتم عملية تبادل البضاعة .

إنه عليه السلام بيع بثمن بخس دراهم معدودة ، بينما دفع الإخوة مقابل الميرة التي أخذوا من العزيز بعض الأشياء العينية التي جاءوا بها من الشام(٢) . فهذا هو الذي يفهم من لفظ « البضاعة » ومن الجائز أن يتسع اللفظ فيشمل الدراهم .

وكان الناس آنذاك يتعاملون بالكيل مع الحبوب وليس بالوزن .

ويظهر في ذلك العصر التعامل مع الرقيق أياً كان لون بشرته .

فمع أن الغلام يوسف أبيض اللون . إلا أنه جاز أن يباع بأنه مملوك .

ومن الجائز أن القائل في قوله تعالى : « قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين » ليس بعيداً عن ذهنه التقاط بعض السيارة للغلام يوسف ومعاملته معاملة المماليك .

---

١ ـ سنبين ان شاء الله تعالى شيئا من دور الرؤى فى امدادنا بالكثير مـن المعلومات من المجتمع اثناء حديثنا عن المجتمع المصرى على وجه الخصوص ٠
٢ ـ انظر هنـا في ظلال القـرآن ١٢/١٣

ومن الظواهر الاجتماعية في ذلك العصر وكل عصر ، وجود العنصرين البشريين الطبيعيين ، الصالح وغير الصالح . عرفنا ذلك في كل من المجتمعين الشامي والمصري ، وينبغي أن يكون في كل المجتمعات الأخرى .

فعلى الرغم من وجود يعقوب عليه السلام في الشام ، حيث ينبغي أن يكون له هناك أجمل الأثر ، إلا أنه يحذر يوسف من قص رؤياه على إخوته « إن الشيطان للإنسان عدو مبين » وإن الذي يجوز على أبناء نبي الله يعقوب ، يجوز من باب أولى على سواهم .

وقد جاء على لسان هؤلاء الأبناء ، خطاباً للباحثين عن الصواع ، الإشارة إلى المفسدين في الأرض « قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين » فدل ذلك على أن هذا العنصر المفسد موجود بالإضافة إلى العنصر الآخر بطبيعة الحال .

واستتبع وجود العنصر المفسد وضع العقوبات فللسارق مثلا جزاؤه . وللخائن جزاؤه .

وبما أننا بصدد مجتمعين ، أحدهما ديني والآخر غير ديني ، فقد اختلفت عقوبة الجريمة الواحدة .

إن حد السارق في الشريعة الإبراهيمية أن يسترقّ ، وحدد البعض ذلك بعام واحد . أما في عرف المصريين فيغرم السارق مثليْ ما سرق دون استرقاق

وبعد هذه اللمحة السريعة عن بعض ملامح العصر التي أمكن استخلاصها من قصة يوسف عليه السلام ، ننتقل إلى محاولة أخرى من النوع نفسه بشأن المجتمعين الشامي والمصري ، فإلى :

المجتمع الشامي

المراد بالمجتمع الشامي في سورة يوسف يعقوب عليه السلام وآله ، أبناؤه على وجه الخصوص ، إذ أن يعقوب وأبناءه فقط ، هم الذين لهم أدوار إيجابية .

وبما أن سورة يوسف إنما تعرض لهذا البيت فقط ، بينما تعرض للعديد من الشخصيات المصرية المتنوعة ، فمعنى هذا أن الصورة الاجتماعية التي يمكن تصورها للمجتمع الشامي ، تمثل بالضرورة زاوية واحدة . أو ناحية واحدة ، بعكس صورة المجتمع المصري .

إن يعقوب ويوسف عليهما السلام يمثلان الجانب المشرق في المجتمع الشامي . ويجب أن يكون ليعقوب عليه السلام بالذات ، في المجتمع الشامي أطيب الأثر .

ونستطيع أن نتبين هذا الأثر الطيب في أبنائه عليه السلام ، فإذا استثنينا وقتاً من الأوقات يوسف وشقيقه ، باعتبار أنهما صغيران غير مكلفين ، فقد كان باقي الأبناء بدون استثناء قمة في الصلاح والتقوى ، إلا في معاملتهم للشقيقين .

وحينما ينهى يعقوب ابنه يوسف أن يقص رؤياه على إخوته ، فكأنه يخشى أن يمثل أبناؤه بتورطهم في الكيد ليوسف ، بعض ما يجري في ذلك المجتمع من شرور .

وسنحاول رسم الصورة لهؤلاء الإخوة التي يمكن استقاؤها من هذه السورة تلك الصورة التي يغلب على الظن أن لها نظائرها في ذلك المجتمع .

إن أبناءه عليه السلام يلوحون من الأقوال التي تجيء على ألسنتهم رجالا بكل ما تحمل هذه اللفظة من معان .

ولا نتبين هذا من قول البعض منهم بقتل يوسف ، فإن هذا يدلّ على بغضهم الشديد له ، وليس من الرجولة في شيء أن يقدم عدد من الرّجال على عمل كهذا تجاه غلام صغير .

إنما نتبين هذا من تنكير لفظ الأرض في قوله تعالى على لسانهم : « اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً » .

إن مجيء هذا اللفظ منكراً ، دليل على أن عند هؤلاء القدرة على أن يتجهوا في كل ناحية بقصد أن يجدوا الأرض الموافقة لطلبهم . وإنما كانت

هذه القدرة عندهم لأنهم اعتادوا من قبلُ الضرب في أرضين ، منها ما وافق بغيتهم الآن .

ومن مظاهر رجولة هؤلاء الإخوة أنهم في فسحاتهم يقومون بألعاب رياضية معينة وبالاستباق بقصد تهيئة أجسامهم لتحمل مشاق الحياة بمختلف الأنواع ، وقد جاء على لسانهم قوله تعالى : « أرسله معنا غداً يرتع ويلعب» وقوله « يا أبانا إنا ذهبنا نستبق » .

ولم يكن الإخوة يجهلون ما يمكن أن يقوموا به من أعمال فقد كانوا غير راضين عن حب يعقوب للشقيقين أكثر من حبه لهم وهم عصبة من الرجال تعصبُ بهم الأمور . وكان منهم على حق ، استهتار بعيد المدى بالذئاب .

كما كان هؤلاء الإخوة الرجال يقومون في نزهاتهم بكل ما يحتاجون إليه من استخراج ماء وحمله وذبح الحيوان الذي سيتخذونه طعاماً لهم وجمع حطب وما إلى ذلك .

لقد قاموا في رحلتهم مع يوسف بكل ذلك دون معاونة من أحد ، بدليل أنهم هم فقط الذين يعرفون حقيقة وضع يوسف في غيابة الجب .

ومن مظاهر رجولة هؤلاء الإخوة أنهم يستطيعون أن يذهبوا بعيداً في رحلاتهم ، فخروجهم مع يوسف رمز لخروجهم دائماً .

وقد حددت طبيعة المنطقة التي هم فيها وجهات خروجهم فهي منطقة يعتمد فيها على الآبار ، وذلك دليل على أن أقرب نهر من المنطقة يبتعد كثيراً عن الجبّ الذي وضع فيه يوسف مثلا . وهو بدوره يبتعد عن المكان الذي فيه آل يعقوب .

وكل ذلك يعني أن لدى الإخوة الشجاعة الكافية لأن يسيروا عمقاً في كل اتجاه بتلك المنطقة التي تغص بالذئاب وربما بسواها أيضاً ، والتي تعدّ فيها الآبار التي حفرت لبعد الأنهار . والاعتماد على الآبار في تلك المنطقة دليل على أنها ليست منطقة زراعية كوادي النيل مثلا .

ويجب أن يكون للمنطقة التي تلك صفتها أثر من نوع معين في السكان . فالأرض حينما لا تكون زراعية فمن الجائز أن تطبع السكان بطابع الارتحال والتنقل .

فإذا اتخذنا أبناء يعقوب رمزاً لسواهم ، وهم قمة في الصلاح ، باستثناء معاملتهم للشقيقين ، وعرفنا أنه يجب أن يكون في ذلك المجتمع أثر حسن ليعقوب عليه السلام وآله ، ولم يكن شيء من ذلك موجوداً آنذاك في المجتمع المصري ، استطعنا أن ننتهي بيسر إلى أنّ المجتمع الشامي أكثر تديناً من المصري ، ومن هنا برزتْ الحاجة لبقاء يوسف عليه السلام في مصر ، كي يقوم بما يقوم به يعقوب وآله في الشام .

المجتمع المصري

بما أن سورة يوسف ، فيما يتعلق بيوسف عليه السلام في مصر ، تتعرّض لشخصيات عديدة ، تنتمي إلى طبقات اجتماعية مختلفة ، بخلاف تعرضها لفئة معينة تنتمي إلى طبقة معينة في المجتمع الشامي ، لذلك أمكن أخذ صورة عن المجتمع المصري تزيد عن المجتمع الشامي وضوحاً .

وصادف أن السورة تعرض لرأس البلاد ومن يليه مباشرة ، كما تعرض لشخصيات تنتمي إلى طبقات مختلفة . ومن هنا كانت صورة المجتمع المصري أكثر تكاملاً .

إن رأس البلاد ، أعني الملك ، يبدو لنا خلال السورة رجلا حازماً حليماً ، حسن التصرف حكيماً ، جاهراً بالحق ألمعيّاً ، مهيب الجانب .

يبدو حزمه وحلمه من التصرف بأمره مع كل من الخباز والساقي .

ويبدو حسن تصرفه في القول على لسانه: « يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي » فإن هذا قول من يأخذ بمبدأ الشورى ويوقر أتباعه ومن يبادله أتباعه المثل .

ويبدو جهره بالحق من القول على لسانه ، خطاباً للنسوة ، وقد ثبت له براءة يوسف : « ما خطبكن إذ راودتّن يوسف عن نفسه » .

وتبدو ألمعيته من موافقة حدسه في يوسف لحقيقة مخبره .

ويبدو جانبه المهيب من شخصيته القوية التي يجب أن تكون لرجل تلك أعماله ، ومن حقنا أن نفهم جانباً من منزلته من الطريقة التي يحيا بها قياساً على قوله تعالى عن يوسف عليه السلام : « وخرّوا له سجداً » .

والطبقة التي تأتي مباشرة العزيز ومنْ يمثلون علية القوم وأشراف المجتمع كملأ الملك والمسؤولين في الدولة الذين تتدلى رتبهم .

فهناك المؤذن رئيس فتيان العزيز الذي نعتقد أن له مكانته المعتبرة ، بدليل القول على لسانه « وأنا به زعيم » في قوله تعالى: « قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم » وهناك مأمور السجن وهكذا.

ويبدو أن المرأة في ذلك المجتمع أساءت استعمال الحرية التي منحتها .

ويتضح ذلك من موقف امرأة العزيز المتطور من يوسف ، المتجه بعد ثبوت براءة الفتى أمام الزوج بشهادة الشاهد ، إلى الأمر الواضح الصريح ، بدلا من أن ترعوى وتعود إلى جادة الصواب ، ومن موقف نسوة المدينة كذلك منه .

ويبدو أنّ زمام الأمور قد انفلت من أيدي الرجال في ذلك المجتمع غير صحيح العقيدة ، بدليل أنّ العزيز . وقد ثبتت له براءة الفتى ، لا يقوم بمجرّد التفريق في السكن ، بين زوجته والفتى .

بل يبدو أن الأمر قد بلغ درجة اليأس من الإصلاح ، وكأن العزيز وغيره ممنْ يعنيهم شأن يوسف ، وقد عجزوا عن ضبط الأمور ،تعللوا بأن الداء عميق وشامل ، وأن الشيء الوحيد الذي يمكن لهؤلاء أن يقوموا به ، هو التخلص من الفتى البريء . وقد ارتضى ضميرهم الميت الحي أن يسجن حتى حين !

ولكن نسبة الموت في الضمير كانت مرتفعة ، فنسي الفتى في السجن ، وكاد يبقى فيه حتى يتوفى لولا أن تداركه الله برحمته .

ويبدو أن النسوة وراء دخول الفتى السجن . وهذا مما يجعلنا نقول : إن الكثير من الأمور ، في ذلك المجتمع غير صحيح العقيدة ، يسيرها النساء وليس الرجال .

والحقيقة أننا نتبين شبهاً كبيراً بين ما كان يجري في ذلك المجتمع زمن يوسف عليه السلام من حرية زائفة ، وما يجري الآن في هذا العصر ، في المجتمعات غير الدينية ، أو التي ابتعدت عن روح الدين السماوي .

وإن واجبنا نحن المسلمين أن نستفيد من الدروس العظيمة التي يلقيها علينا القرآن الكريم ، وأن نعمل جميعاً على جعل مجتمعاتنا إسلامية بكل ما تحمل هذه اللفظة من معان ، وأن نكشف زيف المزيفين وخداع الضالين المضلين ، نسأله تعالى الهداية والعون والتوفيق .

ومن الأدلة على أن اليأس من الصلاح قد تمكن من القوم ، هو أن الشاهد ذا السلطة الأدبية ، والذي نعتقد أنه من الطبقة نفسها ، على الرّغم من أنه اتضح له وجه الحق في اتهام امرأة العزيز ، إلا أنه لا يجيء على لسانه سوى هذا القول : « يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك ، إنك كنت من الخاطئين » .

وإنما وضع حد لهذه المسألة هنا ، لأن امرأة العزيز هي المتهمة وليس لأن الفتى هو البريء !

ونعتقد أن لاتّهام المرأة الكاذب حدّاً في قانون القوم الوضعي . ولو كانت المرأة من طبقة أخرى ، غير هذه الطبقة ، لنالت جزاءها .

أو ليس للسارق في عرف المصريين حدّ ؟

أو لم يصلب الخباز جزاء سوء عمله ويبقى في وضعه ذلك حتى أكلت الطير من رأسه ، ردعاً لسواه ؟

أما امرأة العزيز ومن شاكلها فهي فوق هذه القوانين الوضعية التي تطبق على الضعيف ولكنها أضعف من أن تطبق على القوى .

فإذا تحولنا نازلين إلى الشخصيات التي تمثل العامة ، وجدناها قد طبعتها البيئة بطابعها .

فمصر كما هو معروف بلد خصب يغري السكان بالاستقرار والفلاحة والحرف التي لها علاقة بما تنبت الأرض .

وهنا نجد أنفسنا أمام الساقي الذي يتعامل مع الخمر التي يبيح ذلك المجتمع غير صحيح العقيدة شربها ، وقبل ذلك صنعها اعتماداً على ما تنتجه الأرض مما يصح أن يكون لها أصلا .

كما نجد أنفسنا أمام الخباز وعلاقته بالحبوب واضحة .

ومع الفلاح الذي يزرع ويحصد ويخزن في أماكن حصينة قام البناءون بعملها هي وأبواب المدينة وربما سورها .

نستفيد ذلك من قوله تعالى: « قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلا مما تأكلون ، ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون » ومن قوله تعالى: « وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة » .

كما نتبين فرحة الفلاح بالغيث بعد طول غيبة ، ونجد أنفسنا مع العصّار . ومعروف أن مصر بلد عصير ، قال تعالى : « ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون » .

وليس بخاف علاقة الفلاح بالنهر والبقر والسنابل .

وقد صبغت رؤيا الملك بهذا كله في القرآن الكريم وكتب التفسير . قال تعالى : « وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون » .

كما لا يخفى علاقته بالكيل وبالذي يدفع ثمناً للمكيل من دراهم أو بضاعة عينية من نوع آخر .

إن الدراهم التي دفعت ثمناً ليوسف عليه السلام يمكن أن تدفع للمكيل ، وقد جاءت الإشارة إلى البضاعة التي قد تكون دراهم أو أشياء عينية أكثر من مرة في سورة يوسف « وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون » وقال: « ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغي ، هذه بضاعتنا ردت إلينا » وقال: « فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل » .

وليس بخاف أن في هذه السورة الكثير من الإشارات إلى عملية الكيل ، وأن الحبوب تكال ولا توزن مثلا . كما أن هناك الصواع أو السقاية التي يكال بها الطعام « فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون ، قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون ، قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم » .

وهناك ملاحظة أخيرة عن ذلك المجتمع بصفة عامة هي أنه يبدو أنه على درجة عالية من الحضارة المادية ، فالنسوة مثلا يستعملن السكاكين في تقطيع الطعام .

وبعد هذه الإشارات السريعة الموجزة إلى المجتمع المصري كما تصوره سورة يوسف ، تبقى إشارة هامة جداً هي أن القوم لم يكونوا يعبدون الله وحده . قال تعالى على لسان يوسف عليه السلام « يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ، ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

وبما أن يعقوب وآله في الشام ، ويمكن أن يكون لهم أطيب الأثر . لهذا نستطيع أن نقول: إن المجتمع الشامي أكثر تديناً من المجتمع المصري وربما كان لهذا السبب اقتضت حكمة الله تعالى ليوسف عليه السلام البقاء

في مصر وليس في أي مكان آخر لإخراج القوم من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد ، وهذا ما قام به يوسف عليه السلام حقاً .

(ب) الدروس المستفادة من سورة يوسف عليه السلام :

كثيرة هي الدروس المستفادة ، التي تناثرت في السياق الإعجازي للقرآن في هذه السورة المباركة .

وسنحاول بإذن الله تعالى في هذا القسم من البحث ، جمع ما أمكن من حبات عقد هذه الدروس ، نسأله تعالى العون والتوفيق .

١ ـ القرآن عربي

قال تعالى: « إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » إنه بصدد إشارة صريحة إلى أن القرآن الكريم عربي .

وليس بخاف أنّ في القرآن الكريم إشارات كثيرة إلى هذه الحقيقة ونفي العجمة عنه ، قال تعالى في سورة الشعراء مثلا(١) « وإنه لتنزيل ربّ العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربي مبين ، وإنه لفي زبر الأولين ، أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل ، ولو نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ، ما كانوا به مؤمنين » . وقال تعالى في سورة النحل(٢) : « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ، لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين » .

وإزاء هذه الحقيقة ، حقيقة أن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين ، وحقيقة أن فيه بعض الألفاظ التي أخذها العرب أساساً من أمم أخرى نقول : إن هذه الألفاظ ، غير العربية أساساً ، التي جاءت في القرآن الكريم ، إنما استعارها العرب من الأمم الأخرى وعربوها ، شأنها في ذلك شأن الألفاظ الأخرى التي لم تجيء في القرآن .

---

١ ـ آيات ١٩٢ـ١٩٩
٢ ـ آية : ١٠٣

وقد أصبحت هذه الألفاظ قبل نزول القرآن الكريم عربية باستعمال العرب لها وحينما نزل القرآن كانت هذه الألفاظ التي جاءت فيه يعرفها العرب وإن لم يبتدعوها . فهي عربية لاستعمال العرب لها قبل الإسلام .

هذه الألفاظ في جملتها تتصل بالماديات وليس بالمعنويات .

ونأخذ على سبيل المثال لا الحصر(١) أباريق ، حكى الثعالبي في فقه اللغة انها فارسية .

والأرائك ، حكى ابن الجوزي في فنون الأفنان أنها السرر بالحبشية .

وإستبرق ، أخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك أنه الديباج الغليظ ، بلغة العجم .

وسندس ، قال الجواليقي هو رقيق الديباج ، بالفارسية .

وأكواب ، حكى ابن الجوزي أنها الأكواز بالنبطية ، وأخرج ابن جرير عن الضحاك أنها بالنبطية ، وأنها جرار ليست لها عرى .

والجبت ، أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : الجبت اسم الشيطان بالحبشية .

وجهنم ، قيل عجمية . وقيل فارسية ، وقيل عبرانية .

ودينار ، ذكر الجواليقي وغيره أنه فارسي .

والرقيم ، قيل إنه اللوح بالرومية .

وقال أبو القاسم هو الكتاب بها ، وقال الواسطي هو الدواة بها .

وزنجبيل ، ذكر الجواليقي والثعالبي أنه فارسي .

والسجل ، أخرج ابن مردويه من طريق أبي الجوزاء عن ابن عباس قال : السجل بلغة الحبشة الرجل . وفي المحتسب لابن جني : السجل : الكتاب قال قوم هو فارسي معرب .

---

١ ـ هذه الأمثلة كلها مأخوذة من الاتقان ١/١٣٨ ، ١٣٩

وسجيل : أخرج الفريابي عن مجاهد قال : سجيل بالفارسية ، أولها حجارة وآخرها طين .

وسجين : ذكر أبو حاتم في كتاب الزينة أنه غير عربي .

وسرادق ، قال الجيواليقي : فارسي معرب . وغير ذلك كثير .

ويبدو من هذه الأمثلة ، ما سبق أن أوضحنا من أن العرب إنما استعاروا من غيرهم في الغالب الألفاظ الدالة على الأشياء المحسوسة وليس الألفاظ الدالة على المعنويات .

وقد جاء في الإتقان(١) « قال الواسطي في قوله تعالى: « وألفيا سيدها لدى الباب » أي زوجها ، بلسان القبط . قال أبو عمرو : لا أعرفها في لغة العرب » .

والمراد بطبيعة الحال أن القرآن الكريم يعبر بالطريقة التي اعتاد المصريون زمن يوسف عليه السلام أن يعبروا بها عن الزوج ، وهذا من مظاهر إعجازه ، ويقاس على ذلك إطلاقهم آنذاك لقب العزيز على من يتقلد منصب رئيس الوزراء في عصرنا . وإن كلاً من لفظة السيد والعزيز تدل على المنزلة التي للزوج بالنسبة للزوجة ، والعزيز بالنسبة للشعب .

فإذا اتضح هذا استطعنا أن نقول : إن لفظ السيد في سورة يوسف ترجمة للفظ ، أو نقل للمعنى الذي اعتاد المصريون إطلاقه على الزوج . وليس من المعرَّب ، بالمعنى المعروف مثلا للفظة ديباج أو سندس الفارسيتين ، لأن العرب كانوا يستعملون هذه اللفظة العربية الأصل(٢) .

وإن شيئاً كهذا يمكن أن يقال مثلا عن لفظ « لينة » في قوله تعالى(٣) « ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أُصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين » . فقد جاء في الإتقان (٤) « لينة ، في الإرشاد للواسطي ،

---

١ ـ ١٣٩/١ .

٢ ـ جاء فى البحر المحيط ١٤٨/٢ « وقال بعض أهل اللغة : السيد ، المالك الذى تجب طاعته . ولهذا قيل للزوج سيد » .

٣ ـ الحشر : ٥

٤ ـ ١٤/١

هي النخـلة . قال الـكلبي لا أعلمهـا إلا بلسـان يهود يثرب » .

فهذا اللفظ لا نستطيع أن نعتبره من المعرّب ، لأن يهود يثرب كانوا يتكلمون اللغة العربية بل وينظمون فيها أشعارهم . ولا يكاد المتأمل لشعرهم يفرّق بينه وبين شعر غيرهم من سكان الجزيرة العربية أو بيئة يثرب ذاتها .

فدلّ ذلك على أنّ مجيء هذا اللفظ في سورة الحشر ، قد رُوعي فيه استعمال القوم ، الذين انتقم الله منهم ، للفظ « لينة » العربي في الدلالة على النخلة فليس ذلك إذنْ من المعرب والله أعلم .

هذه الألفاظ الّتي عرّبها العرب ، من الأدلة على الصلات بينهم والأمم الّتي أخذت منها هذه الألفاظ .

وكي تكون هذه الألفاظ معروفة للعرب ويستعملوها استعمالهم لألفاظهم العربية ، فإن ذلك يحتاج لفترة من الزمن طويلة .

والحقيقة أن ما يقال عن الفترة الزمنية الّتي يحتاجها المعرب كي يستقر معناه ويستعمل فيه ، يقال عن اللهجة القرشية نفسها الّتي نزل فيها القرآن الكريم على النبي القرشي .

إن من أهم الأسباب الّتي جعلت العرب يصطلحون على اللهجة القرشية لغة أدبية لهم يخطبون فيها وينظمون الأشعار ، أن القرشيين ، بسبب منزلة مكة المكرمة الدينية في نفوس العرب قاطبة ، وبسبب وجود الأسواق العربيّة بالقرب منهم ، وكانت أسواقاً أدبية إضافة إلى كونها أسواقاً للبيع والشراء ، أتيح لهم ، وهم أهل الفصاحة وأرباب الأذواق المرهفة ، أن ينتقوا من ألفاظ العرب ما راقهم وأن يتجنبوا كل العيوب المبعثرة في كثير من القبائل العربية .

ومن هنا كانت اللهجة القرشية أنقى لهجات العرب ، وتسنى لهذه اللهجة أن تكون اللغة الأدبية لكل العرب ، باستثناء الذين فرضت عليهم بيئاتهم أن يتجهوا إلى ما وراء الجزيرة العربية ويختلطوا بغير العرب ، كحمير وسكان أقاصي اليمن .

وحينما تكون اللهجة القرشية هي لغة العرب الأدبية فمعنى هذا أنها أولى اللهجات بنزول القرآن الكريم فيها . وهذا ما حدث .

وقد جاءت فيه ألفاظ بغير لغة قريش ، عربية أو معربة . وإن هذه الألفاظ جميعها كانت معروفة للعرب . وقد يغيب عن ذهن الرّجل معنى لفظ واحد ، ولكنه لا يغيب عن أذهان الآخرين بحال .

ونستطيع أن نقول بهذا الصدد : إنه ليس هناك شيء في القرآن يغيب على كل العرب ، قياساً على القول : إنه ليس هناك شيء في اللغة العربية ، يغيب على كل العرب .

وواضح أن هذه الآية الكريمة في سورة يوسف « إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » تبين السبب الذي من أجله نزل القرآن الكريم على النبي العربي بلغة العرب ، وهو أن يعقله المخاطبون به أولا .

ومعروف أن بعض العرب عقلوه وبعضهم الآخر لم يعقله . ومن هنا جاء التعبير القرآني « لعلكم تعقلون » وقد جاء في الآيات التعقيبية في سورة يوسف ، ما يوافق هذا ، وذلك في قوله تعالى مثلا : « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » كما جاء على لسان يوسف عليه السلام ، خطاباً للفتيين في السجن « وما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون » .

وهذه الآية « إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » مرتبطة بالآية السابقة لها « تلك آيات الكتاب المبين » .

إن القرآن الكريم مبين لأنه نزل بلسان عربي يفهمه العرب الذين بعث فيهم النبي صلى الله عليه وسلم . وقد اقتضت حكمته تعالى ألا يبعث رسول إلا من أهل القرى . قال تعالى : « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى » .

ويقوم بعد ذلك أتباع الرّسول بحمل الرّسالة وتبليغ الأمانة . هذا ما حدث

بالنسبة لعرب الجزيرة العربية وهذا ما قام به المسلمون بعد ذلك . قال تعالى(١) « وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » . وقال تعالى (٢) « ولتكن منكم أُمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأُولئك هم المفلحون » .

وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبته في حجة الوداع أن يبلغ الشاهد الغائب ، فرب مبلغ أوعى من سامع (٣) .

وفهم من كل ذلك أن على المسلم أن يقوم جهد الطاقة بالإبلاغ ، فكلُّ المسلمين دعاة إلى دين الله تعالى الذي ارتضى لعباده .

وكان المسلمون يكونون جيشين ، عسكرياً وثقافياً . وبمجرد أن ينتهي الدور العسكري يبدأ الدور الثقافي الذي أثبت دائماً أنه أطول الجيشين عمراً .

إن مصير الجيوش العسكرية دائماً إلى الضعف فالتلاشي ، بعكس الجيش الثقافي ، الذي يكون أفراده بمرور الأيام هم أبناء ذلك البلد بعد أن تذوقوا حلاوة الإيمان وقدّروا التضحية العظيمة التي قام بها أولا أفراد الجيش العسكري الذين يمكن أن يقال عنهم : إنهم رهبان بالليل فرسان بالنهار .

ولا يخفى أن لغة هذه الثقافة هي اللغة العربية لغة القرآن الكريم . وهذا هو السبب الأول في جعل اللغة العربية التي كانت قبل الإسلام محصورة في الجزيرة العربية ، قادرة على القيام لأول مرة في التاريخ ، وبنجاح منقطع النظير بالدور العالمي .

فكان المسلم الذي يسير في الدولة الإسلامية الممتدة من الصين شرقاً حتّى فرنسا غرباً ، لا يكاد يحتاج إلى غير اللغة العربية .

وقد أسهم المسلمون جميعاً في بناء هذه الحضارة العريقة ، فقد كان

---

١ ــ التوبة ، ١٢٢ .
٢ ــ آل عمران ، ١٠٤
٣ ــ طبقات ابن سعد ١٨٦/٢

الذي يريد الخلود لكتابه ، يعمد إلى كتابته في لغة الكتاب العزيز الذي تعهد رب العزة بحمايته وحفظه . قال تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » . وبذلك ضمن للغة العربية الخلود إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

فإذا انتقلنا إلى عصرنا الحاضر استطعنا أن نقول : إنّ يوم اللغة العربية خير من أمسها القريب ، وإن غدها بإذنه تعالى خير من يوميها السابقين .

وإن واجبنا نحن المسلمين أن نتكاتف في سبيل رفع راية لغة الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأن نعلم يقيناً ، أن اللغة التي استطاعت في الماضي في ظل تلك الوسائل الصعبة ، والمواصلات البطيئة ، أن تلعب الدور العالمي بنجاح منقطع النظير ، قادرة على القيام بالدور نفسه بإذنه تعالى في ظل الوسائل السهلة والمواصلات السريعة ، إذا أحسن الانتفاع بكل ذلك .

ولا نستطيع أن نترك هذه المسألة دون الإشارة إلى الهجوم المنظم المركز ، الذي يشنه الحاقدون على لغة الكتاب العزيز والحديث الشريف ، إلى اللغة الفصحى التي يستطيع كل العرب من الشرق والغرب أن يفهموا المتكلم فيها ، بعكس اللهجات المحلية التي يقتصر فهمها على بقعة معينة .

وينبغي أن نستفيد من الأخطاء التي وقع فيها الآخرون والتي يريد لنا الأعداء أن نقع فيها .

فقد كانت هناك لغة تدعى باللاتينية ينطق بها ويكتب كثير من الشعوب الأوربية . وبسبب التعصب للهجات المحلية تفرّعت من تلك اللغة الأم لغات ، فأصبح هؤلاء بمرور الزمن لا يفهمون أولئك وهكذا ، ونتذكر بهذه المناسبة قوله تعالى « فاعتبروا يا أُولي الأبصار »(١) فعلى المسلمين جميعاً أن يعضوا على لغة القرآن الكريم والحديث الشريف بالنواجذ .

---

١ ـ الحشر ، ٢

ولا نستطيع بهذه المناسبة أيضاً أن نغفل الحرب الضروس التي يوجّهها أعداء الإسلام إلى الخط العربي الإسلامي ، الخط الذي كتب فيه مصحف عثمان بن عفان رضى الله عنه .

إن الأعداء ليشنون حرباً ضروساً على الخط العربي الإسلامي بقصد عزل الشعوب الإسلامية عن حضارتها التليدة وماضيها المجيد . ويؤسفني أن أقرّر بأنهم نجحوا في ذلك بالنسبة لبعض البلاد الإسلامية .

فقد استطاعوا بشأن الشعب التركي المسلم مثلا ، عن طريق تحويله في الكتابة إلى الحروف اللاتينية بدلا من الحروف العربية الإسلامية التي كتب فيها مصحف عثمان بن عفان ، أن يضعوا حاجزاً منيعاً يحول بين هذا الشعب المسلم وبين ماضيه المجيد ، وأن يقطعوا كل صلة بينه وبين تراثه الإسلامي العريق .

وما زالت هذه الحرب الضروس على أشدها وتستهدف العالم العربي فيما تستهدف ولا تخفى خطورة هذه الحرب فقصد الأعداء أولا وأخيراً قطع كل صلة بيننا نحن المسلمين وبين كتاب ربنا وسنة نبينا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم . نسأله تعالى العون والتوفيق ، والهداية إلى الصراط المستقيم « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » (١) صدق الله العظيم .

٢ ـ أحسن القصص

يشكل القصص جزءاً كبيراً من القرآن الكريم ، وليس المراد من القصص في القرآن الإمتاع مجرداً ، ولكن لإلقاء الدروس النافعة كذلك ، التي تكفل لمن وعاها وعمل بمقتضاها الاهتداء إلى صراط العزيز الحميد .

وبما أن سورة يوسف في مجموعها من هذا النوع القصصي ، وبما أننا بصدد استخلاص الدروس المستفادة من هذه السورة ، فكأننا بهذا العمل

---

١ ـ التوبة ، ١٠٥

نبين الأسباب التي كان القصص القرآني من أجلها أحسن القصص . وهذا في الحقيقة عين المراد ، قال تعالى : « لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب » .

وواضح أن نقطة الانطلاق في قصة يوسف عليه السلام ، عدم ودّ الإخوة له ولشقيقه ، قال تعالى : « لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين » .

وفي هذا القصص آيات على أن هذا القرآن من عند الله ، وأن محمد ابن عبد الله رسول الله ، وإلا كيف يأتي بهذا القصص على تلك الصورة الرفيعة من الصحة والدقة والإعجاز وهو النبي الأميّ الذي لا يقرأ ولا يكتب ولم يكن يجالس أهل الكتاب .

لقد استوى حاله صلى الله عليه وسلم بشأن هذا الكتاب بحال العرب الأميين الذين بعث فيهم . إنه عليه السلام إنما عرفه ابتداء عن طريق الوحي ، وعنه صلى الله عليه وسلم عرفه العرب ، قال تعالى : « وإن كنت من قبله لمن الغافلين » .

٣ ـ بما أوحينا اليك هذا القرآن

للوحي في اللغة الكثير من الصور ، ولعلها تدور في مجموعها حول الإعلام بالمراد على وجه السرعة ، سواء تم ذلك باللسان أو بسواه ، كأن يكون بالإشارة مثلا أو الوهم وهكذا .

أما فيما يتصل بالمعنى الشرعي للوحي ، فإن القرآن الكريم نزل في صورة واحدة ، هي أسمى درجات الوحي قاطبة ، التي ارتضى رب العزة لأشرب كتبه أن ينزل بها على خير رسله ، وذلك عن طريق جبريل الروح الأمين ، قال تعالى(١) « وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربي مبين » وقال تعالى(٢) : « وكذلك

---

١ ـ الشعراء ١٩٢ ـ ١٩٥

٢ ـ الشورى ، ٥٢،٥٣

أوحينا إليك روحاً من أمرنا ، ما كنت تدري ما الكتابُ ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض . ألا إلى الله تصير الأمور » .

٤ ـ الرؤيا الصادقة

الرؤيا الصادقة ، كما جاء في الحديث ، جزء من أربعين أو ستة وأربعين جزءاً من النبوة .

وفي سورة يوسف تطالعنا رؤيا كلٍّ من يوسف عليه السلام والساقي والخباز والملك .

وإن المتأمل لهذه الرؤى يتبين له أن رؤيا يوسف عليه السلام ، تنفرد باتجاهها إلى أعلى ، إلى السماء . وهي ولا شك تعكس صفاء نفسه عليه السلام وقد اتجه صعداً حتى وصل إلى درجة النبوة التي اصطفاه الله تعالى بها .

ومما يدل على هذا الصفاء النفسي ما روي عن السيدة عائشة رضي الله عنها من أنه أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح (١) .

٥ ـ إخلاص النصيحة

يعقوب عليه السلام وقد ثبت له أن أبناءه لا يحبون الشقيقين ، يوسف وبنيامين ، ينهى ابنه نهياً صريحاً عن قص رؤياه على إخوته خوف أن يكيدوا له كيداً بإغراء من الشيطان الرجيم .

وإنه عليه السلام ليقوم هنا بدور الناصح الأمين ، بالإضافة إلى أنه يقوم بدور الأب المثالي ، إنه عادل كلَّ العدْل فيما يتصل بتوزيعه ما يملك على أبنائه بالسوية ، ولكن الذي لا يملكه ، وهو حبه للشقيقين حباً فائقاً ، فهذا قدر من الرحمن عليه ، لا يد له فيه ولا طاقة له على دفعه .

---

١ ـ صحيح البخارى ١/٥

وليس معنى هذا أن يعقوب لا يحب الأبناء الباقين ، لا فقد كان يحبهم حباً جماً . أليس هو الذي طلب منهم أن يدخلوا إلى مدينة مصر من أبواب مختلفة خوف العين لا من باب واحد ؟

ولكن الشيطان الرجيم أظهر هذا الحب للإخوة على غير وجهه . فإن صغار الأبناء أكثر حاجة إلى الحب من سواهم . خاصة حينما يكون الأبوان متقدمين في السن . وخاصة حينما يلوح لهما أو لأحدهما أن هذا الصغير أو ذاك له من المنزلة الدينية والدنيوية ما ليس لإخوته ، وهذا يقودنا إلى الحديث في المسألة التالية مسألة :

٦ ـ الحسـد

كان يعقوب عليه السلام يخشى على يوسف من حسد إخوته له لو عرفوا بحقيقة رؤياه ، ومع ذلك فقد قوّى لهم الشيطان الرّجيم ظنهم الآثم ، وزيّن لهم سوء عملهم .

وقد جاءت في هذه السورة إشارة أخرى إلى الحسد حينما طلب يعقوب من أبنائه دخول مدينة مصر من أبوابٍ متفرقة كما سبق أن أشرنا .

وقد أثنى القرآن الكريم على يعقوب عليه السلام للعمل بالذي علم حينما طلب من أبنائه ذلك ، قال تعالى: « ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها ، وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

وإنه عليه السلام ليلقي علينا نحن المسلمين درساً في وجوب توقي العين فإنها حق كما جاء في الحديث النبويّ الشريف . وكثير هي الإشارات في القرآن الكريم والحديث النبويّ الشريف والأنباء المتواترة إلى هذه الحقيقة .

وربما كان من أسباب تعميق الهوّة بين أبناء يعقوب عليه السلام هو أنهم ليسوا من أمّ واحدة . ولكن الدّور الأكبر في هذا السوء للشيطان الرجيم ، العدو اللدود الحسود للإنسان الذي أراد تعالى له أن يكون خليفته في أرضه .

وقد جاءت في سورة يوسف ثلاث إشارات إليه عليه لعنة الله .

الأولى في قوله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام: « قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا ، إن الشيطان للإنسان عدوٌّ مبين » .

والثانية في قوله تعالى عن يوسف عليه السلام : « وقال للذي ظنَّ أنه ناجٍ منهما اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين » .

والثالثة في قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام كذلك : « ورفع أبويه على العرش وخرّوا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي » .

٧ ـ أب مثالي

يعقوب نبي الله ، يمثل لنا الأب المثالي في هذه السورة إنه ليمثل الأب البارّ بأبنائه جميعاً في نهيه لابنه يوسف أن يقص رؤياه على إخوته .

لقد آلمه عليه السلام عدم ردّ الإخوة للشقيقين ، وكان حريصاً على لمّ الشمل ورأب الصدع . ولو قصَّ يوسف رؤياه فلربما دفع ذلك الإخوة إلى ما لا تحمد عقباه .

وثبت أن تحذير يعقوب لابنه يوسف في موضعه ، فمع أنه لم يقص على إخوته رؤياه إلا أنهم قرروا التخلص منه بوضعه في غيابة الجبّ كي يلتقطه بعض السيارة .

وإذا كان الإخوة قد أقدموا على ذلك بحجة أن يعقوب يحب الشقيقين أكثر من حبه لهم ، فإن الإخوة ملومون في هذا الفهم وفي التخلص من يوسف اللوم كله . لأنهم وهم الذين يكبرون جميعاً الشقيقين سناً ، كان عليهم أن يفهموا الأمر على حقيقته وهو أنه عليه السلام لا يد له في ذلك ،

وإنما هو شيء وضعه الله تعالى في قلبه لهما . وفوق ذلك هو عادل في توزيع ما يملك على أبنائه بالتساوي .

والحقيقة أن نهي يعقوب ليوسف عن قص رؤياه على إخوته ، مظهر من مظاهر تألم يعقوب عليه السلام لعدم الوفاق بين كل أبنائه .

وليس هناك شيء يسوء الآباء ، وفي مقدمتهم نبي الله يعقوب الذي لا نكاد نعرف أباً نظيراً له في حب أبنائه ، كما يسوؤه عدم الوفاق بين الأبناء . وقد كان حريصاً الحرص كله على إعادة الوئام بينهم .

ويعقوب عليه السلام يمثل لنا الرجل الذي يوافق قوله ما في قلبه تمام الموافقة .

إن الإخوة حينما يطلبون منه أن يأخذوا يوسف في اليوم التالي كي يرتع ويلعب ، ويجيء على لسانه بصريح العبارة قوله تعالى : « إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون » .

إنه عليه السلام ليحزنه أن يغيب يوسف عنه سحابة يوم واحد . ويظهر حبه ليوسف في هذه الصورة القوية من التعبير ، وهذا الحب نفسه هو الذي يشكو منه الإخوة .

ثم إنه يخاف عليه الذئاب المنتشرة في تلك الأصقاع ، فلربما استبق الإخوة وتركوا يوسف لعدم قدرته مجاراتهم فخلا الذئب به أو مجموعة من الذئاب فأكلوه . وهذا جائز عقلا ، وهو ما تذرع به الإخوة مستقبلا .

وإن يعقوب عليه السلام ، الأب المثالي ، قد ضرب المثل الأعلى في الصبر الجميل . إنه لأسوة حسنة لكل مسلم لله رب العالمين في هذا المجال . فعلى الرغم من أن هذا الأب الطيب القلب ، الذي صدق الوعود المعسولة للإخوة يجيء إليه هؤلاء بالنبأ الجلل ، فإنه وقد كان على يقين من أن كل ما يجري في الوجود بقضاء الله وقدره ، لا يزيد ما يجيء على لسانه عن هذا القول : « بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » .

وإن هذا الرجل الطيب القلب الكامل الإيمان ، حينما جاءه الأبناء من الرحلة الأولى إلى مصر ، وطلبوا منه أن يسمح لهم بأخذ الشقيق معهم إن أرادوا من العزيز طعاماً مرة ثانية ، ليذكرّ هؤلاء الأبناء بما سبق أن قاموا به تجاه يوسف . ولكنه وهو الواثق بالله يسمح لهم بأخذ الشقيق معهم بعد أن يأخذ منهم موثقاً من الله ليأتنه به إلا أن يحاط بهم .

وفي الوقت الذي يأخذ منهم الموثق يصرح بأن ذلك ليس معناه دفع القدر لكن الحذر . إنه عليه السلام بأخذه الموثق من أبنائه من أجل السماح لهم بأخذ أحب أبنائه إليه بعد يوسف ، الذي أخذوه ولم يعودوا به ، ليعتبر مثالا للمؤمن الذي إذا عزم توكل على الله . وفي الوقت نفسه لا يريد أن يُلدغ من الجحر الواحد مرتين .

ومن مقاييس إيمان هذا الرجل الطيب القلب هذا الموثق الذي أخذه من أبنائه فلولا إيمانه الكامل بأن ما أصابه لم يكن ليخطئه ولولا توكله على الله لما أذن لأبنائه بهذه البساطة بعد أخذ الموثق بأخذ الشقيق ، بينما الطعام الذي جاء به الإخوة من مصر لما يمس بعد .

لو أننا بصدد رجل غير يعقوب عليه السلام ، من البشر العاديين لتمسك بعدم أخذ الأبناء الشقيق حتى ينفد الطعام أو يكاد ، ويجد نفسه مضطراً للسماح بأخذ الشقيق وإلا فإن عض المجاعة رهيب لا يطاق . « ومن يتوكل على الله فهو حسبه »(١)« وعلى الله فليتوكل المتوكلون »(٢)« وعلى الله فليتوكل المؤمنون »(٣) « فإذا عزمت فتوكل على الله »(٤) .

إنه عليه السلام بأخذ الموثق من أبنائه ليلقي علينا نحن المسلمين درساً في الطريقة التي يمكن أن يتم التعامل بها مع الذين قد يخشى كيدهم ، كما يعطينا المثال كاملا على ازدياد الإيمان عمقاً والثقة في الله قوة مع مرور الأيام .

---

١ ـ الطلاق ، ٣
٢ ـ ابراهيم ، ١٢
٣ ـ ابراهيم ، ١١
٤ ـ آل عمران ، ١٥٩

فكلما ازداد اختبار الله تعالى له بالابتلاء ، ازداد إيمانه بربه عمقاً وثقته فيه قوة .

حينما غاب عنه يوسف عليه السلام ، كان عنده الأمل في الله كبيراً أن يمن عليه يوماً فيلقاه .

وحينما غاب الشقيق ومعه كبير الإخوة وابيضت عينا يعقوب من الحزن كان إيمانه في ربه وقتها أكثر قوة ، وثقته في أن يأتيه الله تعالى بهم جميعاً أكبر من أي وقت مضى .

وكان تعالى عند حسن ظن عبده المبتلى يعقوب به فردّ عليه الإبصار . ومَنّ عليه بجمع الشمل بعد أن ظن كثير من آل يعقوب كل الظن ألا تلاقيا ، وتفضل عليه وعلى آله بنقلهم إلى مصر حيث الخصب والخير الوفير .

وكان كلُّ ذلك في الدنيا جزاء إيمانه ، « ولأجر الآخرة خيرٌ للذين آمنوا وكانوا يتقون » .

٨ ـ والله غالب على أمـره

هذه جزئية تعقيبية من اثنتين في قوله تعالى : « والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » تعقيباً على تمكين الله تعالى ليوسف في بيت العزيز ، تمهيداً للتمكين له في أرض مصر الذي قضت به إرادته خلافاً لإرادة الإخوة.

وهي وإن كانت قد جاءت في أمر خاص ، إلا أنها في حقيقتها عامة تشمل كلّ أمر .

ونودّ أن نقف أولا عند لفظ الأمر من قوله تعالى : « والله غالب على أمره » .

إنّ اللفظ ليس الإرادة مثلا أو الرغبة أو ما شاكل ذلك ، ولكنه الأمر. إنه تعالى إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون ، وهل يمكن للإرادة الضعيفة للإخوة الضعفاء أن يفعلوا شيئاً بأخيهم الصغير يوسف لم يرده الله تعالى له ؟

لا ، بطبيعة الحال .

وتأمل اللفظ « غالب » ذا الدلالة القوية « على » الغلبة القوية للواحد القهار .

فكيف إذا أضفنا إلى أمر الله النافذ الغلبة القاهرة ؟

وكيف بنا إذا أضفنا إلى كل ذلك حرف الجر « على » الدال على العلو اللائق بجلال الواحد القهار ؟

لا شك أننا ننتهي من كل ذلك إلى أن هذه الجزئية « والله غالب على أمره » تشير إلى قدرة الله تعالى المهيمنة على كل الأمور ، المسيرة لكل هذا الوجود .

فإذا انتقلنا إلى الجزئية الثانية المرتبطة بها « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » أدركنا رحمة الله تعالى الحقيقية بكل عباده ، إذ يمهل ولا يهمل ويمدُّ الطغاة في طغيانهم يعمهون ، وينفذ تعالى أمره أخيراً ، وهو القاهر فوق عباده القادر على تنفيذ أمره ابتداء جل وعلا .

وإن تأمل جزئيّي التعقيب معاً لا يدل فقط على رحمة البر الرحيم بعباده ، ولكنه يدل كذلك على غفلة كثير من عباده تعالى ، لأن القليلين فقط هم الذين يعرفون هذه الحقائق . أما الكثرة الفائقة من العباد ، وفيهم إخوة يوسف لأبيه ، فإنهم يجهلون هذه الحقائق جهلا تاماً .

وفي بعض الأحايين يستطيع عباد الله أن يفهموا بعد فترة من الزمن تطول أو تقصر ، هذه الحقائق ، ومنهم إخوة يوسف الذين بعد أن نبأهم يوسف بأمرهم جاء على لسانهم قوله تعالى : « تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين » .

٩ ـ الاختلاط بين الجنسين

من أهم الأسباب التي جعلت امرأة العزيز أولا والنسوة ثانياً ، يعتقدن أن بالإمكان أن ينلن من يوسف ما يردْن ، الاختلاط بين الجنسين وعدم صيانة الأعراض في ذلك المجتمع غير صحيح العقيدة .

وقد عاني يوسف عليه السلام ، الشاب الصالح من جراء ذلك عناء شديداً . ومعروف أن الإسلام عالج هذه الظاهرة علاجاً ممتازاً حكيماً ونكتفي في هذا الصدد بتلاوة بعض آيات الذكر الحكيم . قال تعالى: (١) « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون ، فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ، وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم ، والله بما تعملون عليم ، ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم ، والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ، قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم ، إن الله خبير بما يصنعون ، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ، وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » .

وقال تعالى (٢) « يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات ، من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ، ثلاث عورات لكم ، ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن ، طوافون عليكم بعضكم على بعض ، كذلك يبين الله لكم الآيات ، والله عليم حكيم . وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم ، كذلك يبين الله لكم آياته ، والله عليم حكيم . والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً فليس عليهن

---

١ ـ النور ، ٢٧ـ٣١

٢ ـ النور ، ٥٨ـ٦٠

جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة ، وأن يستعففن خير لهن ، والله سميع عليم » .

وقال تعالى (١) « يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفاً ، وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ، وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله ، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرّجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ، واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة ، إن الله كان لطيفاً خبيراً » .

وقال تعالى(٢) : « يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين . وكان الله غفوراً رحيما » .

وينبغي أن نشير إلى أن ما قام به النسوة تجاه يوسف مظهر من مظاهر الفساد العام في ذلك المجتمع غير صحيح العقيدة فنحن مثلا لا نرى العزيز وقد ثبتت له براءة الفتى يفكر في مجرد التفريق في المنزل بين الفتى وزوجه .

ولا نجد الشاهد الذي قضى ببراءة يوسف قادراً على غير وضع نهاية للمسألة عند ذلك الحدّ لأن امرأة العزيز هي المتهمة وليس لأن يوسف بريء .

ويقرر ذلك المجتمع فاسد العقيدة سجن الفتى البرىء ظلماً وينسى في السجن ، وهكذا .

إن السبب في كلّ ذلك التخبط والحيرة هو أنه ليس هناك الشريعة السماوية التي تهدي القوم إلى طريق الحق .

وإذا كان النسوة قد أخطأن الطريق القويم أول الأمر ، فإن نهايتهن جميعاً سعيدة .

ولا شك أن وجود يوسف بالذات في بيت العزيز امتحان من الله تعالى

---

١ ـ الأحزاب ، ٣٢ـ٣٤

٢ ـ الأحزاب ، ٥٩

ورحمة فإن كلّ ما قام به النسوة هو في حدود المحاولات التي باءت كلها بالفشل الذريع لأن يوسف من عباد الله المخلصين . وهذه هي رحمة الله عينها .

وبهذه المناسبة نودّ أن نشير إلى عددٍ من نسوة ذلك المجتمع نفسه في عصر لاحق ، لهن أطيب الأثر .

ونكتفي بثلاث النسوة من الأربع اللاتي لهنّ دور فعال في حياة موسى عليه السلام .

إنهنّ والدته وأخته وزوج فرعون الطاغية التي كانت سبباً في نجاته عليه السلام . وقد ضرب الله تعالى بها وبمريم ابنة عمران المثل للمرأة المؤمنة ، قال تعالى : « وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين ، ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدّقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين » (١) .

١٠ ـ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب .

هذا الدرس يلقيه علينا يوسف الشاب الصالح المرشح للنبوة الذي أنقذه الله تعالى من غيابة الجب ومكن له في بيت عزيز مصر أولا وفي أرض مصر ثانياً .

لقد كان عليه السلام في عنفوان شبابه مثالا في الصبر والتقوى وآتاه الله تعالى جزاء إحسانه حكماً وعلماً . قال تعالى: « ولما بلغ أشدّه آتيناه حكماً وعلماً ، وكذلك نجزي المحسنين » .

وحينما راودته امرأة العزيز أراه الله تعالى برهانه : «كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين » .

---

١ ـ التحريم ، ١١ ، ١٢

وقبل اتهام امرأة العزيز له أمام زوجها قدر الله تعالى أن تقد قميصه من دبر ، وقيض له الشاهد الذي قضى ببراءته .

وحينما خيرته المرأة بين الأمرين المرّين جاء عنه قوله تعالى: « قال ربِّ السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصبُ إليهنّ وأكن من الجاهلين ، فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن ، إنه هو السميع العليم » .

وحينما دخل السجن قدر الله تعالى إخراجه منه بإدخال فتيين ، أحدهما وهو الساقي السبب في خروجه إذ عبر له يوسف رؤيا الملك . فقد كان بمن الله وفضله أعبر الناس للرُّؤيا .

وجاء تعقيباً على تمكين الله تعالى له في أرض مصر قوله تعالى: « وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ، ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون » .

وكان تعالى معه دائماً فقد وفق في عمله أيما توفيق ، وكان يتصرف مع إخوته بإلهام منه تعالى بدليل قوله تعالى: « كذلك كدنا ليوسف ، ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله ، نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم » .

وبعد انتهاء قصة يوسف جاء تعقيباً عليها قوله تعالى: « ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون » ولكن الله تعالى غالب على أمره فأراد الخير كلّ الخير لعبده يوسف الذي كان تعالى معه دائماً .

وهذا دليل من أقوى الأدلة على أنه تعالى لا يتخلى مطلقاً عن عباده الصالحين « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكلْ على الله فهو حَسْبه ، إن الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شيء قدراً » (١) .

---

١ ــ الطلاق ، ٢ ، ٣

١١ ـ الوفاء والأمانة

يضرب يوسف عليه السلام المثل الأعلى في الوفاء والأمانة .

إنه ليذكر جيداً إكرام العزيز الفائق له .

وكان دائماً يقابل الإحسان بالإحسان ، ليس مع امرأة العزيز فقط ، وإنما مع كلّ النسوة ، قال تعالى عنه : « قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي ، إنه لا يُفْلح الظالمون » .

وبعد ثبوت براءته يجيء عنه قوله تعالى: « ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ، وما أبريء نفسي ، إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي ، إن ربي غفور رحيم » .

وقد كافأه الله تعالى جزاء أمانته وإحسانه فقد جاء على لسان الملك خطاباً له « إنك اليوم لدينا مكين أمين » .

كان عليه الصلاة والسلام أميناً للبلاد على خزائنها ساهراً على مصلحتها وفياً لرأس البلاد ؛ إذ كان يتصرّف دائماً في حدود المنصب الذي تقلده .

وكانت امرأة العزيز وجماعة من النسوة حريصات على الخيانة ، واعترفن بهذه الحقيقة أمام الملك وببراءته عليه السلام . قال تعالى: « قال ما خطبكنّ إذ راودتنّ يوسف عن نفسه ، قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء ، قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحقّ ، أنا راوته عن نفسه وإنه لمن الصادقين » .

وهكذا كانت للخيانة وللباطل جولة ، لكن النصر في النهاية تحقق للأمانة وللحقّ .

١٢ ـ تضحية في سبيل الرسالة بكل غال

صاحب هذه التضحية يوسف عليه السلام الذي أحسّت نفسه الكبيرة بين جنبيه بأن لها دوراً عظيماً في هذه الحياة ستضطلع به لا سيما وقد تبين أن رحمة الله تعالى به قد شاءت ألا يجعله إخوته في غيابة الجبّ إلا بعد أن تشربت عروقه وارتوتْ روحه من التعاليم الإسلامية عن طريق والده نبي الله يعقوب

وفجأة وجد الغلامُ الصغير نفسه في مجتمع أقلّ ما يقال فيه إنه غير صحيحالعقيدة ، إنّه عليه السلام بعد أن بلغ مبلغ الرجال وتعمق في نفسه الشعور بذلك الدّور العظيم الذي عليه أن يقوم به ، لم يكن ليخطر بباله إلا أن يجاهد في سبيل الله حتّى يقضي الله أمراً كان مفعولاً .

وسارت الرياح أول الأمر بغير ما اشتهت سفنه فوجد نفسه في السجن مظلوماً .

واستمر يدعو إلى دين الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة .

فكان القدوة الحسنة لكلّ ذي بصيرةٍ نيرة .

وكان خير سفير للإسلام في كلّ مكان حلّ فيه .

وهو في كلّ أقواله وأفعاله ، وحركاته وسكناته يُلقي علينا نحن المسلمين الدَّرْسَ تِلْوَ الدَّرْس .

إنه يحاول بكلّ الوسائل أن يكسب قلبي الفتيين في السجن ، فأخبرهما عن العلم اللدني الذي خصه الله تعالى به ، وأظهر لهما بالفعل شيئاً مما علمه الله. وتدرج معهما بحديثه العذب الساحر حتّى دعاهما صراحة إلى دين الله تعالى ونبذ عبادة الأرباب المتفرقين . ثم عبر لكلٍّ رؤياه .

وفي سبيل نجاح دعوته ، وهو الذي نبئ في السجن ، لم يبخل بتعبير رؤيا الملك للساقي ، وأظهر ما علمه الله تعالى عن العام الخامس عشر بعد أن أخلص النصيحة للقوم .

وحينما دعاه الملك كي يستخلصه لنفسه بعد ثبوت براءته رشح يوسف نفسه لأخطر المناصب على الإطلاق . ولم يخطر بباله أن يعود إلى أهله وأبيه . وقد واتته خير فرصة . إن ذلك لم يكن ليخطر مطلقاً له على بال .

وقد جمع عليه الصلاة والسلام أحسن ما يكون الجمع بين العمل للرسالة التي اؤتمن عليها والعمل لما فيه مصلحة الجماعة .

وبذلك ألقى علينا يوسف عليه السلام درساً عظيماً مفاده أن صلاح

الدنيا من صلاح الدين ، وأن على المسلم أن يكون قويّاً دائماً وأن يستفيد من تلك القوة في سبيل إعزاز الدين الذي ارتضاه الله تعالى لعباده .

١٣ ـ الصراحة الكافية

لقد كان يوسف عليه السلام القمة في عظم الخلق حينما أشار إلى جماعة النسوة وليس إلى امرأة العزيز ، السبب الأول في دخوله السجن ونسيانه فيه ، حينما أصر على إثبات براءته قبل أن يغادر السجن .

قال تعالى على لسانه : « اذهب إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ، إن ربي بكيدهن عليم » .

وكان كلامه مع الفتيين في تعبير الرُّؤيا صريحاً الصراحة الضرورية « يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمراً ، وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه ، قضى الأمر الذي فيه تستفتيان » .

وقد لجأ إلى هذا القدر من الصراحة ، لأن كل ما قاله سيكون محل اختبار الساقي الذي سينجو منهما .

ولا يخفى أن موافقة كل ما قاله يوسف للواقع سبب قوي في قول الساقي أمام الملك كما جاء في القرآن الكريم « أنا أُنبئكم بتأويله فأرسلون » .

ثم إن يوسف حريص على أن يلقى الخباز ربه مسلماً فبين له الحقيقة كي يأخذ حذره .

بينما كان عليه السلام صريحاً الصراحة الكاملة مع امرأة العزيز التي اتهمته أمام زوجها فجاء عنه قوله تعالى : « قال هي راودتني عن نفسي » لأن هذه المرأة اتهمته في خلقه .

وإن لسان حال يوسف عليه السلام يقول لنا : إن الفيصل في مقدار الصراحة يجب أن يكون المنفعة الدينية أولا وأخيراً وليست المنفعة الشخصية .

١٤ ـ غيبة وكيد عظيم

بما أن سورة يوسف عرضت في ذلك المجتمع المصري غير صحيح العقيدة لمجموعة من النسوة يجب أن يكنّ قد تفاعلن مع ذلك المجتمع ، لذلك وجدنا امرأة العزيز مثلا منساقة وراء الهوى هي وجماعة من النسوة .

وقد فتنت هذه الجماعة بالغيبة ،قال تعالى : « وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً ، إنا لنراها في ضلال مبين » .

وكان لهذه المرأة ولجماعة النسوة كيد وصف بعضه بأنه عظيم .

قال تعالى عن الشاهد : « فلما رأى قميصه قدّ من دبر قال إنه من كيدكنّ ، إنّ كيدكن عظيم » .

وقال تعالى عن يوسف عليه السلام : « قال رب السجن أحبُّ إليَّ مما يدعونني إليه ، وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهم وأكن من الجاهلين ، فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن ، إنه هو السميع العليم » .

وجاء عن يوسف أيضاً « وقال الملك ائتوني به ، فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ، إن ربي بكيدهن عليم » .

ولا يخفى أننا نتعامل مع فئة معينة من النسوة عشن في مجتمع غير صحيح العقيدة . وإلا فإن للمرأة المؤمنة تاريخاً مجيداً كما للرّجل .

ومعروف الموقف العظيم للإسلام في النهي عن الغيبة . قال تعالى مثلا في سورة الحجرات(١) : « يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ، إن بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ، واتقوا الله إن الله تواب رحيم » .

---

١ ـ آية ، ١٢

١٥ ـ الجهـــر بالحـــق

إن يوسف عليه السلام ضرب المثل الأعلى في الجهر بالحق وقد بينا ذلك أثناء حديثنا عن الصراحة الكافية والتضحية في سبيل الرسالة بكل شيء .

ونجد الجهر بالحق واضحاً كذلك عند شخصيتين من شخصيات المجتمع المصري :

الشاهد الذي جاء عنه قوله تعالى : « فلما رأى قميصه قُدَّ من دُبر قال إنه من كيدكن ، إن كيدكن عظيم ، يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين » .

والشخصية الثانية شخصية الملك الذي خاطب النسوة بحقيقة موقفهن ، قال تعالى : « قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ، قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء ، قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين » .

١٦ ـ مظلـوم في السـجن

حينما يقص علينا القرآن الكريم الظلم الذي تعرض له يوسف عليه السلام وقد زج به في السجن جزاء عفته وأمانته ، فإنه يتولد عندنا شعور بالبغض لكن أنواع الظلم ، بما في ذلك هذا النوع المعين من الظلم الذي تعرض له عليه السلام .

ويتكون عندنا إحساس بإمكان حدوث مثل هذا الظلم في أكثر من مكان وفي فترات مختلفة .

ونشعر في أعماقنا بضرورة الاهتمام ودراسة قضية كل سجين . ولعل وضع بعضهم يشبه وضعه عليه السلام .

لقد حاول عليه السلام في ذلك المجتمع غير صحيح العقيدة أن يرفع الظلم عن نفسه شأن كل مظلوم . فطلب من الساقي الذي نجا منهما أن يذكره عند سيده الملك « فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين » .

ونعتقد أنه عليه الصلاة والسلام حاول جاهداً بكل الوسائل الممكنة أن يرفع الظلم عن كاهله ، ولكن ذلك المجتمع فاسد في مجموعه . ولم يصغ إليه في السجن القريبون منه فضلا عن سواهم .

وإنا لنحس بشيء من مرارة ألم الظلم الذي عضه عليه الصلاة والسلام .

ونعتقد أنه عليه السلام بعد أن تداركه الله برحمته ، كان من الأسباب التي جعلته يؤثر البقاء في مصر نيته الطيبة في محاولة رفع كل أنواع الظلم في ذلك المجتمع ، في السجن وغيره . وبما أنه أصبح عزيز مصر ، والحاكم الثاني بعد ملك البلاد ، فإن يد الإصلاح يجب أن تكون قد وصلت إلى السجن.

وهذا درس بليغ نافع يلقيه علينا يوسف عليه السلام .

١٧ ـ إشادة بالعلم والعلماء

في سورة يوسف كثير من الإشارات إلى العلم والعلماء ، والإشادة بكل ذلك ، بطريق مباشر أو غير مباشر .

وسنكتفي بذكر الإشارات إلى هذه الظاهرة بهذه السورة :

قال تعالى عن يوسف عليه السلام : « ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين » .

وقال تعالى: « قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ، ذلكما مما علمني ربي ، إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون » .

وقال تعالى: « كذلك كدنا ليوسف، ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله ، نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم » .

وقال تعالى عن يعقوب عليه السلام: « قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون » .

وقال تعالى: « ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم

من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها ، وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

وقال تعالى: « قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون » .

وقال تعالى على لسان يوسف: « رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث » .

١٨ ـ رجل حصيف واع كريم الخلق

هذا الرّجل يمثله يوسف عليه السلام الذي عركته الحياة منذ نعومة أظفاره وصقلته التجارب فكان مثال العمل الدائب الجاد .

وقد نجح فترة إنزال العقاب النفسي ، المتعدد الصور بإخوته ، في إخفاء شخصيته ، فلم يفته مثلا وهو يفتش في رحال إخوته عن صواع الملك أن يبدأ بأوعية إخوته قبل شقيقه .

وكان عليه السلام حريصاً على حمل الإخوة على الندم على ما فرط منهم بحق أخيهم يوسف .

وحتّى الرحلة الثانية لما تصف نفوس الإخوة تجاه يوسف الذي ألقوه في غيابة الجب بدليل اتّهامه ، وكان غير مكلف ، بالسرقة قياساً على ما ثبت لهم من ظاهر سرقة الشقيق .

فرفض عليه السلام بحزم طلبهم أن يأخذ واحداً منهم بدلا من الشقيق ، وقد وفق في كلّ ذلك بعون من مولاه .

حتّى إذا جاءه الإخوة في الرّحلة الثالثة بنفوس وقلوب غير السابقة لم يتردّدْ عليه السلام في الكشف لهم عن حقيقة نفسه وترفع عن توجيه اللوم إليهم مجرداً عما سواه ، وعفا عنهم عفو القوى المقتدر الكريم الخلق .

١٩ ـ اليأس من روح الله والايمان لا يجتمعان

صاحب هذا الدّرس العظيم هو يعقوب نبيُّ الله الذي سما به إيمانه على كل ما صادفه من آلام .

وفي الوقت الذي تمكن فيه اليأس من العثور على يوسف في قلوب الآخرين كان أمله حياً نابضاً ، قال تعالى: « وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم ، قالوا تالله تفتؤ تذكر يوسف حتّى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين ، قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون ، يا بنيّ اذهبوا فتحسّسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله ، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » .

٢٠ ـ بـر الـوالدين

كلّ الأعمال التي قام بها يوسف عليه السلام كانت بإيحاء من مولاه عزّ وجل .

وحينما أُذن له في الكشف عن حقيقة نفسه ، كان تصرُّفه تصرّف الابن البار بأبويه ، فبعد أن عفا عن إخوته في أوجز عبارة انصرف بكله إلى والده .

قال تعالى : « اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً وأتوني بأهلكم أجمعين » .

وقال تعالى: « فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ، ورفع أبويه على العرش وخرّوا له سجّداً ، وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربي حقاً ، وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي ، إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم » .

٢١ ـ شكر لله وتواضع

بعد أن ثبتت براءة يوسف عليه السلام كان كلامه شكراً لله وتواضعاً .

قال تعالى عن لسانه : « ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ، وما أُبرِّيء نفسي ، إنّ النفس لأمارة بالسوء إلاّ ما رحم ربي ، إن ربي غفور رحيم » .

وقال تعالى على لسان يوسف أيضاً بعد أن جمع الله تعالى شمل آل يعقوب « ربّ قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض ، أنت ولي في الدنيا والآخرة ، توفّني مُسلماً وألحقني بالصالحين».

ولا يخفى أن القول على لسان يوسف : « ألا ترون أني أُوفي الكيل وأنا خير المنزلين » والقول : « لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما » ليس من قبيل تزكية النفس المنهى عنه ، إنما هو من قبيل شكر الله تعالى المنعم .

* * *

المعجم المفهرس

لألفاظ سورة يوسف عليه السلام

اللفظ	الآية	رقم الآية
أبيكم	ولما جهزهم بجهازهم قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم	٥٩
	ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق	٨١
أبينا	إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا	٨
أبيه	إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت	٤
أبيهم	فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل	٦٣
أبويك	كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق	٦
أبويه	فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه	٩٩
	ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً	١٠٠
آباؤكم	ما تعبدون من دونه إلا أسماءً سميتموها أنتم وآباؤكم	٤٠
آبائي	واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب	٣٨
لتأتنني	قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتنني	٦٦
تأتوني	فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون	٦٠
تأتيهم	أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله	١٠٧
	أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون	١٠٧
يأت	اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا	٩٣
يأتي	ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن	٤٨
	ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون	٤٩
يأتيكما	قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله	٣٧
	إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما	٣٧
يأتيني	عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم	٨٣
ائتوني	وقال الملك ائتوني به ، فلما جاءه الرسول قال ارجع	٥٠
	وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي	٥٤
	ولما جهزهم بجهازهم قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم	٥٩
	فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً وائتوني بأهلكم أجمعين	٩٣
آتت	وأعتدت لهن متكئاً وآتت كل واحدة منهن سكيناً	٣١
آتوه	فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل	٦٦
آتيتني	رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث	١٠١

اللفظ	الآية	رقم الآ[ية]
آتيناه	ولمّا بلغ أشدّه آتيناه حُكْماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين	٢٢
تؤتون	قال لن أرسله معكم حتّى تؤتون موثقاً من الله	٦٦
آثرك	قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنّا لخاطئين	٩١
أجر	نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين	٥٦
	ولأجر الآخرة خيرٌ للّذين آمنوا وكانوا يتّقون	٥٧
	إنّه من يتّق ويصبر فإنّ الله لا يضيع أجر المحسنين	٩٠
	وما تسألهم عليه من أجرٍ إن هو إلاّ ذكرٌ للعالمين	١٠٤
أحد	إنّي رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر	٤
أحدكما	يا صاحبي السجن أمّا أحدكما فيسقي ربّه خمراً	٤١
أحدنا	قالوا يا أيّها العزيز إنّ له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحَدَنا	٧٨
أحدهما	ودخل معه السّجن فتيان قال أحدهما إنّي أراني أعصر	٣٦
أخذ	قال كبيرهم ألم تعلموا أنّ أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله	٨٠
نأخذ	قال معاذ الله أن نأخذ إلاّ من وجدنا متاعنا عنده	٧٩
يأخذ	ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلاّ أن يشاء الله	٧٦
خذ	قالوا يا أيّها العزيز إنّ له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا	٧٨
نتّخذه	أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتّخذه ولداً	٢١
آخر	وقال الآخر إنّي أراني أحمل فوق رأسي خبزاً	٣٦
	وأمّا الآخر فيُصْلب فتأكل الطّير من رأسه	٤١
أُخَر	يأكُلُهنّ سبعٌ عجافٌ وسَبْع سنبلاتٍ خضرٍ وأُخر يابسات	٤٣
	يأكُلُهنّ سبعٌ عجاف وسبعِ سنبلاتٍ خضرٍ وأُخر يابسات	٤٦
الآخرة	إنّي تركت ملّة قومٍ لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون	٣٧
	ولأجر الآخرة خيرٌ للّذين آمنوا وكانوا يتّقون	٥٧
	فاطر السّماوات والأرض ، أنت وليّ في الدّنيا والآخرة	١٠١
الآخرة	ولدار الآخرة خيرٌ للّذين اتّقوا أفلا تعقلون	١٠٩
أخٍ	ولمّا جهّزهم بجهازهم قال ائتوني بأخٍ لكم من أبيكم	٥٩
	قالوا إن يسرق فقد سرق أخٌ له من قبل	٧٧
أخانا	يا أبانا مُنِع مِنّا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل	٦٣

اللـفظ	الآيـة	رقم الآية
أخانا	ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير	٦٥
أخاه	ولمّا دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه	٦٩
	ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلاّ أن يشاء الله	٧٦
أخوك	قال إنّي أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون	٦٩
أخوه	إذ قالوا ليوسُف وأخوه أحبّ إلى أبينا منّا	٨
أخي	قال أنا يوسف وهذا أخي قد منّ الله علينا	٩٠
أخيه	قال هل آمنكم عليه إلاّ كما أمنتكم على أخيه من قبل	٦٤
	فلمّا جهّزهم بجهازهم جعل السّقاية في رحل أخيه	٧٠
	فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه	٧٦
	ثمّ استخرجها من وعاء أخيه	٧٦
	يا بنيّ اذهبوا فتحسّسوا من يوسف وأخيه	٨٧
	قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون	٨٩
إخوة	وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم	٥٨
إخوتك	لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً	٥
إخوته	لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسّائلين	٧
إخوتي	من بعد أن نزغ الشّيطان بيني وبين إخوتي	١٠٠
يأذن	فلن أبرح الأرض حتّى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي	٨٠
أذّن	ثمّ أذّن مؤذّنٌ أيّتها العير إنّكم لسارقون	٧٠
مؤذّن	ثمّ أذّن مؤذّن أيّتها العير إنّكم لسارقون	٧٠
الأرض	فلن أبرح الأرض حتّى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي	٨٠
الأرض	وكذلك مكنّا ليوسف في الأرض	٢١
	قال اجعلني على خزائن الأرض إنّي حفيظٌ عليم	٥٥
	وكذلك مكنّا ليوسف في الأرض يتبوّأ منها حيث يشاء	٥٦
	قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنّا سارقين	٧٣
	فاطر السّماوات والأرض أنت وليي في الدّنيا والآخرة	١٠١
	وكأيّن من آيةٍ في السّماوات والأرض يمرّون عليها	١٠٥
	أفلم يسيروا في الأرض فينظروا	١٠٩

اللفظ	الآية	رقم الآية
أرضاً	اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم	٩
أسفي	وتولى عنهم وقال يا أسفي على يوسف	٨٤
أكله	قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذن لخاسرون	١٤
	إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب	١٧
تأكل	إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه	٣٦
	وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه	٤١
تأكلون	فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون	٤٧
يأكلن	ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن	٤٨
يأكله	وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون	١٣
يأكلهن	إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف	٤٣
	أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف	٤٦
ألر	ألر ، تلك آيات الكتاب المبين	١
اللاتي	ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن	٥٠
أليم	ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم	٢٥
الله	فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون	١٨
	قال يا بشرى هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون	١٩
	والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون	٢١
	يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد	٣٩
	إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان	٤٠
	فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين	٦٤
	فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل	٦٦
	ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله	٧٦
	قال أنتم شر مكاناً والله أعلم تصفون	٧٧
	فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي	٨٠
	فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً	٨٣
	قال أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا	٩٠
	قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين	٩١

اللفظ	الآية	رقم الآية
اللهُ	قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم	٩٢
	وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين	٩٩
اللهَ	ذلك ليعلم أنّي لم أخنه بالغيب وأنّ الله لا يهدي كيد الخائنين	٥٢
	فأوف لنا الكيل وتصدّق علينا إنّ الله يجزي المتصدّقين	٨٨
	إنّه من يتّق ويصبر فإنّ الله لا يضيع أجر المحسنين	٩٠
اللهِ	قال معاذ الله إنّه ربّي أحسن مثواي	٢٣
	وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلاّ ملكٌ كريم	٣١
	إنّي تركت ملّة قومٍ لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون	٣٧
	ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء	٣٨
	ذلك من فضل الله علينا وعلى النّاس	٣٨
	إن الحكم إلاّ لله (١)	٤٠
	قال لن أرسله معكم حتّى تؤتون موثقاً من الله	٦٦
	وما أُغني عنكم من الله من شيء	٦٧
اللهِ	إن الحكم إلاّ لله عليه توكّلت	٦٧
	ولمّا دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يُغْني عنهم من الله من شيء	٦٨
	قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض	٧٣
	قال معاذ الله أن نأخذ إلاّ من وجدنا متاعنا عنده	٧٩
	ألم تعلموا أنّ أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله	٨٠
	قالوا تالله تفتؤ تذكر يوسف حتّى تكون حرَضاً	٨٥
	قال إنّما أشكو بثّي وحزني إلى الله	٨٦
	وأعلم من الله ما لا تعلمون	٨٦
	ولا تيأسوا من روح الله	٨٧
	إنّه لا ييأس من روح الله إلاّ القوم الكافرون	٨٧
	قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنّا لخاطئين	٩١
	قالوا تالله إنّك لفي ضلالك القديم	٩٥

(١) جاء في المعجم المفهرس في هذا الموضع : « سميتموها أنتم وآباؤكم ، ما أنزل الله بها من سلطان » ومكان لفظ الجلالة هنا الرفع ، وليس الجر فليصحح ·

اللفظ	الآية	رقم الآية
الله	قال ألم أقل لكم إنّي أعلم من الله ما لا تعلمون	٩٦
	وما يؤمن أكثرهم بالله إلاّ وهم مشركون	١٠٦
	أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله	١٠٧
	قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتّبعني	١٠٨
	وسبحان الله وما أنا من المشركين	١٠٨
أمر	إن الحكم إلاّ لله أمر ألاّ تعبدوا إلاّ إيّاه	٤٠
أمرهم	ولمّا دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم	٦٨
آمره	ولئن لم يفعل ما آمره ليسجننّ وليكوناً من الصّاغرين	٣٢
الأمر	قضي الأمر الّذي فيه تستفتيان	٤١
أمراً	قال بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبرٌ جميل والله المستعان	١٨
	قال بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبرٌ جميل	٨٣
أمْره	والله غالبٌ على أمره ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون	٢١
أمْرهم	وأوحينا إليه لتنبّئنّهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون	١٥
	وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون	١٠٢
أمّارة	وما أبرّئ نفسي إنّ النّفس لأمّارة بالسّوء	٥٣
أمّة	وقال الّذي نجا منهما وادّكر بعد أمّة أنا أنبّئكم بتأويله	٤٥
تأويل	وكذلك يجتبيك ربّك ويعلّمك من تأويل الأحاديث	٦
	مكنّا ليوسف في الأرض ولنعلّمه من تأويل الأحاديث	٢١
	وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين	٤٤
	وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل	١٠٠
	ربّ قد آتيتني من الملك وعلّمتني من تأويل الأحاديث	١٠١
تأويله	نبّئنا بتأويله إنّا نراك من المحسنين	٣٦
	قال لا يأتيكما طعامٌ ترزقانه إلاّ نبّأتكما بتأويله	٣٧
	وادّكر بعد أمّة أنا أنبّئكم بتأويله فأرسلون	٤٥
آل	ويتمّ نعمته عليك وعلى آل يعقوب	٦
أولي	لقد كان في قصصهم عبرةٌ لأولي الألباب	١١١
آوى	ولمّا دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه	٦٩

اللفظ	الآية	رقم الآية
آوى	فلمّا دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه	٩٩
آية	وكأيّن من آيةٍ في السّماوات والأرض يمرّون عليها	١٠٥
آيات	الر تلك آيات الكتاب المبين	١
	لقد كان في يوسف وإخوته آياتٌ للسّائلين	٧
	ثمّ بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننّه حتّى حين	٣٥
الآن	قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحقّ أنا راودته عن نفسه	٥١
أيّتها	ثمّ أذّن مؤذّنٌ أيّتها العير إنّكم لسارقون	٧٠
أيّها	يا أيُّها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرّؤيا تعبرون	٤٣
	يوسف أيُّها الصّدّيق أفتنا في سبع بقراتٍ سمان	٤٦
	قالوا يا أيُّها العزيز إنّ له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه	٧٨
	فلمّا دخلوا عليه قالوا يا أيُّها العزيز مسّنا وأهلنا الضّرّ	٨٨
إيّاه	إن الحكم إلاّ لله أمر ألاّ تعبدوا إلاّ إيّاه	٤٠

باب الباء

اللفظ	الآية	رقم الآية
تبتئس	قال إنّي أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون	٦٩
بأسنا	فنجّي من نشاء ولا يردّ بأسنا عن القوم المجرمين	١١٠
بثّي	قال إنّما أشكو بثّي وحزني إلى الله	٨٦
بخس	وشروه بثمن بخس دراهم معدودةٍ وكانوا فيه من الزّاهدين	٢٠
بدأ	فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثمّ استخرجها من وعاء أخيه	٧٦
بدا	ثمّ بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننّه حتّى حين	٣٥
يبدها	فأسرّها يوسف في نفسه ولم يُبْدها لهم	٧٧
البدو	وجاء بكم من البدو	١٠٠
أبرّئُ	وما أبرّئُ نفسي	٥٣
أبرح	فلن أبرح الأرض حتّى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي	٨٠
برهان	ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربّه	٢٤
بشرى	قال يا بشرى هذا غلام وأسرّوه بضاعة	١٩
بشير	فلمّا أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتدّ بصيرا	٩٦

اللـفظ	الآيـة	رقم الآية
بَشَرا	وقُلْن حاش لله ما هذا بشرا ، إن هذا إلاّ ملكٌ كريم	٣١
بصيرا	اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا	٩٣
	فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتدّ بصيرا	٩٦
بصيرة	قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرةٍ أنا ومن اتّبعني	١٠٨
بضع	فأنساه الشّيطان ذكر ربّه فلبث في السّجن بضع سنين	٤٢
بضاعة	قال يا بشرى هذا غلامٌ وأسرّوه بضاعة	١٩
	مسّنا وأهلنا الضرّ وجئنا ببضاعةٍ مزجاة	٨٨
بضاعتنا	هذه بضاعتنا ردّت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا	٦٥
بضاعتهم	وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم	٦٢
	ولمّا فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردّت إليهم	٦٥
وبعد	ثمّ بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننّه حتّى حين	٣٥
	وقال الّذي نجا منهما وادّكر بعد أمّةٍ أنا أنبّئكم بتأويله	٤٥
	ثمّ يأتي من بعد ذلك سبعٌ شدادٌ يأكلن ما قدّمتم لهنّ	٤٨
	ثمّ يأتي من بعد ذلك عامٌ فيه يغاث النّاس وفيه يعصرون	٤٩
بعد	وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشّيطان بيني وبين إخوتي	١٠٠
بعده	يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين	٩
بعير	ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير	٦٥
	قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير	٧٢
بعض	وألقوه في غيابة الجبّ يلتقطه بعض السّيّارة إن كنتم فاعلين	١٠
بغتة	أفأمنوا أن تأتيهم غاشيةٌ من عذاب الله أو تأتيهم السّاعة بغتة	١٠٧
نبغي	قالوا يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردّت إلينا	٦٥
بقرات	وقال الملك إنّي أرى سبع بقراتٍ سمان	٤٣
	يوسف أيّها الصّدّيق أفتنا في سبع بقراتٍ سمان يأكلهنّ سبع	٤٦
يبكون	وجاءوا أباهم عشاءً يبكون	١٦
بلغ	ولمّا بلغ أشدّه آتيناه حكماً وعلما	٢٢
ابنك	ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إنّ ابنك سرق	٨١
بَنِيّ	وقال يا بَنِيّ لا تدخلوا من باب واحد	٦٧

اللفظ	الآيــة	رقم الآية
بَنِيّ	يا بنيّ اذهبوا فتحسّسوا من يوسف وأخيه	٨٧
بُنَيّ	قال يا بُنَيّ لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا	٥
يتبوأ	وكذلك مكّنّا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء	٥٦
باب	واستبقا الباب وقدّت قميصه من دبر	٢٥
	وألفيا سيّدها لدى الباب	٢٥
	وقال يا بنيّ لا تدخلوا من باب واحد	٦٧
أبواب	وغلّقت الأبواب وقالت هيت لك	٢٣
	وقال يا بنيّ لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرّقة	٦٧
بال	ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النّسوة اللاّتي قطعن أيديهن	٥٠
بيتها	وراودته الّتي هو في بيتها عن نفسه	٢٣
ابيضّت	وابيضّت عيناه من الحزن فهو كظيم	٨٤
مبين	الر تلك آيات الكتاب المبين	١
	إنّ الشّيطان للإنسان عدوّ مبين	٥
	ونحن عصبة إنّ أبانا لفي ضلال مبين	٨
	قد شغفها حبّاً إنّا لنراها في ضلال مبين	٣٠
بين	وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشّيطان بيني وبين إخوتي	١٠٠
	ماكان حديثاً يفترى ولكن تصديق الّذي بين يديه	١١١
بيني	وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشّيطان بيني وبين إخوتي	١٠٠

باب التّاء

اللفظ	الآيــة	رقم الآية
اتّبعت	واتّبعت ملّة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب	٣٨
اتبعني	قل هذه سبيلي أدعو إلى الله ، على بصيرة أنا ومن اتّبعني	١٠٨
تركت	إنّي تركت ملّة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون	٣٧
تركنا	إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب	١٧
تلك	الر تلك آيات الكتاب المبين	١
أتمّها	ويتمّ نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمّها على أبويك من قبل	٦
يتمّ	ويتمّ نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمّها على أبويك من قبل	٦

اللـفظ	الآيـة	رقم الآية
	باب الثاء	
تثريب	قال لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم	٩٢
بثمن	وشروه بثمن بخسٍ دراهم معدودة وكانوا فيه من الزّاهدين	٢٠
مثواه	وقال الّذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه	٢١
مثواي	قال معاذ الله إنّه ربّي أحسن مثواي	٢٣
	باب الجيم	
الجبّ	قال قائلٌ منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجبّ	١٠
	فلمّا ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجبّ	١٥
يجتبيك	وكذلك يجتبيك ربّك ويعلّمك من تأويل الأحاديث	٦
مجرمين	ولا يردّ بأسنا عن القوم المجرمين	١١٠
نجزي	ولمّا بلغ أشدّه آتيناه حُكْماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين	٢٢
	قالوا جزاؤه من وُجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظّالمين	٧٥
يجزي	فأوف لنا الكيل وتصدّق علينا إنّ الله يجزي المتصدّقين	٨٨
جزاء	قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلاّ أن يسجن	٢٥
جزاؤه	قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين	٧٤
	قالوا جزاؤه من وجد في رحله	٧٥
	فهو جزاؤه كذلك نجزي الظّالمين	٧٥
جعل	فلمّا جهّزهم بجهازهم جعل السّقاية في رحل أخيه	٧٠
جعلها	هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربّي حقّاً	١٠٠
يجعلوه	فلمّا ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجبّ	١٥
اجعلني	قال اجعلني على خزائن الأرض إنّي حفيظٌ عليم	٥٥
اجعلوا	وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلّهم يعرفونها	٦٢
أجمعوا	فلمّا ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجبّ	١٥
	وماكنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون	١٠٢
جميعاً	فصبرٌ جميلٌ عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً	٨٣
أجمعين	فألقوه على وجه أبي يأتِ بصيراً وأتوني بأهلكم أجمعين	٩٣

اللفظ	الآية	رقم الآية
جميل	قال بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبرٌ جميلٌ والله المستعان	١٨
	قال بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبرٌ جميلٌ عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً	٨٣
جهّزهم	ولمّا جهّزهم بجهازهم قال ائتوني بأخٍ لكم من أبيكم	٥٩
	فلمّا جهّزهم بجهازهم جعل السّقاية في رحل أخيه	٧٠
بجهازهم	ولمّا جهّزهم بجهازهم قال ائتوني بأخٍ لكم من أبيكم	٥٩
	فلمّا جهّزهم بجهازهم جعل السّقاية في رحل أخيه	٧٠
جاهلون	قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون	٨٩
الجاهلين	وإلاّ تصرف عنّي كيدهنّ أصبُ إليهنّ وأكن من الجاهلين	٣٣
استجاب	فاستجاب له ربّه فصرف عنه كيدهنّ إنّه هو السّميع العليم	٣٤
جاء	وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون	٥٨
	قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعيرٍ وأنا به زعيم	٧٢
	فلمّا أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتدّ بصيرا	٩٦
جاءت	وجاءت سيّارةٌ فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه	١٩
جاءه	فلمّا جاءه الرّسول قال ارجع إلى ربّك فاسأله ما بال النّسوة	٥٠
جاءهم	حتّى إذا استيأس الرّسل وظنّوا أنّهم قد كذبوا جاءهم نصرنا	١١٠
جاءوا	وجاءوا أباهم عشاءً يبكون	١٦
	وجاءوا على قميصه بدمٍ كذب	١٨
جئنا	قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض	٧٣
	مسّنا وأهلنا الضرّ وجئنا ببضاعةٍ مزجاة	٨٨

باب الحاء

اللفظ	الآية	رقم الآية
حبّاً	امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبّاً	٣٠
أحبّ	إذ قالوا ليوسف وأخوه أحبّ إلى أبينا منّا	٨
	قال ربّ السّجن أحبّ إليّ ممّا يدعونني إليه	٣٣
حديثاً	ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الّذي بين يديه	١١١
أحاديث	وكذلك يجتبيك ربّك ويعلّمك من تأويل الأحاديث	٦

اللــفظ	الآيــة	رقم الآية
أحاديث	وكذلك مكنّا ليوسف في الأرض ولنعلّمه من تأويل الأحاديث	٢١
	ربّ قد آتيتني من الملك وعلّمتني من تأويل الأحاديث	١٠١
حرصت	وما أكثر النّاس ولو حرصت بمؤمنين	١٠٣
حرضاً	قالوا تا لله تفتؤ تذكر يوسف حتّى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين	٨٥
ليحزنني	قال إنّي ليحزنني أن تذهبوا به	١٣
الحُزْن	وابيضّت عيناه من الحُزْن فهو كظيم	٨٤
حزني	قال إنّما أشكو بثّي وحُزْني إلى الله	٨٦
فتحسّسوا	يا بنيّ اذهبوا فتحسّسوا من يوسف وأخيه	٨٧
أحسن	قال معاذ الله إنّه ربّي أحسن مثواي إنّه لا يفلح الظّالمون	٢٣
	وقد أحسن بي إذ أخرجني من السّجن وجاء بكم من البدو	١٠٠
أحسن	نحن نقصّ عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن	٣
محسنين	ولمّا بلغ أشدّه آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين	٢٢
	نبّئنا بتأويله إنّا نراك من المحسنين	٣٦
	نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين	٥٦
	إنّ له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنّا نراك من المحسنين	٧٨
	إنّه من يتّق ويصبر فإنّ الله لا يضيع أجر المحسنين	٩٠
حصحص	قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحقّ	٥١
حصدتم	فما حصدتم فذروه في سنبله	٤٧
تحصنون	يأكلن ما قدّمتم لهنّ إلاّ قليلاً ممّا تحصنون	٤٨
نحفظ	ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير	٦٥
حافظاً	فالله خيرٌ حافظاً وهو أرحم الرّاحمين	٦٤
حافظون	أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنّا له لحافظون	١٢
	مُنع منّا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنّا له لحافظون	٦٣
حافظين	وما شهدنا إلاّ بما علمنا وما كنّا للغيب حافظين	٨١
حفيظ	قال اجعلني على خزائن الأرض إنّي حفيظٌ عليم	٥٥
الحقّ	قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحقّ	٥١

اللفظ	الآية	رقم الآية
حقّاً	وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربّي حقّاً	١٠٠
يحكم	فلن أبرح الأرض حتّى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي	٨٠
الحكم	إن الحكم إلاّ لله أمر ألاّ تعبدوا إلاّ إيّاه	٤٠
	إن الحكم إلاّ لله عليه توكّلت وعليه فليتوكّل المتوكّلون	٦٧
حكماً	ولمّا بلغ أشدّه آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين	٢٢
الحاكمين	فلن أبرح الأرض حتّى يأذن لي أبي أو يحكم الله وهو خير الحاكمين	٨٠
حكيم	كما أتمّها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إنّ ربّك عليمٌ حكيم	٦
	عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً إنّه هو العليم الحكيم	٨٣
	إنّ ربّي لطيفٌ لما يشاء إنّه هو العليم الحكيم	١٠٠
أحلام	قالوا أضغاث أحلام	٤٤
	وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين	٤٤
أحمل	وقال الآخر إنّي أراني أحمل فوق رأسي خبزا	٣٦
حمل	قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم	٧٢
حاجة	إلاّ حاجة في نفس يعقوب قضاها	٦٨
حاش	فلمّا رأينه أكبرنه وقطّعن أيديهنّ وقلن حاش لله	٣١
	قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء	٥١
يحاط	لتأتنّني به إلاّ أن يحاط بكم	٦٦
حيث	وكذلك مكنّا ليوسف في الأرض يتبوّأ منها حيث يشاء	٥٦
	ولمّا دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء	٦٨
حين	ثمّ بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننّه حتّى حين	٣٥

باب الخاء

اللفظ	الآية	رقم الآية
خبزا	وقال الآخر إنّي أراني أحمل فوق رأسي خبزا	٣٦
اخرج	وآتت كلّ واحدةٍ منهنّ سكّيناً وقالت اخرج عليهنّ	٣١
أخرجني	وقد أحسن بي إذ أخرجني من السّجن	١٠٠

اللـفظ	الآيـة	رقم الآية
استخرجها	ثمّ استخرجها من وعاء أخيه	٧٦
خرّوا	ورفع أبويه على العرش وخرّوا له سجّدا	١٠٠
خزائن	قال اجعلني على خزائن الأرض إنّي حفيظٌ عليم	٥٥
خاسرون	قالوا لئن أكله الذّئب ونحن عصبةٌ إنّا إذاً لخاسرون	١٤
خضر	إنّي أرى سبع بقراتٍ سِمَانٍ يأكُلُهنَّ سبعٌ عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات	٤٣
	أفتنا في سبع بقراتٍ سمان يأكلهنّ سبعٌ عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات	٤٦
خاطئين	واستغفري لذنبك إنّك كنت من الخاطئين	٢٩
	قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنّا لخاطئين	٩١
	قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنّا كنّا خاطئين	٩٧
خطبكنّ	قال ما خطبكنّ إذ راودتنّ يوسف عن نفسه	٥١
خلصوا	فلمّا استيأسوا منه خلصوا نجيّا	٨٠
استخلصه	وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي	٥٤
المخلصين	كذلك لنصرف عنه السّوء والفحشاء إنّه من عبادنا المخلصين	٢٤
يخل	اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم	٩
خمرا	قال أحدهما إنّي أراني أعصر خمرا	٣٦
	يا صاحبي السّجن أمّا أحدكما فيسقي ربّه خمرا	٤١
أخاف	قال إنّي ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذّئب	١٣
أخنه	ذلك ليعلم أنّي لم أخنه بالغيب	٥٢
الخائنين	وأنّ الله لا يهدي كيد الخائنين	٥٢
خير	أأربابٌ متفرّقون خيرٌ أم الله الواحد القهّار	٣٩
	ولأجر الآخرة خيرٌ للّذين آمنوا وكانوا يتّقون	٥٧
	ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين	٥٩
	فالله خيرٌ حافظاً وهو أرحم الرّاحمين	٦٤
	أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين	٨٠
	ولدار الآخرة خيرٌ للّذين اتّقوا أفلا تعقلون	١٠٩

اللفظ	الآية	رقم الآية
	باب الدّال	
دأبا	قال تزرعون سبع سنين دأبا	٤٧
دبر	واستبقا الباب وقدّت قميصه من دبر	٢٥
	وإن كان قميصه قدّ من دبر فكذبت وهو من الصّادقين	٢٧
	فلمّا رأى قميصه قدّ من دبر قال إنّه من كيد كنّ إنّ كيدكنّ عظيم	٢٨
دخل	ودخل معه السّجن فتيان	٣٦
دخلوا	وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون	٥٨
	ولمّا دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء	٦٨
	ولمّا دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه	٦٩
	فلمّا دخلوا عليه قالوا يا أيّها العزيز مسّنا وأهلنا الضّرّ	٨٨
	فلمّا دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه	٩٩
تدخلوا	وقال يا بنيّ لا تدخلوا من باب واحد	٦٧
ادخلوا	لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرّقة	٦٧
	وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين	٩٩
درجات	نرفع درجات من نشاء وفوق كلّ ذي علم عليم	٧٦
دراهم	وشروه بثمن بخس دراهم معدودة	٢٠
أدعو	قل هذه سبيلي أدعو إلى الله	١٠٨
يدعونني	قال ربّ السّجن أحبّ إليّ ممّا يدعونني إليه	٣٣
فأدلى	وجاءت سيّارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه	١٩
دلوه	وجاءت سيّارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه	١٩
دم	وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سوّلت لكم أنفسكم أمرا	١٨
الدّنيا	فاطر السّماوات والأرض أنت وليّي في الدنيا والآخرة	١٠١
دار	ولدار الآخرة خيرٌ للّذين اتّقوا أفلا تعقلون	١٠٩
دونه	ما تعبدون من دونه إلاّ أسماءً سمّيتموها أنتم وآباؤكم	٤٠
الدّين	أمر ألاّ تعبدوا إلاّ إيّاه ذلك الدّين القيّم ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون	٤٠

اللـفظ	الآيـة	رقم الآية
الدّين	ماكان ليأخذ أخاه في دين الملك إلاّ أن يشاء الله	٧٦

باب الذّال

اللـفظ	الآيـة	رقم الآية
الذّئب	قال إنّي ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذّئب	١٣
	قالوا لئن أكله الذّئب ونحن عصبةٌ إنّا إذن لخاسرون	١٤
	قالوا يا أبانا إنّا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذّئب	١٧
كذلك (١)	وكذلك يجتبيك ربّك ويعلّمك من تأويل الأحاديث	٦
	وكذلك مكنّا ليوسف في الأرض ولنعلّمه من تأويل الأحاديث	٢١
	ولمّا بلغ أشدّه آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين	٢٢
	كذلك لنصرف عنه السّوء والفحشاء إنّه من عبادنا المخلصين	٢٤
	وكذلك مكنّا ليوسف في الأرض يتبوّأ منها حيث يشاء	٥٦
	قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظّالمين	٧٥
	كذلك كدنا ليوسف ماكان ليأخذ أخاه في دين الملك إلاّ أن يشاء الله	٧٦
تذكر	قالوا تالله تفتؤ تذكر يوسف حتّى تكون حرضاً	٨٥
اذكرني	وقال للّذي ظنّ أنّه ناجٍ منهما اذكرني عند ربّك	٤٢
ذكر	فأنساه الشيطان ذكر ربّه فلبث في السّجن بضع سنين	٤٢
	وما تسألهم عليه من أجر إنْ هو إلاّ ذكرٌ للعالمين	١٠٤
ادّكر	وقال للّذي نجا منهما وادّكر بعد أمّة أنا أنبّئكم بتأويله فأرسلون	٤٥
ذنبك	يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك	٢٩
ذنوبنا	قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنّا كنّا خاطئين	٩٧
ذهبنا	إنّا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذّئب	١٧
ذهبوا	فلمّا ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجبّ	١٥
تذهبوا	قال إنّي ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذّئب	١٣
اذهبوا	يا بنيّ اذهبوا فتحسّسوا من يوسف وأخيه	٨٧
	اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا	٩٣

(١) لأهمية هذه الصيغة ، ودورها في السورة الكريمة أوردناها بالذات ، وهى من غير المدون في المعجم المفهرس أساسا ٠

اللفظ	الآية	رقم الآية
ذو	وإنّه لذو علمٍ لما علّمناه ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون	٦٨
ذي	نرفع درجاتٍ من نشاء وفوق كلّ ذي علمٍ عليم	٧٦

باب الرّاء

اللفظ	الآية	رقم الآية
رأسه	وأمّا الآخر فيُصْلب فتأكل الطّير من رأسه	٤١
رأسي	إنّي أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطّير منه	٣٦
رأى	ولقد همت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربّه	٢٤
	فلمّا رأى قميصه قدّ من دبر قال إنّه من كيد كنّ	٢٨
رأوا	ثمّ بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننّه حتّى حين	٣٥
رأيت	ياأبت إنّي رأيت أحد عشر كوكباً والشّمس والقمر رأيتهم لي ساجدين	٤
رأيتهم	رأيتهم لي ساجدين	٤
رأينه	فلمّا رأينه أكبرنه وقطّعن أيديهنّ وقلن حاش لله	٣١
أرى	وقال الملك إنّي أرى سبع بقرات سمانٍ يأكلهن سبعٌ عجاف	٤٣
أراني	قال أحدهما إنّي أراني أعصر خمرا	٣٦
	وقال الآخر إنّي أراني أحمل فوق رأسي خبزا	٣٦
ترون	ألا ترون أنّي أوفي الكيل وأنا خير المنزلين	٥٩
نراك	نبّئنا بتأويله إنّا نراك من المحسنين	٣٦
	إنّ له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنّا نراك من المحسنين	٧٨
لنراها	إنّا لنراها في ضلالٍ مبين	٣٠
الرّؤيا	يا أيُّها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرّؤيا تعبرون	٤٣
رؤياك	لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا	٥
رؤياي	يا أيُّها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرّؤيا تعبرون	٤٣
	وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربّي حقّا	١٠٠
ربّ	قال ربّ السّجن أحبّ إليّ ممّا يدعونني إليه	٣٣
	ربّ قد آتيتني من الملك وعلّمتني من تأويل الأحاديث	١٠١
ربّك	وكذلك يجتبيك ربّك ويعلّمك من تأويل الأحاديث	٦
	إنّ ربّك عليمٌ حكيم	٦

اللفظ	الآية	رقم الآية
ربك	وقال للّذي ظنّ أنّه ناجٍ منهما اذكرني عند ربّك	٤٢
	فلمّا جاءه الرّسول قال ارجع إلى ربّك فاسأله ما بال النّسوة اللّاتي قطّعن أيديهنّ	٥٠
ربّه	ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربّه	٢٤
	فاستجاب له ربّه فصرف عنه كيدهنّ	٣٤
	يا صاحبي السّجن أمّا أحدكما فيسقي ربّه خمراً	٤١
	فأنساه الشّيطان ذكر ربّه فلبث في السّجن بضع سنين	٤٢
ربّي	قال معاذ الله إنّه ربّي أحسن مثواي	٢٣
	ذلكما ممّا علّمني ربّي إنّي تركت ملّة قومٍ لا يؤمنون بالله	٣٧
	ما بال النّسوة اللّاتي قطّعن أيديهنّ إنّ ربّي بكيدهنّ عليم	٥٠
	إنّ النّفس لأمّارةٌ بالسّوء إلّا ما رحم ربّي	٥٣
	إنّ ربّي غفورٌ رحيم	٥٣
	قال سوف أستغفر لكم ربّي إنّه هو الغفور الرّحيم	٩٨
	هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربّي حقّاً	١٠٠
	إنّ ربّي لطيفٌ لما يشاء إنّه هو العليم الحكيم	١٠٠
أرباب	ءأربابٌ متفرّقون خيرٌ أم الله الواحد القهّار	٣٩
يرتع	أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنّا له لحافظون	١٢
رجعوا	فلمّا رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منّا الكيل	٦٣
أرجع	لعلّي أرجع إلى النّاس لعلّهم يعلمون	٤٦
يرجعون	لعلّهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلّهم يرجعون	٦٢
ارجع	ارجع إلى ربّك فاسأله ما بال النّسوة اللّاتي قطّعن أيديهنّ	٥٠
ارجعوا	ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إنّ ابنك سرق	٨١
رجالاً	وما أرسلنا من قبلك إلّا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى	١٠٩
رحل	فلمّا جهّزهم بجهازهم جعل السّقاية في رحل أخيه	٧٠
رحله	قالوا جزاؤه من وُجِد في رحله فهو جزاؤه	٧٥
رحالهم	وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم	٦٢
رحم	إنّ النّفس لأمّارةٌ بالسّوء إلّا ما رحم ربّي	٥٣

اللفظ	الآية	رقم الآية
رحمة	ولكن تصديق الّذي بين يديه وتفصيل كلّ شيء وهدىً ورحمةً لقومٍ يؤمنون	١١١
رحمتنا	نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين	٥٦
الرّاحمين	فالله خيرٌ حافظاً وهو أرحم الرّاحمين	٦٤
	قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الرّاحمين	٩٢
الرّحيم	إنّ النّفس لأمّارةٌ بالسّوء إلاّ ما رحم ربّي إنّ ربّي غفورٌ رحيم	٥٣
	قال سوف أستغفر لكم ربّي إنّه هو الغفور الرّحيم	٩٨
أرحم	فالله خيرٌ حافظاً وهو أرحم الرّاحمين	٦٤
	قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الرّاحمين	٩٢
ردّت	ولمّا فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردّت إليهم	٦٥
	قالوا يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردّت إلينا	٦٥
يردّ	جاءهم نصرنا فنُجّي من نشاء ولا يردّ بأسنا عن القوم المجرمين	١١٠
ارتدّ	فلمّا أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتدّ بصيراً	٩٦
ترزقانه	قال لا يأتيكما طعامٌ ترزقانه إلاّ نبأتكما بتأويله	٣٧
أرسلت	فلمّا سمعت بمكرهنّ أرسلت إليهنّ وأعتدت لهنّ متّكئاً	٣١
أرسلنا	وما أرسلنا من قبلك إلاّ رجالاً نوحي إليهم	١٠٩
فأرسلوا	وجاءت سيّارةٌ فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه	١٩
أرْسِله	قال لن أرسله معكم حتّى تؤتون موثقاً من الله	٦٦
أرسلْ	فأرسل معنا أخانا نكتل وإنّا له لحافظون	٦٣
أرسله	أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنّا له لحافظون	١٢
فأرسلون	أنا أنبّئكم بتأويله فأرسلون	٤٥
رسول	فلمّا جاءه الرّسول قال ارجع إلى ربّك فاسأله ما بال النّسوة اللّاتي قطّعن أيديهنّ	٥٠
رُسل	حتّى إذا استيأس الرّسل وظنّوا أنّهم قد كذبوا جاءهم نصرنا	١١٠
رفع	ورفع أبويه على العرش وخرّوا له سجّداً	١٠٠
نرفع	نرفع درجاتٍ من نشاء وفوق كلّ ذي علمٍ عليم	٧٦
روح	ولا تيأسوا من روح الله	٨٧

اللفظ	الآية	رقم الآية
سبع	يوسف أيُّها الصّدّيق أفتنا في سبع بقرات سمان	٤٦
	يأكلهنّ سبعٌ عجاف	٤٦
	وسبع سنبلات خضر وأُخر يابسات	٤٦
	قال تزرعون سبع سنين دأباً	٤٧
	ثمّ يأتي من بعد ذلك سبعٌ شدادٌ يأكلن ما قدّمتم لهنّ	٤٨
استبقا	واستبقا الباب وقدّت قميصه من دُبر	٢٥
نستبق	قالوا يا أبانا إنّا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا	١٧
سبيلي	قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة	١٠٨
ساجدين	إنّي رأيت أحد عشر كوكباً والشّمس والقمر رأيتهم لي ساجدين	٤
سجّداً	ورفع أبويه على العرش وخرّوا له سجّداً	١٠٠
ليسجننّه	ثمّ بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننّه حتّى حين	٣٥
يسجن	إلاّ أن يسجن أو عذابٌ أليم	٢٥
ليسجننّ	ليسجننّ وليكونن من الصّاغرين	٣٢
السّجن	قال ربّ السّجن أحبّ إليّ ممّا يدعونني إليه	٣٣
	ودخل معه السّجن فتيان قال أحدهما إنّي أراني أعصر خمراً	٣٦
	يا صاحبي السّجن أأربابٌ متفرّقون خيرٌ أم الله الواحد القهّار	٣٩
	يا صاحبي السّجن أما أحدكما فيسقي ربّه خمراً	٤١
	فأنساه الشّيطان ذكر ربّه فلبث في السّجن بضع سنين	٤٢
	وقد أحسن بي إذ أخرجني من السّجن وجاء بكم من البدو	١٠٠
إسحاق	كما أتمّها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق	٦
	واتّبعت ملّة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب	٣٨
أسرّها	فأسرّها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شرٌّ مكاناً	٧٧
أسرّوه	قال يا بُشرى هذا غلامٌ وأسرّوه بضاعة	١٩
سرق	قالوا إن يسرق فقد سرق أخٌ له من قبل	٧٧
	ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إنّ ابنك سرق	٨١
يسرق	قالوا إن يسرق فقد سرق أخٌ له من قبل	٧٧
لسارقون	ثمّ أذّن مؤذّنٌ أيّتها العير إنّكم لسارقون	٧٠

اللفظ	الآية	رقم الآية
سارقين	ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنّا سارقين	٧٣
يسقي	يا صاحبي السّجن أمّا أحد كما فيسقي ربّه خمراً	٤١
سقاية	فلمّا جهّزهم بجهازهم جعل السّقاية في رحل أخيه	٧٠
سكيناً	وآتت كلّ واحدة منهنّ سكّيناً وقالت اخرج عليهنّ	٣١
سلطان	ما تعبدون من دونه إلاّ أسماءً سمّيتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان	٤٠
مسلماً	أنت وليّي في الدّنيا والآخرة توفّني مسلماً وألحقني بالصّالحين	١٠١
سمعت	فلمّا سمعت بمكرهنّ أرسلت إليهنّ وأعتدت لهنّ متّكئاً	٣١
سميع	فاستجاب له ربّه فصرف عنه كيدهنّ إنّه هو السّميع العليم	٣٤
سمان	وقال الملك إنّي أرى سبع بقراتٍ سمان يأكلهن سبعٌ عجاف	٤٣
	يوسف أيُّها الصّدّيق أفتنا في سبع بقراتٍ سمان يأكلهنّ سبعٌ عجاف	٤٦
سمّيتموها	ما تعبدون من دونه إلاّ أسماءً سمّيتموها أنتم وآباؤكم	٤٠
أسماءً	ما تعبدون من دونه إلاّ أسماءً سمّيتموها أنتم وآباؤكم	٤٠
السّماوات	فاطر السّماوات والأرض أنت وليّي في الدّنيا والآخرة	١٠١
	وكأيّن من آيةٍ في السّماوات والأرض يمرّون عليها	١٠٥
سنبله	فما حصدتم فذروه في سنبله إلاّ قليلاً ممّا تأكلون	٤٧
سنبلات	إنّي أرى سبع بقراتٍ سمان يأكلهنّ سبعٌ عجاف وسبع سنبلات خضر	٤٣
	يأكلهنّ سبع عجاف وسبع سنبلات خضر	٤٦
سنين	فأنساه الشّيطان ذكر ربّه فلبث في السّجن بضع سنين	٤٢
	قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه في سنبله	٤٧
السّوء	كذلك لنصرف عنه السّوء والفحشاء إنّه من عبادنا المخلصين	٢٤
	قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء	٥١
	إنّ النّفس لأمّارة بالسّوء إلاّ ما رحم ربّي	٥٣
سوءًا	قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا إلاّ أن يسجن أو عذابٌ أليم	٢٥
سيّدها	وقدّت قميصه من دُبر وألفيا سيّدها لدى الباب	٢٥
السّاعة	أو تأتيهم السّاعة بغتةً وهم لا يشعرون	١٠٧

اللـفظ	الآيـة	رقم الآية
سوف	قال سوف أستغفر لكم ربّي إنّه هو الغفور الرّحيم	٩٨
سوّلت	قال بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبرٌ جميلٌ والله المستعان على ما تصفون	١٨
	قال بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبرٌ جميلٌ عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً	٨٣
يسيروا	أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبلهم ولدار الآخرة خير	١٠٩
السيّارة	وألقوه في غيابة الجبّ يلتقطه بعض السيّارة	١٠
	وجاءت سيّارةٌ فأرسلوا واردهم فأدْلى دلوه	١٩

باب الشين

اللـفظ	الآيـة	رقم الآية
شداد	ثمّ يأتي من بعد ذلك سبعٌ شداد يأكلن ما قدّمتم لهنّ	٤٨
أشدّه	ولمّا بلغ أشدّه آتيناه حكماً وعلماً	٢٢
شرّ	قال أنتم شرٌّ مكاناً والله أعلم بما تصفون	٧٧
نشرك	ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء	٣٨
المشركون	وما يؤمن أكثرهم بالله إلاّ وهم مشركون	١٠٦
المشركين	على بصيرةٍ أنا ومن اتّبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين	١٠٨
شروه	وشروه بثمنٍ بخسٍ دراهم معدودة	٢٠
اشتراه	وقال الّذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه	٢١
الشّيطان	إنّ الشّيطان للإنسان عدوٌّ مبين	٥
	فأنساه الشّيطان ذكر ربّه فلبث في السّجن بضع سنين	٤٢
	وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشّيطان بيني وبين إخوتي	١٠٠
يشعرون	وأوحينا إليه لتنبّئنّهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون	١٥
	أو تأتيهم السّاعة بغتةً وهم لا يشعرون	١٠٧
شغفها	امرأة العزيزُ تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبّاً	٣٠
يشكرون	ولكنّ أكثر النّاس لا يشكرون	٣٨
أشكو	إنّما أشكو بثّي وحزني إلى الله	٨٦

اللفظ	الآية	رقم الآية
الشّمس	إنّي رأيت أحد عشر كوكباً والشّمس والقمر رأيتهم لي ساجدين	٤
شهد	وشهد شاهدٌ من أهلها إن كان قميصه قدّ من قبل فصدقت	٢٦
شهدنا	فقولوا يا أبانا إنّ ابنك سرق وما شهدنا إلاّ بما علمنا	٨١
شاهد	وشهد شاهدٌ من أهلها إن كان قميصه قدّ من قبل فصدقت	٢٦
شاء	وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين	٩٩
نشاء	نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين	٥٦
	نرفع درجاتٍ من نشاء وفوق كلّ ذي علمٍ عليم	٧٦
	جاءهم نصرنا فنجّي من نشاء ولا يردّ بأسنا عن القوم المجرمين	١١٠
يشاء	وكذلك مكّنا ليوسف في الأرض يتبوّأ منها حيث يشاء	٥٦
	ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلاّ أن يشاء الله	٧٦
	إنّ ربّي لطيفٌ لما يشاء إنّه هو العليم الحكيم	١٠٠
شيء	ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء	٣٨
	وما أغني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلاّ لله	٦٧
	ما كان يغني عنهم من الله من شيء	٦٨
	ولكن تصديق الّذي بين يديه وتفصيل كلّ شيء	١١١
شيخاً	قالوا يا أيُّها العزيز إنّ له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه	٧٨

باب الصّاد

اللفظ	الآية	رقم الآية
يصبر	إنّه من يتّق ويصبر فإنّ الله لا يضيع أجر المحسنين	٩٠
الصّبر	قال بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبرٌ جميل والله المستعان	١٨
	قال بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبرٌ جميل	٨٣
أصب	وإلاّ تصرف عنّي كيدهنّ أصب إليهنّ وأكن من الجاهلين	٣٣
صاحبي	يا صاحبي السّجن أأربابٌ متفرّقون خيرٌ أم الله الواحد القهّار	٣٩
	يا صاحبي السّجن أمّا أحدكما فيسقي ربّه خمراً	٤١
فصدقت	إن كان قميصه قدّ من قبل فصدقت وهو من الكاذبين	٢٦
تصدّق	فأوف لنا الكيل وتصدّق علينا إنّ الله يجزي المتصدّقين	٨٨
صادقون	واسأل القرية الّتي كنّا فيها والعير الّتي أقبلنا فيها وإنّا لصادقون	٨٢

اللـفظ	الآيـة	رقم الآية
صادقين	وما أنت بمؤمن ٍ لنا ولو كنّا صادقين	١٧
	وإن كان قميصه قدّ من دبر فكذبت وهو من الصّادقين	٢٧
	أنا راودته عن نفسه وإنّه لمن الصّادقين	٥١
الصّديق	يوسف أيّها الصّديق أفتنا في سبع بقرات ٍ سمان	٤٦
تصديق	ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الّذي بين يديه	١١١
المتصدّقين	وتصدّق علينا إنّ الله يجزي المتصدّقين	٨٨
صرف	فاستجاب له ربّه فصرف عنه كيدهنّ	٣٤
تصرف	وإلاّ تصرف عنّي كيدهنّ أصب إليهن	٣٣
لنصرف	كذلك لنصرف عنه السّوء والفحشاء	٢٤
الصّاغرين	ولئن لم يفعل ما آمره ليسجننّ وليكوناً من الصّاغرين	٣٢
يصلب	وأمّا الآخر فيُصلب فتأكل الطّير من رأسه	٤١
الصّالحين	يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين	٩
	أنت وليّي في الدّنيا والآخرة توفّني مسلماً وألحقني بالصّالحين	١٠١
نصيب	نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين	٥٦
صواع	قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير	٧٢

باب الضاد

اللـفظ	الآيـة	رقم الآية
ضرّ	فلمّا دخلوا عليه قالوا يا أيُّها العزيز مسّنا وأهلنا الضرّ	٨٨
أضغاث	قالوا أضغاث أحلام ٍ وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين	٤٤
ضلال	إنّ أبانا لفي ضلال ٍ مبين	٨
	تراودُ فتاها عن نفسه قد شغفها حبّاً إنّا لنراها في ضلال ٍ مبين	٣٠
ضلالك	قالوا تا لله إنّك لفي ضلالك القديم	٩٥
نضيع	نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين	٥٦
يضيع	إنّه من يتّق ويصبر فإنّ الله لا يضيع أجر المحسنين	٩٠

باب الطّاء

اللـفظ	الآيـة	رقم الآية
اطرحوه	اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرْضاً يخل لكم وجه أبيكم	٩
طعام	قال لا يأتيكما طعامٌ ترزقانه إلاّ نبّأتكما بتأويله	٣٧

اللفظ	الآية	رقم الآية
الطّير	إنّي أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطّير منه	٣٦
	وأمّا الآخر فيُصْلب فتأكل الطّير من رأسه	٤١

باب الظّاء

اللفظ	الآية	رقم الآية
ظالمون	قال معاذ الله إنّه ربّي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظّالمون	٢٣
	قال معاذ الله أن نأخذ إلاّ من وجدنا متاعنا عنده إنّا إذن لظالمون	٧٩
ظالمين	من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظّالمين	٧٥
ظنّ	وقال للّذي ظنّ أنّه ناجٍ منهما اذكرني عند ربّك	٤٢
ظنّوا	وظنّوا أنّهم قد كذبوا جاءهم نصرنا	١١٠

باب العين

اللفظ	الآية	رقم الآية
تعبدوا	إن الحكم إلاّ لله أمر ألاّ تعبدوا إلاّ إيّاه	٤٠
تعبدون	ما تعبدون من دونه إلاّ أسماءً سمّيتموها أنتم وآباؤكم	٤٠
عبادنا	كذلك لنصرف عنه السّوء والفحشاء إنّه من عبادنا المخلصين	٢٤
تعبرون	يا أيّها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرّؤيا تعبرون	٤٣
عبرة	لقد كان في قصصهم عبرةٌ لأولي الألباب	١١١
أعتدت	أرسلت إليهنّ وأعتدت لهنّ متّكئاً	٣١
عجاف	إنّي أرى سبع بقراتٍ سمانٍ يأكلهنّ سبعٌ عجاف	٤٣
	أفتنا في سبع بقراتٍ سمانٍ يأكلهنّ سبعٌ عجاف	٤٦
معدودة	وشروه بثمنٍ بخسٍ دراهم معدودة	٢٠
عدوّ	إنّ الشّيطان للإنسان عدوٌّ مبين	٥
العذاب	إلاّ أن يسجن أو عذابٌ أليم	٢٥
	أفأمنوا أن تأتيهم غاشيةٌ من عذاب الله	١٠٧
عربيّاً	إنّا أنزلناه قرآناً عربيّاً لعلّكم تعقلون	٢
العرش	ورفع أبويه على العرش وخرّوا له سجّدا	١٠٠
أعرض	يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك	٢٩
معرضون	يمرّون عليها وهم عنها معرضون	١٠٥

اللـفظ	الآيـة	رقم الآية
فعرفهم	فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون	٥٨
يعرفونها	لعلّهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم	٦٢
العزيز	وقال نسوةٌ في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه	٣٠
	قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحقّ أنا راودته	٥١
	قالوا يا أيُّها العزيز إنّ له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه	٧٨
	فلمّا دخلوا عليه قالوا يا أيُّها العزيز مسّنا وأهلنا الضرّ	٨٨
عسى	أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتّخذه ولدا	٢١
	فصبرٌ جميلٌ عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً	٨٣
عشر	إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنّي رأيت أحد عشر كوكباً	٤
عشاءً	وجاءوا أباهم عشاءً يبكون	١٦
عصبة	أحبّ إلى أبينا منّا ونحن عصبة	٨
	قالوا لئن أكله الذّئب ونحن عصبة إنّا إذاً لخاسرون	١٤
أعصر	قال أحدهما إنّي أراني أعصر خمرا	٣٦
يعصرون	فيه يغاث النّاس وفيه يعصرون	٤٩
استعصم	ولقد راودته عن نفسه فاستعصم	٣٢
عظيم	قال إنّه من كيدكن إنّ كيدكنّ عظيم	٢٨
العاقبة	أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم	١٠٩
تعقلون	إنّا أنزلناه قرآناً عربيّاً لعلّكم تعقلون	٢
	ولدار الآخرة خيرٌ للّذين اتّقوا أفلا تعقلون	١٠٩
علمتم	قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض	٧٣
	قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون	٨٩
علمنا	قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء	٥١
	فقولوا يا أبانا إنّ ابنك سرق وما شهدنا إلاّ بما علمنا	٨١
أعلم	قال إنّما أشكو بثّي وحزني إلى الله وأعلم من الله مالا تعلمون	٨٦
	قال ألم أقل لكم إنّي أعلم من الله ما لا تعلمون	٩٦
تعلموا	ألم تعلموا أنّ أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله	٨٠
تعلمون	قال إنّما أشكو بثّي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون	٨٦

اللفظ	الآية	رقم الآية
تعلمون	قال ألم أقل لكم إنّي أعلم من الله ما لا تعلمون	٩٦
يعلم	ذلك ليعلم أنّي لم أخنه بالغيب وأنّ الله لا يهدي كيد الخائنين	٥٢
يعلمون	والله غالبٌ على أمره ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون	٢١
	ذلك الدّين القيّم ولكن أكثر النّاس لا يعلمون	٤٠
	لعلّي أرجع إلى النّاس لعلّهم يعلمون	٤٦
	وإنّه لذو علمٍ لما علّمناه ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون	٦٨
علّمتني	ربّ قد آتيتني من المُلْك وعلمتني من تأويل الأحاديث	١٠١
علمناه	وإنّه لذو علمٍ لما علّمناه ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون	٦٨
علّمني	ذلكما ممّا علّمني ربّي	٣٧
ولنعلّمه	ولنعلّمه من تأويل الأحاديث	٢١
يعلّمه	وكذلك يجتبيك ربّك ويعلّمك من تأويل الأحاديث	٦
عالمين	قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين	٤٤
أعلم	قال أنتم شرٌّ مكاناً والله أعلم بما تصفون	٧٧
عليم	إنّ ربّك عليمٌ حكيم	٦
	وأسرّوه بضاعةً والله عليم بما يعملون	١٩
	فصرف عنه كيدهنّ إنّه هو السّميع العليم	٣٤
	إنّ ربّي بكيدهنّ عليم	٥٠
	قال اجعلني على خزائن الأرض إنّي حفيظٌ عليم	٥٥
	نرفع درجات من نشاء وفوق كلّ ذي علمٍ عليم	٧٦
	عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً إنّه هو العليم الحكيم	٨٣
	إنّ ربّي لطيفٌ لما يشاء إنّه هو العليم الحكيم	١٠٠
العِلْم	وإنّه لذو علمٍ لما علّمناه ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون	٦٨
	نرفع درجاتٍ من نشاء وفوق كلّ ذي علمٍ عليم	٧٦
علماً	ولمّا بلغ أشدّه آتيناه حُكْماً وعلما	٢٢
العالمين	وما تسألهم عليه من أجرٍ إن هو إلاّ ذكرٌ للعالمين	١٠٤
يعملون	قال يا بُشْرى هذا غلامٌ وأسرّوه بضاعةً والله عليمٌ بما يعملون	١٩
	قال إنّي أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون	٦٩

اللفظ	الآية	رقم الآية
عند	قالوا يا أبانا إنّا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا	١٧
	وقال للّذي ظنّ أنّه ناجٍ منهما اذكرني عند ربّك	٤٢
عنده	قال معاذ الله أن نأخذ إلاّ من وجدنا متاعنا عنده	٧٩
عندي	فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون	٦٠
معاذ	قال معاذ الله إنّه ربّي أحسن مثواي	٢٣
	قال معاذ الله أن نأخذ إلاّ من وجدنا متاعنا عنده	٧٩
عام	ثمّ يأتي من بعد ذلك عامٌ فيه يغاث النّاس	٤٩
المستعان	فصبرٌ جميلٌ والله المستعان على ما تصفون	١٨
العير	ثمّ أذّن مؤذّنٌ أيّتها العير إنّكم لسارقون	٧٠
	واسأل القرية الّتي كنّا فيها والعير الّتي أقبلنا فيها	٨٢
	ولمّا فصلت العير قال أبوهم إنّي لأجد ريح يوسف	٩٤
عيناه	وابيضّت عيناه من الحزن فهو كظيم	٨٤

باب الغين

اللفظ	الآية	رقم الآية
غداً	أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنّا له لحافظون	١٢
غاشية	أفأمنوا أن تأتيهم غاشيةٌ من عذاب الله	١٠٧
يغفر	قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم	٩٢
أستغفر	قال سوف أستغفر لكم ربّي إنّه هو الغفور الرحيم	٩٨
اسْتَغْفِرْ	قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنّا كنّا خاطئين	٩٧
استغفري	يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك	٢٩
غفور	إنّ النّفس لأمّارةٌ بالسّوء إلاّ ما رحم ربّي إنّ ربّي غفورٌ رحيم	٥٣
	قال سوف أستغفر لكم ربّي إنّه هو الغفور الرّحيم	٩٨
غافلون	وأخاف أن يأكله الذّئب وأنتم عنه غافلون	١٣
غافلين	وإن كنتم من قبله لمن الغافلين	٣
غالب	والله غالبٌ على أمره ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون	٢١
غلّقت	وغلّقت الأبواب وقالت هيت لك	٢٣
غلام	فأرسلوا واردهم فأدْلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام	١٩

اللفظ	الآية	رقم الآية
أغنى	وما أغنى عنكم من الله من شيء إن الحكم إلاّ لله	٦٧
يغني	ماكان يغني عنهم من الله من شيء	٦٨
الغيب	ذلك ليعلم أنّي لم أخنه بالغيب	٥٢
	وما شهدنا إلاّ بما علمنا وماكنّا للغيب حافظين	٨١
	ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك	١٠٢
غيابة	قال قائلٌ منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجبّ	١٠
	فلمّا ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجبّ	١٥
يغاث	ثمّ يأتي من بعد ذلك عامٌ فيه يغاث النّاس	٤٩

باب الفاء

اللفظ	الآية	رقم الآية
تفتؤ	قالوا تا لله تفتؤ تذكر يوسف حتّى تكون حرضاً	٨٥
فتحوا	ولمّا فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردّت إليهم	٦٥
أفتنا	يوسف أيّها الصّدّيق أفتنا في سبع بقرات سمان	٤٦
أفتوني	يا أيّها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرّؤيا تعبرون	٤٣
تستفتيان	قضي الأمر الّذي فيه تستفتيان	٤١
فتاها	وقال نسوةٌ في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه	٣٠
فتيان	ودخل معه السّجن فتيان	٣٦
لفتيانه	وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلّهم يعرفونها	٦٢
الفحشاء	كذلك لنصرف عنه السّوء والفحشاء إنّه من عبادنا المخلصين	٢٤
فرّطتم	ومن قبل ما فرّطتم في يوسف	٨٠
متفرّقون	أأرباب متفرّقون خيرٌ أم الله الواحد القهّار	٣٩
متفرّقة	وادخلوا من أبوابٍ متفرّقة	٦٧
يُفتَرى	ماكان حديثاً يفترى ولكن تصديق الّذي بين يديه	١١١
لنفسد	قالوا تا لله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض	٧٣
فصلت	ولمّا فصلت العير قال أبوهم إنّي لأجد ريح يوسف	٩٤
تفصيل	ولكن تصديق الّذي بين يديه وتفصيل كلّ شيء	١١١
الفضل	ذلك من فضل الله علينا وعلى النّاس	٣٨

اللفظ	الآية	رقم الآية
فاطر	فاطر السّماوات والأرض أنت وليّي في الدّنيا والآخرة	١٠١
فعلتم	قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون	٨٩
يفعل	ولئن لم يفعل ما آمره ليسجننّ وليكوناً من الصّاغرين	٣٢
فاعلون	قالوا سنراود عنه أباه وإنّا لفاعلون	٦١
فاعلين	وألقوه في غيابة الجبّ يلتقطه بعض السّيارة إن كنتم فاعلين	١٠
تفقدون	قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون	٧١
نفقد	قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم	٧٢
يفلح	قال معاذ الله إنّه ربّي أحسن مثواي إنّه لا يفلح الظّالمون	٢٣
تفنّدون	إنّي لأجد ريح يوسف لولا أن تفنّدون	٩٤
فوق	إنّي أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطّير منه	٣٦
	نرفع درجاتٍ من نشاء وفوق كلّ ذي علمٍ عليم	٧٦

باب القاف

اللفظ	الآية	رقم الآية
أقبلنا	واسأل القرية الّتي كنّا فيها والعير الّتي أقبلنا فيها	٨٢
أقبلوا	قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون	٧١
قُبُل	إن كان قميصه قدّ من قبل فصدقت وهو من الكاذبين	٢٦
قَبل	كما أتمّها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق	٦
	قال لا يأتيكما طعامٌ ترزقانه إلاّ نبّأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما	٣٧
	قال هل آمنكم عليه إلاّ كما أمنتكم على أخيه من قبل	٦٤
	فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثمّ استخرجها من وعاء أخيه	٧٦
	قالوا إن يسرق فقد سرق أخٌ له من قبل	٧٧
	قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرّطتم في يوسف	٨٠
	وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربّي حقّاً	١٠٠
قبلك	وما أرسلنا من قبلك إلاّ رجالاً نوحي إليهم	١٠٩
قبله	وإن كنت من قبله لمن الغافلين	٣
قبلهم	أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبلهم	١٠٩
تقتلوا	قال قائلٌ منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجبّ	١٠

اللفظ	الآية	رقم الآية
اقتلوا	اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم	٩
قدّت	واستبقا الباب وقدّت قميصه من دبر	٢٥
قدّ	إن كان قميصه قدّ من قبل فصدقت وهو من الكاذبين	٢٦
	وإن كان قميصه قدّ من دبر فكذبت وهو من الصّادقين	٢٧
	فلمّا رأى قميصه قدّ من دبرٍ قال إنّه من كيدكنّ	٢٨
قدّمتم	ثمّ يأتي من بعد ذلك سبعٌ شدادٌ يأكلن ما قدّمتم لهنّ	٤٨
القديم	قالوا تالله إنّك لفي ضلالك القديم	٩٥
القرآن	نحن نقصّ عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن	٣
قرآناً	إنّا أنزلناه قرآناً عربيّاً لعلّكم تعقلون	٢
تقربون	فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون	٦٠
القرية	واسأل القرية الّتي كنّا فيها والعير الّتي أقبلنا فيها	٨٢
القرى	وما أرسلنا من قبلك إلاّ رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى	١٠٩
تقصص	قال يا بنيّ لا تقصص رؤياك على إخوتك	٥
نقصّ	نحن نقصّ عليك أحسن القصص	٣
القصص	نحن نقصّ عليك أحسن القصص	٣
قصصهم	لقد كان في قصصهم عبرةٌ لأولي الألباب	١١١
قضاها	إلاّ حاجة في نفس يعقوب قضاها	٦٨
قضي	قضي الأمر الّذي فيه تستفتيان	٤١
قطّعن	فلمّا رأينه أكبرنه وقطّعن أيديهنّ	٣١
	ارجع إلى ربّك فاسأله ما بال النّسوة اللاّتي قطّعن أيديهنّ	٥٠
انقلبوا	لعلّهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم	٦٢
قليلاً	فما حصدتم فذروه في سنبله إلاّ قليلاً ممّا تأكلون	٤٧
	يأكلن ما قدّمتم لهنّ إلاّ قليلاً ممّا تحصنون	٤٨
القمر	إنّي رأيت أحد عشر كوكباً والشّمس والقمر	٤
قميصه	وجاءوا على قميصه بدمٍ كذب	١٨
	واستبقا الباب وقدّت قميصه من دبر	٢٥
	إن كان قميصه قدّ من قبل فصدقت وهو من الكاذبين	٢٦

اللــفظ	الآيــة	رقم الآية
قميصه	وإن كان قميصه قدّ من دبر فكذبت وهو من الصّادقين	٢٧
	فلمّا رأى قميصه قدّ من دبر قال إنّه من كيد كنّ	٢٨
قميصي	اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا	٩٣
القهّار	أأرباب متفرقون خيرٌ أم الله الواحد القهّار	٣٩
قال	إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنّي رأيت أحد عشر كوكباً	٤
	قال يا بنيّ لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا	٥
	قال قائلٌ منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجبّ	١٠
قال	قال إنّي ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذّئب	١٣
	قال بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبرٌ جميل	١٨
	قال يا بُشرى هذا غلام وأسرّوه بضاعة	١٩
	وقال الّذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه	٢١
	قال معاذ الله إنّه ربّي أحسن مثواي	٢٣
	قال هي راودتني عن نفسي	٢٦
	فلمّا رأى قميصه قدّ من دبر قال إنّه من كيد كنّ	٢٨
	وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه	٣٠
	قال ربّ السّجن أحبّ إليّ ممّا يدعونني إليه	٣٣
	ودخل معه السّجن فتيان قال أحدهما إنّي أراني أعصر خمرا	٣٦
	وقال الآخر إنّي أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطّير منه	٣٦
	قال لا يأتيكما طعامٌ ترزقانه إلاّ نبأتكما بتأويله	٣٧
	وقال للّذي ظنّ أنّه ناجٍ منهما اذكرني عند ربّك	٤٢
	وقال الملك إنّي أرى سبع بقراتٍ سمان	٤٣
	وقال الّذي نجا منهما وادّكر بعد أمّةٍ أنا أنبّئكم بتأويله	٤٥
	قال تزرعون سبع سنين دأباً	٤٧
	وقال الملك ائتوني به	٥٠
	فلمّا جاءه الرّسول قال ارجع إلى ربّك	٥٠
	قال ما خطبكنّ إذ راودتنّ يوسف عن نفسه	٥١
	وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي	٥٤

اللفظ	الآية	رقم الآية
قال	فلمّا كلّمه قال إنّك اليوم لدينا مكينٌ أمين	٥٤
	قال اجعلني على خزائن الأرض إنّي حفيظٌ عليم	٥٥
	ولمّا جهّزهم بجهازهم قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم	٥٩
	وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلّهم يعرفونها	٦٢
	قال هل آمنكم عليه إلاّ كما أمنتكم على أخيه من قبل	٦٤
	قال لن أرسله معكم حتّى تؤتون موثقاً من الله	٦٦
	فلمّا آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل	٦٦
	وقال يا بنيّ لا تدخلوا من باب واحد	٦٧
	قال إنّي أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون	٦٩
	قال أنتم شرٌّ مكاناً والله أعلم بما تصفون	٧٧
	قال معاذ الله أن نأخذ إلاّ من وجدنا متاعنا عنده	٧٩
	قال كبير هم ألم تعلموا أنّ أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله	٨٠
	قال بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبرٌ جميل	٨٣
	وتولّى عنهم وقال يا أسفي على يوسف	٨٤
	قال إنّما أشكو بثّي وحُزْني إلى الله	٨٦
	قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون	٨٩
	قال أنا يوسف وهذا أخي قد منّ الله علينا	٩٠
	قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الرّاحمين	٩٢
	ولمّا فصلت العير قال أبوهم إنّي لأجد ريح يوسف	٩٤
	قال ألم أقل لكم إنّي أعلم من الله ما لا تعلمون	٩٦
	قال سوف أستغفر لكم ربّي إنّه هو الغفور الرّحيم	٩٨
	آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين	٩٩
	وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربّي حقّاً	١٠٠
قالت	وغلّقت الأبواب وقالت هيت لك	٢٣
	قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلاّ أن يسجن	٢٥
	وآتت كلّ واحدةٍ منهنّ سكّيناً وقالت اخرُج عليهن	٣١
	قالت فذلكنّ الّذي لمتنّني فيه	٣٢

اللـفظ	الآيـة	رقم الآية
قالت	قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحقّ	٥١
قالوا	إذ قالوا ليوسف وأخوه أحبّ إلى أبينا منّا	٨
	قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنّا على يوسف وإنّا له لناصحون	١١
	قالوا لئن أكله الذّئب ونحن عصبة إنّا إذاً لخاسرون	١٤
	قالوا يا أبانا إنّا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا	١٧
	قالوا أضغاث أحلامٍ وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين	٤٤
	قالوا سنراود عنه أباه وإنّا لفاعلون	٦١
	فلمّا رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منّا الكيل	٦٣
	قالوا يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردّت إلينا	٦٥
	قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون	٧١
	قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير	٧٢
	قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض	٧٣
	قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين	٧٤
	قالوا جزاؤه من وُجِد في رحله فهو جزاؤه	٧٥
	قالوا إن يسرق فقد سرق أخٌ له من قبل	٧٧
	قالوا يا أيُّها العزيز إنّ له أباً شيخاً كبيرا	٧٨
	قالوا تالله تفتؤ تذكر يوسف حتّى تكون حرضاً	٨٥
	فلمّا دخلوا عليه قالوا يا أيُّها العزيز مسّنا وأهلنا الضُّرّ	٨٨
	قالوا أئنّك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي	٩٠
	قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنّا لخاطئين	٩١
	قالوا تالله إنّك لفي ضلالك القديم	٩٥
	قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنّا كنّا خاطئين	٩٧
وقلن	وقلن حاش لله ما هذا بشرا	٣١
	قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء	٥١
أقل	قال ألم أقل لكم إنّي أعلم من الله ما لا تعلمون	٩٦
نقول	فلمّا آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل	٦٦
قُلْ	قل هذه سبيلي أدعو إلى الله	١٠٨

اللفظ	الآية	رقم الآية
قولوا	ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إنّ ابنك سرق	٨١
قائل	قال قائلٌ منهم لا تقتلوا يوسف	١٠
القيّم	أمر ألاّ تعبدوا إلاّ إيّاه ذلك الدّين القيّم	٤٠
القوم	إنّي تركت ملّة قومٍ لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون	٣٧
	إنّه لا ييأس من روح الله إلاّ القوم الكافرون	٨٧
	ولا يردّ بأسنا عن القوم المجرمين	١١٠
	وتفصيل كلّ شيءٍ وهدىً ورحمةً لقومٍ يؤمنون	١١١
قوماً	يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين	٩

باب الكاف

اللفظ	الآية	رقم الآية
كأيّن	وكأيّن من آيةٍ في السّماوات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون	١٠٥
أكبرنه	فلمّا رأينه أكبرنه وقطّعن أيديهنّ وقلن حاش لله	٣١
كبيراً	قالوا يا أيّها العزيز إنّ له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه	٧٨
كبيرهم	قال كبيرهم ألم تعلموا أنّ أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله	٨٠
الكتاب	الر تلك آيات الكتاب المبين	١
أكثر	والله غالبٌ على أمره ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون	٢١
	ولكنّ أكثر النّاس لا يشكرون	٣٨
	ذلك الدّين القيّم ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون	٤٠
	وإنّه لذو علمٍ لما علّمناه ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون	٦٨
	وما أكثر النّاس ولو حرصت بمؤمنين	١٠٣
أكثرهم	وما يؤمن أكثرهم بالله إلاّ وهم مشركون	١٠٦
فكذبت	وإن كان قميصه قدّ من دبرٍ فكذبت وهو من الصّادقين	٢٧
كذبوا	حتّى إذا استيأس الرّسل وظنوا أنّهم قد كذبوا جاءهم نصرنا	١١٠
كذب	وجاءوا على قميصه بدمٍ كذب	١٨
كاذبين	إن كان قميصه قدّ من قبلٍ فصدقت وهو من الكاذبين	٢٦
	قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين	٧٤

اللفظ	الآية	رقم الآية
أكرمي	وقال الّذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه	٢١
كريم	حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلاّ ملكٌ كريم	٣١
كظيم	وابيضّت عيناه من الحُزْن فهو كظيم	٨٤
الكافرون	وهم بالآخرة هم كافرون	٣٧
	إنّه لا ييأس من روح الله إلاّ القوم الكافرون	٨٧
كل	وأعتدت لهنّ متّكئاً وآتت كلّ واحدةٍ منهنّ سكّيناً	٣١
	نرفع درجاتٍ من نشاء وفوق كلّ ذي علم عليم	٧٦
	ولكن تصديق الّذي بين يديه وتفصيل كلّ شيء	١١١
كلّمه	فلمّا كلّمه قال إنّك اليوم لدينا مكينٌ أمين	٥٤
كوكباً	إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنّي رأيت أحد عشر كوكباً	٤
كان	لقد كان في يوسف وإخوته آياتٌ للسّائلين	٧
	إن كان قميصه قدّ من قبلٍ فصدقت وهو من الكاذبين	٢٦
	وإن كان قميصه قدّ من دبرٍ فكذبت وهو من الصّادقين	٢٧
	ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء	٣٨
	ما كان يغني عنهم من الله من شيء	٦٨
	ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلاّ أن يشاء الله	٧٦
	أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبلهم	١٠٩
	لقد كان في قصصهم عبرةٌ لأولي الألباب	١١١
	ما كان حديثاً يفترى	١١١
كانوا	وشروه بثمنٍ بخسٍ دراهم معدودة وكانوا فيه من الزّاهدين	٢٠
	ولأجر الآخرة خيرٌ للّذين آمنوا وكانوا يتّقون	٥٧
	قال إنّي أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون	٦٩
كنت	وإن كنت من قبله لمن الغافلين	٣
	واستغفري لذنبك إنّك كنت من الخاطئين	٢٩
	وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون	١٠٢
كنتم	وألقوه في غيابة الجبّ يلتقطه بعض السّيّارة إن كنتم فاعلين	١٠
	يا أيّها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرّؤيا تعبرون	٤٣

اللفظ	الآية	رقم الآية
الكيل	ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير	٦٥
	ذلك كيلٌ يسير	٦٥
	فأوف لنا الكيل وتصدّق علينا	٨٨
	باب اللّام	
الألباب	لقد كان في قصصهم عبرةٌ لأولي الألباب	١١١
لبث	فأنساه الشّيطان ذكر ربّه فلبث في السّجن بضع سنين	٤٢
ألحقني	توفّني مسلماً وألحقني بالصّالحين	١٠١
لدى	وقدّت قميصه من دبرٍ وألفيا سيّدها لدى الباب	٢٥
لدينا	فلمّا كلّمه قال إنّك اليوم لدينا مكينٌ أمين	٥٤
لديهم	وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون	١٠٢
لطيف	إنّ ربّي لطيفٌ لما يشاء إنّه هو العليم الحكيم	١٠٠
يلعب	أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنّا له لحافظون	١٢
لعلّكم	إنّا أنزلناه قرآناً عربيّاً لعلّكم تعقلون	٢
لعلّهم	وأخر يابساتٍ لعلّي أرجع إلى النّاس لعلّهم يعلمون	٤٦
	وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلّهم يعرفونها	٦٢
	إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلّهم يرجعون	٦٢
لعلّي	لعلّي أرجع إلى النّاس لعلّهم يعلمون	٤٦
ألفيا	واستبقا الباب وقدّت قميصه من دبر وألفيا سيّدها لدى الباب	٢٥
يلتقطه	وألقوه في غيابة الجبّ يلتقطه بعض السّيّارة	١٠
ألقاه	فلمّا أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتدّ بصيراً	٩٦
ألقوه	قال قائلٌ منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجبّ	١٠
	اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً	٩٣
لمتنّني	قالت فذلكنّ الّذي لمتنّني فيه	٣٢
	باب الميم	
متاعنا	إنّا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذّئب	١٧
	قال معاذ الله أن نأخذ إلاّ من وجدنا متاعنا عنده	٧٩

اللفظ	الآية	رقم الآية
متاعهم	ولمّا فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردّت إليهم	٦٥
المدينة	وقال نسوةٌ في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه	٣٠
امرأة	وقال نسوةٌ في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه	٣٠
	قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحقّ	٥١
امرأته	وقال الّذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه	٢١
يمرّون	وكأيّن من آيةٍ في السّماوات والأرض يمرّون عليها	١٠٥
مسّنا	فلمّا دخلوا عليه قالوا يا أيُّها العزيز مسّنا وأهلنا الضرّ	٨٨
مصر	وقال الّذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه	٢١
	وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين	٩٩
معكم	قال لن أرسله معكم حتّى تؤتون موثقاً من الله	٦٦
معنا	أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنّا له لحافظون	١٢
	فأرسل معنا أخانا نكتل وإنّا له لحافظون	٦٣
معه	ودخل معه السّجن فتيان	٣٦
يمكرون	وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون	١٠٢
بمكرهنّ	فلمّا سمعت بمكرهنّ أرسلت إليهنّ وأعتدت لهنّ متّكئاً	٣١
مكّنّا	وكذلك مكّنّا ليوسف في الأرض	٢١
	وكذلك مكّنّا ليوسف في الأرض يتبوّأ منها حيث يشاء	٥٦
مكين	فلمّا كلّمه قال إنّك اليوم لدينا مكينٌ أمين	٥٤
الملأ	يا أيُّها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرّؤيا تعبرون	٤٣
مُلْك	ربّ قد آتيتني من الملك وعلّمتني من تأويل الأحاديث	١٠١
المَلِك	وقال الملك إنّي أرى سبع بقراتٍ سمانٍ يأكلهنّ سبعٌ عجاف	٤٣
	وقال الملك ائتوني به فلمّا جاءه الرّسول قال ارجع إلى ربّك	٥٠
	وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي	٥٤
	قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير	٧٢
	ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلاّ أن يشاء الله	٧٦
مَلَك	وقُلْن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلاّ ملكٌ كريم	٣١

اللفظ	الآية	رقم الآية
ملّة	إنّي تركت ملّة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون	٣٧
	واتّبعت ملّة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب	٣٨
منع	فلمّا رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا مُنِع منّا الكيل	٦٣
منّ	قال أنا يوسف وهذا أخي قد منّ الله علينا	٩٠
نمير	هذه بضاعتنا ردّت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا	٦٥

باب النّون

اللفظ	الآية	رقم الآية
نبّأتكما	قال لا يأتيكما طعامٌ ترزقانه إلاّ نبّأتكما بتأويله	٣٧
أنبّئكم	وقال الّذي نجا منهما وادّكر بعد أُمّةٍ أنا أُنبّئكم بتأويله	٤٥
لتنبّئنّهم	وأوحينا إليه لتنبّئنّهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون	١٥
نبّئنا	إنّي أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطّير منه نبّئنا بتأويله	٣٦
أنباء	ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك	١٠٢
نجا	وقال الّذي نجا منهما وادّكر بعد أُمّةٍ أنا أُنبّئكم بتأويله	٤٥
نجّي	جاءهم نصرنا فنجّي من نشاء ولا يردّ بأسنا عن القوم المجرمين	١١٠
ناجٍ	وقال للّذي ظنّ أنّه ناجٍ منهما اذكرني عند ربّك	٤٢
نجيّاً	فلمّا استيأسوا منه خلصوا نجيّاً	٨٠
نزغ	وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشّيطان بيني وبين إخوتي	١٠٠
أنزل	سمّيتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان	٤٠
أنزلناه	إنّا أنزلناه قرآناً عربيّاً لعلّكم تعقلون	٢
المنزلين	ألا ترون أنّي أُوفي الكيل وأنا خير المنزلين	٥٩
نسوة	وقال نسوةٌ في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه	٣٠
	ارجع إلى ربّك فاسأله ما بال النّسوة اللّاتي قطّعن أيديهنّ	٥٠
فأنساه	فأنساه الشّيطان ذكر ربّه فلبث في السّجن بضع سنين	٤٢
ناصحون	قالوا يا أبانا مالك لا تأمنّا على يوسف وإنّا له لناصحون	١١
نصرنا	حتّى إذا استيأس الرّسل وظنّوا أنّهم قد كذبوا جاءهم نصرنا	١١٠
ينظروا	أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبلهم ولدار الآخرة خيرٌ للّذين اتّقوا	١٠٩

اللفظ	الآية	رقم الآية
نعمته	ويتمّ نعمته عليك وعلى آل يعقوب	٦
نفس	وما أبرّيء نفسي إنّ النّفس لأمّارةٌ بالسّوء إلاّ ما رحم ربّي	٥٣
	إلاّ حاجةٌ في نفس يعقوب قضاها	٦٨
نفسه	وراودته الّتي هو في بيتها عن نفسه وغلّقت الأبواب	٢٣
	وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه	٣٠
	ولقد راودته عن نفسه فاستعصم	٣٢
	قال ما خطبكنّ إذ راودتّن يوسف عن نفسه	٥١
	الآن حصحص الحقّ أنا راودته عن نفسه	٥١
	فأسرّها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم	٧٧
نفسي	قال هي راودتني عن نفسي	٢٦
	وما أبرّيء نفسي إنّ النّفس لأمّارةٌ بالسّوء إلاّ ما رحم ربّي	٥٣
	وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي	٥٤
أنفسكم	قال بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبْر جميلٌ والله المستعان	١٨
	قال بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبرٌ جميل	٨٣
ينفعنا	أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتّخذه ولداً	٢١
منكرون	وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون	٥٨
النّاس	والله غالبٌ على أمره ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون	٢١
	ذلك من فضل الله علينا وعلى النّاس	٣٨
	ولكنّ أكثر النّاس لا يشكرون	٣٨
	ذلك الدّين القيّم ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون	٤٠
	لعلّي أرجع إلى النّاس لعلّهم يعلمون	٤٦
	ثمّ يأتي من بعد ذلك عامٌ فيه يغاث النّاس وفيه يعصرون	٤٩
	وإنّه لذو علمٍ لما علّمناه ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون	٦٨
	وما أكثر النّاس ولو حرصت بمؤمنين	١٠٣

باب الهاء

اللفظ	الآية	رقم الآية
يهدي	ذلك ليعلم أنّي لم أخنه بالغيب وأنّ الله لا يهدي كيد الخائنين	٥٢

اللفظ	الآية	رقم الآية
الهدى	ولكن تصديق الّذي بين يديه وتفصيل كلّ شيءٍ وهدًى ورحمةً لقومٍ يؤمنون	١١١
الهالكين	قالوا تالله تفتؤ تذكر يوسف حتّى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين	٨٥
همّ	ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه	٢٤
همّت	ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربّه	٢٤
هيت	وغلّقت الأبواب وقالت هيت لك	٢٣

باب الواو

اللفظ	الآية	رقم الآية
موثقاً	قال لن أرسله معكم حتّى تؤتون موثقاً من الله	٦٦
	قال كبيرهم ألم تعلموا أنّ أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله	٨٠
موثقهم	فلمّا آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل	٦٦
وجدنا	قال معاذ الله أن نأخذ إلاّ من وجدنا متاعنا عنده	٧٩
وجدوا	ولمّا فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردّت إليهم	٦٥
لأجد	ولمّا فصلت العير قال أبوهم إنّي لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون	٩٤
وجد	قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظّالمين	٧٥
وجه	اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرْضاً يخل لكم وجه أبيكم	٩
	اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً	٩٣
وجهه	فلمّا أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتدّ بصيراً	٩٦
واحد	أأربابٌ متفرّقون خيرٌ أم الله الواحد القهّار	٣٩
	لا تدخلوا من بابٍ واحدٍ وادخلوا من أبواب متفرّقة	٦٧
واحدة	وأعتدت لهنّ متّكئاً وآتت كلّ واحدةٍ منهنّ سكّيناً	٣١
أوحينا	نحن نقصّ عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن	٣
	وأوحينا إليه لتنبّئنّهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون	١٥
نوحي	وما أرسلنا من قبلك إلاّ رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى	١٠٩
نوحيه	ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم	١٠٢
ذروه	قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه في سنبله	٤٧
واردهم	وجاءت سيّارةٌ فأرسلوا واردهم فأدْلى دلوه	١٩

اللـفظ	الآيـة	رقم الآية
تصفون	فصبرٌ جميلٌ والله المستعان على ما تصفون	١٨
	قال أنتم شرٌّ مكاناً والله أعلم بما تصفون	٧٧
وعاء	فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه	٧٦
	ثمّ استخرجها من وعاء أخيه	٧٦
بأوعيتهم	فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه	٧٦
أوفي	ألا ترون أنّي أوفي الكيل وأنا خير المنزلين	٥٩
فأوف	وجئنا ببضاعةٍ مزجاةٍ فأوف لنا الكيل وتصدّق علينا	٨٨
توفّني	توفّني مسلماً وألحقني بالصّالحين	١٠١
اتّقوا	ولدار الآخرة خيرٌ للّذين اتّقوا أفلا تعقلون	١٠٩
يتّق	إنّه من يتّق ويصبر فإنّ الله لا يضيع أجر المحسنين	٩٠
يتّقون	ولأجر الآخرة خيرٌ للّذين آمنوا وكانوا يتّقون	٥٧
متّكئاً	فلمّا سمعت بمكرهنّ أرسلت إليهنّ وأعتدت لهنّ متّكئاً	٣١
توكّلت	إن الحكم إلاّ لله عليه توكّلت وعليه فليتوكّل المتوكّلون	٦٧
يتوكّل	إن الحكم إلاّ لله عليه توكّلت وعليه فليتوكّل المتوكّلون	٦٧
وكيل	فلمّا آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل	٦٦
المتوكّلون	عليه توكّلت وعليه فليتوكّل المتوكّلون	٦٧
ولداً	أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتّخذه ولداً	٢١
تولّى	وتولّى عنهم وقال يا أسفي على يوسف	٨٤
وليّ	فاطر السّماوات والأرض أنت وليّي في الدّنيا والآخرة	١٠١

باب الياء

اللـفظ	الآيـة	رقم الآية
تيأسوا	ولا تيأسوا من روح الله	٨٧
ييأس	إنّه لا ييأس من روح الله إلاّ القوم الكافرون	٨٧
استيأس	حتّى إذا استيأس الرُّسل وظنّوا أنّهم قد كذبوا جاءهم نصرنا	١١٠
استيأسوا	فلمّا استيأسوا منه خلصوا نجياً	٨٠
يابسات	إنّي أرى سبع بقراتٍ سمانٍ يأكلهنّ سبعٌ عجاف وسبع سنبلات خضرٍ وأخر يابسات	٤٣

اللفظ	الآية	رقم الآية
يابسات	أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهنّ سبعٌ عجاف وسبع سنبلاتٍ خضرٍ وأخر يابساتٍ	٤٦
يديه	ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الّذي بين يديه	١١١
أيديهنّ	فلمّا رأينه أكبرنه وقطّعن أيديهنّ وقلن حاش لله	٣١
	ارجع إلى ربّك فاسأله ما بال النّسوة اللّاتي قطّعن أيديهنّ	٥٠
يبير	ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيلٌ يسير	٦٥
يوسف	إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنّي رأيت أحد عشر كوكباً	٤
	لقد كان في يوسف وإخوته آياتٌ للسّائلين	٧
	إذ قالوا ليوسف وأخوه أحبّ إلى أبينا منّا	٨
	اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم	٩
	قال قائلٌ منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجبّ	١٠
	قالوا يا أبانا مالك لا تأمنّا على يوسف وإنّا له لناصحون	١١
	قالوا يا أبانا إنّا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا	١٧
	وكذلك مكّنّا ليوسف في الأرض ولنعلّمه من تأويل الأحاديث	٢١
	يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك	٢٩
	يوسف أيّها الصدّيق أفتنا في سبع بقراتٍ سمانٍ	٤٦
	قال ما خطبكنّ إذ راودتن يوسف عن نفسه	٥١
	وكذلك مكّنّا ليوسف في الأرض يتبوّأ منها حيث يشاء	٥٦
	وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون	٥٨
	ولمّا دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه	٦٩
	كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلاّ أن يشاء الله	٧٦
	فأسرّها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم	٧٧
	قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرّطتم في يوسف	٨٠
	وتولّى عنهم وقال يا أسفي على يوسف	٨٤
	قالوا تالله تفتؤ تذكر يوسف حتّى تكون حرضاً	٨٥
	يا بنيّ اذهبوا فتحسّسوا من يوسف وأخيه	٨٧
	قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون	٨٩

اللـفظ	الآيــة	رقم الآية
يوسف	قالوا أئنـّك لأنت يوسف	٩٠
	قال أنا يوسف وهذا أخي قد منّ الله علينا	٩٠
	ولمّا فصلت العين قال أبوهم إنّي لأجد ريح يوسف	٩٤
	فلمّا دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه	٩٩
يعقوب	ويتمّ نعمته عليك وعلى آل يعقوب	٦
	واتّبعت ملّة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب	٣٨
	إلاّ حاجةً في نفس يعقوب قضاها	٦٨
اليوم	فلمّا كلّمه قال إنّك اليوم لدينا مكينٌ أمين	٥٤
	قال لا تثريب عليكم اليوم	٩٢

بحمد الله تعالى تمّ المعجم المفهرس
لألفاظ سورة يوسف عليه السّلام



خاتمـــــة

في الصّفحات السابقة من هذا البحث « الوحدة الموضوعية في سورة يوسف عليه السلام » ، بيّنا المراد بوحدة الأحداث الموضوعية أوّلاً ، وطبقنا ذلك على هذه السورة بشقيها : القصصيّ والتعقيبيّ ، التي تهدف إضافة لإرساء أسس العقيدة ، إلى تسلية المصطفى صلى الله عليه وسلم الذي كان آنذاك ما زال بمكة المكرمة .

وفي الفصل الثاني بينا أدوار الشخصيات المختلفة في سبيل تحقيق الوحدة الموضوعية ، وقد ابتدأنا بدراسة الشخصيات الثانويّة ، تلا ذلك دراسة الشخصيات الأكثر أهمية فالشخصيات الأوّلية . وقد خصّصنا الفصل الثالث لدراسة الشخصية الأولى المحركة لكل الأحداث في السورة ، ألا وهي شخصية يوسف عليه السلام .

وفي الفصل الرّابع درسنا المجتمعات في هذه السورة : المكّي ونظائره ، والشامي والمصري ، كما حاولنا تبيين أهمّ الدروس المستفادة من هذه السورة العظيمة ، وقد وضعنا بين يدي البحث سورة يوسف عليه السلام كما ذيّلناه بالمعجم المفهرس لألفاظ هذه السّورة الكريمة .

أسأل الله تعالى أن ينفع بهذا العمل ، وألاّ يحرمنا من أجره ، وأن يهدينا إلى سواء السبيل ، إنه على كلّ شيء قدير . والحمد لله ربّ العالمين .

فهرست بأهم المصادر والمراجع

ابن هشام : السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا ، إبراهيم الإبياري ، عبد الحفيظ شلبي . الحلبي ١٣٧٥هـ ١٩٥٥م

أبو حيّان : محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان ، البحر المحيط ، أوفست ، بيروت . بدون تاريخ

البخـــاري : صحيح البخاري .

الزمخشري : أبو القاسم جاد الله ، محمود بن عمر الزّمخشري الخوارزمي ، الكشاف ، الحلبي ، ١٣٦٧هـ ١٩٤٨م

السيوطي : جلال الدين السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن ، مصر ١٣٦٨هـ

الغزي : الشيخ عبد الله العلمي الغزي الدمشقي ، مؤتمر تفسير سورة يوسف عليه السلام ، مطابع دار الفكر بدمشق ، الطبعة الأولى ١٣٨١هـ ١٩٦١م

قطب : سيد قطب ، في ظلال القرآن ، الطبعة الأولى ، الحلبي ، بدون تاريخ

فهـرست بالموضـوعات

الموضـــــوع	رقم الصفحة

الموضـــــوع	رقم الصفحة

الموضـــوع	رقم الصفحة
الفصـــل الثالث	**٣٣٣-٤٦٧**

الموضوع	رقم الصفحة

إصدارات إدارة النشر بتهامة

سلسلة : الكتاب العربي السعودي

صدر منها :

• الجبل الذي صار سهلا (نفد)	الأستاذ أحمد قنديل
• من ذكريات مسافر	الأستاذ محمد عمر توفيق
• عهد الصبا في البادية (قصة مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
• التنمية قضية (نفد)	الدكتور محمود محمد سفر
• قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا (نفد)	الدكتور سليمان بن محمد الغنام
• الظمأ (مجموعة قصصية)	الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
• الدوامة (قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
• غداً أنسى (قصة طويلة) (نفد)	الدكتورة أمل محمد شطا
• موضوعات اقتصادية معاصرة	الدكتور علي بن طلال الجهني
• أزمة الطاقة إلى أين؟	الدكتور عبدالعزيز حسين الصويغ
• نحو تربية إسلامية	الأستاذ أحمد محمد جمال
• إلى ابنتي شيرين	الأستاذ حمزة شحاتة
• رفات عقل	الأستاذ حمزة شحاتة
• شرح قصيدة البردة	الدكتور محمود حسن زيني
• عواطف إنسانية (ديوان شعر) (نفد)	الدكتورة مريم البغدادي
• تاريخ عمارة المسجد الحرام (نفد)	الشيخ حسين عبدالله باسلامة
• وقفة	الدكتور عبدالله حسين باسلامة
• خالتي كدرجان (مجموعة قصصية) (نفد)	الأستاذ أحمد السباعي
• أفكار بلا زمن	الأستاذ عبدالله الحصين
• كتاب في علم إدارة الأفراد	الأستاذ عبدالوهاب عبدالواسع
• الإبحار في ليل الشجن (ديوان شعر)	الأستاذ محمد الفهد العيسى
• طه حسين والشيخان	الأستاذ محمد عمر توفيق
• التنمية وجهاً لوجه	الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
• الحضارة تحد (نفد)	الدكتور محمود محمد سفر
• عبير الذكريات (ديوان شعر)	الأستاذ طاهر زمخشري
• لحظة ضعف (قصة طويلة)	الأستاذ فؤاد صادق مفتي
• الرجولة عماد الخلق الفاضل	الأستاذ حمزة شحاتة
• ثمرات قلم	الأستاذ محمد حسين زيدان
• بائع التبغ (مجموعة قصصية مترجمة)	الأستاذ حمزة بوقري
• أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة (تراجم)	الأستاذ محمد علي مغربي
• النجم الفريد (مجموعة قصصية مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
• مكانك تحمدي	الأستاذ أحمد محمد جمال
• قال وقلت	الأستاذ أحمد السباعي

- نبض — الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
- نبت الأرض — الدكتورة فاتنة أمين شاكر
- السعد وعد (مسرحية) — الدكتور عصام خوقير
- قصص من سومرست موم (مجموعة قصصية مترجمة) — الأستاذ عزيز ضياء
- عن هذا وذاك — الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
- الأصداف (ديوان شعر) — الأستاذ أحمد قنديل
- الأمثال الشعبية في مدن الحجاز — الأستاذ أحمد السباعي
- أفكار تربوية — الدكتور ابراهيم عباس نتو
- فلسفة المجانين — الأستاذ سعد البواردي
- خدعتني بحبها (مجموعة قصصية) — الأستاذ عبدالله بوقس
- نقر العصافير (ديوان شعر) — الأستاذ أحمد قنديل
- التاريخ العربي وبدايته (الطبعة الثانية) — الأستاذ أمين مدني
- المجاز بين اليمامة والحجاز (الطبعة الثانية) — الأستاذ عبدالله بن خميس
- تاريخ الكعبة المعظمة (الطبعة الثانية) — الشيخ حسين عبدالله باسلامة
- خواطر جريئة — الأستاذ حسن بن عبدالله آل الشيخ
- السنيورة (قصة طويلة) — الدكتور عصام خوقير
- رسائل إلى ابن بطوطة (ديوان شعر) — الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي
- جسور إلى القمة (تراجم) — الأستاذ عزيز ضياء
- تأملات في دروب الحق والباطل — الشيخ عبدالله عبدالغني خياط
- الحمى (ديوان شعر) — الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
- قضايا ومشكلات لغوية — الأستاذ أحمد عبدالغفور عطار
- ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة — الأستاذ محمد علي مغربي
- زيد الخير — الأستاذ عبدالعزيز الرفاعي
- الشوق إليك (مسرحية شعرية) — الأستاذ حسين عبدالله سراج
- كلمة ونصف — الأستاذ محمد حسين زيدان
- شيء من الحصاد — الأستاذ حامد حسن مطاوع
- أصداء قلم — الأستاذ محمود عارف
- قضايا سياسية معاصرة — الدكتور فؤاد عبدالسلام الفارسي
- نشأة وتطور الإذاعة في المجتمع السعودي — الأستاذ بدر أحمد كريم
- الإعلام موقف — الدكتور محمود محمد سفر
- الجنس الناعم في ظل الإسلام — الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول
- ألحان مغترب (ديوان شعر) — الأستاذ طاهر زمخشري
- غرام ولادة (مسرحية شعرية) — الأستاذ حسين عبدالله سراج
- سير وتراجم — الأستاذ عمر عبدالجبار
- الموزون والمخزون — الشيخ أبوتراب الظاهري
- لجام الأقلام — الشيخ أبوتراب الظاهري
- نقاد من الغرب — الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي
- حوار.. في الحزن الدافيء — الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
- صحة الأسرة — الدكتور زهير أحمد السباعي
- سباعيات (الجزء الثاني) — الأستاذ أحمد السباعي
- خلافة أبي بكر الصديق — الشيخ حسين عبدالله باسلامة

- البترول والمستقبل العربي — الأستاذ عبدالعزيز مؤمنة
- إليها .. (ديوان شعر) — الأستاذ حسين عبدالله سراج
- من حديث الكتب (ثلاثة أجزاء) — الأستاذ محمد سعيد العامودي
- أيامي — الأستاذ أحمد السباعي
- التعليم في المملكة العربية السعودية — الأستاذ عبدالوهاب عبدالواسع
- أحاديث وقضايا إنسانية — الدكتور عبدالرحمن بن حسن النفيسة
- البعث — الأستاذ محمد علي مغربي
- شمعة ظمأى (ديوان شعر) — الدكتور أسامة عبدالرحمن
- الإسلام في نظر أعلام الغرب — الشيخ حسين عبدالله باسلامة
- حتى لا نفقد الذاكرة — الأستاذ سعد البواردي

تحت الطبع :

- تاريخ القضاء في المملكة العربية السعودية — الأستاذ حسن بن عبدالله آل الشيخ
- معجم اللهجة المحلية في منطقة جازان — الأستاذ محمد بن أحمد العقيلي
- قصص من تاغور (ترجمة) — الأستاذ عزيز ضياء
- ماما زبيدة (مجموعة قصصية) — الأستاذ عزيز ضياء
- مدارسنا والتربية — الأستاذ عبدالوهاب عبدالواسع
- عام ١٩٨٤ لجورج أورويل (قصة مترجمة) — الأستاذ عزيز ضياء
- وجيز النقد عند العرب — الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي
- هكذا علمني ورد زورث — الشيخ أبوعبدالرحمن بن عقيل الظاهري
- وحي الصحراء — الأستاذ عبدالله بلخير، الأستاذ محمد سعيد عبدالمقصود خوجه
- الطاقة نظرة شاملة — الدكتور عبدالهادي طاهر
- طيور الأبابيل (ديوان شعر) — الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
- عمر بن أبي ربيعة — الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
- رجالات الحجاز (تراجم) — الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
- لا رق في القرآن — الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
- من مقالات عبدالله عبدالجبار — الأستاذ عبدالله عبدالجبار
- دعوة ودفاع — الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول
- إليكم شباب الأمة — الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول
- لن تلحد — الشيخ أبوعبدالرحمن بن عقيل الظاهري
- سرايا الإسلام — الشيخ أبوتراب الظاهري
- رحلات وذكريات — الأستاذ عبدالله حمد الحقيل
- التنمية قضية (الطبعة الثانية) — الدكتور محمود محمد سفر
- قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا (الطبعة الثانية) — الدكتور سليمان بن محمد الغنام
- غداً أنسى (قصة طويلة) (الطبعة الثانية) — الدكتورة أمل محمد شطا
- تاريخ عمارة المسجد الحرام (الطبعة الثانية) — الشيخ حسين عبدالله باسلامة
- خالتي كدرجان (مجموعة قصصية) (الطبعة الثانية) — الأستاذ أحمد السباعي
- الحضارة تحد (الطبعة الثانية) — الدكتور محمود محمد سفر
- الجبل الذي صار سهلا (الطبعة الثانية) — الأستاذ أحمد قنديل

سلسلة :

الكتاب الجامعي

صدر منهـا :

- الإدارة : دراسة تحليلية للوظائف والقرارات الإدارية — الدكتور مدني عبدالقادر علاقي
- الجراحة المتقدمة في سرطان الرأس والعنق (باللغة الإنجليزية) — الدكتور فؤاد زهران، الدكتور عدنان جمجوم، الدكتور محمد عيد
- النمو من الطفولة إلى المراهقة — الدكتور محمد جميل منصور، الدكتور فاروق سيد عبدالسلام
- الحضارة الإسلامية في صقلية وجنوب إيطاليا — الدكتور عبدالمنعم رسلان
- النفط العربي وصناعة تكريره — الدكتور أحمد رمضان شقلية
- الملامح الجغرافية لدروب الحجيج — الأستاذ سيد عبدالمجيد بكر
- علاقة الآباء بالأبناء (دراسة فقهية) — الدكتورة سعاد ابراهيم صالح
- مباديء القانون لرجال الأعمال — الدكتور محمد ابراهيم أبوالعينين
- الاتجاهات العددية والنوعية للدوريات السعودية — الأستاذ هاشم عبده هاشم
- قراءات في مشكلات الطفولة — الدكتور محمد جميل منصور
- شعراء التروبادور (ترجمة) — الدكتورة مريم البغدادي
- الفكر التربوي في رعاية الموهوبين — الدكتور لطفي بركات أحمد
- النظرية النسبية — الدكتور عبدالرحمن فكري، الدكتور محمد عبدالهادي كامل
- أمراض الأذن والأنف والحنجرة (باللغة الإنجليزية) — الدكتور أمين عبدالله سراج، الدكتور سراج مصطفى زقزوق
- المدخل في دراسة الأدب — الدكتورة مريم البغدادي
- الرعاية التربوية للمكفوفين — الدكتور لطفي بركات أحمد
- أضواء على نظام الأسرة في الإسلام — الدكتورة سعاد ابراهيم صالح
- الوحدات النقدية المملوكية — الدكتور سامح عبدالرحمن فهمي
- الأدب المقارن (دراسة في العلاقة بين الأدب العربي والآداب الأوروبية) — الدكتور عبدالوهاب علي الحكمي

تحت الطبع :

- هندسة النظام الكوني في القرآن الكريم — الدكتور عبدالعليم عبدالرحمن خضر
- تاريخ طب الأطفال عندالعرب — الدكتور محمود الحاج قاسم
- المنظمات الاقتصادية الدولية — الدكتور حسين عمر
- الاقتصاد الاداري — الدكتور فرج عزت
- التعلم الصفي — الدكتور محمد زياد حمدان

سلسلة :

رسائل جامعية

صدر منها :

- صناعة النقل البحري والتنمية في المملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية) — الدكتور بهاء حسين عزّي
- الخراسانيون ودورهم السياسي في العصر العباسي الأول — الأستاذة ثريا حافظ عرفة
- الملك عبدالعزيز ومؤتمر الكويت — الأستاذة موضي بنت منصور بن عبدالعزيز آل سعود
- العثمانيون والإمام القاسم بن علي في اليمن — الأستاذة أميرة علي المداح
- القصة في أدب الجاحظ — الأستاذ عبدالله باقازي
- تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف — الأستاذة فوزية حسين مطر
- النظرية التربوية الإسلامية — الأستاذة آمال حمزة المرزوقي
- نظام الحسبة في العراق .. حتى عصر المأمون — الأستاذ رشاد عباس معتوق
- المقصد العلي في زوائد أبي يعلي الموصلي (تحقيق ودراسة) — الدكتور نايف بن هاشم الدعيس
- الجانب التطبيقي في التربية الإسلامية — الأستاذة ليلى عبدالرشيد عطار
- الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية — الأستاذ نبيل عبدالحي رضوان
- دراسة ناقدة لأساليب التربية المعاصرة في ضوء الإسلام — الأستاذة فتحية عمر الحلواني

تحت الطبع :

- دور المياه الجوفية في مشروعات الري والصرف بمنطقة الإحساء بالمملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية) — الدكتور فايز عبدالحميد طيب
- دراسة اثنوغرافية لمنطقة الحسا (باللغة الإنجليزية) — الدكتور فايز عبدالحميد طيب
- افتراءات فيليب حتي وكارل بروكلمان على التاريخ الإسلامي — الأستاذ عبدالكريم علي باز
- الطلب على الإسكان من حيث الاستهلاك والاستثمار — الدكتور فاروق صالح الخطيب
- الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المدينة المنورة في صدر الإسلام — الأستاذة نورة عبدالملك آل الشيخ
- تقييم النمو الجسماني والنشوء — الدكتورة ظلال محمود رضا
- العقوبات التفويضية وحكمة تشريعها في ضوء الكتاب والسنة — الدكتور مطيع الله دخيل الله اللهيبي
- العقوبات المقدرة وحكمة تشريعها في ضوء الكتاب والسنة — الدكتور مطيع الله دخيل الله اللهيبي



صدر منها :

- حارس الفندق القديم (مجموعة قصصية) — الأستاذ صالح ابراهيم
- دراسة نقدية لفكر زكي مبارك (باللغة الانجليزية) — الدكتور محمود الشهابي
- التخلف الإملائي — الأستاذة نوال عبدالمنعم قاضي
- ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودية — إعداد إدارة النشر بتهامة
- ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودي (باللغة الانجليزية) — إعداد إدارة النشر بتهامة
- تسالي (من الشعر الشعبي) (الطبعة الثانية) — الدكتور حسن يوسف نصيف
- كتاب مجلة الأحكام الشرعية على مذهب الإمام أحمد بن حنبل الشيباني (دراسة وتحقيق) — الشيخ أحمد بن عبدالله القاري، الدكتور عبدالوهاب إبراهيم أبوسليمان، الدكتور محمد إبراهيم أحمد علي
- النفس الإنسانية في القرآن الكريم — الأستاذ إبراهيم سرسيق
- واقع التعليم في المملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية) (الطبعة الثانية) — الدكتور عبدالله محمد الزيد
- صحة العائلة في بلد عربي متطور (باللغة الإنجليزية) — الدكتور زهير أحمد السباعي
- مساء يوم في آذار (مجموعة قصصية) — الأستاذ محمد منصور الشقحاء
- النبش في جرح قديم (مجموعة قصصية) — الأستاذ السيد عبدالرؤوف
- الرياضة عند العرب في الجاهلية وصدر الإسلام — الدكتور محمد أمين ساعاتي
- الاستراتيجية النفطية ودول الأوبك — الأستاذ أحمد محمد طاشكندي
- الدليل الأبجدي في شرح نظام العمل السعودي — الدكتور عاطف فخري
- رعب على ضفاف بحيرة جنيف — الأستاذ شكيب الأموي
- العقل لا يكفي (مجموعة قصصية) — الأستاذ محمد علي الشيخ
- أيام مبعثرة (مجموعة قصصية) — الأستاذ فؤاد عنقاوي
- مواسم الشمس المقبلة (مجموعة قصصية) — الأستاذ محمد علي قدس
- ماذا تعرف عن الأمراض ؟ — الدكتور اسماعيل الهلباوي
- جهاز الكلية الصناعية — الدكتور عبدالوهاب عبدالرحمن مظهر
- القرآن وبناء الإنسان — الأستاذ صلاح البكري
- اعترافات أدبائنا في سيرهم الذاتية — الأستاذ علي عبده بركات
- الطب النفسي معناه وأبعاده — الدكتور محمد محمد خليل
- الزمن الذي مضى (مجموعة قصصية) — الأستاذ صالح ابراهيم
- مجموعة الخضراء (دواوين شعر) — الأستاذ طاهر زمخشري
- خطوط وكلمات (رسوم كاريكاتورية) (الطبعة الثانية) — الأستاذ علي الخارجي
- ديوان السلطانين — الأستاذ محمد بن أحمد العقيلي
- الامكانات النووية للعرب وإسرائيل — الدكتور صدقة يحيى مستعجل
- رحلة الربيع — الأستاذ فؤاد شاكر
- وللخوف عيون (مجموعة قصصية) — الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
- البحث عن بداية (مجموعة قصصية) — الأستاذ جواد صيداوي

• الوحدة الموضوعية في سورة يوسف	الدكتور حسن محمد باجودة

تحت الطبع :

• قراءات في التربية وعلم النفس	الأستاذ فخري حسين عزّي الدكتور لطفي بركات أحمد
• الموت والابتسامة (مجموعة قصصية)	الأستاذ عبدالله أحمد باقازي
• الأسر القرشية .. أعيان مكة المحمية	الأستاذ أبو هشام عبدالله عباس بن صديق
• الحجاز واليمن في العصر الأيوبي	الدكتور جميل حرب محمود حسين
• ملامح وأفكار	الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
• المذاهب الأدبية في شعر الجنوب	الدكتور علي علي مصطفى صبح
• النظرية الخلقية عند ابن تيمية	الدكتور محمد عبدالله عفيفي
• الكشاف الجامع لمجلة المنهل	الأستاذ عبدالله سالم القحطاني
• ديوان حمام	الأستاذ محمد مصطفى حمام
• رحلة الأندلس	الدكتور حسين مؤنس
• فجر الأندلس	الدكتور حسين مؤنس
• الماء ومسيرة التنمية	الأستاذ مصطفى نوري عثمان
• الدفاع عن الثقافة	الدكتور عبدالعزيز شرف
• من فكرة لفكرة	الأستاذ مصطفى أمين
• المجنونة اسمها زهرة عباد الشمس (ديوان شعر)	الأستاذة منى غزال
• الشعر المعاصر في ضوء النقد الحديث	الأستاذ على مصطفى عبداللطيف السحرتي
• ذكريات لا تنسى	الأستاذ محمد المجذوب

كتاب الناشئين

صدر منها :

مجموعة: وطني الحبيب	• جدة القديمة	الأستاذ يعقوب محمد اسحق
	• جدة الحديثة	الأستاذ يعقوب محمد اسحق
مجموعة: حكايات ألف ليلة وليلة :	• السندباد والبحر	الأستاذ يعقوب محمد اسحق
• الديك المغرور والفلاح وحماره		الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
• الطاقية العجيبة		الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
• الزهرة والفراشة		الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
• سلمان وسليمان		الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
• زهور البابونج		الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
• اليد السفلى		الدكتور محمد عبده يماني الأستاذ يعقوب محمد اسحق

تحت الطبع :

• سنبلة القمح وشجرة الزيتون	الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
• نظيمة وغنيمة	الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
• جزيرة السعادة	الأستاذة فريدة محمد علي فارسي

كتاب تهامة للأطفال

صدر منها :

- الصرصور والنملة — الأستاذ عمار بلغيث
- السمكات الثلاث — الأستاذ عمار بلغيث
- النخلة الطيبة — الأستاذ اسماعيل دياب
- الكتكوت المتشرد — الأستاذ عمار بلغيث
- المظهر الخادع — الأستاذ عمار بلغيث
- بطوط وكتكت — الأستاذ اسماعيل دياب

مجموعة : لكل حيوان قصة — للأستاذ يعقوب محمد اسحاق

- القرد • الكلب • السلحفاء • الأسد • الحمار الأهلي • الفرس • الغزال • الوعل • الضفدع
- الضب • الغراب • الجمل • البغل • الفراشة • الدجاج • الحمار الوحشي • الجاموس • الدب
- الثعلب • الأرنب • الذئب • الفأر • الخروف • البط • الببغاء • الحمامة • الخرتيت

- البـــوم • البجـــع • الهدهـد • الكنغـــر
- الخفـــاش • النعـــام • فرس النهر • التمســـاح

مجموعة: حكايات كليلة ودمنه — إعداد : الأستاذ يعقوب محمد اسحاق

- عندما أصبح القرد نجارا
- أسد غررت به أرنب
- الغراب يهزم الثعبان
- المكاءالتى خدعت السمكات

تحت الطبع

- لقد صدق الجمل
- سمكة ضيعها الكسل
- الكلمة التى قتلت صاحبتها
- قاض يحرق شجرة كاذبة

مجموعة: التربية الإسلامية — للأستاذ يعقوب محمد اسحاق

- الله أكبر • الصلاة • صلاة العيدين • صلاه مسبوق • الشهادتـــان • التيـــمم
- قد قامت الصلاة • الاستخارة • صلاة الجمعه • أركان الاسلام • الـوضـــوء
- صلاة الجنازة • صلاة الكسوف والخسوف

مجموعة: حكايات للأطفال — نقلها إلى العربية الأستاذ عزيز ضياء

- سعاد لا تعرف الساعة
- ضيوف نار الزينة
- الحصان الذى فقد ذيله
- الضفدع العجوز والعنكبوت
- تورتة الفراولة

كتب صدرت باللغة الانجليزية

Books Published in English by Tihama

- Surgery of Advanced Cancer of Head and Neck.

  By : F. M. Zahran
  A.M.R. Jamjoom
  M.D. EED

- Zaki Mubarak: A Critical Study.

  By Dr. Mahmud Al Shihabi

- Summary of Saudi Arabian
  Third Five year Development Plan

- Education in Saudi Arabia, A Model with Difference **Second Edition'**
  By Dr. Abdulla Mohamed Al-Zaid.

- The Health of the Family in A Changing Arabia
  By Dr. Zohair A. Sebai

- Diseases of Ear, Nose and Throat

  By : Dr. Amin A. Siraj
  Dr. Siraj A. Zakzouk

- Shipping and Development in Saudi Arabia
  By Dr. Baha Bin Hussein Azzee

- Tihama Economic Directory.
- Riyadh Citiguide.
- Banking and Investment in Saudi Arabia.
- A Guide to Hotels in Saudi Arabia.
- Who's Who in Saudi Arabia.